

آلهة أخرى
بيزل باك

- ♦ المؤلف: بيرل باك
- ♦ العنوان : آلهة أخرى
- ♦ ترجمة : محمد زغلول أحمد
- ♦ طبعة آفاق الأولى 2021
- ♦ تصميم الغلاف: عمرو الكفراوي
- ♦ مستشار النشر: سوسن بشير
- ♦ المدير العام: مصطفى الشيخ



رقم الإيداع:

٢٠٢٠ / ١٣٩٨٧

الترقيم الدولي : ISBN

978 - 977-765 - 275 - 9

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form, or by any means without prior permission in writing from the publisher.

Afaq Bookshop & Publishing House

1 Kareem El Dawla st. - From Mahmoud Basiuny st. Talaat Harb

CAIRO – EGYPT - Tel: 00202 25778743 - 00202 25779803 Mobile: +202-01111602787

E-mail: afaqbooks@yahoo.com – www.afaqbooks.com

١ شارع كريم الدولة- من شارع محمود بسيوني - ميدان طلعت حرب- القاهرة - جمهورية مصر العربية

ت: ٢٥٧٧٨٧٤٣ - ٠٠٢٠٢ ٢٥٧٧٩٨٠٣ - موبايل: ٠١١١١٦٠٢٧٨٧

بيرل باك
آلهة أخرى
رواية

ترجمة

محمد زغلول أحمد

آفاق للنشر والتوزيع

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشؤون الفنية

باك، بيرل.

بيرل باك : آلهة أخرى

ترجمة: محمد زغلول أحمد

ط 1 القاهرة - دار آفاق للنشر والتوزيع - 2021

624 ص، 21 سم.

رقم الإيداع 13987 / 2020

الترقيم الدولي 9 - 275 - 765 - 977 - 978

1 - الأدباء (روايات)

2 - باك، بيرل

الإهداء المترجم

إلى مَنْ أُنْعَشَ في ذاكرتي الجذور
وأيقظ في نفسي الحب لفن الترجمة
ثم توارى
ولكنني أثق أنه سيعود .. وبقوة
وإلى أسرتي
إيمان ورؤى وآدم
الذين كابدوا مشقة غيابي وانشغالي
لإنجاز هذا العمل
من أجل جمهور القراء
إليكم جميعاً

مقدمة

هذا الكتاب مُهدى بتواضع حقيقي إلى كل التعساء من البشر، الذين أنزلتهم مخلوقاتٌ مثلهم منزلة الآلهة. سواء كان ذلك بسبب حادث عارض أو آخر، وللحظة ما أو إلى الأبد. فكان القليل من بينهم عظيمًا بما يكفي لحمل الألوهية، بينما لم يكن السواد الأعظم منهم كذلك.

وليست القضية هي قدرتهم على تحمل تبعات تلك المكانة، ذلك أنهم أنفسهم قد فقدوا أهميتهم بالنسبة لأولئك الذين اختاروهم لذلك الدور، ووضعوهم موضع العبادة والتقديس. هكذا صُنِعُوا رموزًا، وحين أجبرتهم على تلك الهيئة السماوية، أشدَّ القوى بأسًا على ظهر الأرض، وهي حاجة البشر الملحة والدائمة لوجود الإله؛ ضلوا الطريق.

ولن يعلم أي إنسان قط حقيقة مثل هذا الشخص كما كان مقدراً له أن يكون، أكثر مما يمكن لأي بشري أن يدرك ما يعنيه الدالاي لاما في مرتفعات التبت. فهو عجوز بالأمس، طفل اليوم، كل ما كان يمكن أن تكون عليه حياته كرجل أو زوج أو أب، أو حتى مجرد مواطن عادي في إحدى الولايات؛ لن يكون أبداً. فقد حُرِم أن يعيش حياته كرجل عادي بين البشر. ويا للأسف أن خسارته تلك، شأنه في ذلك شأن كل الآلهة الأخر، لا يمكن تعويضها.

في الصفحات القادمة، ومن قبيل الملاءمة، سوف ندعوه بيرت هولم. هو مجرد اسم كأي اسم آخر، وربما يراه القراء مثل هذا الشخص أو ذاك من بين أولئك الذين يعرفونهم. ولكنه ليس أيّاً منهم، فبقدر ما يبدو مثل واحد؛ فهو أيضاً يبدو مثل الكل. كما أن المرأة التي تحاول أن تكون زوجته، هي رمز لكل النساء الحقيقية، ممن يتمتعن بالحساسية، واللاتي تتزوجن بأحد الآلهة غير مدركات لما يُقدّمن عليه. ذلك أن جميع أولئك الآلهة سواء، حتى وإن كانت هناك بعض الاختلافات في البدايات، فإنها سرعان ما تزول وتنمحي، مثل ما يحدث في بعض البلدان لوجوه التماثيل الحجرية التي يعبدها شعوبها، فإن معالمها تتلاشى تدريجياً وبذات الطريقة، بعد أن مسّتها وتمسحت بها أيادي الملايين من العاشقين والمتضرعين. وهذا التشابه لا يوجد فقط في وجوه الآلهة، ففي قلوبهم يشيع ذات الإحساس بالمرارة. سواء طالت ساعات شعورهم بالألوهية أو قصرت، وسواء أحبت قلوبهم ذلك الشعور أو ازدردته.

وعلى الرغم من أن الفكرة الرئيسة لهذا العمل الروائي تُعتبر جزءاً
من الحياة الأمريكية كما هي عليه اليوم، إلا أن أيّاً من شخصياته لا تُعبّر
عن أناس حقيقيين، وأن القصة بكاملها من وحي الخيال.

المؤلف

الفصل الأول

من بين سلسلة جبال الهيمالايا، تقف قمةً بعينها سامقةً، معلومة جيداً لكل محبي تسلق الجبال، ولكنها ظلت لفترة طويلة عصية البلوغ بعيدة المنال، وبقدر ما هي شامخة حقاً شأنها شأن الكثير غيرها من القمم الأكثر شهرةً، فإنها تُطلُّ بوجه بغيض منفرٍّ لأولئك الرجال الذين يستحثهم كل مجهول، لكي يتركوا الأرض المنبسطة في الأسفل حيث يستطيع الناس الحياة، ليصعدوا وراء تلك القمم العالية حيث لا يمكن لأحد أن يحيا هناك، لمجرد أنها تخترق سماءً بالغة الارتفاع.

ثيرات، والتي على الرغم من كونها ليست على قدر ارتفاع قمة إفرست، إلا أنها كانت شديدة الارتفاع لتسليقٍ ممتع. ينظر العديد من متسلقي الجبال إلى هيئتها التي تشبه أكتاف إنسان باسقة في السماء، حصينة بمنحدراتها الحادة، ويقولون: «إذا استطعنا أن نتسلق قمة ثيرات، فإنه يمكننا أن نقوم أيضاً بتسلق قمة إفرست»، ولأن ثيرات تقع فيما بين إفرست وبعض القمم الأخرى الأقل ارتفاعاً، فقد ظلت بمنأى عن غزوات المغامرين، إلى ما بعد الظهيرة من أحد أيام شهر يوليو، في

عام نتذكره جيداً الآن، عندما قام شاب أمريكي يُدعى بيرت هولم بتسلق ذلك الجرف الجليدي الذي كان يفصله عن ذروة ثيرات، ووصل إلى قمته بمفرده.

لم يُدرّ بخلده أن هذا العمل الفذ قد لا يمت إلى المجد بصلة، ويرجع ذلك، إلى حد ما، إلى أن خياله لم يكن ليحمله إلى ما هو أبعد من اللحظة الحاضرة، وبشكل جزئي أيضاً، لأنه بمجرد أن بلغ القمة وبدأ يتخذ طريق العودة في رحلة الهبوط عائداً أدراجه، تنبّه إلى ما يمكن أن يقوله السير ألفريد فيساداي مدير البعثة البريطانية للأرصاد الجوية في ثيرات عن هذا الأمر.

وهذا الإنذار قد ازداد حدة بحلول نهاية يوم موعود منذ الصباح أن يكون أحد تلك الأيام فوق الهيمالايا والتي تبدو كأنها بلا نهاية، تشرق شمسها في الصباح الباكر، وتغرب بحلول المساء، إنه ذلك الوعد الذي منحه الدافع لأن يخلف الجميع وراءه، ويتسلق وحيداً عندما بدا له أن البعثة غير قادرة على المضي قدماً.

بيرت هولم لم يكن لديه ما يفعله على الإطلاق ليكون فوق الجبل، لم يكن سوى ذلك الفني الميكانيكي الذي أحضره السير ألفريد ليقوم بإدارة وصيانة شاحتي الكاتيربيللر الأمريكيتين اللتين تم إحضارهما خصيصاً إلى تلك المنطقة لأغراض البحث، ولذلك كان يتوجب عليه أن يظل كما ينبغي إلى جوار الشاحتين عندما توقفتا عند سفح الجبل. ولكنه كان يعلم منذ البداية أنه بمجرد أن يحين الوقت؛ فلن يبقى إلى جوارهما مجدداً. وما إن بدأت البعثة أعمالها أعلى الجبل، حتى ظهر

هو أمام السير ألفريد ممسكًا بخوذته المملوطة بالشحوم والزيت بين يديه، ترتسم ابتسامة عريضة على وجهه الشاب شديد الوسامة، والتي وجدها السير ألفريد -بنقاء سريره وطيبة قلبه الإنجليزي الكتوم- برهانًا ليس من اليسير إنكاره.

«حسنًا، بيرت هولم»، كان السير ألفريد قد لاحظ ذلك مع تحفظه عليه، وكلما شعر بذلك الضعف خلف ضلوعه، كان يحاول حماية نفسه منه.

اقترب بيرت هولم من السير ألفريد وسأله: «هل يمكنني التحدث إليك، سيدي السير ألفريد؟».

أجابه السير ألفريد: «يمكنك ذلك».

قال بيرت: «أرجوك يا سيدي، هل يمكنني أن أذهب معك إلى أعلى الجبل؟».

تعجب السير ألفريد من ذلك، مجرد فني ميكانيكي، شاب لم يختبر تسلق الجبال يومًا في حياته، يعرض نجاح مغامرة كهذه للخطر؟ والتي يتميز جميع أعضائها المؤثرين، باستثناء خبير الأرصاد الجوية السيد نيفيل لين، بأنهم من المدربين جيدًا على تسلق جبال الهيمالايا أو ضباط النادي البريطاني لمتسلقي الهيمالايا؟

أجابه السير ألفريد: «بكل تأكيد لا»، وهو ينظر بعيدًا عن وجه الفتى الشاب، ويتأمل المنظر البائس لريف التبت رغم الطبيعة الساحرة من حوله فيما وراء باب خيمته.

عاد بيرت يلح بجديّة: «تسلقت كثيرًا عندما كنت في البيت، تسلقت كل شيء في ولاية نيويورك كان أعلى من التل، وبعدها، وذات مرة في الصيف، هربت من البيت وتسلقت مرتفعات في جبال (روكي)، وفي عام آخر تسلقت قمتي (بايك) و(رينيه)».

أجاب السير ألفريد: «إنها بعثة علمية، وليس مجرد حفل تسلق، إلى جانب أنك موجود هنا فقط من أجل الاعتناء بآلات الحفر والماكينات». ردها عليه بيرت بشيء من العناد: «أعرف جيدًا يا سيدي السبب الذي أحضرني من أجله، ولكنه ليس بالضبط ما أتيت أنا من أجله».

نظر إليه السير ألفريد مجددًا، فعلى حد علمه، وحتى تلك اللحظة، لم يسمع بيرت يتفوه بكلمة واحدة طوال تلك الرحلة، الأمر الذي أثار في نفسه بعضًا من الفضول، فسأله مباشرة: «ولماذا أتيت؟».

أجابه بيرت ببساطة: «لكي أتسلق».

ظل السير ألفريد صامتًا، كان أكثر من مجرد عالم، وكان يعي ذلك تمامًا في نفسه، فلو أنه كان مجرد عالم فحسب، لم يكن ليضع نفسه في لحظة كهذه داخل خيمة ملقاة خارج إحدى قرى التبت المزرية. بل كان ليمارس عمله في معمل مريح في إنجلترا، بيد أن السير ألفريد كان قبل كل شيء عاشقًا للجبال، ولأنه كان يرتاب كلفة في أمر الحب، في أي صورة كان، فلم يجد ما يستطيع تبرير ذلك التساهل إلا شيئًا يبدو تطبيقيًا مثل العلم. وقد كان ذلك هو السبب وراء اصطحابه للسيد نيفيل لين على الرغم من أن نظراته الفاحصة قد أنبأت به بأن لين لا يصلح للعمل في الجبال.

سأله السير ألفريد وهو يجذب شحمة أذنه كما اعتاد أن يفعل دائماً عندما يكون في حالة من الشك والارتياب حيال أمر ما: «إِذْنُ فَأَنْتَ تحب التسلق، حقاً؟».

أجابه بيرت: «أنا أفضل التسلق على تناول الطعام». ثم أضاف بابتسامة عذبة: «وأنا أفضل تناول الطعام على أي شيء آخر».

كان هناك سحر يفوق المعتاد في هذا الشاب، وقد بدا ذلك واضحاً للسير ألفريد، لم يكن قد لاحظته قبل الآن، إلا لكي يمنح موافقته على الطاقة وقوة التحمل البادية على بيرت بقامته الطويلة وأكتافه المربعة. ولكنه الآن وبحق سحر لا يمكن تجاهله. إنه يتدفق منه، مركّب يجتمع فيه الشباب مع الجمال الوضّاح، الصحة مع البساطة، لم يعلّمه أحد شيئاً من ذلك، ولكنه بطريقة ما لا يحتاج لأن يتعلم شيئاً، بنوع من الاكتفاء الذاتي اللاواعي. إن هذا الشاب يبدو كأنه في بيته في أي مكان. هكذا كان يعتقد، ولذلك كان يحبه.

سعل السير ألفريد ثم لوى أنفه بشدة، وكان هناك طفلان صغيران من إحدى قرى التبت بهيئة قذرة، يختلسان النظر عبر باب الخيمة، ثم لاذا بالفرار بمجرد أن وقعت عيناه عليهما.

فقال لبيرت بوجه عابس: «لن تطلب أي معاملة خاصة؟».

أجاب بيرت بثقة مستحثاً إياه: «لا يا سيدي». لذلك كان العجوز على وشك أن يدعه يذهب! ثم استسلم السير ألفريد لنداء قلبه. كان محظوظاً لأنه ليس لديه أبناء، كان يقول لنفسه إنه كان ليفسدهم.

قال السير ألفريد وهو يتحول للاهتمام ببعض الأوراق بين يديه:
«حسنًا» ثم أردف: «ولكن، لتضع في حسابك، لا أريد أن أسمع شيئًا
منك، ولا أريد أن أعرف أنك هناك بأعلى الجبل».

أجاب بيرت بفرح: «لن يحدث يا سيدي»، واختفى على الفور.
كان قد علم منذ قليل بأن بيرت ظل بالقرب منهم على طول الطريق،
حتى أسبوع مضى، عندما كانوا على بعد ثمانمائة قدم فقط من بلوغ قمة
ثيرات، ثم حدث أن تطورت لدى السيد نيفيل لين عدوى التهاب رئوي،
الأمر الذي أجبر البعثة على التوقف تمهيدًا للعودة من حيث أتوا. ولم
يكن أحد منهم قد فقد أثر بيرت حتى وقت قيامهم بإعداد معسكر المبيت
في تلك الليلة. كان المكان مزريًا بالنسبة لموقع لمعسكر مبيت، ولكن
نظرًا للحالة الصحية السيئة التي صار عليها لين فلم يكن في الإمكان
البحث عما هو أفضل من ذلك. كان الحمالون التبتيون يتحسسون
طريقهم وسط الخيام، ويثنون من شدة البرد، ويكون من فرط خوفهم
من (الميركا)، رجال الثلج الذين يعتقد أهل تلك المنطقة بأنهم يسكنون
الجبال.

وهنا صرخ السير (ألفريد): «أين هولم؟».

وتبين أن هولم ليس موجودًا، لم يره أحد طوال اليوم، السير
ألفريد كان مكتفيًا بما يعانیه من الإجهاد نظرًا لتوتره الشديد، وأيضًا
لكل المسؤوليات الملقاة على عاتقه في تلك اللحظات، إلى أن بدأ
يفقد أعصابه ويتخلى عن هدوئه وهو يصرخ: «ثق دائمًا، أنك لن تجد
الأمريكيين عندما تريدهم».

ولكن هولم لم يظهر حتى ينكر عليه تلك الفكرة أو يُحاجّه فيها، ولم يكن لدى السير ألفريد ما يفعله سوى أن يخرج بنفسه للضغط على الحماليين وتهديدهم لإجبارهم على طاعته. بينما كان في قرارة نفسه مشفقاً عليهم من إحساسهم بالرعب. حيث كان ثيرات في ذلك الوقت المتأخر من الليل يبدو مروّعاً أكثر من أي وقت آخر، كما أن القمر كان في كامل هيئته مهيباً مكلّلاً بالجلال، وقت بزوغه فوق المنحدرات الثلجية، ولكن -على الرغم من ذلك- لم تكن أشعته الباردة الشاحبة تضيف للمشهد سوى المزيد من الرهبة.

ذهب إلى خيمة السيد لين المريض، وهناك -ومن بين كل ما يشغل باله في تلك اللحظة- شعر بالقلق حتى الغثيان بشأن بيرت هولم، وتصور أنه قد فقد لا محالة بين بعض منحدرات جبل ثيرات الجليدية. وبرغم أنه ما زال أيضاً ناقماً عليه؛ إلا أن ذلك لم يفلح في الحد من قلقه ومخاوفه.

وبعد منتصف الليل بقليل، سمع شخصاً ما خارج باب خيمته المُسدل، فخرج إليه، وهناك -وسط ذلك البريق السماوي للقمر وهو يغوص في كبد السماء- رأى بيرت هولم، كان يمكن أن يبكي من فرط شعوره بالارتياح. إلا أن حالة لين قد ازدادت سوءاً، لذلك فقد تحولت مشاعره إلى الغضب الشديد، فراح صوته يهدر بشدة، في وجه بيرت قائلاً: «أين كنت يا سيدي؟!».

أجاب بيرت: «فوق القمة».

صرخ السير ألفريد: «هراء».

عاد بيرت يكرر: «نعم، كنت هناك».

راح السير ألفريد يحدق فيه، كانت كل خلجة من خلجات الشاب ترتعد من فرط الإجهاد، كان وجهه - حتى في ضوء القمر - يبدو محترقاً وقد اكتسى بقشرة من الأضواء المنعكسة على الثلوج، ولكنه أدرك مغزى تلك النظرة في عينيه، كانت النظرة الصحيحة في موقف كهذا، والتي ارتجف لها قلبه.

ثم قال السير ألفريد: «يمكنك اعتبار نفسك مطروداً بسبب عصيانك ومخالفتك للتعليمات، وابتداءً من لحظة عودتك لموقع الماكينات؛ فأنت مسؤول عن نفسك، ولن تعود معي إلى إنجلترا».

أجاب بيرت في خفوت وهو يستقبل نظرات السير ألفريد المتغطسة، بنظرة وديعة مسالمة: «لا بأس سيدي السير ألفريد، إذا كان هذا هو ما تقول». فلم يعد يمكن أن يحدث شيء الآن مما قد يثير اهتمامه، بطريقة أو بأخرى.

ثم تابع حديثه: «أظن أنني سوف أعود بنفسي إلى البيت إذن سيدي السير ألفريد، بعد أن فعلت الآن ما أردت أن أفعله». وكانت تلك هي الكيفية التي توصل إليها بيرت هولم ليعود أدراجه عن طريق الصين.

وفي غضون أسابيع قليلة، كان كل فرد في أمريكا يعلم بما فعله، فقد ارتوت بتلك القصة أرواحهم العطشى لإنجاز مثل هذا، ذلك أن ما استطاع فعله (هولم) في ذلك العام المفعم بالعراقيل المحبطة، استقبله الناس بنوع من الرمزية العاطفية والتي ذهبت بالحدث ذاته إلى أبعد من مضمونه الحقيقي. فقد كان الناس يشعرون بالخذلان، وكانوا

خائفين جراء شعورهم هذا، كانوا يقولون إنه عبر حياتهم، هناك شيء ما يفتقدونه، شيء صالح وفتيّ ومفعم بالأمل. كان الوضع في العالم كله مربعاً بسبب ذلك الارتباك وتلك الحيرة، على الأقل لم يعد هناك شيء واضح من حيث الصواب أو الخطأ، بالطريقة البسيطة القديمة. عندئذٍ، ومن قلب مستنقع اليأس المسيطر على المشهد والسائد حينها، جاءت قصة بيرت هولم.

ثم راح الآلاف يتساءلون: هل هو حقاً بطل؟ كان هناك شيء من التردد لم يَدُم طويلاً بشأن تلك الفكرة، وتساءل البعض: هل يمكن لشخص أن يكون بطلاً في تسلق الجبال؟

وأجاب آخرون: «ولمَ لا؟» فقد تمكن الإنسان من استكشاف القطبين، والتحليق فوق المحيطات، ولكنه لم يخترع بعد وسيلة تمكنه من استكشاف النجوم، وبقيت القمم الهائلة لجبال الهيمالايا جميعها شيئاً معجزاً على الأرض. إلى أن استطاع بيرت هولم أن يتسلق واحدة من أعظمها جميعاً، لأنه تبقى قممًا (إفرست) و (بانجابات) فقط هما الأعلى ارتفاعاً من ثيرات، وكان بيرت بطلاً حقيقياً. فقد تحدى الأنهار الجليدية والفوالق الجبلية الخطرة، وكذلك المخاطر المحتملة للانهيارات الجليدية، واستطاع وحيداً في طريقه، أن ينجز ما لم تتمكن بعثة متمرسة ومدرّبة بكاملها على أعلى مستوى من إنجازه. حتى ولو كانت الإصابة بالتهاب رئوي سبباً مباشراً في فشل تلك البعثة، فإن هذا لا يغير من حقيقة نجاح بيرت هولم. بل كان دليلاً على ذلك.

كان أمريكياً، فمع كل ذلك لم تمت الروح القديمة، على الرغم من

أنه قد مضى وقت طويل على ظهور بطل حقيقي، في أمة لا بد أن يكون لديها أبطال. لقد صنعوا العديد والعديد منهم، أبطال في القيادة، أبطال في الحرب، أبطال في الاستكشاف وفي الطيران. وها قد جاء البطل الأخير، نوع جديد من الأبطال، بطل الجبال. في الأيام السالفة، كان يمكنه غرس العلم الأمريكي فوق قمة ثيرات، والذي يراه الأمريكيون الآن في مخيلتهم كأنه هناك.

تُرى مَنْ يكون؟ ومع وجود الملايين من الناشطين الذين يصرخون طلبًا لمعرفة حقيقته، فاجأ العديد من المراسلين بيرت هولم في سنغافورة وهونج كونج وشانجهاي وبكين، والذي أجابهم في خجل، أنه لم يكن شيئًا يُذكر، كيف علموا بشأنه؟ كان يتساءل بارتياح: «ما هي حيلتكم؟ أخبروني»، فتعالى ضحكاتهم الصاخبة، غير مصدقين لبراءته. وعندما أدركوا أنه لم يكن يتظاهر بذلك، أوضحوا الأمر بأن السير ألفريد فيساداي كان قد ذكر شيئًا عن هذا في (كالكوتا)، واستطاع مراسل أمريكي أن يلتقط الخبر، وأن يرسل برقية بالقصة كاملة إلى نيويورك في الحال. وبما أن الصحف والجرائد الإخبارية تستطيع بسرعة أن تستشعر نبض الجماهير، فقد طلبت عن طريق البرق أيضًا التفاصيل كاملة لتاريخ بيرت هولم، لعلهم يستطيعون التعرف على العوامل والظروف التي صنعت هذا البطل.

وقد كانت تلك العوامل جيدة بحق، فقد أخبرهم أن والده كان يعمل مزارعًا، بالقرب من مدينة (ميستي فولز) في المنطقة الشمالية من مدينة نيويورك، ولكن بيرت هولم شخصيًا لم يحب المزرعة كثيرًا، وبعد أن

أنهى دراسته الثانوية وجد وظيفة لفترة مؤقتة في أحد الجراجات، ولكنه لم يحب ذلك العمل أيضًا قط، كان يعشق التسلق أكثر من أي شيء في هذا العالم، وقد كان من ضمن خططه إذا لم يستطع الذهاب ضمن فريق هذه الرحلة؛ فإنه سوف يقوم بتسلق شلالات نياجرا في يوم من الأيام بطريقة ما من أسفل مساقط المياه، ربما في الشتاء عندما تتجمد. كما أن مدينة (ميسي فولز) نفسها كانت بالقرب من بعض الوديان والممرات العميقة، وقد اعتاد التسلق حول تلك المنحدرات في كثير من الأحيان. وأخذ يخبرهم بتلك القصة الهادئة مرارًا وتكرارًا، دون أن يضيف إليها شيئًا، أو أن يغير منها شيئًا. وكان يرى، على حد قوله، أنه لم يفعل شيئًا على أي حال يستحق هذه الجلبة المدوية على مستوى العالم، إن كل ما فعله لا يعدو كونه قد أتى من أجل تسلق أحد الجبال، ولم يُرد أن يعود للوطن قبل أن يتم له ما أراد.

ولكن ثمة نيران أعدت طويلًا، وأصبحت على أهبة الاستعداد للتأجج والانتشار، وما إن التقطت تلك القصة، حتى بدأت أمريكا كلها تقدس بيرت هولم.

عندما قال السير ألفريد بأنه كان أمرًا شديد الخطورة أن يذهب وحيدًا إلى قمة ثيرات كما فعل واستطاع تسلقها، راح الأمريكيون الذين يقرأون الصحف والجرائد الإخبارية يتذمرون ويؤكدون أنه كان بالفعل أمرًا خطيرًا، ولكن كذلك الثورة الأمريكية أيضًا كانت بغاية الخطورة! إلى جانب أن بيرت هولم قد فعلها حقًا، أليس كذلك، واستطاع العودة منها سالمًا أيضًا، لقد كان ذلك جنونيًا، ولكنه أمريكي أيضًا، وبيرت

هولم يقول: «نعم، إنه يظن أن الأمر كان جنونياً فعلاً»، ولكنه دائماً ما كان يفعل ما يريده، دون أن يسأل إن كان ذلك جنونياً أم لا، إذا كان ذلك هو فقط ما يريده.

وانطلق الملايين يهتفون ويصرخون، بأن هذا كان أمريكياً، هذه الفتوة والبساطة والشجاعة، هذا الخجل، لقد أعاد إليهم الأمل ثانية في أنفسهم، وبدأوا يؤمنون فعلاً بكل ما أرادوا أن يؤمنوا به بشأنه. كان هناك دائماً من يستطيع أن يروي قصة جديدة عن بيرت هولم، وتتدفق القصة من فم إلى فم، وليس هناك شخص ليسأل إن كانت تلك القصة حقيقة أم لا؛ لأنه لا أحد يريد من صميم قلبه أن يعلم الحقيقة، فالحقيقة كانت حزينه، وخالية من الرومانسية، لقد كانت تجعلهم يواجهون حقيقة أنهم ليسوا عالمًا جيدًا ولا دولة كاملة. ولذلك فإنهم أنفسهم كانوا يفتقدون الشعور بالأمان، لقد طرحوا الحقيقة جانباً، ولم يُرد أي منهم أن يعلم عنها شيئاً، وبديلاً عن ذلك، راحوا يضجّون في طلب معرفة ما يؤمن هو به. ومما يخرج عليهم به من قول أو فعل، بدأوا يُعدون وصاياهم الجديدة.

«بيرت هولم يقول إن اليابان تريد أن تقاتل الولايات المتحدة الأمريكية»، «هذا ما تقوله لهم عناوين الصحف اليومية»، «بيرت هولم يعلن أن الدفاع الوطني واهن»، «بيرت هولم يعتبر أن الطائرات وسيلة خطيرة»، «بيرت هولم يؤمن بأن العالم يحتاج إلى الدين»، أيًا كان ما يفعله، وأيًا كان ما يقوله، فإن الجماهير تأخذ ما يقوله إلى منوال خيالهم، وتنسج منه أردية سحرية لبطلهم بيرت هولم.

لذلك فإن أي أمر بسيط عنه، اعتبروه مادة خام جيدة لهم. لم يكن متزوجًا، لذا فإن أول شيء بدأ يسأله عنه المراسلون والصحافيون، «هل أنت متزوج يا سيد هولم؟». والذي أجاب عنه بيرت هولم بشكل مقتضب، وبعد برهة يسيرة من الصمت بالكاد يمكن ملاحظتها: «لا، لست متزوجًا». وبعدها، تابع حديثه موضِّحًا بأنه لم يكن في كثير من الأحيان يملك الوقت الكافي للفتيات. إلا أن ذلك أيضًا، أُضيف إلى مقدسات الجماهير.

كان شخصًا نقيًا، في زمان بدأ فيه الناس يشمئزون من خبائث أنفسهم، بل ذهبوا لأبعد من ذلك، بأن بدأ يملكهم الخوف من خستهم تلك، في الوقت الذي ظلوا فيه محتفظين في داخلهم ببقايا ذكريات دفينية عن أشياء كانوا قد تعلموها يومًا ما، وكانت موجودة بداخلهم، إلى أن بليت الآن واندثرت، كانت تُدعى الخطيئة والجحيم.

صاروا يصرخون منادين بيرت هولم أينما استطاعوا رؤيته يطالبونه بالعودة للوطن، على الرغم من أن صوره تملأ الجرائد اليومية، كان طويل القامة ذا بشرة شقراء، بهيَّة الطلعة، كأقصى ما يحبون أن يكون، تشع عيناه الزرقاوان من وجه حَبَّتْه الطبيعة بالجلال، إلى أن أضفت عليه تلك الابتسامة الطفولية الكثير، وبدلته كليَّةً. تنسدل خصلات شعره الناعمة مسترسلةً للأسفل على الدوام. التقطت صورة له في (شانجهاي) مرتديًا ملابس ومعدات التسلق أمام خلفية اصطناعية، وهو ينظر من وسط جليد الهيمالايا، إلى الملايين الذين يتطلعون إلى صورته تلك، على طاولات الإفطار في المطاعم وقطارات الأنفاق،

وفي مختلف المقاهي ومحطات السكك الحديدية والمنازل. كذلك في الغرف الخاصة بالنساء الوحيدات، الشابات منهن والعجائز، ينظر إليهن من داخل البراويز الرخيصة التي قمن بشرائها من أجل صوره، والتي اقتطعنها من المجلات والجرائد. وراحت تحلم به كل فتاة، وتهمس لنفسها في خفوت: «كم هو جميل!».

كان من المقرر عودة بيرت هولم إلى منزله في سبتمبر، لم يكن ينوي الإسراع بذلك، حيث ذكر أن الجميع أخبروه بضرورة أن يزور (بكين) طالما أنه متواجد بالصين. والناس يقرؤون ذلك، وبالكاد يكبحون جماح أنفسهم، ولكنهم يتسممون. لن يفسده شيء إذن، كما حدث لبعض الأبطال الذين رأوهم من قبل، لذا فقد تمكنوا بأمان من أن يسبغوا عليه تقديسهم، وأن يتفاخروا بتلك الطريقة التي عاش بها حياته ببساطة كمجرد ميكانيكي مخلص لعمله.

وقد فاض ذلك الدفء من قلوبهم، وتحول إلى منظمات ونوادٍ باسم بيرت هولم لجمع المال من أجل البطل، في تعبير عن ترحابهم بعودته للوطن، إلى أن حذّر رئيس نادي (الألب الأمريكي) من احتمالات ألا تصل كل تلك التبرعات إلى بيرت هولم، لذا فقد قام بإنشاء مكتب مركزي لجمع تلك الأموال بشكل رسمي، كما أعلن أنه بمجرد عودة بيرت للوطن؛ فسيجد نفسه رجلاً ثرياً.

وبالطبع، لم يُلقَ أي شخص بالآلما كان على السير ألفريد فيساداي أن يقوله، فلم يتبقّ له سوى أن يعلن أن البعثة قد انتهت. وبعدها، أعلن أنه سوف يحاول اقتحام الجبل ثانية، بصحبة فريقه من العلماء المدرّبين

جيدًا، ذلك أن الغرض من الرحلة بالأساس كان علميًا بحثًا.

ولكن أحيانًا، وفي نطاق بعض التجمعات الصغيرة، كان السير ألفريد يذهب لأبعد من ذلك قليلًا، ليقول بأن ما فعله الشاب (هولم) من الاندفاع نحو الوصول لقمة الجبل منفردًا، لا يحمل أي قيمة علمية في حد ذاته، كما أنه ليس هناك برهان يقيني على قيامه بالفعل ببلوغ تلك القمة. على الرغم من أنه لم يكن يشك في أنه قد فعلها حقًا. فليس هناك سبب لكي يعتقد بأنه غير أمين فيما أخبر. وعلى الرغم من البرودة الشديدة والارتفاع الشاهق الذي كانوا قد بلغوه حينها، فقد كان الجزء الأكثر مشقة في التسلق قد انتهى بالفعل حيث وصلوا وقاموا بإنشاء مخيم المبيت، وقت أن شعر السيد لين بالإعياء الشديد. فمن تلك النقطة وصاعدًا كان الانحدار متدرجًا، على الأقل حتى المائة قدم الأخيرة قبل القمة، بيد أن حالة الطقس هناك كانت بالطبع مريعة.

وفي عالم تسلق الجبال، لم يشعر يومًا بأنه يمكنه تحمل مسؤولية كتلك، عندما بدا له وبوضوح، أنه من الخطورة على رجاله المضي قدمًا وسط كل ذلك؛ ما جعله يؤثر حينها التوقف، وأن يتحرك بمزيد من البطء والأمان، حيث إنها بالأساس بعثة علمية، وليست مجرد رحلة مثيرة. إلى جانب أنه عندما يتعرض رجل بقيمة السيد نيفيل لين للعدوى وأن يكون مهددًا بالإصابة بالتهاب رئوي، فإنه من واجبه حينها أن ينزله من تلك الأعالي. وليس هناك شك، في أن اتخاذه لذلك القرار كان له عظيم الأثر في إنقاذ حياة الرجل.

ولكن السير ألفريد لم يقل شيئًا من هذا القبيل على الملاء، ابتسم

موافقاً فحسب، حين طلب منه الحديث عن بيرت هولم بما يُلهب حماس الجماهير، قائلاً: «بيرت كان ميكانيكياً جيداً، وعلى المرء أن يقول إنه لم يعبأ كثيراً بما فعله من إنجاز في حد ذاته، فهو على كل حال من فر هارباً كأرنب بري من الصحفيين والمصورين، في (كالكونا) على الأقل. وبلا أدنى شك، لم يكن لدى الشاب أدنى فكرة عما ينتظره في أمريكا». وعندما سألوا بيرت هولم عما يعتزم فعله بعد عودته إلى الوطن، أجاب بأنه لا يدري بعد.



كان يوماً حاراً في (بكين). وفي سماء المدينة، تعلقت غيمة رطبة غربية، لم تعدها تلك المدينة حتى في شهر أغسطس، وبمجرد حلول الظهيرة تحركت ببطء بفعل ثقلها، وغاصت متوغلة في السماء فوق الساحات والأزقة، وتخللت كافة الأماكن، حتى حي الأجانب، حيث العديد من الفنادق، وقد حملت معها ما لها من رائحة خانقة نوعاً ما إلى الغرفة التي يجلس فيها السيد والسيدة تالانت بصحبة ابنتهما كيت في صمت، مرتدين أرق الملابس الممكنة في طقس كهذا. كان الصمت يخيم على الجميع، إلى حد ما بسبب الإجهاد بعد جولة سياحية صباحية، ولكن -والى حد ما أيضاً- كان ذلك من قبيل المحبة والتفاهم العائلي، فحين يكون أحدهم مستغرقاً في شيء ما؛ فليس لأحد أن يقاطعه.

ولكن السيد تالانت كان قلقاً ومضطرباً، فنهض وراح يذرع الحجرة جيئةً وذهاباً، وهو يدخلن سيجاراً، ويلقي على زوجته نظرات عابرة بين الحين والآخر، والتي كانت ممسكة بالجريدة التي يريد أن يقرأها، وقد

نفد صبره في انتظار أن تنتهي من مطالعة صفحات أخبار المجتمع، فقد كان يريد أن يطالع الصفحات الهامة بحق، عن أخبار المال والأعمال. كما كان عليه أن يحسم أمره من أجل أن يرسل برقية لمدير المصرف الخاص به في نيويورك بشأن موضوع تدبير قرض صيني، في ذات الوقت الذي كانت فيه أسعار الفضة تهوي كل يوم كمظلة هوائية مثقلة بحملها، وذلك تحت تأثير التهديدات اليابانية باجتياح وغزو للصين.

جذب السيد تالانت أطراف ياقة قميصه المفتوحة بالفعل وهو يقول:

«أعتقد أنه حتى الطقس هنا في (بكين) قد أصبح أسوأ من المعتاد».

لم تسمع السيدة تالانت ما قاله زوجها، بينما اتجهت كيت بناظرها نحوه، بابتسامتها الخفيفة البطيئة، والتي دائماً ما كانت تنبع بمثل ذلك العمق من داخلها، وحالما تصل إلى عينيها السوداوين، وشفتيها الناعمتين المكتنزتين؛ كانت تملأ وجهها، إلا أنها نادراً ما كانت تحرك ساكناً.

كانت كيت تجلس إلى تلك الطاولة الصينية الصغيرة، مستخدمة إياها كمكتب صغير، مستغرقة في تدوين بعض الملاحظات في الكتاب الذي بيدها. كانت تبدو جميلة هادئة البال في زي منزلي خفيف من الحرير الأصفر النقي، غير أنها في تلك الفترة كانت تبدو أيضاً بنفس البهاء دائماً في الأزياء الخارجية. كان والدها يعرفها جيداً بشكل كافٍ ليدرك أن تلك الحالة لا تعدو كونها مجرد مظاهر خارجية فحسب تخفي شيئاً ما بداخلها، على الرغم من أنه يتظاهر بأنه ليس على دراية واسعة بأحوال النساء، ثابتاً على القناعة الشائعة لدى الرجال، بأنه لا

يمكن أبداً لأي كائن عاقل أن يفهم النساء. ومع ذلك -وعلى الرغم من أنه كان يكره النساء على وجه العموم- إلا أنه كان مغرمًا بزوجه وبناته، دون أن يشعر حقيقةً بأي احتياج أو حتى مجرد رغبة في فهم أي منهن. فقد كان رجلاً كثير المشاغل على أن يشغل ذهنه بمثل هذا النوع من الأمور.

وبلهجة حميمة رفيقة كما اعتاد دائماً، سأل زوجته السيدة تالانت: «هل أوشكتِ على الانتهاء من الجريدة يا دوت؟».

بدا من ظاهر الأمر أن السيدة تالانت لم تسمع هذا، ولكنها نظرت فجأةً إلى ابنتها كيت من أعلى طرف الجريدة العلوي وهتفت: «كيت، إن بيرت هولم موجود هنا في بكين».

لم تحر كيت جواباً، فقد كانت تنصت إلى شيء لم ينتبه إليه أي من والديها، فمن وسط الضجيج والضوضاء القادمة من الشارع عبر النافذة المشرعة، التقطت أذناها خيطاً رفيعاً من لحن مثير، يأتيها صوته من خلال عزفٍ على آلة الكمان الصينية ذات الوترين. فتوقفت عن الكتابة، وراحت ترسم بعض الأعمدة والخطوط السريعة، وتدون بعض الخربشات المبهمة على الورق. وعندئذٍ، بدا أن عازف الموسيقى قد انتحى جانباً أو توارى خلف أحد الأبواب، آخذاً لحنه معه، حاولت أن تنصت جيداً، وهي تفكر في حنق محدثة نفسها: «الآن لن أستطيع أن أعرف كيف كانت نهاية تلك المقطوعة!».

وهنا سألتها والدتها مجدداً: «كيت، هل سمعتني وأنا أقول لك بأن بيرت هولم موجود هنا؟».

أجابت: «أجل، سمعت ذلك يا أمي»، وضعت القلم من يدها، وأشعلت سيجارةً بفتور، مثلما كان شعورها وقتها. لم يكن هناك جدوى من تظاهرها بأنها لم تسمع اسم بيرت هولم من قبل، كانت مهتمة قليلاً بأن تكتشف ذلك الآن، على الرغم من أن أفكارها كانت عصرية جداً على أن تؤمن بفكرة الخلود والأبدية، إلا أن شيئاً من الفضول بدأ يتحرك بداخلها. فمنذ وقت طويل، يجاوز عدة أشهر على الأقل، لم تشعر ولو بالقليل من الفضول حيال اسم أي رجل، كانت لم تزل على علاقة حب مع نورمان، وكانت ترى أنه لا أمل لها في الحياة إلا في بقائها على حبه. لولا أنها كانت تعرف أن أي علاقة يمكن أن تنتهي بالطبع، فقط إذا كان المرء يستطيع أن يصمد عبر الأزمة حتى نهايتها.

عادت والدتها تسألها: «هل كنت تعلمين بأن بيرت هولم قادم إلى بكين؟».

أجابت: «كلا يا أمي، لم أكن أعلم بذلك».

تثاءبت السيدة تالانت وهي تغطي فمها بيدها، لم يكن من الممكن لأي شخص أن يخطئ في تحديد جنسيتها، فتلك الملامح العذبة، على الرغم من أنها لا تتمتع بقدر كبير من الجمال، وخطوط جسدها الحيوية النشطة حتى في أوقات الراحة والاسترخاء، وكذلك ما تتسم به إلى حد ما من قدر لطيف من الهيمنة، يعلن أنها أمريكية المولد والنشأة. ضحكت ضحكة خفيفة وهي تقول: «ستكون رؤيته شيئاً مجنوناً بعد كل تلك الجلبة والضجة التي أحدثها»، تثاءبت مرة ثانية، وناولت الجريدة لزوجها، وهي تبسم له ابتسامة زوجية متسامحة، قائلة بمرح: «دائماً أنت

رجل الأعمال العجوز الطيب»، ثم اتخذت منضدة صغيرة قريبة منها، لتشعل سيجارة وتبحث عن مجلة قديمة. وهي تتابع: «حسنًا، لا أريد إزعاج أحد منكم، ولكن الطقس حار بشكل مريع، أليس كذلك؟!».

وافقتها كيت بكلمة مقتضبة قائلة: «يبدو ملتهبًا»، ثم عادت إلى كتابها ثانيةً. وفي جو من الصمت الذي خيم على الجميع، حاولت أن تنهي ما تفعله، كانت لتطلق عليها «قصيدة سخيفة»، حريصة على ألا تأخذ نفسها على محمل الجد أكثر من ذلك. ولكنها لم تستطع الاستمرار، كان اللحن الذي استمعت إليه هو ما أثار تلك الخطوط في رأسها وساقها إلى الورق، كما لو أن الموسيقى المجهول الذي اختفى منذ قليل قد استعاد لحنه كاملاً ورحل. شعرت بحرارة الجو، وبيعض الضجر، وبدأت باضطراب ترسم عشوائيًا على الورق، رؤوسًا لأشخاص مجهولين. كان رأسها فارغًا، مع ما كانت تشعر به من التكاسل. ولكنها في الحقيقة، بدأت في التساؤل عن بيرت هولم وتسلق الجبال، وعن مغامراته تلك في المناطق النائية، كان الجميع قد علموا بشأنه منذ حوالي شهر مضى عندما غادروا منزلهم.

كانت تبدو في تلك الفترة كما لو أنها عمياء صماء لا تتكلم، في أول حالة تمر بها من الحزن والحسرة، ولكن، وسط كل هذا لم تستطع أن تمنع نفسها من سماع اسمه ومتابعة أخباره في عناوين الصحف اليومية، ومعرفة ولو القليل عما فعله.

لذلك الآن، وعلى الرغم مما تمر به وقلبها يسخر منها، إلا أنها راحت تستمع إلى ما تقوله لها والدتها، فعندما يفقد القلب حماسه

ويرفض الاهتمام بالأشياء، لا يتبقى للإنسان سوى القليل ليفعله، حتى (بكين) نفسها في ذلك الوقت أصبحت حزينة، وما بها من القصور، أصبحت مجرد حطام وأطلال لأحلام لم تكتمل.

تناولت السيدة تالانت الجريدة مرة أخرى في اللحظة التي تركها زوجها جانبًا ليقوم بجمع بعض الأرقام معًا، وبدأت تقرأ بصوت مرتفع، وبطريقتها المتموجة المعهودة مغممة بالكلمات في سرعة، آخر ما ذكرته الجريدة من تفاصيل عن بيرت هولم، «السيد هولم ما زال مع بعثة السير ألفريد فيساداي»، «تم استدعاء السير ألفريد للعودة إلى إنجلترا، ولكن السيد هولم سوف يعود أدراجه إلى الوطن مازًا في طريقه بالصين»، «القنصل الأمريكي سوف يقوم بدعوة السيد هولم اليوم إلى مأدبة غداء بالقنصلية الأمريكية...».

توقفت فجأة السيدة تالانت عن القراءة، وهي توجه حديثها لابنتها متسائلة: «ما الداعي! سوف نقابله اليوم إذن يا كيت!».

كان صوت السيدة تالانت يتسم بقليل من الإثارة، لا ترقى إلى درجة الحماس أو الظفر، فهي تنحدر من عائلة أمريكية عريقة. وكذلك السيد تالانت زوجها، وقد قابلت خلال حياتها العديد من الشخصيات الهامة، مما يبدو معه غريبًا أن تبدي شيئًا من الاهتمام والإثارة لمقابلة شخص مثل بيرت هولم. والذي رغم كل شيء، ينتمي لتلك الفئة التي اعتادت تسميتها، دون تعالٍ منها (عامة الشعب)، كما كان السيد تالانت يقوم بتقديم وعرض خدمات أعماله المصرفية من نيويورك إلى أغلب مدن وعواصم العالم، وكان الجميع في غاية السرور لمقابلته هو

وزوجته. بالإضافة إلى أن السيدة تالانت عندما كانت شابة، قد دُعيت ذات مرة إلى قصر (سانت جيمس) حيث البلاط الملكي في المملكة المتحدة، ولكنها رأت أن الأمر ليس جديرًا بالاستمرار في هذا النوع من الأشياء الزائفة. فقد كانت مؤمنة بالديموقراطية بقوة وحزم، على الرغم من ذلك الكم الذي تتمتع به من زهو وخيلاء، كما أنه كانت هناك أشياء عن المجتمع الأوروبي، حتى في ذلك الوقت، لم تكن راضية عنها.

ثم تابعت: «ليس هذا ما يمكن أن أهتم به، بكل تأكيد، بل على العكس فهذا مضحك جدًا، أليس كذلك يا روبرت؟ الميكانيكي الشاب يصبح بطل الأمة ما بين عشية وضحاها! قد يكون هذا عاطفيًا سخيفًا، ولكنه يروقني أيضًا». ثم خفت حدة بريق عينيها الزرقاوين.

ولكن برغم ذلك، كانت كيت غارقة في أفكارها، ترسم أشكالًا مربعة ودائرية مبهمة بلا معنى، فلا بد وأن يكون الأمر أبعد من مجرد ابن لأحد المزارعين، أبعد كذلك من مجرد ميكانيكي، ففي داخل جسد بيرت هولم الطويل، لا بد وأن يكون هناك خيال مبدع استطاع أن يقوده وحيدًا وقت الفجر، في الظلام ووسط الجليد. كم هي موحشة للغاية تلك القمم الجبلية هناك! كانت نفسها تشعر بالخوف من الوحدة، وليس من أن تكون وحيدة، ولكن مع حالة الانزواء الشديدة التي تعيشها حاليًا، والتي جعلتها تشعر بأنها وحيدة أيًا كان من بصحبته، إلا أنه لا يمكن أن يكون هناك في العالم بأسره ما هو أكثر وحشة ووحدة من قمة جبل لم يصلها إنسان من قبل. فكرت في تلك الأنفاس من الهواء التي قد تتنفسها لأول مرة، أن ترى ما لم تره عين بشر من قبل، وأن تعلم بأن

ذلك الجليد الذي يقف هناك، تقيع تحته صخور أزلية لم تمسها بعد يد الإنسان في الحاضر.

ثم قالت محدثة نفسها: «سوف أسأله عندما تسنح لي الفرصة بذلك، عما شعر به في تلك اللحظة».

وهنا قالت السيدة تالانت بعد تفكير عميق: «أنا أعتقد، أنني سأرتدي ثوبي الحريري المخطط، فهي على كل حال، ستكون مناسبة رسمية، أفترض يا روبرت، أنك سوف تجلس إلى اليسار، لمرة واحدة، حيث إنه من الطبيعي اليوم أن يتم منح المكان الشرفي للسيد بيرت هولم».

لم يُجب السيد تالانت للحظة، فقد تناول الجريدة منها مرة أخرى وشرع يقرأ ما فيها عن الأمر، وهو يحك جانبًا واحدًا من أنفه الكبير ببطءٍ بسبابته كما اعتاد أن يفعل. حيث كان من المقرر أن يتحدث مع القنصل الأمريكي اليوم عن ترتيبات القرض الصيني، بعد مأدبة الغداء. إذ كان ذلك هو السبب الرئيس لقدمه للصين، على الرغم من أنه لم يخبر زوجته أو ابنته شيئًا عن ذلك، فهما حتى الآن لا تعلمان سوى أنها مجرد إجازة، فقد كان يؤمن بأنه لا يجب الحديث مع نساء العائلة عن أمور العمل، فالعمل ليس من شأن النساء، بالإضافة إلى أنه كان يفخر دائمًا بأنه يجنب نساء عائلته ذلك النوع من الأمور. وقد كن يحظين بأوقات طيبة، وتسنع لهن الفرص لشراء الملابس الجميلة، أو الذهاب إلى أوروبا أو فلوريدا متى شئن ذلك. لم يكن لديه أبناء ذكور، وكانت ابنته الأخرى جايل متزوجة من أحد شركائه، والذي كان رجلًا جديرًا

بكل الاحترام والتقدير، أما بالنسبة لابنته كيت فقد كانت شيئاً صغيراً لطيفاً، على الرغم من تلك الانفعالات العصبية العارضة، والملتهبة أحياناً، تجاه أمور غير مفهومة، فقد أرسلها إلى أفضل المدارس والجامعات، حيث أسست أخوية (في بيتا كابا) حين كانت في الكلية، والتي هي من الأشياء التي ظلت مثار فخر بالنسبة لها، حتى ولو لم يكن هناك حاجة لذلك بالنسبة لامرأة. وحيث إنه يمكن بإنصاف أن نصفها بالجمال، فإنها بالطبع سوف تتزوج، على الرغم من أنه حتى الآن لم يجد ذلك الكم من الشباب يلتف حولها مثل الذي كان حول شقيقتها جايل وهي في مثل عمرها. كانت زوجته قد ذكرت شيئاً ما عن صديق لها، كان يُدعى لينلاي ذلك الشخص الذي كان كاتباً مسرحياً، ولكن الأمر لم ينتهِ إلى شيء، ثم عاد السيد تالانت ينظر إلى كيت، والتي كانت قد عادت للكتابة ثانيةً في كتابها، كم هي مخلوقة جميلة، بما لديها من عيين سوداوين هادئتين. كان يشعر بالفخر حيال المظهر الجميل لكل نساء عائلته، خاصة زوجته. وذلك عندما ينظر إلى النساء اللاتي يجد بعض الرجال أنفسهم مضطرين للاحتفاظ بهن حولهم، فيشعر بالشفقة والأسف تجاههم.

أجابها: «أنا لا يعينني أين سأجلس».

كان يتمنى لو أن الحكومة الصينية تستطيع أن توفر أي نوع من التأمين، لقد كره اليابانيين إلى الحد الذي جعله يقدم على أن يكتب في تلك القروض الصينية بنفسه. ومع ذلك، فلماذا يشعر بتلك الكراهية تجاه اليابانيين؟ لقد استقبله رئيس بنك (سبيتشي أوساكا) بحفل عشاء

هائل، فرأى أجمل ما في اليابان عندما كان هناك، هو إذن يكرهها من دون سبب محدد، ربما، ولكن هذا ما كان على أي حال. لا حيلة لأحد في ذلك، كما لا حيلة لأحد في الحب أيضاً. ولكن، السيد جيمس كارلتون القنصل الأمريكي، لم يضع بيرت هولم إلى يمين زوجته، ولا حتى إلى اليسار منها في الواقع، فقد جلس بيرت هولم في منتصف المنضدة الطويلة، وحيث إن الفتيات الجميلات البيضاء نادرات الوجود في بكين، فقد كانت كيت تالانت إلى جانبه، باعتبارها مؤقتاً، أكثر النساء الموجودات شباباً وجمالاً. وقد وصلت إلى المأدبة متأخرة، حيث ذهبت أولاً إلى أحد متاجر التحف، حيث تصادف أن شاهدت فيه منذ أيام بعض الأختام العاجية، وكان من بينها واحداً قد حاز إعجابها، على هيئة قمة جبلية منحوتة بعناية ودقة من العاج، مع صورة لرجل عجوز يتشبث بأحد جوانبها، ولكنها اليوم لم تكن واثقة من أنها تريدها برغم كل ذلك، فما الذي كان يمكنها أن تفعله بها؟ ظلت تفكر، بينما تقلبها بين يديها مرات ومرات. وهنا أدركت كم تأخرت كثيراً، فتركتها مكانها وانصرفت، بعد أن أخبرت البائع العجوز أنها سوف تقرر بشأنها فيما بعد، وأنها ربما تأتي لشرائها بعد انتهاء مأدبة الغداء. كان المدعوين يدخلون إلى قاعة الطعام عندما وصلت هي لغرفة الاستقبال بالقنصلية، ولم يكن لديها غير ثانية واحدة لتجد نفسها تصافح يد مضيفتها، وسمعتها وهي تهمس لها قائلة: «لقد اخترت لك مكانك إلى جوار الشاب يا عزيزتي».

وعندما بلغت مقعدها، كان هو هناك بالفعل، واقفاً بطوله الفارع

في صمت وهدوء. ولأول وهلة رأت أنه مجرد صبي، وهي تنظر إليه لأعلى في سرعة، ولحظتها، أحست أن كثيرًا من بريق شغفها بالأمر قد خبا. بعد ذلك جلس الجميع للحظة، ودار بخلدتها أنها لن تنطق بكلمة، فقط ستنتظر، إلى جانب أن الجميع كانوا ينظرون إلى بيرت هولم.

انحنى السيدة كارلتون تجاهه، وحاشية ردائها ذات الشرائط تتدلى عبر الطبق الموضوع أمامها، ثم وجهت التحية إلى بيرت هولم قائلة: «لا تسعني الكلمات للتعبير عما نشعر به نحوك من حماس وإثارة، يا سيد (هولم)».

وحول المائدة، اتجهت كل الأنظار إلى بيرت هولم. رأت كيت بأن ذلك كان شيئًا يصعب عليه مواجهته، كيف لأي إنسان أن يتجنب أن يبدو سخيًّا في أعين الآخرين! ولكن بيرت هولم قال بصوت حميم وبنبرة يافعة: «شيء جميل أني عدت»، وضحك ضحكة قصيرة، ثم أردف: «أظن أنك تعرفين ما أقصده يا سيدة كارلتون، أنا أقصد عودتي بين الأمريكيين مرة ثانية».

وانبعث شيء من بريق دافئ عبر المائدة. فما قاله كان ودودًا وبسيطًا بلا أي تكلف أو غرور. نظر إليه الجميع بودّ، ثم انصرفوا إلى تناول الطعام.

تناولت كيت ملعقتها وهي تفكر، ماذا يمكن لبطل أن يقول لفتاة؟ من الأفضل أن تترك له أمر البداية! لا بد وأنه قد أصبح بالفعل معتادًا على محادثة العديد من النساء المتحمسات له. إلى جانب ذلك، فقد جال بخاطرهما عن قصدٍ، وتبعًا لذائقتهما الخاصة، أنه كان من الأحرى أن

يكون هو السير ألفريد، فهي تفضل الرجال الأكبر سنًا منه، فهي تشعر الآن أنها تكره كل الشباب، ومن قبيل التأكيد لتلك الكراهية، تحولت إلى القنصل الفرنسي العجوز الجالس إلى يمينها، وبدأت تتجاذب معه أطراف الحديث، بلغة فرنسية تقليدية نوعًا ما. لم تكن تجيد اللغات بشكل كبير، على الرغم من أنها كانت تحب الشعر، سواء كتابة أو قراءة، هذا إذا كان يمكن تسمية ما تكتبه بالشعر، وحتى إذا لم يكن كذلك الآن، فسوف يغدو كذلك يومًا ما. فقد كانت كيت تعيش في حيرة وتخطب ما بين الرومانسية والتشاؤم، لم يكن شيئًا ليحدث لها مرة أخرى، كانت هذه هي حالتها المزاجية التي اختارتها لنفسها. وفي الحقيقة، كانت تعرف أن أي شيء يمكن أن يحدث، ولكن لم يكن لأي من ذلك أن ينبئ بأنها تجيد اللغات. فلم تكن كذلك أبدًا، حتى في اللغة الإنجليزية. كل ما في الأمر أنه عندما يكون الإحساس واضحًا لديها، كان عليها فقط أن تدعه يتقطر بداخلها حتى تستطيع أن تجد الطريقة المناسبة لكي تعبر عنه، وعندها، تجد أن كل ذلك الزخم من المشاعر التي أحست بها، يفضي إلى لا شيء سوى بضع كلمات قليلة أو بيت من الشعر أو بيتين، والذي تراه أيضًا في بادئ الأمر جيدًا، ثم تعود لتستخف به فيما بعد.

في هذه الأثناء سألتها القنصل الفرنسي بحذر: «هل شاهدت (معبد السماء)، آنسة تالانت؟» كان يحرق في طبق من الحساء الهلامي البارد موضوعًا أمامه، وكان من الواضح أنه لا يعرف شيئًا عنه، ويخشى أن يكون طبقًا أمريكيًا جديدًا.

أجابت كيت: «أجل يا سيدي» ثم تابعت في شيء من التهور: «ولم أهتم لشأنه كثيرًا، فأنا أجد ذلك شيئًا مقبلاً، أعلم أن الجميع اعتاد أن يثني على مثل تلك الأشياء، ولكنها تبدو بالنسبة لي أشياء تقليدية باردة، إذ ربما على الإنسان أن يقدس فقط الإله الذي يمكنه أن يرسل الأمطار والشمس للجميع على السواء».

غمغم القنصل في خفوت «حسنًا»، وهو يلقي نظرة ذهول عليها، شرع بعدها في تذوق الحساء البارد، ثم وضع ملعقته على المنضدة في الحال، غير قادر على تناول أخرى، وبعناء مال بأذنه ناحية السيدة التي كانت تجلس إلى اليمين منه، وعادت كيت وحيدة مرة أخرى. فقالت محدثة نفسها في سرور، «يبدو أنني أفزعته بالحديث عن الإله».

ذلك أنها للعديد من الأسباب، عمليًا، كانت وحيدة، وكان بيرت هولم منهمكًا في تناول طعامه بحماس وامتنان، على الرغم من الطقس الحار. كانت تشعر بذلك الصمت الذي يغلفه كما لو كان درعًا يحيط به نفسه، فكرت بأن ذلك قد يكون نوعًا من الخجل، وقد يكون غرورًا. فإذا ما استطاعت أن تفعل ما تمكن هو من إتيانه، كيف كانت لتشعر حينها؟ بلا أدنى شك ستحظى بقدر كافٍ من الخجل، برغم كراهيتها لذلك الخجل في شخصيتها، والذي يعترها مثل التشنجات في أكثر المواقف التي تحتاج فيها للثبات والثقة. ولكن على كل حال، لم يكن يعني الكثير بالنسبة لها إذا ما تحدث أو ظل صامتًا.

وهنا، اختلس بيرت هولم نظرة خاطفة إلى أهدابها الطويلة المتدلية للأسفل، كان يشعر بجوع شديد، كما أنه لم يكن قد لاحظ وجودها

جيدًا في البداية، لم تكن من ذلك النوع الذي يخطف الأنظار، كما أن السيدة التي كانت إلى يساره ظلت تحاول التقرب إليه، بالطرق المعهودة من النساء، وعندما تحول قليلًا إلى اليمين لابتعد عنها، إذا بعينه تقعان على أهدابها، لم يكن قد رأى مثلها من قبل، كيت تالانت هذا ما كان مدونًا على بطاقة التعريف الموضوعه أمامها، لم يكن غالبًا يهتم بأسماء العائلات، ولكنه سمع من قبل عن عائلة تالانت، قرأ شيئًا عنهم ذات مرة في جريدة (صنداي). كانوا من طبقة العائلات الراقية في المجتمع، لقد تذكر ذلك الآن، كما تذكر أنه رأى ذات مرة صورة لإحدى فتيات العائلة، ولكنها لم تكن هي. فهذه الفتاة رقيقة للغاية، وهو لم يكن قد تحدث إلى فتاة منذ... حسنًا، منذ وقت طويل.

لا يمكنك أن تحصي كل هذا العدد من الصينيين الذين يدعون (سينج) أو (سونج)، أو أيًا كان ما يدعونهم به، والذين التقى بهم الليلة الماضية في تلك الوليمة التي أعدها من أجله أحد الصينيين.

عجبًا، كانت صامتة، وكان قد جعل لنفسه قاعدة في هذا الشأن، أن يدع المرأة تتكلم أولاً. وعندها، يمكنه أن يدرك أين يكون موقعه منها، دون أن يتخلى عن مكانته، ولكنها لم تنطق بحرف واحد، وكان عليه هو أن يبدأ.

فبادرها بالسؤال فجأة: «هل تحبين تسلق الجبال؟».

نظرت إليه مع شعور بالمفاجأة، لتلتقي بعينه تنظران إليها بهدوء وثبات، قالت محدثة نفسها: «لماذا، أعتقد بأنه مغرور رغم كل شيء!»
لذا فقد زادت من اتساع حدقتي عينيها السوداوين، لتفسد براءتهما عن

عمد، وهي تجيبه: «كلا، وماذا عنك؟».

لم تتزعزع نظرتة، وهو يجيب: «بالطبع أحب ذلك»، أشاح بوجهه عنها، لتركها غير واثقة، أحقاً غضب من حديثها، أم أنه فقط لم يدر شيئاً عن نواياها الخبيثة. أقبل خادم صيني يحمل طبقاً من الأسماك ووضعه أمامه، وشرع بيرت في تناوله. بدأت تشعر كم كانت سخيفة، عندما فكرت أن تسأله عما شعر به لحظة وصوله منفرداً لتلك القمة الموحشة! فما الذي يمكن أن يشعر به صبي كهذا؟ كانت في طريقها لأن تشعر بالاستياء تجاهه، وقد شعرت بارتياح لذلك، فقد كانت الكراهية بالنسبة لها هذه الأيام هي الخيار الأسهل، والشعور المحبب على وجه العموم. والتي أكدت لديها تلك الحالة المزاجية المظلمة التي اعترتها منذ فترة. فوجئت به يتابع حديثه بغتة: «كل ما عليك هو أن تعرف كيف تفعل ذلك بشكل صحيح، مثل أي شيء آخر. وأغلب الناس لا يعرفون ذلك». ثم سدّد بصره نحوها وهو يقول: «في الحقيقة أنا لا أعرف لماذا لا تستطيعين أن تفعلي ذلك بشكل جيد كفتاة، هل سبق لك أن قمّت بتجربة التسلق؟».

هزت رأسها نفياً، ولكن، فاجأها ذلك منه، فقد كان جاداً تماماً، ولم يكن لديها أدنى شك في أنه لا يسخر منها، أو حتى يدرك خبث ما قالت، فتبخرت الابتسامة من على شفثيها، وراحت تنصت إليه في ارتياب من تلك البساطة في الحديث.

بينما تابع حديثه: «أغلب الناس يتناولون الطعام قبل بدء التسلق مباشرة، وقد وجدت أن هذا خطأ، يفضل أن تبدأ بعد ساعتين على الأقل

من آخر وجبة تناولتها، أو تتناول شيئاً خفيفاً قبل البدء».

قاطعته متسائلة، وقد حسمت أمرها فجأةً بأن توجه له هذا السؤال رغم كل شيء: «أخبرني، كيف بدا لك الأمر لحظة بلوغك قمة الجبل؟».

نظر نحوها مباشرةً مرةً أخرى، لترى لأول مرة صفاء لون عينيه الزرقاوين، لم ترَ من قبل مثل هاتين العينين بريقاً ونقاءً، كأروع صنفصافيتين من الخزف الأزرق رأتهما عيناها من قبل، وبمجرد أن نظر إليها، تخيلت كأنه ينظر إليها من خلال ذلك المدى من الكرة الأرضية الذي لم تره سوى عيناه الزرقاوين وحدهما، ما الذي رآه وقتها؟ لا يمكن للمرء أن يكون على ثقة من ذلك، ولكن على الأقل هاتان العينان مختلفتان كلية عن هاتين السوداوين اللتين تتذكرهما بكل الألم، إن ذلك على أي معيار، كان عوناً لها، أشعرها ببعض الارتياح.

وعلى الجانب الآخر، كانت السيدة الأخرى الجالسة إلى جانبه تقول شيئاً بلهجة بدا جلياً أنها لهجة آمرة، فاستدار ناحيتها وسألها: «نعم يا سيدتي؟».

شرعت السيدة في سؤاله مبتهجة: «هل كانت لديك فكرة محددة، سيد بيرت هولم عما كنت مُقَدِّماً عليه هناك، عندما بدأت في صعود الجبل؟».

أجاب ببساطة: «كلا يا سيدتي».

ثم استدار ثانية إلى كيت وهو يتابع: «لقد كان البرد قارصاً حقاً

بالنسبة لشيء واحد فقط، ويمكنك أن تراهني على ذلك، فأنا أتذكر أنني لم أكن أستطيع التفكير في أي شيء سوى كم البرودة التي كنت أحس بها في قدمي»، ثم توقف عن الحديث للحظة، وأخفض صوته قليلاً وهو يتابع: «الحقيقة أنه لم يكن لدي أي تخطيط سابق لأي شيء، ولكن في ذلك الصباح، عندما صدرت لنا الأوامر بعدم الاستمرار في الصعود إلى أبعد مما وصلنا إليه، وبدأ بالفعل الرجال في تعبئة المعدات والاستعداد للهبوط، عندها نظرت للأعلى ورأيت قمة الجبل هادئة تمامًا مثل قمم التلال لدينا عند البيت، ساعتها قلت لنفسي، 'سحقاً! لقد مررت بالكثير كي أصل إلى هنا'، واعتقدت أنه على فقط مواصلة الطريق، ويمكنني أن أتحرك أسرع كثيرًا إذا ما فعلت ذلك منفردًا، على أن أستريح قليلًا كل فترة، وتصورت أن الأمر لم يكن ليستغرق أكثر من يوم واحد لكي أفعّلها. وعندما يأتي المساء، سوف أتمكن من العودة للمخيم».

قاطعته فجأة متسائلة: «ألم يكن ذلك خطيرًا، ماذا لو انزلت قدماك؟». وفي الحقيقة لم يكن ذلك مما يمكن أن يشغل تفكيرها في تلك اللحظة، بل كان الفضول يدفعها لمعرفة الطريقة التي يتصرف بها الناس في حالات الخطر الشديد. أما بالنسبة لها -وعلى سبيل المثال- فإذا ما حدث ووجدت نفسها تواجه خطر الموت، هل سيكون الأمر جديرًا بأن تهتم كثيرًا بإنقاذ حياتها؟

وهنا أطلق بيرت هولم ضحكته للمرة الأولى، ضحكة قصيرة جافة، قائلاً: «نعم، ولكن ذلك لم يحدث!» وبعد أن مضغ شيئًا ما في فمه لبرهة، أضاف: «أنا لا أعلم ماذا يمكن أن يكون ذلك، ولكن يبدو

أنني دائماً ما أكون محظوظاً».

ثم انتقل إلى طبق جديد قد وُضع أمامه، وهنا رآته في صورة جانبية، بما له من صفاء ووسامة صبيانية، وعلى يمينها، كان القنصل الفرنسي قد اطمأن لوجود البط المشوي المألوف لديه بجانب الأرز، وهو يسألها: «وهل شاهدت أيضاً (المدينة المحرمة) آنسة كيت؟».

استدارت ناحيته لتجيب عن سؤاله، ولكنها في هذه اللحظة تذكرت أن بيرت هولم حقيقة لم يجب بعد عن سؤالها عما شعر به وهو على قمة الجبل، يجب عليها أن تتذكر جيداً أن تعيد عليه السؤال قبل البدء في تناول الحلويات، ولكن القنصل الفرنسي ظل منتظراً جوابها، بينما التفتت كيت ناحية بيرت هولم بنظرة خاطفة، لاحظت أن ذات المرأة المجاورة له عادت تتحدث إليه مرة أخرى، واستطاعت هنا أن ترى مؤخرة عنقه التي أحرقها ضوء الشمس، حيث نما شعره مسترسلاً بنعومة، ومعقوداً للأسفل شديد النعومة والبياض كما لو أنه لطفل أشقر. بعد ذلك بلحظات، فوجئت بشيء ما، إذ حدثتها نفسها، أو أنها تخيلت أن كتفه قد لامس كتفها أكثر من مرة بشكل أكثر من أن يكون عفويًا، شعرت كأن تلك اللمسة قد أجفلتها قليلاً. وسواء كانت مقصودة أم لا، فهي مرة ثانية تجد كتفه مقابلًا لكتفها، انسحبت قليلاً لتتفادى التلامس، كلا، لم تستطع أن تتيقن من ذلك، على الرغم من أنه لن يكون مفاجئاً بالنسبة إليها، هل يمكن أن يكون من ذلك النوع من الرجال الذي قد يبدأ بمثل هذه الطريقة، شعرت بازدراء لمجرد تصور ذلك. ولكن المائدة كانت مزدحمة، والصبية الصينيون يتحركون بانفعال وحذر فيما

بين المدعويين للقيام بخدمتهم على أحسن وجه. كما أن أكتافه كانت عريضة، ربما تكون على خطأ فيما ذهبت إليه بها الظنون، وربما تخيلت هي ذلك بسهولة نظرًا للحساسية الشديدة التي تشعر بها هذه الأيام.

كان القنصل الأمريكي يسأل بيرت عن شيء ما، كلا، بل كان يمازحه قليلًا. لذا أدارت رأسها لتتصت له وهو يسأله: «أعتقد أننا سنرى وجهك قريبًا على الشاشة الفضية وما إلى ذلك يا سيد هولم مع لوحة كارتونية لأحد الجبال من خلفك؟».

أجابه الشاب على الفور: «لا، لن يحدث ذلك يا سيد كارلتون، لن أتورط في شيء كهذا، فعندما أنوي مشاهدة الأفلام، أود أن أشاهد شيئًا مختلفًا عن صورة وجهي».

ضحك الجميع؛ ربما لأنه كان صادقًا فيما يقول، ولكنها تبينت أنهم جميعًا قد أحبه أيضًا. كان شخصًا جديرًا بحب من حوله، لقد شعرت بذلك بنفسها، على الرغم من اتجاه إرادتها إلى عكس ذلك.

وارتفع صوت بيرت هولم وهو يتابع حديثه: «كل ما أريده الآن، هو أن أبقى في البيت لبعض الوقت، وأن أستمتع بطعام أُمي المنزلي الرائع».

وهنا هتفت السيدة الجالسة بجواره بحماس، مع صوت اهتزاز قرطها الذهبين الطويلين الصينيين بصوت مسموع: «لا أظن ذلك يا سيد هولم، فبكل تأكيد ستستدرجك الجبال مرة ثانية».

أجاب بيرت هولم: «نعم بالتأكيد، أريد أن أتسلق المزيد من الجبال

بلا شك، ولكني لن أذهب بعيداً من أجل ذلك».

استمر الحضور يضحكون، ثم نهضت السيدة كارلتون قائلة:
«فلنتناول القهوة، إنها جاهزة في الشرفة»، ونهض الجميع معها.

وفي الشرفة الكبيرة، حيث انتحت كيت جانباً تحتسي قهوتها، عادت تشعر مرة أخرى بالضجر والحزن، كانت السماء قد بدأت تمطر بفعل السحابة الثقيلة الرمادية المعلقة في السماء منذ الصباح، وانبعثت حديقة القنصلية العتيقة المكتظة بالنباتات تطلق الأشعة الحارة من داخلها، حاملة معها شذا رائحة الأرض ساعة المطر، وقد احتبست في الجو حرارة يوم ملتهب ممطر من شهر أغسطس، بينما حجبت الأسوار الحجرية العالية كل أمل في نسمة هواء لطيفة. ووقف الجميع في صمت مؤقت لبرهة، مثقلين بالكثير من الطعام، وأيضاً مجهدين من رطوبة منتصف يوم حار. كما أن أغلبهم يتمتعون بالسمنة والبدانة، يبدوون في مظهر واهن متخاذل، مثل كل أولئك الذين يعيشون في بلد أجنبي، لا يشغلون أنفسهم بشيء فيه غير الرفاهية ومظاهر النعيم.

بينما وقف بيرت هولم في وسطهم بانتعاش الآتي من مرتفعات الهيمالايا، متحفزاً نحيلاً وصلباً. كان جميلاً حقاً، هكذا كانت ترى كيت باضطراب وقلق إذا شعرت بالاهتمام لأمر أحد على شاكلته. ولكنه حقاً كان شيئاً بلا معنى أن يتظاهر أي شخص، أو على الأقل أي امرأة، بعدم الاهتمام لأمره، بدت باردة مثلما كانت، وقت أن كان الفتيان ينشغلون بها، وليست على الإطلاق مثل جايل. كما لاحظت أيضاً أكتافه العريضة الجميلة، وساقيه النحيلتين، ولون شعره الأشقر

الفاقع، وعينيه الزرقاوين، وبشرته الداكنة. أم أن ذلك كله كان بسبب ما عانته كثيرًا من رجل لم يكن أبدًا يشبه بيرت هولم في هيئته؟

وعندما برقت تلك الفكرة في ذهنها؛ طرحتها جانبًا مرة أخرى. لقد تركت أمريكا لكي تهرب من نورمان لينلاي، كلا، عليها أن تكون صادقة مع نفسها، لقد تركت أمريكا لأنه هو من تركها أولاً، لو كانت أخبرت والدها شيئًا عن ذلك، أنها قد ارتبطت سرًا برجل قام بفسخ ذلك الارتباط بنفسه عن عمد، كان يمكن أن يكون مضحكًا وتقليديًا إلى الحد الذي قد يجعله يسعى لأن يطالبه بتعويضات من قبيل رد الشرف. ولكن ماذا يمكن أن تكون تلك التعويضات الشرفية في نظر جيلها، عندما يقول الرجل الذي تحبه ببساطة أنه قد توقف عن الشعور بالحب بدوره؟ يتسم المرء ويتفهم الأمر جيدًا، ويقول وداعًا ويتمنى للآخر حظًا سعيدًا، وكل تلك الأشياء القصيرة السريعة التي يقولها الناس عندما يصبح كل منهم لا شيء بالنسبة للآخر، بعد أن كان يمثل كل شيء بالنسبة إليه. لقد تمت لو واتها الشجاعة كي تدمر أي صورة له بقيت لديها، ولكن يومًا ما ستفعلها بكل تأكيد. شعرت أن الإيمان بتلك الأحاسيس السخيفة الضبابية كان هو الباطل بعينه، لم تكن لديها الرغبة في أن يصيبها الهزال والضعف حزنًا على حبها الفقيد، بعد أن استطاعت بجهد كبير أن تتخلص منه، وأن تُشفى من آثاره. ولكنها أبدًا لم تمتلك تلك القدرة على تدمير صورة نورمان، إنها لم تزل في حقيقتها، دفينة تحت أغراضها، وأصبح السؤال اليومي هو، هل سيمر اليوم عليها دون أن تخرج صورته وتطلع إليها قليلًا، أو حتى أن تنظر إليها، وقد علمت

كم يبعث على الحزن أن توقظه ثانية من دنيا الأحلام. لقد احتقرت نفسها عندما بكت من أجل ذلك، ولكنها كانت دائماً ما تفعل، خاصة وأنها لم تستطع أن تخبر والدتها بشيء عن ذلك، كانت لتشعر بالعار إن هي أخبرتها شيئاً كهذا، بينما كانت والدتها ستظل على وجهة نظرها: «ولكن يا بنتي، وببساطة، أنت لم تحسني التعامل مع تلك الأمور بشكل صحيح، بينما الرجال يستطيعون ذلك». ابتسمت كيت ابتسامة مبهمة على سبيل الامتنان، وتحركت بعيداً، حيث أبصرت والدتها تتحدث إلى بيرت هولم. فبعد انتهاء مأدبة الغداء، اتجهت صوبه مباشرة، بما لها من بريق متألق وثقة أخاذة بالنفس، بينما اختفى والدها فلم يره أحد، ولا السيد كارلتون. في حين كان باقي المدعوين يتحدثون مع بعضهم بصوت مرتفع. تناهى إلى مسمعها صوت القنصل الفرنسي يسأل السيدة كارلتون نفس أسئلته وبذات اللغة الإنجليزية المتحفظة. اتجهت ناحية والدتها في خجل، وهي لا تدري تماماً ماذا تفعل في نفسها؟ إلا أنها في الحال شعرت بالأمان والارتياح بمجرد أن بلغت ذراع أمها وتأبطته، حيث اقتربت منها الأخيرة واحتوتها برفق. كانت السيدة تالانت في قمة تألقها وهي تتحدث مع بيرت هولم، ثم قالت موجهة حديثها إلى كيت: «كنت للتو أقول للسيد هولم يا عزيزتي، بأنه لا بد وأن يأتي لزيارتنا عندما نعود للمنزل، في (جلين باري)، لدينا العديد من التلال في بلادنا يا سيد (هولم)، وأعتقد بأنك ستستمتع كثيراً بتسلقها، بالطبع هي ليست كمرتفعات الهيمالايا، ولكننا كنا نستمتع كثيراً بها، أليس كذلك يا كيت؟».

أجابت الفتاة وهي تحاول الابتسام: «بالتأكيد هي ممتعة أكثر من الهيمالايا، أو هكذا أظن».

أجاب بيرت هولم على الفور: «يا إلهي، كم أحب أن آتي!» وابتسم ابتسامة واسعة مرحة، كشفت عن أسنانه القوية الناصعة البياض. كانت يده ممسكة بفنجان قهوة صيني من البورسلين، بدت يده كبيرة نظيفة وصافية، لا يشوبها غير أصابعه الغليظة الجعدة.

لاحظت السيدة تالانت أن كيت كانت تبدو شاحبة مصفرة مرة أخرى، تُسائل نفسها في حنان ما الذي ألمَّ بطفلي؟ كم هي صعبة، أصعب كثيرًا من جايل، هكذا هي دائمًا! ثم ابتسمت لـ كيت ابتسامة مرح غامر وهي تقول لها: «والآن يا عزيزتي، ماذا عما بعد الظهر؟ طالما أن السماء تمطر طوال اليوم، أفترض أنه لا يمكنك اليوم ركوب الخيل إلى التلال الغربية، أليس كذلك؟ إنها بارعة في ركوب الخيل يا سيد (هولم)! بالإضافة إلى ذلك يا كيت، أنا لا أدري متى يظهر والدك، لقد قال إنه ليس علينا أن ننتظر، أتعلمين يا عزيزتي، أعتقد بأنني سأعود ثانية إلى متجر الحرير، لأرى لو أنه ما زال هناك المزيد من ذلك الحرير الأخضر، ألا تريدين أن تأتي معي؟ للأسف فإنه ينقصني بضع ياردات من ذلك الحرير إن أردت أن أستخدمها لصنع ستائر لحجرة المكتبة، وستكون مؤثرة للغاية جنبًا إلى جنب مع الأثاث الصيني الجديد الذي أقوم بشرائه الآن، رغمًا عن والدك». ثم ضحكت وهي تنظر إلى بيرت هولم نظرة دلال، من النوع المألوف من امرأة تحتفظ بكامل بهائها وهي بعد في منتصف العمر. ثم تابعت: «يقول السيد تالانت إنه أبدًا لن

يجلس على تلك المقاعد الصينية، إذا ما قمت بشرائها! ولكنه سيعتاد على ذلك، أو بالأحرى سيكون مضطراً لذلك!».

شعرت كيت بأن بيرت هولم يحدق فيها، كما أحست بأنه يفكر بأنّاءً، وأنه على وشك أن يسألها عن شيء ما.

فأجابت بسرعة: «كلا، أشكرك يا أمي، أنا عائدة إلى متجر العاج، لقد حسمت رأيي بشأن ذلك الختم العاجي، وأنا حقاً أريده».

وفي هذه اللحظة، كان يهْمُ بسؤالها، كم أنه شخص بسيط، أثارت تلك الفكرة ازدراءها قليلاً، وبرغم ذلك ما زالت تفسح له الطريق ليتابع.

سألها: «هل يمكنني أن آتي معكِ؟». ألقى برأسه إلى الخلف بصبيانية ليتناثر شَعْره الناعم، هو يتابع: «أنا لم أذهب إلى أي مكان في بكين، كما لم أشاهد أي شيء منذ أن جئت إلى هنا، باستثناء حفل عشاء ضخم في الليلة الماضية بأحد الفنادق الصينية».

أجابته السيدة تالانت بارتياح: «ما الداعي! بالطبع يمكنك ذلك، أنا لا أعجبني خروجكِ بمفردكِ يا كيت، خاصة وأنكِ لا تستطيعين التحدث بكلمة واحدة من اللغة الصينية، لذا فإن ذلك يبدو آمناً تماماً بكل تأكيد، فنحن لا نعلم هذه الأيام ما يمكن أن يحدث، خاصة، وأولئك اليابانيون متواجدون من حولنا، ولكنني سأشعر بأمان كامل وأنا أعلم أنكِ برفقة السيد هولم».

هتف بيرت هولم بحماس: «حسنًا، سوف أعنتي بها، يمكنك أن تراهني على ذلك يا سيدة تالانت».

ضغطت السيدة تالانت على يد ابنتها للحظة، ثم أطلقتها، وهي تقول: «أعتقد أن ذلك الختم سوف يحوز إعجابك، يا سيد هولم»، ثم تابعت: «إنه الختم الأكثر جاذبية على هيئة قمة جبلية، أخبرني عنه (كيت)، تقول إنه لا يمكنك أن تتخيل كيف أبدعوا فيه، لكي يلتقطوا فكرة أن يصنعوا نموذجًا مصغرًا هكذا لذلك الارتفاع الشاهق، بحيث يمكنك حمله في يد واحدة، إن الصينيين حقًا يتمتعون بمهارة مدهشة». غمغمت كيت بكلمات مبهمة، منشغلة بإخراج قفازيها: «إنه رجل، لقد صنعه بحجم صغير جدًا».

فكرت بأن تدعه يرافقها، لم تكن تهتم بما أصابها، لقد اكتشفت شيئًا للتو مثل بصيص من السعادة تشعر به كلما اقتربت أكثر من بيرت هولم، الأمر الذي جعلها تشعر أيضًا بشيء من الاستخفاف. إن فكرته عن الاعتناء بها، والتي اكتشفتها في الحال، لن تزيد على أنه سيحاول أن يحول بينها وبين الصينيين الذين يقتربون منها. بيد أنها لم تكن تشعر بأدنى خوف من أولئك الذين تراهم في الشارع، وبعد أن قضت هنا ثلاثة أسابيع بينهم، أصبحت معتادة على أن يلتف حولها حشد من الناس كلما توقفت لتلقي نظرة على أي شيء، وبين الحين والآخر، تجد طفلًا صينيًا يحاول أن يستكشف بأصابعه ملمس خامات الملابس التي ترتديها؛ كي يشعر بملمس الحرير أو الجلد لحقيبتها، أو أيًا كان ما صنعت منه، ولكن أيًا منهم لم يؤذها أبدًا من قبل. وعندما تبدأ بالتحرك، يتراجعون للخلف قليلًا منتظرين لكي يروا في أي اتجاه ستذهب، ثم يبدأون في متابعتها مرة أخرى. وفي كل مرة ذهبت فيها لمتجر العاج

كانوا يأتون خلفها ويقفون بصبر غريب حتى تنتهي من تفحص قطعة من التحف أو أخرى. وعندما تناولت ذلك الختم العاجي بين يديها هذا الصباح، جعلوا يتهايمسون فيما بينهم معجبين برقي ذوقها، حتى إنها سألت البائع العجوز صاحب متجر العاج: «ماذا يقولون؟». أجابها الرجل باللغة الإنجليزية ولكن بلكنة صينية متكسرة: «إنهم يتحدثون أنستي عن إعجابهم بتلك القطعة الجميلة». فالتفت وابتسمت لهم، وعلى الفور، استجاب لها الجميع بوابلٍ من الابتسامات والتقدير لذوقها. وبقدر ما أحبت كثيرًا أولئك الطيبين الوداعين، كرهت أيضًا اليابانيين الخطرين، الذين كنت دائمًا تتجنبهم، ذوي الأجسام الضئيلة والخطورة الكبيرة.

ولكن، الآن في المتجر، يقف بيرت هولم حائلًا بينها وبين الحشد المعتاد، وهو يصرخ فيهم: «أنت، هلا رجعت إلى الخلف قليلًا؟». قالت له كيت كما لو أنها تتوسط لهم عنده: «إنهم لا ينوون إيذائي، لقد اعتدت على ذلك منهم».

أجابها بقوة: «أنا لا أريد أن يزعجك أحدهم أبدًا».

أجابت معترضة: «ولكنني أحبهم».

قال لها: «أنتِ تمزحين!»

لم تجبه بكلمة واحدة. لم يكن ذلك ضروريًا. وبمباشرة غريبة كحركة الأمواج في المحيط، التف حشد كبير من الناس حولهما معًا. ضحكت كيت وهي تخبره: «إنهم فقط سوف يفعلون ما يحبونه دائمًا».

ولكن ما أدهشها حقاً أنها رأيته غاضباً من ذلك، وقد تجهّم وجهه بشدة، عاقداً ساعديه أمام صدره في تحفز.

صرخت فيه: «لا تفعل ذلك، توقف، أقول لك توقف!».

كانت لا تزال محتفظة بقطعة الجبل العاجي في يدها، فوضعتها جانباً، بينما كان البائع يقف متحفزاً متنبهاً لما يدور، وقد تبدلت نظرة الطيبة في الحشد المتجمع فجأة، حيث سرت بينهم همهمات غاضبة وهم يحدقون في بيرت هولم بأعينٍ متقدة، بينما هم صبي في الخامسة أو السادسة عشرة بالاندفاع نحوه.

وهنا همس لهما البائع العجوز: «أرى أنه من الأفضل أن تتفضلا بالدخول إلى المتجر». صرخت فيه: «هيا بنا».

جذبتّه من ذراعه بقوة وبحركة لا إرادية إلى داخل حجرة صغيرة في المتجر، حيث أغلق عليهما الرجل العجوز بابها. وعلى الرغم من الصباح والضجيج في الخارج، فقد استطاعا سماع الرجل يتحدث إلى الحشد بالخارج في هدوء، موضعاً الموقف ومهدداً من غضبهم بلا شك.

قالت له بحدة: «لقد كنت سخيّاً حقاً».

بينما كان العناد واضحاً في عينيه الزرقاوين، كعيني صبي مشاكس، وهو يقول لها: «لم أكن أريد أبداً أن آخذ شيئاً من أي منهم».

أجابته بنفاذ صبر: «لم يكن عليك أن تأخذ شيئاً منهم، لم يكن أحد منهم يقصد شيئاً ما تجاهك».

أجاب في إصرار:

«لم تعجبني تلك الطريقة التي كانوا يضغطون بها عليك. لم يكن ذلك ليعجبني بالنسبة لأي فتاة أمريكية، وبشكل خاص بالنسبة لك».

لمعت عيناه بقوة، وأضاءتاهما أكثر تلك الزرقة المنصهرة فيهما.

ثم تابع ببساطة: «أعتقد أنه عليّ أن أخبرك أيضًا، أنني قد سقطت بقوة، من أجلك».

غمغمت في خفوت: «يال... يالفتاهة!» بينما رأى بيرت هولم ساخرًا أن الأمر يعج فعلًا بالفتاهة، حيث إنهم لم يروها منذ ساعات قليلة. كما رأى أنه من الواجب عليه أن يكون أكثر حذرًا. فهذا ما حدث معه من قبل من خلط وسوء فهم مع لي لي، قبل أن يدرك ذلك فعلًا، فقد فاجأه بعضهم ذات مرة وأمسكوا به منفردًا معها على حين غرة، فحاولوا الهرب معًا من المطر داخل أحد اسطبلات الخيل، وقد شعر حينها بمثل ذلك الشعور الذي يملؤه الآن في هذه الحجرة الصينية الخائفة. لم يكن يعرف عن لي لي وقتها أكثر مما يعرفه الآن عن كيت، لم يكن عليه أن يتورط في ذات المأزق مرةً أخرى، فقد اضطره ذلك في السابق إلى الزواج من لي لي، وبالتأكيد لم تنجح تلك العلاقة، وكان الثمن باهظًا وقتها بما يكفي، من اللجوء للطلاق وما تلاه من مشكلات. ومنذ ذلك الحين فصاعدًا، أخذ عهدًا على نفسه أمام أهله وأسرته بأنه لن يتورط في أمر كهذا مرةً أخرى.

وبينما ينتظر لدقيقة حتى يتمالك نفسه، إذا بعينه تقعان على فمها، ليلحظ كم هو رقيق حقًا. رباه! إذ إنه عندما كان يريد شيئًا؛ كان يفعله، مهما بدا ذلك الأمر جنونيًا!

فأجابها مؤكداً: «أعتقد أن الأمر مضحك فعلاً، ولكن، هكذا هو أنا دائماً. أعتقد أن كل شيء فعلته في حياتي ربما كان يبدو جنونياً، لقد قمت بالكثير من الأمور بتهور، فبمجرد أن يبدو لي شيء وأشعر بأنني أريد فعله؛ أجد أنه عليّ أن أفعله». وبينما كانت كيت ترى الأمر مضحكاً؛ إلا أنه برغم ما به من التهور والحماسة، فقد أحست فيه شيئاً جميلاً، استطاع إلى حد ما أن يداوي كبرياءها الجريح. فمنذ أن أخبرها نورمان ذات يوم في أحد المقاهي الصغيرة في نيويورك بأنه كان من الخطأ أن أحبها يوماً، لم يعترض طريقها شيء يمكن أن يكون له معنى بالنسبة إليها، إلى أن التقت بعيني بيرت هولم. والذي كان يتابع حديثه قائلاً: «وفي الحقيقة أنني عندما أسقط؛ فأنا أسقط بقوة». قالت له بصوت خفيض: «أنت لا تعرفني». عاد يؤكد ما قاله آنفاً: «وأنا مجنون، دائماً ما كان الجميع يخبرني بذلك»، عضت شفتها السفلى وهي تؤمن على قوله: «أنت كذلك حقاً!» أجابها قائلاً بتهور: «هل أنت متأكدة مما تريدين؟ ومما تشعرين به تجاهي؟».

ضحكت ضحكة قصيرة وهي تقول: «أنا لست مجنونة إلى هذا الحد». وهنا اقترب منها بيرت هولم محاولاً أن يحيطها بذراعيه، فصرخت وهي تدفعه بعيداً عنها: «كلا، كلا».

وهنا اكتشفا معاً أن باب الحجرة كان مفتوحاً، حيث يقف البائع العجوز محدقاً فيهما بذهول، ثم قال لهما بوقار مشيراً بيده: «آنستي، أرى أنه من الأفضل أن تفضلا معي إلى الخارج الآن، هناك».

قالت كيت برفق: «لقد سببت له صدمة الآن، وسوف يظن أن كل الأمريكيين أخلاقهم سيئة».

أجابها بيرت: «أنا لا أهتم بما قد يظنه عجوز وثني». ثم تبعها عبر باقي المتجر من الداخل، رغم شعوره بشيء من التبرم.

كان الحشد قد تفرق، ولكن الباب المؤدي إلى الشارع لم يزل مغلقاً. وهنا، اتخذ البائع العجوز مكانه خلف طاولته باحترام جمّ، والتقط الجبل العاجي بيده، ثم بدأ يتحدث إليها بلغته الإنجليزية الراككة ولكنته المتكسرة: «والآن آنستي، أنا أعطيك إياه بسعره الحقيقي، فقط خمسة عشر دولاراً».

أجابته بمرح: «يا إلهي، أنا لن أدفع كل هذا في رجل متشبث بحافة جبل!» لم تشعر بسعادة مثل هذه منذ أسابيع، لا، بل منذ شهور مضت. لقد شعرت بالبهجة والجمال والتهور في آن معاً، كم هو رائع أن تشعر بمثل هذه الأشياء مرة أخرى، حتى ولو للحظات قصيرة. وهنا، أخرج بيرت هولم حافظة نقوده، وأخرج منها رزمة من الأوراق المالية وألقى بها على الطاولة.

وقال وهو يدفع بالنقود عبر الطاولة تجاه البائع: «ها هي نقودك، سوف أشتريه أنا بنفسني».

وبينما كان البائع العجوز لا يزال يحدق فيه، أخذ اللعبة العاجية ووضعها في جيبه، ثم قال معلناً إياها: «الآن قد أصبح لي. فإذا كنت تريدني، فيجب أن يكون هدية مني، هل ما زلت تريدني؟».

أجابت بشيء من التروّي: «لست أدري». ولكن قلبها كان يرقص. لقد امتلأ الأمر برمته بالحماسة حقاً، ولكنها أيضاً لم تكن حمقاء منذ وقت طويل، كان الرجل العجوز يحصي نقوده، ثم مد يده يعيد أربع

ورقات مالية له، وهو يقول بلطف: «هذا كثير جدًا يا سيدي. السعر فقط خمسة عشر دولارًا، لا أكثر».

أجابه بيرت بلهجة أمرة: «يمكنك الاحتفاظ بالباقي، فأنت لا تعلم كم أصبح يساوي بالنسبة لي».

لاحظت أن الرجل العجوز يبدو خائفًا، بلا شك هو يشعر الآن بأن كل البيض مجانيين هكذا، قال البائع ثانية: «أرجوك يا سيدي»، وهنا قالت كيت: «هيا بنا، نحن فقط نسبب له الخوف، لا أكثر». فجذبها من ذراعها وانطلقا يعدوان معًا إلى خارج المتجر.

إلى أن قالت بإصرار: «توقف، الآن، عليك أن تتوقف، وإلا ستجد المدينة كلها في أعقابنا، فسيظنون أننا بصدد أن نتشاجر».

أجابها: «إننا كذلك حقًا، نحن نبدأ أعظم معركة في العالم كله، والآن أخبريني، هل تريدان الحصول على هذا الشيء أم لا؟». قالها وهو ينتزع الختم العاجي من جيبه، ثم عاد يكرر كلماته على مسمعها موضحًا: «هيا أخبريني، أراه لطيفًا بحق؟ أليس كذلك؟».

ثم عاد يحدق في الرجل المتشبه بجانب الجبل، والذي كان بحجم دبوس صغير فوق قمة الجبل، ثم أشاح بوجهه عنه وهو يقول: «أتعرفين، إنه شيء غريب حقًا، ولكن فوق قمة الجبل الذي قمت بتسلقه، كان هناك منحدر كهذا، كتلة صخرية تمتد لأكثر من مائتي قدم. ظننت وقتها أنني سأنزلق من عليها، ولكنني وجدت مكانًا حيث انفصلت الصخور عن بعضها من الداخل، ولم يكن الميل هناك كبيرًا، بل كان مناسبًا بما فيه الكفاية، لذا استطعت أن أجد مكانًا لقدمي لوضع

خطوات مكنتني من قطع الجليد. وكانت هذه هي الطريقة التي وصلت بها للقمة، تمامًا مثل هذا الرجل العجوز. وأعتقد أيضًا أنني كنت أبدو كثير الشبه حينها بذبابة أيضًا».

كانت واقفة، كأنها تتلقف الذكريات من عينيه. ثم سأله بسرعة: «وعندما بلغت القمة، كيف كان يبدو الأمر هناك؟».

نظر إليها عاجزًا، وهو يقول: «أنا لا أعرف كيف أستطيع أن أخبرك، لم أكن لأعرف كيف يمكنني قول ذلك!»، توقف لبرهة، ثم تابع ببطء وهو يبحث عن الكلمات، وسط زخمٍ من المشاعر: «كانت هناك رياح مروعة طوال الوقت، ولكن بمجرد أن وصلت إلى القمة، لم يكن هناك أي من ذلك. أتذكر أنني ظللت أتعجب وأفكر كيف كانت بمثل ذلك الهدوء، كنت أقاتل في طريقي لأشق طريقًا لكل خطوة، وعندما وصلت إلى هناك كان الأمر هادئًا، بل أكثر هدوءًا من أي وقت شعرت به من قبل».

عادت تسأله بإصرار ومثابرة: «كيف شعرت حينها؟».

كان كأنه يصارع الكلمات لكي يجد الجواب المناسب للرد على أسئلتها. وأخيرًا قال: «لقد شعرت كأنني ملك».

كانت تنصت إليه، وعيناها معلقتان بعينه. بينما كان الناس يتجمعون من حولهما مرةً أخرى في صمت وهدوء، وهم يحدقون في هذين الغريبين الغامضين. ولكنها لم تكن ترى أحدًا منهم، ثم مدت يدها نحوه من أجل الختم العاجي قائلة: «أعطني إياه، أنا حقًا أريده».



قالت السيدة تالانت بقلق: «أنت واثقة من أنه ليس فقط الطقس؟».

أجابت كيت ضاحكة: «أنا لا أعلم ما هو». كان جميلاً أن تعود إلى الضحك من جديد، وقد ضحكت ملء روحها مؤخراً مع بيرت، حيث استطاع أن يكون ذلك الفتى الذي يجعلها تضحك. إلا أنه في بعض الأحيان، وعلى الرغم من ذلك، فإنَّ ضحكها كان يثير غضبه، فعلى سبيل المثال، بالأمس، عندما أمسك بيدها اليسرى وراح يقيس إصبعها الثالث باستخدام ورقة عشبية.

وهو يقول لها: «أعتقد بأنه سيكون عليّ أن أحصل على هذا القياس يوماً ما قريباً».

كانت تجلس على أرض عشبية مائلة، بين حقلين خارج المدينة، وكان هو يرقد إلى جوارها، وبالقرب منهما، كانت الخيول الخاصة بهما مربوطة تتحرك عشوائياً فوق العشب القصير. أجابته بلهجة شريرة: «لقد تم قياسه من قبل».

وعلى ما يبدو، إما أنه لم يدرك ذلك الخبث في حديثها، وإما أنه اختار أن يتجاهل ذلك، إلى أن قال لها: «إنهم ليسوا في الحساب».

وهنا خرج إليهما فلاح عجوز، يرتدي معطفاً مرتقاً، معترضاً على وجود جواديهما فوق أرضه، فألقى إليه بقطعة نقود معدنية، ثم امتطيا جواديهما، وانطلقا معاً في طريقهما.

وهو يقول لها: «على أي حال، فقد حصلت على نصل عشبي من شجرة ذلك العجوز البخيل». ثم أضاف بكلمات تحمل معنى عميقاً:

«من الآن، سوف يعني لي الكثير هذا النصل العشبي».

رفضت أن تجيب على هذا. وبدلاً من ذلك، راحت تضحك، وعندها، رأت وجهه يعبس بقوة، وهمزت جوادها فانطلق يعدو بها بعيداً، ومن خلفها سمعته وهو يحث جواده على اللحاق بها، ويطاردها في إصرار. وبشكل مباشر تماماً، وفي غضون أسابيع قليلة سريعة، ظل يلاحق رغبته الفردية.

* * *

تابعت الأم حديثها: «إن تلك الأمور لا تليق بك، لقد كنت دائماً عاقلة ومتزنة، جايل هي من كنت لأتوقع ذلك منها، لقد كان مذهلاً حقاً بالنسبة لي بعد كل ما مررنا به معها، وهي تتخيل أنها غارقة في الحب مع مدرب الخيول، وبعدها مع ذلك السائق الغبي الذي كان يعمل لدينا، والذي كان اسمه على ما أذكر جورج أو ما يشبه ذلك أو غيره، ثم بعد ذلك شاب تلو الآخر، استقرت مع كل منهم قليلاً، ثم قررت أن تحب رجلاً قوياً صلباً مثل هارفي. كم كان ذلك صادمًا له هو أيضاً». توقفت عن الحديث لتستغرق في الضحك قليلاً ثم تابعت: «حسنًا، لقد كان نجدة لها بكل تأكيد، ولكنك لم تكوني أبدًا كذلك».

أجابت بعناد: «أنا لا أعلم إن كنت كذلك الآن، ربما فقط أنني أردت قضاء بعض الأوقات السعيدة».

قالت الأم بحزم: «أنت فقط تشيرين الأقاويل في بكيين بكاملها، إذا كان ذلك هو كل شيء. ولكن بالطبع أي فتاة ينظر إليها بيرت هولم

الآن فإن ذلك كافٍ ليشير الأقاويل، وقد قلت لوالدكِ هذا الصباح: ربما علينا أن نستمر في رحلتنا، فعلى كل الأحوال، نحن نريد أن يكون محل اعتبار لديك، أنني لن أسمح بأن يُقال عنكِ إنه قد أخذكِ، ثم تخلى عنكِ».

وهنا، خفق قلبها بعنف، كيف لوالدتها أن تقول لها كل هذا، وهي لم تخبر أحداً شيئاً بشأن نورمان!

استمرت الأم في حديثها، وهي تقوم بتلميع طلاء ظفر سبابتها باهتمام: «وحتى إذا ما كنتِ أنتِ مَنْ ترفضين بيرت هولم؛ فلن يصدق أحد ذلك أبداً». كانت في غرفة والدتها في الفندق، وفي خلال عشر دقائق، سيكون بيرت هولم قد أتى من أجلها، فمن المقرر أن يذهب في جولة على ظهور الخيل إلى التلال الغربية، كما اعتادا ذلك غالباً كل صباح من الأسابيع الماضية منذ أن التقيا معاً لأول مرة، كانت أمريكا كلها تنادي بيرت هولم للعودة للوطن، ولكنه لثلاث مرات متتالية يقوم بإلغاء حجز الباخرة.

واليوم وصل خطاب مثير من جايل تقول فيه إن الصحف اليومية تردد أخبار قصة ما، وأخذت تتساءل عن حقيقتها، عن كيت وبيرت هولم وكيف أنهما يتنزهان معاً في جولات يومية؟

فقالت الأم بشكل يوحى بالخطورة: «أشعر أنه يجب عليكِ اتخاذ قرار ما في هذا الشأن». ووضعت طلاء الأظافر من يدها، ونظرت إلى ابنتها، وقد تعكر مزاجها فجأة، وقالت: «برغم كل شيء يا كيت، أنا لا أعلم شيئاً عن هذا الـ بيرت هولم ما هو؟ إنه من عائلة متواضعة جداً،

كما أنه لم ينل قسطاً وافراً من التعليم، والآن، سوف يكون لديه المال بالطبع، وستنهال عليه العقود والوظائف، وكل تلك الأمور المقدمة له، ولكنني لست أدري ..».

سألتها ابنتها: «ما الأمر؟».

أجابت أمها، وهي تتهرب منها: «هو ليس مثلكِ حتى في أصغر الأشياء». تناولت طلاء الأظافر مرة أخرى، وعادت تحديق في أظافرها قائلة: «أتعرفين، في الربيع الماضي، ظننت أنكِ ربما كنتِ مهتمة لشأن ذلك الشاب الذي يكتب المسرحيات، ماذا كان اسمه؟ أظنه نورمان لينلاي».

اندفعت كيت قائلة: «لا، لم يكن مهتماً لأمرٍ على الإطلاق».

قالت الأم بشكل سلبي: «حسناً، فقط كنت أسأل الآن، هو ...».

قاطعتها كيت بمرارة: «أنا لم أكن لأتزوج شخصاً مثل نورمان، كانت مسرحياته تعني بالنسبة له أكثر مما يمكن أن تعنيه أي امرأة في العالم. لم يكن يتحدث عن شيء غيرها. لقد جعلني أشعر بالضجر الشديد».

قاطعتها أمها: «ما كنت أود أن أقوله: على الأقل كان مهتماً بنفس الأشياء».

أجابت كيت بسرعة: «ولكنه لم يكن يعتقد ذلك، فقط كنا بالنسبة له أشخاصاً رأسماليين كريهين».

قالت الأم: «أنا أعني بالنسبة للشعر والمسرحيات ومثل هذه الأشياء»، صرخت كيت باكية: «أمها، كان نورمان يحترق ما أكتبه من شعر».

كانت من داخلها ترفض بغضب تلك المرارة التي انبعثت من قلبها، عندما تحدثت والدتها عن نورمان، ولكنها تابعت: «فقط كان مهتمًا بالكتابة عن المشكلات الاجتماعية»، كانت تريد أن تنتقم من نورمان، وأن تؤلمه أمام نفسها ووالدتها. فقالت: «كنت أتمنى لو أنك سمعت الطريقة التي يتكلم بها عن أبي، كان يعتبره خطرًا على المجتمع».

قالت السيدة تالانت بأريحية: «حسنًا، والدك معتمد على ذلك، غالبًا ما يقول الشباب والمراهقين ذلك قبل أن يقوم أي منهم ببناء نفسه وحياته، ولكن أنا شخصيًا أفضل نورمان، سوف يكون أكثر ثباتًا بمجرد أن يبدأ فعليًا في الحصول على المال في (برودواي)».

قالت كيت بغتة وهي تنظر في ساعة يدها: «لقد حان الوقت، على أن أذهب. سوف يكون بيرت بانتظاري في بهو الفندق الآن».

تنهدت السيدة تالانت قائلة: «حسنًا، فقط احترصي لنفسك، إننا هنا في أكثر الأماكن التي رأيتها في العالم ثروة ونميمة، كما أنه ليس هناك شخصية شهيرة حاليًا أكثر من بيرت هولم، بالتأكيد أنا لا أعلم، ولكن أفترض أنه يجب أن يتملقني الجميع، إنه البطل القومي»، ثم نظرت إلى ابنتها كيت بفخر يشوبه الشك.

انحنى كيت لتقبل وجنتي أمها الناعمتين المحمرتين، وهي تقول: «أرجوك يا أمي ألا تفكري في زواجي الآن، أنا لم أحسم رأيي بعد في هذا الشأن».

ولكن في طريقها للنزول إلى البهو، أقرت بأنها بالفعل في غضون أسابيع قليلة، قد وصلت إلى النقطة التي يتوجب عليها عندها

أن تحسم أمرها بهذا الشأن. لم يكن الأمر فقط من أجل تلك الثروة الدائرة في حفلات لعب البريدج، أو أثناء تناول الشاي في السفارة والتي بدأت تزحف وتنتشر حول العالم، بل إنه يتعلق بما بينهما هي وبيرت، من أنه قد بلغ أقصى درجات الضرورة التي يتوجب معها اتخاذ قرار.

لقد رأت من زاويتها أن طبيعة هذا الرجل حاليًا تتركز في مدى إصراره ببساطة وصرامة، على أنه يريد لها. هو لم يزعم أي شيء غير ذلك، أينما التقيا. وقد تقابلا في كل مكان من تلك الدائرة الصغيرة المزدحمة في مجتمع الغربة، وقد اتجه نحوها بشكل مباشر، ولم يستطع شيء أن يحوله أو يلهيه عنها. بدأت تشعر بشكوك النساء تحوم حولها، «هل حدث أن ارتبطت به، أم لا؟». كانت أعين الناس تتساءل، هل يجب أن يتم ارتباطهما، أم أنه يجب عليها أن ترحل بعيدًا عنه، لقد وصل الأمر لهذا الحد. إلى الحد الذي أصبح معه الأمر يخص كل الناس، وأصبح لزامًا عليها أيضًا ألا تدعه مقيّدًا إليها بخيوط من عدم اليقين. كان ذلك هو ما يشعر به الناس، لو أنها خطبت له، فسوف يتقبلون ذلك بنفس الدفء الذي يمنحونه لبطلات القصص الرومانسية، إنها كيت تالانت، ابنة عائلة تالانت العريقة الثرية، من سلالة أمريكية أصيلة. وإن كان الأمر سيفقد بعضًا من رومانسيته إذا ما حدث، ذلك أن بيرت هولم سوف يتزوج، ولكن نوعًا جديدًا من الرومانسية سوف يولد، رومانسية الحب اليافع والحياة العائلية السعيدة، تلك المثاليات المحببة للشعب الأمريكي. وهنا، فسوف يرفعها الناس إلى جانب

بيرت في ذات المكانة المقدسة، وإن لم يكن بنفس القدر، ولكن أقرب ما يكون إلى ذلك.

إلا أنها كانت تكره ذلك النوع من التقديس، فقد فكرت في ذلك بصبر نافذ، كما أنها تعلم الآن أن رغبة بيرت في ألا يكون ملكية عامة، لا تقل عن رغبتها في ذلك. وقد قال لها مرارًا بأنه يريد أن يتزوج بها ليستقر، على أن يقومًا معًا مرة كل سنة أو ما شابه، بالخروج في بعثة في مكان ما بالجبال، وهذا هو كل شيء، وسوف يتوجب عليها مرافقته عندئذ كما أنه سوف يعلمها تسلق الجبال، وسوف يقضيان معًا أوقاتًا من السعادة والمرح. فقد استمعت إليه، وهي في شك من ذلك، وهو يقول إن وحشة الجبال مهما كانت سوف تتلاشى في وجوده.

أبصرته الآن في أبعد مقعد في البهو، مستندًا بظهره إلى الباب الرئيس، نهض واقفًا لدى رؤيتها، وظل منتظرًا، دون أن يلحظ أن كل الموجودين في البهو يحدقون فيه، وحتى لو تلاحظ له ذلك، فقد قرر ألا يعيرهم أي اهتمام، إنه لشيء لا يوصف.

حاولت أن تكون غير متكلفة، وفي ذات الوقت واعية تمامًا لكل الأعين المنصبّة عليهما، فبادرته بالحديث قائلة: «مرحبًا».

أجابها: «مرّ عليّ عمر من الانتظار، كأنه الجحيم».

قالت وهي تنضم إليه: «ولكنها ما زالت فقط الحادية عشرة».

لم يجب بكلمة، وهما يتجهان معًا صوب الباب، وفي الخارج، كانت الخيول الصينية مسرّجة بانتظارهما تحت شجرة كبيرة، بينما كان

يتمتع ببضع كلمات وهو يحكم اللجام حول الجواد.

سألته: «ما الأمر؟».

ولكنه أجاب باقتضاب: «فقط دعينا نذهب».

تحركا بسرعة وفي صمت عبر الشارع الواسع، ثم اتجها منه غربًا عبر الضواحي بمبانيها الطينية ومتاجرها الصغيرة.

وتحت سماء زاهية الزرقة، بدا بيرت لها مثل الهنود في خوذته الشمسية البيضاء، بنقوشها الملونة المبهجة. كان في تلك الحالة المزاجية، التي يكون فيها غاضبًا دون أن يعطيك سببًا واحدًا لذلك، لم تكن تنوي أن تتفوه بكلمة واحدة، ولكنها استشفت من تلك الطلعة المتجهمة، أنها يجب أن تقرر شيئًا ما اليوم. كما أنه لم يكن أفضل حالًا منها، إذ إنه لم يعد يحتمل ذلك التوتر بسبب تردها وعدم جرأتها على اتخاذ قرار.

أرقدت جوادها بسأم تحت الشمس، التي لم تكن حرارتها الحارقة قد هدأت بعد في أوائل شهر سبتمبر، إلا أن ما أربكها أكثر، هو أنها لم تعد تدري ما الذي تريده حقًا الآن، رافضة كل ما كانت تريده من قبل، وبشكل مفاجئ، هل كانت بحق طعنة مميتة، تلك التي سددها نورمان نحو قلبها؟ لم تكن متأكدة، ولكن الشيء المؤكد هو أنه لم يعد له مكان في قلبها على الإطلاق، استطاعت أن تستحضر صورة ذلك الرجل القوي ذي البشرة الداكنة، كما أمكنها أن تقول لنفسها بيقين: «أنا لم أعد أهتم، ولم أكن لأهتم حتى لو كان موجودًا هنا». إنه لم يعد نورمان. فبعد رحيله كان هناك فراغ كبير من حولها،

ومن قلب ذلك الفراغ، قابلت بيرت هولم. نظرت إلى الفتى الصامت الجالس إلى جانبها، لقد أحبته، وكان هذا هو الشيء المؤكد بالنسبة لها. أحبته أحيانًا، ولكن ليس بتلك الطريقة المرضية التي أحببت بها نورمان، ليست لديها أي نوايا للمزيد من ذلك، وتساءلت كثيرًا، مع ذلك التشاؤم الذي اعتراها، والذي خلف من ورائه ندبة بارزة في قلبها بعد شفائها من اليأس، هل ما كان يجمع بينهما هي وبيرت ليس أكثر من اتحاد العرق في بلد أجنبي بالنسبة لهما على حد سواء، بحيث لو أنهما كانا في الوطن، ما كانا ليصلا بمثل هذه السرعة، أو حتى على الإطلاق، إلى لحظة كهذه؟

فوسط الحشود الصينية التي التفت حولهما، كانا هما الاثنان يتحدثان لغة لا يفهمها أي ممن حولهما باستثناءهما فقط، كانا وحيدين معًا، ولكن حديثهما كان واضحًا تمامًا لكلٍّ منهما على تلك الأرض، لذا، كيف كان يمكن أن يكون الأمر في جلين باري في نيويورك؟ كانت تستطيع رؤيته فقط مثلما هو الآن وسيماً للغاية ومتجهماً للغاية يطلب يدها. فمن بين كل ذوي البشرة الداكنة من حولها، والتلال المحيطة، كان في روعة تمثال من الرخام في حجم بطل حقيقي.

ولكن بعد ذلك، والآن فقط، أحببت صمته الهائل. كان تقريبًا دائم الصمت. بينما نورمان كان ثرثارًا، عجولاً شديد الحماس، كانت الأفكار تندفق منه مثل الرشاشات، أو مثل نافورة فوارة من الكلمات، لم يكن يمكنه التوقف للحظة.

كانت في بعض الأحيان تشعر بالتعب، من جنونها في الشعور

بالحب كما كانت معه، كانت هناك أوقات داهمها فيها التشوش والضعف، كما لو أنها فاترة العقل والروح معًا.

والآن، وهي تحدث نفسها، أول ما جال بخاطرها، وبشكل جوهري، أنها تحب الهدوء، ففي الهدوء يستطيع الإنسان أن يتأمل، وأن ينضج ويرى حقائق الأمور. فإذا ما تزوجت ببيرت؛ فإن صمته سوف يترك لها الوقت والمساحة الكافية ليتنفس كيانها. إلى جانب ذلك، ألم يكن يقال دائمًا إن الصمت في الرجل يسير جنبًا إلى جنب مع القوة؟ ومن الناحية الجسدية، كان قويًا للغاية، فعندما ارتكزت بقدمها على يديه لتمطي جوادها، رفعها كأنها لا شيء، شعرت بالاشمئزاز وهي تفكر بأنها ربما تكون سيئة جدًا، تمامًا مثل جايل، فعندما تكون جايل غارقة في الحب مع شخص ما، فإنها دائمًا ما تهتف: «آه يا عزيزي، إنه يجعلني أشعر كم أنا ضئيلة وضعيفة، كم هو رائع».

المرأة! إنها لفاجعة حقيقية أن تكون امرأة فحسب. ربما يومًا ما عليّ أن أستسلم لكوني امرأة، سواء عاجلاً أم آجلاً.

لقد جاوزا ضواحي المدينة، وهما الآن في الحقول المستوية، متوجهين نحو التلال ذات الحواف الحادة. لقد ذهبا إلى هناك كثيرًا، ودائمًا على ظهور الخيل، وقد أصبحا يعرفان الآن مكانًا واحدًا أو آخر بشكل مألوف. كانت التلال عارية مواجهة للسماء، وفي الوديان المحيطة بها الواقعة فوق بعض البساتين العميقة، والجداول الهادئة، وبعض المعابد القديمة المختبئة عن الأنظار، حيث كان الرهبان في تلك المعابد يقومون بالترحيب بهما ويقدمون لهما الشاي وبعض الحلوى

والكعك المصنوع من الزيوت النباتية والمغطى بحبوب السمسم. حيث كانا يقضيان أوقاتاً سعيدة هناك. لم يكن بيرت يهتم كثيراً بما كان يقوله الرهبان وهم يحدقون فيهما، وعلى العكس منه كان الفضول يدفعها دائماً لمعرفة ذلك، فكان يظهر بعض الاهتمام غير المفتعل بما قد يشغل تفكيرها، إلا أن ذلك كان مرهوناً بحالته المزاجية وقتما تسمح بذلك، وقد كان ذلك القدر من الاهتمام كافياً بالنسبة إليها، وذلك فقط في حالة شعورها بأن الدافع من ورائه هو حبه لها. ولكن على أي حال، ألم تكن تتوقع تلك السخافات؟ مَنْ كان ليعتبر كل هذا شيئاً غير الرومانسية؟ أن تذهب مع بيرت هولم في جولات على ظهور الخيل عبر المناظر الطبيعية الصينية، وتحت هذه السماء الزرقاء البراقة، متجهين نحو تلك التلال الرائعة - ليست هناك فتاة في أمريكا، وربما في العالم بأسره، لم تكن لتحسدها على كل هذا.

رق قلبها فجأةً وابتسمت، وبطرف السوط الذي في يدها، لمست ظاهر يده حيث ينعقد حوله زمام عنان الجواد، وبادرته بالحديث في رجاء قائلة: «ها تحدث إليّ، أرجوك».

استدار ناحيتها على الفور، وعيناه تلتمعان بجاذبية، وقال لها: «ليس لديّ إلا الأشياء القديمة التي قلتها لك، هل تودين سماعها مرة أخرى؟». لم تجبه بكلمة واحدة، والآن، بعد أن ألقى بأوراق اللعب بين يديها بهذه الطريقة، شعرت بقليل من الخوف مرة أخرى، إذ ألم توقفه هي الآن، فإنه سوف يستمر في ذلك. ولكنه كان بالفعل مستمراً قبل أن تنال الفرصة لتقرر، فمضى يقول: «لأنني ظللت منتظراً كثيراً طوال الفترة الماضية،

على ما أظن، وقد ظللت أفكر كثيرًا في اليومين الماضيين، حتى توصلت إلى قرار بأنني سوف أطلب منك الزواج مرة أخرى، وعليك أن تقرري ما هو رأيك في هذا الموضوع، أو أنني سوف أعود وحيدًا للبيت».

أجابته مرة أخرى في رجاء: «ألا يمكنني أن أختار الزمان والمكان المناسبين؟». ولكن تحت سطح ذلك المرح المصطنع الذي تتظاهر به، كانت تفكر في سكون، «الآن، حتمًا عليّ أن أقرر شيئًا لأنه يبدو ببساطة أنه يعني حقًا ما يقول».

أجابها بثبات: «لِكِ هذا، في أي وقت خلال اليوم، وعلى أي مكان فوق ذلك التل المقابل هناك في المقدمة». وأشار بالسوط في يده إلى ذلك التل القريب منهما. وهنا، خلا صوتها من المرح وهي تقول: «حسنًا، بيرت، ليكن ذلك في بستان الخيزران، أتذكر ذلك المقعد الحجري هناك؟ حيث يمكننا أن نربط الخيول».

نظر إليها نظرة حادة، ثم قال: «حسنًا، لا بأس».

كان لديها أقل من ساعة واحدة لتحسم أمرها خلالها، فهو يعلم الآن كم أنه صار مفتونًا بها، كما لم يكن أبدًا كذلك مع لي لي، ولا حتى في بداية حبه لها. تلك الفتاة تختلف عن أي فتاة قابلها طيلة حياته. لم تكن تدعه يلمسها، ولا حتى أن يضع ذراعه حولها. كان عليه فقط أن يفكر في مدى النعومة التي يمكن أن تكون عليها حين يضمها في أحضانه. ظل يفكر في ذلك نهارًا وليلاً. ولكن، لا يمكنه بلوغ ذلك منها. فبقدر ما كانت ضئيلة الحجم، حتى إنه يمكنك أن تقصفها إلى نصفين مثل عود ثقاب، إلا أنه كان هناك شيء مختلف فيها. لم يكن ما يحركه هو مجرد

الرجبة في أن يضمها أو أن يقبلها، مثلما كان الأمر مع لي لي، لقد كان شيئاً أبعد من ذلك بكثير، لقد أراد فقط أن يكون إلى جانبها، يحيطها أينما كانت، معها حتى في الحجرة، وحتى إذا ما كان هناك الكثير من الناس أيضاً، فعندما دخلت إلى الحجرة، كان كل شيء على ما يرام. وهذا يعني له شيئاً واحداً فقط، أنه يجب أن يتزوج بها.

في صمت ترجلا عن جواديهما، وفي صمت أيضاً أخذ هو بأعنة الخيول ليربطها إلى إحدى أشجار الخيزران من حولهما، بينما جلست على المقعد الحجري، وخلعت قبعته، تاركة الريح تعث بخصلات شعرها الناعمة. والتي أتت منعشة، ومحملة بعبق زهور اللوتس التي امتلأت بها الأشجار على ضفاف البحيرة على مقربة منهما، كان لديها شعور غريب بالرصانة، بمجرد أن وضعت قبعته والسوط من يدها على الأرض، وخلعت قفازيها أيضاً ووضعتهم إلى جانبهما. وهكذا، جلست تنتظره وقد أطبقت يديها وشبكتهما بأناقة وخفة على ركبتيها المتقاطعتين. أرادت أن تكون هادئة ومتزنة، بينما تشعر بأن ضربات قلبها تتصاعد، حارة تفرع خلف ضلوعها بمجرد أن بدأ يقترب منها، شعرت بأن قبولها لطلبه، بمثابة سيف سوف يشطر حياتها إلى نصفين، وسيرحل عنها الماضي بلا رجعة، ولكن هل يمكن لذلك الجزء الجريح منها أن يُشفى مرة ثانية، أم أنها ستمضي في طريقها بجرح لا يندمل؟ لم تكن تدري شيئاً عن ذلك، ولكنها على الأقل كانت على استعداد تام لذلك الانشطار.

لم يجلس إلى جانبها، وبدلاً من ذلك وقف أمامها واضعاً يديه في جيبه، ينظر إليها للأسفل، ثم بدأ يتحدث: «أظن أنك تعلمين جيداً ما

أود أن أقوله يا كيت، فقد سبق لي أن عبرت عنه بكل طريقة أعرفها،
بمرح أو بجد، تبعاً للحالة التي تكونين عليها وقتها، ولكن ذلك كله كان
يؤدي إلى نفس الشيء، أنني أريدك أن تتزوجي بي».

أومأت برأسها قائلة: «أعلم هذا يا بيرت».

كان يفكر جيداً في كلماته، ثم قال ببطء: «أنا أوّمن بالحدس، فقد
عشت حياتي من قبل دائماً معتمداً على حدسي الخاص، وكان ذلك ما
شعرت به في أول يوم التقينا معاً، أنك أنتِ البنت التي أريدها بحق، لقد
كان هناك شيء ما في تلك الطريقة التي ابتسمت بها لي عندما جلسنا معاً
إلى المائدة على العشاء، وربما أخطأ حدسي هذه المرة، ولكني أوّمن
بقوة بعكس ذلك».

ابتعد عنها بضع خطوات، وهو يحرق بعيداً عبر مشاهد الطبيعة
المحيطة، بعينين صافيتين ثابتتين. لم تكن قد رآته بمثل هذه الحالة من
قبل، لقد كان يبدو في السابق أحياناً مستبداً ومتعنتاً، وأحياناً أخرى يبدو
صبيانياً كثير الشكوى، ولكن لم يكن أبداً بهذا الهدوء، بهذه العقلانية
والمعقولية، بهذا القدر الكبير من الرجولة، والضئيل من الطفولة.

ثم أضاف أخيراً: «أنتِ تبدين حقيقية بالنسب لي».

أجابته وهي تستعير منه نفس أسلوبه وتلك البساطة اللغوية في
الحديث: «وأنت تبدو لي حقيقياً أيضاً».

عاد يركز عينيه عليها مرة أخرى، وهو يجيبها: «هل أبدو كذلك حقاً؟
هذا رائع جداً، كم أنا سعيد بهذا، هذا يعني الموافقة، أليس كذلك يا كيت؟».

جلس على الأرض بجانبها، وانتظرت أن يأخذها الآن بين ذراعيه، لقد كانت دائماً مضطرة لأن تصد رغبته الملحة كل مرة في أن يُقبِّلها، فلم يسبق لها أن تركته يفعلها، لذلك السبب البسيط جداً، وهو أن أحداً لم يُقبِّلها منذ أن فعل نورمان، وإلى أن تتأكد من حقيقة ما تشعر به... ولكنه لم يتحرك باتجاهها، وبدلاً من ذلك، وبطرف السوط في يده أخذ يتتبع خطوط حذائها الجلدي المرتفع كأنه يرسم خطأً يحيط بها، وحول قدمها، ثم ألقى بالسوط جانباً على الأرض، وانحنى ناحيتها، متسائلاً بنفاد صبر: «حسناً؟».

لقد كان سخفاً شديداً منها أن تصل إلى هذه اللحظة، دون أن تكون قد علمت حقاً ما تريد. كان لا بد لها من اختبار، أو شيء من الضغط، كان هذا كافياً لأن يهوي بسيف القرار الذي انتظر كثيراً ليحسم الأمر، فقالت بشيء من الارتباك: «قبِّلني».

وهنا، تحركت شفته العليا بإغراء، وهو يسألها: «هل أنت متأكدة حقاً مما تريد؟».

أومأت برأسها في صمت، وعلى الفور شعرت بذراعيه تحيطان بها، بقوة كحزام من الجلد يربطها إليه، ثم لامست شفته شفتيها، وراحت تضغط عليهما وترتشفهما برفق، كانتا ناضرتين وبغاية العذوبة على غير المتوقع، حتى شعرت بذلك الانقسام، مؤكداً وصافياً في أعماق قلبها. فعندما كانت على علاقة بنورمان، لم تشأ أن يعلم أحد شيئاً عن ذلك، كانت ترى أنه إذا لم يكن أحد يعلم بأمرهما، فكأنه ليس هناك أحد في العالم سواهما، هي ونورمان. ولكن شيئاً من ذلك النوع من

الحب لم يكن حاضرًا في هذه المرة، لقد أرادت أن تخبر الجميع، تخبر العالم بأكمله.

وعندما ودعها بيرت في بهو الفندق، طارت عبر الدرج الكلاسيكي الواسع إلى غرفة والدتها، كانت تلك الساعة ما قبل العشاء التي يمكنها فيها أن تجدهما معًا، والدها ووالدتها، وعلى ما تتذكر، فإن ذلك كان دائمًا الوقت المناسب تمامًا، الذي تختاره هي وجايل، إذا ما أرادت أي منهما أن تخبر والديها شيئًا، أو أن تطلب منهما شيئًا. وقد كانا هناك الآن بالفعل، كانت والدتها ترندي زيتها القديم من الحرير الأزرق، وقد زينت وجهها بعناية بنوع من الكريم المرطب، بينما تتمدد مسترخية على أريكة طويلة مريحة، في حين كان والدها يرتدي قميصه، وقد خلع عنه ياقته البيضاء، وجلس يدخن غليونه في هدوء.

وبمجرد دخولها الغرفة اتجها بناظريهما نحوها، حيث وقفت مستندة بظهرها إلى الباب وعلى شفيتها ترسم ابتسامة واسعة.

ثم قالت: «لقد ارتبطت ببيرت هولم».

صاحت والدتها: «ماذا تقولين يا كيت؟!».

بينما قال والدها السيد تالانت: «حسنًا أعتقد أنني ..».

في حين قاطعته والدتها بحيوية ومرح وهي تعتدل جالسة: «تعالى إلى هنا لأُقبلِك يا صغيرتي!» ارتمت كيت بين أحضانها، وتلقت قبلتين حانيتين على وجنتيها، فتابعت والدتها: «كم أنا مسرورة لأنكِ قد حسمتِ أمركِ أخيرًا، بطريقة أو بأخرى».

وقال والدها السيد تالانت مرة أخرى: «حسنًا»، ولكنه شعر بأن ذلك لم يكن كافيًا، فأضاف باعتراض طفولي: «ألن يأتي إليّ إذن ليطلب موافقتي؟». أجابته كيت: «غداً يأتي إليك يا أبي»، لم تكن تريد أن يأتي بيرت هولم الليلة، على الرغم من أنها لم تكن تعرف لماذا. لكن، هي الآن تعلم، أرادت أن تذهب أولاً إلى غرفتها الخاصة، وأن تكتب لنورمان لتخبره بذلك. ذلك أنها أخبرته بأنها ستتحرر منه إلى الأبد. فلا يمكن للمرأة أن تحلم برجل، عندما تكون مرتبطة بآخر، وعلى نورمان أن يعلم أنها لن تفكر فيه مجددًا.

قالت لها والدتها: «آمل أنك لا تخططين لحفل زفافك بتعجل»، أجابت كيت: «أنا أكره حفلات الزفاف السريعة غير المنظمة، لقد فكرنا بأننا يجب أن نتم زفافنا بتمهل، ولكن هنا، قريبًا جدًا. بيرت لا يريد مزيدًا من الانتظار».

قالت والدتها معترضة بحزم: «كلا، لن يحدث أن تتزوج إحدى بناتي في بلد غريب، لقد أقامت جايل حفل زفاف جميل في البيت، بالإضافة إلى ذلك، يا كيت، فأنت لا تتزوجين شخصًا عاديًا. بل تتزوجين بشخصية عامة معروفة، كل هذه الأسباب يجب من أجلها أن يكون كل شيء في حفل زفافك كأجمل ما يكون، وأن يكون محافظًا، على قدر ما يمكن أيضًا»، ثم اكتست ملامحها بالجدية وهي تخطط بسرعة وتضيف: «سوف نعود للبيت بالطريقة التي خططنا لها معًا، وربما كان من الأفضل له أن يذهب في مركب آخر. وبمجرد أن نعود للبيت أنا ووالدك؛ فسوف نعلن خطبتكما، وبعد ذلك سنقيم حفل زفاف

هائلاً مشرفاً في كنيسة الصغيرة في جلين باري».

قال السيد تالانت فجأة: «لن يكون هناك المجال للكثير من التفاوض في ذلك». كانت الأمور قد أصبحت الآن على عاتقه، فهو في طريقه لأن يصبح صهر بيرت هولم! فتابع قائلاً: «أنت لا تدركين يا حبيبتي، كيف سيكون الأمر عندما يعود هذا الفتى إلى الوطن، لن يكون هناك أي هدوء، أتذكرين كيف كان الأمر عندما عاد ذلك الـ .. الآخر، لا أذكر اسمه، لا بأس، من القطب الجنوبي؟ تحول البلد بأكمله إلى حمى مجنونة بين عشية وضحاها. نصيحتي لك أن تتركيهما يتزوجان هنا، على الأقل لن يكون هناك ذلك الكم الهائل من الصحفيين والمراسلين الذين سوف يملأون كل شبر كما سيحدث هناك في أمريكا، أينما يتواجد بيرت هولم».

اعترضت السيدة تالانت قائلة: «ولكنني أريد أن أحمي كيت من القيل والقال».

أجاب السيد تالانت: «إذن، فإنه يجدر بها أن تتم زواجها على الفور». إن هذا الزواج لن يمر هكذا بسهولة في الحقيقة، هذا ما توصل إليه عقله الحصيف بسرعة، إنه لن يمر شيء بسهولة لفترة طويلة مقبلة من الزمن، فقد شعر بشيء من الخزي، وهو يتخيل مدى سخرية تعليقات شركائه في العمل، عندما يسمعون نبأ زواج ابنته من بيرت هولم، وأنه قد أصبح صهره. من كان ليظن أن جايل سوف تتزوج بهارفي كرين، ذلك الرجل القوي مثل سفينة هائلة، بينما كيت الهادئة الرزينة، تتزوج بذلك الصاروخ الذي هبط علينا من السماء؟

راحت كيت تنقل بصرها بين والديها، وكل ما يشغل ذهنها في هذه

اللحظة، بل ويبدو لها ملجأ عاجلاً أكثر من أمر زواجها، هو أن تذهب على الفور إلى غرفتها وتكتب خطاباً لنورمان لتخبره بالأمر. وطوال طريق عودتها إلى الغرفة، لا - بل منذ اللحظة التي لامست شفتا بيرت هولم شفتيها، وهي في تفكير لا ينقطع، عما ستقوله لنورمان وكيف ستخبره بذلك، وكيف ستجعله يدرك أنها الآن وجدت الطريق للسعادة، السعادة الغامرة.

وقبل أن تغادر غرفة والديها التفتت ناحيتهما وهي تقول: «عندما تقرران ماذا ستفعلان يا والديّ الحبيبين، فسوف أعود مجدداً لأرى ما إذا كنت سأنتفق معكما بشأنه أم لا». ثم أغلقت الباب عليهما، وتوجهت إلى غرفتها الخاصة سريعاً كما لو أن طائرة أقلتها.

وشرعت بالكتابة: «عزيزي نورمان، سوف يكون أمراً هاماً بالنسبة إليك أن تعلم، أو ربما عليّ أن أتساءل إذا ما كان يعينك الأمر، بأنني سوف أتزوج بيرت هولم. رجل الساعة في البلاد بأسرها، هكذا أطلقت عليه بنفسك ذات مرة، أليس كذلك؟ حسناً، لقد كنت مخطئاً في ذلك أيضاً، إنه رجل حياتي بأكملها، لقد اعتزمتنا أن نتزوج قريباً، وبمنتهى الهدوء، هنا في الصين؛ لأن كلينا يكره الضوضاء والشهرة. وبعد ذلك، فسوف نعود إلى أمريكا لنعيش معاً في سعادة أبدية. أين؟ لست أدري حتى الآن، ولكن بالتأكيد في مكان ما بالقرب من الجبال من أجله، وبالقرب من البحيرة من أجلي. لقد قمت برحلة متألقة، والآن تمضي إلى نهاية رائعة لا تُصدق. إنني أكثر النساء حظاً! شكراً لك، شكراً لك يا نورمان؛ لأنك استطعت أن ترى ما لم أستطع أنا رؤيته قبلك، وهو أننا لم نكن نصلح معاً، كم كنت حكيماً في ذلك،

«كيت»

لم تعد قراءته مرة أخرى. فما الداعي لذلك، وقد نقشت كل كلمة به في قلبها قبل أن تخطها يدها؟ أغلقت المظروف ووضعت طابع بريد عليه ثم قرعت الجرس، وعندما حضر صبي خدمة الغرف الصيني إلى باب غرفتها، أعطته الخطاب ومنحته بعض النقود قائلة: «أريد لهذا الخطاب أن يلحق بأول بريد مسافر إلى أمريكا».

أجاب الصبي: «نعم آنستي»، وهو يلتقط في سرور العملات المعدنية. شاهدته وهو يغادر مهرولاً في سعادة، ثم أغلقت الباب.

الآن أصبحت حرة. وقفت لدقيقة، تقبض على شعورها بالحرية، ولكن، إذا كانت حقاً تشعر بالحرية، فإنها تستطيع الآن أن تنتزع صورته من حقيبتها، وأن تدمرها أخيراً. فلم تكن قد نظرت إليها منذ أسابيع. وهذا بالتأكيد يعني شيئاً، أليس كذلك؟ فعلى الرغم من أنها ظلت تشغل تفكيرها مرات ومرات، إلا أنها لم تنظر إليها كما اعتادت سابقاً. اعتقدت في تلك اللحظة، وهي تحصي دقائق قلبها، أنها أبداً لم تكن بتلك السرعة في حياتها وهي تتجه إلى حقيبة أمتعتها، وتفتحها وتخرج صورة نورمان منها.

كانت مجرد نظرة واحدة لتلك الصورة، كافية لتجبرها على البكاء بحرقة كما لم تفعل من قبل. لكنها ليست بحاجة الآن إلى البكاء، فحينها، ستكون عيناه الداكنتان هما من تشكوان، شعرت بأنهما مصوبتان نحوها، ولكنها لم تتحرك.

وأخذت تتمتم في خفوت: «أنت لم تردني، أتذكر هذا؟» استطاعت أن تتحمل خروجه المؤلم من قلبها، كشخص يريد أن يتعلم معنى

التحمل، وأخيرًا بالكاد أدركت، أن آلام جرحها القديم، لم تعد حادة الآن كما كانت، وأن ذلك الصدع في قلبها قد بدأ يلتئم بالفعل، ثم قالت لنفسها: «الآن، أستطيع أن أفعلها».

وقامت بتمزيق الصورة، ونثرتها عبر السجادة البيضاء الغليظة التي تغطي الأرض، ثم توقفت، ولكن فقط للحظة أو ربما لحظتين، وبعدها مزقت صورة وجهه بسرعة إلى أشلاء صغيرة، ثم ألقت بهم جميعًا في سلة المهملات.

ها قد فعلتها. ثم اتجهت إلى النافذة، ووقفت واضعة يديها على وجنتيها، وراحت تحديق في أسطح المنازل الصينية المزدهمة، فلم يبق منه شيء، كلا، لا شيء الآن سوى تلك النظرة الأخيرة من عينيه السوداوين، التي ستظل تذكرها دائمًا.

كيف يمكن للإنسان أن يمزق ذكرياته إلى أشلاء، وأن يلقي بها بعيدًا هكذا؟

همست لنفسها: «بيرت، أرجوك...».

أوقفت نفسها بغتة. يا للسخافة! كانت على وشك أن تقول له: «أنقذني!».

أيًا كان ما يعنيه ذلك!



الفصل الثاني

مع اقتراب الباخرة من رصيف الميناء في سان فرانسيسكو، أدركت كيت كم كانت على حق حين قررت التعجيل بإتمام زواجهما في الحال! فقد كان الأمر سيئاً بما يكفي عبر كافة الموانئ التي مروا بها في طريقهم، ولكنه أبداً لم يكن كما ترى الآن، أكوام من الخطابات والبرقيات المغلقة تكدست على أرصفة الموانئ، كما تبعثهم جماهير عريضة جاءت مسافرة بطول البلاد وعرضها لتتابع بيرت هولم بإعجاب كالكلاب المفتونة بصاحبها، إلا أن شعوره بالملاحقة هكذا قد أغضبه بشدة، حتى إنه هرع إلى الكابينة الخاصة بهما في الأسفل وأغلقها على نفسه في غضب جمّ.

وراح يصرخ في سخط: «إنهم ينتظرونني حتى عند باب دورة المياه. أقسم يا كيت عندما...».

قاطعته كيت بضحكة يرثى لها: «صه! توقف، إذا كان ما يحدث الآن يغضبك إلى هذا الحد، فماذا ستفعل إذن عند عودتنا للمنزل؟ إنها فقط البداية».

جلس على أقرب أريكة ونظر إليها نظرة يائسة وهو يقول:
«أتعلمين يا كيت، أقسم بأنني لو كنت أعرف، حين ذهبت إلى ذلك
الجبل اللعين...».

قاطعته مرة أخرى وهي تحاول أن تطمئننه: «كل شيء سيكون
على ما يرام بمجرد مضيّ الأيام القلائل الأولى». برغم ذلك فقد
شعرت بارتياح داخلي كبير لأن والديها قررا عدم العودة معهما؛
إذ إن بيرت باعتباره رجلاً شهيراً، لم يكن من السهل السيطرة عليه،
تجنبت الكلمة حين أحست وقعها، فهي أبداً لم تحاول السيطرة على
أي شخص، كل ما في الأمر هذه المرة أنها تحاول الحد من رعونة
بيرت في سلوكياته؛ لأن الجماهير من الصعب عليها تفهم ذلك.
ودونما قصد منها وجدت نفسها تقف حائلاً بين بيرت والمراسلين،
وبين المصورين المطاردين له في كل مكان، وأي شخص يمكن أن
يثير غضبه. ولكن الأمر سيكون مختلفاً حال عودتهما للمنزل، وبدء
حياتهما معاً. كانت تعلم أنها اختارت أن تتخذ طريقها بإرادتها الحرة
في درب مظلم، وعليها أن تستمر فيه إلى أن ييزغ النور من مكان ما.
ولما يحدث ذلك بعد. فمنذ بداية زواجهما في تلك الكنيسة الصغيرة
في بكين، وهي تشعر كما لو أنها تسير وسط ضباب محيط، ترى
بيرت بالكاد بشكل خاطف، حتى حين تمسه أو يمسه بين الحين
والآخر تشعر كأنهما شخصان يتحركان في عجلة من أمرهما كمن
كان على سفرٍ في رحلة تعج بالغرباء من حولهما. لم يكن لديهما من
الوقت حتى الآن ما يمكنها من أن تراه بهيئته كاملةً كما كان بالفعل

في حقيقته، وبالتأكيد لم يكن هو ذلك الوجه العابس دائم السُّباب الذي ينظر إليها الآن، كما لم تكن تلك الهيئة الصبانية الغاضبة، من طبيعته في شيء.

قالت له بهدوء: «ابق هنا، وسأخرج أنا إليهم، فقط سأجيب بعض الأسئلة لبرهة من الوقت». كانت معتادة على مقابلة المراسلين، فقد كان لعائلة تالانت أخبار أيضًا، ولكن على طريقتهم الهادئة المستقرة. قال بيرت: «أعطيني شرابًا».

تناولت زجاجة من على المنضدة وصبت قليلًا من الويسكي في كأس وناولته إياه، ثم فتحت الباب إلى الممر المؤدي لأعلى السفينة. وعلى الفور، اتجه نحوها شاب في حلة زرقاء داكنة، وسألها: «هل أنتِ زوجة السيد بيرت هولم؟» أجابته في هدوء: «نعم، كيف يمكنني مساعدتك؟». كان دفتر ملاحظاته بين يديه وقلمه على أهبة الاستعداد. فبدأ حديثه قائلاً: «محدثك مراسل صحيفة تايم أند تايد من سان فرانسيسكو، هل تمانعين في أن تخبريني أين يوجد السيد بيرت هولم؟».

أجابته بحزم: «إنه ليس هنا، ولكن، إذا كان بإمكانك أن تصعد إلى الردهة وأن تجمع باقي زملائك من المراسلين الآخرين؛ فستجد إجابات وافية، وسوف أخبرك بكل ما أستطيع التصريح به. فأنا واثقة أنك تتفهم مدى صعوبة أن أظل أكرر نفس الإجابات عن ذات الأسئلة مرات ومرات عديدة من أناس مختلفين». أجابها بسلاسة: «نعم سيدتي».

تبعها كأنه يخشى أن تختفي، وبطريقة ما وبمجرد أن تحرك، استطاع

أن يجمع أربعة مراسلين من الشباب، وفتاة واحدة وامرأة تكبرهم جميعاً
سنّاً تبدو على أعتاب الكهولة وقد تجاوزت منتصف العمر.

جلست كيت بالقرب من إحدى النوافذ، وبمجرد أن رفعت عينيها
استطاعت أن ترى الجبال على الجانب الآخر من جسر جولدن جيت،
بينما من ورائها، ومن وراء تلك السهول البعيدة، يقع ما كانت تدعوه
دائماً، البيت. ولكنها تشعر الآن كأنها قادمة إلى بلدٍ غريبٍ عنها.

بادرها بالحديث صوت متعجل يتسم بالاحترام قائلاً: «سيدة
هولم، أهنأك ما يمنع من أن تخبرينا متى التقيت بالسيد هولم؟». أجابته
بنبرة مطيعة: «في الثالث من شهر أغسطس الماضي، في مبنى القنصلية
الأمريكية في بكين».

تساءل آخر: «ومتى تزوجتما؟».

أجابت: «منذ ثمانية عشر يوماً، في منتصف الظهيرة في الكنيسة
الخاصة بطائفتنا هناك».

مرات ومرات أجابت كل تلك الأسئلة من قبل، في شانجهاي
وكوب ويوكوهاما وحتى في الهونولولو أيضاً.

- إذن فقد تعرفتما إلى بعضكما منذ حوالي شهر؟

- تقصد قبل أن نتزوج؟ نعم، هذا صحيح.

- هل تؤمنين بفترات الخطوبة القصيرة سيدة هولم؟

ارتسمت على شفتيها ابتسامة خفيفة، ثم قالت: «عندما يريد لها
الناس ذلك، بالتأكيد نعم».

وهنا تحدثت المراسلة الشابة: «معدرة، ولكن هلا أخبرتني من أي الخامات صُنع فستانك هذا؟». كانت تلقي بسؤالها وهي ترسم شيئاً ما بنفس السرعة التي تحدثت بها!

أجابتها كيت: «إنه من الصوف الإنجليزي». واسترقت النظر إلى رسم يدوي لها على هيئة موديل لتصميم أحد الأزياء بالألوان والتفاصيل وموضح ببعض الأسهم.

عاد المراسل الشاب إلى السؤال مجدداً: «هل لديكما أي خطط أيتها السيدة هولم؟».

- فقط العودة للمنزل.

- وأين يقع منزلكما؟

- لم نحدد ذلك بعد، ولكن في الوقت الراهن سنقيم في منزل والديّ في جلين باري.

- إنه بالقرب من مدينة نيويورك، أليس كذلك؟

- نعم.

- هل نستطيع رؤية السيد هولم؟

أجابت: «للأسف، إنه ليس على ما يرام الآن».

- إذن هل يمكننا أن نتقل للحديث عن آراء السيد بيرت هولم عن بعض ما يشغل ذهن القراء هذه الأيام؟ على سبيل المثال، الناس في حيرة شديدة من الموقف الياباني، وعن سبب رغبتهم في إشعال الحرب.

قاطعته قائلة: «هل تعتقد أنه لمجرد أن زوجي استطاع أن يتسلق أحد الجبال، فقد أصبح بذلك خبيراً بأمور السياسة!».

- كلا يا سيدتي، الناس فقط يريدون معرفة ما يفكر فيه السيد هولم. أجابت: «أنا لم أسمعه مطلقاً يتحدث عما يفكر فيه أو يعتقده». ثم أضافت: «حيال هذا الأمر».

- حسنًا، إذن، هل يمكنه فقط أن يدلي ببيان عن سياسة عدم الانحياز كما ينبغي تطبيقها في الحرب القادمة؟

وهنا تدخلت المراسلة الشابة بشكل حاد: «كيف يرى المرأة في نزولها إلى ميادين العمل؟».

أجابت كيت ببرود: «لست أدري».

واستمر ذلك السيل من الأسئلة لا ينتهي، كانت تجيب بطريقة آلية، بينما عقلها كان مشغولاً بنفسها وبييرت وحياتهما القادمة معاً، والتي لا شأن لها بأي من هذا الذي يحدث من حولهما. تلك الحياة التي لم تبدأ بعد، ترى أين كان بيرت الحقيقي؟ حدقت بناظرها بعيداً في رصيف الميناء بتصميمه الأنيق. أصبحت السفينة الآن قريبة بما يكفي لترى الجماهير المحتشدة، والتي كانت مخفية تحت المناديل التي تلوح لهما والأعلام المرفوعة من أجلهما. ألقت نظرة سريعة على التلال مرة أخرى. كانت دائماً ما تكره ازدحام الناس، فهل تساءلت عن سبب ذلك؟ كانت تعتقد بأنها ربما كانت شيئاً غير ذي معنى، كما كانت ساخرة بمنتهى القسوة من الشعور بالألم، تخشى فقدان ذاتها، ربما.

ولكن كلا، لم يكن ذلك هو السبب، وإنما كان السبب هو أن ازدحام الناس من حولهم يزيد من كثافة شعورها بالوحدة، والذي كانت تخشاه بالفعل، وأصبحت تعاني منه الآن أكثر من أي وقت مضى؛ لأن زواجها بييرت هولم، برغم كل شيء، لم ينقذها من ذلك الشعور، مع أنها في يوم لقائهما في التلال الغربية في بكين؛ كانت على يقين، أو ما يقترب منه، من أن بييرت يستطيع ذلك.

ظلت المراسلة الأكبر سنًا تراقب وجه كيت بهدوء لأغلب الوقت وتدوّن إجاباتها كلما طرح الآخرون أحد أسئلتهم، ولكنها لم تقل شيئًا، إلى أن طرحت سؤالاً: «سيدة هولم، أنا على ثقة من أنك لا تدركين ما تعنيه أنتِ وزوجكِ بالنسبة لنا جميعاً».

استدارت كيت نحوها بقليل من الدهشة، لتطالع وجه امرأة جاوزت منتصف العمر، بوجه مُنهك، بينما تابعت المراسلة: «إن أيًا منا يحصل بشق الأنفس على بعض المرح، أو ما نعتقد أنه شيء من الرومانسية، والذي أظن أننا جميعاً في أمس الحاجة إليه، فنحن أكثر الشعوب في العالم رومانسية، هذا ما يقوله الجميع، وأنا مثلهم أعتقد ذلك، ولكنه أيضاً وللأسف أمر مثير للشفقة».

رأت المراسلة أن الجميع يستمعون إليها باهتمام توردت له وجنتاها خجلاً، ولكنها عادت تتابع الحديث مرة أخرى وهي تنقل بصرها بين المراسلين الشباب: «أظن أن الشباب في مثل عمركم يرون فقط الرومانسية في الشجاعة والجرأة، ولكن الأهل، الأكبر سنًا منكم يرونها في أن تكون شابًا نقيًا وصالحًا، خاصة في عالم كعالمنا هذا،

ونحن نتذكر أنفسنا عندما كنا كذلك ذات يوم، ونتمنى لو دام بنا الحال. أما الفتيات فترى الرومانسية في قصتكما الرائعة سيدة هولم، بتلك الكيفية التي وقعت بها في الحب من أول نظرة، وهذا ما حدث لك، أليس كذلك؟ على كل حال، هذا ما تقوله الصحف، بينما النساء الأكبر سنًا مثلي أنا... حسنًا، أنا أرى الرومانسية في الزواج، والبيت الدافئ، وربما بعد فترة، في إنجاب أطفال».

ارتجفت قسما وجهها البسيطة قليلاً، ثم ابتسمت وقد امتلأت عيناها بالدموع. وأخذت تبحث عن منديل يدها في حقيبتها الخاصة، وهي تغمغم بصوت خافت: «لست إلا مجرد امرأة سخيفة كأني منهن»، ثم تابعت في شيء من التبرم: «شيء مضحك، أين تراه قد ذهب المنديل!».

انتزعت كيت منديلها الخاص من حقيبتها وناولتها إياه قائلة في رجاء: «إليك هذا، من فضلك». كانت تشعر بالأسف من أجل تلك السيدة، لدرجة شعورها برجفة البرودة من شدة الخجل، كيف يمكن لهؤلاء العجائز التعبير عن تلك الأمور العاطفية الدقيقة؟ ربما يكون الشباب قساة، ولكن القسوة نقية. بينما العواطف مثل الوحل، كرهتها كما لم تكره شيئاً آخر، لأنها كانت تحركها ضد إرادتها. أشاحت بوجهها عنهم جميعاً، وهي تهم بالمغادرة في سرعة قائلة: «ألتمس منكم المعذرة الآن، عليّ أن أذهب».

اجتازت الممر الطويل المؤدي إلى الأسفل حيث حجرتها بسرعة، واندفعت عبر الباب إلى الداخل، كان بيرت ملتفًا حول نفسه في السرير

السفلي، غارقاً في النوم.

صاحت به: «بيرت! هيا استيقظ لقد عدنا للوطن، عدنا للوطن!». أقل ما يقال عما فعلته تلك المراسلة، أنها قد ساعدتها فجأة على أن تدرك كيف يمكن للجماهير أن تشعر تجاهه، فهي بحق سخيصة، ولكنها مؤثرة، مثل تلك المراسلة الصحفية المنهكة، والتي ما زالت بطريقة ما تمتلك القدرة على الشعور بالرومانسية! وبدأت كيت ترى شيئاً لم يُدرُ بخلدها يوماً من قبل.

فتح بيرت عينيه بتكاسل، وهو يهتمهم: «ما الداعي للعجلة؟».

قالت له محاولة إقناعه، بينما تجره من كتفه: «هيا يا عزيزي، أريدك أن تستيقظ وأن تخلع عنك هذا المعطف، وترتدي حلتك الرمادية الجديدة ورباط العنق الأزرق».

- أوه يا كيت، أن بالفعل أرتدي ملابس مناسبة.

- كلا أرجوك! هناك الآلاف من الناس هناك بالخارج ينتظرون رؤيتك.

نظر إليها بقليل من الخجل، بينما ضحكت منه، فعلى الرغم من عدم وجود الكثير من الخبث في سلوكه، إلا أنها استطاعت تمييز ذلك السرور الذي يشعر به في داخله بينما يدعي عكس ذلك.

«هيا يا عزيزي»، نهض بيرت وبدأ يخلع معطفه، قالت له: «حسنًا، هذا هو طفلي الطيب».

وراحت في هدوء تغير رداءها الرمادي البسيط بثوبٍ آخر من

الصوف الأبيض. وفوق شعرها الداكن المصفف بعناية ثبتت قبعة من الصوف الأبيض أيضًا، وارتدت وشاحًا قرمزيًا مخططًا حول عنقها. حيث بدت أشبه بعروس ليلة زفافها! كانت تكره لون الطلاء الأحمر؛ لأن النساء العجائز كن يستخدمنه لإخفاء أنفسهن خلفه، إلا أنها تضعه الآن على وجنتيها وتوهج به شفاتها. نظرت إلى نفسها في المرأة، ورأت بسخرية فتاة بارعة الجمال داكنة العينين، فتاة لديها من الجمال ما يكفي لتكون عروسًا لبرت هولم.

قال لها ببرت بشيء من التبرُّم: «لا أظنك ستجعليني أنتظر كثيرًا في كامل ملابسي هكذا يا كيت!»، كان يبدو شديد الوسامة، حتى إن شيئًا ما داخلها أعلن استسلامه. ورددت لنفسها كلمات المراسلة: «مجرد فتاة سخيفة كأَيٍّ منهن!».

ثم قالت ضاحكة: «أوه، بالطبع لا، لم أكن لأريد لك الانتظار، ولكن، كل تلك الجماهير المحتشدة هناك يريدون رؤية ببرت هولم الرائع، وأريدهم أن يروا كم هي رائعة زرقة عينيك، وكم أنك طويل القامة عريض المنكبين لطيف ووسيم الطلعة، وكل ما أنت عليه من روعة».

كان يتسم أيضًا، على الرغم من أن عينيه كانتا تمتلآن بالخجل، كما كان مترددًا بشأن الشعور بالسعادة. قالت لنفسها: «ربما لم أستطع أن أسوسه بالشكل الملائم». وعندئذٍ أعادت التفكير مرة أخرى بشك: «ولكن هذا يبدو كأنه صوت جايل وأمي»؛ إذ إنها لم تكن أبدًا متسلطة، ليس في ذلك الحين!

ولكن، لم يعد هناك وقت للمزيد من التفكير. فقد شعرا بالفعل بالتقاء السفينة بحافة الرصيف، وبشخص ما يطرق باب غرفتهما. وحين فتحت الباب، وجدت ثلاثة من الرجال واثنين من النساء قد تجمعوا في الممر الضيق أمام الغرفة، حاملين بعض الزهور وعلى وجوههم ابتسامة واسعة. وتقدم أحدهم إليها بباقة كبيرة من الورود الحمراء: «السيدة هولم، هل تسمحين سيدتي؟». أجابته في هدوء: «نعم». أرادت أن تضحك مع شعور سري داخلها بالرغبة في أن تفسد الأمر. فقد رأت ذلك منتهى السخافة. ولكنها أطبقت شفيتها بوقار بينما عيناها ترقصان، ساعدها على ذلك مئات الصور لنجوم الأفلام السينمائية التي مرت أمام عينيها وهي تحديق بدهشة في صفحات الجرائد والمجلات المصورة وشرائط الأخبار. وأخذت تبسم ابتسامة براقية، بيد أنها مزيفة، في خضم ما تشعر به بداخلها من ازدراء لكل ما يحدث. وفي المقابل، قابلتهما الوجوه بابتسامات دافئة صادقة، ثم قال الرجل بعد أن قدم إليها الزهور: «هذا الأزهار مقدمة إليكما من الغرفة التجارية، للتعبير عن ترحابنا بقدموك أنتِ وزوجك المتميز».

قاطعته بسعادته وهي تجذب بيرت إلى جانبها ثم وقفت ممسكة بذراعه: «ها هو»، ثم تابعت: «أوه... يا لها من زهور بديعة!» تناولت الزهور وأحاطتها بذراعيها الأخرى، ثم أخفت وجهها بينهم ثم عادت تقول: «أشكركم جميعًا يا سيدي آلاف المرات! كم هو جميل أن نعود للوطن!».

الوطن؟! أين هو الوطن؟ لم يكن أبدًا هنا!

كان الجميع يتسمون لها، وهي تجيهم أيضًا بابتساماتها بثبات، في حين تشجعت إحدى النساء وصرخت من بعيد: «نرجوك يا سيد هولم أن تخرج إلينا على ظهر السفينة! ماذا بك! هناك من بين هؤلاء الناس من ظل واقفًا هنا لأكثر من خمس أو ست ساعات ليراك!».

ثم أضاف رجل طويل نحيل ذو ملامح وقورة: «سوف يقدرّون ذلك كثيرًا منكم يا سيدتي».

أجابت كيت: «أجل، بالطبع نحن نقدر ذلك، وسنخرج إليهم». لماذا ترفض أي شيء الآن، وليس هناك بعد ما يستحق الشعور بالخصوصية بينها وبين بيرت؟

شعرت بأن بيرت ينوي أن يتراجع بمجرد أن تبعثهم هي، فألقت نظرة سريعة عليه لتلتقط ذلك السؤال الملح الذي برق في عينيه الزرقاوين. فاقتربت منه وهمست في أذنه: «نحن مضطرون لذلك، فقط في البداية».

وهكذا وقفا إلى جوار بعضهما على ظهر السفينة، وهي تحمل الكثير من الزهور الحمراء بين يديها وتوزع ابتساماتها على الجميع، بينما لم يستطع بيرت الابتسام، حيث وقف هناك ينظر من فوق رؤوسهم، بوجه متجههم وفم مطبق من شدة الخجل.

ولكن هذا كله لم يصنع أي فارق، فقد حبته الطبيعة بتلك الشخصية، وبمسحة شقراء بين خصلات شعره، بينما أسبغت على عينيه الواسعتين ذلك الهدوء وتلك الزرقة الرائعة. لذلك رأت - وهي ما زالت تحلق فوق حافة السخريّة الغريبة - أنه ربما كان من الأفضل له أن يبدو متجهماً

هكذا، وبكل تأكيد، طبيعيًا.

تشبثت بذراعه جيدًا في حين راحت الحشود تصرخ عاليًا في سعادة، وآلاف الأعين مصوبة إليهما بلهفة حقيقية. استطاعت أن تشعر بدفء الآلاف من أحلام الناس ترفرف من حولهما كطيور بيضاء، أحلام كل هذه الجماهير التي يرون أن بيرت يحققها بطريقة ما. نظرت إلى كل تلك الوجوه الملتاعة، وفجأة، خامرها شعور أدهشها كأن شهقة غليظة تتردد في حلقها، وتبدد شعورها بالازدراء من صميم قلبها. كم تألمت هذه الجماهير عندما تراصت وتلاحمت مع بعضها هكذا! لم تر شيئًا كهذا من قبل، والآن ها هي تختبره بكل هذا الوضوح، وبشكل لا يمكن لها أن تنساه أبدًا.

وقالت محدثة نفسها: «علينا ألا نخيب آمالهم». وسرت قشعيرة في أنحاء جسدها مرة أخرى بعد إدراكها الأخير الكاشف لحقيقة الأمر. إنها الأحلام! ما الذي يمكن أن يجدي الإنسان نفعًا إذا ما تحطمت أحلامه؟

والآن بعد ما انتصف الليل بوقت طويل، كانا في غرفتهما أخيرًا بالفندق، غاصت في مقعدها وأغلقت عينيها للحظات.

ثم همست: «أوه!» بينما جلس بيرت على حافة السرير وهو يخلع عنه حذاءه، ويحكّ قدميه دون أن يخلع عنهما جوربه، قائلاً لها: «لست أدري ما تنوين فعله بحلول الغد يا فتاتي، أما عن نفسي فسوف أستقل القطار لأهرب من هنا قبل طلوع الشمس».

سألته: «إلى أين؟».

أجابها بحزم: «إلى ميستي فولز، فليس هناك صحف فيها، وعلى كل حال فإن مزرعة والدي تقع على بعد عشرة أميال من المدينة، وليس هناك من يمكنه السير لمسافة عشرة أميال لرؤية أي شخص».

أجابته: «فكرة جيدة، ولكن يغيب عنك أنه هناك مأدبة مقامة من أجلك غداً، وسوف يسلمونك بعدها مفاتيح المدينة».

أجابها ببساطة: «أنا لا أريدهم»، ثم ألقى بنفسه إلى الخلف متمددًا على السرير، وتثأب بصوت مرتفع. فمهما كان سارًا للنفس ما حظيا به في الصباح، فقد انقضى كل ذلك، وهو الآن منهك. ثم تابع: «أنا حتى لن أكون موجودًا هنا».

أجابته بهدوء: «أجل، هو كذلك يا بيرت». نهضت كيت وبدأت تخلع عنها ملابسها وحليها.

- والآن يا كيت...

قاطعته: «ولكنك لن تخيب آمالهم العريضة فيك، لقد أنفقوا آلاف الدولارات من أجلك».

أجابها متسائلًا: «ومن طلب منهم ذلك؟». أجابت: «ولكنه حدث بالفعل، فلا يهم ذلك الآن. أوه يا عزيزي بيرت، دعنا من المشاحنات هذه الليلة! فأنا مرهقة تمامًا مثلك!».

- وهذا ما يجعلني أقول لكِ دعينا نغادر هذا المكان، فلا طاقة لنا بذلك، ما الداعي لبقائنا هنا؟

- بيرت ألا ترى أنه لم يعد يمكنك التفكير في حدود نفسك فقط الآن؟ لقد فعلت شيئاً جعلك تبدو رائعاً في أعين الملايين من الناس.

- لعنهم الله، إنهم مجرد أغبياء.

- لقد أصبحت بشكل ما رمزاً بالنسبة إليهم.

- أنا لا أعلم عمّا تتحدثين.

أجابته بحدة: «أعلم هذا تماماً»، ثم حاولت أن توقف نفسها إزاء نظرة ألم وذهول لمعت في عينيه.

«انظري إليّ يا كيت، هل توقفتِ عن حبي؟». تحركت نحوه قائلة بلوعة: «كلا يا بيرت!».

فأجابها شاكياً: «أنتِ بالفعل توبخيني!» لم تجبه بكلمة، وإنما التفت حول نفسها تحت ذراعه في صمت.

لو أن الأحداث المتلاحقة تتوقف فقط لبعض الوقت، بما يكفي لتكتشف بنفسها مدى حبها له.

وبعد لحظات من الصمت، عاد بيرت ليقول: «أعلم أنني كثير الشكوى». وافقته الرأي بصوت خفيض وبكلمات مقتضبة: «نعم أنت كذلك».

قال لها: «انظري إليّ هنا، لا يليق بك هذا تجاهي».

رفعت رأسها لتنظر إليه، ثم أطلقت ضحكة قصيرة وقالت:

«إذن، ليس عليك التفوه بأشياء لا تريد مني أن أتفق معك بشأنها، بالإضافة إلى أنك دائم التبرم كثير الشكوى، وأنت تعلم ذلك»، ثم

تابعت مداعبة: «تشاجر مع النُّدُل ولا تمنحهم إكراميات لائقة، ثم تنفجر ملقياً باللوم عليّ...»، ظلت بخفة تعدد من شكاوى صغيرة عن أمور قد لزمت الصمت حيالها وقت حدوثها ولم تعبأ بها، بينما تفاجأت بأنها لم تنسَ أيًّا منها على عكس ما كانت تظن.

«متى حدث ذلك؟»، سألتها وهو في حالة من الذهول، ولم ينتظر منها جوابًا وهو يتابع: «هل تريد أن أكون من النوع الذي يظن أي شخص أنه يسهل عليه خداعه؟ حقًا؟ إلى جانب ذلك، فأنا أكون لطيفًا معك دائمًا!».

أخذت تمرر سبابتها على فمه وذقنه وهي تهمس في خفوت:

- ألن تحلق لحيتك الليلة قبل العشاء؟

أجابها بتحدٍّ: «لن يجبرني أحد على أن أحلق ذقني أكثر من مرة في اليوم. ولن يكون الأمر حتى كذلك عندما نعود للمنزل». وفجأةً، أمسك بها بين ذراعيه وراح يحك ذقنه الخشنة بغلظة في رقبتها الناعمة الرقيقة وهو يصرخ في غضب بصوت غليظ:

- لست متزوجة بمخنث هنا، بل لديك رجل!

وأخيرًا انتهى كل شيء.

وفي الصباح، ووسط تلال من الزهور، كانت تلوح بيديها للجماهير المحتشدة على رصيف محطة القطار، وكان بيرت بجانبها. كان القطار يتحرك ببطء إلى رحلته، والآن بدأ يستجمع سرعته وينطلق، وراحت الوجوه القريبة تتحول إلى هالات ضبابية، تبتعتها باقي الوجوه إلى أن

اختفى الجميع في النهاية. جلست على أقرب مقعد، وبيرت يقرع الجرس منادياً أحد الحمالين، وما إن ظهر أحدهم حتى صاح به بصوت مرتفع: «اجمع كل هذه الزهور، وألقِ بها في الخارج». أجابه الحمال مصدوماً وقد هاله ما سمع: «نعم سيدي». ثم جمع كل الزهور محافظاً على وقار وجهه، وحملهم ومضى.

قال بيرت: «الآن لدينا متسع من المكان لشعر بشيء من الراحة». لم تعترض على قوله، وكانت إحدى النساء ضئيلة الحجم قد استطاعت أن تنحشر وسط الجموع وتصل إليها لتهدئها باقة من الورد التي تقوم بزراعتها بنفسها في بيتها قائلة: «إنه من حديقتي الخاصة، من أجلك عزيزتي. الورد فقط هي ما أقوم برعايته بنفسي، ولكنني أريد أن أفكر للحظة أن ذلك الورد في حجرتكما، لتساعد في إضفاء البهجة على المكان، أوه يا عزيزتي، إنه شاب رائع، أتمنى لكما أن تنعما بالسعادة الأبدية».

أجابتها كيت: «أشكرك، أشكرك كثيراً». وبرغم ذلك تركت الحمال يأخذهم بعيداً مع باقي الزهور. غداً سيكون هناك المزيد من النساء الضئيلات، يحملن المزيد من الزهور المنزلية والتي قمن برعايتها بأنفسهن أيضاً لمنحهما إياها، وهن ينظرن بحسرة إلى بيرت.

كم هي رائعة نعمة الهدوء عندما يخلو العالم من الأصوات سوى صوت العجلات وهي تدور لتشق طريقها وسط فضاءات الريف، وحينما يتحرران من كل البشر ولا يبقى سوى مجرد آلة إلى جوارهما! ولكن بعد ما حدث الليلة الماضية يحاول بيرت جاهداً

اليوم، يمضي به الوقت في صمت أقرب إلى البلادة منه إلى التحمل، حيث بدأ يعتادان على صمته، حتى إن المراسلين أخذوا يخلطون له العديد من المعاني، إلى حد اعتباره نوعاً من الجلال والوقار. ربما كان أفضل ما يفعله أن يظل على صمته، الصمت قد يبدو من القوة، ظلت تكرر ذلك لنفسها مراراً. فربما يكون قوياً، هي لا تعلم بعد، ذلك أنهما لم يملكا وقتاً كافياً ليعرف كل منهما الآخر جيداً، فالיום يزخر بالأحداث، وفي الليل يكون كلاهما مجهداً من عناء يوم طويل حتى إنه ليداهمها النوم قبل أن يشعر أي منهما بشغف تجاه الآخر، وأحياناً عندما ينفردان ببعضهما دون شعور بالإنهاك، ربما تمنح لهما الفرصة وقتها ليستكشف كل منهما ما في نفس الآخر، وعندها فقط، تستطيع أن تقوده عبر دروب الأحاديث والمشاعر لينطق بما يخفيه في جوفه، فقد كان قليل الكلام بشدة حتى معها، وجال بخاطرها كأنها تحدث نفسها: «أنا لست أدري ما يحب أن يأكل أو يقرأ أو حتى ما يهوى فعله عموماً. أنا لا أعرفه حقاً».

والآن ليس هناك ما يعينها أكثر من أن تخلع ثيابها وترتدي زياً منزلياً وتنعم ببعض الراحة، فقد استمعت إلى الكثير من الأصوات طوال اليوم، ولا تحتاج لشيء بعدها سوى الصمت.

وبيرت لا يتحدث كعادته، يجلس صامتاً مرتدياً قميصاً ذا أكمام طويلة وبغاية الهدوء، إلى الحد الذي تكون معه الوحدة أفضل من ذلك. ابتسمت له وارتدت ثياب المنزل، ثم التفت حول نفسها داخل مقعدها وأغلقت عينيها، وللحظة، رأت وجوههم، وجوه الآلاف

من الناس تتحرك، تطحن، تُرهِق، يحدق الجميع في وجه بيرت وفي وجهها. فتحت عينيها ونظرت إلى وجه بيرت، كانت عيناه تحدقان في نقطة ثابتة فوقها، واضعاً يده اليمنى على إحدى ركبتيه المتقاطعتين، فوقعت عينها على يده، كان هناك في يديه دائماً شيء رائع ورائع في ذات الوقت، كانت لمساتهما خشنة وصريحة، كما كانتا قويتين، برغم أن أصابعه حادة جداً وأحدهم كان معوجاً بشكل مريع، كان قد أخبرها من قبل بشأنه: «لقد علق ذات يوم في النورج عندما كنت طفلاً، كم أنا محظوظ أنني لم أفقده وقتها، ولكن منذ ذلك الوقت وأنا دائماً محظوظ».

والآن وقد ظلت تتفرس في ملامح وجهه جيداً، حدث شيء غريب حقاً. إذ شعرت بأنها فقدت الألفة المحيطة، وبدا لها غريباً عنها بشكل يفوق طاقة احتمالها، للدرجة التي أصيبت معها بوهم لحظي خيل إليها معه أنها لم ترَ وجهه من قبل، كان إحساساً قوياً احتاجت معه أن تسمع صوته حتى تستعيد صورته مجدداً.

سألته: «ما الذي تفكر به؟».

حوّل نقطة تركيز عينيه إليها مباشرة على نحو خالٍ من التعبير دون أن ينطق بكلمة، فعادت تسأله: «شيء لا تريد أن تخبرني عنه؟».

فأجابها: «لم أكن أفكر في أي شيء».

أغلق في وجهها طريق الولوج إلى داخل نفسه بذات الطريقة مرات ومرات، حتى انفجرت قائلة: «بيرت، هل تعلم...؟»، ثم توقفت فجأة، فسألها: «ماذا يا كيت؟»، لم تجب، هزت رأسها فقط ثم أغلقت عينيها، فلم تشأ أن تبدأ نقاشاً في تلك الليلة قد يمتد إلى الأبد، وترددت في

أذنيها بين ضجيج العجلات أصداء للمئات من الأصوات. «أتمنى لو أنني أستطيع أن أخبرك كم هو رائع». - «إنها أعظم لحظات حياتي أن أستطيع لمس يديه». - «سوف يقوم بجمع تلك القصة كاملة في كتاب من أجلنا؟ أليس كذلك؟». - «بالطبع ليست هناك مَنْ ترقى لأن تناسبه، ولكنك حقاً رائعة يا عزيزتي». - «إنك تبدين أجمل بكثير مما تظهرين عليه في الصور». - «أوه، نحن متحمسون بشدة». - «سيدة هولم، ما هو رأي بيرت في مسألة...؟». والوجه تحديق مجدداً في جفنيها بلونهما القرمزي الداكن، أعين حاسدة.. غريبة.. طامعة.. حزينة.. مرتبكة.. حمقاء، وجوه حمقاء! لماذا إذن شعرت بالخوف عندما دارت تلك الأفكار برأسها؟

ربما لم يكن يفكر بأي شيء على الإطلاق حقاً.

كانت رحلتها قد تجاوزت دينفير منذ وقت طويل، وكذلك شيكاغو، وقد أصبحت على مقربة من نيويورك. كان لديها كم لا يُحصى من البرقيات آتية من نيويورك. وقد حضر ممثل عن المُحافظ على متن القطار وأخبرها كم ستكون مدينة نيويورك حزينة إذا لم يأت بيرت هولم لزيارتها.

كان شاباً مثقفاً ثرائياً مثيراً للسخرية، يُدعى هوراس فينبرج، استطاع في دقائق معدودة أن يقنعهما أنه من الأفضل لهما الذهاب إلى هناك وإتمام الأمر بشكل لائق.

إذ قال لهما بوضوح شديد: «سوف يشعر الناس بالحزن الشديد إذا لم تأتيا. وفي الحقيقة، سيتسبب لك ذلك في العديد من الخسائر

سيد هولم على أكثر من صعيد، فعلى سبيل المثال، أنا أعرف منظمة ما تنوي إعداد دعوة لك لكي تصبح الرئيس الشرفي لتلك المنظمة براتب مجزٍ قدره... حسنًا لست أهتم بأن أخبرك بالراتب، هم سيفعلون ذلك، ولكنه سيتحول إلى أرقام حية. والناس هنا يعدون العدة ليقدموا إليك استعراضًا في برودواي وقد قاموا بترتيب كافة التجهيزات اللازمة. إنه حدث سعيد بالنسبة لهم، يمنحهم الفرصة للعمل قليلًا بعيدًا عن البخار. كل هذه الدوافع والنوايا الحسنة، إذا لم تدعها تخرج إليك بشكل لائق، فسوف تتقلب حزنًا في صدورهم، فالجماهير يمكنها أن تكرهك بنفس السهولة التي أحبتك بها، أنت تعرف ذلك، إذا ما لم تمنحهم ما يريدون!».

تعالّت ضحكاته بعد أن أنهى حديثه، ولم تشاركه كيت الضحك، فقد لاحظت بالفعل علامات لتلك الكراهية التي تحدث عنها في إحدى المدن وسط المنطقة الغربية. كان القطار قد توقف في إحدى المحطات لخمس دقائق، وخرج منه إلى رصيف المحطة ليستنشقا بعض الهواء النقي القادم من ربوع الريف. وجاء صبي في الثانية أو الثالثة عشرة من العمر واستطاع أن يتعرف على بيرت هولم. ثم قال مرحبًا: «مرحبًا بك يا بيرت!».

بيرت كان مرهقًا، فاكتمى فقط بأن حملق فيه من بعيد بغضب متممًا: «ولد مشاكس». وهنا، نظر الركاب القليلون المتواجدون على رصيف المحطة إلى بيرت بغضب، حتى صاح رجل من بينهم بصوت مسموع: «ما الذي يمكن أن يصيب الإنسان بالأذى في أن يكون شخصًا مهذبًا؟».

قالت له كيت وقتها برفق: «إنه مجرد صبي يا بيرت!».

عاد بيرت يكرر مجدداً: «ولكنه ولد مشاكس برغم ذلك». ثم أضاف وهو يحدق في الرجل: «لقد بدأت أصاب بالضيق من اعتقاد كل شخص بأنه لديه الحق في أن يفعل بي ما يشاء».

بعدها، ذهب الفتى وعثر على ثمرة طماطم ناضجة في مكان ما، وبمجرد أن أداروا ظهورهم وصعدوا بضع خطوات إلى القطار، ألقى الفتى بثمرة الطماطم بكل دقة ليحدث بقعة قرمزية كبيرة على ظهر الحلة الرمادية الجديدة التي كان يرتديها بيرت، وتعالى ضحكاته الركاب، ولم يعجب كيت صوت ضحكاتهم تلك، حتى الحمال، كان منشراح الصدر بشدة وهو يقوم بتنظيف البقعة.

وهو يقول ضاحكاً: «لقد عرفت كيف تسدد رميته جيداً أيها الولد».

وفي شيكاغو، كانت هناك جرعة أخرى في تعليق لاذع لأحد المراسلين كتب يقول: «السيد هولم يؤكد النظرية الأمريكية للفردية القاسية إلى أقصى الحدود».

قالت كيت بجدية: «أرى أنه يجدر بنا الذهاب إلى نيويورك يا بيرت». لم تكن خائفة، ولكنها أدركت شيئاً من الممكن أن يكون مريعاً بما يكفي ليسبب الخوف إذا ما صرح به.

وهنا قفز هوراس فيندينبرج على الفور قائلاً: «سأقوم بإرسال برقية بذلك»، واندفع عبر الباب كالبرق.

كانت تعرف مدينة نيويورك جيداً طيلة حياتها، ولكن ليس هذه المدينة. شوارع هادئة ومنسقة تشع بريقاً في ضوء الشمس الساطع، يرتدي قاطنوها أرقى الملابس، بها دار أوبرا ومسارح، وبداخل منازلها الكبيرة، أصوات هادئة رقيقة، تلك كانت الصورة التي تعرفها عن المدينة وتستطيع التأكيد عليها. وعلى قدر ما كان نورمان يطلق عظامه للأثرياء، لم يستطع حقيقة أن يربها أي مدينة أخرى، ولكن بالتأكيد ليست هذه المدينة التي وجدوها تنتظرهم هي وبيرت.

استقلا سيارة سوداء كبيرة ذات سقف مفتوح كانت بانتظارهما إلى برودواي، وسط عاصفة من الصراخ والتحيات من الجماهير المحمومة، وبدا وقتها أن كيت ولأول مرة في حياتها تدرك محتتهما الكبرى باعتبارهما كائنات بشرية! لقد كانت تخشى منذ طفولتها كل أنواع القوى التي ليس لديها مركز تحكم. كرهت الريح، ليس بسبب الضوضاء التي تسببها، بقدر ما هو بسبب ثورتها الغير مبررة. تمامًا مثل المحيط، لديه نفس القوة الكامنة الحمقاء، فبقدر ما يوجد بداخله من هدوء بطبيعة الحال، ومرح أثناء السباحة ورحلات الصيد، كان هناك أيضاً ودائماً ذلك الرعب على أهبة الاستعداد للانطلاق في أي لحظة تتحول فيها المياه إلى الوحشية.

عندما كانت طفلة، اصطحبها والداها لرؤية شلالات نياجرا، وعندها، وعلى الرغم من أنها كانت قد تجاوزت عامها السادس، إلا أنها لم تستطع التوقف عن البكاء والصراخ وهي ترتجف بشدة، دون أن تستطيع أن تعطي سبباً واحداً لتلك الحالة التي انتابتها؛ لأنها في قرارة

نفسها لم تكن بعد قد أدركت السبب، غير أنها تشعر بالخوف إذا ما اقتربت من أي نوع من أنواع القوى الغاشمة التي تجري بلا تحكم، ولم تهدأ إلا عندما اختارت مكاناً فوق إحدى الحواف حيث تجري المياه هناك بنعومة وسلاسة.

والآن وهي تجلس إلى جوار بيرت، شعرت بأن مخاوفها القديمة تراودها مجدداً، عميقة وعمياء تزحف نحوها. كان الجنون يعني بالنسبة لها كل الأشياء الخرقاء الخارجة عن السيطرة، وبدأت ركبها تصطكان ببعضهما، إلى أن وضعت إحدهما فوق الأخرى في محاولة للسيطرة على توترها، ثم بللت شفثيها، وحاولت التفكير في الأمر بشيء من العقلانية: «إنهم مجرد بشر، فقط حشود من الناس العادية، إنهم مثلنا بشر عاديون، لا يريدون لنا أي إيذاء، إنهم فقط سعداء بعودتنا إلى أرض الوطن». حاولت أن تصنفهم مجرد كائنات بشرية، حاولت حتى أن تعتبرهم وجوهاً عادية، ولكنها أيضاً لم تفلح في ذلك. ظلوا يشكلون بالنسبة إليها مجرد جموع غاضبة، كائن وحشي جامح، وتشابهت في مخيلتها تلك الكتل البشرية في حركتها العشوائية مع أمواج المحيط. كانت تعرف أنهم فقط يقفون من حولهما، وأن شعورها بأنهم يدورون حول السيارة مجرد أوهام في رأسها، تحركت هي وبيرت داخل السيارة بحرية، وبرغم أنها تدرك ذلك جيداً؛ إلا أنها لم تستطع التخلص من شعورها بأنهما عاجزان عن الحركة، مقيدان وسط ذروة الحدث، ومحتجزان بفعل قوى متهورة لا معنى لها. وشعر جسدها بالجمود كأنه مكبل بالأغلال، على الرغم من تلك الارتجافات السخيفة التي تعتريه

بين الفينة والأخرى. للدرجة التي لم تستطع معها أن تزيل قصاصات الورق المزينة التي تهاوى عليهما من كل اتجاه. كان الهواء مكتظاً بتلك القصاصات الورقية الطائفة، والتي انتزعت من دفاتر التليفونات والكتب وبعض الجرائد والأشرطة الممزقة. تابعت ببصرها قصاصة من صحيفة إخبارية، واستطاعت أن تلمح اسم بيرت فيها بين بعض العناوين بالحروف السوداء الكبيرة، «بيرت هو...».

استجمعت أذناها كل تلك الأصوات والصيحات والصراخ، وصاغت في هيئة إيقاع بدائي هائل. رأت المحافظ بجسده الضئيل جالساً أمامها وهو يحرك شفتيه، لكنها لم تستطع سماع ما كان يقوله. واضطرت لأن تجبر نفسها على أن تبسم وتهز رأسها. وفي تلك اللحظة رآته يتحرك نحو بيرت ليجعله يقف على قدميه قائلاً: «انهض.. انهض». وفي طاعة حمقاء من فرط إحساسها بالرعب، ظلت تصيح وتصرخ به: «بيرت! انهض».

انتبه بيرت، وهو يشعر بالحيرة الشديدة، ثم نهض واقفاً بينما كانت السيارة تشق طريقها بصعوبة وسط الحشود. كانت تعلم أنه في حيرة من أمره، إلا أن حركته البسيطة المتثاقلة بدت كأنها قدر مناسب من الوقار. وفي الحال تعالت الضوضاء وتحولت إلى عواء بري مخيف. وزادته أصوات النساء ارتفاعاً وحدة، وذهبت بالأمر إلى أبعاد جديدة من الجنون. وبدأت الفرقة النحاسية تعزف إيقاعات عالية ثابتة كدقات الطبول.

تذكرت ذات مرة في الشتاء اصطحبها والداه في رحلة بحرية إلى جنوب أفريقيا، جنوب أفريقيا الأليفة الخائنة، والتي بدت آمنة مثلها

مثل أي بقعة في العالم، بيد أنه في الليالي التي كانت الرياح الداخلية تهب فيها باتجاه البحر، كانت تحمل موجاتها أصواتًا غليظة عميقة مثل تلك الضربات التي تسمعها. سمعتها هناك ذات ليلة، ولم تستطع أن تنساها طوال حياتها، ومهما كان اليوم، فإنه لم يحدث أن حاولت النوم في أي ليلة دون أن تداهمها المخاوف من أنها قد تستيقظ فزعة على أصوات ذلك الرعد الأحمق الرهيب آتياً من وراء الغابات التي لم يستطيعوا يوماً رؤيتها. لذا فقد هربت من أفريقيا حينها قبل أن يرغب والداها في المغادرة، ولم تستطع أيضاً أن تخبرهما عن السبب.

ولكن، ليس هناك طيران هنا، إنه الوطن. شبكت يديها المرتديتين قفازيهما معاً، وجلست تحديق في الشكل الفضي الضخم المثبت على مقدمة سيارة المحافظ. كان شكلاً غير محدد لخطوط دقيقة صاعدة، بدا كأنه يجاهد من أجل خروج ما، ولكنه كان مقيداً هناك. وبعد برهة ظلت خلالها تحديق فيه بشكل ثابت، شعرت كأن تلك المعاناة قد انتقلت بكاملها إلى جسدها. من تلك التي تعيش هذه الأجواء؟ هل هي حقاً كيت تالانت التي كانت تكره الزحام، وتكره صراحتها حتى ولو بين مجموعة من الأصدقاء في غرفة مغلقة؟ ما الذي تفعله وهي تائهة الآن وسط شوارع تعج بأناس لا تعرفهم ولم ترَ أيًا منهم من قبل ولا أمل لها في الفرار من بينهم؟

عندئذٍ، عاد إلى ذهنها مرة أخرى المنطق السليم فيما يشبه السكينة، فهي بالتأكيد لن تظل محتجزة هكذا إلى الأبد، إنها فقط مسألة وقت، فهو وحده الكفيل بتحريرها من ذلك المأزق على الأقل. سينتهي ذلك

اليوم حتمًا؛ لأن كل الأيام تنتهي. مجرد حلول الليل يكفي لتشتيت تلك الجموع، وستجد نفسها وحيدة مرةً أخرى وتستعيد كيائها، برغم شعورها الحالي بالضيق والته. وبمجرد أن تعود لوحدها؛ فستشعر حتمًا بالأمان.

استيقظ بيرت مع أولى نسيمات الفجر، وما زال ذلك الشعور الغريب المسيطر عليه هذه الأيام يلازمه، والذي منعه من الكلام، بل إنه لم يدع مجالاً لأي شعور آخر. أين كان؟ وماذا يفعل هنا في هذا الفندق الأنيق، وسط كل هذا الضجيج؟ عندما كان يرتمي على فراشه كل ليلة، كان يشعر بالإرهاق الشديد حتى ليظن أنه سينام حتى الظهيرة، ولكن ما يحدث كل صباح أنه كان يستيقظ على ذات الضجة قبيل الفجر، ليرقد مستيقظاً وسط الضوضاء. لقد أصابه الدوار جراء ذلك الضجيج.

رفع رأسه مرتكزاً على مرفقيه لينظر إلى كيت، إنها زوجته، ولكنه كان يواجه صعوبة شديدة في اكتشاف ذلك، ما زالت نائمة كما هو الحال دائماً في تلك الساعة، بل كانت غارقة في النوم كالموتى. دائماً ما ترقد بنفس الطريقة مستلقية على ظهرها، وجسدها مشدود ممدد، بينما تميل رأسها إلى اليمين قليلاً. وفي هذا الوقت من اليوم أيضاً، كانت جزءاً من الأشياء الغريبة التي حدثت له فجأةً. لقد تزوج بفتاة من عائلة تالانت! تساءل في قرارة نفسه: «ترى ما الذي يمكن أن يحدث لو أنني فقط تركت كل شيء؟». ونظر إلى وجهها الهادئ، لم تكن تبدر منها أي حركة أثناء نومها، بل ولا يبدو حتى أنها تتنفس. لم يكن يعرفها جيداً، بل لم يبدُ الأمر حقيقاً بالنسبة إليه بعد حتى الآن، وهي ترقد هناك في

هذه اللحظة، على الرغم من أنه كان مفتونًا بها، كما كانت تشعر لي لي تجاهه، ولكن ربما كان ذلك بسبب أنه كره لي لي، فكراهية الأشخاص دائماً ما تجعلهم يبدون على حقيقتهم. ثم عاد يقول لنفسه: «ماذا لو خرجت الآن ولم أظهر مجدداً أبداً؟»، كان اتحاد المستكشفين قد أعد عشاءً من أجله اليوم. فماذا لو أنه لم يكن موجوداً هناك؟

كان مستلقياً ينصت إلى همهمة مدينة نيويورك وهي تستيقظ لتبدأ يومها. لقد كره الضجيج، ربما كانت تلك هي الشرارة الأولى التي دفعته إلى تسلق الجبل، الرغبة في الهدوء. كما كان هو السبب في أن يقع من فوره في حب كيت، فهي فتاة هادئة، وهو لم يعرف من قبل امرأة هادئة. كانت والدته تتحدث كثيراً، وكذلك لي لي أيضاً. بل إنها كانت تمتلك القدرة على الثروة لليلة كاملة بلا أي معنى، بينما كيت كانت هادئة حتى في طريقة نومها. الناس يحدثون الكثير من الضوضاء عندما يتكلمون، وفي العادة لا يستطيع فهم نصف ما يقولون، كل هذه الضوضاء لا يمكن لها أن تستمر إلى الأبد. فقد وعدته كيت بأنه عاجلاً أو آجلاً سينتهي كل هذا، باستثناء الوظائف الرائعة بالطبع. وعلى أي حال ما معنى «الرئيس الشرفي»؟. لماذا يصر الناس على أن يدفعوا له راتباً مقابل لا شيء؟ ولكن هذا شأنهم، وليس من شأنه في شيء. فهي وسيلة سهلة لتأمين نفقات معيشته لبقية حياته، فقط أن تستطيع التسلق لقمة جبل. لماذا يفتتن الناس هكذا بهذا الأمر؟ بل والأكثر من ذلك، هو رغبتهم الملحة في معرفة كيف يفكر في أمور لم تخطر له على بال مطلقاً طيلة حياته! عندما ينتهي كل هذا، فسوف يأخذ كيت إلى مكان ما، حيث

سبيني لها بيتاً ليعيشا معاً فيه، وسيقوم بتأثيثه بأحدث التجهيزات، منزل ومرآب، سوف ترتقي حياتهما على قدر ما يستطيع المال لديهما أن يشتري. وحتى لو اضطر إلى استعمال سلاح ناري معهم، فلن يكون هناك المزيد من المراسلين الذين يتسكعون من حوله لكسب معاشهم على حسابه. حدث ذلك ذات مرة، وكان هذا كل ما لدى أحدهم ليقوله له بعصبية عندما لم يكن يريد التحدث: «لا تعتقد أننا نهتم كثيراً للأمرك، ولكن يجب علينا أن نعمل لندير أمور معيشتنا، وهذا كل ما في الأمر». ساعتها، ردّ له الصاع صاعين بأن أجابه: «وما شأني أنا بكل ذلك؟».

عاد يجول بعينه في الحجرة مجدداً، فإذا بعينه تلتقيان بعيني كيت العسليتين تنظران إليه، كانت مستيقظة، استيقظت بهدوء كما اعتادت أن تفعل أي شيء آخر بذات الهدوء، دون تناؤب أو همهمة أو تقلبات من تلك التي اعتاد أن يعرف من خلالها أن لي قد استيقظت، كم كان شيئاً لطيفاً أنه متى كانت كيت تنظر إليه فإنه يستطيع أن يشعر بذلك! في بعض الأحيان كان يتساءل، إذا كان من حقه ألا يخبر كيت أي شيء عن لي لي؟ لقد كره ذلك نوعاً ما؛ لأنه كان قد أخبر المراسلين مرات ومرات بأنه لم يكن متزوجاً، وقد قال ذلك للوهلة الأولى ودون تفكير؛ لأنه رأى أن ذلك الأمر ليس من شأنهم في شيء، وعندئذ كان ذلك أهون عليه من عدم الاستمرار هكذا، علاوة على ذلك، أنه وقتها بالفعل لم يعد متزوجاً، إذ إن انتهاء الأمر بالطلاق في رينو، كان دواءً شافياً لكل ما أَلَمَّ به. وقد راهن على أن لي لي قد مكثت هناك لمدة كبيرة، وربما أنها قد اختارت المكان الصحيح لذلك، فبالنسبة إليها كانت تلك هي المدينة

التي تناسبها بشكل مثالي، وربما أيضًا أنه من حسن حظه أن ذلك كله قد حدث وانتهى قبل أن يقوم بتسليق ذلك الجبل، على كل حال، فإن أيًا من ذلك لم يعد يهم الآن، باستثناء أنه قد أصبح من الصعب عليه أن يخبر كيت عن ذلك بعد أن ظن الجميع أن الأمر على خلاف الحقيقة، بيد أنه رأى أنه إذا ما أُثير الأمر مجددًا؛ فسوف يخبرها في حينه كيف كانت تلك القصة وما انتهت إليه. بالإضافة إلى أنه أيضًا لم يسأل كيت عن أي شيء يخص ماضيها، وإن كان لا يعتقد أن هناك أحد قبله في حياتها، فقد كانت من ذلك النوع الهادئ الذي لا يهتم الآخرين كثيرًا بأمره، كما رأى أن كل ما حدث بينه وولي لي قد حدث فقط ليتعلم منه أنه يحب الأشخاص هادئي الطباع، وربما كان ذلك بسبب أنه عندما كان طفلًا لم يجد من يشاركه اللعب، كان وحيدًا دائمًا، وقد اعتاد ذلك بمرور الوقت، ولي لي أرادت أن تكون الوحيدة في حياته ...



قطعت كيت خيط ذكرياته وأفكاره فجأةً وهي تسأله قائلة: «ما الذي تفكر فيه يا بيرت وأنت تنظر إليَّ بهذه الطريقة؟» أجابها بهدوء: «لا شيء». ثم أشاح بوجهه عنها، ولم تشأ أن تعيد على مسمعه سؤالًا آخر. وقد أثارت كلمته المقتضبة تلك في ذهنها ما كان يردده نورمان دائمًا عندما كانت تجيبه بنفس الرد، إذ كان يقول لها غاضبًا: «لا أحد يمكنه أن يفكر في لا شيء! فقط يمكنك أن تقول بيساطة، 'لا أريد أن أخبرك'»، برغم أنها تذكر جيدًا أنها وقتها كانت تفكر في مدى جمال شفتيه! صحيح أنه لم يكن حتى يقترب من وسامة وحسن مظهر بيرت،

ولكنها عندما تذكرت ذلك الآن، كانت لا تزال ترى أن شفتيه جميلتان، وأنه لم يكن حقيقياً أنها لم ترد أن تخبره ذلك في حينه، ولكنه لم يسألها مجدداً، وحينها فإنها لم تكن بعد تستطيع أن تصرّ على أن تخبره بذلك، فقد استطاعت ذلك بعدها، بل وفعلته أيضاً، إلى أن صعقها حين أخبرها أنه لم يعد يحبها. حسناً، لقد انتهى كل شيء على كل حال.

ألقت نظرة على ساعة يدها، إنها ما زالت الخامسة والنصف، ولا يزال الوقت مبكراً جداً لأن تستيقظ، إلا أن بيرت استدار إليها فجأة وقد أصابه نشاط مفاجئ، قائلاً: «دعينا نستيقظ يا كيت». أجابته معترضة: «ولكن ما الذي بوسعنا أن نفعله الآن؟» أجابها: «إنه الصباح على أرض الوطن». قالت: «إننا تقريباً ما زلنا في الفجر هنا».

ولى وجهه بعيداً عنها مرة أخرى، ثم دفن رأسه في وسادته. كانت مستلقية في حالة من التوتر الشديد والذي ظل يلازمها، فهل شعر بذلك دون أن تدري؟ ولكن، إذا لم يكن ينوي أن يتحدث فكيف لها أن تعلم؟ كانت والدتها تصفه أحياناً بأنه عاجز عن النطق: «إنه عاجز تماماً عن النطق يا كيت، وسوف يكون عليك أن تستخدم مفعراً خاصاً بك». لم يَبْدُ الأمر أنه أحد عيوب بيرت عندما قالت والدتها ذلك عنه، كما أنه ليس كذلك الآن. ولكن -ومن جانب آخر- ماذا على المرء أن يفعل إذا ما أغلق شخص ما كل السبل أمام من حوله للوصول إلى أعماق نفسه، ولم يصدر عنه سوى نظرات من عينيه أو تمتمات من شفتيه، أو حتى بعض الإيماءات من رأسه أو يديه؟ كانت معتادة على الأشخاص الطبيعيين الذين يتحدثون عن أنفسهم ويستخدمون الكلمات ليظهروا

حقيقتهم للآخرين، أما بالنسبة لبيرت فالأمر جد مختلف، فالكلمات هي مجرد عقبات في طريقه يجب عليه تجنبها، والحديث هو مجرد فخ ينبغي عليه أن ينجو منه. تنهدت وهي ما زالت تستلقي مستيقظة في جمود، وشعرت كم أن صمته يمثل في ثقله وبرودته حاجزاً من الظلمة بينهما.



كانت تراه أكثر وضوحاً عندما لا يكونان على انفراد، أدركت ذلك بجلاء في حفل عشاء ضخم في الليلة التالية، فالناس الذين يتوقون إلى كيل الشاء وتقديم التحية لبيرت، ينقلون إليه وجهة نظر، بينما هذه الوجوه المبعثرة، وتلك الأعين المركزة والتي يقتلها الفضول، كانت بمثابة المرأة التي انعكس لها على صفحتها بيرت هولم. فهي تنظر إليه مثلما يمكن أن ينظر إليه أي واحد منهم، فكانت تراه وهو بجانبها في منتصف الطاولة الرئيسة، مباشراً متحفظاً وبارداً قليلاً، تماماً كما ينبغي لرجل يشعر أنه استطاع أن يأتي بما لم يقدر عليه أحد. بدأ يتعلم أن يتصرف على نحو أفضل، كما أنه بدا للناس أقل جفافاً من ذي قبل، وذلك بعد أن أخبرته بأن تلك الطريقة الجافة يمكنها أن تفقده مكانته بنفس القدر الذي يمكن أن تحدثه طريقته في الحديث.

وقتها سألها على الفور وقد بدأ يشعر بالتوتر والانزعاج: «ما الطريقة التي تقصدينها؟». اكتشفت كيت بذكائها أن أشد ما يخشاه بيرت أكثر من أي شيء آخر هو ما كان يسميه فقدان مكانته، فأوضحت له الأمر ببساطة قائلة: «أنا أعني أن الناس ربما تعتقد أنك لم تنل قسطاً وافياً من

التعليم أو أنك لم تتعلم كثيرًا بشأن السلوكيات العامة العادية». تعجبت من تلك الطريقة المباشرة التي تحدثت بها إليه، وهي من كانت تتسم بالركة البالغة حتى وهي تحاول اصطيد سمكة! ولكنها أدركت أنه لن يتمكن من فهمها إلا إذا تحدثت إليه مباشرة وبهذه البساطة.

نظر إليها دون أي استجابة كعادته، ولكن سلوكياته منذ ذلك الحين أصبحت أقل فجاجة عما كانت عليه، كما أنها لم تعد تنفر من تصرفاته كثيرًا كما كانت تفعل، وأيضًا لم تعد بنفس الحاجة إلى تبرير أفعاله وتحسين صورته، كأقصى ما كانت تستطيع أن تفعل. تخلى أيضًا عن مزحاته السخيفة الغريبة التي كان يفاجئ بها محدثيه على الدوام، وذلك لأنها استطاعت أن تتفهم بسرعة أن ذلك النوع الفج من المزاح لم يكن في حقيقته سوى نوع من الخجل، فبداخل نفسه كان هناك صبي خجول، وقد لاحظ الأمر ولكنه لم يكن يدري ما الذي يمكنه فعله حيال ذلك؟ سوى أن يحاول عبثًا اعتباره نوع من الحماية الذاتية الأمر الذي جعلها تحاول مساعدته في التغلب عليه بالمديح والثناء، وبالحديث المباشر البسيط.

قالت له: «كم أنا فخورة بطريقتك في التعامل مع كل التفاهات التي يلقونها في أحاديثهم».

سألها مرة أخرى وقد بدا عليه على الفور الاهتمام بأمر يخصه: «أي طريقة تقصدين؟».

أجابته: «أوه، كنت فقط تقول 'شكرًا' بتلك الطريقة الهادئة الرصينة كما لو أن الأمر لا يعنك. لقد سرنى حقًا أنك لم تحاول ترديد دعاباتك اللاذعة كثيرًا يا بيرت».

أجابها مع شعوره بعدم الارتياح: «أوه، لا أعرف، ربما هناك بعض الناس يحبون النكات».

أجابت مؤمنة على قوله: «أحياناً بالطبع، ولكنها منك أنت قد تبدو متدنية قليلاً، فأنت بالنسبة لهم جميعاً بطل عظيم، كما تعلم»، أجابها بابتسامة خجلى وهو يشعر بالعار: «يا للخيبة».

أطلقت ضحكة قصيرة وقالت: «نعم أنت كذلك، هذا حقيقي».

بدا الأمر مؤثراً لها الآن لأنه يحاول أن يفعل ما أرادت، على الرغم من أن هذا يعني أنه في الأماكن العامة يتسم بذلك الصمت الشديد، لكنها أيضاً تعلمت أنه لا داعي لأن تخشى من صمته بين الناس؛ لأن مظهره الوسيم كان كافياً لإرضائهم وإعطائهم ما كانوا يحلمون به.

وقد كان الليلة في أفضل حالاته، فقد تم تنسيق وتزيين قاعة الرقص في أفخم فندق في نيويورك بالأعلام والزهور، وقد امتلأت عن آخرها بالطاولات وانطلقت عدسات المصورين تضيئ مزيداً من الأضواء على بيرت وتحاول التقاط الصور له في مختلف الأوضاع الممكنة، ولكنها جميعاً ستكون رائعة؛ لأنه كان دائماً يجيد اتخاذ أوضاع للتصوير. بينما كانت تجلس إلى جانبه، تتابع بنظراتها المئات من البشر في أبهى ثيابهم، لم يكن هناك ما يدعو للخوف في هذا المكان، فقد كان ذلك النوع من الزحام مألوفاً لديها جيداً، فقد اعتادت قضاء أغلب أوقات الشتاء على مدار عمرها في مدينة نيويورك، وأينما وقعت عيناها هنا أو هناك في القاعة تجدُ يداً ترتفع وتلوح لها بالتحية، وبعد انتهاء الرقص، أتت إليها مجموعة من النساء ممن تعرفهن جيداً أو حتى بالكاد تعرفهن، وصعدن

إلى حيث تجلس وتحلقن من حولها لتهنئتها، وبشكل خاص جدًا،
للتحديق جيدًا في بيرت هولم.

ثم تعالى صوت إحداهن وهي تكاد أن تبكي: «أوه، كم أعتقد أن
هذا رومانسي للغاية». بينما راحت أخرى تقول بصوت أقرب للهمس:
«كم أنت مخادعة أيتها الفتاة الصغيرة، وفي النهاية تحصلين على بيرت
هولم». بينما قالت الثالثة: «عزيزتي، إنه شديد الوسامة مثل الآلهة!» كان
هذا ما اعتدن قوله دائمًا في مثل هذه المناسبات، ما لم يقلن: «إنه يشبه
كثيرًا نجوم الأفلام السينمائية، أليس كذلك!»، وعندما قامت بتقديم
بيرت إليهن، وهو ما كنَّ ينتظرنه، تقدمت إحداهن وتعلقت بيد بيرت
وهي تقول: «أنا أعرف كيت منذ أن كان طولها هكذا». وحددت بيدها
الأخرى علامة ارتفاع قصيرة، رغم أن كيت لم تكن تتذكر أنها رأت أيًا
منهن سوى مرة أو مرتين، أو ربما لم يحدث على الإطلاق!

كانت شقيقتها جايل تشعر بانكسار، ذلك أن زوجها هارفي لم يسمح
لها بالحضور إلى ذلك العشاء، كانت جايل لتسعد كثيرًا بكل ما في هذا
الحفل، والسبب من وراء ذلك أنه إذا ما حضرت جايل هذا الحفل فسوف
يعتقد الناس بأنها هي عروس بيرت هولم وليس كيت، وكان هارفي يعلم
ذلك جيدًا، فلم تكن جايل تستطيع أن تمنع نفسها من التوغل بعيدًا داخل
قلب الأشياء، ولذا فقد قال هارفي بصرامة شديدة أنه لن يسمح لها
بالانخراط في هذا الأمر، لذا فقد اكتفت جايل بأن كتبت بضع خطابات
لشقيقتها كيت تستجديها أن تحضر بيرت معها وتأتي لزيارتهم وقالت إنه
شيء جميل حقًا أن تصبح صغيرتهم كيت زوجة لبيرت هولم.

ولكنهما كانا متجهين إلى منزل بيرت أولاً، وبحلول الغد سيكونان في ميستي فولز، وبمجرد أن ترى والدَي بيرت سيتجهان مباشرة إلى جلين باري للبقاء لأطول وقت يرغبان في قضائه هناك. على الأقل حتى يقررا بشأن المكان الذي يرغبان في العيش فيه. عندئذٍ، استطاعت أن تستدعي من مكان ما القدر الكافي من الإيمان لتظل على قناعتها بأن زواجها ببيرت هولم على وشك أن يبدأ بشكل حقيقي شهر العسل المؤجل، مال عليها بيرت وقال بصوت خفيض: «على كل حال، نحن نستمتع هنا بوجبة شهية». لم يتحدث ولو لمرة واحدة خلال العشاء، فلم يكن هناك ضرورة لهذا، وعلى الجهة المقابلة له من الطاولة الرئيسة، كان منسق الحفل في حالة من الارتباك الشديد، بسبب توافد المزيد من الضيوف بشكل فاق توقعاته كثيرًا، والذي كان يتحدث إلى كيت أثناء صمت بيرت لاهثًا: «أيتها السيدة هولم، أرجو المعذرة بشأن كل ذلك الاضطراب. أستطيع أنؤكد لك سيدتي، لو كانت لدينا فكرة، أستطيع أنؤكد أنه لم توجد من قبل شخصية استطاعت أن تُخرج نيويورك بهذا الشكل، إن زوجك يلهب الحماس بشكل هائل».

وفجأة مال على أذنه نادل في حالة من العصبية وهمس له بشيء ما، فأجابه الرجل موافقًا في حماس شديد: «أجل، بكل ما يمكن من وسائل. بالتأكيد!»، ثم استدار ثانية نحو كيت موضحًا لها الأمر بفخر: «إنهم يضعون طاولات إضافية في المعرض، إن رسوم الضرائب على موارد الفندق سوف تبلغ حدها الأقصى». ثم التقط برنامج الحفل من أمامه وراح يطالعه في سرعة، متسائلًا إلى أي مدى سوف يمتد صبر

الناس على كل هذا.

في تلك الأثناء كان يتنامى شعور داخلي لديها بأنها في أجواء على وشك الانفجار، كأنها فقاعة هشة تبرق بألوان الطيف قد تتحول فجأة إلى قوس قزح تاركة إياها في وحشة تامة. كان الأمر برمته شديد الضخامة طاغي البريق، خيالياً تماماً، في الحقيقة كان بيرت وهو يتناول طبقاً من لحم الضأن الصغير باستمتاع ولذة هو الشيء الوحيد المتزن فيما حولها، فحانت منها التفاتة نحوه بشكل غير متوقع وهمست له بمرح: «لا تتناول الكثير من الطعام، وإلا فلن تستطيع إلقاء كلمتك». ابتسم لها ابتسامة عريضة، ثم غمز بعينه، ولكنها بدأت بالفعل تتعلم ألا تخشى من اللحظة التي سينهض فيها، في البداية كانت تعاني من وطأة ذلك الخوف، خشية أن... ولكن ما الذي تخشاه؟ كانت تخشى عدم تقديرهم له بالشكل الملائم، فهي تعرف أهل نيويورك جيداً، إنهم على استعداد دائم للسخرية والضحك من أي شخص، وربما يسخرون من بساطته وعفويته، تعلم ذلك جيداً الآن، إنهم لا يختلفون عن تلك الحشود الغفيرة التي مرت بهما من قبل.

طال وقت العشاء والنُّدُل يبدلون أكثر مما يستطيعون من جهد، حتى إنهم كانوا يتصببون عرقاً. ومن حولهم بدأ الضيوف يشعرون بالضجر. إلى أن أعلن منسق الحفل وهو يقرع الجرس: «الآن سوف نبدأ». ونهض قبل أن ينتهي الضيوف من تناول أصناف الحلويات، وبدأ يلقي مقدمته الطويلة على مسامعهم. حتى شعرت كيت بالخرج من شدة حفاوته، فأخفضت رأسها حتى تتفادى النظر في أعين المدعوين. فلا

يوجد شخص على هذه الأرض استحق أو يمكن أن يستحق كل هذا الذي يُقال. كان في الحقيقة كثيرًا جدًّا على بيرت بشكل جعله يبدو تافهًا مضحكًا أمام تلك الصفات المزعومة، وحين ألقت نظرة جانبية خاطفة عليه، كانت تستطيع أن تؤكد أنه لا ينصت إلى ما يقوله عنه الرجل. عادت تنقل بصرها إلى الحضور، ولشد ما أدهشها منهم عدم وجود أي أثر للدهشة على وجوههم، فقط تعبيرات صادقة عميقة بالتقدير والحماس، لقد آمنوا بما يسمعون، على الأقل في تلك اللحظة؛ لأنهم كانوا يتوقون لذلك.

ارتفع صوت الرجل وهو يعلن للحضور بشكل درامي: «والآن، أقدم لحضراتكم، (سير جالهاد) الأمريكي، بيرت هولم!» والآن وجدت مجددًا أنه ليس عليها أن تعاني الخوف من بساطته في حضورهم، إذ شعرت بأنهم يحبونه أكثر لأنه كان بعيدًا عن مجال التنافس معهم. وكلما زادت بساطته وتلعثمه في الحديث، وكلما زاد خجله وتعففه، كان أقرب إلى قلوبهم، وبدا أكثر واقعية في أعينهم، ففي خضم تلك التعقيدات المتغطرة الخادعة التي اكتسبتها الأجيال الحالية، لا يزال هناك حين إلى بساطة الرواد من الأجيال السابقة، وما يمكن تسميته «بالأرض الخصبة».

نهض بيرت ووقف للحظة ينظر أمامه مباشرة، كانت تعلم أنه يحاول في تودة أن يخرج جميع الموجودين من ذهنه، حتى يستطيع أن يتذكر ويستجمع كلماته، نفس كلماته التي قالها من قبل في كل مكان مر به.

بدأ حديثه ببطء قائلاً: «أهلي الكرام، ليس لديّ فكرة عما يمكن أن أقوله لكم، باستثناء أنني أستطيع أن أقول أنه كان أشهى عشاء تناولته في حياتي، بعيداً عن الطعام الذي طبخه أُمي. ولا أعرف إن كانت تستطيع أن تصل إلى ذلك المستوى الرائع، برغم أنها طبّاخة ماهرة، بالتأكيد قد تلقيت منكم معاملة رائعة، وسوف أتذكر دائماً هذه المدينة باعتبارها المكان الذي قضيت فيه وقتاً سعيداً إلى هذا الحد، أظن أنكم تريدون أن تسمعوا شيئاً عن رحلتي فوق الجبل. ليس هناك الكثير ليُقال، فعندما أعطى السير ألفريد فاساداي أوامره بانتهاء المهمة والعودة للأسفل بسبب إصابة أحد الرجال بالتهاب رئوي، وكان على حق بالطبع فيما فعل، ولكنني قلت لنفسي، 'يا للجهيم، لقد قطعت طريقاً طويلاً جداً لأتسلق هذا الجبل'».

ووسط الأجواء الحارة الجافة في تلك المدينة، مال الحاضرون إلى الأمام محدقين فيه، ليلتقطوا كل كلمة يقولها، ويروه في مخيلتهم وهو يتسلق ببطء تلك المنحدرات المحفوفة بالمخاطر، ليشعروا معه بالرعب عندما انزلق لمسافة عشرين قدماً لأسفل بفعل صدع خطير، واضطر إلى شق طريقه مجدداً ليواجه جدار الصخور الذي لا يُمكن الوصول إليه في الجزء العلوي والذي اضطره لأن يزحف حتى يعثر على فلق كبير بما يكفي حيث يمكن أن ينحشر بداخله ويجد موطئاً لقدمه. تنفسوا معه الهواء الجليدي النقي نقاء العصور التي مرت عليه، ونظروا باتجاه القمم الجبلية المنهارة، مكسوة بالجليد تمتد بعيداً على مد البصر باتجاه حدود التبت. ساعدته كيت في أن يخبرهم الكثير والكثير مما

أرادوا سماعه منه، لدرجة أنه استطاع أن يتحدث لمدة تقارب الساعة من الزمن، بطريقة المتلعثمة، وبساطة كلماته التي استطاعت أن تأسر قلوبهم جميعاً؛ لأنها كانت مختلفة عما اعتادوا عليه، من طريقتهم الذكية الناعمة، ومعانيهم الخفية الكامنة وراء ذلك الخبث الدفين. كانوا يخشون بعضهم في تنافسهم الخاص المستمر بطول حياتهم، ولكن لا حاجة لأحد منهم أن يخشى هذا الفتى، ربما لم يكن باستطاعتهم أن يغفروا له لو أنه كان شبيهاً بهم، بل على العكس، فقد أحبوه لهذا السبب؛ لأنه ليس كذلك.

ضجت القاعة عن آخرها بالتصفيق الحاد له بمجرد انتهائه من كلمته وجلوسه في مقعده، وهمست كيت له: «لقد أعجبهم ذلك منك». بينما احتفظت بسخريتها من كل ما حولها لنفسها! وانتفخت أوداجه وهو يقول لها متباهياً بنفسه: «لقد بدأت أتقن ذلك».

كان يشعر دائماً بالعطش بعد أن يتحدث، فقد جف حلقه من كثرة الحديث بهذا الشكل المتواصل، ولكنه كان بالفعل يتحسن كثيراً في أدائه، لم يعد يمانع في إلقاء كلمة على الإطلاق، ولكن الحقيقة كانت أن هناك العديد من الأوقات مثل تلك، عندما كان يحصل على مثل هذه الفرص، بأن يكون كل هؤلاء الرجال والنساء في كامل ملابسهم وزينتهم يتطلعون إليه، ويعتقدون أنه شاب وسيم رائع ومفعم بالعواطف، حسناً، يبدو أنه لم يكن شيئاً هيناً أن تتسلق قمة ذلك الجبل، فعندما كان يقوم بذلك، لم يفكر كثيراً فيه من قبل، لكنه الآن، وبعد كل ما رواه مراراً وتكراراً، استطاع أن يدرك أنه قد فعل شيئاً عظيماً، تسلق

قمة جبل في مرتفعات الهيمالايا التي لم يستطع أحد من قبل تسلقها، حتى إن فيساداي نفسه قد تراجع عن ذلك واستسلم أمامه، استطاع أن يرى أنه بالفعل قد أتى عملاً شجاعاً ورائعاً، لم يكن يمانع في أي شيء باستثناء ذلك الوميض اللعين المزعج المنبعث من كاميرات المصورين ليضرب عينيه، ودائماً ما كان يأتيه على حين غرة، وكان من طبيعته حيال ذلك النوع من المفاجآت أن يشعر بتصاعد الدماء في رأسه حد الجنون، فصرخ في أحدهم بتهور: «يكفي هذا، ألا تتوقف؟ يكفيني ما حصلت عليه من هذا في ليلة واحدة». وانفجر كل من حوله بالضحك، فاستدار ناحية منسق الحفل قائلاً: «قل لي، أنا لا أعتقد...». أوقفته كيت بضغطة رفيقة طويلة على ذراعه، حتى توقف عن الكلام.

ثم همست له: «لقد انتهى الأمر تقريباً يا ببرت». وفي تلك اللحظة، جاء رجل ضئيل الحجم أنيق المظهر، يمسك نظارته بيده، قال لبيرت في صوت منخفض رفيع هادئ: «أود فقط أن أقول إنه عندما ترغب في تنظيم رحلة استكشافية خاصة بك يا سيد هولم، أود أن تعرف أنني سأخصص مبلغ مائة ألف دولار من أجل ذلك، وسوف أسجل ذلك كتابةً، اسمي هو ألبرت كانتني». ثم انحنى لهما في سرعة حتى إن أحداً منهما لم يحر جواباً، قبل أن يختفي الرجل.

عرفته كيت على الفور من هيئته وكذلك مما سمعته عنه من شائعات أيام طفولتها، ألبرت كانتني الثري الأمريكي الشهير، تنتمي أصوله لعائلة من مزارعي إسكتلندا، وهو من رصد ثروة طائلة من أجل تمويل ودعم الحفائر الأركيولوجية المعنية بإثبات الحقائق الواردة في كتاب العهد

القديم، ألبرت كانتني الذي هجرته زوجته الأيرلندية الجميلة من أجل طيار فرنسي شاب، والذي انتحر ابنه في الجامعة، أما ابنته فعلى الرغم من أنها ما زالت تعيش معه، إلا أنها زاهدة في الدنيا ولا تختلف كثيرًا عن الراهبات! هيئته النحيلة وظهوره المفاجئ بهذا الشكل من قلب هذه الضوضاء المتلاثلة، كان لهما تأثير بالغ القوة، كمعزوفة للحن سيمفوني ظهرت بعد أصوات صاحبة متنافرة لأوركسترا غير متناغم.

رباه! حتى ألبرت كانتني! وبعرض سخى كهذا؟ هل هناك عجائب خافية عليها في هذا الرجل الذي تزوجت به؟ ولكن في اللحظة التي توقفت فيها كيت عن التساؤل، وقبل أن تستحوذ عليهما الجموع مجددًا، قال لها بيرت: «بعثة استكشافية خاصة بي يا كيت! لم أفكر في أمر كهذا من قبل». بدا منبهراً بشدة بتلك الفكرة.

وفي تلك الليلة تحدث معها بشأنها قليلاً قبل أن يخلد للنوم، ثم أخذ يغمغم بارتياح: «تلك الجبال. حسنًا، لا أعلم يا كيت، ما الذي قد أذهب من أجله مرة أخرى؟».

بادلته التساؤل: «ولماذا ذهبت إلى المكان الأول؟» وفي الظلام، صمت لبرهة ثم انفجر ضاحكًا، وهو يقول: «أنا لا أعرف الآن، أحد تخميناتي، طبقًا لحдسي الخاص، ربما كل ما أردت فعله خطر على ذهني بشكل مفاجئ، وفعلته أيضًا بشكل مفاجئ، وربما سأفعل ذلك مرة أخرى، ولكن الآن، أنا هنا، ولا أعرف إذا ما كنت أريد الذهاب من جديد، أوه، سحقًا». ثم تئاءب بصوت خشن قائلاً: «فقط أريد العودة للمنزل يا كيت. نحن ذاهبان إلى المنزل غدًا».

لم تجبه بكلمة واحدة، يجب عليها أن تتذكر أن تخبر والدها بما قاله ألبرت كانتى، وبعدها لم تستطع النوم بسبب التفكير في تلك الشخصية النحيلة المرسومة، الذي رأت في عينيه المنهكتين الساخرتين ومضة خاطفة من إنكار الذات.

كان هناك مغزى عميق لكل ما لم يجرؤ أي منهما على التفوه به أو الحديث عنه مع الآخر، خاصة ما أخفته عن مخاوفها الشديدة من الذهاب إلى منزل بيرت ومقابلة والديه. وتمنت وقتها لو أنها كانت مثل شقيقتها جايل وقت أن كانت ذاهبة إلى منزل عائلة زوجها هارفي كرين لأول مرة بصفتها زوجة لابنهم، حيث تذكر أنها سألت جايل وقتها: «هل أنت خائفة؟».

اندهشت جايل وأجابتها في تساؤل: «وما الداعي للخوف؟»، ثم أضافت بخبث وبعينين شيطانيتين: «بل على العكس فأنا أرى أنه يجدر بهم الخوف مني، على الأقل بعد يومي الأول بينهم!».

لو أن لديها بعضًا مما لدى شقيقتها جايل من الثقة بالنفس، والتي تجعلها لا تكثر لشيء أبدًا. ولكن للأسف ليس لديها شيء من ذلك. كان أخشى ما تخشاه ولا تجرؤ حتى على مجرد التفكير فيه، هو ما بعد وصولها إلى ذلك المنزل الغريب عنها بكل ما فيه ومن فيه، في الوقت الذي ستكون فيه مضطرة أيضًا لأن تعتبره بيتها، علاوة على مقابلتها لأولئك الأشخاص الغرباء عنها أيضًا والذين هم بحكم زواجها بيرت هولم عليها أن تعدهم من تلك اللحظة بمثابة الأب والأم. ولشدة ما أكثرت من التفكير في الأمر، أثار ذلك حفيظة مشاعر سرية داخلها

بالولاء لأشياء في أعماق نفسها. غير ولائها لعائلتها، بل هو أبعد أثرًا من ذلك كثيرًا، إنه الولاء لأولئك الذين كانت تدعوهم بحق «النوع الذي تنتمي إليه» - إنهم فقط ثلة من الأشخاص، وليسوا أناسًا كثيرين، ممن يعتبرون الفكر أكثر قيمة وحيوية من أي نشاط آخر يمكن أن يقوموا به. ذوو العقول التي تتغذى بالأفكار المبتكرة، وذوو المشاعر السبابة التي تستقي جذوتها ونضارتها من بصيرة منفتحة على كل ما هو حديث. ذات مرة قال لها نورمان بتهكم: «الأثرياء سوف يكونون مثقفين؟!»، حينها ردت له الصاع صاعين بذكائها الهادئ الذي طالما أذهله قائلة: «على الأقل هم ليسوا مثل المثقفين الفاشلين الذين يزددون عقولهم يا نورمان، أنت تُعلي من شأن الفلاحين وعمال البناء لأنهم على الأقل يؤدون أعمالهم بنجاح، لذلك فأنت تعتقد أن القوة العضلية - والتي لا نصيب لك منها - أفضل من القوة الذهنية والتي هي لديك بالفعل».

قالت كل ذلك لنورمان بمنتهى الحدة وقت أن كانت تعشقه حتى النخاع، بينما تحلت دائمًا بالصبر مع بيرت. ولو أن نورمان هو من كان في ذات الموقف، لقاتلته له: «أنا لا أريد الذهاب إلى ميستي فولز، فهم ليسوا نوعي المفضل من البشر». بينما قالت لبيرت بدلًا من ذلك: «ماذا عليّ أن أرتدي لنذهب إلى ميستي فولز?».

كان الوقت باكرًا في الصباح وما زالت منهمكة في حزم أمتعتها، وهي تشعر بضيق شديد من الأمر برمته منذ الليلة الماضية، بينما بيرت ما زال في فراشه يتنأب، قائلاً: «ارتد شيئًا مزركشًا يا كيت، أُمي تحب الملابس المزركشة».

تجمدت في مكانها كالمصعوقة. مزركش؟ ليس لديها أي ملابس من ذلك النوع، لطالما ارتدت الملابس البسيطة. ترددت قليلاً، ثم عادت لحزم باقي أغراضها بهدوء، الملابس التي كان تنوي ارتدائها في جلين باري، تنورات ومعاطف وقمصان من الصوف، ثوب خفيف للمساء أو ثوبان، وعباءة بسيطة، استطاعت هنا أن ترى والدتها بيرت بوضوح من خلال تلك الكلمة التي استخدمها، تقريباً بنفس الوضوح الذي سترها عليه في الغد، ولكن، وبشكل عملي، تذكرت عندئذ أنها دائماً ما كانت تُحجم عن كل ما هو جديد، أيامها الأولى في المدرسة الداخلية، الفصل الدراسي الأول بكامله في الجامعة، وحتى مساء أول ظهور لها مع بيرت، كم كان كل ذلك بائساً مليئاً بأنواع شتى من المخاوف. بينما كل ما عليها فقط أن تعتاد على التعامل بالشكل المناسب مع أهل بيرت، هكذا استمرت تقول لنفسها إنها بمجرد أن تعتاد الأشياء، فإنها تألفها ويمكنها وقتها أن تشعر بالحب تجاهها. وبدا لها واضحاً في تلك اللحظة أن أكثر شيء مفاجئ قامت به في حياتها؛ كان أن تزوجت ببيرت هولم. وراحت تُسائل نفسها: «كم أتعجب كيف فعلت ذلك؟»، ثم استدركت بسرعة: «هكذا بذلك الشكل المفاجئ!»، ولكنها أثرت أن تترك السؤال يمر دون جواب.

وفي محطة القطار في ميستي فولز، استقبلتهما سيدة بدينة جياشة المشاعر، ترتدي زياً فضفاضاً منقوشاً بألوان زهرية، ومن فوقه معطف جديد بلون الخردل، ذو قياس ضيق حتى كاد أن ينفجر، وبجانبيه وقف رجل منحني الظهر متهدل الكتفين يرتدي حلة سوداء مصفرة عتيقة

الطراز. ولكن من خلفهما وقف هناك المئات من البشر.

صاح بيرت بفرح: «يا إلهي! المدينة بأكملها هنا». هتفت بامتعاض: «ظننتك قلت إننا سنكون في هدوء هنا!»، ابتسم ابتسامة واسعة ونظر إليها قائلاً: «أظن أنني كنت على خطأ، حسناً، إنهم هنا على أي حال، يا للبحيم! لو لم يكن من بينهم ذلك العجوز اللعين، حتى أنت يا جاكى ريكسال! كنت أعمل معه في السابق في المرآب، مرحباً بك أيها اللعين! مرحباً يا أمي! مرحباً يا أبي! أقدم لكم كيت».

كان القطار لا يزال متوقفاً، ولم تشعر كيت بنفسها إلا وهي غارقة في عناق حار أحاطتها به والدته بيرت بجسدها البدين الحنون، وهي تربت على ظهرها وتتمتم في أذنها بصوت يقترب من البكاء فرحاً: «آه يا عزيزتي، شيء جميل جداً أن يكون ذلك حقيقياً، لقد جلب لنا بيرت في بيت كهذا عروساً جميلة مثلك! انظر إليها يا جيك، أليست عروساً جميلة صغيرة؟».

ونظرت إلى عيني السيد هولم الزرقاوين الهادئتين، ومدت يدها إليه، ليمسك بها بين يديه الضخمتين المشققتين. ثم قام بتحياتها قائلاً: «سعيد برؤيتك»، ثم نظر إلى بيرت، رأى أنه يعاني بعض الدوار، زائغ العينين ترسم على وجهه ابتسامة خالية من أي معنى أو هدف، بينما يتعالى صياح الجماهير وهي تنادي بيرت. راح بيرت يناديهم ويلوح لهم بمرح طاغٍ، والرجال يضجون بأصوات متداخلة ويربتون على ظهره بقوة. اقترب منه جاكى ريكسال مماًزحاً: «حسناً، أيها السمكري القديم، كان عليك أن تصعد لتلك القمة، أليس كذلك؟». - «نعم،

رجع البنس الممسوح ثانية!» - «ماذا حسبت نفسك يا بيرت؟ ماعزًا جبليًا لعينًا؟» - «إنه الماعز الجبلي، حسنًا حسنًا،» - «قرأت عنك كثيرًا من الأخبار يا بيرت!» - «لا، خدعهم جميعًا، كلنا يعرف أنه كان عديم الفائدة، مدينتنا لا تنفع في شيء، وهو أيضًا!».

كانوا جميعًا يمازحونه ويمجدونه بنفس الطريقة المحببة التي اعتادها، بل وأكثر من ذلك في أنهم وحدهم يستطيعون اختلاس قدر من شهرته لأنفسهم. وصار الواحد منهم كلما كان خارج الديار يحرص على أن يلقيها عرضًا بين كلماته: «أنا من بلدة ميستي فولز، حيث وُلد بيرت هولم.» - «نعم، لقد عرفته طوال حياتي، رجل رائع.» راح الجميع يرددون ذات المعنى بعبارات مختلفة.

وارتفعت أصوات مقطعة لموسيقى تنبعث من طبول وأبواق.

فصاح بهم بيرت: «أنت، توقف عن ذلك، فأنا لم أصبح رئيس البلاد بعد!»، أجابوه مازحين في مرح: «عندما تريد ذلك، فقط أخبرنا.» وفجأة، انتبه لوجود كيت. كانت تقف بمنتهى الهدوء، متتحية أحد الجوانب، لا تعرف ما الذي تنتظره. حملها بين ذراعيه، ورفعها عاليًا فوق رأسه وهو يصيح: «أيها الأهل، هذه زوجتي كيت!».

ومن على هذا الارتفاع، نظرت للأسفل إلى الجموع المحتشدة، تحاول أن تبتسم متألّمة، وتتمتم بحنق بالغ: «أنزلني يا بيرت»، ولكنه لم يستطع أن يسمعها، وظل الجميع يحدقون بها وقد بدأوا يهدأون قليلًا وأخذوا ينظرون إليها بصمت خجول، فالجميع يعلم جيدًا من تكون، قرأوا عنها كثيرًا في جريدة الصنداي. إنها كاترين تالانت ابنة السيد

روبرت تالانت. كما رأوا صورها كثيرًا، لم يمضِ سوى عام واحد أو أقل على ظهورها الأول في الأوساط الاجتماعية، أيًا كان سبب ذلك. لذا كانوا جميعًا يشعرون بالخجل منها، فهي تنتمي لقوم آخرين، مجتمع الأغنياء.

قالت متوسلة: «أرجوك أنزلني يا بيرت»، ولكن لم يتخلَّ أي منهم عن خجله بعد أن أنزلها بيرت أخيرًا، وراح يقدمهم إليها واحدًا تلو الآخر. صافحت عددًا هائلًا من الأيدي وابتسمت مرارًا. ولكنهم ظلوا على خجلهم، ثم تحرك والد بيرت بانتباه تجاه سيارة قديمة حيث صعدت والدته بيرت أولًا ثم تبعها كيت.

مر الأمر عليها كما لو كان احتفالًا مرحًا، وصل ذروته ثم انتهى فجأةً، وعاد الهدوء من جديد، لدى وصولهم إلى المنزل الريفي الأبيض المربع، الذي شُيد على جانب التل وقد أخفت بعض الأشجار جزءًا كبيرًا منه. لم تكن به أي علامات للجمال فيما عدا الأشجار التي تلفه والحقول المحيطة به والتي يقف بينها هادئًا، ويحيطهم جميعًا من كل جانب ذلك الصمت الهائل. ولكن، بعد ذلك الضجيج المتواصل على مدى الأسابيع الماضية، وتلك الطاحونة القاسية من المجاملات الاجتماعية العامة، كان في الصمت والعراء والشعور بالحرية ما يكفي حتمًا بالنسبة إليها. وبمجرد أن خطت قدمها خارج السيارة العتيقة على الحشائش الطويلة الناعمة التي تغطي أرضية الفناء الخارجي؛ توقفت للحظات تستشعر ذلك الصمت، ثم قالت: «كم أحب هذا». صاح بيرت وهو يحتضنها بحب: «يا إلهي، رائع جدًا أن أعود إلى البيت».

فقلت والدته: «أنا سعيدة لأن مزرعتنا الصغيرة القديمة قد أعجبتك يا عزيزتي»، ولكن في الحقيقة ما أحبته في هذا المكان هو الأمان الذي يسبغه الصمت المحيط بالمكان، حيث لا تحمل الريح معها أي صوت آخر غير هفيفها.

وعلى مدار أيام عدة مرت عليها هناك، علمت جيدًا أنها لن تستطيع أن تحب والدي بيرت، ولكنها من تتحمل مسؤولية ذلك، أو أنها على الأقل تتحمل النصيب الأكبر منها، أدركت ذلك بكل صدق مع النفس. فعلى سبيل المثال، كان أحد أكثر الأمور التي أزعجتها، خاصة وهي ذات أنف شديد الحساسية نبيل الذائقة، أنها لم تعد قادرة على أن تستمر بالتظاهر بتقبل رائحة البقر، والتي ينغمس فيها والد بيرت طوال اليوم. برغم أنها أشياء من صميم طبيعة حياته هناك، في مزرعة للألبان، برغم أنه كان يغتسل جيدًا وبعبناية عند حوض المياه في المطبخ، كلما دعت الحاجة لعودته من الحظيرة، ولكن يبدو أنه لم يكن يجدر بها أيضًا أن ترى الطريقة التي يغتسل بها عند الحوض! حتى إن بيرت ذهب يغسل يديه هناك أيضًا بعد أول وجبة تناولاها معًا، على الرغم من وجود غرفة حمام بالطابق العلوي لطالما افتخرت بها والدة بيرت.

وقد سألته عن ذلك متعجبة: «بيرت، لماذا لم تذهب للاغتسال في غرفة الحمام الخاصة بالأعلى؟»، فأجابتها والدته بحنكة وبحديث لا يخلو أيضًا من المرح: «أظن أنه ليس عليه أن يحمل معه كل تلك القاذورات إلى ذلك الحمام الجميل».

غمز بيرت بعينه لكيت وهو يقول: «بالضبط، أعرف ذلك يا أمي»،

ثم وجهت والدته حديثها إليه وبلهجة آمرة: «وأنت، عليك أن تستخدم الدرج الخلفي من أجل ذلك أيها الفتى، فيمكنك أن تتسلق ما تريد من جبال، ولكنك أبداً لا تستطيع أن تتسبب في قذارة الدرج الأمامي، ويكون عليّ أنا أن أقوم بتنظيفه من بعدك!».

أجابها بيرت بمرح: «حسناً يا أمي، لك ذلك، فأنا لم أُنَسَ بعد. هيا يا كيت دعينا نأكل».

كلا، إنهم حقاً أناس مخلصون، أناس طيبون يحبون ابنهم الوحيد، إنهم يشعرون بالفخر تجاهه لدرجة مثيرة للشفقة، كما أنهم قادرون على أن يمنحوها كل الحب، فقط إذا هي منحتهم الفرصة. وكم كرهت نفسها لكونها غير قادرة على فعل ذلك، على أن تدعهم يحبونها على طريقتهم، كما كان أكثر ما تخشاه هو يدا والد بيرت، هاتان اليدان الضخمتان كالمطرقة شعرت بالرعب منهما، خاصة مع كل ذلك الاتساع الساكن للأبد بين ثنايا وتجاعيد اليدين المشققتين، كما لو أنه أصبح جزءاً منهما لا أمل في التخلص منه. وبينما هي تجاهد نفسها لتستطيع تناول الطعام، أخذت تعنف نفسها متسائلة: «كيف له أن يتفادى تلك الأوساخ، في حين أن طبيعة عمله تجبره على ذلك؟ إنه رجل مهذب جداً وطيب القلب، ولا يهم حتى إن كان لا يجيد القراءة أو الكتابة».

وهنا تذكرت أن تلك كانت الحجج التي ساقها يوماً نورمان وكانت مثار جدل بينها، عندما كانا معاً ذات يوم من أيام الشتاء، أثناء بروفة لإحدى مسرحياته، وحينها قالت له بنبرة تحمل مزيجاً من الجد والمزاح: «هلا جلسنا بعيداً عن مهب الرائحة المنبعثة من ذلك النجار؟»، لم تكن

تحمل أي ضغينة لذلك النجار على وجه التحديد، سوى بسبب رائحة عرقه النتنة. ولكن نورمان ثار في وجهها بشدة، نورمان الذي تلقى تربيته كأحد أبناء مدينة نيويورك المهذبين الذين يجيدون التصرف بلباقة.

إلا أنه واجه ذلك بغضب الدنيا في عينيه السوداوين، برغم نبرته الهادئة، قائلاً: «كم أكرهك يا كيت، لا شيء يرضيك أبداً أيتها اللعينة، ما العيب في رائحة عرق أي إنسان؟».

أجابته بنفس الهدوء: «لا شيء إطلاقاً، إذا كنت تحبها إلى هذه الدرجة. أما أنا، فلا».

كانت تلك الطبيعة الهادئة هي السمة الغالبة للشجارات المتعددة بينهما، حيث لا يرغب أي منهما في التنازل أو تقديم بعض المرونة، ليظل محتفظاً بشعوره بقوة منطقته.

عاد نورمان يضيف في قليل من الدفء: «برجر شاب طيب، لقد شربت معه البيرة عدة مرات ونحن نتجول في الشوارع، لديه زوجة وأربعة من الأطفال، وظل خارج بيته وأسرته ليشارك في إضراب عام لمدة ثلاثة أشهر في الشتاء الماضي». أجابت كيت في هدوء شديد: «لا شك لديّ في ذلك، ولكنه في حاجة أيضاً لأن يغتسل، بنفس الحماس!».

صرخ فيها نورمان في غضب شديد: «كيت، أنتِ شخص كرهه، إنه رجل مخلص وصالح، إنه من ذوي الأصول الطيبة التي صُنعت منها أمريكا، إنه...».

وهنا، كفت كيت عن التظاهر بالهدوء، وانفجرت مقاطعة إياه في

حدة:

- أنا أيضًا فتاة أمريكية، وكذلك أنت نورمان لينلاي، وكذلك هم عائلاتنا وكافة أسلافهم السابقين، وعلى الرغم من ذلك لا تنبعث من أحد منا تلك الرائحة النتنة، كما وجدنا من ذلك الرجل.

عاود نورمان الهجوم محتدًا: «أنت ضيقة الأفق لعينة يا كيت».

قاطعته بنفس الحدة: «بل أنت ذلك اللعين ضيق الأفق يا نورمان، كل ما وددت قوله، هو أن نبتعد قليلًا وأن نجلس بعيدًا عن تلك الرائحة الكريهة المنبعثة منه، ولكنك تصمم على رأي عقيم يقول بأن الأمريكيين الطيبين يجب أن تفوح منهم رائحة العرق لكي نصفهم بأنهم أشخاص مخلصون صالحون. حسنًا، الغالبية العظمى من الأمريكيين ليسوا كذلك! غالبيتهم فقط أشخاص عاديون، يحرصون على النظافة، يشعرون بالراحة بقدر ما يحرصون بالطبع أيضًا على أن يبتعدوا ويتجنبوا أشخاصًا مثل هذا ال... الـ (برجر) طالما كانوا في الجوار. أما بالنسبة لك، فيبدو أنه لا يمكنك أن تشعر بالسعادة حقًا إلا حين تستنشق رائحة عرق الآخرين، بينما أي شخص نظيف مثل الناس العاديين كما نعرفهم، فإنه يبدو غير حقيقي بالنسبة إليك. ما تعنيه، هو أنه ليس من السهل كتابة المسرحيات عن هؤلاء، إنما الأسهل تمامًا هو كتابة المسرحيات عن المجاعات والعرق والبطالة والفيضانات والعنف السائد، عن أن تكتب عما يحدث حقيقة في الحياة العادية لأغلب الناس. بينما نحن الأمريكيين لا نتصور جوعًا حتى الموت، كما أنه لا تنبعث من أي منا

رائحة العرق، وأغلبنا يتمتع بوظائف جيدة، كما لم يرَ أي منا أي شيء مما تدعي أنت وجوده من العنف في مجتمعنا!». شعر نورمان بغضب شديد، لدرجة أنه قام مغادرًا تاركًا إياها وحيدة، مخلفًا وراءه فقط صدى وقع أقدامه الثقيلة بين مقاعد المسرح الخالية. في حين كانت تقاوم دوافع قوية داخلها لأن تعدو خلفه وتناديه: «أوه يا حبيبي، كما هو غبي أن نتشاجر معًا من أجل هذا! ما الذي يجعلني أهتم بشأن الروائح؟».

ولكنها لم تفعل، لأنها كانت موقنة بأن ما قالتها صحيح وبأنها على حق، وهذا ما أثار غضب نورمان، ومنذ ذلك الحين، لم تعد واثقة من أن الحقيقة هي أهم الأشياء في هذا العالم. ولكن، حينها أيضًا، بدا لها أنه أصبح من الضروري أن يتناولا الأمور فيما بينهما على حقيقتها. وانتظرته، ولكنه لم يعد، وبعد وقت ليس باليسير، نهضت من مكانها وعادت للبيت، لقد كان أول صدام قوي بينهما منذ بداية علاقتهما، ولكن، تلاه الكثير فيما بعد؛ لأن أيًا منهما لم يحاول أبدًا الاعتذار والتراجع، ولأنهما ببساطة عادا إلى ذات الموضوع مرة أخرى فوق الخليج، فقد عادا أيضًا للشجار ثانية.

واللافت للنظر، أنه خلال كل تلك الفترة إلى ما بعد الظهيرة من ذلك اليوم، وبرجر الذي كان بريئًا من شجارهما، ظل يواصل عمله في التصميم التي كان يعمل عليه، كان ديكور مطبخ في إحدى المزارع، تم تصميمه من أجل الناس الذين يعيشون في المزرعة التي نسجها نورمان من وحي خياله، ليجلسوا حول طاولة الطعام ويتناولوا لقاء ما عانوه من جهد ومشقة، أبسط الأطعمة، ولكن ذلك كان شيئًا خاصًا بمسرحيته،

أما هذا فهو ما يحدث في الحقيقة، والفارق بين هذا وذاك شاسع بحق! «أبي»، استطاعت أن تنطقها، برغم أن دماءها ترتجف من وقعها على أذنيها: «هل تريد تناول المزيد من اليخنة؟». هز والد بيرت رأسه نفياً قائلاً: «لا، أكلت ما يكفي»، وجلس في ثبات يزدرد طعامه في جرعات كبيرة، بينما كانت والدته بيرت تتحدث أكثر مما تأكل.

وفي البداية، كانت كيت تنصت لما تقوله لها جيداً، بل وحتى حاولت كثيراً مد جسور الحوار فيما بينهما، إلا أنها اكتشفت أن ذلك يسبب للأُم العجزو إزعاجاً، فقد اعتادت لسنوات عديدة أن تتحدث إلى بيرت ووالده دونما اعتراض أو نقاش من أي منهما، وبالتالي فلم تعد على الحوار، ولكن كيت بعد عدة أيام بدأت تلوذ بالصمت، وتفسح المجال للسيدة هولم أن تستأنف حديثها الفردي المدهش.

- لا أعرف ما الذي عليّ فعله بشأن حديقتي يا جيك، أحواض زهور الأضاليا تحولت إلى فوضى من الحشائش الغريبة، يمكنني أن أعمل عليها بنفسي إذا تمكنت فقط من أن أحمي ظهري بشكل كافٍ للدخول إلى هناك. بيرت، لماذا لا تتولى ذلك أنت بنفسك؟ فأنت لم تفعل شيئاً منذ عودتك إلى البيت. كيتي، لا يجب عليك أن تفسدي طباعه، فقد ربيته على العمل والتعب.

ضحك بيرت قائلاً: «مؤكد يا أمي، لذلك هربت من البيت!».

نهرته والديه ممازحة ولكن في لهجة آمرة: «اخرس أنت أيها الولد»، ثم أضافت بشكل لطيف: «حسناً، أظن أنك الآن أصبحت ذا مقام عالٍ، ولن ترفع يدك من مكانها لتساعد أمك العجزو في شيء بعد

الآن، أنا واثقة يا كيتي، لو عرفتِ كم كان بيرت ولدًا طيبًا وهو طفل صغير، وكم اعتاد مساعدة أمه العجوز في كل شيء، لم يجعلني أشعر يومًا أنني بحاجة لابنة إلى جوارتي، كان أفضل من أي فتاة، ولكنه ما إن شبَّ وكبر، حتى تمكن منه الشيطان. حسنًا، أعتقد أن كل الشباب يكونون كذلك في صباهم، وعلينا أن ندع ما هو مقدر أن يحدث، ليحدث يا بيرت. والآن أنت فعلت شيئًا عظيمًا، وجعلتنا جميعًا نفخر بك». ثم اتكأت على ساعده، وربتت على يده بحنان.

وفيما وراء المنزل، كان الهدوء مطبقًا بشكل مثالي، يتجسد في كل شيء حولها، في الغابات التي راحت تتجول فيها، والمروج الخضراء الرائعة حيث كانت تترقد على الحشائش الناعمة في المنحدرات على جانب التل، كأن الهدوء قد صبغ كل عناصر المكان وأسبغ عليها جمالًا خاصًا. وبرغم أنها كانت أمريكية بحق، لم تكن تعلم حقيقة أن الكثير من الأمريكيين العظام قد نشأوا في بيوت مماثلة لذلك الذي وُلد ونشأ فيه بيرت هولم. بتصميمه الخشبي البسيط، يتسلل إليه البرد في الشتاء، ولا يقوى على مقاومة حرارة الصيف، ويتمايل مع الريح في العاصفة، وبرغم ذلك فهو صامد بشكل أو بآخر في وجه كل ذلك، إنه أيضًا أمريكي بعمق، فهو جزء هام من الظروف التي شكلت شخصية بيرت هولم. وقد سبق لها أثناء دراستها في كاليفورنيا، حين رأت صورًا واقعية لمنازل عديدة من نفس النوع، بذلك الشكل الذي تراه الآن بالأسفل وهي مستلقية على جانب التل، كما نُشرت صور مماثلة لمنازل مشابهة في العديد من الصحف في كافة الأنحاء، وشعر الناس حيالها

بأنها مناسبة تمامًا لذلك. فهم يرون أن أبطال أمريكا يجب أن ينشأوا في منازل كهذه؛ لأنها مناسبة لأن تكون منازلًا لأي شخص منهم، ولكنهم غفلوا عن أمر هام؛ هو أن أيًا من أولئك الأبطال لم يستطع البقاء بعدها في ذات المكان، ورفضوا الاستمرار فيها تمامًا كما فعل بيرت نفسه.

سألت بيرت في توسل: «أخبرني يا بيرت قصصًا عن تلك الحجرات المتعددة في المنزل».

ولكنه لم يستطع ذلك أبدًا. حاول المراوغة قائلاً: «أوه، لست أدري ماذا أقول لك، إنه مجرد بيت عادي كما أظن».

لم تقنعها إجابته، فعاودت بإلحاح: «ألا يمكنك التذكر؟ إنه بيتك يا بيرت!»

ولكن بدا أنه تذكر شيئًا ما فجأة، أغرب شيء يمكنه أن يرويها لها عن المنزل، الشيء الذي لم يكن يملك أن يفعل أي شيء حياله. عقد حاجبيه وبدأ يروي: «كان لأمي حجرة صغيرة بها خزانة مليئة بالأشياء الغريبة التي اعتادت جمعها والاحتفاظ بها. وكان لديها بعض الأشياء المهرثة التي أرسلها إليها شخص ما من أفريقيا ذات مرة، أظنه كان أحد المبشرين أو ما شابه على ما أذكر، فقد كانت أمي تدعم المبشرين الأجانب بشكل عظيم». وفي الحقيقة، كانت والدته بيرت قد أخذت كيت إلى تلك القاعة في أول يوم أحد بعد وصولها، ووقفت في وقار تستعرض محتويات خزانتها الخاصة وهي تروي لها قصة عن كل قطعة: «بعد أن انتهي من غسل الصحون يا كيتي، أريدك أن تري بعض أشياءي الخاصة». وتوجهتا معًا إلى تلك القاعة الصغيرة، وأزاحت الستائر عن

الخزانة ثم فتحها أمام كيت.

وبدأت تخرج القطع الواحدة تلو الأخرى، وهي تشرح لها: «هذا الشيء، إنه سكين أو نوع من الأسلحة يستخدمونها في أفريقيا في تقطيع بعضهم، لا أتذكر اسمها تحديدًا ولكنني أذكر أن لها اسمًا ما، كان المبشر قد أخبرني به وقتها. حيث كانت كنيسة في ميسيتي فولز تقدم الدعم والمساعدة لأحد المبشرين في أفريقيا، كان رجلًا طيبًا لأبعد حد. أما هذه السلة، منسوجة بطريقة ما من ألياف جوز الهند. كم هي رائعة تلك الأشياء التي يمكن لهؤلاء البدائيين صنعها برغم فقرهم وجهلهم. لا أخفي عليك شعوري بالأسف تجاههم، لكل ما يعانون من جهل وأشياء أخرى. يخبرنا ريفيريند شانكي أبشع الحكايات عن الأشياء التي يفعلونها؛ لأنهم ببساطة لا يعرفون ما هو أفضل من ذلك. غارقون في ظلام الجهل، إنهم حقًا مثيرون للشفقة».

وكيت جالسة على مقعد هزاز، تتناول القطعة بعد الأخرى في صمت ودون تعليق. شيء لا يُصدق، بل إن الأمر كله لا يُصدق، فقد شعرت في تلك اللحظة بأنها أقرب إلى أولئك البدائيين الذين يعيشون في ألفة وتناغم تحت الشمس، منها إلى تلك المرأة الطيبة التي هي والدة بيرت، والتي تستمتع كثيرًا بإحساسها بالشفقة تجاههم.

* * *

بعد الظهيرة من أحد أيام شهر أكتوبر المشمسة والرياح هادئة، استلقت كيت على الحشائش الخضراء الكثيفة، وهي تتذكر كيف شعرت في أول يوم أحد مر عليها بعد وصولها لمنزل بيرت، وتساءلت:

تُرى ما الذي يمكنه أن يجمع الناس معًا أو يفرقها؟ ثم ولّت وجهها ناحية بيرت، الذي كان مستلقيًا إلى جوارها مغمض العينين.

كان يفكر -بشيء من التكاثر- في أنه لم يعد عليه أن يخشى من عدم شعور كيت بالرغبة في الاستمرار في ميستي فولز، فقد أحبت البلدة، كما أحبها الناس كثيرًا بما يكفي لأن يطرح عنه تلك الهواجس، ولكن أيضًا لم يكن عدم استمرارهما هناك بالأمر المريع إلى هذه الدرجة، ذلك أنه بمجرد أن يعثر على منزل مناسب ويستطيع تأسيسه؛ فسينتقل إليه حتمًا، حتى إنه نفسه لم يكن متأكدًا من رغبته في البقاء في ميستي فولز، كما أنه في حالة استمرارهما في البلدة ولو لبعض الوقت، سيكون عليه أن يقرر ما عليه فعله حيال لي لي، فقد عادت مجددًا إلى البلدة وتعمل حاليًا فتاة بار في الحانة. أخبره بذلك جاك بهدوء لدى استقباله لهما في محطة القطار، كما أخبره بأنها لم تستقر في رينو بعد أن انتهى ما كان بينهما، بل عادت إلى عملها السابق كما لو أنها لم تتركه، بل وزاد على ذلك بأن قال له: «ولم تذكرك بسوء على الإطلاق. وتصرف كما لو أنها لم تسمع عنك من قبل».

أجابه بيرت: «فلتذهب إلى الجحيم. إنها لا تعني شيئًا بالنسبة لي».

كان ذلك حقيقياً بالفعل وبما يكفي، ولكن بالطبع عليه أن يخبر كيت بشأنها، فهو على يقين بأنها ستعلم بطريقة ما أو من شخص ما، حال استمرار بقائهما في ميستي فولز. وللحقيقة، فقد كان سلوكًا لائقًا من لي لي ألا تظهر في محطة القطار أثناء قدومهما، حيث كان بإمكانها الظهور أو الاختفاء على السواء. كما أنه توقع من قبل أن تظهر وتطالبه

بالنفقة أو ما شابه ذلك باعتباره قد أصبح رجلًا ثريًا الآن والجميع هنا يتحدث عما فعله، فعندما أتما إجراءات الطلاق كان شيئًا جنونيًا منها ألا تكون لديها أي رغبة في مطالبة بأي شيء. ولكن وقتها، كانت تعلم جيدًا أنه لا يملك شيئًا ليقدمه إليها، فضلًا عن أنه لم يكن ليقدم إليها شيئًا إذا ما كان ذلك بإمكانه. وقد تركته بالفعل بإرادتها الحرة، أما الآن وقد صار رجلًا ثريًا، أو على أعتاب الثروة، ربما لا يجدر بهما البقاء في ميستي فولز. انتبه من أفكاره على صوت كيت تحدثه، ولكنه لم يدر ماذا قالت. فتح عينيه،

وسألها: «هل كنتِ تقولين شيئًا يا كيت؟».

أعادت على مسمعه حديثها مرة أخرى بصوت حالم: «كنت أقول، كم أتحرق شوقًا منذ فترة طويلة أن نكون وحدنا يا بيرت، هل تصدق بأننا لم نحظْ بأي فرصة للحديث على انفراد في هدوء منذ أن تزوجنا حتى الآن؟».

أجابها موافقًا: «هذا صحيح يا كيت».

تابعت في شرود: «لم ننعم بمثل هذا الهدوء إلى الآن».

كيف لها أن تقنع قلبه بأن يفتح لها؟ وعقله بأن يفصح عما بداخله؟ ماذا لو يصبح كل منهما قادرًا على أن يتحدث، وأن يخبر كل منهما الآخر ما لم يستطع قوله من قبل! أحيانا تتماذى مُغرقة في تلك الفكرة وتقرر أن تخبره بشأن نورمان، فربما يذهب ذلك ببقايا الذكريات العالقة بذهنها عن تلك العلاقة، ولكن -ومن زاوية أخرى- لم يكن ذلك هو الموضوع المناسب للحديث بين اثنين يتلخص يومهما في العودة

مجهدين من مأدبة غداء، ولا يملكان من الوقت ما يكفي إلا للاستعداد وارتداء الملابس المناسبة لحفل استقبال مبكر قبل الانطلاق إلى العشاء. ولكن هذا المكان جعلها تعيد التفكير في نورمان، ليس بالكثير من الحب، بقدر ما هو الحقد المتخلف عن قصة حب لم تُشَفَ منها تمامًا بعد. لم تكن تشعر بالحنين إليه، إنما كانت تفكر بالأمر وتحدث نفسها: «كنت أتمنى لو أنه يستطيع أن يرى كيف هي الحياة بعيدًا عن خشبة المسرح!»، ولكن حتى هذا جعلها تفكر فيه بشكل مضطرب عما قبل زواجها. أم أنه ذلك الهدوء المحيط بها هو ما أثار في داخلها تلك الأفكار وشعرت معه بأنه ما زال بداخلها؟

تنهدت قائلة: «كم هو مبهج هذا اليوم!»، لحظة استرخاء خريفية تحت أشعة الشمس الغنية، تحيط بهما التلال من كل جانب، ويظهر الوادي هناك بالأسفل. وعلى شفثيها ارتجافات تحمل الكلمات، التي كم تود لو استطاعت أن تخبر بيرت شيئًا منها، تحدوها فكرة، مؤداها أنها لو أخبرته من تلقاء نفسها؛ فربما كان صدقها وأمانتها في ذلك هما الجسر المنشود للتواصل بينهما.

أجابها مجددًا: «مؤكد هو كذلك»، اقتلع بعض الحشائش وجلس يلوكها في صمت. وعلى البعد، هناك في الجانب الآخر من التل، رأى والده يسوق الأبقار نحو بقعة معشبة جديدة.

فقال لها: «أبي ينوي أن يجرف كل تلك الحشائش القديمة قبل حلول الشتاء».

غمغمت في خفوت: «أحقًا؟».

وأجلت كل ما كانت تنوي الحديث عنه لوقت آخر. كان هواء وقت الظهيرة نقيًا ومنعشًا. الأجواء في غاية الروعة، الحشائش الخضراء على المنحدر وبستان الفاكهة إلى اليمين، والمنزل بالأسفل، وفيما وراءهما تمتد التلال المتشابكة المنخفضة. حتى شعرت الأرض من تحتها بما في داخلها من دفء، مدت يدها وأمسكت بيد بيرت، وضغطت عليها بقوة، عندما تحين اللحظة المناسبة؛ فسوف تنتهز الفرصة لتبوح بكل ما لديها، اللحظة التي يصبحان فيها قريبين بما يكفي لصنع بداية حقيقية.

«بيرت، عندما كنت صبيًا صغيرًا هل راودك الحلم بأن تذهب للجانب الآخر من العالم، وأن تتسلق الجبال التي لم يجرو أحد على تسلقها من قبل؟»، ظل يعض الحشائش في فمه بأناة، وتركزت نظرات عينيه الزرقاوين في محاولة جهيدة للتذكر.

ثم أجابها بعد برهة: «لا أظن أنني فكرت كثيرًا وقتها في أي شيء من هذا، لا أتذكر أنني فعلت ذلك». ثم قطع حديثه فجأة وهو يشير إلى المنزل بالأسفل: «ما الذي يحدث هناك عند البيت؟».

اعتدلت جالسة وهي تنظر أسفل التل إلى المنزل حيث أشار بيده، إذ توقفت سيارة بحماقة على الطريق الحجري قبيل المنزل بقليل. ونزل منها ثلاثة رجال، يحملون كاميرا ضخمة وحاملًا ثلاثيًا كبيرًا، همس بيرت لنفسه: «يا للبحيم. دعينا نهرب من هنا فورًا!».

هبت واقفة في وثبة واحدة، وشبكا أيديهما وانطلقا يعدوان معًا نحو بستان الفاكهة، واختفيا داخله بين الأشجار المثقلة بشمار التفاح، قال بيرت بسعادة: «الآن لن نستطيعوا رؤيتنا أو العثور علينا».

كانت مفاجأة مرحة لهما أن يضطرا للعدو هكذا معاً في وضوح النهار وتحت أشعة الشمس المتألقة بعد الظهيرة. بينما يضوع عبير ثمار التفاح الطازجة من حولهما دافئاً مثل الخمر. شعرت كيت بالإثارة والانطلاق وحرية الحياة البرية. كانت تحاول اقتناص السعادة الكامنة في تلك اللحظة كمن يلاطف طائرًا خائفاً يريد أن يجتذبه، ولكن بيرت كان وقتها أقرب إليها وهما يعدوان معاً، بأكثر مما كان يمكن أن يفعله الكلام ليقرب بينهما.

هتفت كيت فجأة: «أوه بيرت، أعتقد أنني أحبك!» وألقت بنفسها بين ذراعيه، فضمها إليه بقوة واحتضنها طويلاً، وقال لها بتأثر واضح: «أنا حقاً مجنون بك، مجنون، مجنون، مجنون بك».

ضمها إليه وحملها بين ذراعيه وأخذ يدور بها في سعادة غامرة. كان قوياً، وقد شعرت بقوة ذراعيه كأنها تطير في الهواء، وانتابتها رجفة تنبئ عن شعور جديد لم يسبق أن مر بها من قبل. وفجأة، تبددت تلك اللحظة الحالمة سدى. حين تناهى إلى مسامعهما وقع خطوات ثقيلة قادمة من أسفل التل عبر الحشائش المنحدرة الممتدة، ثم ظهرت السيدة هولم فوق الجدار الحجري المحيط بالبستان حيث يختبئان.

وهي تهتف: «حسناً، أنت هنا إذن!» طلب بيرت من كيت أن تعود إلى البيت، وشعرت بتثاقل أقدامها فجأة، والتقت عيناهما بعيني والدة بيرت المرتبكتين اللتين انقدتا احمراراً وتلاحقت أنفاسها لاهثة من فرط الإجهاد بعد تسلقها جانب التل لتصل إليهما في البستان.

قالت لبيرت بحدة رغم أنفاسها المتقطعة: «بحث عنكما في كل

مكان يا بيرت، ألم تسمعي وأنا أنادي عليك كثيرًا؟ لقد أتى هؤلاء الرجال إلى هنا من جريدة المقاطعة ليلتقطوا لك بعض الصور». غمغم بيرت: «يا للبحيم، ألا يمكنني...». قاطعته والدته بلهجة آمرة: «هيا يا ولد، إنهم ينتظرون، وتذكر جيدًا أن تصون لسانك». قال بيرت مستسلمًا: «أوه، حسنًا»، ثم تبعها إلى أسفل التل بانتباه، وقد أطبق عليهما الصمت.

وغاب الهدوء مجددًا، فبعد أن وجدت تلك المجموعة من المراسلين والمصورين بيرت، تبعهم آخريين، وأصبحوا كل يوم يسمعون صوت السيارات قاصدة منزلهم لإجراء مقابلة والتقاط بعض الصور. أحيانًا يكونون بعض الصحفيين، وأحيانًا فقط بعض السائحين الذين جاءوا لمقابلة بيرت والتقاط الصور التذكارية معه حيث وُلد ونشأ، وفي النهاية يطلبون منه توقيع الأوتوجرافات لهم. وكانت والدته بيرت هي دائمًا من تقوم بمقابلتهم والترحيب بهم، وقد بدأت تستمتع كثيرًا بكونها والدته بيرت هولم البطل الأمريكي، وقد أعدت مئزرةً جديدة نظيفة فوق أحد أرفف المطبخ، لترتيديها في سرعة كلما سمعت صوت سيارات تتوقف أمام المنزل، كما اعتادت أن تبحث عن بيرت أينما اختفى، ودائمًا ما كانت تعثر عليه وتأمره بالقدوم إلى غرفة الطعام فيما يشبه طقسًا يوميًا لديها كل صباح تقريبًا.

في بادئ الأمر، كان بيرت يتشاجر معها غاضبًا من ذلك، ويصيح معترضًا: «تبًا لذلك يا أمي، لا يمكنني الاستمرار في هذا للأبد. ماذا تظنينني؟ أنا لست عرضًا لا ينتهي في سيرك، فقط أريد أنا أنعم ببعض

السلام والهدوء!»، أجابته والدته: «لا تتحدث إليّ هكذا كالأغبياء، لا أجد الأمر صعباً إلى هذه الدرجة في أن تكون مؤدباً وأن تحترم كل أولئك الناس الذين يقطعون مسافات طويلة مسافرين عبر البلدان فقط ليروك. أنا أكره نوعية الناس الذين يظنون أنفسهم أفضل من الآخرين، وأقل ما يجب عليك أن تفعله يا بيرت هو أن تخرج لمقابلة محبيك وتمنحهم الفرصة لرؤيتك». ثم تجاهلت حاجبيه المعقودين ووجهه العابس، وانطلقت تضحك وتدلي بالأحاديث وتروي مئات الحكايات التي لا تنتهي عن بيرت وهو بعد صبي رائع، وكيف كان أيضاً من قبل ذلك رضيعاً رائعاً، وراحت تتباهى وتفاخر ضيوفها قائلة: «كنت أعلم أنه لم يكن طفلاً عادياً، فقد كان يستطيع مضغ اللحم مثلك ومثلي وهو لم يتعدَّ عامه الأول بعد، حيث كانت لديه أسنان كاملة في مثل ذلك العمر!»، تدخل بيرت معترضاً على التفاصيل التي ترويها والدته: «أوه، كفى يا أمي، اصمتي!»، والناس يسمعون ويحدقون ذاهلين، ثم يلتقطون بعض الصور ويهتفون في حماس: «أوه سيدة هولم، هل تمنعين في الوقوف إلى جانبه من أجل الصورة؟». وفي غضون أيام قليلة، امتلأت كل صحف أمريكا اليومية بصور بيرت بوجهه العابس، وافقاً بطوله الفارع إلى جوار سيدة قصيرة بدينة ضاحكة الوجه، والتي هي والدته، كما تساءلوا كثيراً عن كيت، واستمروا يتشدقون بذلك السؤال: «ألست متزوجاً يا سيد هولم؟ أين زوجتك إذن؟». بينما ألمحت النساء بأدب: «أوه، كم هو جميل لو نلتقي بها يا سيد هولم». ولكن كيت تعلمت كيف تتفادى ذلك وتفر هاربة من الباب الجانبي عبر غرفة الطعام الضيقة

الصغيرة، ثم تصعد على جانب التل إلى إحدى البرك الصغيرة لتختفي عندها وسط الغابة، حتى أصبحت تلك البركة هي الملاذ بالنسبة إليها، حيث لم تكن السيدة هولم لتغامر بالصعود إلى هناك فبتلّ أقدامها، ورغم ذلك، فقد حدث ذات مرة أن أرسلت بيرت في أثرها حالما رأتها مصادفة وهي تتجه إلى هناك بالأعلى لتحاول الاختباء عند البركة، وراح بيرت يعدو خلفها ووصل إليها وهي بعد في منتصف الطريق، وهناك جلسا قليلاً عند صخرة تتوسط منطقة موحلة، واحتدم بينهما الجدل، بدأه بيرت قائلاً: «كيت أرجوك، أُمي تقول لك إنه يجب أن تعودى معى فقط هذه المرة، إنهم مجرد أشخاص تعرفهم جيداً، فقط يريدون التقاط بعض الصور لنا معاً».

أجابته في حدة: «بيرت، أصبحت أفضل أن ألقى بنفسى فى هذه البركة، لم أعد أحتمل أيًا من هذا».

- حسنًا، ولكن عليّ أنا أن أحتمل هذا!

- أما أنا فلا. فأنا لست بيرت هولم.

نظر إليها بيأس قائلاً: «ولكن ماذا سأقول لأُمى عن ذلك؟». أجابته بإشفاق: «لا يعنينى ما عليك قوله لها، وإذا كان كل ما عليّ القيام به هنا هو التقاط الصور والتحدث إلى الناس، فيجدر بى إذن أن أرحل من هنا».

ولكن، هناك فى أعماق قلبها، كانت حقيقة مخاوفها السخيفة تكمن فى إشفاقها من ظهور صورها فى كل الصحف والمجلات إلى جانب السيدة هولم! لم تستطع أن تتحمل فكرة أن تكون محل سخرة

شقيقتها جايل إذا ما رأت صورها إلى جانب السيدة هولم.

قال بيرت: «ماذا تقولين يا كيت! نحن شخص واحد، فأنت الآن زوجتي».

نظرت إليه قائلة: «وما شأن هذا بذاك يا بيرت؟».

قال بيرت بنبرة جادة: «إذا كانت أُمي تفخر بي حقًا، فليس جيدًا ألا تكوني كذلك».

صرخت به: «بيرت، لا أظنك تريد مني أن أَلعب أنا أيضًا دورًا في هذه الحماقة!».

توقفت فجأةً عندما شعرت بأنها ربما جرحت مشاعره، فاستدارت ومضت عبر الأرض الموحلة، دون أن تنظر خلفها ولو لمرة واحدة حتى وصلت لحدود الأشجار، ومن خلال المسافة بينهما، نظرت خلفها إلى بيرت فرأته يسير مهمومًا عبر الحقول، كم أنت مسكين يا بيرت، ولكنها حقًا لم تستطع مساعدته.

ولعدة أسابيع، تحولت أيام الخريف وطقسها الرائع إلى دعوة مفتوحة لكل سائح. والسيدة هولم في كامل ثيابها، على استعداد دائم للاستمتاع والتسلية منذ الساعات الأولى للصباح وحتى أواخر المساء، وقد جمعت كل ما استطاعت أن تجده من أغراض بيرت القديمة وملابسه وألعابه وهو رضيع، وصقَّتهم بعناية على مفرش كبير نظيف، فوق طاولة واسعة في غرفة الطعام، وكم تعالت شهقات النساء لرؤية ملابس الرضيع ذات اللون الأصفر المصنوعة من القطن الأبيض

السميك، والأحذية الصغيرة البالية، وملابس العمل المُرْتَقَّة في أكثر من موضع، أما بالنسبة إلى كيت، فقد وصل الأمر لدرجة أنه أصبح أمرًا واقعًا يتكرر يوميًا كل صباح أن تغادر المنزل، ولم يتبادل أي حديث مجددًا مع والدته بيرت حول هذا الأمر، بعد رفضها الظهور معهما في أي مقابلة من أي نوع، فقط قال لها بيرت في كلمات مقتضبة: «لقد أخبرت أمي بأن تدعكِ وشأنك يا كيت، فافعلي ما يحلو لكِ». أجابته في هدوء: «أشكرك يا بيرت». وقد تأثرت كثيرًا بموقفه حيال ذلك، واتخاذها جانبها في مواجهة والدته، ولكنها ما زالت تتعجل مغادرة هذا المكان بعيدًا بأسرع ما يمكنهما، وظلت تردد سؤالها بالحاح كل يوم: «بيرت، متى يمكننا الذهاب إلى جلين باري؟ فقد عاد أبي وأمي للبيت، كما أنك لم ترَ بعد شقيقتي جايل وزوجها هارفي وأطفالهما». وأدركت مؤخرًا وببساطة، أن مجرد زواجها ببيرت هولم؛ لا يمكنه أن يجعل من هذا المكان بيتًا لها، كما أنها شعرت بحنين جارف للعودة إلى بيتها.

وفي كل مرة كان بيرت يقول لها: «حسنًا يا جميلتي، قريبًا جدًا يا كيت. إن أمي تحظى الآن بأيام سعيدة، وأنا أكره كثيرًا أن أفسد فرحتها بكل هذا الكم من المتعة والسعادة، وقريبًا جدًا بمجرد أن ينتهي الطقس المعتدل، لن يبقى لنا هنا شيء لنفعله، ووقتها، سوف نرحل بكل تأكيد». وتلاشى شعوره بالغضب الذي كان يشعر به في بداية زواجهما لملاحقة الآخرين لهما حتى منزل أبيه، وبدأ يتفاعل مع الأمر بروح متسامحة أكثر من ذي قبل، إلا أنها لم تكن واثقة من فكرة أنه حتى لم يبدأ الاستمتاع بكونه بيرت هولم، كان لأمه تأثير عميق في نفسه، يتجاوز كثيرًا أي

شخص آخر. فبالنسبة لتلك اللحظة التي فقدتها يوم كانا معًا في بستان الفاكهة، فقد نسيت كيت أمرها، كما أنها أدركت أنه قد يمر وقت طويل قبل أن تتكرر مرة أخرى طالما ظلا هنا في هذا المكان، أصبحت على ثقة من ذلك الآن.

بيد أنها لم تستطع توجيه اللوم لبيرت من أجل ذلك، إن والدته من ذلك النوع من النساء الذي لا يترك لك الخيار إلا بين أن تصرخ فيه بعنف، أو أن تفر هاربًا من أمامه. تبدو ظاهريًا كأنها امرأة لطيفة لينة الطباع، ذات حديث مفعم بالود والدفء، إلا أنها تستطيع السيطرة على كل كبيرة وصغيرة، ويمثل كل من حولها لرغبتها بمجرد سماعهم صوتها المرتفع الحاد، ووقع أقدامها الثقيلة، فلها شخصية هائلة. ولكونها لا تمتلك القدر الكافي من الذكاء وحسن التصرف للتحكم فيها، فإن لديها قدرة هائلة على السيطرة واجتياح أي شخصية أخرى أمامها، حيث إن قوة شخصيتها تكمن في لطفها ووداعتها، والتي جعلتها تلقي باللائمة والتوبيخ، وتقابل بذلك أي محاولة للتمرد أو العصيان.

وهكذا استطاعت كيت أن تملأ فراغ أيامها بتحليل شخصية تلك المرأة، والدة بيرت، كما رأت أيضًا كم كان نورمان مخطئًا كليًا، ولو أنه كان هنا، لعادت شجاراتهما القديمة مجددًا، والتي لم يكن يستطيع أي منهما تحديد أو توصيف موضوعها على وجه الدقة والوضوح، باستثناء أنها كانت مدركة جيدًا كم كان على خطأ عندما كان يظن أن كل الخير يوجد فقط لدى أبسط أنواع البشر، أما الفقر والأعمال البدنية الشاقة وانخفاض المواليد، فلا تأثير لأي منهم يذكر في تكوين وتشكيل

أرواح البشر. ولتقدم الديمقراطية المواعظ للناس كما تشاء، ذلك أنه كان لينكر تأثير كل تلك العوامل، ويقول عنها بأنها أقنعت نفسها، وهي تتذكر رغمًا عن إرادتها لون وجهه الداكن، أن الناس لم تكن هي الشيء الذي يدافع عنه، إنما كان يدافع عن نوع ما من الحياة، الحياة التي تعتمد على الجسد واليدين، وعن العمل الذي استنفذ طاقاتهم، لذلك فقد ساق ذلك الكائن بأكمله إلى السذاجة والسطحية، لقد كان نورمان مريضًا بالذكاء، كما كان هناك الكثير ممن انتشر بينهم ذات المرض بدرجات طفيفة. فالعقل الذكي بحق، وبفعالية، هو ذلك الذي يستطيع أن يدرك مدى عبثيته في حدود ذاته، ومن ثمَّ عليه أن يعيد نفسه مجددًا إلى الجسد، ليعمل ويأكل وينام، حتى يكون بإمكانه حينها أن يُطلق على ما يفعله معنى للحياة. حسنًا، هذا ما يجب أن يكون، أو هكذا تعتقد، وتمنت لو أنه كان بإمكانه أن يرى ذلك، وعندها كان سيدرك أيضًا المعنى الحقيقي للحياة، لو أنه يستطيع!

انتزعت نفسها فجأةً من بين تلك الأفكار بحدة، وهي تلوم نفسها لكثرة ما تفكر في نورمان هذه الأيام، بل كانت تختلق أعذارًا لنفسها لتفكر فيه ثانيةً. فما الفارق الذي يصنعه إذا ما كان على صواب أو على خطأ، بل وما شأنها بذلك، في حين أنها أصبحت بالفعل زوجة لبيرت هولم.

وفي هذه اللحظة تحديدًا من التفكير، وبينما كانت تتجول في الغابات، التي بلغت ألوانها أوج ذروة لها في أواخر أكتوبر، وجدت نفسها تمر على والد بيرت حيث يعمل، في مفاجأة غير متوقعة. والذي

كان منشغلاً يعمل على تنظيف وتقليم بعض الأشجار الصغيرة، وهي تعبر إلى ما خلف ربوة منخفضة، فألفته هناك. لم تكن قد التقت به على انفراد من قبل، وعلى الفور شعرت بخجل شديد، ولم يكن حاله بأفضل منها، فهو أيضًا كان يشعر بالخجل. إذ رأت وجهه وقد توردت وجنتاه. فبادرها بالتحية قائلاً: «مرحبًا»، فأجابته: «مرحبًا»، وعاد يواصل عمله بمزيد من النشاط والطاقة لشدة شعوره بالخجل، بينما ترددت هي للحظات، لم تكن تريد أن تبدو وقحة وتمضي هكذا دون تبادل بعض الحديث معه، وبرغم ذلك كانت تتلهف لأن تختفي من أمامه بسرعة.

توقف هو للحظة، وسألها بشكل روتيني: «كنتِ تمشين؟».

أجابته: «أجل». ثم ابتسمت وأضافت: «ربما أكثر من ذلك، فأنا هاربة من ذلك الجحيم أيضًا».

قال لها: «أنتِ لا تحبين السائحين، أليس كذلك؟». أو مأت برأسها موافقة.

فتابع: «وأنا مثلكِ، أو أكثر مما تظنين». علمت كيت الآن من أين أتى بيرت بزرقة عينيه الصافية، فقد ورثها عن والده، كان السيد هولم ينظر إليها، ثم قال فجأة، وهو يتكئ على عصا فأسه الطويلة المستوية: «خبريني بالحق، أنتِ لا تحبين المكان هنا بأي حال؟».

أجابته: «أوه نعم»، ثم استدركت بسرعة: «بل أحببت بشدة العديد من الأشياء هنا، الغابات على سبيل المثال، الهدوء في المساء، فأنا هادئة جدًا بطبيعتي، برغم أنني قضيت جزءًا كبيرًا من حياتي في مدينة نيويورك، حيث معظم أعمال والدي التجارية هناك».

سألها السيد هولم وهو يسعل بشكل مفتعل على سبيل الأدب: «هو رجل مصرفي، أليس كذلك؟».

أومأت برأسها بالإيجاب. فتابع: «أنا عن نفسي، لا أعرف الكثير عن المصارف».

جلست على جذع شجرة على مقربة منه وهي تجيب: «ولا أنا أيضًا».

قال بأدب: «ولا أنت؟ حسنًا، لم أملك أبدًا ما يكفي من المال لكي أحتاج التعامل مع أحد المصارف». بدا كأنه سوف يواصل تقليم الأشجار مرة أخرى حين راح يحكُّ حافة الفأس بسبابه كما لو كان يشحذها بقطعة من حجر المسنّ، من المستحيل أن تتخيل كيف بدتا هاتان اليدان الخشتتان عندما كان شابًا، وكم تشوهتا تمامًا الآن! ثم عاد يتابع حديثه على نحو مفاجئ قائلاً: «خبريني، لماذا لا تأخذين بيرت بعيدًا عن هنا؟» حدقت فيه بدهشة متسائلة: «أخذه بعيدًا عن بيته؟».

قال لها بخشونة: «بل عن والدته، فهي بهذه الطريقة سوف تجعل منه أضحوكة، كنت أحارب طوال حياتي لأواجه ذلك، محاولاً منعها من ممارسة تلك السخافات التي تجعله يبدو كالغبي، ولكن الآن يبدو لي أن كل الظروف تعمل معًا بما يكفي لتؤدي بحياته إلى نفس النهاية حتى من دونها». قالت كيت: «لا أظن أنه يحب هذا، كل هذه الشعبية والشهرة». أجابها السيد هولم محذرًا: «لا تكوني واثقة هكذا من أنه لا يحب كل هذا، فأنا شخصيًا لست متأكدًا من ذلك، إنها أشياء خادعة للنفس، فالناس يجذبون شخصًا ما من حياته، ويظن هو حينها أنه أصبح

شيئاً مهماً، لقد رأيت ذلك بنفسي من قبل، خاصة عندما لا تكون لديه
النباهة ليرى حقيقة أنه عندما يصيبه الغرور والتعالي، فإنهم لا يحبونه
كما كانوا في السابق، ويذهبون عنه خلف شخص آخر جديد».

تمت كيت: «هل تعني أنه...»، ثم شردت بذهنها برهة لتذكر
كيف صار بيرت يرتدي الملابس الرسمية كل صباح كما لو أنه يوم
الأحد، بينما عندما وصلاً للبلدة في البداية كان مسروراً تماماً بسروره
القديم مرتدياً إياه مع قميص بلا ياقة، أما الآن أصبح يعتني بنفسه أكثر،
فيقوم بحلاقة ذقنه كل صباح بعناية ويصفف شعره جيداً كما أصبح
يرتدي ربطة عنق دائماً، تابع السيد هولم حديثه: «لقد كافحنا من أجل
بيرت منذ اليوم الأول لولادته، والدته وأنا، كنت أريد له أن يتقن عمله
كرجل حقيقي، أما هي فكانت تقول إنه لن يفلح إلا في أن يصبح مزارعاً
ملطخاً بالطين مثل أبيه». ضرب السيد هولم إحدى الأشجار بفأسه ثم
سحبه منها ثانية وأردف: «كل ما أعلمه الآن هو أنها تظن أنها كانت على
حق، دائماً ما تخبرني بذلك، هذا هو ما تفضله، التنقل والترحال». ثم
علا صوته فجأة إلى حد عنيف: «الناس يرحلون من كل مكان، إلى حيث
لا أحد يرغب في وجودهم! لماذا لا يبقون في ديارهم؟ في المكان الذي
ينتمون إليه؟». توقف مرة أخرى عن الحديث وبصق على حافة فأسه
وراح يقطع شجرة صغيرة ذات فرعين. ثم تابع حديثه مجدداً وقد استعاد
صوته تلك النبرة الحزينة المألوفة: «ما أحاول قوله هو أن بيرت يعتبر
مزيحاً جيداً عادلاً مني ومن والدته، الخير شيء أصيل بداخله، ولكنها
هي أيضاً كذلك مزروعة بداخله، أتفهمين ما أعني؟ ولكن هذه المرة لا

أعلم مقدار كل منهما في هذا المزيج، بل أعلم جيدًا من خلال تجربتي معهما، أن بيرت ليس ببعيد عن أن يتصرف كمحتال». ثم رمقها بنظرة غريبة خاطفة، لم تُدرِ لماذا ينظر إليها بهذه الطريقة! ثم عاد يستأنف حديثه: «حسنًا، إنها ليست مسألة بقاءه هنا أم هناك الآن، نصيحتي إليك أن تساعديه على أن يجد عملاً مناسبًا في مكان ما، أيًا ما كان، ربما استطاع والدك أن يجد له عملاً في المصرف الخاص به، ربما يجعله حارسًا هناك أو شيئًا من هذا القبيل بحيث لا يحتاج الكثير من العمل الذهني، أو حتى ليجعله يقوم بتشغيل المصعد، فبيرت لم يقضِ الكثير من الوقت في المدرسة».

بيرت يعمل حارسًا للمصرف!! نظرت إليه مليًا لترى إذا ما كان يمزح، ولكن لم يَبْدُ عليه شيء من ذلك، فنهضت لتودعه قائلة: «أشكرك كثيرًا من أجل ذلك، كم أقدر حقًا كل كلمة قلتها، وأعتقد أنك كنت على حق فيما قلت، وقد تفهمت تمامًا ما تعنيه». ثم ترددت قليلًا قبل أن تقول: «أنا أعتقد عن نفسي أنه ربما بدأ بيرت يحب كل ما يحدث له الآن، بشكل أفضل مما كان عليه من قبل».

قال السيد هولم: «هذا هو الصواب. ها أنت تريه بنفسك، إنهم يخربون حياته إذا استطاعوا ذلك فقط من أجل شعورهم بالمرح واللهو، كما لو أنهم يتسابقون لمشاهدة منظر غريب».

نظر كل منهما في عيني الآخر، وأدركت فجأة أنها تستطيع أن تحب هذا الرجل، حتى إنه كان يشبه الإنسان الذي يكتب عنه نورمان في مسرحياته.

ثم همت بالمغادرة وهي تقول: «كم أنا مسرورة حقاً أنني عرفت رجلاً مثلك».

أجابها ببساطة: «وأنا كذلك». واندفع من فوره يستكمل تقليم شجرة أخرى، بينما ترددت هي لبرهة أخرى أطول قليلاً، ولكنه استمر في تقطيع الغصون ومساواتها، فاستدارت وعادت أدراجها مجدداً نحو الغابة.

وراحت الأيام تمضي بهما من بعد تماماً كما سبقها، وبدأت تتكشف الأمور أمام عينيها أكثر لتدرك كم كان السيد هولم على حق فيما قال، فقد بدأ بيرت يتغير، كلا، لم يكن ذلك يحمل كثيراً معنى التغيير كما لو أن ما يحدث له قد بدأ ينمّي أشياء جديدة فيه، جوانب عديدة من شخصيته لم تكن ظاهرة من قبل، فعندما كان يتواجد مع أناس غرباء وفي أماكن غريبة عنه، لم يكن يتحلى بأي قدر من الثقة بالنفس، كما كان يبدو شديد التواضع منطوياً على نفسه، حتى قسماته التي بدت غالب الأحيان متجهمّة، كانت جزءاً من ذلك التواضع.

ولكن عندما توافدت عليه الجماهير هنا في محيطه الخاص كان يحييهم بطريقة وقحة، بل وراح يسخر من سياراتهم ومنهم أنفسهم، مستمتعاً بكل الحكايات التافهة التي ترويها والدته عنه، كما كان هناك بشكل دائم تقريباً، جاك ريكسال واثنان أو ثلاثة آخرين من أصدقائه القدامى من ميستي فولز والذين كانوا يأتون في وقت متأخر بعد الظهر أياً ما كان اليوم السبت أو الأحد، ويتسكعون مع بيرت أينما حل، أو يتبعونه أينما ذهب، وقد كانت تطلق عليهم لقب «المصفقون»، وحين

سألها بيرت عما تعنيه بذلك أجابته بتهكم: «إنه الجزء الذي لا غنى عنه في أي عرض!»، ولكنها لاحظت أنه لم يدرك ما تعنيه كما لم يبد أي رغبة في طرح أسئلة أخرى حول تلك النقطة حتى لا يبدو غيبًا، كما كانت تشعر وقتها بأنها تكابد إحساسًا مكبوتًا داخلها بالبؤس والشقاء، لذا فلم تكن لديها طاقة لمزيد من الشرح. ولطالما حاولت الابتعاد قدر ما استطاعت عن أولئك المصفقين. كانت تبدر منهم إشارات غريبة تشي بأنهم يعرفون شيئًا ما لا تعرفه هي، شيء أكثر تعقيدًا وربما أكثر اختلاسًا من نظراتهم البسيطة الحيوانية لساقها ونهديها، شيء أشعرها بالازدراء لمجرد محاولة التفكير بشأنه، على الرغم من أنه بعد اليوم الذي ذهبت فيه إلى الضيعة بصحبة بيرت كانت متأكدة من ذلك بغريزتها الأنثوية. يومها أراد بيرت أن يذهب إلى الحانة التي تعج بالذباب لشراء الآيس كريم، وعندما وصلا إليها كان المصفقون أيضًا متواجدين هناك يتناولون بعض الأطعمة، كانوا على مسافة بعيدة بما فيه الكفاية عندما دخلت الحانة مع بيرت، ولكن أعينهم كانت مصوبة نحوها تمامًا، حتى إنها تعجبت، متسائلة بضيق: «ما الذي ينظرون إليه؟». توجه بيرت بتفاخر نحو البار، وجلس على أحد المقاعد بلا مبالاة وبشكل متعجرف، ثم قام بتحية فتاة البار بصوت مرتفع قائلاً: «أهلاً لي لي، هذه زوجتي».

كانت فتاة شقراء، تبرز ملامحها حادة بفعل الماكياج الرديء الذي تستخدمه، مرتدية حزامًا من الجلد الأحمر حافظت على دفعه أسفل خصرها.

أجابته الفتاة: «مؤكد يسرني ذلك». وهي تحديق في كيت بعينين رماديتين ثابتتين، ظلت هكذا لبرهة غير يسيرة، لدرجة أن كيت في كل مرة ترفع عينيها بعد رشفة من عصير البرتقال الذي تحتسيه، تلتقي عيناها بهاتين العينين الرماديتين الواسعتين وتلك النظرة الجوفاء، بينما لم يُبدِ بيرت أي اهتمام نحو الفتاة، وانشغل بإلقاء التحية والصياح ممازحًا كل شخص يأتي إلى المكان حتى بدا كأن كل شخص في المدينة قد أتى إلى تلك الحانة بمجرد أن سمع الجميع أن بيرت هولم موجود هناك، وتبادل الجميع معه الصياح والمرح، وتوقف كل منهم قليلاً للتحدث معه.

ولكن شيئًا ما داخلها أحس بأنهم إنما يحدقون فيها، ولذلك لم تذهب مع بيرت إلى ذلك المكان مجددًا.



استمر الطقس يزداد روعة من يوم إلى آخر، امتدت لأيام عديدة في صيف هندي طويل، وفي أواخر شهر نوفمبر، والتي شهدت أجواء لم يسبق لها مثيل في روعتها ودفئها، عادت والدته كيت من رحلتها عبر الهند وأوروبا، وكتبت لها من جلين باري: «متى تعودين إلى البيت يا طفلي الحبيبة؟ لا أرغب باستعجالك إذا كنتِ تشعرين بالسعادة هناك، ولكننا نشاق كثيرًا لرؤيتك». كما كتبت لها جايل: «لا يمكنني أن أصدق أن شخصًا مثل بيرت هولم موجود حقًا».

وبينما كانت كيت تذرع البيت الريفي جيئةً وذهابًا بمشاعر مرتبكة، فلا هي تشعر بالسعادة، ولا هي حزينة تمامًا، بينما يتأرجح عقلها في

فضاءات من التيه الداخلي حتى إن كل ذرة فيها تحولت إلى عقل لا يهدأ بحثاً عن هوية ومعنى لكيانه. ليس باعتبار أنها فرد في المجتمع، ولكن كشخص واحد من بين ملايين البشر الذين ربما يشبهونها أو يختلفون عنها، تعلمت أن تتحدث إلى من حولها بأسلوب بسيط بحيث يستطيعون فهم ما تقوله لهم سواء عن أشياء فعلتها أو حتى تنوى فعلها، كما تعلمت أن تساهم في الأعمال المنزلية اليومية، تجمع الفواكه وتجلب الحليب كل صباح، وأن تنصت جيداً لما يقوله بيرت أو والدته. في الواقع وجدت نفسها بالفعل تزاوّل حياة الجسد التي طالما أثنى عليها نورمان، أما العقل، فلا يزال يحيا في انتظار، ولكن دون الشعور بالرضى. ولاحظت أنه لم يسبق لها التفكير أو حتى الشعور بمثل هذا العمق قبل الآن، غير أن كل تلك الأفكار والمشاعر الفريدة أيّما ما كان الباعث عليها، لم تُجدها نفعاً فيما تحياه بالفعل على أرض الواقع. ولو أنها قابلت نورمان الآن مرة ثانية، كانت لتناقشه حول تلك الأفكار: «فما الدور الذي يمكن أن يؤديه العقل حال العودة هكذا إلى الطبيعة وبساطة الحياة؟ ها هو هناك، لا يعدو كونه مجرد جزء من كائن، شأنه شأن اليدين أو ما شابه، بل إنه في حالة انتظار، بينما اليدين تعملان، ربما ساعتها يكون من الأفضل للإنسان أن يولد بلا عقل، ماذا إذن لو تحول إلى ما يشبه قبة فوق الرأس للزينة، مثلما لكل إنسان لون مميز لعينه وشعره؟».

أحست في بعض الأحيان أن غلبة وطغيان العقل على أفكارها هو ما يدفعها بقسوة للتساؤل والتفكير والإحساس، حتى عندما يتعارض ذلك مع إرادتها الحرة في أن تطرح كل الأفكار والتساؤلات جانباً

ولو لبعض الوقت، إنها الآن على أتم استعداد لأن توافق نورمان على هذا، إنه أحياناً يكون الإنسان أكثر سعادة عندما يولد غيباً، ولكن بالطبع شريطة أن يكون لديه من الغباء ما يكفي لكيلا يعلم بذلك من الأساس.

بعد ذلك بيوم، وبعد أن أدت صلاة الشكر، وصلتها رسالة من والدها، وهي تعلم جيداً أن والدها نادراً ما يكتب خطباً، فهي تذكر أنه خلال سنوات الجامعة كاملة، لم تتلقَ منه أكثر من ثلاثة خطابات، لذلك أدركت أنه طالما كتب لها؛ فإن لديه بالتأكيد ما يريد قوله.

وبذلك الخط المعهود الذي تصعب قراءته، والذي بدا لها دائماً أقرب للرسومات والأشكال منه للخط اليدوي، كتب يقول: «عزيزتي كيت، إن الشعبية الجارفة التي يتمتع بها بيرت الآن قد أصبحت شؤماً عليكما، ولن تجلب له أي خير، لذا، فقد اتفقت أنا ووالدتك في الرأي أن الأمر قد تحول إلى شيء رخيص ودون المستوى اللائق، ونصيحتنا لك أنكما بحاجة إلى وكيل أعمال يتحدث عنكما ويساعد في ضبط الأمور والتحكم فيها بشكل أفضل من ذلك. وأنا أرشح لكما روجر بريم، الوكيل الخاص بي. سوف أكون مسروراً جداً حين عودتكِ إلى البيت يا عزيزتي. بكل الحب من والدك».

لم تكن تقرأ الصحف أو الجرائد خلال الأسابيع المنقضية، وذلك عن قصد منها بسبب ذلك الاتجاه الباطني في أفكارها وطريقة معيشتها خلال تلك الفترة. ترى ماذا كان الناس يقولون عن بيرت هناك بالخارج طوال هذه الفترة؟ حان الوقت للخروج قليلاً واستطلاع الأمر، أعادت

غلق الخطاب وأعادته داخل مظروفه بعناية.

وفي المساء، وهي بصحبة بيرت في غرفتهما بادرته بالحديث: «بيرت»، كان بيرت يطلق صفيراً من بين شفتيه، ثم توقف وراح يداعبها بحركات من حاجبيه وهو ينظر نحوها بمرح، فتابعت: «من فضلك، أريد الذهاب إلى بيت أسرتي».

كانت قد أعدت نفسها وحصنت رأيها جيداً بالحجج المقنعة تحسباً لرفضه الأمر أو على الأقل إظهار عدم رغبته في ذلك الآن. ولكن أيّاً من ذلك لم يكن! إذ جلس على حافة السرير، وخلع عنه حذاءه وهو يقول بسعادة: «حسناً، أنا جاهز تماماً للذهاب إلى هناك، متى تريدان الرحيل؟».

سألته: «أيمكن أن يكون ذلك غداً؟». وقد شعرت بدهشة عارمة، ترى هل تعرفه الآن على حقيقته؟

أجاب موافقاً بهدوء، بل بمتنهي الهدوء: «حسناً، لا بأس». الأمر الذي جعلها تقف لبرهة محدقة في وجهه، حتى سألتها بدهشة: «ماذا بك يا عزيزتي؟». أجابته: «لا شيء، لماذا...؟ فقط كنت أتساءل، هل كنت تنوي الذهاب إلى هناك فعلاً قبل الآن؟».

أجابها بتكاسل: «لا أعلم. ولكن لماذا؟».

قالت: «لأنني اعتقدت أنك لا تريد الذهاب! وأنتك تحب البقاء هنا».

أجابها: «بالتأكيد أحب المكان هنا». ثم أطلق ضحكة عالية، وتابع:

«أعتقد أن الأمور تحسنت كثيرًا، ويمكنني الشعور بالسعادة والمرح أينما ذهبت».

ثم عاد يطلق صفيحه من بين شفثيه مرة أخرى، بينما اندفع عقلها يعمل في سرعة: «ترى ما الذي يعنيه هذا؟». إنه ببساطة لا يعني شيئًا، إنما هو أحد التحولات في الحالة المزاجية انتابها فجأةً، يرجع إلى شعورها بالغباء لأنها تناولت الأمر بجدية زائدة عن الحد، وأيضًا بحدة لا مبرر لها، لماذا لا يمكنها تقبل ما لديها؟ ماذا لو أن بيرت هو من لديه مثل والديها؟ فالكثير من الأمريكيين لديهم مثلهما، ولطالما تفاخر والدها بأن جده قد قام بتأسيس المصرف في مدينة صغيرة في البداية، كما كان يمتلك متجرًا كبيرًا وطاحونة، كان أمريكيًا ماهرًا. بمثل هذه الطريقة بدأت أمريكا ذاتها، كل ما في الأمر أن والدي بيرت حديثا العهد هناك أو ما زالا في أول الطريق، لذا فهي تجده إعادة لسيرة السابقين، وهذا كل ما في الأمر.

وفي تلك اللحظة، حاولت أن تتخلص من ذكرى غير متوقعة في وقت كهذا ألحت بقوة على ذهنها، عن تلك المرة التي أخذها فيها نورمان لينلاي لترى البيت الذي عاش فيه طفولته في منزل قديم على أطراف مدينة نيويورك. وكانت والدته في انتظارهما، سيدة وقورة مهذبة ترتدي زياً بسيطاً أسود اللون، والتي أخذت يدي كيت بين راحتيها في ود تلاطفها وتداعبها قائلة:

- أتمنى أن أراك كثيرًا هنا في هذا البيت يا عزيزتي.

فأجابتها كيت: «كم أحب هذا، كما أحببت هذا المنزل».

ولكنها أبداً لم تذهب إلى هناك مرة أخرى، وبدلاً من ذلك، ها هي هنا.

قالت لبيرت بسرعة: «بيرت، أريد أن أكون فخورة بك عندما آخذك معي للبيت». ثم توجهت إلى حيث يجلس، وجثت على ركبتيها في مواجهته، ولفت ذراعيها حول خصره، وأحست بجسده نحيلاً وصلباً. ثم أجابها ضاحكاً: «يجب عليك أن تكوني كذلك، فأنا الزوج الوحيد لديك يا فتاتي!».

لم تتفوه بكلمة أو حتى تتحرك من مكانها، وبينما ما زالت جاثية أمامه، تضمه إليها بقوة حتى تلامس وجهيهما، وتحت أجفانها بدأت الدموع تحترق، بينما أخطأ هو في فهم مشاعرها تجاهه، واندفع كالمحموم تجاه ما خيله إليه عقله، يتحسس صدرها فوثبت واقفة على قدميها فجأة.

- كيت.

- كلا، ليس هذا، ليس دائماً هكذا وإلى الأبد.

- ولكن يا كيت.

- لا، قلت لك لا!

صرخ غاضباً: «حسناً، ليكن!».

ضرب الأرض بقدميه واندفع إلى خارج الحجرة وصفق الباب من خلفه حتى ارتج الجزء الرقيق منه بقوة، بينما راحت تحدث نفسها ذاهلة: «إنه بالتأكيد مشهد خيالي على خشبة مسرح»، كما كانت ترى

نورمان يئن أو يسب ويلعن، وهو يقضي في ذلك ساعات على خشبة المسرح.

تحركت بضع خطوات ناحية النافذة، لترى بيرت يعبر الطريق إلى الحظيرة ليخرج سيارة والده العتيقة، ويتجه بها عبر الطريق المؤدي إلى الضيعة، مخلفًا عاصفة من الغبار خلف السيارة بدت في الظلام أشبه بالإعصار، قالت بازدراء: «إنه بحاجة إلى المصفقين، يحتاج لأن يسمع المديح وكلمات الإعجاب والحب». وراحت تجمع أغراضها لتعد حقائبها وهي تشعر بالوحدة والهجر، وهو ما كان دائمًا يزرع في قلبها الشعور بالرعب.

فعندما تركها نورمان كانت الآلام حادة قاسية، ولكن الأمر كان حقيقة متجسدة أمامها تستطيع مجابهتها، لأنها تعلم أين هي منها، أما الآن، فهي في فراغ محيط، فراغ من حولها وفي داخلها وأمامها، كل ما تراه هو فقط، لا شيء.

وبعد وقت طويل، سمعت صوت بيرت، يصعد الدرج، لقد عاد إذن.

فتح باب الحجرة، وتسمر مكانه ينظر إليها نظرات جامدة ملؤها عدم اليقين، كأنه طفل كبير، ثم نطق أخيرًا: «هأنذا».

كان جنونًا منه أن يفكر مجرد التفكير في العودة إلى لي لي، حين نزل إلى الضيعة قاصدًا الحانة وتقابل مع جاك ذاهبين إلى هناك، فتوقف جاك ليسأل صديقه: «ما الأمر يا بيرت، ماذا بك؟». أجابه بيرت: «إنها كيت، تدفعني إلى الجنون بتصرفاتها اللعينة، إنها متكبرة، دائمًا تتكلم

كلامًا لا أستطيع فهمه، تتصرف معي كما لو كنت معتوًهاً غيباً».

قال له جاك بلهجة أمرة: «بحق الجحيم، عليك العودة إليها الآن يا بيرت. هذا إذا لم تكن تريد أن تخرب بيتك بيدك، أما أنا فلا، لقد وقفنا بجانبك مرة وقدمنا يد المساعدة من أجل هذه المدينة، وأخبرنا المراسلين عن تلك القصة بأن الأمر لم يكن شيئاً مهماً، الناس هنا ليس لديهم استعداد لمواجهة ذلك مرة أخرى، بل الدولة بأكملها لا يمكنها الوقوف في وجه هذا الآن، فأنت الآن لست مجرد بيرت هولم، بل إنك تعني الكل، وأكثر».

ظل جاك يستحثه على الرجوع إلى السيارة والعودة للبيت، وقد فعل، ربما لأنه شعر بأن جاك على حق، كلا، اللعنة، لقد عاد لأنه هو من أراد ذلك.

وقفت كيت تنظر إليه بعينين حزينتين، ثم مدت ذراعيها، فاتجه إليها وألقى برأسه على كتفها وأحس بدفع ذراعيها يلتفان حوله ويطوقانه بحنان، حاولت أن تنطق، ولكنها كانت ترتعد من شدة البكاء.

سألها بيرت: «ما الأمر يا كيت؟». حاول أن يرفع رأسه ليرى وجهها وينظر في عينيها، ولكنها ضغطت عليها بقوة لتبقيها على كتفها. وهمست في أذنه: «إنه فقط... لا شيء».



الفصل الثالث

كانت كيت جالسة بين بيرت ووالدتها في منتصف المقعد الخلفي للسيارة السياحية الفارحة التي كانت في استقبالهم في محطة القطار، حينها قالت لأبيها بهدوء: «أشجار الزان تبدو أكثر جمالاً من أي وقت مضى».

أجابها والدها: «أخبرني كودل أن إحدى الأشجار بها آفات. لذا أرسلت في طلب أحد المختصين بتقليم الأشجار في الحال».

وبطول الطريق أخذوا يحدقون في سلسلة طويلة من أشجار الزان بألوانها النحاسية التي كانت إحدى العلامات الرائعة التي تشتهر بها جلين باري. كان كودل هو البستاني الإسكتلندي الذي طالما اعتبره السيد تالانت صديقه المفضل. لم يكن أي من كوديل أو مستر تالانت يثقان في المصارف، لذا فقد حرص الأخير على وضع ثروته الخاصة في استثمارات متعددة بعيدة قدر المستطاع عن المصارف، معللاً في ذات الوقت استمراره في ممارسة النشاط المصرفي كما ذكر بنفسه، أنها ببساطة محاولة للإبقاء على نزاهته قدر طاقته.

كان يجلس على المقعد الصغير قبالة زوجته، في حالة من الجمود الشديد، فقد شعر أنه لا يعرف أي شيء عن صهره. لذلك فهو يعتزم أن يجعل معرفته عن كذب من ضمن أولوياته المقبلة. أما كيت فبدت نحيفة على الرغم من الفترة الطويلة التي قضتها في مزرعة. ويبدو أن الناس يبالغون في تقدير حياة المزارع، فهناك يحصلون على الطعام الأفقر في العالم من حيث القيمة الغذائية، بل وعلى الأرجح ما هو أسوأ من ذلك، فالحليب منزوع الدسم بينما تباع القشدة والبيض لسكان المدينة. سوف يتحدث لاحقاً إلى زوجته بشأن تلك الهيئة التي بدت عليها كيت. استرق نظرة جانبية خاطفة إلى صهره، كان فتياً بما يكفي، شديد الوسامة لدرجة يكره معها أي رجل ذي مقام رفيع أن ينظر إليه، فلا يفضل المرء أن يرى رجلاً آخر بهذا القدر من المظهر الخادع والجمال الزائف. وتساءل هل هذا هو ما انخدعت به كيت؟ لذا، فبمجرد أن تلتقي عيناه بعيني بيرت، كان يشيح عنهما بعيداً في غير ارتياح، ليس هناك الكثير، ربما؟

بينما ظلت السيدة تالانت تتحدث كثيراً إلى الجميع بنبرة ودودة لطيفة: «طلبت من جايل البقاء لمدة أسبوع أو أسبوعين آخرين حتى تتمكن جميعاً من أن تكون معاً مرة أخرى بعد مضي هذا الوقت الطويل، وبإمكان هارفي أن يذرع الطريق إلى المدينة جيئةً وذهاباً مع والدك، أنا شخصياً أعتقد أن جايل تتساهل معه بأن تقبل العيش في المدينة مع الأطفال طوال فترة الشتاء؛ هذا ببساطة لأن (هارفي) لا يحب كثرة قيادة السيارة وكذلك لا يحب الجولف! خاصة عندما تستمتع هي بركوب

الخيـل كثيرًا كعادتها، لقد تفاجأت حقًا بأن (جايل) استطاعت أن تستقر في حياتها كما هي الآن». واستمر حديثها يتدفق بذلك الهدوء الباعث على السرور وهي تناقش شؤون العائلة.

جلس بيرت في صمته المعهود، لم تكن كيت تستطيع أن تعرف فيم كان يفكر، ولكن ذلك لم يعد يهم الآن، فمن الرائع أن تعود إلى البيت. وعندما وصلوا إلى المنزل، لم تكن كيت تطيق صبرًا على رؤية كل شيء، غرفتها والمكتبة وحوض السباحة والحديقة.

سألت والدتها: «متى يكون العشاء يا أمي؟ هل لدينا متسع من الوقت لرؤية المكان أولًا؟».

أجابتها والدتها: «أجل بالطبع يا عزيزتي، ليس عليك أن ترتدي ملابس العشاء قبل ساعة أو أكثر، ولكن فقط لا تتجولي بعيدًا في الظلام لتحاولي رؤية كل شيء، تذكرني أن الغد ليس ببعيد وسيكون هناك وقت كافٍ لكل ذلك، حيث اقتربت الشمس من المغيب».

انطلقت بعد أن وعدت والدتها بالتجول في الأماكن القريبة من المنزل فقط.

وهكذا أمسكت يد بيرت بيدها وشبكتهما معًا برفق وأخذته لتريه الأشياء التي طالما أحببتها، حديقة الورد خلف حوض السباحة، ألوان الغروب المتلاثلة إثر انعكاسها على مياه الحوض في آخر لحظات النهار، توقف بيرت ووضع يده في الحوض، وصاح مندهشًا: «إنه ليس باردًا».

فأجابت كيت: «الحوض هنا يتم تدفئته». كان هذا واحدًا من وسائل الترف والرفاهية في المكان، حوض سباحة خارجي يتم تدفئته صناعيًا وبذلك يمكنهم السباحة في وقت متأخر من العام وفي بداية الربيع، كما يزيد الأمر مرحًا وقت الخروج من المياه ذات درجة الحرارة الدافئة؛ إلى المعاطف الصوفية والهواء البارد.

ذهب معها، يمسك أحدهما يد الآخر، وهو يستمع جيدًا لوصفها المثير للمكان من حوله، كل شيء جميل وبهيج أكثر مما كانت تتذكر، وكأنما انمحت الأسابيع الماضية تمامًا من عقلها. إنها في البيت مجددًا، ليس ذلك فقط، بل هي وبيرت في البيت معًا. بدا بيرت وسيماً وأنيقاً وأكثر قبولاً حتى هنا في الملابس التي اختارتها له كيت. ثم جذبتة ناحية المنزل ليراه من خلال عينيها، حيث شُيد المنزل ضخماً شامخاً وسط الأشجار المحيطة، وكل النوافذ مضاءة، هنا كان المكان الذي تنتمي إليه بحق، أيًا كان ما قاله نورمان.

قالت لبيرت: «هيا يا بيرت، دعني أريك المنزل من الداخل». قادته إلى داخل المنزل بالفعل، قائلة لسميدلي الواقف لدى الباب: «هذا بيرت هولم يا سميدلي!».

كان سميدلي يقف دائماً هكذا بالباب على حد ما تذكر، لكي يستقبلها.

أجابها وهو ينحني لتحيتها: «أنا مسرور للغاية لرؤيتك مجددًا آنستي»، شعرت بكم هائل من الإثارة في نبراته، فبكل تأكيد سميدلي يعرف كل شيء عن بيرت هولم! ومن الطبيعي بين الخدم، أن يكون

بيرت بمثابة الأسطورة.

ثم قادته كيت إلى الطابق العلوي حيث غرفتها الخاصة، استطاعت
جاهدة أن تنتظر كل ذلك لتراها مجددًا.

في أي بؤس من العزلة والأسى، انزوت وحيدة هناك تستلقي
مستيقظة ليلة بعد أخرى!

جال بخاطرها وقد توقفت يدها على مقبض الباب، «أليس من
المحتم ألا يكون هناك أي من أطيايف الماضي باقية بعد؟». ولكن عندما
فتحت الباب، كانت نيران المدفأة تتوهج في بريق ساحر، والستائر
الحمراء الوردية منسدلة، تتألق بالأشعة المنبعثة من أضواء النيران،
والمتراقصة فوقها. ولو كان هناك شيء مما تخشاه لاختفى وسط هذه
الأجواء البديعة.

التفتت ناحية بيرت قائلة له: «هذه هي غرفتي الخاصة، هنا نشأت
منذ كنت فتاة صغيرة، وحدث لي كل شيء، والآن ها أنت هنا!». كانت
تحقق فيه بنوع من التذرع.

قال بيرت ببطء: «إنها تشبهك تمامًا يا كيت». لم تكن متأكدة من
أنه يدرك ما تعنيه، ربما لأنها ببساطة كانت تتوق إلى ذلك كثيرًا، ولكن،
يبقى هناك احتمال أنه قد فعل. كم أنه من المستحيل معرفة ما الذي
تحت هذا الشعر اللامع، أو ما وراء هذا الوجه المثالي.

وعندئذٍ، وقبل أن يكون هناك متسع من الوقت للتساؤل، ارتفع
رنين الجرس.

وصاحت كيت: «علينا أن نسرع! هناك عشر دقائق فقط قبل موعد العشاء».

أجابها بيرت متسائلاً: «هل تعتقدين أنه بإمكانني ربط إحدى تلك الأربطة السوداء في عشر دقائق؟». ثم هرع إلى الغرفة المجاورة لغرفتها. تكوّن لديه انطباع قوي بأن كل شيء حولها رائع وبالغ الأناقة، ما يعني أنه سوف يأخذ وقته لكي يستطيع التعرف على أهلها. إنهم من الطبقة الراقية، بإمكانه أن يدرك ذلك، فمَنْزل مثل هذا يتكلف الكثير من الأموال. لم يكن يريد مثله...، حسناً، ربما يريد، إنه من مستوى المنازل التي يراها في صحيفة الصنڊاي، يبدو أن الحياة هنا ستكون ممتعة على أي حال، فقط كل ما عليه تذكره دائماً هو أنه ليس هناك ما يخشاه، فهؤلاء الناس لم يكونوا سوى عائلتها، أو بمعنى آخر أصهاره، حتى ولو كانوا من طبقة راقية. كما أنه حقاً لم يكن لديه ما يخشاه، ولا حتى لي لي، فلن تستطيع أبداً أن تصل إليه هنا، ربما سيخبر كيت عنها يوماً ما، بعد مضي فترة على وجودهم هنا. سيخبرها عن أنه ولي لي قد انتهت علاقتهما بالطلاق وما إلى ذلك، ولهذا فلن يكون هناك ما يقلق بشأنه، غير أنه لو لم يكن من البداية قد أخفى عنها قصة لي لي، لكان الأمر أكثر يسراً. لم يكن لسبب بعينه، ولكن بطريقة أو بأخرى لم يستطع أن يخبرها الآن.

صاح بيرت: «كيت! أكملني رباط هذا الشيء اللعين!».

أجابته: «أنا قادمة».

كان لها صوت عذب، وغير ذلك الكثير من الأشياء التي أحبها فيها.

أقبلت في ثوب أزرق لم يسبق أن رآه من قبل، بدت فيه فائقة الجمال.

صاح بيرت بإعجاب: «كم تبدين شديدة الأناقة يا كيت! أراك ترتدين ثوبًا جديدًا!».

فأجابته كيت: «كلا، إنه ليس كذلك. بل إنه قديم».

- لكنه يبدو جديدًا بالنسبة لي.

«فقط لم يسبق لك رؤيته من قبل»، ثم أضافت: «هنالك الكثير من الأشياء عني لم تعرفها بعد يا بيرت!» كانت هذه إحدى محاولاتها القليلة لسبر أغواره ومحاولة الغوص في ثنايا نفسه، هل سيسمح لها أم أنه سيراوغ كما اعتاد؟

كان ينظر إلى أهدابها المرفوعة وهي واقفة على أطراف أصابعها لتربط له رباط عنقه بيديها الناعمتين الصغيرتين، بينما يطوقها بذراعيه، فقال لها بحماس: «هنالك أشياء كثيرة عنك أعلم أنني أحبها، فهذه الأهداب كأحد الأسباب، لم أرَ في مثل طولها وجمال سوادها من قبل، لقد وقعت في غرامها من الدقيقة الأولى».

رن الجرس مرة ثانية.

صاحت به: «أسرع، فلا يمكننا التأخر هنا!».

هبط الدرج سريعًا يمسك أحدهما يد الآخر، وفي غرفة مسوّرة بالكتب، كان الجميع هناك، والدها ووالدتها، وشخص بدين بعض الشيء ذو وجه طويل، وامرأة فائقة الجمال في ثوب فضي اللون،

ولا تشبه كيت على الإطلاق.

قالت لهم كيت: «إليكُم بيرت».

شعر بيرت بيد صغيرة تمتد لتصافح يده.

وصاحت جايل وهي ما زالت ممسكة بيده: «وأخيراً بيرت هولم!».

وهنا، في المكتبة قبل العشاء، أدركت كيت أنها خائفة من جايل.

كانت جايل جالسة على مسند المقعد حيث يجلس هارفي، تحتسي كأساً من الخمر وتملاً الأجواء ضحكاً وأحاديثاً.

«حقاً، إنه لشيء مُعْزٍ ألا أكون قادرة على وصف زوج أختي كيف يكون، فمع كل شخص من هؤلاء المتلهفين لمعرفة، والذين يمطرونني بوابل من الأسئلة، أقصى ما أمكنني قوله هو: 'يا عزيزي، لستُ أعلم بذلك منك، أعتقد أنه وسيم كما هو حقاً'». ثم أشارت إلى بيرت بإيماء بسيطة من رأسها، ثم تابعت: «ولكن فيما يزيد عن ذلك عليك بالرجوع إلى صحفك المحلية».

ضحكوا جميعهم باستثناء هارفي الذي اكتفى بابتسامة بسيطة فحسب. ولكن خلف ثرثرتها تلك، انتبهت كيت لعيني جايل الصافيتين بلون البندق مصوبتين نحو بيرت بنظرات فاحصة متأنية.

نهضت كيت، وتوجهت إلى حيث يجلس بيرت ثم جلست على مسند مقعده لتشاركه نظرات جايل كأنها تحمل عنه بعضاً منها، كما أن جلوسها إلى جواره سيمكنها من حمايته، حيث يمكنها أن تنقل إليه بالطرق القليلة التي عرفها حتى الآن، ما يجب ألا يقوله أو يفعله، ولكنه

لم يتفوه بكلمة واحدة. كان ينظر إلى جايل بابتسامته اللطيفة الشفافة، وأسنانه المتلألئة، وشعره اللامع، وعينه المضيئة باللون الأزرق، مما أثار إعجاب جايل وسخريتها معاً، لكونه في غاية الوسامة.

كانت تفكر -مع آخر رشفة خمر من كأسها- أنه أياً كان ما فعلته كيت، فإنها تزوجت برجل وسيم، وشعرت بذلك الدوار الطفيف المألوف الذي دائماً ما كانت تشعر به عندما تقابل شاباً وسيماً، فيما كانت تصفه بأنه حالة من عدم الشعور المؤقت بالمسؤولية.

أما عن نفسها، فكانت تعلم جيداً أن زواجها بهارفي هو وضع غير قابل للتغيير؛ ذلك لأنه يبسط نفوذه عليها كجارية، كما أنها نفسها أيضاً تحب ذلك، بل إنها ذهبت إلى ما هو أبعد، عندما كانت تصفه لأصدقائها بأنه حالة استثنائية غير معهودة بين الأزواج الأمريكيين. وبرغم أنه كان أمراً محبباً إلى نفسها أن تؤكد على حقيقة كونها مجرد جارية، إلا أنها كانت تعرف طرقاً خاصة سرية للشعور بالحرية والتمرد، على سبيل المثال: أن تتساءل في نفسها كيف سيكون الأمر لو أنها تزوجت بكائن شديد الوسامة والشباب مثل بيرت، شأنها في ذلك شأن أي شخص يمكن أن يرى أن بيرت هولم كان كذلك بحق.

إلا أن كيت لم تكن تعرفه جيداً، لم تستطع ذلك قط، بل كان باستطاعة أي شخص أن يدرك أن كيت تزوجت بآخر شخص في العالم يصلح لأن يكون زوجاً لها. وإذا لم تكن مدركة لذلك بعد حتى الآن، فإنها فقط مسألة وقت. وقد ألحت على والدتها بالسؤال عن ذلك، وكانت والدتها تنهزب من الأمر على الفور كل مرة، ذلك أنها كانت

ترتاب أيضًا في شأن حقيقة هذه العلاقة.

سألته كيت: «كيف يمكنهم أن يمضوا العمر معًا بانسجام يا أمي؟». أجابت والدتها على نحو راسخ: «إنهم متزوجون يا عزيزتي». كلا، ليس مقنعًا، كأنه لا يعني شيئًا على الإطلاق! وظلت تشعر خفيةً بالإثارة تجاه ذلك الأمر.

وعند الباب، وقف سميدلي ينظر من طرفٍ خفي إلى بيرت وهو يقول: «العشاء جاهز يا سيدي». بينما في المطبخ، كان الطاهي ومساعداه وباقي طاقم الخدم في المنزل يسألونه في الحال: «كيف يبدو شكله يا ترى؟». أخبرهم سميدلي: «تمامًا مثلما يبدو في الصور»، وقد كان كذلك بالفعل.



قالت جايل: «سوف أجلس إلى جوارك يا بيرت، ولن يزحزحني أحد عن مكاني بعد الآن».

أجابها بيرت: «لا مشكلة بالنسبة لي». وعلى شفتي جايل ازدادت علامات السخرية في ابتسامتها، كم هو شيء مؤسف، ماذا يحتاج أكثر من ذلك ليتحدث!

ومن خلف ظهرهما، وبينما كانت يداها بالكاد تلامسان أطراف أردان حلة هارفي المُشاة، رأت كيت شقيقتها تتجه بجسدها المشير، بفتنة وإغواء صاعدة نحو بيرت. تلك المنحنيات الرائعة التي جعلت من جايل صاحبة واحدة من أشهر الإطلاقات في المجتمع منذ ست سنوات

مضت، فلديها جسد جميل ذو منحنيات حادة فاتنة.

ولكن ما كان يميزها حقاً ويمنحها حب واستحسان الجميع هو ذلك الصوت الحاد المتموّج. ويبدو أنها كانت مبتهجة من شيء ما في تلك الأمسية، شعرت كيت بذلك، كما شعرت أيضاً بالخوف من جديد، ولكن دون أن تملك حيال ذلك شيئاً.

إلا أنها فيما بين جايل ووالدتها أحست بأن أمسياتهم العائلية ما زالت محتفظة بما كانت عليه في السابق من مرح لطيف وحميمية وحالة مزاجية رائعة للجميع. تبادلوا القليل من الأحاديث جميعاً في مختلف الموضوعات، الأطفال، موقف المصرف الخاص بوالدها من القروض الأجنبية في ظل الأوضاع العالمية الغامضة والباعثة على القلق، حيث اعتاد كل من هارفي كرين والسيد تالانت عدم الخوض في أي تفاصيل خاصة بالعمل مع أي شخص أو لأي سبب من الأسباب، كما كان ذات الأمر يسري على الصحف أيضاً. إلى جانب القليل من النسيمة عن بعض الأصدقاء. فإذا ما جنحت جايل في الحديث وبالغت في ذلك بشكل خبيث؛ قام زوجها أو والدتها بتغيير الموضوع، فبتبسم بما يعني أنها أدركت القصد وتداركت الأمر. وبعد انتهاء العشاء، وبينما والدتها تصب أقذاح القهوة في بهو الاستقبال، أخرجت جايل من حقيبة كبيرة من الحرير ذات نقوش مخططة، معطفاً من الصوف كانت تنسجه لطفلها الصغير، لتبدو عن قصد في صورة ربة المنزل الشابة كما ينبغي لها أن تكون. بينما كيت تنظر إلى الجميع، ويذهب عنها القلق والارتباك رويداً، إلا من ناحية جايل.

إنها تعرفها جيداً، فخلف تألقها وذكائها تكمن خطورتها التي تدركها بنفسها أيضاً، فقد مضى على زواجها الآن خمسة أعوام، وما زال ثابتاً وطيداً كصخرة بين قدميها! ولكن المرء يستطيع أن يرقص على الصخر؛ إذ إنه في الحقيقة، ليس ثمة أرضية أفضل منها للأرجل التي اعتادت الرقص! وعلى خلفية ذلك الشعور الراسخ بالأمان؛ راح قلبها المتمرد المتلائي بالمرح يومض ويبرق. وفي أعماق مركز حياتها كزوجة وأم وربة منزل وقورة؛ بقيت كما هي، جايل الفتاة، التي مهما امتدت بها سنوات العمر؛ لن تغادر أبداً تلك المرحلة العمرية عندما وقعت في غرام شاب وسيم كان يعمل سائقاً خاصاً لدى العائلة وكان يُدعى جورج، حينها قالت لها والدتها بقسوة وصرامة شديدتين: «كم أشعر بالخزي لسوء اختيارك وفساد ذوقك إلى هذه الدرجة، وعلى أي مستوى».

أجابت جايل باحتشام: «ولكن جورج يعمل من أجل الالتحاق بالجامعة»، على الرغم من أنها لم تكن تمنح الأمر أقل قدر من الاهتمام ما إذا كان ذلك حقيقياً أم لا. لم تكن تهتم في الحقيقة بأي شيء عن جورج وجميع أولئك الذين أصبح مجرد رمز لهم جميعاً، سوى للحظة أو ساعة أو ساعتين على الأكثر، وبالتأكيد ليس أكثر من شهر أو نحو ذلك، فقط وعندها تبدأ بالبحث عن رفقة جديدة. على الرغم من أنه ليس مهماً من يكون ذلك الشخص. إلا أنها أيضاً منذ أن تزوجت بهارفي، لم تكن بحاجة إلى علاقات عاطفية. ما كانت تحتاجه حقاً ربما كان الشعور بالحرية، في الحصول على السعادة دون أن تشغل تفكيرها

بشيء، وتلك هي أهم سمات جايل الأساسية. كل ما تريده هو أن تنسى الأطفال والبيت وحتى هارفي نفسه، تنساهم قليلاً ولكن دون أن تستغني عنهم على أقل تقدير، بل تنساهم مع شخص ما وليس وهي وحيدة.

كانت احتياجاتها تلك قد هدأت حدتها كثيراً في سنوات زواجها الأولى، إلا أنها شعرت بأنها تعود إلى الحياة من جديد عندما رأت الآن بيرت هولم. أدركت ذلك منذ اللحظة الأولى.

وبينما تجلس في غرفة المكتبة محتشمة وقورة، كانت تحدث نفسها: «يا إلهي، يبدو أنني سأعود شهوانية من جديد!».

وأخذت تلقي بنظرات الاشتهاء نحو بيرت هولم بغاية الجراءة. لا يشغل بالها إلا ما يمكنها الفوز به فقط، لا مكان للعقل أو حتى الضمير، لا شيء سوى جسد جميل ودوافع هوجاء. استشعرت ذلك بشكل مؤكد على الفور، من خلال تسارع مفاجئ في ضربات قلبها، لم يخدعها يوماً على الإطلاق. من أي جحيم يأتيها كل هذا الفسق الكامن داخلها؟ ما الجذور الحقيقية لذلك الشر والتي غرست بذورها في أعماق كيائها، لتشوش وتفسد ما ورثته أيضاً من عفة والتزام ديني وكل ما لديها من صفات حميدة؟ كان بيرت ينظر إليها بينما تنظر هي للأسفل من جديد تستكمل نسج الخيوط في المعطف الصغير في ثبات وهدوء، وأيضاً في صمت لما يزيد عن خمس عشرة دقيقة. تبرق عيناها من تحت جفניה المسدلين، بينما تلتهب شفتاها المصطبغان باللون الأحمر، وفي خضم شعور كيت بأن هناك أشياء ساخنة مخفية تعتمل تحت هذا الهدوء، شعرت أيضاً بأنها لم تكن من قبل تثق تماماً في جايل. ينبغي عليها

أن تتحدث معها منفردتين؛ لكي تستطيع أن تفهم معنى لذلك البريق الساخر البريء المرتسم على وجهها، والذي أتقنت جايل انتحاله جيداً. غير أنه لم يكن هناك ما يكفي من الوقت في تلك الليلة، إلا إذا ما كان الوقت المتبقي لصعود كل منهم إلى غرفته في الطابق العلوي يمكن اعتباره كذلك.

بينما نظر السيد تالانت لأعلى، وكانت عقارب الساعة على وشك أن تلامس السابعة، ثم قال: «بيرت، باعتبارك أحدث الأعضاء المنضمين للعائلة الآن، فإنه يتوجب عليّ أن أريك أين نحتفظ بزجاجات الخمر». أجابه بيرت بإخلاص وهو يهب واقفاً على قدميه: «أظن أن هذا أفضل ما يمكن أن تفعله». ثم غادرا القاعة معاً، وقد وضع بيرت ذراعه على كتفي السيد تالانت النحيلين النافرين. وعندئذٍ مال هارفي ناحية السيدة تالانت ليتحدث معها بشأن أحداث جديدة تتعلق بأحد الأسهم التي تمتلكها، بينما راحت كيت تنظر إلى جايل.

حتى ألقت جايل بالنسيج من يديها وراحت تتشاءب بغزارة وهي تغمغم: «أوه يا عزيزتي، كم أكره أشغال الإبرة!»، قالت لها كيت: «ولكنك رغم ذلك تستمرين في العمل بها أيتها السخيفة».

أومأت جايل برأسها، ثم قالت ببساطة: «هارفي يحبني على هذه الهيئة. يستطيع الشعور بأنني بأمان عندما أقوم بذلك».

ضحكت كيت طويلاً ثم توجهت إلى مقعد شقيقتها الكبرى وجلست على ذراع المقعد، ثم سألتها بعد لحظات بصوت منخفض: «أحقاً؟».

كانت محقة في رغبتها الملحة بأن تعرف ما الذي تفكر به جايل
خلف تلك التعبيرات العارضة والهيئة البراقة. وهي تنظر للأسفل
مباشرة في عيني جايل المفتوحتين عن آخرهما، وفهمت الأخيرة ما
تعنيه تلك النظرة.

ثم أجابت بنفس البساطة والهدوء: «السبب، أنه إنسان مثالي!»، ثم
أضافت: «فقط لم أكن لأحل محلّك ولديّ الملايين المؤكدة بين يديّ».
سألتها كيت: «لماذا؟».

أجابت جايل: «لأنه وسيم، وسيم للغاية، إنها مسؤولية أن تكوني
متزوجة برجل وسيم».

قالت كيت: «إنه لا يفكر أبداً في وسامته تلك».
أجابتها جايل: «سيفكر يا عزيزتي، بعد أن أخبرته بذلك الآلاف من
السيدات».

قالت كيت في إصرار: «إنه ليس من ذلك النوع».
أجابتها جايل معترضة وهي تقوم بلف خيوط النسيج: «أوه يا
عزيزتي، لا تكوني طفلة هكذا! أتدري ما السبب؟ إن الشيء الوحيد
الذي ينقذ زوجي العزيز، ذلك العجوز المسكين أنه شديد الذكاء، ذلك
أنه لم يكن ليصدق أي امرأة يمكن أن تقول له إنه وسيم؛ لأنه سيدرك
أنها فقط تحتاج إلى قرض مصرفي أو شيء من هذا القبيل، لأنه يعلم
جيداً أنه رجل قبيح. يا لك من مسكين يا هارفي، كان بإمكانه قضاء
الكثير من الأوقات الممتعة لو أنه لم يكن بهذا الذكاء!».

لم تجب كيت، ولكنها رمقتها بنظرة توبيخ شديدة الأثر. كانت تتاب جایل تلك الحالة من الانحراف عندما لا تدرك حقيقة ما تعتقد فيه.

حتى قالت لها: «لا تنظري إليّ بهذه الطريقة. ألم أقل لك إنه إنسان مثالي، أيتها الجحودة؟».

تساءلت كيت: «وما وجه تلك المثالية في رأيك؟».

أجابت جایل: «إنه البطل الشعبي الأوحـد الآن».

ثم نهضت من مكانها قائلة بلطف: «اللـعنة، لقد سقطت بكرة الخيط أسفل المقعد». انحنى لتستعيدها، حتى التقطتها ثم عادت تقف في مواجهة كيت. ثم أمسكت برأسها فجأة وطبعت قبلة حانية على رأسها، استقبلتها كيت كومضة ضوء أو عبير زهرة، خاصة وهي محملة برائحة عطر جایل الفرنسي المميز قائلة لها: «لا تكوني سخيـفة، فمن ذا يمكنه ألا يقع في حبه؟ إنه رجل على سجيته».

وهنا انفتح الباب ودخل بيرت حاملاً صينية بيد واحدة، ثم صاح: «هأنذا!!» كان هذا ما اعتاد قوله دائماً لدى دخوله أي مكان.

وفي صباح اليوم التالي قال لها والدها: «بـالمناسبة يا كيت، لقد طلبت من روجر بريم أن يأتي اليوم لمقابلتك. فكلما عجل بيرت بالتنظيم والسيطرة على الشؤون المتعلقة بشعبيته كلما سارت الأمور على نحو أفضل».

غمغمت كيت بصوت خافت: «شكراً لك يا أبي».

وكانت قد نزلت من غرفتها لتتناول معه طعام الإفطار مبكرًا قبل أن يذهب إلى المدينة. وعبر كل سنوات طفولتها متى كانت موجودة في المنزل؛ كانت تحرص على ذلك دائمًا. ولكنها لم تكن بالفعل تتواجد بالمنزل كثيرًا، ولذلك لم تكن تحظى بالوقت الكافي لقضائه بصحبته كما ينبغي أن يكون. إذ كانت تمضي أغلب أوقاتها في الفصول الدراسية الطويلة بعيدًا في المدرسة، والتي بالمقابل كانت تحتاج لأن تقضي إجازاتها بالكامل معه لتعوض فقدانها إياه، قبل أن تعاود استئناف رحلتها الدراسية مجددًا. ولكنه لم ينس ذلك أبدًا، وعندما أقبلت عليه في غرفة الطعام المربعة الفارغة، رفع عينيه عن الجريدة التي كان يطالعها، ثم قال لها بحنان ومحبة:

«صباح الخير يا عزيزتي، يبدو أن الزواج لم يغير عاداتك الرائعة، أتذكرين؟». هزت رأسها نفياً، ثم قالت: «بيرت ما زال نائمًا، فإنه لا يستطيع أن يطيل السهر».

أجابها والدها بلطف: «لم نسهر حتى وقت متأخر إلى هذه الدرجة». كان سميدلي يصب له ثاني فنجان من القهوة.

قالت كيت مبتسمة: «بيرت يعتبر كل وقت بعد العاشرة مساءً هو وقت متأخر».

أوما السيد تالانت برأسه قائلاً: «نعم». ثم تابع حديثه وبدأ يخبرها عن أمر روجر بريم: «يمكنك أن تمنحي بريم ثقتك بشكل مطلق». سألته كيت ببراءة: «وفيم كل هذا؟».

نظر إليها السيد تالانت نظرة طويلة من تحت حاجبيه الكثين
الأشبيين، وقد انتبه لشيء ما في نبرات صوتها.

هل يعني ذلك أنها لا تعرف شيئاً عن كل ما أخبره به لبريم؟ ربما لم
تكن أشياء حقيقية. ولكن هذا مستحيل تماماً، فليس من المعقول وهي
بعد قادمة مباشرة من ميستي فولز ألا تكون قد سمعت أي شيء عن ذلك
إطلاقاً، لو أنه فعلاً حقيقي. علاوة على أنه من ذلك النوع من الأشياء
التي يجب على المرء أن يخبر زوجته عنها، ربما لا وجود لأي من هذا
لو أنها لم تذكر له عنه شيئاً. أما عنه شخصياً، فلم يكن ليخبرها لو أنها لم
تبادر إلى ذلك، إنها قطعة فنية صغيرة فائقة الحساسية، تنكمش بسرعة
لأرق لمسة. كانت كذلك دائماً عندما كانت طفلة، ويبدو أنها لم تستطع
التخلص من تلك الحساسية بعد. على كل حال، لم يتمكن أحد من أن
يعرف ما هو حقيقي بالفعل في حياة أولئك الأبطال القوميين. فالناس قد
اعتادت تداول القصص السخيفة عنهم. وبخاصة النساء، فإنهن يحاولن
دائماً اختلاق القصص الغرامية معهم. وقد لا يعدو الأمر كونه مجرد
حماقات فتي في مرحلة الشباب لا أكثر. لذا فقد شعر بالتقدير العميق
لبريم لإخباره بالأمر منفرداً. فربما كتب أحد الصحفيين الساخطين عليه
شيئاً عن ذلك، ولن تجرؤ وقتها على مقاضاته بشأنه على اعتبار أنه نوع
من التشهير والقذف. لذا فقد قال لبريم على الفور: «عليك باستخدام
المال بالطريقة الصحيحة ليحدث الانطباع الصحيح». في هذه الأثناء
تدخل سميدلي قائلاً له: «السيارة بانتظارك يا سيدي».

قالت كيت: «يبدو أنني لم آت مبكراً بما فيه الكفاية لأكون ذات نفع

كبير هذا الصباح».

انحنى ليطلع قبلة حانية على جبينها قائلاً: «ولكنني أقدر تلك المبادرة على كل حال».

كان يعلم جيداً أنه مغرم تماماً بابنته الصغرى، وكان ليفعل أي شيء من شأنه أن يجعلها تشعر بالسعادة. كان كذلك دائماً، في الواقع بمجرد أن يعرف ما هو الشيء الذي تريده. ففي بكين بدا عليها أنها تريد ذلك الشاب. وعلى الرغم من أنه يتمنى في داخله أنها ما زالت تريده حقاً، فمنذ عودتهما للمنزل وهو يشعر بأنه قد حصل على شيء قيم، كما لو أنه قد صاهر فيلاً أبيض من نوع نادر الوجود. لقد سئم من كثرة أولئك الذين يسألونه باستمرار، حتى الرجال منهم في المصرف عن بيرت هولم، ذلك أنه رجل يعتد بنفسه كثيراً، لذا فقد أثار حفيظته قليلاً أن يتحول الأمر إلى أن يصبح هو، فقط وقبل أي شيء، مجرد صهر بيرت هولم؛ إذ إنه يستطيع أن يواجه جيداً مزاح الرجال بأفضل مما يقابل احترامهم، على الرغم من أنه يراه رجلاً جيداً، ولكن بطريقة ما لم يشأ أن يفكر في أمره كثيراً. فقد تذكر باشمئزاز تلك الصور التي أراه إياها بريم في إحدى الصحف الإخبارية.

ثم قال لكيت: «بريم سوف يوافيك في تمام الحادية عشرة». ووقف متردداً للحظات، ثم أضاف: «إنه لمن الصعب كثيراً على شخص مثل بيرت هولم أن يتفهم أهمية، بل وضرورة الدور الهائل الذي يمكن أن تقوم به الدعاية الناجحة، وربما أيضاً لا يدرك مدى أهميته هو شخصياً بنفس القدر، ولكن لا بد لشخص ما أن يتدبر له أموره، إنه يظن أنه

يحق له أن يفعل ما يحلو له، ولكن الحقيقة غير ذلك بكل تأكيد. فقط الأشخاص خارج بؤرة الأحداث هم من يستطيعون ذلك». توقف قليلاً ثم أضاف: «بريم سوف يرغب في التحدث إليك بصراحة». أجابته كيت: «بالتأكيد يا أبي».

نظر إليها نظرة فاحصة حادة ثم سألها بشيء من الشك والارتياب: «ألا تبدين غارقة بشدة في العسل هذه الأيام؟». كان من طبيعة كيت عندما تدخل تلك الحالة الشعورية، أن يعني ذلك بالنسبة إليها أن هناك بالانتظار صدمة مؤجلة محتملة الوقوع في مكان ما!

أجابت كيت بنبرة رصينة: «ليس بعد»، ظل ينظر إليها حتى انفجرت ضاحكة فجأة، فنهض إليها وقد أحس باطمئنان مريح: «طالما أسمعك تضحكين هكذا، فلن أكون قلقاً عليك». ثم منحها قبلة أخرى مودعاً، وتغاضى عن الأمر.

وفي قاعة المكتبة في تمام الحادية عشرة، وبينما تنظر ملياً إلى وجه السيد بريم الشاحب الحليق بعناية، تذكرت وقتها فقط أن تتساءل عن سبب ما ذكره لها والدها من أنه سيكون مضطراً للتحدث معها بصراحة؟ ما الداعي للإشارة إلى ذلك؟ بينما في الخارج، فوق العشب الأخضر، كان بيرت يداعب ويلاطف طفلي جابل الصغيرين. لم تره من قبل يلعب مع أطفال صغار، لذلك ظلت تراقبه من خلال النافذة، كان جاثياً على ركبتيه ويديه بينما يحاول الطفلان التسلق للصعود على ظهره، وراح الصغير هاري يصرخ من فرط الحماس والسعادة.

كانت تنظر خارج النافذة وهي تستمع في ذات الوقت إلى السيد بريم وهو يقول: «إن الاقتراب من المشكلة هو دائمًا الخيار الأفضل للتعامل معها، ما الصورة التي نود أن نقدم بها بطلنا للجماهير؟ ومتى استطعنا أن نقرر ذلك، فإنه يمكننا أن نقيّم ما بين أيدينا من وسائل متاحة، ونستبعد بالطبع أي عنصر يتنافر أو لا يتناسب مع تلك الصورة، وكذلك نتمكن من بناء كل ما من شأنه تعزيز وتحسين الانطباع العام الذي نريد أن نصنعه».

ثم سعل وهو يلقي نظرةً ثابتةً على ابنة عميله. لقد أتم استعداداه بشكل مثالي ليجدها بوضوح كما هي في حقيقتها، فتاة لطيفة، أو بالأحرى فتاة فائقة الحساسية، وبحق، يبدو عليها جليًا أنها لا تملك أدنى خبرة بأمور الحياة، نموذج مثالي للفتاة التي تنشأ في بيت لأسرة ثرية محافظة. لذا لم يستطع أن يخبرها بالكثير من الأمور المبدئية التي كانت حاضرة في ذهنه قبل مقابلته لها، ولكنها أيضًا كانت تبدو فتاة ذكية، فهي ابنة روبرت تالانت على أي حال، وهو ما يعني أنه بالتأكيد خلف ذلك الوجه البريء ذو الانفعالات السريعة، يوجد أيضًا وعي وإدراك بغاية الحدة، وبمجرد أن تتفهم موقفًا ما؛ فإنها ستعرف جيدًا ما عليها فعله حياله، بصرف النظر عما تشعر به.

عاد يقول، بينما كان يفض حفنة من الأوراق بين يديه: «لدينا هنا، بعض البلبلة والارتباك بشأن قصص منشورة في إحدى الصحف عن السيد هولم، ليس لديهم ما يمكنهم تقديمه مثل صورة مؤيدة تناسب مع الحدث، فالعامة يعشقون الترابط بين الأحداث. إنهم يريدون

أن يقولوا: 'إننا نعرف بيرت هولم، إنه شجاع، فتّي، جريء، جدير بالاحترام'. وعلى الرغم من أصوله المتواضعة، فليس هناك ما يشوبه أو يُسيء إليه! خلاصة القول، النموذج الأمريكي المثالي!». توقف عن الحديث قليلاً.

فتدخلت كيت بهدوء: «كل هذه الأمور في الواقع حقيقية تمامًا». أوماً السيد بريم برأسه موافقاً: «بالطبع».

كان ما يزيد الأمر صعوبة من الناحيتين من وجهة نظره أنها لا تعلم شيئاً على الإطلاق عن الأمر. وربما كان يجدر به أن يتفق مع السيد تالانت بشأن تلك القصة التي بدأت تزحف نحوهم من كل الاتجاهات. لم يكن الأمر قد افتضح بعد على صفحات الجرائد، ولكنه يعرف الصحفيين جيداً، فهم يجيدون اللعب بالحدث، وهم من يقررون إلى مدى يمكنهم المضي به. كما أنه يمكنهم الذهاب إلى أبعد من ذلك بسبق صحفي مدوّ إذا شعروا بالانزعاج. بالإضافة إلى أنه لديهم دائماً أعمدة للقليل والقال والنميمة والتي دائماً ما تكون خارج حدود الاحترام واللياقة. تمنى لو أنه يستطيع أن يقول لها ببساطة ودون تكبد المزيد من العناء: «سيدتي، بالطبع كلنا يعرف أن واقعة الزواج السابق للسيد هولم ليست ذات أهمية شخصية على الإطلاق، ولكن بالنسبة لرجل في مكانته الآن أي شيء يمكن أن يمثل أهمية كبرى، ولكن -ومع كامل الاحترام- فقد تم مراعاة كافة التعهدات والالتزامات، وكذلك توخي الشرعية القانونية. إلا أنه ولسوء الحظ قد أنكر ذلك الزواج على الملأ، لبعض الأسباب التي ربما ترجع إليه شخصياً».

فالعلاقات الغرامية بلا شك يمكن اعتبارها ببساطة من صميم الأمور الطبيعية في مرحلة الشباب. وساعتها سيكون الحال أفضل كثيرًا لو لم يكن هناك زواج. كلا، فإذا ما انكشف الأمر، فربما يفضل العامة ساعتها أن تكون هناك علاقة زواج، حتى إذا ما انتهى الأمر بالطلاق. وبالطبع مع توافر أسباب جديدة بالاحترام لذلك، كأن يقال إنه بسبب استخدام القسوة الذهنية. فالمرأة يمكنها أن تحصل على الطلاق بادعاء استخدام القسوة الذهنية إذا ما قام زوجها بطرد قطتها خارج المنزل على سبيل المثال. ولكن في هذه الحالة، أي سبب باستثناء الخيانة الزوجية يمكنه أن يؤدي إلى نفس النتيجة، فالخيانة الزوجية لا يمكن للجماهير أن تعلم بشأنها، أو حتى بمجرد اكتشافها وافتضاح أمرها، بل يجب تجنب ذلك مهما تكلف الأمر. وحتى إذا ما كان هناك شيء من هذا القبيل بالفعل، فإنه في الواقع أمر بلا أي أهمية.

لم يكن قد قابل بيرت هولم بعد. ولكنه يستطيع أن يقرر بمجرد النظر إلى وجه تلك الفتاة الهادئة أنه من المحتمل أن يكون قد بدا بالنسبة لها بطلاً كما هو الحال بالنسبة للملايين غيرها. وإلا فلماذا تقبل به زوجًا إذن؟ فإذا كان الأمر كذلك، فإنها بكل تأكيد على قناعة بأنها عثرت على شيء قيّم داخل بيرت هولم، باستثناء أنه... لماذا إذن لم يخبرها؟ ذلك أنه قد اتضح له جليًا من نظرات عينيها الصافية أنها لا تعلم شيئًا عن نوعية الأمور التي يعينها بحديثه. فإذا ما كانت تعلم، ما كانت لتستطيع أن تخفي ذلك، إذ إن وجهها ليس من نوعية الوجوه التي تستطيع أن تخفي شيئًا.

فجأة دوى في الحجرة أزيز صاحب لطائرة تمر من فوقهما وتهبط إلى ارتفاع منخفض للغاية. ونظر السيد بريم خارج النافذة بسرعة لاستطلاع الأمر. كانت هناك طائرة صغيرة تميل بحدة لتهبط بين الأشجار بجوار بيرت والطفلين الذين يلهو معهما.

قال السيد بريم ببرود: «إنهم المصورون»، فقد كان خبر قدوم بيرت هولم إلى جلين باري يملأ الصحف الصباحية.

همست كيت: «أوه يا عزيزي».

قال السيد بريم بنبرة حسيقة: «لن يكون الأمر بهذا السوء في هذه الحالة، فالعامة يحبون رؤية نجوم المجتمع والمشاهير وهم يلعبون مع الأطفال. ولكن، أتمنى يا سيدة هولم أن تتركي لي أمر التعامل مع كل ما يتعلق بهذا النوع من الأشياء، فأنتِ ترين ما آلت إليه الأمور. لذلك، أنا أقترح أن أعقد اجتماعاً مع السيد بيرت هولم، لصياغة رؤية عامة حول الأمور التي من شأنها تقديمه للجمهور في أفضل صورة ممكنة. وعندئذٍ، وإذا ما استطعتِ الاعتماد عليّ في أي شيء يتعلق بالأمور الدعائية، فإنه يمكنني تقييم الموقف بدقة واتخاذ القرار بشأن ما إذا كان ذلك سيساهم في زيادة الأثر المرغوب أم لا». ثم ابتسم بمتهى الاطمئنان مضيفاً: «الدعاية أصبحت فنّاً في هذه الأيام».

كانت لا تزال جالسة في هدوء، تنصت لكل كلمة يقولها. ولكن ثمة شيء ما في هذا الأمر لم تشعر معه بالارتياح، على الرغم من أنه لم يكن شيئاً ملموساً مثل رائحة غامضة لدخان تأتي من مكان ما. فما ذكره بشأن محاولة رسم عناصر لشخصية عامة في المجتمع داخل حدود

شخصية بيرت، وصبغها بألوان جذابة لتناسب مع ما يتخيله الناس عنه، جعلها ترتاب في الأمر برمته وتشعر بالقلق حياله.

ثم قالت باستياء يكسوه شيء من الفخر، وبكلمات سريعة: «أعتقد أنك ستجد أن كل ما تحتاج أن تفعله هو أن تقدمه للناس تمامًا كما هو في حقيقته».

أجابها السيد بريم بنبرة جافة: «بالتأكيد يا سيدتي».

كانت على وشك أن تقرع الجرس لتستدعي سميدلي لتطلب منه أن يخبر بيرت بأن هناك مَنْ ينتظر رؤيته، عندما انفتح الباب فجأة ودخل بيرت منه باحثًا عنها، وقد كان شعره متهدلاً نافراً ورباط عنقه مائلاً.

- أهلا كيت. كنت أتساءل ما الذي حدث لك؟

«بل أنا مَنْ كنت على وشك أن أرسل في طلبك»، ابتسمت له ومدت يديها إليه وهي واعية تمامًا لعيني السيد بريم بلونها الإردوازي وهما تحديقان فيهما: «بيرت، أقدم إليك السيد بريم».

قال بيرت بإخلاص وهو يمد يده ليصافحه: «سعيد بمقابلتك».

أجابه السيد بريم وهو يسحب يده بسرعة: «شكرًا لك».

جال بخاطره وهو يتطلع إلى بيرت بنظرة فاحصة أنه غالبًا يمكنه أن يصنع أي شيء من هذا الشاب. فلديه كل المقومات المطلوبة، المظهر الحسن، السلالة الشقراء، الملامح الودودة والقبول، كل ما يلزم لإعداده جيدًا، كل الأشياء المطلوبة كانت متوفرة فيه لبناء جبهة قوية. وساورته الشكوك لدى مرآه بأن يكون شخصًا سيئًا، إنما بالأحرى مجرد

شخص بسيط أحمق. وبدأ يتساءل عن الكيفية التي يمكنه بها أن يخبر روبرت تالانت أن ابنته كانت على الأرجح مضطرة لأن تواجه العديد من المتاعب إذا لم يقيم أحد بتولي أمور بيرت هولم على نحو جيد؟ إنها تبدو شديدة الحساسية والمثالية بشكل مثير للشفقة إلى أبعد حد! بينما ابنته الأخرى كانت لتصبح الزوجة الأفضل لشخصية عامة، إذ إنها تحسن تدبر الأمور بشكل أفضل كثيرًا.

بدأ السيد بريم حديثه: «كنت للتو أقول للسيدة هولم، أنني أشعر بثقة أنه ليس على أي منكما أن يشعر بأي انزعاج بعد الآن، فلدي فكرة واسعة عما يحتاجه العامة من الناس، وبأي بيانات يمكنني تولي الأمر، وبإمكاني أن أؤكد لكما ثقتي الكاملة في استطاعتنا تنظيم نوع من الحملات الدعائية سوف ينال رضاكما».

استطاع أن يلحظ ذلك الارتباك والذهول المرتسم على ملامح الشاب وفي عينيه الزرقاوين الخاويتين من أي معنى. ولكن بيرت أجابه ضاحكًا: «بالتأكيد، فأنا عن نفسي لست مولعًا بأمور الدعاية. فكل شيء سيكون على ما يرام ما دام أنه لا يسبب لي الإزعاج».

كان ما يدور في ذهن كيت أنه لا يمكنها أن تجد على ظهر الأرض من هو أكثر جمالًا من بيرت في هذه اللحظة، بتلك النسمات الصباحية المنعشة في عينيه ووجنتيه، كانت على استعداد لتحصل عليه كيفما كان، فهذا ما يجب على أي إنسان أن يفعله، حين يرى مخلوقًا جميلًا، أن يحبه ويستمتع بصحبته من أجل جماله، إلا أن تلك الفكرة جعلتها تشعر فجأةً بمسحة من الحزن غير المبرر تزحف إليها مثل رذاذ الماء

الآتي من البحر، باردًا وخافتًا.

وفي الطابق العلوي، في غرفتها الضخمة ذات الطراز العتيق، كانت السيدة تالانت تستعد للنوم. وهي تجلس أمام طاولة التزين ذات الستائر وتتأهب بتكاسل، وتشعر بالنعاس يداهمها بشدة، ولكن لم تكن لديها أي رغبة في الاستسلام للنوم، على الرغم من أن الغرفة تغري أي شخص بالنوم. النيران خامدة مستكنة بين قطع الفحم، والسرير ذو القوائم الأربعة العالية على أهبة الاستعداد لاستقبالها. كانت تحب النوم وتفضله حتى على لعبة البريدج، ولكنها اضطرت لقطع احتفال العائلة مبكرًا في ليلتهم الثانية معًا، خاصة وقد لمحت في عيني السيد تالانت أن هناك أمرًا ما يشغل تفكيره. كان هناك احتفاء كبير من عامة الناس بما كانوا يطلقون عليه «وجه السيد تالانت اللامعبر»، فقد اعتاد المراسلون الصحفيون للجرائد والمجلات متى كان قادمًا من سفر بالخارج أن يمازحوه قليلًا بسبب حصولهم منه على حديث صحفي، يحدثهم فيه بمنتهى الصراحة عن كل شيء ثم لا يخبرهم بأي شيء في نفس الوقت، وهو ما كانوا يكتشفونه بعدها وهم يعملون على تفرغ أوراق ملاحظاتهم التي قاموا بتدوينها. ولكنه برغم كل ذلك لم يكن يستطيع أن يخدع زوجته ولو بأقل قدر؛ إذ إنها كانت تعرف على الفور عندما لا يكون كل شيء على ما يرام، فقد اتخذت ملامحه هيئة غامضة فيما كأنها استحالَت إلى شكل صخري، وتحدث بإسهاب عن أي موضوع يطرأ على ذهنه فجأة، بينما عندما يكون سعيدًا، تأخذ أحاديثه شكل سلسلة من النكات والمزاح، وليس كما يمليه عليه مركزه الاجتماعي أو

يجعله يتصرف باعتباره رئيسًا لأحد المصارف.

والليلة، كان يحرص بشدة في الحديث على الإسهاب في الحديث عن بعض الأشياء والاستطراد عبر العديد من الموضوعات، ومن خلال ذلك، وقبل أن ينتصف المساء، لمست أن الحفل العائلي ينبغي أن ينتهي مبكرًا. ذلك أنه حتى عندما كانت جايل وكيت تغنيان على البيانو جيلبرت وسوليفان التي كان يعشقها بشدة، لم يستطع ذلك أيضًا أن يدفعه للكف عن الثرثرة وأن يضم صوته الأجش إلى صوتيهما ليستمتعوا بالغناء معًا.

وها هي الآن تنظر إليه وهو يعقد رباط ثياب نومه الرمادية الحريرية حول وسطه. وما زال وجهه متجهماً كالصخر. فكرت أنه إذا ما كان شيئًا يتعلق بشؤون العمل، فإنها في المقام الأول لا حيلة أو أي دور لها في ذلك، وفي المقام الثاني فإنه ليس عليها أن تقلق بهذا الشأن؛ لأنها على ثقة تامة بأنه يستطيع أن يتدبر الأمر ويمر منه على خير ما يرام. إما إذا ما كان هناك شيء آخر، فكان ليخبرها به، فلم يَعتدْ أن يخفي عنها شيئًا من قبل.

سألته وهي تمشط شعرها الأشيب المتموج: «ما الأمر يا روب، ماذا بك؟».

أجابها السيد تالانت كالمعتاد: «لا شيء على الإطلاق».

سألته دون أن تبدي أي اهتمام لجوابه: «أهناك شيء ما بشأن العمل؟». أجبها: «ماذا؟ كلا إن أمور العمل تسير بشكل أفضل من المتوقع في مثل هذه الأوقات».

عادت تلمح من بعيد: «الأولاد بخير، أليس كذلك؟».
تردد للحظة قبل أن يقول: «حتى الآن على حد علمي».
ويبدو أن تردده قد خانه.

سألته بلهفة: «ما الذي فعلته جايل الآن؟ أعتقد أنه عليك أن تطمئن إلى أن هارفي يستطيع السيطرة على شؤون عائلته الخاصة دون حاجة منه للرجوع إليك. فبرغم كل شيء، جايل قد نضجت، وأصبحت الآن أمًا لطفلين، وإذا لم تكن تنوي أن تحسن التصرف بمفردها الآن...».
قاطعها قائلاً: «لا داعي لكل هذا الانفعال، فليس لجايل أي علاقة بالأمر».

بدأت تجاذبه أطراف الحديث: «حسنًا، أظن أن كيت في منتهى السعادة الآن أيضًا».

أجابها السيد تالانت موافقًا: «أوه، كيت على خير ما يرام». وعندئذ ونظرًا لصدقه الشديد الذي لا شفاء منه، وتحت تأثير حصارها له بنظراتها المتسائلة؛ شعر بأنه مضطر لأن يضيف: «حتى الآن».

سألته وقد بدأ ينتابها القلق: «روبرت، ماذا تعني بقولك 'حتى الآن'؟».

جلس على أقرب مقعد وبدت على ملامحه علامات عدم الارتياح وهو يقول: «أتمنى لو أننا أمعنا النظر أكثر من ذلك في شأن ذلك الرجل، لقد تركناها تتزوج به في الحال هكذا، وفي بلد غريب وثني، حيث هناك، أي رجل أبيض يبدو جميلًا وأفضل بكثير مما هو عليه بالفعل».

هتفت به: «لماذا يا روب؟ إن بيرت هولم يُعتبر صيدًا ثمينًا في أي مكان، علاوة على أنه يبدو لي تمامًا أنها في غاية السعادة».

أجابها بوجه مكفهر: «إنه ليس من نفس نوعها على الإطلاق، إنها تحب الكتب والشعر، إنها شيء لطيف صغير، بينما هو لم ينظر في كتاب طوال حياته».

أجابته السيدة تالانت بحيوية: «إن أشياء من هذا القبيل لا تمثل عائقًا بأي شكل أمام الحياة الزوجية». كانت تتحدث إلى زوجها وهي تضع على موجات شعرها قبعة من الحرير الوردي الصافي، والآن تعقد رباطها الحريري الرفيع تحت ذقنها وهي تنظر إلى السيد تالانت قائلة: «وعلى قدر ما يحدث مثل هذا كثيرًا، كذلك أنا، عن نفسي كنت معتادة على كتابة الشعر عندما كنت في المدرسة، ولكنني لم أعد أفعل ذلك منذ زواجنا وحتى الآن يا روب، فأنا لم أعد بحاجة إلى ذلك، أنا شخصيًا أشعر بأن بيرت ربما يكون فقط الرجل الذي تحتاجه كيت لجلب شيئًا من الواقعية إلى حياتها. فهي تبدو لي إلى حد كبير طوال حياتها بعيدة بشكل أو بآخر عن واقع الحياة».

ظل السيد تالانت يحدق في وجه زوجته، وهو يفكر في طريقة ليخبرها بالأمر. فقد كان يلتمس العون من سرعة بديتها وذكائها، وكذلك سيجد في مبادئها عن سمعة العائلة وكرامتها بفطرتها الطبيعية دليلًا يرشده إلى الطريقة المناسبة. ولكن زوجته كانت آخر شخص في هذا العالم يستطيع أنا يناقش معها موضوعًا كهذا دون الشعور بالخجل والحياء خاصة في الأمور المتعلقة بسلوكيات الرجال في حياتهم

الجنسية. لم يكن له أدنى علاقة بتصرفات بيرت المشينة مع النساء، ولكنه يعلم جيدًا أنه لو أخبرها بذلك، فإنها على الفور سوف تشعر أن له علاقة ما بالأمر بالفعل؛ لأنه ببساطة رجل مثله.

بدأت السيدة تالانت تستشعر المأزق الطاحن الذي يشغل ذهنه. فقالت بحزم: «والآن يا روب، كل ما عليك فقط هو أن تخبرني ما الأمر؟».

أعترف لها قائلاً: «أنا على علم به، إنه... اللعنة، شريك حياة ابنتك لديه ماضي، وهو الآن يلاحقه كما هو المعتاد. فما لم يكن يعني شيئاً قبل أن يتسلق ذلك الجبل، أصبح الآن يعني الكثير، ذلك أن الجميع أصبحوا يرونه شخصاً رائعاً». بدت السيدة تالانت باردة وهي تقول:

«فقط استمر أرجوك يا روبرت»، لفت يديها في طرف ثوبها الحريري أسفل ردائها الخزامي وجلست تنصت له.

– حسناً، لقد كان متزوجاً من قبل.

راحت شفتاها ترددان ما قاله في همس: «متزوج من قبل، هل تعني بذلك أنه يجمع زوجتين معاً؟».

أجابها السيد تالانت بسرعة: «أوه لا، ليس الأمر كذلك. ليس الأمر بمثل هذا السوء. ولكن شخصاً ما ذهب إلى مدينته عندما بدأ يحظى بكل تلك الشعبية، وتقابل مع بعض من يعرفونه جيداً، وهم من أخبروه بذلك هناك. في الحقيقة هو يدعي أنه رأى تلك المرأة، إنها تعمل نادلة أو ما شابه».

تساءلت السيدة تالانت: «وهل اعترفت له بذلك؟». أجابها السيد تالانت ببطء وهو يحدق في وجهها: «كلا، قد تظنين أنه لكونها من ذلك النوع من النساء فإنها قد تقر بذلك. ولكنها لم تفعل، في الحقيقة عندما سألتها عن ذلك أجابته بأن ذلك ليس من شأنه. فيما يبدو كأنها اعتبرت السؤال بمثابة الإهانة، في الحقيقة يبدو أنه هناك... هناك أقاويل تترد بين الناس في هذا الشأن، حسنًا، تقول بأن بيرت تزوج بهذه المرأة فقط لأنه... لأنه كان مضطراً لذلك».

نظرت السيدة تالانت بقوة إلى زوجها، كانت وجنتاه محمرتين من الخجل. فسألته: «هل تعني أنه هناك طفل بينهما؟». أجابها السيد تالانت على الفور: «كلا، كلا»، ثم أضاف: «إنه... لا بل لم يسفر زواجهما عن أي شيء».

بدأت السيدة تالانت مطمئنة وهي تقول: «هل تعني أنه ليس هناك أطفال إذن؟». أجابها السيد تالانت: «هكذا يبدو»، فقالت السيدة تالانت بشيء من الارتياح: «ربما كان الأمر كله مجرد تلفيق، فأنا لا أستطيع أن أتخيل امرأة لا تحاول أن تستفيد من الموقف على نحو ما، وحتى إذا ما كان الأمر حقيقياً، فإذا ما كان هناك طلاق...».

قاطعها السيد تالانت بوجه متجهم: «أجل، كان هناك طلاق»، قالت السيدة تالانت بحدة: «ولكن ذلك الشيطان، ألم يقل لكل المراسلين والصحافيين أنه لم يكن متزوجاً من قبل، ألا تذكر ذلك».

جلست السيدة تالانت تحدق في لا شيء بمزيد من التأمل، لقد صنعوا من بيرت هولم أشياء كثيرة، ذلك الشاب النقي الذي لا تشوبه

شائبة، نادلة! وزواج اضطراري!

ثم نطقت أخيراً: «حسناً، ما كل تلك الأشياء، التي أقحمت فيها عائلتنا! والآن، علاقة غرامية قذرة و...».

قاطعها السيد تالانت: «لقد كان زواجاً يا حبيبتى، وهذا يصنع فارقاً عظيماً مع السواد الأعظم من الناس».

قالت السيدة تالانت: «علاقة زوجية قذرة، وطلاق قذر».

تدخل السيد تالانت موضعاً بلطف ووداعة: «لقد كان طلاقاً عادياً في رينو».

عادت تقول بشكل لاذع: «أي طلاق يكتشفه عامة الناس بهذا الشكل هو طلاق قذر، علاوة على ذلك فإنه لن يكون من اللائق الآن كما قلت، بعدما منحه الناس ذلك الانطباع الرائع بأن يكون... شاباً نقيّاً». ثم قطعت حديثها فجأةً متسائلةً: «هل رأى تلك المرأة أي شخص آخر؟».

أجاب السيد تالانت باقتضاب: «لست أدري».

قالت السيدة تالانت: «وهو أمر لا يعيننا في شيء بالطبع». ثم أضافت في سرعة: «ولكن هل تعلم كيت بذلك؟».

أجابها السيد تالانت بتعقل: «لست أدري، ولكنني أظنها لا تعلم».

قالت السيدة تالانت: «أنا على ثقة من أنها لا تعلم، لم تكن لتستطيع إخفاء أمر كهذا. لقد أخبرتني أن عائلته كانت... أستطيع أن أفهم أنها لم تستطع تحملهم. ولكن كما قالت هي بعقلانية ووعي

شديدين، الكثير من الرجال الأمريكيين الصالحين، أتوا من عائلات من المستحيل تخيلها، انظر إلى غالبية رؤساء دولتنا! ولكن عمومًا لو أن هناك ما هو أسوأ من ذلك؛ لأمكنني أن أرى ذلك في عينيها دون شك». قال السيد تالانت: «بريم أيضًا يعتقد بأنها لا تعلم».

ظلت السيدة تالانت صامته بضع لحظات تفكر في سرعة، ثم قالت أخيرًا: «رغم كل شيء، كل إنسان لديه بعض الأمور التي قد يفضل الصمت بشأنها. أذكر الطريقة التي كنا نتستر بها على العم هاري المسكين، عندما كان في مجلس الشيوخ؟ أنا أثق أن العمة ماري لم تكن تدعه يغادر المنزل أبدًا قبل أن تتفحص بياض عينيه جيدًا لتتأكد ما إذا كان قد تعاطى الخمر أم لا. ولكنه عاش حياته يحظى بسمعة طيبة واسم رفيع المقام بين الناس حتى مماته، ولم يعلم أي من رجال الصحافة أنه ظل يتعاطى الخمر حتى الموت».

قال لها السيد تالانت مذكرًا إياها: «حسنًا، القليل منهم علم بذلك، ولكنهم لم يشيعوا الخبر».

أجابته السيدة تالانت بشكل منطقي: «أوه حسنًا، بالطبع كل الناس كانت تحب العم هاري»، ثم أضافت بعد لحظات: «مثلما أن كل الناس تحب بيرت هولم أيضًا».

قال السيد تالانت: «يمكنني أن أفترض ذلك».

نظر كل منهما إلى الآخر نظرة تفاهم ومساندة متبادلة، ثم ذهب السيد تالانت بنظره بعيدًا، وفي عقل كل منهما تدور نفس الأشياء في

ذات الوقت. ذات مرة وهما بعد في مطلع مرحلة الشباب ذهباً معاً لمشاهدة ممثلة فرنسية شهيرة في أحد العروض المسرحية. كان ذلك في شهر العسل في باريس، وكان السيد تالانت يشعر بابتهاج غير معتاد، ليس فقط بسبب شهر العسل، ولكن بسبب كونه في باريس. كما أنه لم يكن يعرف بعد الكثير عن أحوال النساء في ذلك الوقت، خاصة المرأة التي تزوج بها، وظل يتحدث كثيراً عن راقصة تُدعى ريتشيل، تلك الراقصة التي شاهدها في العرض، وإذا به يسهب في الحديث عن جمال ساقها على وجه الخصوص. وكانت نتيجة ذلك أن الفتاة الأمريكية العنيدة الجميلة التي تزوج بها ظلت تبكي ليوم كامل في غرفتهما في الفندق، بل وأصرت على العودة للمنزل على الفور. إلى أن توصلتا لتسوية لذلك الخلاف لدى وصولهما إلى ألمانيا، بمجرد أن قالت بحقد: إنه لم يكن هناك سيقان جميلة على الإطلاق، علاوة على ذلك، فإن كليهما كان يعلم أنه ليس بإمكانه أن يشرح الأمر للعائلة إذا ما ذهبا إلى البيت في وقت مبكر من شهر العسل، وقد كانت ميزة رائعة في كليهما، أنهما استطاعا التعامل مع الأمر بسلاسة وبشكل عملي، على الرغم من أنها مشاحنة تحدث في شهر العسل.

وكان هذا كل ما في الأمر، ولكن حتى الآن، وبعد كل هذه السنوات، ما زال كل منهما يتذكر بدقة كيف كان الأمر، كما أن السيدة تالانت أدركت أنها إذا لم تفعل ما فعلت، فإنه لم يكن لديها ما تروييه بشأن ما حدث حينها، أما بالنسبة للسيد تالانت، فقد ظل يعرف بغضب دائماً أن ذلك هو ما شعرت به حينها.

قالت له: «إن روجر بريم هو بالتأكيد الرجل المناسب لتلك المهمة».

أجابها السيد تالانت: «هذا ما فكرت به أيضًا».



سور كبير مرتفع يحيط بجلين باري. كما قام كودل بإغلاق البوابة، وإذا ما ظلت كيت بعيدة عنها فإنها ليست بحاجة إلى أن ترى أي شخص. ولدى البوابة، توقفت الكثير من السيارات وراح الناس يحدقون فيما خلفها، ولكن الأمر اقتصر على ذلك فقط، وكان هناك مسافة تقدر بحوالي ربع ميل ما بين البوابة والمنزل. الشيء الوحيد الذي لم يستطيعوا منعه هو الطائرات، والتي كانت تحلق على ارتفاعات منخفضة جدًا فوقهم، حتى كادت أن تلامس قمم الأشجار. لم تكن هناك وسيلة لإغلاق الطريق في وجههم، برغم أن والدتها قالت: يجب أن يكون هناك ما نستطيع فعله، وهي ما زالت تتصور ببساطة أنها مجرد طيور عملاقة. بالإضافة إلى أنهم رحلوا جميعًا في لحظات، وعاد للمكان هدوؤه ووحده، تلك الوحدة المحببة التي اعتادت عليها في طفولتها.

كانت تبقى في جلين باري باعتبارها طفلة صغيرة خلال أيام الخريف الطويلة مع المربية الخاصة بها؛ لأنه في مرحلة طفولتها الحساسة نوعًا ما، لم تكن والدتها تريد لها الذهاب إلى المدينة حتى حلول فصل الشتاء. بينما أرسلت جايل مبكرًا إلى المدرسة الداخلية، ذلك لأنها بوضوح كانت من ذلك النوع من الأطفال الذي يحتاج صحبة

من حوله في مرحلته العمرية تلك، كما لم تستطع أي مربية السيطرة عليها أو التعامل معها.

وكانت والدتها دائماً ما تحثها على ذلك قائلة: «لا تكوني وحيدة». وسنة بعد أخرى عندما كانت تقف في الشرفة لتقول وداعاً، كانت تنحني لتقبل وجنتي كيت. ولم تكن بها حاجة لأن تقول لها، كما كانت تفعل مع جايل: «عليك بطاعة الأنسة هارت». حيث كانت كيت طفلة مطيعة بطبيعتها.

بيد أنها كانت مطيعة؛ لأنها كانت تعتقد أن تلك هي الطريقة المناسبة للتخلص من البشر. فإذا ما أطاعتهم، فإنهم سوف يدعونها وشأنها، لتفعل ما تريد أن تفعله، وكانت جلين باري هي المكان الوحيد الذي تكون فيه الوحدة هي أروع مهنة في العالم. الغابات، وضياف الأنهار، الخيول التي تمتطيها، الممرات والقنوات والطرق الريفية، لم يكن هناك يوم طويل بما يكفي للاستمتاع بكل تلك الأشياء الرائعة معاً. وفي الأيام الممطرة كانت هناك المكتبة، حيث كانت الكتب الخاصة بجدها كما كانت أيضاً الكتب الخاصة بهم، حتى إن سنوات كاملة من القراءة المواظبة الجهدية لم تكن كافية للانتهاء من كل هذا الكم من الكتب. هنا تعلمت أن تحلم، وسط الكتب، وهنا أيضاً كانت قادرة على أن تخطّ بمنتهى السهولة مقاطعها الشعريّة السرية، والتي كانت تجمعها بدقة وروية.

فقط لفترة ما، كانت تتحاشى تلك الوحدة الأثيرة لدى روحها، كان ذلك في وقت ما، حين أخبرها نورمان لينلاي أنه لم يعد بحاجة إليها.

وقتها، شعرت أن جلين باري لم تعد تُطاق، وعندئذٍ، حينما أصبحت تميل للعزلة، بدا لها أن غرفتها، كما لم تكن كذلك من قبل، هي الملاذ الآمن لها في هذا العالم. ولذلك أيضًا، عندما أعلن والدها أنه يتتوي الذهاب للصين، أرادت أن تذهب إلى هناك أيضًا معه بغاية اللهفة. إذا لم تذهب إلى هناك، ترى ما الذي كان من الممكن أن يحدث لها؟ لا شيء من نورمان، فالأمل كان أكبر حماقة، حتى إنها هجرت عادة الأمل. والآن، أدركت أنه غالبًا بمجرد عودتها إلى جلين باري، فإن أقصى ما تتمناه كان ذلك الشعور القديم بالوحدة. ومع كل خطوة تخطوها في الصباح تدب في أنحاء جسدها قوة دافعة لأن تهب من فراشها وتنطلق إلى الخارج بمفردها.

ولكنها اصطدمت بحقيقة أنها أصبحت المرأة المتزوجة، التي لا يمكنها التصرف على هذا النحو.

استيقظ بيرت، واتجه إلى الغرفة الخالية التالية لغرفته بحثًا عنها، وهو يشعر بالحزن. وبعدها بساعات، عندما عادت كيت محملة بعبق نسمات الصباح الباكر المنعشة، الآتية عبر المروج الخضراء، سألها بيرت: «لماذا لم تنادينني؟».

أجابته: «لقد كنت نائمًا».

قال لها بنبرة تحمل اتهامًا: «أراهن أنك لم تُلقِي نظرة حتى لترى ذلك وتؤكد مني».

في الواقع هي لم تفعل، الحقيقة أنها فقط أرادت أن تذهب بمفردها، وبقاؤه نائمًا حتى ذلك التوقيت كان مبررًا جيدًا حتى لنفسها،

ولكنها لم تمتلك القدرة لتخبره بذلك. لقد بدأت تتعلم أنه عندما يكون المرء متزوجًا؛ فإنه هناك العديد من الأشياء التي لا يستطيع التفوه بها. ذات يوم أخبرت نورمان بأنها ترى أن أي اثنين يتبادلان الشعور بالحب معًا، فإنه لزامًا عليهما أن يصبحا قادرين على أن يكونا معًا في صراحة مطلقة بينهما. كانت تتفق مع ذلك الرأي، ولكنه بطريقة ما لم يستطع أن يثبت أنه صحيح حتى معه، ذلك أنه اعتاد على الشعور بالانزعاج منها عندما تتحدث معه بصدق شديد، خاصة عندما يكون موضوع حديثها شيئًا من أعماله التي كتبها بنفسه. كان ذلك ذات مرة بشأن المشهد الأول من إحدى مسرحياته، وكانت تخبره بأنه سخييف وغير مُتقن وأيضا غير مباشر في الطريقة التي تدخل بها الشخصيات في أحداث القصة. وبالطبع لم يعجبه ذلك منها عندما وجد أن ذلك كان رأيها. شعرت بعدم رضاه، وعلى الرغم من أنهما سبق وأن اتفقا من قبل بشأن الصدق المتبادل، وبعد انفصالهما بفترة طويلة بعدما علمت أنها لن تراه مجدداً، أدركت أن التغييرات التي حدثت له بعدها، بدأت منذ ذلك اليوم. كان من الممكن أن يكون أفضل لها لو أنها لم تتفوه بما أخبرته به حينها. ولكن كلا، كل ما ينبغي عليها هو أن تكون أمينة فقط مع نفسها، وليس مع أي شخص آخر.

ذهبت جايل أخيراً، تتباطأ في حركتها بعد أن أرسلت الطفلين عائدين إلى المدينة بصحبة المربية الخاصة بهما، إلى أن يعود إليها هارفي بسيارته في الليلة الثالثة.

كان قد أخبر السيدة تالانت بذلك بهدوء قائلاً: «سوف تعود جايل

معي بعد العشاء». وهنا، وقبل أن تغادر، مالت بظهرها إلى الخلف نحو بيرت وزوت جانبًا من فمها ناحيته وهي تقول بطريقة منحلّة: «بيرت، دعنا نتناول الغداء معًا، أنت وأنا فقط، عندما تأتي إلى المدينة».

أجابها بيرت: «مؤكد». ما زال عاجزًا عن التخلص من ملاحظة جايل. إذا ما كانت إحدى العلاقات في حياته، لاستطاع أن يدرك أين تكون منه على وجه التحديد، ولكن شقيقه زوجته ليست مجرد امرأة عادية.

تابعت جايل في إصرار ومثابرة بينما تتجه بجانب عينها نحو هارفي: «في اليوم الأول».

أجابها بيرت بنبرة مشجعة: «جميل»، في حين يدور بخلدّه أنه لا بد وأن يكون هارفي أحق غافلًا. وقد جلس الأخير يحتسي مشروبًا، وهو ينظر بعينه على زوجته بلطف ووداعة، كما لو أنهما عينا كلب حراسة مصوّبتان نحو سيدته المحبوبة. ولكن، بعد العشاء تحرك هارفي ذاهبًا إلى البيت مبكرًا مصطحبًا جايل معه كما كان مخططًا، وهو يقول لها: «يمكن لأي شخص أن يحضر أغراضك في الغد».

عندئذٍ كانت أيام شهر نوفمبر ذات الطقس الرائع قد انتهت، واستهل شهر ديسمبر أيامه بأمطار باردة. بينما كانت والدتها ترتجف بردًا على مائدة الإفطار، وهي تقول لسميدلي بأن المنزل شديد البرودة اليوم. كيت ووالدتها وبيرت اجتمعوا في إفطار متأخر. وقد جعلهم ذلك اليوم المكفهر جميعًا ينامون جميعًا أكثر من المعتاد.

قالت السيدة تالانت بحيوية: «أفترض أنه يجب علينا الذهاب

إلى المدينة». كانت دائماً ما تضيء الحيوة على الأجواء عندما يكون الطقس غائماً. ثم تابعت: «إنه الوقت لنفعل ذلك، كل شيء قد بدأ هناك، وهذه الأمطار سوف تنهي لوالدك موسم الجولف. ولن يبقى سبباً واحداً يدعو لعدم العودة إلى المدينة عندما يحدث كل هذا. أوه يا عزيزتي، ربما كان يجدر بي أن أنتظر إلى ما بعد عطلة نهاية الأسبوع». سألتها كيت: «هل هناك شيء ما تودين مني أن أفعله يا أمي؟».

أجابتها والدتها: «أوه كلا، فالمنزل في المدينة على أهبة الاستعداد منذ أسابيع، فقط أنا من كنت أرجئ الذهاب إلى هناك. سوف أرسل سميدلي إلى هناك يوم الاثنين، بينما نلحق به نحن يوم الثلاثاء».

كانوا يتحدثون معاً كما لو أن بيرت لم يكن هناك. جميعهم يتسمون بهذه العادة دون وعي من أي منهم. كانت السيدة تالانت تنظر إليه وهو يتناول شطيرة، بينما تقول لنفسها: «من الجيد أنه يزين المجلس بشكل ملائم، وإلا فما كانت أي فائدة لترجي منه؟». فمذ حديثها الأخير مع زوجها، وهي تجد في داخلها مشاعر حاقدة تجاه زوج ابنتها.

نفضت تلك الأفكار عن رأسها ثم سألته بحيوية: «ماذا تنوي أن تفعل اليوم يا بيرت؟». رفع بيرت رأسه لينظر إليها، ثم أجابها: «سوف أتدبر أموري، ربما سوف أعمل لبعض الوقت على جمع وتنظيم الطوابع الخاصة بي».

كان قد بدأ في جمع الطوابع. حين أخبره السيد بريم بأنه لا يدرى أي فائدة قد تعود عليه من تلك العادة الغريبة. والآن يبدو الأمر شيئاً غريباً ألا يقوم بجمع الطوابع، بينما لديه كل هذه الكمية من المراسلات

من مختلف أنحاء العالم. فكان السيد بريم يهتم بشأن الرسائل، ويقوم بإرسال الطوابع إليه.

قالت السيدة تالانت: «سوف أكون في غرفة الجلوس، في حالة ما إذا احتاجني أحد منكما». مست الماء بأطراف أصابعها في المزهريّة التي وضعها سميدلي أمامها، ثم انصرفت، وتركت كيت وحدها مع بيرت، حيث اتكأت بمرفقيها على المقعد وابتسمت له ابتسامة خفيفة غامضة وسألته: «أين تنوي أن تذهب للعمل على طوابعك تلك؟».

كان وجه بيرت دائماً ضبابياً بالنسبة إليها، لم تكن ترى منه سوى ملامحه الوسيمة الشقراء في تلك اللحظة ليس أكثر، كما لو أنها تفتح إحدى المجلات لتطالع صورة فوتوغرافية.

قال لها: «لست أدري». ولكن أذنها كانت متبلدة الحس بسبب استغراقها في الاتجاه الباطني الجديد، لذلك لم تلحظ نبذة الضجر الشديد الواضحة بقوة في صوته. حتى أردف: «ربما ألحق بك إلى المكتبة حيث تكونين عادة، إلا إذا ما كنتِ تنوين القراءة».

وهنا تنبّهت إلى ذلك وشعرت بالخزي من نفسها، فأى إزعاج يمكن أن يسببه لها إذا ما جلس هادئاً إلى الطاولة يعمل على تنظيم طوابعه؟ ولكنها لم تكن من قبل تشعر بأنها سعيدة ومستمتعة بالقراءة إلا إذا كانت وحيدة في المكتبة. كما أن بيرت، الذي يبقى صامتاً تماماً عندما يكون هناك أناس غرباء، لا يكف عن الثرثرة وإحداث الضوضاء بطرق متعددة وبشكل لا يهدأ عندما يكون معها، وقد اعتقدت في البداية أن هذا على الأرجح نوع من التقرب، وقد استجابت على الفور لكل ما

يتطلبه ذلك منها. فقد كان شيئاً لطيفاً أن تشعر بأن أحدهم بحاجة إليك، خاصة عندما لم تكن كذلك في حياتها من قبل، باعتبارها طفلة صغيرة في منزل يعج بالخدم. كان هناك شيء محبب بقدر ما هو ممتع حقاً أن يكون لديك طفل بهذا الطول، يحتاج لأن ينحني لكي تصفف له شعره، أو حين يحتاج زراً لياقة قميصه. وقد اعتادت ذلك ولم تتغير بشأنه، ولكنها اليوم كانت وحيدة. تلك الأجواء المكفهرة اليوم ألقت بظلال كثيفة من الضباب حجبته عن العالم وشوشت الرؤية بينها وبين أي مخلوق، إذ إن ذلك الطقس بالخارج كان دائماً هو ذات الطقس بداخل روحها. لم تكن تستطيع الشعور بالمرح في يوم قاتم كهذا قبل أن يحل المساء، وتُسدل الستائر، ولا تستطيع أن ترى التلال السوداء. وحتى عندئذٍ لا تحب سماع صوت الرياح، وإلا فإنها تتمثل لها على هيئة أي صوت بشري. كان سلوكاً انسحابياً قد اعتادت عليه، ولم تحاول أبداً أن تصارعه أو تبدي أي مقاومة تجاهه. وقد أدركت الآن بشيء من الغرابة، أنها لا تشعر بأن وجه بيرت أقرب إليها ممن سواه.

سألته: «لماذا لا تذهب لتبشر عملك في غرفة الجلوس الخاصة بي؟ سوف أضع الطوابع هناك من أجلك».

أجابها بسلاسة وهو يحدق خارج النافذة: «حسناً، لا بأس»، كانت الأمطار قد بدأت تتساقط بغزارة، كما بدأت تجف وتتلأشى آخر الأوراق الملونة المتساقطة من الأشجار لتخفق متطايرة وسط الرياح الهوجاء.

... ولكنه لم يكن يشعر أنه جالس فقط، بل شعر بأنه يؤدي عملاً ما. لم يكن بالإمكان امتطاء الخيل اليوم، وربما يذهب لصالة الألعاب

الرياضية أو سيذهب ليضرب بعض الكرات في الجوار.

إلى أن قال لها فجأة: «أظن أنني لن أعمل على الطوابع اليوم، إنما أحتاج لبعض التمارين». ونهض مسرعًا من أمام المنضدة، وقد بدا له الأمر فجأة كأنه لا يستطيع الجلوس هناك لأكثر من ثانية أخرى. لم يكن ينوي فعل شيء معين، وبرغم ذلك فقد دبت الطاقة في أنحاء جسده حتى شعر كأنه جواد جامح، يكافح ضد شكيمة اللجام. كان يشعر بأن عليه أن يصنع شيئًا بنفسه وبمنتهى الجدية، أي شيء لا يهم، فالمنزل غارق تمامًا في الهدوء. إذا ما كان في بيته لذهب إلى وسط المدينة ليلعب البلياردو، ولكنه ليس هناك. انحنى عليها ليطبع على جبينها قبلة حانية قائلاً: «إلى اللقاء، ربما ألحق بك مؤخرًا».

ذهبت كيت إلى المكتبة، وأسلمت نفسها لذلك الهدوء المخملي العميق للمكتب المتراحة من حولها، ليحيط بها من كل جانب. كان نوعًا من الهدوء أبعد كثيرًا من مجرد حالة سكون للجسد، إنه ذلك النوع من الصمت الذي يحمل إليها كل المعاني والأفكار والمشاعر والأشعار، يعمل في حد ذاته بلا صوت داخل أعماق أعماق كيائها، وفي الأبعاد الخاصة بها وحدها. كانت دائمًا تقول إن من قام ببناء هذه الحجرة هو جدها وأضافها للمنزل الذي كان يملكه والده في مرحلة مبكرة من عمره، وكانت تراها أجمل حجرة في العالم. كانت جدرانها مكسوة بخشب السنديان، ذات إضاءة خافتة، وقد حُجبت الأضواء تمامًا إلا في المواضع التي تسقط فيها فوق أحد الكتاب لتضيء للقارئ، والسجاد من النوع العميق الناعم ذي لون أخضر بلون الطحالب تحت الأشجار

في الغابة، وبه نافذة واسعة عريضة تطل باتجاه التلال على مشهد بديع، بينما تغطي الكتب جميع الجدران من الأرض وحتى السقف. لا وجود للوقت بالنسبة إليها طالما كانت هنا. كأنها تقوم بإغلاق كل ساعات العالم، بل والعالم نفسه بأكمله مع إغلاقها لباب المكتبة الثقيل والمصنوع أيضًا من خشب السنديان، وهي تعلم بحكم العادة أنه لا أحد يأتي هنا خلال ساعات النهار طالما أنه ليس يوم الأحد. وكانت تشعر بالأمان عندما تكون وحيدة.

التفت بجسدها حول نفسها وغاصت داخل المقعد الوثير المواجه للنافذة ومددت جسدها تتأمل المشهد الرائع للتلال تحت المطر. وفي الحال استطاع عقلها أن يجرد نفسه من كل ما حوله. ورحل عنه كل شيء سوى نضاله الأولي مع أفكارها الخاصة. مستلقية داخل أحد أحلام اليقظة الممتعة الطويلة، تصنع حالة مزاجية خاصة بها، تمسك بتلابيب الأحاسيس العابرة للحظة، حتى بدأت أخيرًا تشعر ببطء بالكلمات تترأص في سطر، ثم سطرين ثم الكثير منهم في وتيرة خاصة. وبمجرد ما تبدأ هذه العملية؛ فإنها تستمر حتى تمامها، يستوي الأمر أن تصل إلى نهاية ما أو تظل هكذا، لا تستطيع أن تقول الآن، ولكنها على الأقل تمضي إلى نوع ما من النهايات، لشعورها بأنها طليقة وفي كامل سلامها النفسي. ولّت وجهها بعيدًا عن النافذة قليلًا وأغمضت عينيها وراحت تسبح وتغوص أكثر في هذا الهدوء، مثل طائر محلق فوق وادٍ خصب لا تزعجه الرياح.

وراحت في نوم عميق ولوقت طويل، أو ظنت أنه يجب أن يكون

كذلك، حتى انفتح الباب وأتاها صوت والدتها تناديها بصوت حاد انتزعها على الفور من تلك الحالة، فهبت مستيقظة.

- كيت، سوف نذهب إلى المدينة في الحال، لقد غيرت رأيي بشأن ذلك.

فتحت عينيها واعتدلت جالسة، كانت ملامح والدتها مضطربة على الرغم من حرصها على أن تبدو هادئة، بينما تناثرت بقع حمراء في عدة مواضع من عنقها.

سألتها كيت: «الآن؟».

- لنسرع بقدر ما نستطيع كي نلحق بالغداء هناك.

سألتها كيت: «أهناك مشكلة ما؟».

أجابتها والدتها بسرعة: «كلا، يجدر بك الآن أن تذهبي وتعدي أغراضك».

ثم أغلقت الباب ومضت. أدركت أن والدتها تكذب بشأن تلك العجلة المفاجئة، يجب عليها أن تجد بيرت. يبدو أن هناك مشكلة ما، وجدته على الأريكة في غرفتها، مستلقيًا وقد شبك ذراعيه تحت رأسه محددًا خارج النافذة. نظرت من النافذة، فإذا بالمطر ما زال مستمرًا، صاحت به: «بيرت!».

أدار رأسه ناحيتها ونظر إليها بعينين ملؤهما الكآبة وهو يقول:

- أظن أن والدتك فهمت أنني...

قاطعته كيت قائلة في دهشة: «لم تقل شيئًا سوى أننا متجهون إلى

المدينة الآن وفورًا».

سألها بيرت: «ولا كلمة أخرى؟».

أجابته كيت: «لا شيء غير ذلك. ما الأمر يا بيرت؟ ما الذي حدث؟».

أجابها بيرت بوجه عابس: «لا شيء، سوى أننا تشاجرنا، نوعًا ما».
- أوه يا بيرت.

اعتدل في جلسته ودفع شعره المنسدل على جبينه إلى الوراء، ثم قال: «يا إلهي، أظن أنني بدأت أشعر بالإرهاق؛ لأنني لا أفعل شيئًا».

نظرت إليه للحظة، وقد لاحظت أن هناك تغييرات حدثت له، ثم قالت بسرعة: «أنا أعتقد في ذلك». لقد حدث شيء ما، ولكنه لم يشأ أن يخبرها عنه. كان ذلك كافيًا لإرضاء كبرائها، لذا لم تتفوه بكلمة أخرى.

السيدة تالانت في غرفة نومها التقليدية المزينة بالحرير الوردى، في منزلهم بالمدينة، وهي تحاول أن تشرح للسيد تالانت سبب قدومهم المفاجئ ومغادرتهم جلين باري. قالت له: «لقد قمت بطرد الفتاة على الفور بكل تأكيد».

وقد عاودت البقع الحمراء الظهور حول عنقها مجددًا. استطاعت أن ترى ذلك في المرأة، قبل أن تجلس لتمشط شعرها استعدادًا للعشاء. وكان ذلك يعني أن هناك ارتفاع في ضغط الدم، برغم تحذيرات عديدة ومحددة من طبيبيها الخاص من تكرار ذلك وخطورته على صحتها.

أردفت: «يقع منزلها في بارتونز كورنرز، قمت بتوصيلها حتى باب

بيتها ثم تركتها هناك وغادرت. والدها يعمل قصابًا، لقد كان الأمر مشيرًا
للشمئزاز. الأمر الذي جعلني ببساطة لا أستطيع البقاء في جلين باري
للمحظة واحدة أخرى».

تساءل السيد تالانت بعد برهة من الصمت: «إنه لم يكن حقًا
يفعل شيئًا، أليس كذلك؟». كان ممسكًا بين يديه بنسخة من خطة
الحملة الدعائية التي أعدها السيد بريم لكي يتم إطلاقها من خلال
الصحف والجرائد الصباحية. وبمجرد أن أخبرته زوجته هاتفيًا بأنهم
في الطريق إليه، قام على الفور بالاتصال بالسيد بريم. ذلك أنه بمجرد
أن سمع الناس أن بيرت هولم متواجد هنا بالمدينة حتى انهالت عليهم
الدعوات. وتبددت كل الآمال بالهدوء الذي كان ينتظرهم. ولكن إذا ما
كان لا بد لذلك أن يحدث، فليتم الإعلان عنه إذن كما ينبغي. فقد كان
لديه من المشاكل ما يكفي، حتى يضاف إلى كاهله أعباء إضافية بشأن
بيرت هولم أيضًا. برغم أنه في أعماق قلبه كان لديه شعور سري بأن
زوجته قد بالغت كثيرًا في تقدير هذا الأمر والتعامل معه. ففيما يخصه
هو شخصيًا، كان مؤمنًا بأنه حتى على الرغم من احتمال وجود رجل
سعيد في علاقته الزوجية، ولديه ابنتان جميلتان، فإنه أيضًا يستطيع أن
يستمتع بالنظر إلى امرأة جميلة، وعلى الرغم أيضًا من أن الأمر بالنسبة له
شخصيًا لا يستحق، حتى ولو كان من ذلك النوع، بسبب زوجته العزيزة
وما يمكن أن تحدثه من ضجة بشأن أمر كهذا إذا ما اكتشفته، كما هو
من المؤكد أن يحدث! ويبدو أن النساء غالبًا ما تلتقط أنوفهن الحساسة
ذلك النوع من العلاقات. فهو مزروع في عقولهن طوال الوقت.

سألتها السيدة تالانت: «أنا لا أعلم ما الذي تعنيه بقولك 'يفعل شيئاً' فلم يكن عليه أن يفعل شيئاً إذا كان هذا ما تعنيه. كم أشعر بالامتنان لأنني أنا وليس كيت من فاجئتهم».

- وأين كان ذلك إذن؟

- في ذلك الممر المعتم المؤدي إلى صالة الألعاب. لطالما أخبرتكم أنه معتم بشدة. كان يرتدي سروالاً رياضياً قصيراً. بينما كانت الفتاة متجهة إلى هناك... لتقوم بأعمال تنظيف المكان كما قالت، بينما توجهت أنا إلى هناك لأنفق مشكلة مخرج المياه المغذي لحوض الاستحمام الداخلي. حيث أخبرني سميدلي بأنه كان معطلاً. وبالطبع لم يكن أي منهما يتوقع قدومي، كما أنني بالتأكيد لم أتوقع ما رأيت منهما.

شعر السيد تالانت بأنه لا يمكنه الضغط عليها أكثر من ذلك.

بينما تابعت السيدة تالانت بتعقل: «إنني أتساءل هل من الصواب أو العدل ألا نخبر كيت شيئاً عن ذلك؟». فالتفتت ناحيته وهي تقول: «أتعلم شيئاً؟ لو أنني اعتقدت للحظة أنه شخص سيئ لأبلغت كيت على الفور، ولكنه مجرد أحرق. كما أنها رقيقة للغاية. لو أنها كانت مثل جايل؛ كنت لأترك الأمر لها تفعل ما تراه صواباً، ولكن كيف لفتاة مثل كيت أن تتعامل معه في أمر كهذا؟ وليس لديها أي تجارب في التعامل مع الرجال. ما زلت أشعر بأنه لو استطعنا أن ندبر له عملاً مناسباً فسوف تكون أحواله على خير ما يرام. ألا يمكنك أن تأخذه ليعمل معك في المصرف؟». أجابها السيد تالانت بقوة: «كلا. لن أقدم على شيء

كهذا، وهذا كل ما يمكنني قوله في هذا الشأن يا عزيزتي. فأنا لن أقبل الوساطة في شيء كهذا أبدًا. إنه مجرد فتى جاهل تمامًا، وليس لديه ما يجعلني أفكر أن أمنحه فرصة للعمل في المصرف لأي سبب كان. ذلك أن مجرد كونه اليوم أعظم بطل أمريكي لا يجعل منه الشخص المناسب لأي شيء آخر».

نظرت السيدة تالانت إلى زوجها، وتنهدت في يأس وهي تتساءل:

– فما الذي سنفعله معه إذن يا عزيزي؟

أجابها بصرامة: «فقط ندير حملة الدعاية بالشكل الصحيح».

«ولكن ماذا عن كيت؟»، عاد يكرر ما قاله: «نحسن إدارة الحملة

الدعائية بالنسبة لها هي أيضًا. ولا تخبريها بأي شيء عن ذلك».

ثم تناول قلمًا من جيبه وخط بيده كلمة «موافق» كبيرة على نسخة الأوراق التي كانت بيده. ثم قرع الجرس. وعندما ظهرت خادمة تجاوزت منتصف العمر، أعطاها المظروف قائلاً: «عليك تسليم هذا المظروف إلى السيد روجر بريم في الحال مع مرسال خاص».

عادت السيدة تالانت تقول: «حسنًا، ولكننا لن نقوم بخداع جايل.

إذ إنها تشبهني كثيرًا».

كانت جايل تنظر إلى زوجها عبر منضدة الإفطار الخاصة بهما.

بينما كانت عيناها العسليتان بلون البندق ترقصان. كان هارفي كرين يقول لنفسه في كثير من الأحيان، إنه حين تلتمع عينا جايل وتشعان نورًا فإنه يشعر بالسعادة من أجل ذلك كثيرًا، ولكنه كان يعرفها جيدًا.

فسألها: «ماذا أعددتِ على الغداء؟».

رفعت عينيها ونظرت إليه من خلال فنجانها وهي تجيبه: «ألا تذكر؟ إنه أول يوم لبيت في المدينة، ولدينا موعد جميعاً في مأدبة غداء صغيرة».

قال هارفي بهدوء: «على أهبة الاستعداد يا جايل».

وضعت فنجانها على المنضدة ونظرت إليه وهي تشعر بدهشة عارمة، فقال لها: «أنت مشروب قوي لرجل لا يستطيع أن يمسك بكأسه مثل بيت».

بينما لم ترسم أي تعبيرات على وجهه. إن ملامح هارفي كرين الخارجية لا تتغير أبداً، وحتى جايل لم تستطع يوماً أن تسبر أغوارها لتعلم ماذا وراءها. كانت تقول لنفسها ذات مرة: «يوماً ما، سوف أتمكن من أن أقطع شريحة منه، كما نفعل مع البطيخ، لأرى ما بداخله».

ثم سأله بمنتهى البراءة: «أنا؟». أجابها: «أنت».

... لم يكن يشعر بأدنى قدر من الخوف من طيشها وتهورها. فقبل أن يتقدم لطلب يد جايل تالانت كان قد حسم أمره بشأن كيفية السيطرة عليها، الكثير من التعقل والمرونة، ولكن في نهاية الأمر لا بد من قبضة قوية محكمة على اللجام، على ألا يتغير عن ذلك. فيجب عليها أن تعلم جيداً أنه مهما كان ما تفعله؛ فإنه يكون على علم به، ولكن هناك حدود معينة لا بد عندها من أن يكون صلباً عنيداً. فيمكنها أن تتناول الغداء مع أي رجل، ولكن يجب عليها أن تكون في بيتها على العشاء مع زوجها.

يمكنها أن تحضر ما يحلو لها من حفلات الرقص، ولكن شريطة أن يوصلها بنفسه ثم يعيدها إلى المنزل بنفسه. وقد أدرك أن من أهم الأمور الأساسية بالنسبة إليها والتي تمنحها تلك الحيوية والإشراق، هو فقط أن تظل دائماً وافقة على الأرض الصلبة المتمثلة في بيتها وزواجها به. فقد قام بقياس ودراسة شخصيتها جيداً قبل أن يتزوج بها، ما جعله يدرك أنها تريد النقيض من ذلك الثبات وتلك الرتابة. كما أدرك أنه لو خيّر بين الشقيقتين، فإن جايل كانت محل ثقة أكبر فيما يتعلق بالاختيار النهائي. فقد كانت جامحة بما يكفي، ولكن في الجزء الأخير منها هي سهلة الانقياد، بل إنها ترغب حقاً بذلك. بينما كانت كيت من ذلك النوع الذي يكون على أتم الاستعداد لأن يبذل روحه من أجل أن يمنح أحدهم السعادة والطاعة، وعندئذٍ يذهب عقلها تماماً عندما ينهار نظام تحكمها في ذاتها. وكان من بين القصص التي اعتاد سماعها عما قرأه كبير الأساقفة بكنيسة ساينت ماري عندما كان هو نفسه مجرد صبي عنيد ضمن جوقة المرنمين في الكنيسة. قصة رجل كان له ولدان وعندما طلب من أحدهما أن يذهب إلى الحقل رفض الولد الأول، ثم عاد وذهب بعد ذلك. وكان هذا هو سلوك جايل. ولكن الولد الآخر قال بأنه سيذهب ثم لم يفعل، وهذا هو سلوك كيت. فقط كيت هي من تعني حقاً أنها ستذهب، وتريد ذلك بالفعل. ولكن يبقى هناك دائماً شيء جوهري بداخلها غير مستقر، إن عدم استقرار الروح هو أمر شديد الحساسية؛ لأن يتحمل حتى قراراته الخاصة.

تساءلت جايل بخبث: «لماذا؟». وقد استندت بمرفقيها إلى

المنضدة، وأراحت ذقنها على يديها المشبكتين. بينما تنظر إليه من تحت أهدابها الذهبية القاتمة والتي استخدمتها ببراعة كما تفعل النساء مع مروحة من ريش النعام: «أنت لا تظن أنني...».

أجابها مقاطعاً: «بالطبع لا أظن ذلك. فقد اعتدت أن أرى بريق عينيك وأنتِ تنظرين إلى معظم أصدقائي، أليس كذلك؟ ولكنهم معتادين على ذلك. أما بيرت فلا، فيما يبدو أنه قد ينصهر من الحرارة».

انفجرت ضاحكة ثم نهضت واتجهت ناحية زوجها وراحت تعبث بخصلات شعره القاتمة قائلة: «كم أحبك، ولا أعلم لماذا، فأنت لا تملك نصف ما يملكه بيرت من الجمال». أجابها بثقة: «لأنني أستطيع أن أرى ما بداخلك دائماً، وهذا هو السبب». أمسك بيدها وقبلها في هدوء واضح.

أما جايل، وكما اعتادت دائماً، فقد شعرت بقشعريرة محببة خفيفة تتاب جسدها. فهو يستطيع أن يرى ما بداخلها، أما هي فلم تستطع ذلك أبداً. في الوقت الذي تستطيع أن ترى ما بداخل النساء والرجال الآخرين. كانت أكثر مهارة في ذلك من كل من حولها حتى تزوجت بهارفي. فلم يخبرها أي شيء عن نفسه قبل زواجهما، ولم يكن ليفعل، على الرغم من أنها، ولدهشتها هي نفسها، كانت تخبره بكل كبيرة وصغيرة عن نفسها وحياتها عاجلاً أو آجلاً.

والآن، تجلس على ذراع مقعده وتقول بنبرة ساخرة أقرب إلى البكاء: «إنه لشيء مؤسف أن يتزوج بيرت هولم بكيت، أو بالأحرى أنه شيء أقرب إلى المزاح أيضاً أن...».

قال هارفي منهيًا جملتها: «أن تجعل من بطل شعبي مجرد أضحوكة». ثم طوى منديل المائدة، وأبعد جايل عنه جانبًا بلطف وكياسة ونهض. ثم أردف: «ولكنه سيكون من قبيل قصر النظر منك يا عزيزتي أن تتلاعبى بزواج شقيقتك وهو يعتبر بيت قريب للغاية من بيت عائلة تالانت، ناهيك عن أنني لست بحاجة لأن أذكرك بأنه بيتك أنت أيضًا». تنهدت جايل ومطت شفيتها للأمام كي يُقبَّلها.

فسألها مستفسرًا: «كيف حال ديكي الصغير؟ هل شفي من نزلة البرد؟». أجابت كمن يعترف بذنب: «أنا لم أكن هنا اليوم، ولكن مربيته كانت معه».

قال لها بلهجة أمرة هادئة: «اصعدي الآن إلى غرفته واطمئني عليه قبل ذهابي، هيا، فتاة جيدة». لم تكن أفضل الأمهات، ولكنه أرادها زوجة في المقام الأول. فكان يتابع شؤون أطفاله بنفسه أحيانًا إذا ما اقتضى الأمر.

أطاعت أمره من فورها، فقط توقفت لدى الباب لتغمز له بعينها وهي تقول: «لست أدري لماذا أحب أن أستيقظ مبكرًا كل يوم لأتناول طعام الإفطار معك، لست أعرف امرأة تفعل أكثر من ذلك من أجل زوجها».

ابتسم لها ببساطة دون أن يجيب. كانت بينهما رابطة قوية من الولع المتبادل بكل ما تحمله الكلمة من معانٍ. كان واثقًا تمامًا من ذلك. كان يعلم - كما يعلم أن جايل أيضًا تعلم - أنه لا يوجد رجل على ظهر الأرض يستطيع أن يفي بكل احتياجاتها أكثر منه. كان يفهمها إلى آخر

قطرة في دماؤها. وحين ينظر إليها، كان يشعر بالفخر بها، وكذلك بنفسه. وعندما اتجهت إلى حجرة نوم الطفل، كان يشعل سيجارة ثم اتجه ناحية خزانة الملابس في البهو ليتناول معطفه. كان يفخر بنفسه لأنه إنسان عملي. وبالتأكيد أهم الأسس العملية في الزواج هي فقط التبادلية. هو يحكم سيطرته على جايل بذلك القيد الداخلي، وهي نفسها تعلم ذلك.

ناداها: «جايل». أجابت بسرعة وهي تخرج من الغرفة وتتجه إلى الدرج: «إنه أفضل كثيرًا الآن». نظر إليها بالأعلى. كانت في أبهى حالاتها تألقًا في عينيه. كل خط في تفاصيل جسدها النحيل الرشيق كان يروقه. ويكره النساء البدينات، فالبدانة هي عدوه الشخصي. انتظر حتى اقتربت منه. وتصاعدت حرارة المشاعر بينهما. كان يدرك ذلك جيدًا، وكذلك هي أيضًا. وعندما أصبح وجهها في مواجهة وجهه تمامًا، ضمها بقوة بين ذراعيه وقبلها قبلة طويلة عميقة. لم تقل شيئًا، ولكنها ترنحت بين ذراعيه. ثم تركها تذهب بسرعة.

وقال لافتًا نظرها: «أما أنا فلا أعرف امرأة في هذا العالم يمكنها أن تشحذ مشاعر زوجها ليمارس معها الحب بعد الإفطار مباشرة».

وقفت وابتسمت له قائلة ممازحة: «شيء مقزز، أليس كذلك؟».

لم يذهب لأبعد من ذلك معها في المزاح. فقد كانت لديها القدرة على إثارة حنقه من أي شيء، ولكنه قال لها: «عليّ الذهاب إلى المكتب الآن». وطبع قبلة خفيفة على شفتيها ثم انصرف.

ظلت واقفة مكانها للحظة بعد رحيله. كانت قد فقدت الأمل في بيرت بسهولة كافية. كان هناك الكثير من الرجال مثله، لقد اكتسب أهميته عندها ليس لأنه شخص هام، ولكنه لأنه استطاع أن يجعلها تشعر بأن الفتاة جايل بداخلها ما زالت على قيد الحياة، تنتظر بفارغ الصبر بعضاً من المرح القديم! الجموح يرقص في داخل عقلها ويسري في دمائها، كانت تعرف ما الذي يمكن أن يحدث، يمكن أن ينطلق خارجاً ليجعلها تشعر مثل المستذئبين، أو كأنثى الثعلب في إحدى حكايات الجنيات الصينية القديمة، والتي قرأتها ذات مرة في كتاب يجمع العديد من حكايات الجنيات وجدته مع كيت. لقد أيقظها بيرت مجدداً، وسوف تطوف خلال العالم مرة أخرى، في رحلة البحث عن شخص لتلهو معه بعض الوقت، رجل شاب وسيم يقبل بالأناقة أو تتأثر الثوابت التي تركز عليها حياتها، ألا يمس الديناميت تلك الصخرة الراسخة في رقصتهما الماجنة. كانت شابة ورشيقة، خفيفة وجميلة تفيض بالأناقة والعدوبة، وكذلك شريرة وخبيثة. عندما خرجت اليوم، التقط الرجال عبير عطرها الأخاذ، والحلي التي تتزين بها وتمنوا لو أنها التفتت لينظروا إليها. شعرت بالامتنان نحو بيرت، والقليل فقط من الأسف لأجله، وهي تتجه نحو الهاتف وتدير القرص لتطلب منزل والدتها.

قالت مجيبة الخادمة على الجانب الآخر على الهاتف: «السيد هولم من فضلك». وعندما دوى صوت بيرت العجول في أذنيها؛ قالت بسرعة: «بيرت، لن أستطيع تناول الغداء معك اليوم يا عزيزي. فقد نسيت وضربت موعداً اليوم للعب البريدج».

أنصت بابتسامة سعيدة ومنتصرة إلى اعتراضه: «أوه يا جايل!».

كم كان سيصبح مريحًا ولكن بشكل حقير أيضًا، أن تكون في البداية شقيقة زوجته الجميلة، وبعد ذلك فقط امرأة جميلة، أو امرأة بالغة الجمال!

تابعت حديثها: «كلا، لا أستطيع ذلك في الغد أيضًا، دعنا نجعله موعدًا رابعًا منك أنت وكيث، وأنا وهارفي، في ليلة ما من الأسبوع القادم».

ثم أغلقت الخط ووضعت السماعة، مسكينة كيث! راحت تلهو وتعبث في غرفتها المشمسة، وعيناها تتألقان بلونٍ ذهبي كعيني نمر.

أما بيرت، فلدى سماعة تلك النقرة المميزة لإغلاق الخط، وضع سماعة الهاتف بكآبة شديدة. لقد أفسد اليوم بالنسبة له، أصبح فارغًا، تمامًا كم كان من المعتاد أن يحدث عندما كان طفلًا صغيرًا؛ يعده والده بأخذه معه إلى المدينة ثم لا يفعل. أما الغريب حقًا، هو أن تلك الحيوية التي تتميز بها جايل ألقت بالضوء على مدى هدوء كيث الشديد، على الرغم من أن بيرت منذ وقت لا يُذكر مضى، كان يقول بأنه يحب كيث لأنها إنسانة هادئة! من المحتمل أن تكون كيث في المكتبة الآن منهمكة في أحد الكتب. عليه أن يذهب ليعثر عليها. ولكنها سترفع هاتين العينين العميقتين، لتنظر إليه، وكما اعتادت أن تقول: «حسنًا، بالتأكيد سوف أفعل»، إذا ما أراد منها أن تذهب إلى مكان ما أو تفعل شيئًا ما، ولكنه في الحقيقة يعلم جيدًا أنها لا تريد أن تفعل ذلك. لذا كان يفعل ما يريده من تلقاء نفسه، مع شخص ما يريد ما يفعله. أما جايل، فهو

يستطيع أن يراهن أنها على استعداد للعب من أجل أي شيء. فهناك الكثير من الرغبة في اللعب بداخلها.

راح يتجول في المنزل متجهًا ناحية غرفة الطعام، وفتح خزانة أدوات المائدة، فوجد زجاجة خمر فارغة، فقرع الجرس بقوة ولمدة طويلة، وفجأة، ظهر سميدلي بسرعة غير عادية كما لو أنه خرج من صندوق سحري، كان يجاهد معطفه عندما جاء. ثم ظل يحدق في بيرت.

حتى سألته بيرت بخشونة: «بحق الجحيم، ما الذي يجعلك تنظر إليَّ بهذه الطريقة؟». أجابه سميدلي بصدق: «لا شيء يا سيدي، أعتذر عن ذلك، أعتذر بشدة. كل ما في الأمر أنه لا أحد معتاد أن يقرع الجرس طويلًا هكذا سوى السيد تالانت، وأنا أعلم أنه يكون دائمًا في المصرف في مثل هذا الوقت».

قال له بيرت بلهجة آمرة: «أحضر لي بعضًا من ذلك النوع من الخمر الذي كنا نتناوله في الليلة الماضية».

أجابه سميدلي بقلق: «إنها ليست من نوع الزجاجة التي في يدك يا سيدي. لقد كانت من النوع الإسكتلندي».

أجابه بيرت: «حسنًا، أحضر بعضًا منه»، ثم أضاف بعد لحظات من إعادة التفكير، وهو يكشف عن أسنانه: «إسكتلندي أو أيرلندي، لا يهمني ذلك. أستطيع أن أشرب من كليهما».

أجابه سميدلي بوجه جاف: «نعم سيدي».

وانتظر قليلًا حتى أحضر له سميدلي زجاجة ذات علامة ذهبية،

وصب له بعضاً منها في كأس صغير، ثم رفع صوته شاكياً: «لهذا إذن يسمونها بالإسكتلندية، لأنها بخيلة، أليس كذلك؟». أجابه سميدلي بحذر: «إنها قوية للغاية يا سيدي».

قال بيرت: «أعطني كأساً أخرى، وسوف أرى بنفسى، هذا هو شعاري في الحياة. وكان هذا أيضاً ما قلته عندما ذهبت لتسلق ذلك الجبل القديم. ما رأيك يا سميدلي، أتعرف، نوعاً ما... أتمنى لو أنني لم أذهب إلى هناك».

أجابه سميدلي بصوت يخلو من أي تعبير: «نعم يا سيدي».

عاد بيرت يكرر: «نعم أتمنى ذلك، إليك مثلاً، ها أنذا الآن في كامل ملابسي، ولا أجد مكاناً أذهب إليه. لأنى لا أعلم مكاناً أذهب إليه بملابس العشاء هذه، هل تعرف أنت يا سميدلي؟». سعل سميدلي واضعاً يده على فمه. كان يفكر فيما يمكنه أن يفعل إذا ما طلب بيرت كأساً ثالثاً من أفضل أنواع الويسكي المفضلة لدى السيد تالانت. لقد كان أمراً مؤسفاً أن رجلاً شاباً مثل بيرت لم يعد قادراً على الوقوف على قدميه بشكل جيد بعد تناوله إياها. إن السيد تالانت إذن أعجوبة بحق. لا شيء يمكنه أن يزحزحه من فوق قدميه، ولكنه أيضاً كان معتاداً عليها. عاد بيرت يقول: «سميدلي، إذا كنت أنت أنا، وفي مكاني، أفهم؟ وكنت تستعد لأنك خارج في موعد مع امرأة ثم عادت ورفضت، ماذا كنت ستفعل بوقتك هذا كله؟». سعل سميدلي مجدداً. شيء بغاية الصعوبة، رأى سميدلي في قرارة نفسه ذلك، أنه لمن الصعب ألا يحب أي شخص هذا الشاب.

فأجابه: «شيء مؤسف أنه لم يحدث الليلة يا سيدي، ولكن هناك حلبة قتال جيدة جدًا في فيرست أفينيو، في مكان صغير أعرفه».

أجابه بيرت فيما بدا متحمسًا للفكرة: «أحقًا؟ حسنًا، دعنا نذهب معًا أيها الخادم العجوز، ما رأيك؟ لا يوجد لدي رفيق لعين لأذهب إلى أي مكان معه في كل هذه المدينة بأكملها، هل تفهم ما الذي أقصده؟ رجل بمعنى الكلمة».

أجابه سميدلي بتعقل: «أنت تعني رجلًا يمكنك الاعتماد عليه، وكذلك التحدث معه يا سيدي؟». ثم راح يسأل نفسه: «ولم لا؟ ألم يكن يفاخر العديد من أصدقائه بأنه يعرف بيرت هولم؟ رغم كل شيء فإنهم يعيشون في بلد حر. الشيء الوحيد الذي كان يخشاه هو السيدة تالانت، ولكن، ما لا تعلمه؛ لن يضيرها في شيء. عاد يذكر بيرت قائلًا: «ولكن لديك الليلة حفل عشاء ساهر يا سيدي، في الألبين كلوب».

أجابه بيرت وقد تمكن منه الحماس: «سوف أغادر مبكرًا، هيا بنا! فأنا لم أسكر منذ... منذ أن انفصلت عن ذلك الرجل الإنجليزي العجوز!».

يجب عليه أن يتحرر وأن يمضي في الحياة على طريقته الخاصة، بين أناس من نفس نوعيته. غالبًا ما طافت برأسه تلك الفكرة بينما هو جالس إلى المائدة وسميدلي يقوم بخدمته، فقد بدا له الرجل أنه قد يكون رفيقًا جيدًا ذلك الخادم العجوز، كما أنه يعرف طريق كل شيء هنا أيضًا.

أجابه سميدلي بعد لحظات أخرى من التفكير، ولمرات عديدة:

«عظيم جدًا يا سيدي، فقط سوف أقوم بتدوين العنوان». وتناول مفكرة صغيرة وقلمًا وشرع يكتب عليها، ثم انتزع الورقة وناولها لبيرت قائلاً: «إليك يا سيدي، وسوف أوافيك هناك بنفسني في تمام العاشرة إلا الربع، سيدي».

صاح بيرت: «رائع!» ثم راح يربت على ظهره بقوة كادت أن تُسقط الزجاجاة من يده. تحملها سميدلي وهرع مسرعًا. سوف يكون شيئًا رائعًا، أليس كذلك؟ إذا ما استطاع أن يتباهى بصحبته لبيرت هولم. وبرغم كل شيء، فالناس هناك لهم كل الحق في أن يروا بيرت هولم مثل أي شخص آخر. إنها الديموقراطية، أليس كذلك؟

وعوضًا عن ذلك، ظل في الأيام التالية يتعامل مع بيرت رسميًا كما لو أنه أمير ويلز، متجاهلاً بيرت وهو يغمز له بعينه وهو يناوله طبق السلطة على الغداء. عندما كان يتناول طعام الغداء جالسًا بين كيت والسيدة تالانت.

«بيرت!» صاحت كيت بلطف: «أين كنت؟». اعتدلت جالسة في سريرها، مشدوهة، كان واقفًا لدى الباب فيما بين الحجرات يتسم لها. هبت واقفة من فراشها واندفعت ناحيته وهي تهتف به: «لماذا تبدو محمومًا هكذا؟». أجابها موافقًا بشكل مطلق: «بل ممتلئ بالحمى»، نظر إليها طويلًا حالما وصلت إليه. ثم قال لها: «أريد أن أستريح في الفراش قليلًا»، استدار ناحية السرير وألقى بجسده عليه. ثم اعتدل جالسًا فجأة. وقال لها: «ابتعدي عني يا كيت، أريد أن أبقى مريضًا، وحدي».

اندفعت خارجة من الغرفة لتنادي والدتها، ولكنها عندما وصلت إلى البهو وجدت سميدلي واقفاً هناك كأنه ينتظرها.

بادرها بالسؤال: «على ما أظن أنك تنادين السيدة تالانت، أليس كذلك آنستي؟». أجابته ذاهلة: «نعم هو كذلك! ولكن كيف عرفت؟». ألح عليها سميدلي: «لا داعي لذلك آنستي. سوف يكون على ما يرام. كل ما في الأمر أنه... تناول الكثير من... هو شيء غير معتاد بالنسبة له، وسوف يكون على خير ما يرام، في أقرب وقت، أستمحك عذراً آنستي، سوف ينتهي كل شيء».

وفي هذه اللحظة تناهى إلى مسمعهما صوت بيرت يعاني بشدة في غرفة الحمام في حالة إعياء شديد، استأذنها سميدلي بلباقة: «يجدر بي أن أذهب إليه في الداخل آنستي».

بينما عادت هي إلى غرفتها تلتهمها الشكوك. وبعد برهة، لم تسمع فيها سوى الصمت المطبق، اتجهت إلى غرفة بيرت. كان مستلقياً في فراشه كما لو كان نائماً، وسميدلي يقف إلى جوار السرير ينظر إليه. همست وهي تتسلل إلى جواره: «هل هو بخير؟».

أجابها بثقة: «تماماً يا آنستي. كل ما يحتاج إليه الآن هو النوم». ثم سعل بخفة وأضاف: «إنه بحق شاب مفعم بالنشاط، إنها الرغبة التي لا تعرف متى تتوقف عند الحد المناسب».

ظلاً ينظران إليه، وحالما راح في سباته العميق عادت ملامحه الطفولية للظهور مجدداً، أو بالأحرى ملامح طفل رضيع. وتحولت وجنتاه إلى النعومة الشديدة وانتفخت شفتاه وانضمتا إلى بعضهما. إنه

من المستحيل ألا تشعر به صغيراً ومؤثراً. ابتسم لها سميدلي قائلاً: «إنه شاب رائع، وجدير بالحب آنستي». فبرغم كل شيء، إنه يعرفها منذ أن كنت طفلة ترتدي الجوارب الطويلة الملونة والسرّاويل القصيرة. ولكنها لم تُحب، فقط ابتسمت له نفس ابتسامتها نصف الحزينة المعهودة دائماً. حتى الزواج لم يغير منها كثيراً، كان يعتقد أنها ليست مثل جايل، والتي استتبت لها الأمور بشكل رائع. ولكن تبقى كيت جادة كما كانت دائماً، جادة جداً، أعاد على مسمعها كلمته الأخيرة: «كم هو شاب رائع». ثم أضاف: «تصبحين على خير آنستي»، أجابته: «تصبح على خير يا سميدلي، وأشكرك كثيراً». تركها وغادر الغرفة على أطراف أصابعه. ما حدث أنه في تلك الصالة المزدحمة حيث حلبة القتال، كان معلوماً لدى الجميع بالطبع من هو بيرت هولم ما جعل الرجال يُجنّ جنونهم وتشتعل حماسهم. حتى إن أحداً لم يكن يهتم بما يجري في حلبة القتال بسبب وجوده. وراح بيرت يصرخ ويعبث معهم، ويخبرهم بالقصص التي أرادوا سماعها، كان كأنه واحد منهم. حيث حظي هناك بأوقات طيبة لدرجة أنه لم يكن يريد العودة للمنزل على الإطلاق.

أغلق سميدلي باب غرفته الصغيرة الخاصة به في منزل السيد تالانت الكبير.

وهو يحدث نفسه: «إنه لا ينتمي لهذا الوسط، ولا حتى نصف ما قد أنتمي أنا شخصياً إليه، بطريقة ما. ربما كان شيئاً جيداً أن ندعه يتحرر من تلك القيود ولو مرة كل فترة خلسة. وسوف يداوم على الانتظام في حياته من أجل هذا».

ومن هذا المنطلق راح بيرر ما فعله في مغامرة تلك الليلة.

«بالتأكيد ما لا يعلمون عنه شيئاً لن يضيرهم»، ولكنه ظل يفكر في الأمر مرات ومرات، فقط من أجل السيدة تالانت.

انحنت كيت لتضع يدها على جبهة بيرت. وجهه الذي كان متوهجاً ينضج بالاحمرار عندما أتى بالأمس أصبح الآن شاحباً مبتلاً حالماً لمسته بيدها.. على الأقل لم تعد به أي آثار للحمى. ولكنه كان يشعر بالبرودة. سحبت غطاءً ذا لون ذهبي محشواً بزغب العيدر كان بالقرب منه، وراحت تغطيه بلطفٍ خشية أن يستيقظ.

ولكنه كان يغط في نوم عميق، كأن شيئاً لا يستطيع إيقاظه أبداً. لذا، جلست على حافة السرير تنظر إليه. ففي هذا المساء؛ شعرت بحنين جارف إليه لا تدري كنهه. ربما كان ذلك بسبب الموسيقى، كانت قد ذهبت ذات مرة مع والديها لتستمع إلى أوبرا تريستان وأيزولد، حيث جرفتها تلك الأوبرا الشهيرة معها عبر تيارت دافقة من المشاعر. كانت تتمنى لو أن بيرت يسمعها، غير أنها كانت تعلم أيضاً أنه لا يهتم إطلاقاً بشأن الموسيقى. ولكن الأمر أبعد بكثير من مجرد موسيقى في هذا العمل. مَنْ ذا الذي لا يمكنه أن يشعر معها بأن هذه الموسيقى مجرد رمز؟ ظلت منشغلة الفكر به كثيراً بعدما ذهب إلى ذلك العشاء، متألقاً في قمة الوسامة. لقد تعلم كيف يرتدي الملابس المناسبة للمساء والسهرة، وقد بدت مناسبة تماماً له، شأنه في ذلك شأن كل الرجال البيض ذوي القامات الطويلة. ولسوف يستمتع كثيراً بحسن مظهره، حتى إن الرجال أيضاً يعجبون به تقريباً. جلست هادئة مطمئنة بشأنه، وتركت الموسيقى تحملها لعوالم أخرى عميقة، غاية في العمق. فعندما

انتهى ذلك الحفل، عادت للبيت مع والديها، إلى حيث الصمت الذي ينبغي أن يتبع تلك الموسيقى، فقَبَلَت والديها قُبلة قبل النوم ثم صعدت إلى غرفتها بالأعلى.

جال بخاطرها هذه الأيام في شعور يتأكد لديها كل يوم بأن والديها في كثير من الأحيان، يتعاملان معها بعطف زائد عن المعتاد، كان ذلك يشبه إلى حد بعيد عندما كانت طفلة، ويحدث أن تُصاب بمكروه ما، ولكن ليس هناك ما يسوء الآن. في الليلة الماضية، خلعت ملابسها وأخذت حمامًا ثم ذهبت إلى سريرها لتتظر عودة بيرت إلى المنزل. وكان هذا هو كل شيء.

والآن تجلس متكورة عند قدميه، تفكر في الموسيقى التي سمعتها منذ فترة. هؤلاء العاشقون يجدون في بعضهم نهاية ومعنى للحياة. وذلك ما علموك إياه عن الحب طوال سنوات عمرك، وتلك هي النهاية التي يبحث عنها الجميع. عندما تتوقف كل المشكلات، وتأخذ الحياة شكلها إلى الأبد. وتعرف أين مكانك من العالم بعد. ولكن الشيء الغريب أنك أبدًا لم تكن لتعرف ذلك، وهي الآن تعرف أين تكون بأقل مما كانت عليه في السابق.

والذي لا يتحدث عنه أحد، أن المتزوجين يكونون أكثر ارتباطًا وتخطيطًا عن ذي قبل. لأنه ببساطة، مجرد الماضي في حياتهما معًا هي وبيرت بهذا الشكل؛ هو وضع لا فائدة تُرتجى من ورائه على الإطلاق. وهو ليس بأعلم منها بما يجب عليهما فعله، ليس أعلم منها بذلك، لأنه حتى لم يشعر من الأساس بما تحتاجه أو تعانيه. فإذا ما كانا

فقيرين ومضطرين للعمل من أجل الحياة، فسوف تقوم تلك الضرورة بإرشادهما إلى ما يجب عليهما فعله، أما إذا لم تكن هناك تلك الضرورة، فماذا لديهما إذن؟ فالحب ليس نهاية لأي شيء في كينونته، هو مجرد حالة حياتية يمكن حتى أن تكون خالية من أي معنى. لقد أحبها بيرت، ولكن حبه لها لم يمدده بأي دليل حتى لخطواته هو نفسه.

جلست مغلفة بالصمت، تستمع إلى أنفاس بيرت وهو نائم، وتتردد في أذنيها أصداء صوت تريستان.

كانت جايل ترقص مع زوجها وتبادل الأدوار مع كيت، في الحفل المسائي الذي أعدوه من أجلها، وعبر كتفي هارفي كانت تراقب تصرفات بيرت لحظة بلحظة وقد انغمس في الشراب حتى صار ثملاً بكل ما تحمله الكلمة من معنى. والآن، بعد أن منعه هارفي، كانت تنظر إليه لا تملك إلا شيئاً من الفضول الطفيف، كان شيئاً مؤسفاً ألا تتمكن كيت من منعه من الإكثار من شرب الخمر في الوقت المناسب، حيث إنها المرة الثالثة التي يحدث فيها ذلك خلال مدة لا تتجاوز شهراً، كانت المرة الأولى في ويتفيلدز، أما الثانية فكانت في فان دير ميرز. وفي المرتين كانت في قمة الإحراج والارتباك. بيرت لم يكن حتى يتمكن من التحكم في الخمر، فليست لديه معرفة كافية بالشراب.

لقد لاحظت الأثر المحتوم لذلك بادياً بقوة عليه. لم تجعله صاحباً أو ما شابه، ولكن جعلته يأتي أفعالاً صبيانية مستفزة بل ومؤذية، مثل الرغبة في جذب سيدة ما من شعرها، أو حمالة كتفها، أو أن يتظاهر بأنه يجذب زمام السَّحَاب المنزلق لأعلى ولأسفل على ظهورهن. فإذا

ما كانت المرأة ثملة أيضاً؛ فإنها تنفجر في نوبة هستيرية من الضحك بصوت مرتفع. ولكن في غالبية المرات حتى النساء صغيرات السن إذا لم يكن قد أكثرن من الخمر؛ فإنهن يتفادين حركاته تلك بالابتعاد قليلاً أو إزاحته بمرح. وبعد كل هذا، ومهما كان ما يفعله، فإنه يبقى بيرت هولم.

همست في أذن هارفي: «إذا كان هذا يحدث في ملهى ليلي، لما تحرك لي ساكن، ولكن نحن في بيت العائلة، ألا تظن أنه يجدر بك أن تأخذه جانباً وتذهب به إلى أي مكان؟».

كان بيرت يرقص مع ريتا بليكسلي، فتاة تظهر لأول مرة في الوسط الاجتماعي، حديثة التخرج من المدرسة. كانا يعربدان على نحو صاحب لفترة طويلة، مشهد يغري النظر، فكلاهما بلغ حد الجنون، ولكن لم يكن هناك أحد ليمانع كثيراً في أي شيء، ذلك أنها تعمدت أن تدعو عدداً قليلاً إلى حد ما من الشخصيات الأنيقة. ولكن بالطبع فعل بيرت ما لا يستطيع باقي الرجال فعله، لسبب ما أو لتلك القصص التي يتداولها الناس عنه. وبرغم وجود روجر بريم، فقد تم تداول قصة ما في الأسبوع الماضي في إحدى الصحف الشعبية، أنه في إحدى الحفلات قام بصب إناء من الثلج على ظهر مضيفه، وآخر سمع قصصاً غريبة عن ظهوره في أماكن شعبية غريبة في وقت متأخر من الليل وهو في حالة سُكر وعريضة.

وفي صباح اليوم التالي لذلك الحفل قالت كيت: «إنه لا يتذكر شيئاً مما حدث، ولكن عندئذٍ كان الوقت قد فات. فبالطبع استقبل بعض

الناس الخبير بالضحك، ولكن الناس الذين يدركون القيمة والمعنى لم يضحكوا.

وعلى الرغم من سخريتها الدائمة من حزب المحافظين وهو ما كانت تدعوه به (الحارس القديم)، كانت جايل على علم تام بأن سخريتها تلك بمأمن طالما كانت متزوجة بهارفي كرين. امرأة متزوجة، غير مطلقة من قبل، وأم لطفلين قوين يحصلان على أقصى درجات العناية، كما يتمتعان بالمظهر الجميل في الصور الفوتوغرافية، كانت تستطيع أن تحصل على ما شاءت من الحرية فيما تقول. الرجال يفضلون ربة منزل شابة ذات لسان حاد، خاصة إذا ما كانوا يعلمون ألا شيء غير محكم الربط فيها غير لسانها. دائمًا ما يكون هناك شيء حاد في التباين. فعندما تدخل نقاشًا برأي صلب عنيد؛ فإنهم يضحكون بينما هي ببساطة تصنع لنفسها صيتًا ذائعًا بخفة ولطف. إيرينا كافانوف المسكينة، كانت رفيقتها في الحجرة في السنة النهائية بالمدرسة والتي كانت قد تزوجت مرتين، ولكن نظرًا لسوء حظها في كل مرة، فقد حصلت الآن على الطلاق مجددًا، مما اضطرها لأن تكون حريصة متحفظة مثل معلم عجوز في إحدى مدارس الأحد.

سأل هارفي بشيء من الغضب: «أين كيت؟ لماذا لا تنتبه لتصرفاته؟». أجابته جايل: «إنها ترقص مع أحدهم، بالإضافة إلى أن كيت آخر شخص يمكنه أن ينتبه لشيء من تلقاء نفسه حتى يخبره الآخرون بذلك. إنها دائمًا ما تشبه شخصًا في حلم، تلك الفتاة!».

وقبل أن تنهي كلماتها، رأت كيت والتقت عيناهما. أشارت إليها

بإيماءة من رأسها تجاه بيرت، ثم غمغمت: «إنها تراه الآن، مسكينة يا كيت!».

أبصرت كيت الحالة التي عليها بيرت على الفور. وبالطبع لا يجب أن يبدو عليها أنه رأته. ولكن إحساسها المرعب بقلّة الحيلة والعجز والذي كان نابعاً من الحالة الداخلية التي كانت تمر بها أغلب الوقت، هبط عليها مجدداً. ما الذي عليها فعله إذا ما تمكنت تلك العادة من بيرت وحذا حذو العم هنري؟ ولكن الأمر مختلف تماماً. العم هنري كان ماهراً ومحددًا بشأن الخمر، لقد حسم أمره بترؤّ بمنح نفسه مرتين فقط في الشهر لتعاطي الخمر. أما بيرت فلن يكون أبداً محدداً ولا ماهراً في التعامل مع الأمر. لقد انزلق في تيارها، غير مدرك لما يمكن أن يحدث له بسببها. ما الذي يمكن أن يفعله المرء لشخص لا يدرك ما الذي يحدث له؟ أو ما يفعله بنفسه؟

وبمجرد انتهاء الرقصة اتجهت مباشرة عبر الزحام نحو بيرت. كان يقف وحيداً حائراً يطل من النافذة. قالت له في توسل: «هلا أخذتني خارجاً إلى الشرفة؟ فأنا أشعر بدوار خفيف». حذق فيها وقد أخذ الأمر على محمل الجد، ولكن بعينين زائغتين مشوشتين.

سألها: «هل شربت الكثير يا كيت؟».

ابتسمت وعلقت يدها بذراعه لتقوده باتجاه الباب. عندما تأخذه إلى هواء الشتاء البارد النقي، فإنه سوف يدرك ما الذي كان يفعله. فتحت الباب الزجاجي وخطت بقدميها للخارج ومشّت عبر الأرضية الرخامية، وتبعها هو حتى سور الشرفة. وفي الخلف منهما، كانت غرفة

جايل الرائعة المليئة بالزهور والأنوار والدفء. وفي الواجهة، خلفية من إرث هارفي كرين الثمين من الأثاث الذي يرجع لعصر الملكة فيكتوريا، بينما ارتدت جايل عباؤها المسائية العصرية تمامًا، وأطلت بقصة شعر غاية في الأناقة، كما لو كانت فتاة تتخطى عامها التاسع عشر، في رمزية أبدية. كل شيء في منزل جايل كان معدًا جيدًا بحيث يظهر التباين في شخصيتها.

وقفاً معاً جنباً إلى جنب ينظران للأسفل إلى سترال بارك وصفحة السماء المنعكسة على أضواء المدينة. كان الهواء الخفيف محفوفاً بذرات الثلج. في واحدة من ليالي نيويورك منقطعة النظير.

همس بيرت وهو يستعيد وعيه قليلاً بفعل البرودة: «يا إلهي، هناك شيء في هذه الأجواء يجعلني أتذكر قمة الجبل القديم».

سألته: «أوه يا بيرت، ما هو؟».

لم يكن هناك فائدة تُرجى من أن تخبره كم هو سخي أن يستمر في تعاطي الخمر بهذه الطريقة. لقد اقشعر بدنها وهي تفكر في كم الحماسة التي أبدتها في أفعاله وقت أن كان ثملاً. فحتى في تلك المرات التي يضطر فيها أغلب أبناء جيلها من الشباب لشرب الخمر لدرجة السكر وذلك في المناسبات الخاصة التي لا يمكن تجنبها، كانت تكرهها كثيراً، ولكنها أيضاً لم تجد ثمة فائدة من أن توضح له ذلك. بالإضافة إلى أنها تعلم أن جزءاً كبيراً من المشكلة يكمن في أنه ليس لديه ما يفعله، والإحساس بالفراغ يمكنه أن يؤدي إلى ما هو أبعد، ولكن للأسف، في كل مرة كانت تتحدث مع والدتها عن رغبتها في العيش

معه في بيت خاص بهما ورغبتها في البحث عن مكان ملائم يستطيعان العيش فيه بهدوء أكثر مما يحدث الآن في مدينة نيويورك، تجد والدتها تقول لها: «ليس بعد يا حبيبتي، ليس قبل أن يقوم السيد بريم بتنظيم حملته الدعائية على أفضل ما يمكن. وخلال الشتاء الحالي يجب أن تقومي أنتِ وبيرت بتكريس وقتكما فقط من أجل ذلك. فذلك الجزء العام من حياتكما لن يدوم طويلاً، لا شيء يدوم وأنتِ تعلمين ذلك يا عزيزتي. وإذ ذاك، فإنه من الأهمية أن ينتهي هذا الأمر بطريقة لائقة، بل إن هذا بالغ الأهمية لنا جميعاً».

نظر بيرت لأعلى وهو يقول لها: «أظن أنها السماء، إنها قطعة كبيرة من السماء. أو ربما تلك المباني المرتفعة، تبدو كما لو كانت شبيهة ببعض قمم الجبال، أليس كذلك؟». غمغمت في شروذ: «أجل، إنها كذلك»، كان من السهل تخيل قمم الأبراج وناطحات السحاب الشاهقة المحيطة بهما كما لو كانت مرتفعات وكتل صخرية شديدة الانحدار في واحدة من السلاسل الجبلية المنعزلة. فعلى ارتفاع كهذا في الطابق الثلاثين، بدت الأرض غارقة بعيداً وسط الوديان، حيث وقفت منتشية للحظات، تتمنى لو أنها وبيرت يستطيعان الرحيل بعيداً وسط الجبال! قال بيرت فجأةً بصعوبة: «إنه نوع قوي للغاية ذلك الذي تقدمه جايل هنا، أتمنى ألا يتسبب لي في إعياء، فأنا أشعر بشيء من المرح». أعادتها كلماته إليه من بين أفكارها، فسألته بيأس: «لماذا تشرب كميات كبيرة منه هكذا يا بيرت؟».

أجابها وبنفس النبرة اليائسة: «لا أعلم».

وظلا يحدقان معاً فيما حولهما في صمت.
حتى قطعه أخيراً قائلاً ببطء: «بشكل ما أتمنى لو أستطيع الابتعاد
عن هنا، أخرج من هنا تماماً».
أجابته موافقة: «أوه بيرت، بالفعل هو كذلك!».
تابع حديثه: «أتمنى أن أستطيع العودة إلى حيث كنت قبل أن يبدأ
كل هذا».
أجابته كيت: «كم أحب أن أذهب معك يا بيرت».

ولم لا؟ فربما هناك فوق مرتفعات الجبال التي يعشقها، تجد بيرت
الحقيقي الذي أحبته وتزوجت به. ذلك أنها لم تجده منذ البداية في
مكان آخر. لماذا لا يبتعدان عن كل ما حولهما؟ فهناك العالم الرحب
الملء بالحرية حيث لا يشاركهما أحد حياتهما. بدلاً من تلك الحشود
المحيطة بهما هذه الأيام من الناس والحفلات والمقابلات، والكثير
من السهرات والمصورين والمراسلين، على الرغم من أنه عملياً، بدأ
روجر بريم يتولى أمر كل هذه الأمور جميعاً بمنتهى الحكمة والهدوء.
ولم يُقدم أي منهما على فعل شيء في هذا الشأن دون الرجوع إليه،
مروّض الأسود كما أطلقت عليه جايل مازحة. ولكنه كان في حقيقة
الأمر يروّض الجماهير، فقد بدأت كيت تشعر بأنه بجسده الضئيل
وهيئته العملية، استطاع أن يحول بينهما وبين الحشود المتلهفة، وهو
ما لم تنسَهُ له أبداً. فقد كانت هي وبيرت بمأمن طالما استطاع روجر
بريم تجنبهما تلك المواجهات الحرجة. كل دعوة تُوجه إليهما كانت
تخضع إلى تقييمه بعناية قبل تقرير قبولها أو رفضها، ولكنها أيضاً كانت

أشبه بنوع من العبودية. فهو مَنْ يقوم بتنظيم يومهما منذ الإفطار وحتى منتصف الليل، وفي خضم كل مظاهر الرفاهية والترف، عاشا عبيدين لروجر بريم. كلا، ليس لروجر بريم، بل إن حقيقة الأمر هي أنهما عاشا في عبودية للبطل الخارق بيرت هولم. بدأ بيرت هولم، الذي شكّله وأعاد تقديمه للجماهير روجر بريم، في استغلال الإمكانيات الهائلة للبطل الشعبي، والذي أثبت من خلال قيمته الشخصية الأصيلية أنه أكثر من مجرد صورة لحظية. أدركت كيت تلك الصورة من خلال ما تنشره الصحف اليومية، حيث أصبح رجل العائلة الأول، كما أظهر إخلاصًا وتفانيًا رائعًا لزوجته الهادئة الرقيقة الهشة. فلم يظهر أي منهما وحيدًا في أي مكان. ومتى ظهرت صورته بطوله الفارع على صفحات المجلات، بدت هي إلى جواره بوجهها الخجول. وبعيدًا عن كل ذلك، وعندما كانت كيت تمعن النظر جيدًا في صورهما معًا، تظن بكثير من الدهشة أنهما يعيشان في سعادة دائمة معًا.

إلا أنها كنت ترى أن الحل الوحيد لتحقيق لهما السعادة الحقيقية، هو أن يستطيعا العيش بمفردهما، وهو ما لم يحدث أبدًا، ولن يحدث وسط تلك الأجواء المحيطة بهما، والتي لولا وجود السيد روجر بريم في مواجهتها، لابتلعتهما معًا تلك الأمواج البشرية العاتية. فالناس كانوا دائمًا في الجوار، ينتظرونهما على الأبواب حاملين دفاتر الأوتوجرافات، أو حتى قصاصات ورقية صغيرة والأقلام. وكان الغلمان يتسلقون الألواح الجانبية لسيارتهما إذا ما توقفت في إحدى إشارات المرور ليمدوا أيديهم من خلال النوافذ ويتوسلوا إليهما بفضافة: «هيا يا بيرت

أعطنا توقيعاً، إنه لن يكلفك شيئاً، أليس كذلك؟».

ولكن السيد روجر بريم قد حذرهما مراراً من التوقيع بالاسم حتى ولو في قصاصة ورقية، فلا يمكن لأحد أن يعلم ما الذي يمكن كتابته فيما بعد فوق ذلك التوقيع.

لقد أصبح الأمر مرهقاً إلى حد لا يطاق. دار بخلدها وهي تذكر مشفقة تلك الوجوه الكئيبة المضطربة المثيرة للقلق وهي تحيط بهما من كل جانب، أن ما كان في السابق أمراً مسلياً أو حتى شيئاً مؤثراً، قد استحال الآن إلى وقاحة لا يمكن احتمالها، ذلك الانتباه المبالغ فيه لهما من الغرباء، أو حتى من ينتمون إليهم بشكل أو بآخر.

وعندئذٍ، فُوجئت كيت وشعرت بدهشة عارمة إذ وجدت بيرت يبكي على كتفها، صرخت به مشدوهة: «لماذا يا بيرت؟! لمَ كل هذا يا حبيبي؟!» أجابها بيرت بصوت مختنق بالعبرات: «أنتِ تبدين في غاية الحزن؛ لأنني شخص سيئ، أنا أعلم أن أخلاقي رديئة».

هتفت وهي تحيطه بذراعيها: «لا يا بيرت، أنت لست كذلك! فكر في الملايين من الناس الذين يرون أنك شخص رائع!».

أجابها من بين دموعه: «إنهم لا يعلمون شيئاً عني، أنتِ الشخص الوحيد في هذا العالم الذي يعرف كل شيء عني، أو للأسف، يهتم بشأني».

- ولكنني أرى أنك حقاً شخص رائع جداً يا بيرت.

«لا يا كيت، ليس هذا ما تظنينه!» تابع حديثه وهو يحاول الالتصاق

بها بقوة: «أتعلمين لماذا لا يمكنك أن تعتقدي ذلك! لأنك إنسانة طيبة ونقية للغاية، أما أنا فمجرد سكران كره! أنت لا تعلمين بما يكفي كم أنا شخص سيئ يا كيت، أتدريين لماذا، إنني...».

ومع تعالي شهيقه من شدة البكاء، كان على وشك أن يقول شيئاً ضاعت معالمه وتلعثم مرتبكاً، إلى أن سمعا صوت الباب الزجاجي ينفتح، وظهرت جايل في ثوبها القرمزي، نظرت إليهما ثم قالت مازحة: «ماذا تفعلان هنا بحق السماء؟ روميو وجوليت لدينا هنا عند حافة الشرفة؟ أم أنك تحاول أن تلقي بنفسك من هنا يا بيرت؟».

أتاه صوتها كرياح باردة أخرجه تماماً من الحالة الشعورية التي كان عليها، فأجابتها كيت بحرارة: «إن بيرت...، إنه ليس على ما يرام».

قطعت جايل ثلاث خطوات على عجل حتى اقتربت منه أكثر وراحت تحديق في وجهه، ثم ضحكت قائلة: «إنه سكران فقط يا كيت». وعلى كتفها، شعرت كيت بأن جسد بيرت بدأ يرتجف، فدفن وجهه في كتفها، تراه كان يبكي؟ كلا، بل كان يضحك! حتى إنها انتفضت مبتعدة عنه في سرعة كالمصعوقة، بينما رفع وجهه لينظر إلى جايل قائلاً بكلمات متلعثمة: «أنت على حق مرة أخرى، أنا فقط... مجرد... سكران لعين!» ثم انخرط مجدداً في نوبة من الضحك الهستيري اهتز لها جسده بقوة.

وبرغم أن جايل شاركت الضحك، إلا أنها كانت مشفقة عليه بشدة. وفي صباح اليوم التالي، كانت كيت جالسة إلى جوار سرير بيرت، تصب له بعض الماء المثلج من إبريق، كانت جايل في الليلة الماضية

قد قادتهما عبر باب جانبي إلى حيث استقلا المصعد للأسفل عائدين إلى المنزل. ولم يقل سميدلي شيئاً هذه المرة وهو يفتح لهما الباب، فقط قام بمساعدته على الصعود لغرفته بالأعلى.

ثم قام بعدها بتغيير ملابس بيرت وأرقده في فراشه، وقبل أن يغادر سأل كيت: «هل هناك شيء آخر أنستي؟».

أجابته بنبرة حزينة: «كلا، لا شيء البتة، أشكرك يا سميدلي». كانت تثق في أن سميدلي لن يذكر شيئاً من هذا في الصباح.

وفي هذه اللحظة ارتفع رنين الهاتف.

فصاح بيرت متأوهاً: «أوه يا إلهي».

قالت له كيت بتوسل: «فقط ابقَ مستريحاً يا عزيزي». والتقطت سماعة الهاتف. كانت جايل تطمئن عليهما: «كيف حاله الآن؟». أتاها صوت جايل في البداية حاملاً عصارة ما لديها من دفء، إلى أن تبقى منه فقط جوهره الهزيل، ولكنها كانت معتادة على صوتها هكذا في الهاتف. أجابتها: «لقد خلف الخمر صداعاً مخيفاً بالطبع».

أجابتها جايل موافقة: «بكل تأكيد»، ثم ترددت قليلاً، قبل أن تتابع بحيوية: «كيت، لست أدري إن كان يجب عليّ أن أخبركِ بشيء، ولكن بعد أن ذهبتما ليلة أمس، أخبرت ريتا الجميع بأن بيرت عرض عليها أن يهربا معاً».

- أوه، ماذا؟ جايل، كم هذا سخيف!

- بالطبع هو كذلك، ولكن كل ما أمكنني قوله لتبرير موقفه هو بالفعل حقيقة الأمر، وهو أنه كان ثملاً ولا يدري شيئاً عن معنى ما يقوله.

انتظرت أن تقول كيت شيئاً، ولكنها لزمت الصمت فتابعت: «لم يحدث شيء هذه المرة، سوى أن ريتا أكملت سهرتها في ملهى ليلي، وقد هاتفتها هذا الصباح وأخبرتها بالأمر تحدث في هذا الأمر مجدداً، فكانت لوجه الحق شديدة التهذيب، عليّ أن أقر بذلك، وقالت إنها أيضاً كانت نصف ثملة ولا يمكنها حتى تذكر ما قاله لها. ولكنها أيضاً قالت بأن بيرت قال لها ذلك بالفعل، ولكنني أوضحت لها الأمر بأن عليها أن تتفهم أنه حتى الرجال العظماء يحتاجون أحياناً إلى التحرر من القيود العامة». ثم أطلقت ضحكة مرحة عبر الهاتف، وأنصت قليلاً فلم تتلق أي جواب من كيت فسألتها: «كيت عزيزتي، هل ما زلتِ هناك؟». أجابتها كيت: «نعم، أنا أسمعك».

- كيت، لا تتحدثي هكذا كمن في حداد! إنه ليس خطأه غالباً، فقط لا أحد يستطيع أن يتحمل ما يحدث له.
- أشكرك يا جايل.

ثم وضعت سماعة الهاتف، واستدارت ناحية بيرت، كان راقداً بوجه متغضن وسط الوسائد الخاصة به، وعينيه مغلقتين.
فسألته: «بيرت، ماذا قلت ليلة أمس لريتا بليكسلي؟». غمغم مندهشاً: «ريتا بليكسلي؟ أنا لم أسمع بهذا الاسم من قبل». عادت تقول: «ولكن يا بيرت...»، قبل أن يتعالى صوت طرقات هادئة على باب الغرفة، فقالت بصوت مرتفع: «ادخل». كانت سارة، الخادمة المسنة. دخلت إلى الحجرة قائلة: «إنه السيد

بريم آنستي. من فضلك آنستي، إنه يقول إن الأمر عاجل».

أجابتها بهدوء: «سوف أوافيه بالأسفل في الحال».

نهضت من مكانها واتجهت لغرفة الحمام حتى وجدت حقيبة الثلج وملأتها بمكعبات صغيرة من الثلج من إناء كان موجودًا على المنضدة كان سميدلي قد أحضره منذ لحظات دون أن يبدي سببًا لذلك. ثم وضعت حقيبة الثلج على رأس بيرت المرتفعة حرارته، وأسدلت الستائر في وجه ذلك الصباح المتألق ببريق أشعة الشمس، ثم توجهت للأسفل لتلتقي بالسيد بريم.

وبمجرد أن دخلت إلى غرفة المكتبة، أحست بأن هناك ما يسوء. حيث كان والدها ووالدتها أيضًا هناك، لا بد أنه شيء مريع ذلك الذي يجعل والدها يتخلف عن مواعيد المعتاد في وول ستريت ويتواجد في المنزل في هذه الساعة. جلسوا جميعًا في تلك القاعة المعمّمة، يبدو كما لو كانوا جزءًا من ذلك الظلام. ثلاثة من المسنين يتخذون قرارات بشأن بيرت على حد علمها، دخلت الحجرة في شيء من الخجل ثم ألقت بالتحية: «طاب صباحك يا سيد بريم»، بدا صوتها غير مسموع حتى إنها سعلت متعمدة لتبرر ذلك.

أجابها بجدية: «طاب صباحك». أعتذر عن الاتصال بك لطلب المقابلة بشأن العمل في وقت مبكر كهذا، ولكن يؤسفني أن هناك بعض الدعاية السيئة حدثت هذا الصباح، ويؤسفني أن أقول إنها في الصحف الهامة التي هي في متناول يدنا وتحت سيطرتنا، ولكن في ركن القيل والقال المسؤولة عنه امرأة. معلوم عنها بالطبع أنها خبيثة

ماكرة وما إلى ذلك، ولكن العمود الخاص بها يحظى باهتمام القراء لأنه من المفترض أنه خفيف الظل. وأي شيء يجعل الناس تسخر من بيرت هولم الآن هو أمر مؤسف للغاية، لقد ظهرت مؤخرًا العديد من القصص المشابهة من جهات غير متوقعة، ويمكنني القول بأن تصريحاته بشأن تحديد النسل يوم الثلاثاء الماضي كانت مؤسفة أيضًا، كثير من الناس لديهم انحياز قوي في هذا الموضوع. ومن الحكمة دائمًا من أي شخصية عامة أن تتجنب إصدار بيان محدد حول مسألة مثيرة للجدل المجتمعي».

أوقفت كيت سيل الكلمات المتدفق من السيد بريم قائلة: «بيرت لا يعنيه شيء في موضوع تحديد النسل»، كانت كيت قد سألت بيرت يوم الثلاثاء الماضي عما نشر في إحدى الصحف: «بيرت، هل قلت أنك تؤمن بأن الحكومة مضطرة لأن تؤكد على أهمية تحديد النسل بين الطبقات الفقيرة؟».

احمرت وجنتا بيرت وبدا مرتبكًا وهو يقول: «يا للجهيم، لا، فقط بعض النساء أو أخريات ظللن يضايقنني بخصوص ذلك الليلة السابقة لذلك العشاء، فقلت بأنني أظن أن الحكومة على حق في هذا الشأن». انطلق السيد بريم بسرعة: «إذن، إنه لشيء مؤسف أنه قال ذلك». وتحول وجهه الوقور الشاحب إلى درجة غريبة من الاحمرار.

تدخلت والدتها في الحديث بسرعة قائلة: «عزيزتي، السيد بريم يرى أنه ينبغي علينا أن ندبر أمرًا ما من أجل بيرت، ربما رحلة استكشافية أو ما شابه، فقط لكي نخرجه من بؤرة التركيز الشعبي حاليًا لفترة».

عاد السيد بريم يتدخل بملاحظة أيضًا قائلاً: «أو بالأحرى، لو تسمحين لي بالتوضيح سيدة تالانت، لكي نعيده مجدداً إلى بؤرة الأحداث ولكن بالصورة اللائقة، ربما تهتمين سيدة هولم بالقليل من التفاصيل في الدراسات التي قمت بإجرائها على بعض الشخصيات العامة في السنوات الأخيرة، بالرسوم البيانية المبينة لصعود وهبوط درجات شعبيتهم».

ثم تناول حقبة جلدية كانت بجواره على الأرض، وأخرج منها بعض الصور الضوئية والمنشورات والكتيبات، وألقى عليهم نظرة فاحصة سريعة، ثم تابع: «لقد تناولت في هذه الدراسات عدداً من الشخصيات. دعيني أرى... حسناً، دعيني أرى، ربما... ها هو ذا أحدهم، على الرغم من أن أي شخص تقريباً قد أختاره من بين مائة شخص قد يكون لديه نفس الشيء. في هذه الحالة كما هو الحال في السيد هولم، تبدأ الشعبية عند نقطة عالية مباشرة بعد فعل فردي مثير يلهب خيال الجمهور المتعطش، يرتفع بسرعة حتى مرحلة الاحتفاء الشعبي العام. بعد ذلك يحدث انخفاض طفيف لكنه طبيعي؛ لأن الجمهور قد أسرف وطفى على نفسه إلى حد ما في التعبير عن مشاعره. إنهم يخجلون من دفئهم، إذا جاز التعبير، كما أن رؤية بطلهم المفضل يؤدي إلى إشباع فضولهم نحوه، ومع ذلك، هناك ارتفاع طفيف مرة أخرى، أو ارتفاع مستمر لفترة قصيرة من الوقت، حيث تتاح لهم خلالها الفرصة للاستماع إلى بطلهم وهو يلقي خطاباً علنية بينما تراه جماهير جديدة من مسافة قريبة وفي أماكن مختلفة. وعندما يشعر هذا الجمهور

الثانوي بالرضى والإشباع يكون هناك انخفاض سريع في الاهتمام، ما لم يقدم مشهد من نوع ما نفسه مرة أخرى، ومن المرجح أن يتراجع تمامًا بينما يبدأ الجمهور في البحث عن هدف جديد لتقديسه وتمجيده».

تناولت كيت الكتيب الذي كان بين يدي السيد بريم، والذي كان يحوي السيرة الذاتية موضحة بالرسوم البيانية لـ تشارلي بيجي، تذكرت ذلك الاسم، عندما كانت في المدرسة الداخلية كانت الفتيات يقمن بقص صوره من الصحف والمجلات، كما رأته إحدى الفتيات الأكبر سنا بعينيهما. وظللن يرددن على مسمعهما السؤال نفسه مرات ومرات، «كيف كان شكله يا سالي؟».

فكانت سالي تسرح بخيالها كمن يحلم: «إنه ليس طويلًا جدًا، ولكنه ذو بشرة داكنة، كما أن عيناه يمكنهما أن يسببا ارتباكًا شديدًا».

وجهت حديثها للسيد بريم متسائلة: «وما الذي انتهى إليه تشارلي بيجي؟». لم تكن قد سمعت اسمه أو فكرت فيه لسنوات عديدة.

أجابها السيد بريم بلطف: «إنه ما زال على قيد الحياة، مثال حزين يا سيدة هولم لما أود أن أقوله؛ لأنه لم يستطع أن يواجه شعبيته ويحسن إدارتها، حين بدأ يشعر باضطراب بأهميته الفردية، كما بدأ يتوقع ثباتًا في معدل الانتباه إليه والاهتمام لأمره، مما أدى به إلى ما يمكن تسميته بالازدراء الشعبي». سعل السيد بريم واضعًا يده على فمه. ثم تابع: «في الحقيقة إنني حتى أتذكر أيضًا أن آخر لقاء لنا كان محزنًا للغاية، ذلك أنني أشرت إلى أنه رغم كل شيء، فإنه قد صنع إنجازًا فرديًا نبيلًا، وأتعشم يا سيدة هولم لو أنك تتذكرين أنه أنقذ حياة جمهور حفل الماتيني بكامله

عندما كان يقوم بإحياء حفل منوعات، دعيني أراجع شيئاً... حسناً، كان ذلك منذ خمسة عشر عاماً، حين اندلع حريق في المسرح، وساعتها اندفع هو إلى مقدمة خشبة المسرح، وظل يغني ويرقص حتى استطاع تهدئة الجماهير ودعمهم. وامتلأت صفحات الجرائد والمجلات بالمواد المكتوبة والمصورة، كما تسلم عن ذلك العمل العديد من الميداليات. وقد قمت بتولي شؤونه وقتذاك، شخصيته كانت ضعيفة يا سيدة تالانت، لم يكن قادراً على الاستفادة من نفسه جيداً، وانقلبت كل المداهنات والنفاق وبالأعلى رأسه، وبنفس السرعة نسيه الناس، بالمعنى الدقيق للكلمة».

ظلت كيت تحرق في الصورة التي بين يديها، كان وجهها ضعيفاً، يتمتع بقدر غير متواضع من الجمال بالنسبة لرجل، وبكل تأكيد كانت عيناه بريئتين أو حتى حائرتين، وهنا، قالت السيدة تالانت فجأة: «ريتشموند بيرسن هوبسون»، كانت جالسة تنظر بتأمل إلى السيد بريم، الذي غمغم كمن يتذكر شيئاً: «حسناً، ها هو مثال آخر».

تابعت السيدة تالانت: «أتذكر ذلك عندما كنت في الثانية عشرة من العمر، وقد أخذتني والدتي معها إلى اجتماع، كنت واثقة من أن كل سيدة في القاعة باستثناء والدتي قد قبلته، وعندما رأيته؛ انحنى للجميع، ثم قبلني وقال: 'معنا هنا فتاة صغيرة رقيقة'. أتذكر أنني شعرت كأنه يفوح بعطر الليلك، ولكن ربما كانت فقط كل النساء تشعر كذلك». قال السيد بريم: «لقد كان بطلاً من هافانا، هو من أغرق السفينة التي أغلقت المرفأ في مقدمة سفن العدو».

قالت كيت: «أنا لم أسمع به من قبل».

أجابها السيد بريم موضحًا بلطف: «لقد كان ذلك موعلاً في القدم بالنسبة إليك».

تساءلت: «إذن فلم تكن به حاجة إلى الدوام طويلاً؟».

أجابها السيد بريم وهو يحني رأسه نحوها: «إنه من صميم عملي أن أساعد في جعله يدوم».

أجابت كيت: «سنكون في غاية السرور، بيرت وأنا، إذا تفادينا المزيد من الانتباه والاهتمام الشعبي في الفترة المقبلة».

سعل السيد بريم مجددًا، ثم قال بلهجة جافة: «للأسف، فما زالت هناك مرحلة أخرى من ذلك الاهتمام الشعبي، ولكنها لا تتسم فقط بالانخفاض، بل تتخذ شكلًا من أشكال رد الفعل العكسي. ذلك أنه بالتناسب مع كم المداهنة المبالغ فيها تجاه أحد الأفراد، فإن ردود الأفعال تبدأ في هذه المرحلة، مع شعور عام من الجماهير بعدم الرضى بسبب إحساسهم بالتجاهل من الشخص الذي ظلوا يمجّدونه حتى ذلك الوقت، وعندما تبدأ هذه المرحلة، لا شيء ممكن أن يكون مرضيًا للجماهير، وهذا كله فضلًا عن إمكانية لجوئهم إلى التشويه والخط من قدر الشيء الذي طالما عملوا على تمجيده ومنحوه الحب والاهتمام. وهنا، فإن الهفوات الصغيرة وغير الملاحظة في خضم مكونات وعناصر الشخصية أو حتى تلك التي تكون ببساطة مثار سخرية سوف تتحمل النسبة الأكبر، أما العادات الشخصية والسلوكيات الفردية أو التعبير الحر فسوف تكون محل استياء. وعند هذه النقطة، سيكون من

المستحيل تجنب أو الهروب من الملاحظات العامة والتي في مجملها تكون من النوع غير المرغوب فيه، وعندها يكون المخرج الوحيد من موقف كهذا إما بالانسحاب والاعتماد على الأمل في ظهور هدف جديد يستحوذ على حب العامة ويجعلها تنسى، أو أن يقوم بعمل فذ وبطولي والذي من شأنه أن يعيده إلى دائرة الاهتمام الشعبي مجدداً».

هتفت كيت: «ولكن بيرت لم يرتكب أفعالاً يمكن اعتبارها مشينة!».

هنا، في منزل والديها حيث تشعر على الأقل بالأمان والحماية، كانا يبدآن اقتحام حياتها، حتى السيد بريم لم يكن يستطيع منعهما من ذلك، ذات مرة عندما كانتا هي وجايل طفلتين، خرجا في نزهة إلى كوني آيلاند، بعد أن توسلتا من أجل ذلك، أقلهما السائق إلى هناك، كما ذهبت معهما المربية برغم اعتراضها على الأمر برمتها، ركبتا على ظهور كل الحيوانات، واستمعنا بكل شيء هناك، وظلت جايل تضحك وتضحك، ولكن كل ما تتذكره كيت عن تلك الرحلة؛ هو الزحام، واحتشاد الناس من حولهما تفوح منهم رائحة العرق ليحدقوا فيهما وهم يأكلون ويصرخون. هكذا كان الناس!

قالت كيت بصوت مرتفع: «أنا لا أعتقد أنهم يعاؤون بالأشياء الصغيرة، أي شخص تقريباً يشرب الخمر بغزارة الآن، معذرة يا أمي لست أقصد من هم مثلك أنت وأبي بالطبع، ولكن الكثير من الناس يفعلون، ولا أحد يشغل تفكيره ليعتقد شيئاً من وراء ذلك».

أجابها السيد بريم: «هذا صحيح تماماً».

لاحظت أنهم يتبادلون النظرات، فتصاعدت رائحة الغموض إلى أنفها كعطر فواح، مما أثار شكوكها في أنه هناك أمر ما لا تعرف عنه شيئاً.

أجابتها والدتها موافقة: «الأمر لا يقتصر فقط على شرب الخمر، فبرغم كل شيء، كان العم هاري سكيراً شرهاً وكلنا يعلم هذا، ولكن لم يجرؤ أحد على التفكير فيه بسوء؛ لأنه كان رجلاً نبيلًا حتى عندما يكون مخموراً».

قالت كيت مدافعة: «ولكن بيرت ليس معتاداً عليها»، ثم نقلت عينها بين وجوههم الثلاثة المرتسمة عليها أشد علامات الجدية. ثم تابعت: «وسوف يتحسن، فهو الآن يختلف كثيراً عما كان عليه في بادئ الأمر، لقد أصبح عاقلاً وهادئاً أغلب الوقت، وقد مر وقت طويل قبل أن يتحدث الناس عنه ويقولون كم أنه قد أصبح وقوراً، وكم يجيد التعلم والنجاح في حياته الجديدة».

أجابها السيد بريم بنبرة مظلمة: «إذا كان هذا ما قيل عنه منذ شهور مضت؛ فهذا سبب كافٍ يوضح لماذا لا يستطيع أحد أن يقول ذلك الآن، فترة الانقلاب والتحول قد بدأت، وأي حادث بسيط الآن يمكنه أن يتحول إلى فضيحة».

لم ينطق السيد تالانت بكلمة واحدة. بل جلس يحرق في أرجاء الحجرة وخارج النافذة حيث الهواء وشمس الصباح، ولم يشترك في الحديث.

أكملت والدتها ما كانت تقول: «بالإضافة إلى ذلك يا كيت، فإن

الأمر برمته في غاية الأهمية بالنسبة لعائلتنا، فوالدك رجل ذو مقام رفيع على المستوى الاجتماعي، ويعنيه بشدة أن يحافظ على ذلك ويصونه، وماذا عن تلك القروض الدولية الجديدة بينما الوضع المصرفي بأكمله في حالة من عدم اليقين، الناس ينظرون إليه، ولا يليق بصهره أن... أن... على كل حال نحن نعيش الآن في عهد حزب المحافظين، حيث الحكومة الراديكالية المتطرفة، وهذا ما يقوله الجميع».

وهنا قال السيد تالانت فجأة: «الولد ليس لديه أي شيء ليفعله، سوى ارتكاب الحماقات».

ارتجفت شفتا كيت، حيث شعرت بأنهم جميعًا يقسون على بيرت، وربما يلقون باللائمة عليها لأنها لا تستطيع السيطرة عليه كما ينبغي. كيف لها أن تستطيع توضيح الأمر لهم بأن بيرت شخص متقلب وصعب المزاج تمامًا كطفل، كيف لها أن تخبرهم بأنها هي نفسها لا تستطيع أن تتوقع ما بين ساعة وأخرى ما الذي يمكنه أن يفعله، وأنه ليس لديه أي اهتمامات شخصية تخصه ولم يقرأ كتابًا واحدًا في حياته، وأنها لا تعرف حتى الآن كيف تثير اهتمامه أو توجهه ناحية أي شيء؟ وأنه يملك من النشاط الجسدي مثلما لدى أسد في حديقة الحيوان.

نظر السيد تالانت إلى كيت، ثم نهض من مكانه بنفاذ صبر وألقى بنظرة عاصفة على السيدة تالانت والسيد بريم قائلاً: «أوه، يا للجحيم، أنا لا أجد فائدة من كل هذا، ونحن نتعامل مع أمر في متنتهى الخطورة». أجابته السيدة تالانت في حدة: «روبرت، ليس الأمر بمثل هذه الخطورة».

انضم إليها السيد بريم مؤيداً: «أتفق معك في هذا الشأن، ولكن في حالة ما إذا كانت عائلتكم مجرد اسم عادي، سيد تالانت، كان بإمكاننا أن نسمح لبيرت بأن يتخذ مساره الطبيعي، ثم يختفي مثل أي بطل شعبي آخر ظهر ثم اختفى، ولكن اسم عائلة تالانت معروف جيداً في جميع الأوساط، وإنه من شأن عائلة تالانت أن تحافظ على اسم وصورة بيرت هولم أكثر مما قد يعني بيرت هولم نفسه. فإذا ما عرضت كل الحقائق على الملأ، فإن أفراد عائلة تالانت هم من سيظهرون في صورة الـ... المخدوعين».

كانوا يتبادلون النظر إلى بعضهم كما لو أنها ليست بينهم. بينما هي تنتقل ببصرها من واحد للآخر، وهي تحاول أن تستشف ما هو ذلك الأمر الذي يتقاذفونه بينهم بينما يحجبونه عنها.

حتى قالت: «إنكم تخفون شيئاً عني، أبي، أمي، هناك شيء تعرفونه ولا أعلم بشأنه، لماذا يقول عنا الـ... المخدوعون؟».

قال السيد بريم متداركاً الأمر بسرعة: «أعتقد أن المخدوعين كلمة قاسية بأكثر مما يجب». أدرك أنه ربما ذهب لأبعد مما ينبغي مع عميل قيم، ولكنه كان رجلاً أميناً، وفي الحقيقة، كان يعتبر عدم الشفافية شيئاً مشيناً بالنسبة إليه على المستوى المهني. علاوة على أنه قد بدأت تساوره الشكوك بشأن الحكمة من إخفاء الأمر عن تلك المرأة الرقيقة سوداء العينين. فبرغم كل شيء، فإنها تبقى الإنسان الوحيد القادر على التعامل مع بيرت هولم. وكل شيء يعتمد على حسن إدارتها للأمر في المقام الأول.

قال السيد تالانت: «أنا شخصيًا، أعتقد أنه يجب علينا أن نُخرج الأمر بكامله إلى العلن، ونهزم الجماهير مباشرة في لعبتهم. فإذا ما بينا لهم أننا نعرف كل شيء، فلن يمكنهم توجيه اللوم لنا». همست السيدة تالانت: «ولكن، هل نعرف بالفعل كل شيء؟». هتفت كيت: «أمي، ماذا تقصدين؟».

نظر السيد تالانت في ساعة يده، ثم قال: «عليّ أن أذهب، المدراء بانتظاري، وقد أجلت موعدهم بالفعل لنصف ساعة كاملة، وقد وعدت السيد الرئيس بالانتهاء من التقرير وإرساله إلى واشنطنون قبل ظهر اليوم، عليك تسوية هذا الأمر بنفسك يا عزيزتي، ولكن، نصيحتي لك أن تصطحبي كيت إلى غرفتك وتخبريها بكل شيء لكي تدرك جيدًا ما الذي تواجهه، إنها زوجته، ولم تعد طفلة. سيد بريم، سوف نعاود الاتصال بك لاحقًا، ولكنني أعتقد أن فكرة الرحلة الاستكشافية جيدة تمامًا، ولن تكون هناك أي مشكلة في تمويلها، أنا واثق من ذلك».

أجابه السيد بريم وهو يجمع أوراقه: «أتمنى ذلك. ولكن يجب أن تكون على استعداد سيد تالانت لتكتشف أن الأموال التي تم رصدها عن طيب خاطر منذ شهور قليلة مضت، لن تكون هناك الآن، هذه هي الجماهير». أجابه السيد تالانت بسرعة: «اللعنة على الجماهير!» انحنى ليُقبّل زوجته على وجنتيها ومن بعدها كيت، ثم اتجه ناحية الباب.

أما السيد بريم فقد نهض ليتبع السيد تالانت وهو يقول لكيت مؤكدًا: «أعتقد أن الأمر لك الآن. إلى اللقاء سيدتي، سيدة هولم رهن إشارتك دائمًا». انحنى لتحيتهما ثم تبع السيد تالانت خارجًا إلى البهو.

تارگًا السيدة تالانت والتي قالت على الفور لابنتها: «دعينا نذهب
لغرفة الجلوس الخاصة بي يا طفلي، حيث يمكننا أن نتحدث معًا بلا
إزعاج». بينما كانت تعني بذلك «حيث لا يمكن أن يدخل بيرت». ثم
أحاطت كيت بذراعها وهي تشعر بأن دعمها القوي لـ كيت ما زال قائمًا
بداخلها. بينما فكرت كيت بأنه لا بد أن هناك شيئًا أسوأ من السكر
والعردة؛ لأنها كانت تشعر بالرغبة القوية لدى والدتها في السيطرة
على أعصابها والاحتفاظ بهدوئها. جف حلقها من شدة التوتر وبدأت
ضربات قلبها في التسارع بقوة وغلظة. أجابت في هدوء: «حسنًا يا
أمي».

كان الوقت قد اقترب من الظهيرة عندما خرجت من غرفة والدتها.
كان يجب عليها أن تذهب لرؤية بيرت والاطمئنان عليه، ولكن الوقت لم
يحن بعد على الإطلاق. يجب عليها أن تبقى وحيدة للحظات لتستطيع
تدبر الأمر وكيفية تناولها له، وما الذي عليها قوله في هذا الشأن. لو أنها
كانت مثل جايل لكان ذلك أفضل كثيرًا لها؛ لأنه عندئذٍ ستمكن من أن
تغلق قلبها، وتقسي لهجتها وعينيها، ثم تذهب إليه بخفة وهي تضحك
ضحكة واثقة لتسأله: «لماذا لم تخبرني عن ذلك أيها السخيف؟
اضطرت أمي لأن تتولى ذلك بنفسها»، لقد كان الأمر مؤسفًا كما لو أنها
تعترف بأنها هي من فعل ذلك. لو أنها كانت مثل جايل لاستطاعت أن
تتحدث إلى بيرت بهذه الطريقة، أما عن نفسها فقد استطاعت أن تقول،
بصوت جايل الحاد البراق: «يا لها من ضجة بشأن لا شيء! كما لو أنه
ليس كل الناس لديهم أمور سخيفة لإخفائها!» هناك الكثير من النساء

لا يجدر إخبارهن عما فعله أزواجهن قبل لقائهن بهم. ففي المدرسة اعتادت الفتيات الحديث عن ذلك، وكان الرأي السائد بينهن أنهن لا يفضلن معرفة أي شيء عن ذلك؛ لأنه برغم كل شيء فكل رجل لديه تجاربه، ولم لا؟ إن ذلك يجعلهم أكثر إثارة.

جلست على حافة مقعدها المواجه للنافذة، وألقت بنظر بعيدة على النهر الشرقي. كلا، ولكن بيرت كان شابًا قرويًا حيث نشأ في أبسط الأوساط وبأبسط الطرق، وما حدث له في هذا الشأن كان لا بد أن يمثل شيئًا هامًا بالنسبة إليه، بل في غاية الأهمية، الأمر الذي يجعل لديه رغبة قوية في إخفائه عنها.

ولكنها سمعت في أعماق نفسها صوت قلبها يتساءل بنوع من الألم غير المألوف: «ولماذا لم يخبرني بذلك؟».

كما أن والدته لم تخبرها أيضًا أو حتى تذكر لها شيئًا عنه، لم تكن هناك حتى أي علامة، وتراءى لها ما تعرضت له من خداع فجأة بشكل لا يُطاق ولا يُعقل. وعندئذٍ، تذكرت نظرة السيد هولم الغريبة لها عندما أخبرها في ذلك اليوم حين مرت به وهو يقوم بتقليم بعض الأشجار، شيئًا عن أن بيرت من أنه قد كان مخادعًا ذات مرة. إذن فهذا هو سبب إخفائه الأمر عنها، يا له من فتى مسكين، بدأت ترى الحقيقة في ومضات خاطفة، إنه لم يشأ أن تظن الناس أنه أحمق. إنه الخوف الساذج من الحمقى في المجتمعات القروية، هكذا اعتقدت في حكم مفاجئ قاسٍ عليه، لقد لقنه والداه ذلك مخافة أن يبدو أحمقَ جاهلاً.

شعرت بأنها لم تكن لتستطيع التنفس إذا لم تعرف حقيقة الأمر

كاملة، وأن تصفو الأجواء مجدداً من الأشياء الخفية، كانت منذ برهة قد سألت والدتها سؤالاً مباشراً: «لماذا نهتم هكذا لهذا الأمر؟ لماذا لا نعلنه بأنفسنا؟».

وأجابتها والدتها بسرعة، «أوه كلا يا كيت، إنه شيء غير معقول، لقد أعلن من قبل أن ذلك لم يحدث، ونقول نحن الآن إنه حدث، فستذهب الصحف لتكتشف المرأة والتفاصيل الكاملة، سوف يكون ذلك مريعاً بالنسبة لنا».

لم تجب والدتها؛ لأنها فكرت فجأة في الناس التي صدقته وآمنت به، الملايين من الناس، ونحت نفسها جانباً، فهي لم تتناول الأمر على الإطلاق بشكل هستيري أو عاطفي، فقط حزينه ومرتبكة بقدر ليس بالقليل وهي تفكر بالطريقة التي ستخبر بها بيرت بما تعلمه الآن، إنها مهمة خاصة بـ كيت وحدها لتدبر أمرها، هكذا رأت والدتها، واستمرت لتقول لها بأنه لكي يتحول مجرد خطأ في مرحلة الشباب إلى قصة قبيحة والتي قد تفتح الباب على العائلة بأكملها لتعرض للمغالاة، أو حتى للابتزاز. لم يكن أحد يعلم أي نوع من النساء كانت لي لي روز، وما إذا كانت تنوي أن تطالب بشيء ما أم لا. فحتى الآن هي لم تفعل، ومن المحتمل ألا تفعل طالما بقي الأمر في الحدود الآمنة بعيداً عن الإثارة والفتن. حتى إذا ما ظهرت، فإنهم سيخبرونها بهدوء بأنهم على علم تام بكل شيء عن القصة كاملة، وأن ما تفعله لا معنى له. ولكن ربما قالت أنها تنوي إثارة الأمر على صفحات الجرائد، وهو ما أراد السيد بريم حمايتهم منه بأن يظل حريصاً على مكانة بيرت العامة. لكل ذلك،

استمعت كيت بانتباه وصمت شديدين.

فقط قالت لوالدتها: «يمكننا ببساطة الرحيل أنا وبيرت، إذا ما أسسنا منزلًا في مكان ما بعيدًا عن أي شخص، في مكان هادئ مثل... مثل جلين باري».

نظرت إليها والدتها بدهشة، وبعد لحظة أخبرتها بشأن الخادمة. شعرت وقتها بانهايار جزئي لحظي، إلى أن عادت والدتها عطوفة تجاهها مجددًا، ثم قالت محاولة تهدئة انفعالها: «الرجال تراودهم عادة تلك النوبات الغريبة»، وعندئذ عاودت البقع الحمراء الظهور على عنقها، ثم تابعت: «أنا لم أذع سرًا لأحد من قبل يا كيت، ولست بصدد ذلك الآن، باستثناء أنني أحاول مساعدتك على الفهم، ولكن... والدك...»، وبدأت تروي لها قصة الممثلة الفرنسية التي حدثت في باريس منذ سنين مضت، حتى إن كيت أرادت أن تبكي وتضحك في آن واحد؛ لأن الأمر كان مضحكًا وعتيقًا، كأنه أحد أعمال هنري جايمس، ولكنها فقط استطاعت أن تتفهم كيف فكرت والدتها في الأمر بأنه بالضبط مثل ما حدث مع الخادمة في جلين باري.

وأنهت والدتها حديثها بحكمة قائلة: «حاولي ألا تأخذي الأمر على عاتقك»، حيث استعاد صوتها نبرته الحيوية المفعمة بالطاقة مجددًا. وتابعت: «لِمَ لا تتحدثين مع جايل في هذا الشأن يا عزيزتي؟ فلديها نوعًا ما نظرة شاملة عاقلة كما أعتقد، خاصة حول الرجال. وبرغم كل شيء، ليس الزواج والطلاق هو الذي يؤدي إلى أي مشكلة، إنه فقط الموقف السخيف الذي ساقنا جميعًا إليه».

لم تجب كيت على هذا الجزء. كانت تشعر بألم في صدرها لأن بيرت لم يخبرها، ولا حتى عندما كانا معًا بمفردهما، عندما كانت تحاول أن تجده، لذلك، قالت لنفسها، ما جدوى الحديث مع جايل؟ إنها ليست جايل، ولن تستطيع أن تكون مثلها. تنهدت الآن، وخرجت من أعماقها زفرة مرتجفة. وفي المبنى التالي لمنزلهم، كان هناك رجل يزحف خارج النافذة، لقد كان المسؤول عن تنظيف النوافذ، وهو يضبط حزام الأمان الغليظ بعناية ثم بدأ العمل، كانت تراه دون أن تفكر بشأنه. إذا لم تكن تستطيع أن تفكر وتشعر مثل جايل، فما فائدة الحديث معها إذن؟ يمكن لعقلها هي أن يخبرها كل ما يمكن أن تقوله جايل، نفس الأشياء بنظرة عاقلة شمولية نافذة، وحتى ما قد يمليه الحس العام على أي شخص ليقول نفس الكلمات، وشعرت بأن الأشياء قد تجردت من كل المثالية والرومانسية والطبيعة الحاملة. ولكن لماذا كان من المفيد دائماً معرفة أن معظم الرجال كانوا ليسلكوا ذات سلوك بيرت، ولم يكن أي منهم ليظن أنه مضطر لأن يخبر أي شخص، وأن ما لم تعرفه زوجاتهم لن يؤدي أيًا منهن؟ كانوا على خطأ في ذلك على أي حال، لأنه الحق الأذى بهن بالفعل. حتى عندما لم تكن تعرف شيئاً، فإن ذلك قد أضر بها أيضاً؛ لأن عدم إخبارها جعل بيرت ينتمي لفئة معينة من الأشخاص وكان ذلك يؤلمها رغم أنها لم تكن تعرف ذلك، وقد أصابها بأذى مضاعف الآن بعد أن عرفت. كان الرجل ينحني بقوة نحو الحافة حتى أثار ذلك خوفها وجعلها تنظر بعيداً. كم هو مريع أن تستيقظ كل صباح وأنت تعلم أنك ستقضي يومك معلقاً على حافة هاوية!

وعندئذٍ، وقبل أن تستيقظ بلحظات لتذهب إلى غرفة بيرت، إذا به يدخل متعثراً في مشيته إلى غرفتها وهو لا يزال مرتدياً بيجامته الزرقاء التي أهدتها إليه لأن لونها مثل لون عينيه تماماً. كان شعره الناعم منسدلاً على جبينه متورد الوجه، امتلأت عيناه بالحيرة والارتباك.

سألها: «كيت، أين كنت طوال اليوم؟»، كان صوته غليظاً: «لقد ناديتك وبحثت عنك ولم أجدك، لقد كنت مريضاً ومُهملاً مثل كلب». انحنى جاثياً على ركبتيه أمامها مباشرة ودفن وجهه في طرف ثوبها، ولف ذراعيه حول خصرها، وراح يغمغم: «أوه، أشعر بسخونة شديدة، وكأنني في الجحيم»، مالت بوجنتها على جبهته ثم هتفت به:

«لماذا، أوه، أنت محموم بشدة! بيرت، يجب أن تعود إلى فراشك في الحال!» وقفت على قدميها لتساعده وهي تكاد تحمله، حتى أوصلته لفراشه، ومن على وسادته، نظر إليها بعينين لامعتين خاويتين.

ثم قال أخيراً بصوت ملؤه النعاس: «لقد ناديت مرات ومرات». سأله وهي تُحكم الغطاء من حوله: «لماذا لم تقرع الجرس؟ كانوا سيخبرونك أين أكون». أجابها وهو يبتسم لنفسه ابتسامة خفيفة: «لم أفكر بهذا، يا إلهي، أنا لست معتاداً على الأجراس يا كيت».

قالت له بابتسامة حزينة: «أيها السخيف، ابقَ مستلقياً، سوف أستدعي الطبيب على الفور». تناولت سماعة الهاتف وبدأت تطلب رقم الطبيب، قال لها بتوسل: «لا تتركيني»، هزت رأسها بثبات وهي تبتسم قائلة: «لن أتركك يا بيرت».

رفع الطبيب رأسه الأقرع من على صدر بيرت بعد أن فحصه ثم قال: «التهاب رئوي»، ثم أضاف: «ولكنه ليس خطيرًا بعد».

نهض متابعًا حديثه وهو يخطُّ بيده وصفة طبية: «سوف توافيكم الممرضة خلال نصف ساعة من الآن، وفي غضون ذلك، لو أنه يمكنك أو السيدة تالانت تولي الأمر حتى تصل».

أجابته والدتها: «بالطبع يمكننا ذلك».

لم يمض أكثر من ساعة على اجتماعهم بشأن ما ينوون فعله مع بيرت، الآن قرر هو بنفسه بأن أُصيب بالتهاب رئوي، مما يجعله في حاجة إلى العناية. فكرت كيت بأنه شيء كرهه أن يكون خبر مرضه سارًا هكذا، ولكنه جعلها تدرك جيدًا ما الذي عليها فعله، يجب الاعتناء به وعدم إزعاجه، ولا يمكنها أن تطلب منه شيئًا الآن. كما يجب عليها أن تظل إلى جوار سريريه وأن تنفذ تعليمات الطبيب بكل دقة حتى تصل الممرضة. كان ذلك هو أفضل ما يمكن عمله على الإطلاق، كان ارتباكها بادئًا بمنتهى الوضوح، إلا أنه يعاني حمى شديدة لن يلاحظ معها أي تغيرات طرأت عليها، كما أنه من المحتمل أنه لم تحدث أي تغيرات، لن تستطيع أن تعرف ذلك حتى ينتهي كل شيء.

كما كانت والدتها دائمًا رائعة عندما يكون أحدهم مريضًا، فعندما كانوا أطفالًا، لم تكن تفكر في أي شيء من سلوكياتهم الخاطئة أو أفعالهم الشيطانية إذا ظنت أن أيًا منهم مريض قليلًا. والآن، بنفس الطريقة، بدا أنها قد نسيت ما كانوا يتحدثون عنه قبل ساعة بشأن ما فعله بيرت.

همست في أذن كيت بحيوية: «سوف أذهب لأقوم بترتيب الأمور، فأنا أعلم جيداً ما الذي يمكن أن تفعله الممرضة المتمرسّة بالخدم إذا لم تجد كل شيء جاهزاً، كان أمراً مريعاً عندما نزل والدكِ هنا وحيداً في الصيف وهو مصاب بنزلة معوية عندما كنا في أوروبا، لقد ظننت وقتها أن الأمور لن تسير على ما يرام مجدداً، حتى سميدلي كان حزيناً ومكتئباً». سارت على أطراف أصابعها ناحية الباب، ثم عادت تهمس قبل أن تغادر الحجرة: «لا تقلقي! كل شيء سيكون على خير ما يرام». وأشارت إليها برأسها بحنان، ثم أغلقت الباب بإحكام ونعومة.

وما إن وجدت نفسها وحيدة مع بيرت، حتى انحنت بجسدها على جسده، كان يبدو غارقاً في النوم، على الرغم من أنها لم تكن واثقة من ذلك باستثناء أنه بدأ يتنفس بصعوبة شديدة. تبعثر شعره على جبهته المحمومة، إلى أن أعادته بيدها للخلف من جديد بلطف.

نادته برقة: «بيرت»، ولكن لم يَبْدُ عليه أنه يسمعها، وهنا، ارتفع رنين جرس الهاتف فجأة، فاخطفَت السّماعَة بسرعة خشيّة أن يزعهج الصوت، وأجابت: «نعم؟». كان السيد روجر بريم: «السيدة هولم؟ فيما يتعلق بالرحلة الاستكشافية التي تحدثنا بشأنها، لديّ نقطة هامة إضافية لأعرضها».

قاطعته قائلة: «لم يعد بنا حاجة إليها الآن يا سيد بريم، إن بيرت مريض بشدة، أُصيب بالتهاب رئوي».

«ماذا؟»، نقلت إليها سماعة الهاتف صوت أنفاسه اللاهثة من المفاجأة: «أوه، ألتمس المعذرة سيّدة هولم، ولكنها مفاجأة كبيرة أو...

صدمة ربما عليّ أن أقول... كم يؤسفني هذا، بكل تأكيد».

«لقد اكتشفنا ذلك للتو، كان الطبيب هنا منذ قليل، لذلك فليس هناك خطأ»، كانت تتحدث بسرعة، بينما أتاها صوت السيد بريم عبر الهاتف مليئاً بالارتياح وهو يقول: «بالتأكيد أنا لا أقصد أن أتمنى أي شر»، كان غالباً يضحك وهو يتحدث، «ولكن في الحقيقة أنا أتحدث مباشرة من وجهة نظر فن الدعاية بشكل محض، إنه من أسعد الأشياء حظاً! فالمرض هو عنصر جاذب جداً للاهتمام الشعبي، ولكن دعينا نتمنى ألا يكون الأمر خطيراً، والآن أتمنى لو أنك أبقيتني على اتصال دائم، من فضلك، يا سيدة هولم؛ وعندما يستعيد السيد هولم نفسه مرة أخرى ويسترد صحته، اسمحوا لي أن أوصي بأن نستفيد فوراً من التعاطف العام وأن ننظم الرحلة».

كان بيرت إلى جوارها يغمغم: «كيت... كيت...».

فأجابت بسرعة: «اسمح لي يا سيد بريم». ثم وضعت السماعة.

وقالت لنفسها: «اللعة، اللعة، اللعة على الجماهير!» يا له من مسكين، شفتاه جافتان من أثر الحمى، صبت بعضاً من الماء، وأمسكت بالكوب ورفعته إلى فمه وهي تقول: «اشرب يا طفلي المسكين»، مهما كان منه، فهو لها وحدها، ولا شأن لأي شخص به، ليس لديه غيرها وحدها في كل هذا العالم الأحمق، وسوف تحاول أن تكون له زوجة مثالية، عندما تستطيع أن تفكر وتدرك كيف تفعل ذلك، ثم جثت على ركبتيها بجوار سريره ووضعت ذراعيها حوله.

وهنا، انفتح الباب فنظرت ناحية القادم منه، فاصطدمت عيناها

بحسد الممرضة الصلب في زيها الموحد المميز إنها امرأة متينة البنيان في منتصف عمرها، كانت تحديق فيها بعينها الرماديتين بلون الحديد. ثم قدمت نفسها: «أنا ممرضة فترة النهار، الآنسة براين هل هذا هو المريض؟». غمغمت كيت وهي تقف على قدميها بتردد: «نعم، إنه زوجي».

أجابتها الآنسة براين: «حسنًا يا سيدة هولم، والآن إذا كنت فقط تتركين لي أمر المريض، فلديّ تعليمات من الطبيب بشأنه».

وانتظرت قليلًا حتى وقفت كيت دون أن تقرر شيئًا. ترنحت في مشيتها وهي تسأل الممرضة: «هل هناك شيء يمكنني القيام به من أجله؟».

أجابتها الآنسة براين: «كلا، أشكرك، أنا أفضل كثيرًا أن أكون بمفردي مع المرضى، تلقيت تدريبات كافية بشأن حالات الالتهاب الرئوي».

لم يتبقَّ لها سوى أن تذهب، فخرجت على أطراف أصابعها، وعند الباب، نظرت خلفها، كانت الممرضة بالفعل منشغلة بإعداد بعض الأشياء ولم تنتبه إلى أنها ذهبت، وخارج الغرفة إلى جوار الباب، انتظرت لبرهة، تتذكر مشاعرها في الصباح كيف كانت مرتبكة حائرة ما بين الصدود والحنين والوحدة، ولكن الأمر بمنتهى البساطة والوضوح وهي في كامل إدراكها لذلك أن بيرت بطريقة أو بأخرى قد استحوذ عليه الغرباء مرة أخرى بعيدًا عنها. وسوف يمضي وقت طويل قبل أن تستطيع أن تسأله عن أي شيء، أو حتى تتحدث إليه، كما اتضح لها

بمرور الوقت خلال اليوم، صعوبة استعادته من بين كل ذلك. وبحلول المساء، أخذت مكان الأنسة براين ممرضة أخرى شقراء جميلة في مقبل العمر، والتي كان دفؤها وتفانيها الفوري في عملها يجد طريقه إلى القلب أكثر مما تفعله كفاءة وخبرة الأنسة براين. وعندما ذهبت كيت إلى غرفة بيرت لتطمئن عليه قبل أن تأوي إلى فراشها، كانت هناك الممرضة الليلية إلى جانبه تراقبه. حيث كان يهذي بشدة من تأثير الحمى، وقد زاره الطبيب قبل العشاء وسوف يعاود زيارته مجدداً، ولم يكن الهذيان يقلق أحداً أو لا يعني شيئاً في حد ذاته، ذلك أن بيرت كان من ذلك النوع من البشر الذي يهذي بسهولة.

وقد قال الدكتور ليفيت ذو العينين العسليتين الجاحظتين والوجه المتجهم عن ذلك: «صدقيني يا سيدة هولم، أنا أشعر بمسؤولية كبيرة هنا، فقد يعتبرني الناس قاتلاً إذا حدث مكروه لبيرت هولم. أما عن براين أو ويدرز فلا تقلقي بشأنهما، فكلتاها مدربتان جيداً».

إذن هذه هي ويدرز، الممرضة الشابة والتي تبرز خصلات شعرها الذهبي نافرة كالريش خارج غطاء رأسها، نهضت على الفور لدى رؤيتها قائلة مع زفرة قوية:

- زوجة بيرت هولم؟ أوه!

لم تبتسم كيت وإنما سألتها: «كيف حاله الآن؟». أجابتها الممرضة الشابة بسعادة: «أوه، إن لديه بنياناً قوياً رائعاً، أنا على ثقة من أنه سيكون على ما يرام، يجب عليه أن يكون بخير، أليس كذلك، إنه رجل شديد الأهمية!»
أجابتها كيت موافقة: «نعم». وبعد لحظة، ولأنها لم تكن تطيق أن

تسمع تلك الحشرة الغليظة الخارجة من صدر بيرت مع كل نفس،
قالت للممرضة: «ألا يوجد ما يمكنني القيام به حيال ذلك؟».

أجابتها الآنسة ويدرز: «كلا، لا شيء يا عزيزتي، فما سبب وجودي
هنا إذن؟ عليّ أن أفعل كل شيء، إن الأمر يحتاج إلى شخص مدرب
جيدًا على التعامل مع حالات الالتهاب الرئوي، لا تقلقي بهذا الشأن يا
عزيزتي».

وبقدر ما أرغمتها الآنسة براين على مغادرة الغرفة، شعرت بأن
ابتسامه الآنسة ويدرز المتألقة كافية وحدها لأن تجبرها على ذلك
ولكن لأنه ليس هناك بالفعل ما يمكنها فعله من أجل بيرت. فذهبت إلى
غرفتها وخلعت ملابسها وأطفأت الأنوار وصعدت بهدوء إلى فراشها،
وسحبت غطاءها حتى أسفل ذقنها. ثم استلقت على ظهرها واسترقت
السمع، ولكنها لم تستطع أن تسمع أنفاس بيرت عبر الباب الخشبي
السميك ما بين غرفتيهما، فتنهدت. وفجأةً، ولأنها كانت بعد صغيرة
ومرهقة، هربت من ذلك كله بأن راحت في نوم عميق بلا أحلام.



الفصل الرابع

حتى منزل عائلة تالانت الآن أصبح مجرد خلفية لبيرت هولم، وعلى جانبيه الممرضتان تقفان كمن في نوبة حراسة. وفي غضون أسبوع كرهت كلتاها الأخرى بمرارة، بل وأصبح لدى كل منهما قناعة كاملة بأن أي تدهور أو انتكاسة في حالته الصحية إنما ترجع إلى خطأ ما ارتكبه الأخرى، حتى إن الأنسة براين قد اشتكت إلى السيدة تالانت، في محاولة منها للاستئثار برعاية بيرت هولم.

فصاحت بها السيدة تالانت بحزم: «هراء! ليس بإمكانك فعل ذلك، بالإضافة إلى أن الأنسة ويذرز لديها نفس الشعور تجاهك». لم تكن تحب حماقات الممرضات المحترفات، كان لديها قناعة تامة بأنه ما إن تطلق أيديهن في أمر ما؛ حتى يحاولن إحكام سيطرتهن بالكامل. بينما الأوضاع على ما كانت عليه محزنة بشكل كافٍ. حيث امتلأ المنزل بالزهور، وانهالت البرقيات والرسائل من كل مكان، ووسط كل ذلك الارتباك لم يكن لديها ما يكفي من الوقت للحديث مع كيت، كما أنه ربما بسبب مرض بيرت فقد تم تأجيل الحديث عن أي شيء آخر، وإذا ما تأجلت الأشياء لوقت طويل؛ فإنه في العادة لا يحدث منها أي شيء.

تركت كيت والدتها هذا الصباح على باب غرفة بيرت، ونزلت إلى الطابق السفلي حيث أعلنها الخدم أن السيد روجر بريم ينتظرها في غرفة المكتبة، والذي نهض واقفاً حال دخولها، وقد أضفى الشيب على هيئته الظلال الملائمة للتعبير عن وعيه الكامل بالظروف التي تمر بها والحالة التي كانت عليها. حيث ظل متابعاً عن كثب للحالة الصحية لبيرت هولم وتطوراتها على مدار الساعة من خلال الممرضات، حتى يتسنى له موافاة الصحف والمجلات بمعلومات موثوق بها عن الموقف هناك، لذا، فلم يكن بحاجة إلى طرح أي أسئلة، وإنما أخرج من جيب سترته الرمادية مطروفاً مطويًا من النوع الرخيص، مدون عليه بالقلم الرصاص وبخط يصعب تمييزه «إلى السيدة بيرت هولم».

ثم قال بلهجة اعتذار: «حسنًا، يؤسفني بشدة أن أقول إن هذا الخطاب قد فُتح بالخطأ في المكتب»، تناولت الخطاب وفتحته، وعلى الفور علمت أنه من والد بيرت، تذكرت للحظة أنها قد نسيت تمامًا كل شيء عن والديه في غضون الأيام القليلة الماضية، فقد كان عليهم أن يعلموا بما حدث عن طريق الصحف، وقد كان بالفعل.

أخذت تحاول القراءة وسط خربشات كبيرة غير مقروءة، وعلمت أنهما يخشيان موت بيرت، وأنهما قادمان للاطمئنان على حالته.

قال السيد بريم: «لم أجد بدءًا من أن أبدي بعض الملاحظات تجاه الأمر بعد الاطلاع على فحوى هذا الخطاب»، سعل قليلاً خلف منديه الكتاني شديد النظافة. أجابته كيت: «إنهما قادمان، سيكونان هنا بحلول الغد».

أجابها السيد بريم بسرعة: «لا يجب أن يحدث ذلك، يجب منعهما من الحضور».

عادت تقول: «بالكاد أرى أنه...».

قاطعها بحزم مكرراً: «أوه، فقط صدقيني يجب منع ذلك، سيكون المشهد كارثياً، صحيح أنه شيء جميل أن يكون للمرء أسلاف من المزارعين سيدة هولم، في الحقيقة، إن هذا تماماً هو الهدف من ديموقراطيتنا، ولكن هذا لا يعني على الإطلاق أن يصبحوا بيننا هنا في نيويورك، سيكونان مثار سخرية الجميع، وسوف يكون ظهورهما هنا كارثياً بحق».

قالت بهدوء: «كلنا يعلم ذلك، لا أحد بحاجة إلى تنبيه».

عاد السيد بريم يقول: «فضلاً، هلا تكرميت بالنظر خارج النافذة».

أطاعته ونظرت من النافذة، وهناك بجوار المنزل المواجه لمنزلهم كان هناك شاب يتسكع بلا مبالاة، حاملاً كاميرا فوتوجرافية في يده.

فقال السيد بريم: «لقد التقط هذا الشاب على الأقل صورة لكل من دخل المنزل، أتدرين، بل إنه قد التقط صورة لي أنا أيضاً شخصياً!». تناول منديله ومسح به على جبينه، ثم تابع: «في الحقيقة أنا لا يمكنني أن أتولى أمر السيد والسيدة هولم والذي بيرت، إن هذا النوع من البشر يصعب التعامل معه، بل إنه من المستحيل تقديمهم بصورة مشرفة في أي نوع من أنواع الدعاية سوى في خلفية المشهد، ولكن الخلفية تعني أن تكون في الخلف؛ وينبغي لها أن تبقى كذلك».

نعم، لقد أدركت ذلك بالفعل، لن تسمح بأن يحدث هذا في منزلهم. فربما يستطيع والدها أن يتفهم طبيعتهم، ولكن الأمر مختلف تمامًا بالنسبة لوالدتها، ولا يحتاج الأمر للكثير من الفراسة لتدرك أنهما لن يكونا سعداء بذلك. كما أن الأمر يحتاج لعدة أيام كما قال الطبيب حتى يستطيع أحد أن يتبين حالة بيرت وما ستؤول إليه. برغم ذلك وجدت نفسها تغمغم: «ولكن يحق لهما ذلك أيضًا».

قاطعها السيد بريم بنفاذ صبر: «بالتأكيد لهما كل الحقوق، ولكن ليس على الملاء».

وعندما رآها ما زالت متشككة وفي حيرة من الأمر، بدأت نبراته تحمل حماسًا مضاعفًا قائلاً: «صدقيني يا سيدة هولم، إن هذا هو ما تضطر لأن تفعله أي شخصية عامة، وبكل اللطف والمودة أيضًا، فلا يوجد بيننا شخص جميع أقاربه من المرغوب فيهم، وسيكون من القسوة تعريض والد أو والدة السيد هولم إلى أي نوع من السخرية بلا رحمة».

ظل يراقب تأثير كلماته عليها من خلف عينيهِ الرماديتين المصممتين، حسنًا، ها قد بدأ ينال منها! لقد تعلّم كيف يناشد فيها الخوف من إيذاء أي شخص. وقد قرر أن يحسن استغلال ذلك المفتاح للنفاذ إلى داخل شخصيتها. وكل عميل من عملائه له مفتاح خاص، فبالنسبة للسيد تالانت كانت المصالح التجارية، وبالطبع في إطار من النزاهة والأمانة. أما عن السيدة تالانت فكان الكبرياء والاعتداد بالعائلة وأصولها العريقة. وبشأن بيرت هولم، ربما لم يكن هناك أي مفتاح لطبيعته المبالغ في

بساطتها، حتى إنه لا يمكنك الاعتماد عليه بأكثر مما تستطيع بالنسبة لطفل صغير. ولكن كان هناك مقدار كبير من الاتزان الداخلي تتمتع به تلك المرأة الشابة بما يبدو عليها ظاهرياً من طبيعة ناعمة راقية، والتي كانت دائماً مجدية نافعة بالنسبة للآخرين، ولكن ليس بالنسبة لنفسها.

عاد يتابع: «يمكنك رؤية ذلك بنفسك، إنهما حتى لن يتمكننا من معرفة أنهما سوف يكونان محل سخرية قاسية، إن ظهور والدي بيرت هولم في الأضواء المحيطة به الآن يمكن بالكاد أن يضيف شيئاً إلى مكانته الاجتماعية، فهما يحظيان بالوقار والاحترام حيث مكانهما الملائم، ولذلك يجب أن يظلا هناك».

أجابته كيت على مضض: «يمكنني تفهّم ما تقصده»، تلك الجماهير البشعة، إنها تتحكم في حياتهما تبعاً لأهوائها! ثم سألت السيد بريم: «أما من مفر لنا من ذلك؟»، ردد نفس كلمتها مبهوراً: «مفر؟».

تابعت: «ألا يمكننا أن نهرب بعيداً عن الجماهير، ونعود ثانية إلى الناس العادية؟». هز رأسه نفيّاً، ثم أجاب: «مستحيل، لم يحدث أن فعل أحد هذا من قبل، وعاجلاً أو آجلاً بالطبع سوف تحدث انفراجة وتحظين ببعض الراحة، حيث سيظهر حتماً نجم آخر، أو بالأحرى، أتوقع أن يحدث ذلك، هل سمعتِ بتلك العاصفة التي حدثت منذ شهر، حيث استطاع فتى شاب أن يسافر حول العالم على متن زورق بخاري. ولكنه لم يلقَ رواجاً بنفس الطريقة كما حدث مع بيرت هولم، كلا، فأنا أشك أن تستطيع الجماهير نسيان بيرت هولم كلية، فقد أتى في اللحظة المناسبة تماماً، وفعل شيئاً أكبر بكثير من مجرد مغامرة، فهناك حقيقة

هاماة وهي تفوقه على رجل إنجليزي حيلةً ودهاءً، وهذا بالتأكيد من الأشياء الناجحة دائماً في الاستحواذ على قلوب الجماهير، وذلك منذ عام ١٧٧٦، ولكن إلى حد بعيد، هناك ما هو أكثر من ذلك. أنا شخصياً لا أفهمه تماماً، ولكن بالطبع لا علاقة للأسباب بأي من ذلك».

كان يتحدث وهو يذرع الغرفة في حركة مستمرة، حتى أمسك عن ذلك، حيث أوقفته النظرة في عينيها التي تشي بأنها لا تنصت إليه، قالت كيت وهي تفكر بصوت مرتفع: «ربما سأذهب أنا لرؤيتهم بنفسي، يمكنني القيام بذلك»، ثم أضافت: «فلا حاجة لوجودي هنا».

فأجابها السيد بريم بإخلاص: «رائع! سوف يكون ذلك حلاً حقيقياً، فقط، ألتمس منك التحرك بهدوء، على أن تتجني ذلك الشاب المرابط لدى الباب، بأن تذهبي في المساء، أنصحكِ بذلك». ثم نهض من مقعده وصافحها بيد منهكة، ثم مضى.

وفي السيارة، التفت حول نفسها في المقعد الخلفي متدثرة بغطاء سميك طلباً للدفء، كان والدها ووالدتها قد لوحا إليها بأيديهما لتوديعها من خلف البوابة الأمامية المغلقة، ثم تحركت وحدها عدواً وعبرت من خلال حاجزين لتجد السيارة بانتظارها حيث قفزت بداخلها قائلة للسائق: «حسناً، لا بأس يا كاري»، كان الأمر يستلزم ليلة كاملة من القيادة، ولكنه على أي حال أفضل من القطار. وبوصولها وقت الفجر فإنها ستتجنب القرية بأكملها ويمكنها حينئذ أن تتخذ طريقها مباشرة عبر طرقات البلدة إلى بيتهم في المزرعة. لم ترسل أي برقيات بشأن قدومها، لعلمها بأن المسؤول عن ذلك في ميستي فولز سوف ينشر

الخبر عن قدومها بين الناس. حيث ستكون القرية متلهفة لسماع أي أخبار عن بيرت.

راودها النوم قليلاً بشكل متقطع، وهي ملتفة حول نفسها في مقعد السيارة. كان بيرت على حالته، ليس هناك تحسن، ولكنه أيضاً ليس على أعتاب أزمة، ستكون بعيدة عنه ليوم وليلتين، ولن يعلم بأنها ذهبت، فهو مستلقٍ يغط في سبات عميق، تحت رعاية فائقة من الممرضات والطبيب. ومن الغريب حقاً أنها استطاعت النوم هنا في السيارة بأفضل مما تفعل في فراشها بالمنزل، إذ إن إحساسها المروع بالعجز وقلة الحيلة قد تسبب لها في الشعور بالضجر والأرق. وفي اللحظة التي علمت فيها أنه ينبغي عليها القدوم إلى البلدة شعرت بالارتياح فقط؛ لأنه أصبح لديها ما تفعله.

قبل حلول الفجر بساعتين كانت يقظة متنبهة. لم تكن تتحرك، بل استلقت على المقعد تفكر في كل الأشياء التي أصرت ألا تطردها من ذهنها خلال الأيام الماضية منذ أن أصيب بيرت بالمرض، حيث شعرت وقتها بأنه ليس من الإنصاف أن تسمح للوم بأن يستحوذ على ذهنها بينما يرقد عاجزاً لا يستطيع حتى الحديث للدفاع عن نفسه. ولكن، الآن فقط جال بخاطرها شيء ما، فإذا كانت تتوي أن تقضي يومها بكامله هناك في المزرعة؛ فلماذا لا تستكشف الأمر بنفسها؟ لماذا تسأل بيرت عن أشياء لم يرد هو أن يخبرها عنها بنفسه؟

فلربما كانت القصة برمتها غير حقيقية، يمكنها أن تسأل والديه عن ذلك بشكل عارض: «هناك قصة غريبة متداولة، شيء عن بيرت وأنه قد

سبق له الزواج والطلاق». كلا، سوف تقولها مباشرة: «هل سبق ليبرت أن تزوج وطلق قبل أن يعرفني؟». كان قلبها يخفق بحماسة، فما الفارق الذي سيصنعه أن تعرف الحقيقة من عدمه؟ لماذا عليها أن تهتم؟ لقد انتهى ذلك منذ وقت طويل.

لقد قالت جايل ذات يوم ضاحكة إنها تمنّت لو أن هارفي كان متزوجاً مرتين من قبل، حتى لا يتوقع منها الكثير. «زيجتين أو ثلاث»، قالت جايل وهي تنظر ناحية هارفي وعيناها ترقصان: «واحدة وهو بعد لم يبلغ العشرين من عمره لتزيل عنه الأوهام، والقليل منه بعد ذلك لتجعله يدرك أن جميع النساء حمقات، وسوف تكون حياتي بعدها مختلفة. فسوف يتوقع مني أن أكون أنا أيضاً حمقاء، وإنه من الأفضل أن أكون كذلك! لماذا لا تدرك كل النساء العاقلة ذلك؟ فسوف يعفيها من الكثير من الشر!».

ولكن تلك البهجة التي تتحدث بها جايل هكذا ترجع إلى أن زواجها بهارفي، على الرغم من طريقته الغريبة، كان زواجاً ناجحاً، فإذا لم تكن معجبة بهارفي، هل كانت تستطيع أن تحبه؟ لم يكن هناك شيء بداخل جايل، فقد أبت أطفالها بعيداً عنها، بينما تتفقد أحوالهم بين الحين والآخر وتطمئن هارفي بشأنهم بذكاء كما لو أنهم ليسوا أطفالها. وإذا ما كان هارفي تابعاً لها ملتصقاً بها بدلاً من أن يكون سيدها؛ لأصبحت شخصية قاسية لا تطاق، فقد كان من حسن طالع العائلة أن يملك هارفي ناصية أمورها بيده جيداً، كانت تحب أن تقول إنها تسيطر عليه، بينما يعلم الجميع أن تلك السيطرة التي تدّعيها لم

تكن في حقيقتها سوى محاولتها لأن تعمل على أن تلائم شخصيتها بما يتناسب معه، يا له من زواج مذهل! أحست أن حلمها القديم بأن تجد يومًا الحب الصادق كان فقط مجرد حلم. ولكنها لم تستطع أن تهجر تلك الفكرة، ذلك أن اهتمامها كان منصبًا على ما فعله بيرت، ولكن ليس كثيرًا على الفعل نفسه بشكل مجرد، فقط، لماذا كذب بشأنه، واستمر في الكذب عليها أيضًا؟ كان ذلك هو محور شعورها بالألم. فقد كان كتومًا معها في هذا الشأن في الوقت الذي كانت تقول عنه أن نقطة قوته في نظرها هي صراحته الطفولية، فهل كانت ابتسامته الصريحة، ونقاء عينيه الزرقاوين، وكل تلك البساطة في ملامحه، بلا معنى؟ ظلت تقول لنفسها مرات ومرات، كان بإمكانه بمتهى البساطة أن يقول لها: «كيت، أنا في مأزق سخيف...» وبذلك يكون قد أخبرها بما لديه. ولكنه أبدًا لم يفعل، أبدًا لم يقل شيئًا؛ لا شيء سوى الصمت .. الصمت .. الصمت! ما الذي يمكنها فعله حيال ذلك الصمت؟ كيف يمكن لها أن تكسر ذلك الحاجز لتكتشف ما إذا كان هناك شيء خلفه أم لا؟ هنا كان جوهر المشكلة. هل كان هناك أي شيء؟ في مكان ما بعيدًا عن أصدقاء تلك التفاهات والحماقات التي قالتها لها النساء عن بيرت هولم، النساء التي مر بهن في موكب لا نهائي من الوجوه البيضاء التواقة والأعين التي ملؤها الحنين، كان هناك صدى لصوت فتاة تصرخ وهي تحدث فتاة أخرى، ودون أن تهتم إذا ما كانت تسمعها أم لا. «إنه قوي للغاية وصامت، أليس كذلك! أنا أحب الرجال الأقوياء الصامتين!»، ولكن ماذا إذا لم يكن الصمت حتى معبرًا عن الازدواجية،

ولكنه مجرد حماقة؟ ماذا إذا كان وراء الصمت .. فقط لا شيء؟ كان ذلك هو السؤال الذي أصبح زواجها معلقاً عليه، ويجب عليها أن تجد إجابة ذلك السؤال، وعليها أيضاً أن تواجهها. وبدأت لمحة طفيفة من الصلابة التي تميز خطوط فك السيد روبرت تالانت تزحف على وجهها البيضاء الناعم. عليها أن تستكشف الرجل الذي تزوجت به، اعتدلت جالسة فجأة وسوت ملابسها وألقت بشعرها إلى الخلف، ثم ارتدت قبعتها وتفحصت وجهها في المرأة، كانت بشرتها شاحبة، ولكنها لم تعبأ بذلك.

وقتئذ كان الفجر وشيئاً. ورويداً بدأ ضوء أحمر يتوهج زاحفاً عبر السماء، وعاجلاً ملأ الضوء الأفق وراح يطلق أشعته من جهة الشرق. شعرت بأن ذلك القرار المفاجئ الأخير الذي اتخذته قد أضفى مزيداً من الانتعاش والصفاء على روحها. فسوف تكتشف بنفسها حقيقة بيرت، وعندئذ سوف تحسم أمرها في هذا الشأن. كانت الساعات التي تقضيها في عزلة هي أكثر الأوقات المحببة إلى نفسها، كانت تشعر بأنها تتحرر من الحشود التي أصبحت تتحكم في حياتها، كم هي حمقاء لتحمل ذلك التحكم! والدتها، روجر بريم، الممرضات، لقد تركتهم جميعاً يوقعون الكآبة في نفسها، إنهم جميعاً على خطأ.

فهي بالأساس تنتمي لنفسها، وليست مضطرة لأن تظل زوجة لبيرت هولم إذا لم تكن تريد ذلك، هذا إذا ما كانت إجابة سؤالها، هي .. لا شيء. فالحياة شيء قيم، وكل ما فيها هو مجرد خطوة تفضي إلى أخرى. وربما كانت هذه الزيجة كذلك أيضاً، فقط كذلك، إذا ما استطاعت أن

ترى الأمر من منظورها الواقعي. غير أنها عندئذٍ، دائماً ما تفقد منظورها الخاص بسهولة، فالأزلية كانت على الدوام أحد المفاهيم الأساسية بالنسبة إليها في كل لحظة. فعندما كانت طفلة في جلين باري، وفي يوم سعيد متألق، كان من المستحيل أن تفكر بأنه سوف يأتي يوم بعد أن تكبر، لتغادر فيه بعيداً. وفي الجامعة، بمجرد أن أصبحت معتادة على وجودها بها، أصبح شيئاً مرعباً أن تفكر في مغادرتها. ومن بعد ذلك بدا حبها لنورمان شيئاً حيويّاً من أجل تلك الأزلية. وحالما انتهى كل شيء، تحولت تلك الأزلية إلى يأس أبديٍّ أيضاً. ولكن كل واحد من تلك الأشياء الخالدة، لم يكن خالداً، فقد انتهت جميعاً، تاركة روحها بكرة لم تُمسّ. وكانت تلك هي المرة الأولى في حياتها التي تدرك فيها بكارتها.

وهنا، قالت موجهة السائق العجوز: «إلى اليمين يا كاري».

أجابها السائق: «نعم أنستي»، لم يتفوه بكلمة طوال الليل. جال بخاطرها في لمحة شroud خاطفة كأنها تداعب نفسها، أن الصمت شيء مريح، على الأقل من سائق خاص.

وفي هذا الوقت كانت تحديق في السماء، في ذات اللحظة التي كانت الشمس تندفع فيها عبرها كما يحدث دائماً، وكطفلة، غالباً ما كانت ترى الشمس تشرق دائماً فتبدو كأنها تقفز على الأفق حين تظهر، وكذلك تفعل الآن. وعلى الفور امتلأ المشهد بأشعة الشمس الشاحبة المتدفقة. وكانت هناك كرات ثقيلة متجمدة من الصقيع تومض بأشعة فضية حادة على كل الحواف.

وهنا قالت: «قريباً سوف نكون هناك»، أجابها ببساطة: «نعم آنستي».

فتابعت: «من الأفضل أن تذهب إلى الضيعة لتناول الإفطار بعد أن توصلني»، أجابها بنفس اللهجة: «نعم آنستي».

وعلى مرمى البصر، استطاعت أن ترى المنزل الآن، بدا المشهد لطيفاً بما يكفي وهي تقف مشرقة بين الأشجار العارية، ولكن التفكير فيما بداخله؛ ملأها إحساساً بالثورة والتمرّد. ثم أضافت: «ولكن عد إليّ على الفور بعد تناول إفطارك، ربما أريد الذهاب بعيداً». أوماً برأسه متفهماً.

نعم، يجب عليها على الأقل أن تمتلك الوسيلة لتذهب إلى أي مكان متى شاءت ذلك.

من دون بيرت، كان المكان غريباً تماماً عليها، خطت بقدميها عبر المساحة المعشبة المكسوة بالصقيع، ثم طرقت الباب، لم تكن تشعر بحرية أن تفتح الباب دون أن تطرقه أولاً وهي واقفة وحيدة بالخارج. إنه منزل بيرت، ولكنها الآن تشعر أكثر من ذي قبل بأنه ليس منزلها.

فُتح الباب ووقفت السيدة هولم في ثوب رمادي من الصوف ومن فوقه مئزرة ذات نقوش مربعة باللونين الأبيض والأسود.

بادرتها السيدة هولم بالحديث: «حسنًا، مرحبًا بك»، رحبت بها وأحاطتها بذراعيها في حنان ثم أردفت بنبرة ودودة: «ادخلي يا ابنتي، كيف هو الآن؟ نحن نرتب أشياءنا للذهاب إليه اليوم».

أجابتها كيت: «أعلم ذلك، وهذا هو سبب مجيئي».

وحتى هذه اللحظة لم تكن مدركة بعد كيف سيكون الأمر وهي مضطرة لأن تخبرهما بالأمر يأتيا لزيارة بيرت. فأسرعت تقول: «ليس مسموحاً له برؤية أحد، الممرضات بالكاد يسمحن لي أنا شخصياً برؤيته».

جذبتها السيدة هولم إلى الداخل وأغلقت الباب. كانت رائحة رغوة الصابون تنتشر في البيت بأكمله، فقالت السيدة هولم موضحة: «كنت أخرج الغسيل قبل أن نذهب، يمكن أن يتجمد جافاً بينما نحن خارج المنزل ليومين، تعالي إلى المطبخ، فنحن نتناول طعام الإفطار. والآن خبريني كل شيء. عجباً، من هذا الرجل الواقف هناك؟». أجابت كيت بسرعة: «إنه كاري، سائقنا الخاص».

سألها السيدة هولم: «ألا يريد الإفطار أيضاً؟».

أجابتها كيت: «أوه، كلا، سوف يذهب إلى الضيعة، لا تقلقي نفسك بشأنه».

قالت السيدة هولم: «لن يسبب لي إزعاجاً أن أضع بيضتين إضافيتين».

ثم ذهبتا إلى المطبخ، حيث كان السيد هولم يجلس إلى منضدة مغطاة بالقماش المشمع يتناول طعامه. هتف السيد هولم لدى مرآها قائلاً: «انظر من هنا».

رفع رأسه لينظر إليها بعينه الزرقاوين الغامضتين: «مرحباً».

أجابته: «مرحبًا»، طلب إليها الجلوس: «هيا اجلسي لتأكلي».
أجابته: «أشكرك». ثم خلعت قفازيها وقبعتها ومعطفها واتخذت مقعدًا.

قالت لها السيدة هولم: «والآن خبريني». وإلى جوارهما في حوض من الزنك تكومت الملابس المغسولة جاهزة لتعليقها في الخارج. وكانت رائحة الطعام والملابس المغسولة تملأ المطبخ.

أجابت كيت: «سوف أطمئنتك بشأن بيرت ثم أذهب بعد ذلك لأعد نفسي»، ربما لو استطاعت هي نفسها أن تشعر بالنظافة والانتعاش لاستطاعت أن تتحمل تلك الأجواء.

ومن ثم بدأت تروي لهم عن حالة بيرت المرضية، ثم قالت بعدها بتردد: «أجد بصعوبة الكلمات المناسبة لأقول لكما ذلك، ولكن يبدو أنهم هناك يعتقدون أنه من الأفضل ألا يلتقي بيرت بأي زائرين على الإطلاق، إنهم بالكاد يسمحون لي أنا بالدخول إلى غرفته».

نظرا إليها دون أن يطرف لأي منهما جفن. ثم قال السيد هولم: «لا أظن بإمكاننا أن نتسبب بإيذائه». برزت عضلات وجنتيه النحيلتين وهو يعضغ قطعة من الخبز.

واستطاعت كيت أن تشعر بأنهما يلقيان عليها باللائمة من أجل شيء لا يستطيعان فهمه. قالت لهما: «أعلم كيف تشعران، فأنا أيضًا أشعر بذلك. أحيانًا يبدو كما لو أن بيرت شخص آخر، شخص لا يخصصنا نحن على الإطلاق، بل شخص ملك للآخرين».

عاد السيد هولم يقول: «لن نبقي طويلاً، لا أستطيع ذلك، فالأبقار دائماً تشغل ذهني، لا أستطيع تركها لأكثر من يومين وأكون مضطراً بعدها للعودة».

غمغمت كيت: «المصورون، الجماهير، حتى إنه منذ أن أصابه المرض، والأمور تزداد سوءاً عن ذي قبل».

قالت السيدة هولم بوضوح: «لم أكن لأمنعهم، أعتقد أنني اعتدت ذلك».

بدأت تحاول أن تجد الكلمات مجدداً: «المرضات لن يسمحن لكما بالبقاء معه»، هتفت السيدة هولم: «أعتقد أنه بإمكانني الاعتناء بولدي!»

قالت كيت ببساطة: «لا يمكنك ذلك»، يجدر بها أن تجعلهما يستوعبان الأمر. «يجب أن يحظى برعاية فنية مدربة، فلا يمكنهم السماح بأي مخاطرة، الطبيب لن يسمح لهذا أن يحدث. وكل الأخبار العامة، الممرضات ذوات الخبرة، أحواله كل صباح ومساءً، كل ذلك يتم على أكمل وجه...».

قاطعتها السيدة هولم بتأثر: «والدتي توفيت بسبب الالتهاب الرئوي، ولا يوجد شيء لا أعرفه عن هذا المرض، ذلك أنني كنت أعتني بها حتى لحظاتها الأخيرة. الفانلة على الصدر وكمادات الفلفل الأحمر، هل يقومون بإحكام غلق النافذة جيداً؟». وهنا قالت لهما بجلاء: «لقد أرسلوني لكي أطلب منكما عدم القدوم».

همست السيدة هولم: «حسنًا، أنا لن أسمح بذلك!»

حاولت كيت الدفاع عن الفكرة: «كل شيء يسير على ما يُرام».

قال السيد هولم فجأة: «أظن أنهم لا يريدوننا بالقرب منه».

ولم تنكر كيت ذلك. جلسوا جميعًا في صمت لبرهة، وهنا قال السيد هولم: «أظن أنني لن أحتاج من تاد أن يعتني بالأبقار». سألته السيدة هولم: «ألست ذاهبًا؟». هز رأسه نفيًا، ثم قال ببساطة: «ليس إلى المكان الذي أكون فيه شخصًا غير مرغوب بوجوده».

تمنت كيت وقتها لو أنها لم تطع السيد بريم. كان يجب السماح لهما بالمجيء إذا أحبا ذلك. فما الذي يهم إذا ما كان كل ما يريدانه فقط أن يكونا مع بيرت؟ وفجأة، ضربت بكلام السيد بريم عرض الحائط قائلة: «إنهم جميعًا على خطأ، يجب عليكما أن تأتيا، وسوف نعود جميعًا في السيارة معًا، بيرت لن يمكنه التعرف عليكما، ولن يزعجكما ذلك، أليس كذلك؟ والممرضات، في غاية الصعوبة، لن يسمحن لكما بالبقاء معه. ولكن لكما كل الحق في أن تأتيا إليه».

هز السيد هولم رأسه بالنفي مجددًا، ثم نهض واقفًا على قدميه بصعوبة قليلًا، ثم قرر: «كلا، أنا لست ذاهبًا، أتفهم ما تقصدين، إنه ليس... إنه بالكاد يخصنا الآن، إنه مثل ما قلت».

بينما أعلنت السيدة هولم موقفها قائلة: «أنا ذاهبة».

قال لها السيد هولم: «كلا، لن تذهبي. في الحالة التي هو عليها الآن، لن ننفعه بشيء، اتركه وشأنه»، ثم صرخ في وجهها فجأة: «اتركه

وشأنه!»، ثم انتزع قبعة قديمة من على مسمار في الحائط وذهب خارجًا. جلست السيدة هولم على مقعد قريب. وقالت كيت: «أنا آسفة».

قالت السيدة هولم بتثاقل: «أحيانًا أتمنى لو أنه لم يتسلق ذلك الجبل، كان دائمًا ما يخيفني بذلك، بتسلق الأشياء. كانت تأتيه أفكار لأن يتسلق الشلالات أو ما شابه، فيذهب ويفعلها، ولا يخبرني بذلك حتى ينتهي منه بالفعل. لم أرد له أن يذهب إلى تلك البلد الوثنية على أي حال، مجرد أن يكون رجلًا صالحًا في البيت، كنت أصلي دائمًا من أجله لكي يكون واعظًا، حتى يمكننا أن نذهب لنعيش معه، وعندئذ كنت سأضطر لأن أترك كل ذلك، ثم ذهب هو و...»، أوقفت نفسها عن الاسترسال في ذلك النوع المؤلم من الحديث قائلة في كمد: «سأذهب وأُخرج الغسيل»، سألتها كيت بحدة: «ما الذي فعله؟ ماذا فعل قبل أن يذهب بعيدًا؟». أخذت السيدة هولم الأطباق، وكوّمتها في الحوض.

ثم قالت لكيت: «والآن يا كيتي، اذهبي لتغتسلي، وأنا سوف أسلق لك بيضة بالطريقة التي تحبينها».

ربما كانت دائمًا طفلة، وكم كانت النبرة حازمة والأسلوب صارمًا في صوت وسلوك السيدة هولم لعزل كيت وإبعادها عن حقيقة الأمر، ولكنها تحولت فجأة إلى حالة من الغضب الشديد. وقالت بهدوء شديد: «أنا أعلم بالفعل»، نعم، كانت في طريقها لتكتشف على نحو صحيح ماذا كان بيرت. وبالتالي ستعلم حينها ما الذي ينبغي عليها أن تفعله حيال ذلك، ولكن السيدة هولم أجابت: «أي شيء مما حدث له لم يصنع أي فارق لكي يجعله مختلفًا عما هو عليه بالفعل».

أدارت ظهرها، ولكن كيت خرجت متجهة إلى الغرفة بالطابق العلوي. كانت قد حسمت أمرها، وبعد أن تنتهي من تناول طعامها، سوف تذهب لتجد تلك الفتاة في الحانة، كان بيرت يدعوها لي لي، لي لي روز، هكذا قال السيد بريم من قبل أيضًا أن ذلك هو اسمها، وقد بدأ يتضح لها بجلاء لماذا توافد الناس جميعًا إلى الحانة يوم أن أخذها بيرت إلى هناك، لقد أرادوا أن يروهما معًا، زوجة بيرت و لي لي روز، كيف يجروا على أن يضعها في موقف كذلك؟ بلا شك عاد كل من في الحانة يومها إلى بيته ليضحك. شعرت بأنها متورطة في ذلك التكتّم الأحمق الوضع، وكان شعورًا لا يطاق بالنسبة إليها. وقد جال بخاطرها فجأة أنه كان شيئًا رائعًا من نورمان أن أخبرها بأنه لم يحبها. لقد كان ذلك كرمًا وشجاعة منه، وعطفًا عليها، حتى إنه يمكنها أن تثق في رجل كهذا، سواء أكان يحبها أو لا.

عادت للطابق السفلي وقد صففت شعرها وأخذت حمامًا، لتجد المطبخ خاويًا، فجلست وتناولت البيضة مع بعض الخبز والزبدة والحليب. ومن خلال النافذة، استطاعت أن ترى السيدة هولم تقف بثبات في وجه الرياح وهي تشبك الملابس على الحبل. كما كان كاري قد عاد بالفعل، فتحت الباب وهي تنادي: «أنا أعترم الذهاب إلى القرية!».

حملت الرياح صوتها إلى السيدة هولم، والتي استدارت وأومات برأسها علامة على الموافقة، أما كيت، ومن بين خفقات قلبها القوية خرجت متجهة إلى السيارة.

ثم قالت لكارى: «خذني إلى الحانة».

أجابها متسائلاً: «حيث تناولتِ الطعام آنستي؟».

أجابته: «نعم، لا يوجد غير واحدة».

استجمعت السيارة سرعتها بهدوء على الطريق الجبلي، بينما كانت هي تكابد آلاماً خفيفة تسري في أنحاء جسدها. لقد كان شيئاً مثيراً للغثيان أن تفكر في تلك المرأة الأخرى، والتي كانت يوماً زوجة لبيت. وثار في نفسها كل شعور بالأنفة وعزة النفس التي كانت السمة المميزة لحياتها ونشأتها الكريمة كي تستطيع التخلص من آثار تلك الفكرة. ولكن، سيكون عليها أن تُصنِّي نفسها، ذلك أن بيت لم يكن ليخبرها شيئاً عن الأمر حتى إذا ما تحسنت صحته مجدداً. فإذا كان قد استطاع أن يظل صامتاً عنه في يوم زواجهما، وصامتاً عنه عندما اصطحبها عائداً إلى بيته، وأيضاً عندما عاد هو معها إلى جلين باري، إذن، هو لن يخبرها عن ذلك أبداً. بينما تأبى عليها عزّتها أن تتدنى إلى الحد الذي يكون عليها معه أن تنتزع من داخله اعترافاً كهذا، سؤالاً بعد آخر.

وحالما توقفت السيارة أمام الحانة، اتجهت إلى داخلها بسرعة خشية أن تخذلها شجاعته بعد كل هذا. كان المكان خالياً تماماً سوى من فتاة خلف البار، والتي كانت مولية ظهرها نحو القادم، حيث انهمكت في غسل بعض الأطباق أمامها في الحوض، وهي تغني بصوت مرتفع تكسوه البهجة، ولكن بمجرد أن تنهى إلى مسمعها صوت الباب استدارت نحو القادم وانطلقت تقول: «حسناً، مرحباً، لم أسمع صوت أحد في المكان! في الحقيقة قليل جداً ما يأتي أحد إلى هنا في مثل

هذا الوقت ولا حتى لمدة ساعة قادمة أيضًا، إلا إذا كان يريد شرب الكحوليات في المكان المخصص هناك في الجانب، أستطيع أن أقول إنني عرفت أنك هنا، سائقك الخاص كان هنا منذ وقت قليل وشرب القهوة وأكل قطعيتين من الكعك المحلى. من تكونين؟ دعيني أقول إنني لم أتعرف على ملامحه، بل قال لي هو بنفسه، تفهمين قصدي؟ والآن، ماذا يمكن أن يكون ذلك؟». في تلك الأثناء كانت تنظف البار وهي تتحدث، وتحاشت عيناها الرماديتان أن تلتقي بعيني كيت المحدثتين بهما. وهنا قالت لها كيت: «لو أنك تسمحين، أنا هنا فقط لتحدث لوقت قصير»، وافقتها الفتاة بسلاسة: «شيء مؤكد».

إذا كانت تشعر بالمفاجأة، فإن ذلك لن يبدو واضحًا على وجهها الوردى المغطى بالمساحيق. جففت يديها جيدًا، وخرجت من خلف البار، ثم سألت كيت: «لو تريدين، أظن أنه علينا أن نذهب إلى حجرة صغيرة؟».

أجابتها موافقة: «نعم، ربما كان هذا هو الأفضل».

جلستا معًا وكيت تحق في ذلك الوجه الممتلى وتلك الملامح ذات الجمال الفج، كانت الفتاة تلوك قطعة من العلك، ولكنها الآن أطبقت فكيتها في صمت.

بينما قالت كيت متلعثمة: «قد تظنين أنني شخصية غريبة، في الحقيقة أجد صعوبة كبيرة في أن أعرف كيف أبدأ. ولكننا... أنا... سمعت شيئًا عنك و... وبيرت». أرادت أن تقول: «زوجي»، ولكن الكلمة أبت أن تخرج من بين شفثيها.

سألتها الفتاة: «بيرت قال لك ذلك؟». كان هناك مرآة معلقة على الحائط المواجه لها في آخر الحجرة خلف رأس كيت تمامًا، وكانت الفتاة تنظر إلى نفسها من خلالها وهي تتحدث. هزت كيت رأسها نفياً، فهتفت الفتاة: «أراهن أنه لم يكن ليفعل! قلت لريكسي إنه لا يمكنك أن تأتي إلى الحانة هنا في ذلك اليوم لتظاهري بأن شيئاً لم يحدث». توقفت الفتاة فجأة ومرت يدها على خصلات شعرها وهي تضحك، معجبة بنفسها في المرأة. ثم صرخت: «أليس هذا بالضبط هو بيرت! لا يقول شيئاً عن أي شيء!»

سألتها كيت: «هل ستخبريني أنتِ إذن ما الذي حدث بالضبط؟». أجابت الفتاة: «مؤكد، ويمكنك أن تناديني لي لي، ممكن يا كيت؟ الكل هنا ينادوني لي لي، لا يوجد أي سبب يجعلنا أنا وأنتِ نكره بعضنا من أجل شيء كهذا، ربما استطعت أن تري شيئاً في بيرت لم أستطع أنا رؤيته. بحق الجحيم، لا شيء يؤذيني في ذلك، لقد قلت لهم كلهم، عندما كان أي شخص يسألني عما أشعر به بخصوص زواج بيرت هولم مرة ثانية، كنت أقول لهم: 'إنه لا يعني شيئاً بالنسبة لي'. ذهبت إلى رينو وحصلت على الطلاق بطريقة جيدة مثل أي سيدة، كما أنني قضيت أيضاً أوقاتاً طيبة في هذه العلاقة، وربما كنت على وشك أن أقع في الحب مع أحد رعاة البقر لو أنني أردت ذلك، فقط لم أفعل لأنني أحببت ذات مرة رجلاً وسيماً ولم أرَ من وراء ذلك أي خير، في المرة القادمة سوف أختار رجلاً حقيقياً، كريماً في عطائه. لن أدع الجانب الناعم من شخصيتي هو من يتولى أموري ويتخذ قراراتي في

موضوع كهذا، أقول ذلك بكل ثقة، ليس مرة ثانية!».

سألته كيت في صوت خفيض: «هل دام زواجك أنت وبيرت فترة طويلة؟».

ضحكت لي لي بصوت مرتفع حين رأيت تعبيرات وجهها في المرأة قائلة: «بدأت لي طويلة! في الحقيقة، أظن أن الموضوع لم يزد في أكثر الأحوال على سنة واحدة، لم يعجب الموضوع أيًا منا، حدث كل شيء بسرعة شديدة، أنت تعرفين كيف تسير هذه الأشياء بسرعة، أليس كذلك؟ فأنت... حسنًا، أنت تفهمين ما الذي أقصده... كنت على استعداد للوقوع في الحب، وبيرت بوسامته المريعة، عندما يريد، فإنه يعرف جيدًا كيف يخطف قلب البنت بالطريقة الصحيحة». أشاحت بوجهها بعيدًا عن كيت. ثم تابعت: «ولكنني لن أقع في مثل هذا الغباء مرة أخرى، فأنا واعية فيما يخص الرجال. قلت له: 'لا، إلا إذا كنت تعني الزواج'، لذلك، قال لي... حسنًا، كنا في إحدى نزوات مدارس الأحد، خبريني بالله عليك، أليست هذه نكتة؟ بعدها قال لي: 'يا للبحيم، أنا أقصد ما تقصدينه بالضبط، مهما كان'. لذلك قلت له: 'حسنًا، هيا خُذني إلى القس'. لم أكن أظن أنه سيفعل، ولكنك تعرفين كيف أنه... فقط مثل طفل يهوى التحدي ويحب المغامرة، لذلك قال: 'لا بأس'، وقفزنا في سيارته، وأول شيء بعدها وجدت نفسي واقفة أمام القس وأقول: 'نعم أقبل'»، عادت تضحك بصوت مرتفع ثم تابعت: «نعم، فأنا أوّمن بضرورة الحفاظ على العفة والفضيلة، إنها كل ما تملكه البنت، هذا ما أقوله دائمًا، ولا يهمني إذا ما كان الرجال يقولون عني

إنني بنت من النوع القديم، فقط على أن أهتم بنفسي، أتفهمين؟». بدا واضحًا أن الفتاة لم تكن تنوي أن تخبرها القصة كاملة عما بينها وبيرت، وأخذت تنظر بتجهم لنفسها في المرأة لبرهة.

فسألته كيت: «وبعد ذلك؟». أجابت لي لي بلا مبالة: «أوه، لم يكن هناك الكثير في هذه العلاقة»، لفت خصلة جافة من شعرها حول إصبعها، وسوّتهم جميعًا معًا، ثم تابعت: «تركت عملي هنا وانتقلت معه إلى مزرعتهم في ميستي فولز، ربما تسأليني كيف استطعت أن أواجه الموضوع وأتحمل المعيشة هناك؟ لقد تشاجرت مع تلك المرأة العجوز في أول يوم لي في بيتهم، إلا أنه وقف في صفّها هي، وظل كذلك ملتصقًا بها طوال الوقت، لذلك قلت له: 'لا يمكن أن يعجبني مثل هذا النوع من المعيشة'، لذا رجعت إلى هنا، ورجعت إلى عملي مرة ثانية»، توقفت لحظة معتدةً بنفسها، ثم تابعت: «ووقتها، لم أكن أعلم إذا ما كان بيرت سوف يتركني أنهي علاقتي به بالطلاق إذا أنا صممت على هزيمة أمه، تلك المرأة العجوز»، غمغمت كيت: «لماذا إذن...؟ لماذا...؟».

قالت لي لي بصراحة: «أوه، أنا تعبت حقًا من بيرت»، بدأت تلوك العلكة مرة أخرى مع فرقعات طفيفة من فرط إحساسها بالانفعال والطاقة في عروقتها: «أنا لا أعرف لماذا، لا تسأليني، هذا النوع من الأشياء يحدث فقط، أليس كذلك؟ يومًا ما تجددين رجلًا يملأ نفسك بالقشعريرة من أعلاكَ إلى أسفلك عندما تنظرين إليه، وبعد ذلك لا يمكنك الشعور بشيء حتى إذا ما منحك قُبلة فرنسية، أظن حقيقة

الموضوع هي أن بيرت، على ما يبدو، يوجد في شخصيته الكثير من الطفولية بالنسبة لي، وأنا أحب الرجال الناضجين أكثر مما هو عليه، فهو من النوع الذي سيظل طفلاً حتى آخر يوم في عمره، وأنا لا أريد رجلاً لأكون أمّاً له. أفهمين؟ إنه شخص غير مؤذٍ أبداً، فقط مجرد غبي، هذا هو كل شيء».

كانت تتحدث بكثير من التسامح، عندئذ فُتح الباب، ودخل من خلاله شخص يرتدي ملابس العمال، ملطخة ببقع من الشحوم والزيوت، كان ذلك الشخص هو جاك ريكسال.

ناداها وهو يتغنى باسمها: «لي لي!».

همست لي لي: «أسفة، هذا صاحبي، أتى لتناول البيرة كعادته!»، ثم نهضت، ومالت باتجاه كيت حتى إنها استطاعت أن تشم رائحة أنفاسها المتعشة محملة برائحة علك النعناع الذي تمضغه. وهمست لها: «لا تقلقي أبداً يا كيت، لقد انتهى الموضوع بالنسبة لي، وليس في نيتي أن أسبب لك أي إزعاج، أنا لست سافلة»، ثم اعتدلت، وابتسمت لها ابتسامة رائعة أظهرت أسنانها ناصعة البياض، واتجهت بخطى متدة صوب البار، ودفعت بالحزام الأحمر الذي يطوق خصرها للأسفل وهي تمضي. ثم بادرت ريكسال بالسؤال في مودة وألفة: «حسناً، ما الذي ألقى بك هنا مبكراً هكذا؟». أجابها بحيوية ومرح: «زجاجتان من البيرة، واحدة لي، وواحدة لك»، فردتها عليه قائلة: «أستطيع أن أشتري زجاجتي بنفسني، لا أحتاج لرجل مثلك بملابس مشحمة مزينة ليشتري البيرة

لي!»، قال ريكسال مماًزحاً: «أوه، لي لي!» مال نحوها من خلال البار، ثم قفز عبره إليها، إلا أنها أوفقته بإيماءة منها باتجاه كيت وهي تقول له مداعبة بمرح: «ألا تنكسف من نفسك؟ تفعل ذلك أمام سيدة محترمة؟». استدار ريكسال قائلاً: «مرحباً، قول لي كيف حال بيرت؟». أجابته: «مريض جداً»، فأجابها: «أخبار سيئة جداً، بلغيه أجمل دعواتي له بالشفاء، ستفعلين؟».

أجابته: «نعم، بالتأكيد»، نهضت كيت، رغبة منها في أن تخرج من هذا الموقف، وأشارت لهما برأسها مودعة ثم مضت.

ظل كاري السائق ممسكاً بباب السيارة مفتوحاً، بطريقته اللائقة وبغاية الحزم، بينما شعرت كيت بسرور غامر بمجرد أن وضعت قدميها داخل السيارة. قام السائق برفع طرف ثوبها إلى جانبها داخل السيارة ثم أغلق بابها، وبدت بغاية السعادة بدوران العجلات في هدوء على الطريق إلى خارج ميستي فولز.

فقالت للسائق توجهه: «خذني إلى البيت».

وقبل أن يقول: «ألن نعود إلى...».

قاطعته مكررة في وضوح وتأکید: «كلا، إلى البيت!».

أجابها: «نعم آنتستي».

ساعة بعد أخرى وهي تجلس جامدة تتنازعها انفعالات شتى، تفكر في تلك القصة التافهة الحمقاء والتي اعتبرها بيرت سر أسرار حياته، وتردد في أذنيها صدى الكلمة التي سمعتها من المرأة: «إنه من ذلك

النوع الذي سيظل طفلاً حتى آخر يوم في عمره»، تلك المرأة التي لم تعد تريده على الإطلاق.

كان الوقت ما بعد الغسق، ومن قلب ظلمات الشتاء القاتمة؛ وجدت نفسها في الردهة المضيئة الدافئة، لم تشعر من قبل بهذا الوعي الشديد بقيمة كل الجمال والفخامة والرفاهية في الحياة الرسمية المنظمة مثلما شعرت حالما فتح لها سميدلي باب المنزل. كانت أبواب قاعة الاستقبال مشرعة على مصراعيها، وعبر الأرضيات المغطاة عن آخرها بالسجاد رأت النيران مشتعلة والمصابيح مضاءة والأزهار متألقة.

سألته: «هل هناك تحسن في حالة السيد هولم؟».

أجابها سميدلي بنبرة شجية: «أعتقد أن حالته كما هي تمامًا آنستي، العشاء سيكون جاهزاً خلال نصف الساعة آنستي».

كان لديها من الدوافع ما يكفي لأن تقول إنها لن تكون على العشاء، وعندئذٍ قررت أن تأخذ حمامًا بالماء المعطر وتمشط شعرها حتى يستعيد لمعانه، ثم ترتدي ثوب العشاء المخملي ذا اللون الأزرق الداكن. إذ كان شعورها بالأنفة يملأ كل قطرة من دمائها.

لمحت الكثير من الخطابات على المنضدة فاتجهت ناحيتها. وجدتتها مُصنَّفة إلى قسمين، كومة كبيرة تقارب الخمسين أو نحو ذلك من أجل بيرت، وخطابين لها. تناولتهما وألقت عليهما نظرة سريعة بلا مبالاة، وعندئذٍ أحست بأن الدماء قد تجمدت في عروقها. كان هناك خطاب من نورمان لينلاي، استطاعت أن تميز خط يده على الفور. لم لا يزال مرآى خطه الدقيق المنمق وهو يكتب اسمها يستدعي أن تتوقف

الدماء من أجله؟ كلا، إنه ليس اسمها، بل هي المرة الأولى التي يكتب فيها السيدة بيرت هولم. لقد جعل منها ذلك امرأة أخرى.

صعدت إلى الطابق العلوي ويدها تُطبق على الخطاب، غير قادرة على تخيل الدافع الذي يجعل نورمان يكتب لها، على الرغم من أنه من المحتمل ألا يكون شيئاً ذا أهمية، أو ربما بطاقات دعوة لحضور عرض أحد العروض المسرحية. لم تكن حتى على دراية ما إذا كانت لديه عروض مسرحية جديدة أم لا، ذهبت إلى داخل غرفتها وأغلقت الباب ووقفت مستندة بظهرها إليه، ثم مزقت المظروف وهي تفتحه، وألقت عيناها فوق إحدى أوراقه البيضاء المعتادة عدة سطور قليلة مما خطت يدها.

«كيت...»، كان اسمها مدوناً هناك كما اعتاد أن يكون، مباشرة، ودون عنوان أو مسافات بين السطور، «كنت منشغلاً في جحيم من الكتابة لأحد الأعمال المسرحية، وكان من المفترض بي أن أكتب إليك من قبل لأعبر عن أسفي بشأن مرض زوجك الشاب، أما عن المسرحية فهي أفضل ما كتبت حتى الآن. هل لديك ما يمنع من أن تخبريني بأنك شاهدتها، دون أيّ من خطبك العصماء المعهودة لو تسمحين. أريد أن أسمع أنها أروع عمل مسرحي في هذا الجيل، ولا شيء أقل من ذلك. وفي الواقع، هي كذلك فعلاً. إنه ليس عن شؤون الحياة الريفية هذه المرة، لقد انتهيت من ذلك، وربما كنت محقّة في هذا الشأن، أتذكرين مشاجراتنا معاً حول ذلك؟ وفي هذا المقام لا يسعني سوى أن أتمنى للفتى الشاب أن يصبح أفضل عاجلاً، كما هو شأنه دائماً، نورمان».

أعادت الخطاب داخل المظروف مجددًا ووقفت مرتبكة، فقد ذهبت كل محاولاتها خلال الأشهر المنقضية للانفصال عنه أدراج الرياح، وشعرت بالرغبة في أن تسمع صوته. كما كان عليها أن تعلم بطريقة ما ببساطة أنه هو، لم يكن الأمر متعلقًا بالحب؛ كلا، إنما كان ببساطة احتياجًا لديها لأن تعلم أنه هو بذاته، كما كان دائمًا. لو أنها استطاعت أن تنظر إليه وتسمعه وهو يتكلم عن أي شيء، كان ذلك ليعيد بعضًا من التوازن إلى نفسها.

انطلقت من فورها إلى الهاتف وأدارت القرص بالرقم القديم. لم تمنح نفسها حتى الفرصة للتفكير في ذلك، ورغم مرور الأيام، إلا أنه يبقى حاضرًا في ذاكرتها معتادًا كما كان دائمًا.

وعلى الطرف الآخر، أجابها شخص مجهول، ولكنه كان فقط خادمه.

سألته: «هل السيد نورمان لينلاي بالمنزل؟».

عاد يجيبها الصوت قائلاً: «أعتقد ذلك يا سيدتي... دقيقة واحدة...».

كان من المستحيل أن يكون متواجدًا هناك عَرَضًا هكذا، وفي متناول يدها كذلك بشكل كامل. حاولت أن تجبر نفسها لفترة طويلة على التفكير فيه على أنه مجرد ماضي، مجرد شخص ميت، أو شخص بعيد عنها بُعدًا لا نهائيًا، بينما كان طوال الوقت قريبًا منها إلى هذه الدرجة! لماذا كان يبدو لها دائمًا أن عدم حبه لها شيء شديد الأهمية؟ إلا أن الشيء الهام بالفعل كان ببساطة أنه فقط على قيد الحياة.

عندئذٍ أتاها صوته، إنه تمامًا صوته: «مرحبًا؟».

أجابته وهي تحاول ألا تتحجب: «كيت تتحدث؟»، ليس هناك ما يدعو للنحيب طالما لا يزال حيًا، ولكنها شعرت بالتوتر الشديد يسري في أعصابها، وبالتفكك في عظامها، جلست وقد بلغ توترها أشده وهي تنتظر سماع صوته مجددًا.

- حسنًا يا كيت!

- لقد تلقيت خطابك.

- هذا جيد، وكيف وجدته؟

- تقريبًا كعهدي به.

- يا لسوء الطالع، ولكنه سوف يجتاز ذلك، عليه أن يفعل، مع كل من يقومون بدعمه، فالأجواء لم تعد مليئة بالكثير من الخيارات. «نعم»، لم يكن لديها ما تقوله له، كل ما كانت بحاجة إليه هو سماع صوته.

- أفترض بك أن تكوني منشغلة للغاية يا كيت؟

- لو أنه طلب منها شيئًا، لوافقت.

- كلا، في الحقيقة الممرضات المحترفات لا يدعن لي المجال حتى لأقترب منه، إنه لشيء مثير للضجر بشكل مخيف أن تظل بانتظار... ألا تفعل شيئًا حقيقيًا.

- على العشاء غدًا إذن؟ فأنا لا أتناول وجبة الغداء، تعرفين ذلك.

- أجل أعلم. حسنًا يا نورمان، سوف يسرني ذلك.

- نفس المكان؟

- نعم.

- إلى اللقاء يا كيت.

زفرت قائلة: «إلى اللقاء». تناهى إلى مسمعها صوت إغلاق سماعة الهاتف، لقد مضى، ولكنه منحها الغد.

وفي غمرة رفاهية تلك الطمأنينة المفاجأة بدأت تخلع عنها ثيابها. وبذات الأريحية راحت تصب سائل الاستحمام بسخاء على المياه الساخنة، وأخذت حمًا يبّطء ثم ارتدت ثيابها قطعة قطعة حتى أدق التفاصيل المملة. ثم هبطت الدرج الهائل إلى قاعة الاستقبال. حيث كان والداها يحتسيان نبيذًا إسبانيًا، ولدى سماع سميدلي وقع خطواتها، أتى على الفور حاملًا الصينية.

فبادرتها والدتها لدى مرآها: «حسنًا يا عزيزتي! أعتقد أنك تبدين غاية في الجمال، هلا منحيت والدتك قبلة».

قالت كيت بسعادة: «بكل سرور».

قال والدها: «لقد عادت عليك الرحلة بالنفع، ربما قبّلتني أنا أيضًا بالمناسبة».

- قبّلتهم.

- هل أنجزت كل شيء؟

أجابت كيت: «نعم، أشكركم... كل شيء».

جلست إلى جوار المدفأة، وراحت ترتشف كأسها من النبيذ ببطء، وهي تأكل بعضًا من الخبز المحمص. كان كل شيء شهياً، جسدها النظيف المعطر، النيران والخمر، و... والغدا!

نظرت إلى والديها مبتسمة، كانا رائعين، كلاهما، والدتها في ثوبها من الدانتيل الفضي، ووالدها بشعره الأشيب وقد مشطه بعناية إلى الخلف، والذي تحول إلى اللون الوردي الدافئ تحت الأضواء المنعكسة من نيران المدفأة، والراحة التي منحها إياه النبيذ.

قالت والدتها: «أنا واثقة أن كل شيء سوف يكون على خير ما يرام».

أجابت: «كل شيء على ما يرام».

نهضوا جميعاً واتجهوا للخارج معاً تتوسطهما كيت، وكل منهم ممسك بيد الآخر. شعرت بأصابع والدتها الناعمة المزينة بالخواتم وهي تقبض على أصابعها برقة، وبقبضة يد والدها النحيلة القوية، وهناك أمامهم تماماً كانت حجرة الطعام، حيث برقت الطاولة تحت الأضواء الحالمة. جال بخاطرها وهي تفكر في الأمر بشكل عاطفي، أن أيًا من كل هذه الأشياء لن يكون من ثوابت حياتها مجدداً، على الرغم من أنها دائماً ما كانت ملك يديها. تساءلت وهي تنظر إلى حياتها، ما هو ذلك الذي تملكه؟ كانت تعتقد بأنه ليست الرفاهية أو رغد العيش هو ما تحتاج إليه، كان احتياجها في الحقيقة إلى شيء جوهري أكثر من ذلك، الإحساس والذكاء، تلك هي الأشياء الحيوية المؤثرة، وما قد تستتبعه تلك الاحتياجات، فلتدعها تنتج، ولكنه كان على الأقل حقاً

مشروعًا لها أن تعلم أنه بإمكانها أن تلتفت لتجد إلى جانبها ذلك العقل الذي يستطيع أن يعانق عقلها ويفهمه، وتلك اللمحة التي يمكنها أن تدرك لمحتها، الحديث الذي يخرج لأنه، وقبل كل شيء هناك الأذن التي تستطيع أن تسمعه.

جلست في هدوء خلال تلك الأمسية، كانت والدتها تتحدث إليهما وهي تنسج شيئًا من أجل أحد أطفال جايل، بينما تستمع إليها هي ووالدها. أحضر سميدلي بعض الويسكي والصودا وتركهما هناك، وسمعوا صوته وهو يغلق الباب الأمامي ثم يذهب لقضاء ليلته. وفي النهاية، بدأت السيدة تالانت تجمع غزلها قائلة: «أنا ذاهبة إلى الفراش يا أحبابي، كيت، ألا يفترض بك أن تذهبي للاطمئنان على بيرت قبل أن تخلدي إلى النوم؟». أجابت كيت: «نعم يا أمي»، لم تشأ أن تقول إنها لم تكن قد رآته بعد، وإن كانت قد شعرت بغريزتها التي لا تبرأ منها أبدًا، ولوجه الحق أيضًا ربما كان يجب عليها ذلك، ولكنها ما زالت عاجزة عن إتيانه. صعدت إلى الطابق العلوي حيث غرفتها الخاصة في محاولة للقراءة، وبعد ذلك بحوالي ساعة ذهبت إلى غرفة بيرت وفتحت الباب. نهضت الأنسة ويذرز من فورها، واضعة إصبعها على شفيتها، ثم همست بصوت خفيض: «لقد راح في النوم للتو».

أومأت كيت برأسها تفهمًا، ثم اتجهت نحو فراشه، فرآته وقد بدت عليه علامات الإعياء الشديد حقًا. كان هناك القليل ليذكرها ببيرت، ولكنها لم تشعر بشيء.

سألت الممرضة في همس: «هل هناك تحسن؟».

هزت الممرضة رأسها بما يوحي بالخطورة. ثم عادت تنطق مجدداً: «على حاله».

عادت كيت أدراجها من حيث أتت. لا فائدة تُرجى من أن يسبق فكرها الأحداث، على الأقل بشأن الغد. لا ضرر من التفكير في الغد، ذلك أنه لا يبدو أن نورمان قد زاد حباً تجاهها، ولو أنه فعل، فإنها بالطبع ما كانت لتذهب إليه، ولكن لو أنه كان قد فعل سابقاً، لما حدث أيّ من هذا الآن، لم تكن ستصبح كيت هولم، بل امرأة أخرى. من هنا، كان آمناً تماماً أن تفكر في الغد.

نفس العادات القديمة ما زالت هناك كأن شيئاً لم يكسر ذلك الإيقاع. ربما كانت لتأتي كل يوم إلى هنا كما كانت ذات مرة، بدلاً من ألا يحدث مطلقاً منذ ذلك اليوم الأخير، لم يغب عن ذاكرتها شيء. وبقيت عاداتها الحقيقية كما هي بين ثنايا ما يبدو ظاهراً على سطح حياتها من نشاط مختلف وأوقات مختلفة. ولكل ذلك، لم تنسَ قدمها تلك الدرجة المنخفضة أمام باب المطعم الصغير، ولم تنسَ يداها كيف كان الباب يتأرجح. وبمجرد أن خطت إلى الداخل اتجهت عيناها مباشرة صوب الطاولة التي تنتحي ركناً بعيداً تحت اللوحة المشكوك في أمرها لباول ريفير التي تصور مشهداً بارداً لأحد الأحياء الريفية. كم حظيا بالكثير من الضحك العابر على باول ريفير الذي كان نورمان يقول عنه أنه يشبه رمز الديك الأحمر المقاتل.

ظلت هناك وحيدة لوقت كافٍ غالباً، في انتظار نورمان، الذي كان دائماً ما يتأخر عن مواعده، أو حتى لا يأتي على الإطلاق إذا ما استمرت

إحدى البروفات، كانا متفقين أن ذلك أمر وارد الحدوث بالنسبة له، ولكن حتى معرفة ذلك لم تكن كافية لأن تخفف من وطأة الأمر عندما يحدث.

ولكنه اليوم كان هناك، وأنه على الفور. حتى عادات قلبها في الشعور ظلت كما هي أيضًا. وهو يقفز من مكانه بذات الطريقة المعتادة، حافظت عليه ثابتًا ...، دون أن تدعه يشع الآن من عينيها أو تترنم به نبرات صوتها! فالعادة هي مجرد غريزة اعتيادية عمياء للجسد، كانت بحاجة فقط لأن تذكر نفسها بذلك، وليس ثمة شيء فيها بعد كان حقيقةً كالسابق. شقت طريقها بين الطاولات المتراسة بالقرب من بعضها نحو الطاولة الخاصة بهما فنظر إليها ونهض من مكانه واقفًا على قدميه وتلاقت يداهما في عناق سريع.

بدأت الحديث قائلة: «لا أتذكر وجود كل هذا العدد من الطاولات هنا»، نظر إليها كما اعتاد دائمًا... لم يتغير شيء. بنفس الوجه الصريح الواضح، وذات العينين السوداوين مصوبتين نحوها بنظر اتهامها المباشرة. أجابها: «ولكن بيت يبدو في وضع مزدهر أكثر مما كان في السابق». جلسا إلى الطاولة وتناول هو قائمة الطعام والمشروبات.

سألها وهو يرفع حاجبيه الداكنين: «الطلب نفسه كالمعتاد؟».

أومأت برأسها قائلة: «تمامًا».

ولكن النادل كان مختلفًا، شاب إيطالي مفعم بالنشاط بدلاً من نوم، كبير الخدم الإنجليزي العجوز الذي اعتاد أن يقوم على خدمتهما وأن

يلحّ أيضًا عليهما أن يقوما بتجربة لحم الضأن لليوم.

سأله نورمان: «أين توم؟».

هز الشاب الإيطالي كتفيه بطريقة مأساوية قائلاً: لقد تُوفي، منذ شهرين، لقد سقط ميتاً مثل منزل ينهار، هنا في المطعم».

غمغمت كيت: «أوه، مسكين يا توم!»، لم يتسنَّ له أن يعلم بما حدث لهما، الرفيقان اللذان اعتادا المجيء إلى هنا كل يوم ليتناولوا الطعام بشراهة ويتشاجرا معاً بشكل غريب.

سألها النادل الجديد: «ماذا تطلبان؟». جعل يخط بيده خربشات سريعة على قدر سرعة نورمان في الحديث: «شريحة من اللحم البقري لفردين، سلاطة، جبن، وقهوة سادة».

ثم أضاف نورمان بلهجة آمرة: «على أن تكون شريحة اللحم حمراء غير مكتملة النضج».

اعتادا تناول تلك الوجبة بلا تغيير. لم يكن ليقوم بتجربة جديدة في الطعام، على العكس من أي شيء آخر. أسرع النادل مبتعداً. لمحت وجه نورمان ينظر إليه عابساً بعد انصرافه.

وبينما كانت على وشك أن تقول شيئاً قاطعها نورمان: «انتظري، لا يمكنني أن أتذكر ما الذي يشبه تلك الهيئة التي هو عليها، بأنفه الطويل وفكيه المستديرين الضئيلين وعينيهِ المتفتختين ومرفقيه الحادين... نعم، مثل جرادة، جرادة ترتدي مئزرة بيضاء، هل سبق لك أن من قبل أن رأيت جرادة عن قرب يا كيت؟». أجابته ضاحكة: «كلا». لأنها وجدته

لم يتغير، حيث اعتاد أن يقول عن توم أن ملامحه تشبه جريت داين عجوز متقاعد.

أجابها: «عليك فعل ذلك الصيف القادم. ستجدين شيئاً من الحكمة المجففة محفوظة هناك، وقدر رائع من الرضى والقناعة الداخلية، أما السلطعون فإنه كائن تَوَاق، دائماً ما يريد شيئاً ما وبينهما بون شاسع، يجاهد حتى ضد المحارة التي تحويه، في حالة ضجر دائم، قَلِقٌ وعصبيّ، يعدو مسرعاً مبتعداً عن نفسه، ولكن الجراد كائن قنوع». سألته: «ما مسرحيتك؟ فربما تستمر وتستمر في الحديث عن الجراد إذا ما تركت لك المجال لذلك».

نظر إليها نظرة خاوية بلا أدنى اهتمام. ثم قال على مضض: «أوه، إنها مسرحية، لا أحد يحبها كثيراً سواي، لذلك أعلم أنها مسرحية جيدة؛ ولكنها ليست من النوع الذي تحببته». احتجّت قائلة: «كيف لك أن تعرف؟».

أعلنها صراحة: «لا أمل في أن تنال إعجابك يا كيت، إنها تدور حول فتى جامح يهرب من الشيء تلو الآخر». سألته كيت: «لماذا؟».

أجابها: «فقط من أجل أن يكون حرّاً».

كان الحديث عن الحرية موضع شجار لا ينتهي بينهما، كانت دائماً ما تقول: «الحرية ليست نهاية في حد ذاتها، فليس ثمة جدوى من أن تجتث أحد الأعراف أو المعتقدات، مثل أن تقطع شجرة وتطرحها

أرضًا، فقط من أجل أن تطرحها أرضًا». بينما كان رأيهِ بالمقابل: «نعم، هناك جدوي...، لأنه قبل سقوطها لا يمكنك أن ترى ما خلفها بسبب ما تلقيه من ظلال».

عادت تقول في مثابرة: «ولكن ما الذي يفعله؟».

هز كتفيه بلا مبالاة قائلاً: «لا شيء».

قالت له: «إن ذلك لا يبدو لي كعمل مسرحي».

أجابها: «على الرغم من ذلك، فإنها كذلك، ومسرحية جيدة أيضًا، اللعنة».

- ولكن ما هي نهايتها؟

- يصبح حرًا.

- نورمان، تلك ليست نهاية، إذا ما لم يحدث شيء.

- هذا سخيف! إنها النهاية الوحيدة السعيدة في هذا العالم!

ولكن هذا كان سعيدًا بما يكفي بالنسبة إليها كما ظنت وهي تنظر إليه، وهي تشاهد تلك التغيرات البراقة القديمة في ملامح وجهه، فما زال فمه جميلًا، بل لا يزال فائق الجمال. ولماذا هو أجمل من شفتي بيرت المقوستين دائمتي الوسامة؟ هذا الفم لا يهدأ أبدًا. من المستحيل أن تجد وسيلة مناسبة لتصف كيف يبدو. إنه يتبدل مع كل تغير يطرأ على وجهه، فم صارم، فم قاسٍ، فم دافئ، ولكنها حظيت لمرات قليلة برؤيته وهو يتحول بشكل إعجازي إلى فم رقيق، وبسبب ذلك ظلت تراقبه.

النادل الذي يشبه الجرادة الصغيرة أحضر شريحة اللحم في طبق

معدني وقد علا صوت هفيفها، مغطاة بقطع من عيش الغراب والفلفل الأحمر، ثم قام بتقطيعها بعدة ضربات سريعة ووضع القطع أمامهما. همس لها نورمان قائلاً: «انظري إلى يديه».

نظرت كما أشار لها ورأت ما يشبه مجسات صغيرة على شكل يدين يكسوهما الشعر. وحالما انتهى مما يفعله وقف يفرك يديه الجافتين معاً، حتى ارتفع صوت صرير احتكاكهما ببعضهما. رفع نورمان أحد حاجبيه متسائلاً: «ألم أقل لك؟». وعندما ذهب الشاب، بدأ يسترسل في الحديث، كأن ذلك هو ما قفز إلى ذهنه فجأةً على أنه الموضوع التالي، دون أن يفكر في ذلك من قبل: «كما أن بيرت هولم يبدو مثل البغاء ذي العرف الكبير، أليس كذلك؟ لقد رأيتهم في حدائق الحيوان، يتمتعون بوسامة رائعة. إنهم ليسوا بحاجة لأن يحرصوا على بقائهم قيد الحياة، فهم في غاية الوسامة، فقط ألقمهم الطعام وسوف يقومون بالتقاطه».

ضحكت كيت قائلة: «إنه واحد من شخصياتك المفضلة! والده يعمل مزارعاً، كان عليك أن ترى يديه، يجعلانني أعتقد أنهما مثل جذور شجرة خرجت من قلب التربة. أما والدته فهي مثل الأم في مسرحيتك الأولى، قلت لك وقتها أنه لا وجود لمثل هذه النوعية من الناس، أتذكر ذلك؟ ولكنهم موجودون، يمكنك أن تجعل منهم جميعاً أبطالاً لإحدى مسرحياتك، الأب والأم والابن. لقد كنت على حق إلى حد ما، وكذلك كنت أنا أيضاً».

لم يحر جواباً عن هذا، وبدلاً من ذلك سألها: «ما الذي تفعليه بكل ذلك الجمال يا كيت؟ هل هو حقاً مثلما في الصور؟».

أجابته: «نعم إنه كذلك».

عاد يسأل بهدوء: «وماذا بعد؟».

كان يأكل بتلذذ واستمتاع في ذات الوقت وهو يتحدث، كان ذلك دأبه دائماً، يأكل بغزارة مما يختاره هو لنفسه، كما أن لديه القدرة على ألا يمَسَّ شيئاً لم يختره بنفسه.

أجابته بتحضر: «هناك كل شيء بعد».

تابع حديثه: «مثل الحياة مع لوحة فنية لشخصية عامة شهيرة».

قالت مصححة كلامه: «بل مع اللوحة المفضلة، الشخص الذي تريده، عليك باختياره، وسوف يمكنك أن تحتفظ به دائماً».

سألها ببراءة: «فقط للزينة؟».

قاطعته بحدة قائلة بلهجة هجومية: «توقف، فأنا لن أسمح بالاستمرار في هذا، إنه يرقد الآن مريضاً بيأس، ولم يكن يجدر بي أن أكون هنا على الإطلاق».

قال لها: «حسناً، لا بأس. إذا كنتِ تريدينها مباشرة، إليك ذلك، لقد علمت لحظة أن سمعت صوتك أنكِ حزينة».

- أنا لست حزينة.

- بل أنتِ كذلك، وإلا ما كنتِ لتطلبيني، امرأة سعيدة لم تكن لتتصل بي هاتفياً.

- ربما لم أرد أن أرسلك.

- إذا كنتِ سعيدة حقًا ما كنت لتلقي بالآ سواء كان ذلك بالكتابة أو
بغيرها، لن يكون لذلك أي معنى.

- ربما كنت سعيدة، ولكني لم أنس كل شيء بعد.

- ليس أنت يا كيت، ربما كانت جايل لتفعل ذلك، تتذوق بقايا
حب قديم بدافع من فضول بارد، ولكن ليس أنت، برغم ذلك.

قالت في همس: «لا يجب عليك أن تهينني مجددًا»، ونحّت الطبق
الموضوع أمامها جانبًا.

هز رأسه نفيًا قائلاً: «لم يحدث أبدًا أن أهنتكِ، بل لطالما تشرفت
بك، ربما كان من المحتمل أن أتزوج بك بدافع الشفقة، معتقدًا أنه
بإمكاني إهمالك فيما بعد، ولكني كنت أعلم أنه لا يمكنني إهمالك،
أي امرأة غبية يمكن معاملتها بإهمال، يا إلهي، تلك هي الغالبية العظمى
منهن!».

قطب جبينه وتغضنت ملامحه، وأشعل سيجارة بتوتر. ثم قال
متابعًا: «كيت، أنا لا أنوي أن أعكر صفو حياتكِ أو أ تدخل فيها، لماذا
أردت منك أن تأتي إلي هنا؟ أنا لا أعرف، وهذا حقيقي تمامًا، فقط
أردت ذلك، وهذا هو كل شيء. وأنت، سواء أردت أن تأتي، أو لم
تكن لديك النية لذلك، فكل ما أريد قوله لك: لا تظني أبدًا أنه يمكنكِ
الاحتفاظ بكل شيء على الأرض، أنا لا أظن ذلك، لأنه لا أحد يستطيع.
وأنا لا أستطيع، أليس كذلك؟ ولا تنتظري حتى تصبح خطواتك التالية
على شفا الهاوية، فقط استمري بحياتكِ، اقطعي ذلك الحبل، واحصلي
على حريتك».

ثم مال إلى الأمام عبر الطاولة نحوها فجأة ووضع يده على يدها.
وتابع متسائلاً ببساطة: «إنه مجرد ببغاء! لقد شاهدت مئات الصور
له! كيت! كانت هناك امرأة إلى جانبه مرات ومرات عديدة، شخص ما
قليل الشبه بك، ولكن ليس أنتِ برغم ذلك!» لم تتفوه بكلمة أو حتى
تبعد يدها عن يده،

«ما الذي حملك على فعل ذلك؟». طرح سؤاله عليها ببساطة
لدرجة التي معها بدأ الحنق يغمرها فجأة، حتى صاحت به: «أنت لا
تملك الحق في أن تسألني عن ذلك، أنت تحديدًا من بين جميع الناس!».
أجابها متسائلاً: «لماذا من بين كل الناس؟».

«لماذا؟ لأنك... لأنك لم تكن تحبني». كأن الكلمات قد اقتلعت
نفسها من داخلها، ما جعلها على الفور تتمنى لو أنها عادت أدراجها من
جديد.

عاد يسألها: «وما شأن هذا بذاك؟». شعرت برعب شديد وقد
سمعت نفسها تغمغم في خفوت: «بدلاً من الانتحار». كانت الكلمات
تتدفق كالدماء حارة غزيرة، كأنها نكأت جرحاً قديماً لم يندمل. يجب
أن يتوقف ذلك النزيف، وإلا فإنها ستموت. فإذا ما تصرف بوقاحة
الآن، ربما كان ذلك كفيلاً بكَيّ الجرح من أجل إسعافها، فقط إذا ما ظل
محفوظاً بوقاحته، التي اعتادها غالباً! ولكنه لم يكن كذلك هذه المرة.
وبديلاً عن ذلك، قال لها بنبرة مُلغزة مفعمة بالحزن: «لا تظني أنني لست
سوى شخص قاسٍ متحجر القلب، كل ما في الأمر أنني لم أكن لأستمر
في ذلك بأقل مما كنتِ تريدين. أنتِ تريدين أشياء رائعة يا كيت، أكثر

بكثير مما يملكه مجرد رجل، ربما من أجل أن يمنحه لامرأة، لم تكن حياتك معي لتصبح سعيدة».

جلست ترتجف متأثرة بلطفه ودماثته، لو أنه تعامل معها بحدة وعنف لأمكنها إذن أن تصده وتبعده عن نفسها، ولكنها الآن عاجزة عن أي دفاع أمامه، تناولت قفازيها وبدأت ترتديهما ببطء، وهي تراه بقدر شحيح من التعبير عن الحب، حيث جلس ينظر برصانة، ولكن ليس نحوها، بل إلى الأسفل. على الأقل فقد رآته، أو أقل ما في الأمر أنها سمعته يتكلم. ثم قالت بنبرة غامضة: «عليّ أن أذهب».

ما جعله يتابع حديثه بسرعة: «ربما كان عليّ أن أمنحك خيار ألا تكوني سعيدة، برغم أي شيء يا كيت، ربما كان ذلك هو الموضع الذي لم أكن فيه عادلاً بالنسبة إليك، فإذا ما سلمنا بأنك لن تكوني سعيدة، فأني نوع من التعاسة تفضلين، تلك التي تحظين بها الآن، أم تلك التي كان من الممكن أن تنالها معي؟».

نهضت واقفة، وعقدت رباط معطفها الصوفي بني اللون، ثم قالت بلهجة جافة ونبرات خشنة: «القضية هي أنك قلت لي إنك لم تكن تحبني بما يكفي».

أجابها بإخلاص: «أنا لم أفعل ذلك، ليس بسبب ما كنت تريدني، فأنا لا أستطيع أن أحب أي شخص يمثل ذلك القدر، ولكنك أيضًا لم تستطعي الحصول على ما كنت تبغينه الآن، أليس كذلك؟». ألقى بالسؤال عليها مباشرة حتى إنها شعرت كأنه يجب على جسدها نفسه أن يراوغ ليتفاداه، فقالت: «لديّ ما اخترته».

- وهو ما كنتِ لتختارينه مجدداً؟

- أعتقد ...، أعتقد ذلك.

وضع الفاتورة تحت منظاره الطبي، ثم نهض واقفاً على قدميه.

وقال لها: «لقد جعلتني أدرك أنني كنت على خطأ، اعتقدت أنه يجدر بي أن أجعلك تشعرين بالحرية».

أجابته بغموض: «أنت أحقق فيما يتعلق بالحرية».

أخذ بيدها فجأةً وأدار الدفة ليقودها وسط الطاولات المترصة، قائلاً: «أتفهم أنني كذلك، لو أنه من المقدر لكِ البؤس والشقاء لربما بقيتِ معي».

قالت بنبرة حارقة: «أنا لست بائسة!».

أجابها في سرعة: «بل أنتِ كذلك. دعيني أقول لكِ إنني قد رأيتكِ مئات المرات إلى جانبه، أنتِ بائسة تماماً».

- لو أنني بائسة بالفعل، فأنا لا أعلم شيئاً عن ذلك.

لا يزالان واقفين في الشارع الآن، يتجادلان بهذا الشأن، كما كانا يفعلان في السابق، وتحت عامود الإنارة عينه مرّات ومرّات، بشأن كل شيء. وقف أمامها مباشرة، من دون قبعته، والريح تهب على شعره الأسود، وقد تحجرت عيناه تحدقان فيها وملؤهما الغضب.

ثم صرخ في وجهها فجأةً: «عليك اللعنة، أنا أقول لكِ إنكِ كذلك! أتمنى لو أنني كنت قد تابعت ما بيننا وتزوجت بك، عندئذ كنت سأتمكن من دحر بعض المعاني والأحاسيس بداخلك!»

قالها وحشر رأسه في قبعته واندفع مبتعدًا ليبتلعه الغروب. لم ينظر خلفه من قبل ولو لمرة واحدة، بينما وقفت هناك تشاهد ما يفعل، كما اعتادت قبل ذلك في العديد من المرات. ولكنه لم يكن أيضًا معتادًا على النظر للخلف. ليس من الممكن أن يتغير أي شيء بينهما، كان ذلك المفهوم هو ما يتوجب عليها أن تحمله معها الآن فيما يخصه. سواء كان ذلك ما تريده أم لا، فسيظلان كذلك تجاه بعضهما ما طال بهما العمر. وعلى الرغم من كل ذلك فقد كانت تشعر أن عظامه قد خُلقت من نفس المادة المصنوعة منها عظامها، بل وأيضًا لحمهما مخلوق من نفس الطين، وسواء كان الحب بينهما قد صنع فارقًا أم لا، تبقى تلك هي الحقيقة.

خطت إلى داخل المنزل بمفاتيحها الخاصة، فعندما فتحت الباب، لم يكن هناك أحد أمامها، فقط عندما بلغت منتصف المسافة إلى الطابق العلوي على الدرج تناهى إلى مسمعها وقع خطوات مسرعة عبر الردهة أسفلها، وما إن نظرت خلفها حتى وجدت سميدلي يهرول مسرعًا حاملًا صينية. وفور رؤيته لها انطلق يقول: «لقد ساءت حالة السيد هولم بشدة يا آنستي».

وفي غرفتها كان والدها ووالدتها ينتظران، بادرها والدها بالحديث قائلاً: «أزمة شديدة، لقد حدث كل ذلك منذ ساعة واحدة تقريبًا، ولم نستطع العثور عليك».

التقطت والدتها طرف الحديث وتابعت: «ولحسن الحظ أن كلتا الممرضتين كانت هنا، واستطعنا أن نصل إلى الدكتور ليفيت، والذي

أحضر معه أحد المختصين، إنهم يقومون بكل شيء، ولا يريدون أحدًا منا أن يتواجد هناك».

سألت كيت: «هل يتوقعون أنه سيموت؟». بدأ قلبها يخفق بضربات غليظة، والفكرة تتردد داخل ذهنها، بيرت يموت!

أجابتها السيدة تالانت بسرعة: «أوه، توقفي عن ذلك يا كيت، بينما تدب فيه الحياة، تعلمين ذلك، إلى جانب أنه لا يزال صغيرًا جدًا». ولكن كيت كانت قد ذهبت، انطلقت إلى باب غرفة بيرت وفتحته بهدوء. كانوا جميعًا هناك من حوله. وقف سميدلي يحمل الصينية، يملأ اليأس ملامحه، لم تستطع أن ترى بيرت حيث انحنت كل الرؤوس فوقه كلها تتجه ناحيته، اعتدل الدكتور ليفيت قائلاً لها: «أعتقد أنه يمكننا أن نعمل بشكل أفضل لو أنك غير موجودة هنا سيدة هولم، فقط يمكنك الانتظار في الغرفة التالية، لو تسمحين. لو أن هناك أي خطورة حاليًا لأخبرناك بذلك».

استدارت عائدة إلى غرفتها الخاصة. كان كل من جايل وهارفي هناك بالفعل، ارتفع رنين الهاتف، وذهب والدها إليه، كان السيد روجر بريم. سمعت صوت والدها جافًا مقتضبًا يقول: «كلا... لا أخبار... منخفض جدًا... هذا هو كل شيء، إنهم يستعدون للمزيد من الأكسيجين... لا أحد يعلم».

وضع سماعة الهاتف قائلاً ببساطة: «تلك الجرائد اللعينة القذرة». قال له هارفي: «دعني أنا أقوم بمهمة الرد على الهاتف». واتجه نحو الهاتف بمجرد أن أنهى كلماته، بهيئة صلبة صارمة، رأت كيت

عيني جليل تتابعه، وهي ترتدي ثوباً رمادياً يتناسب مع هيئتها النحيلة،
وقميصاً بلون النيذ الداكن، تجلس متزنة حادة مثل علامة تعجب.

شعرت بأنهم جميعاً حولها، هؤلاء الذين هم لها ومنها متواجدون
بالإجماع حول كيت التي يعرفونها جيداً، والتي تنتمي إليهم ويعنيهم
أمرها. ولكن هناك كائن في داخلها لم يكن متممياً إليهم، ولا يعلمون
شيئاً بشأنه، ذلك الكائن الذي يجب عليه بطريقة ما أن يقرر بشأن حياتها
أو موتها.

ولكن كم هي غريبة تلك المنحة التي امتلكها بيرت، حتى إنه كان
قادرًا بوسيلة ما عندما أصابته أزمة، أن يتحاشى براءة القرار الأخير!
فلم يكن أحد ليلقي عليه باللائمة لمرضه، ولا حتى لوفاته في حالة ما
إذا وافته المنية. ولكنه إذا مات، عندئذٍ سيكون الحل بالنسبة إليها في
تلك الوفاة. من الممكن أن يصيبها ذلك بالحزن، ولكنه لن يكون أكثر
شدة وتكثيفًا من الحزن الذي تشعر به هذه الأيام، حزنها على شيء ليس
موجودًا، ولم يكن موجودًا من قبل. وسوف يعني الموت فقط، أنه ليس
من الممكن له أن يكون، وسوف ينتهي بيرت بالنسبة إليها كما لم يكن
موجودًا في حياتها من قبل، وهذا هو كل شيء. ربما كان ذلك هو ما
يعنيه الموت، على كل حال، نهاية لحلم، ونهاية أيضًا لتحقيقه، أو هو
ربما فقط الحرية! ولكن نورمان كان مخطئًا فيما يراه بشأن الحرية، إذ
إنه ببساطة، مجرد الحصول عليها لا يكفي بالضرورة لأن يجعل الإنسان
حرًا، فإذا ما حصل عليها شخص ما، إذا ما تغيرت الحياة بحيث كانت
دون أن يتقيد المرء بواجباته حيث انتهت جميعًا وبدأ فجر الحرية في

البزوغ، عندئذٍ بالطبع على المرء أن يقبلها كمنحة، تمامًا كما يتقبل الأحزان أيضًا. سواء أعطتنا الحياة ذلك أو لم تفعل، هذا هو كل ما في الأمر. ليس هناك ما يفوق قيمة أن تستطيع اختيار أي شيء، فقد منحها الحياة نورمان، ومنعته عنها أيضًا، ثم منحها بيرت، ولكن فقط بالكيفية التي هو عليها. فإذا ما مات الآن، لن يكون هناك سوى عودة إلى فراغ آخر. أو بالأحرى، هل سيكون هناك فراغ حقًا؟

وبكل ما فيهما من حزن وغموض التقطت عيناها بتساؤل عيني جايل وقد صوبت نظراتها الحادة نحوها وركزتها عليها، ورأت أصبع جايل وقد رفعته إلى شفيتها ترسل إليها قُبلة في الهواء، ابتسمت لها ابتسامة سريعة متحفظة.

ارتفع رنين جرس الهاتف، وعلى الفور كان هارفي قد التقط السماعة وهو يقول: «أنا آسف... كلا، لا توجد معلومات، نحن نقدر تعاطفكم، في غضون وقت قريب، إذا ما اتصلت بالسيد روجر بريم، المتحدث الرسمي باسم السيد هولم».

قالت والدتها في همس مسموع: «إنه شيء غير محتمل على مدار اليوم، إن كل أخباره تبدو ببساطة كأنها تطير وتنتشر في الهواء».

أضافت جايل: «إنها كذلك بالفعل، عندما كنا في الطريق إلى هنا أراد سائق السيارة الأجرة أن يعرف كيف حاله».

غمغمت السيدة تالانت: «غريبة هي تلك السيطرة التي يتمتع بها».

أجابتها جايل: «بل السحر الذي يتمتع به، والذي يشعر به أي

شخص. إنه نوع من الصراحة والمباشرة تنبع من داخله تجاهك».

نظرت إليها كيت وهي تكرر ما قالت: «الصراحة!».

قالت جايل: «لا أقصد المصادقية بالضرورة، فالأمر ليس بهذا التعقيد يا كيت! أنا أعني ببساطة أنه ينفذ إليك من حيث تصادف أن يكون في اللحظة التي يراك فيها، وقد نسي الأمس أو حتى هذا الصباح، أو منذ خمس دقائق مضت؛ لا شيء في كل ذلك يصنع فارقاً بالنسبة إليه، لأنه قد مضى، بينما هو لا يستطيع أن يرى ما هو أبعد من الغد. ولكنه يمنحك كل ما هو عليه الآن، أيًا كان من تصادف أن تكون».

قالت السيدة تالانت معترضة: «يا للسماء، يبدو هذا شديد التعقيد بالنسبة لي».

سمعوا صوت طرقات على الباب، ثم دخل سميدلي، فسألته السيدة تالانت: «ما الذي يحدث الآن؟».

قال لاهثاً وبصوت يشبه العويل: «أوه، سيدتي، أشعر أنه يتوجب عليّ أن أخبرك سيدتي، وأنت يا سيدي، وأنت يا آنستي، سيدتي...».

ظلوا يحدقون به، فلم يرَ أحد منهم سميدلي بهذا الحال من قبل.

حتى صاحبت به السيدة تالانت بصرامة: «سميدلي، لا تكن سخيّاً».

قال في همس: «كلا يا سيدتي»، لو أن أحداً كان قد أخبره بأنه سوف يكون عليه أن يخبر السيدة الكبيرة بشأن اتفاقه الخاص... صمت لبرهة ثم عاد يقول: «إذا كان السيد هولم على وشك أن... أن يموت»، مرر يده بسرعة على أنفه ليحففه ثم تابع: «أنا لا أسامح نفسي، يا سيدتي،

ولكنني أخشى أنه قد حدث شيء مميت والذي قد يتسبب في موته في تلك الليلة، في ليلة خرج فيها مع...».

«خرج بصحبتك أنت يا سميدلي؟»، كان وقع صوت السيدة تالانت المبهوت كمن وضع له الثلج أسفل ياقته.

ازدرد لعبابه ثم تابع بتردد وبصوت ضعيف: «نعم سيدتي، لمشاهدة قتال الجوائز في الفرست أفينيو، حيث شعر بالدفء الشديد فلم يضع عليه معطفه، عندها لم يشأ أن يرتدي معطفه، قال إن جسمه ساخن بما يكفي...»، وراح يتتحب من هول شعوره بالرعب.

نظرت السيدة تالانت بسرعة إلى جايل وهي تعض شفتها. كانت نظرتها تقول بأنه الآن مثل بيرت، كمن على وشك الموت، ولذلك فلا مجال لتوبيخه أو حتى الحديث معه بشأن ذلك، فالخروج مع كبير الخدم هو سبب كل شيء إذن!

لكنها قالت بحدة: «إنه من سوء طالعك أنك انتظرت طويلاً لتتطرق بذلك يا سميدلي».

قال سميدلي وهو يتلعثم: «لقد أخبرني ألا أفعل، على الرغم من أن ذلك ظل في رأيي شيئاً مخيفاً».

وهنا قال السيد تالانت فجأة: «وهذا سيكون كافياً». شعر سميدلي بسعادة بالغة لأن الأمر قد انتهى عند هذا الحد فتمتم قائلاً: «نعم يا سيدي». وهرول مبتعداً إلى الخارج.

قالت جايل على سبيل الملاحظة: «كنت لأضحك، لو أن الوقت

كان مناسباً لذلك»، أجابتها السيدة تالانت: «أنا لا أرى أي شيء مضحك في الأمر، إنه فقط شيء... شيء وضع».

قال السيد تالانت: «صه! لا تتحدثي عن ذلك بعد الآن».

كان ينظر إلى كيت، التي لم تتفوه بكلمة واحدة، والآن تجلس باهتة في حالة من الجمود، بينما يبدو فمها متوترًا بشدة كما لو كانت تحاول ألا تبكي.

قالت والدتها بنبرة حادة وهي تناشدها الهدوء: «استرخ يا كيت! لن يفيد بيرت ولو قليلاً أن تكوني مجهدة ومتوترة هكذا، كل ما يفعله ذلك هو أن يجعلك فقط تتأكلين من داخلك، بينما لن يزيده في الأمر شيئاً أكثر مما سيلقاه على أي حال».

ارتجفت كيت لسماع صوت والدتها، كلا، ولكن كم هي سخيفة تلك الخدعة الجديدة التي اكتشفتها للتو من أفاعيل بيرت؟ لماذا أخفى ذلك أيضًا عنها، إذا ما أراد أن يذهب مع سميدلي إلى ساحة قتال الجوائز؟ وقبل أن تستطيع الإجابة على تساؤلاتها، إذا بالطبيب يقف بالباب، ثم خلع نظارته الطبية وابتسم قائلاً:

«أنا في غاية السعادة بأن أزف إليكم نبأ أنه سوف يكون بخير».



الفصل الخامس

بدأ بيرت يتعافى من حالة اللاوعي، ليرى أول بصيص من الضوء العائد إليه على هيئة انبعاث ناعم لمجموعة ذهبية من الأشعة المنتشرة حول وجه غير واضح المعالم.

قال بصعوبة محاولاً تحديد ذلك الوجه: «لست كيت». لم يكن بإمكانه التفكير، أو لم يكن يملك من القوة ما يُمكنه من التفكير. ولكن ثمة سؤال ظل يلح على ذهنه عما كان ذلك الشعر الذهبي، ربما لي لي؟ ذلك الجهد الذي بذله في محاولة التفكير أدى به إلى الشعور بإعياء شديد للدرجة التي جعلته يتقيأ. أثاره صوت ناعم يصرخ محتجاً ومحدراً: «أوه، كلا، ليس من المفترض أن تفعل ذلك الآن!».

وقُفَّ الصوت جعل الوجه أقرب بالنسبة إليه، فظل يحدق فيه محاولاً أن يركز عينيه عليه وأن يخرج من حالة الضعف التي يعاني منها، عاد يقول: «لست كيت». لقد احتاج لأن يستجمع طاقة هائلة ليستطيع التفوه بهاتين الكلمتين بصوت مرتفع. ولكنهما كانتا غير مفهوميتين. ولكن على الأقل أثاره الصوت من جديد قائلاً: «حاول أن ترتاح الآن، الكلام ممنوع». وامتدت يد لتمس رأسه للحظة.

قال بصوت أكثر وضوحًا: «أشعر... أنني محطّم». شخص ما أدار جسده ليجعله يعتدل، فصرخ قليلًا، إذ لم تكن لديه أي رغبة في أن يغير أحد وضعه.

ثم لماذا لم يطعمه أحد؟ شريحة من اللحم البقري... أي شيء يضعه في معدته! مال شخص ما عليه مرة أخرى، ولكن ليس نفس الشخص. استطاع أن يرى عينين داكنتين عيني كيت، صوتها يقول بوضوح: «بيرت، لماذا تصرخ هكذا؟ ما الذي تريده؟». فقال لاهثًا: «شريحة من اللحم البقري، لا شيء في المعدة».

ضحك شخص ما، لم تكن كيت. إنما كانت جايل! والتي قالت: «إنه على قيد الحياة، لا بأس، لماذا لا تحضرين له شريحة اللحم؟».

كان وجهه جافًا وقد توقف عن الصياح. وبعد وقت طويل أحضر له شخص ما بعض الحساء بطعم اللحم البقري، كانت الغرفة هادئة تمامًا إلا من شخص كان يتولى إطعامه، فتح عينيه، فإذا بها ليست كيت مرة أخرى. كانت الفتاة الشقراء، قال متسائلًا: «لست لي لي؟».

هزت تلك الكتلة الذهبية نفثًا قائلة: «أنا ممرضتك، كونستانس ويذيرز».

كان يعلم أنه يجب عليه أن يقول شيئًا حيال ذلك، ولكنه ظل لفترة طويلة عاجزًا عن التفكير فيما يمكن أن يكون. استطاع ذلك فقط بعد أن انتهت من إطعامه وقامت بنهي طرف الغطاء من حوله، وواتاه ما يمكنه قوله فقال هامسًا: «مسرور... جدًّا لمقابلتك».

فقلت له: «عليك الذهاب للنوم الآن».

أراد أن يجادل بشأن ذلك، ولكن قبل أن يشرع حتى في الحديث؛ غرق في نوم عميق.

وفي المكتبة وقفوا جميعاً، في حالة من التأهب للافتراق بعد الأزمة التي جمعتهم معاً.

صاحت جايل ضاحكة: «شريحة لحم بقري! تلك كانت أول كلمة نطق بها».

ابتسم السيد بريم بتحفظ قائلاً: «أنا أنصح بأن يظل ذلك على المستوى الخاص، بأي شكل كان»، لقد أتى في الحال على أثر المكالمات التليفونية التي أجراها معه هارفي كرين وأخبره فيها أنهم قد عبروا الأزمة بنجاح. وبالطبع فإن خططه بالنسبة للدعاية كانت جاهزة بالفعل، بإحدى طريقتين. كان قد أملى على سكرتيره الخاص مخططين تمهيديين محددين، على أن يُستخدم الآخر في حالة وفاة بيرت هولم، والذي أصبح، لحسن الطالع، غير ذي قيمة بالنسبة إليهم الآن. ولكنه كان من صميم عمله أن يقوم بإعدادده. «إذا ما وافقت يا سيد تالانت، فإنني سوف أعطي تصريحاً مهيباً لكل الجرائد الصباحية بما فحواه أن السيد هولم قد استطاع عبور الأزمة المتمثلة في المرض الخطر الذي ألمَّ به، وتجاوز مرحلة الخطورة».

قال السيد تالانت بحذر: «يبدو معقولاً».

استمر السيد بريم في الحديث بتلك السلاسة الجافة قائلاً: «وفي غضون اليوم أو اليومين التاليين يسعدني أن أسلم إليك خططي بشأن الحصول على أقصى فائدة ممكنة من الموجة العاتية لعودة السيد هولم إلى دائرة الاهتمام مجدداً. يمكنني أن أطمئنك بهذا الشأن»، ثم نظر حوله إليهم جميعاً وتابع: «لم يحدث أبداً خلال حياتي المهنية، والتي قد قمت خلالها بإدارة عدد من أهم برامج الدعاية لأشهر الشخصيات العامة في وقتنا الحاضر، أن رأيت مثل هذا الكم الهائل من الخطابات والبرقيات والتي تدور جميعها في إطار التعبير عن التعاطف والحزن، كان من الممكن أن يساوي هذا الرقم...» سعل بهدوء ثم تابع: «بوفاة السيد هولم، والذي تم تفاديه لحسن الحظ، والسؤال الآن هو...».

قاطعته جايل وعيناها تلمعان بالضحك، قائلة: «لو أنك سمحت لنا، علينا العودة إلى البيت، هيا بنا يا هارفي».

أجابها هارفي: «نعم بالتأكيد يا عزيزتي».

... كان هارفي مهتماً قليلاً بنظريات هذا الرجل، السيد بريم، ولكنه كان بسرعة يولي جايل أمر كافة الشؤون الصغيرة، محاولاً أن يقدم واجهة طيعة مرنة لتحفظ وضعها بين أصدقائها من الحرج والارتباك. ولكن دون أن يمنحها أي أفضلية في الأمور الهامة والتي كان ينفرد بالقرار في شأنها منفرداً، وجايل -كمعظم النساء- كانت تفضل ذلك -كما أنه يعلم ذلك جيداً. وكان ممتناً على الدوام أن جايل كانت امرأة عاقلة، مع أن لديها من المهارات الذهنية الكثير، وليست مثل شقيقتها كيت. بينما كان هناك شيء شديد الغرابة بشأن ذلك المخلوق الصغير

الداكن، عندما أخبرهم الطبيب بأن بيرت في طريقه لأن يكون على ما يرام، صفقت جايل بيديها وقفزت من مكانها واقفة على قدميها. بينما جلست كيت ببساطة شاحبة الوجه كأنها قطعة من الصخر، واتسعت عيناها وازدادت سوادًا كما لم يرهما من قبل، حتى بدا الأمر كأنها كانت تعوّل على شيء مختلف والآن لا تدري ما الذي عليها فعله، ولكنه كان متوقعًا منها أن تقوم بإعداد وتهيئة نفسها للأسوأ. ولذلك فربما هي لا تدري الآن ماذا تفعل حيال الصدمة التي أحدثتها الأخبار الجيدة. رمقها بنظرة جانبية خاطفة، لم تكن قد تفوهت بكلمة منذ أن خرجت من غرفة بيرت، والآن تجلس هناك على الأريكة الضخمة، ولكنها تبدو بعيدة ومنطوية على نفسها أكثر من أي وقت مضى، ولكنّ أحدًا لم يكن يفهم ماذا بها. وضع ذراعيه بامتنان حول حبيته جايل، إن تعقيداتهما كانت على الأقل من مستوى التقلبات النسائية الذي يفضله.

سألها وهو يقودها بلطف قدمًا: «جاهزة؟». ثم قال لوالدها وهو يهم بالمغادرة: «يمكنك الاعتماد عليّ إذا ما احتجتني. تصبحين على خير يا كيت، تقبلي تهنئتي، طابت ليلتكم، تصبحون على خير جميعًا». ترك جايل ليمنحها الفرصة لتقبل عائلتها، كان يحب مشاعر تلك العائلة الحميمة. كانت طبيعية وحقيقية، تمامًا مثلما كانت عائلته، على الرغم من أن إحدى شقيقاته ماري قد انفصلت عنهم وأصبحت إلى حد ما غريبة الأطوار، كان ذلك بسبب أنها لم تتزوج من قبل، النساء دائمًا ما يتسمن بالغرابة إذا ما لم يتزوجن.

استقلاً إحدى سيارات الأجرة، وللحظات لم يتبادلا معاً أي كلمة، عندئذٍ قالت جليل وهي تتشاءب من خلف يدها: «كنت أعلم أن بيرت سوف يتحسن». ربتت على شفتيها ثم أضافت ضاحكة: «بعد أن تسبب تقريباً في حزن الأمة كاملة».

قال هارفي وقد بدت عليه بعض علامات الضيق والكدر: «بالضبط». أخرج ساعته المسطحة ذات العلبة البلاطينية، كانت الساعة حوالي الثانية صباحاً وهو يكره كثيراً أن يفقد موعد نومه؛ فذلك يفسد نظام اليوم التالي.

وبعد أن رحلا، كان السيد بريم في المكتبة يقول: «هل يمكننا أن نلتقي غداً، لنقل في الثالثة؟ لا أريد أن أبدو مندفعاً متعجبلاً، ولكنني بالكاد أستطيع مناقشة الأهمية الكبرى للاستفادة من حالة الحماس والاهتمام العام السائدة حالياً، فالجرائد اليومية كما تعلم...»، نظراته الحماسية الجارفة شملت كيت، وأيضاً والدها ووالدتها، وهو يتابع: «كانت تتبارى في إبراز شجاعته يومياً في الكفاح من أجل حياته، لأنه طبقاً لما جاء في جريدة مورنينج نيوز اليوم لديه كل شيء ليحيا من أجله. التوقعات العامة الآن أن بيرت هولم سوف يقوم بعمل أعظم من أي شيء قام به من قبل».

شعرت كيت بالرعب وسط حالة السكون التي حلت بها، عندما علمت بأن كل شيء سيجري كما كان في السابق، هل حقاً أنها لم تُرد بشكل مؤكد لبيرت أن يموت؟ نهضت من مكانها، غير قادرة على تحمل ما تشعر به بداخلها، قائلة: «عليّ أن أذهب إلى الفراش».

نهضت السيدة تالانت أيضًا في الحال، قائلة: «نعم، علينا جميعاً أن نفعل ذلك، يا له من يوم عصيب! يمكنك أن تتفهم ذلك يا سيد بريم».

أجابها السيد بريم مترجعاً للخلف قليلاً: «أوه، بالتأكيد»، ثم قال السيد تالانت: «إذن، إلى الغد يا بريم». لم يكن قد تفوه بكلمة منذ أن رأى وجه كيت عندما أتى الطبيب، إنها لم تكره الرجل، أليس كذلك؟

ترقد كيت في فراشها بلا حراك، قبَّلها والدها قبل قليل متمنياً لها ليلة سعيدة دون أن يضيف كلمة واحدة أكثر، بينما أتت والدتها لتطمئن عليها وتؤكد من كفاية الأغذية، حيث تحولت الليلة إلى البرودة الشديدة، ثم قبَّلها بدفء وذهبت أيضاً دون أن تذكر شيئاً عن بيرت. وعلى الفور بدأت أحداث اليوم تعيد نفسها أمام عينيها، بيرت في طريقه ليستعيد عافيته، تأكدت من ذلك بنفسها عندما رأت عينيه الزرقاوين تنظران للأعلى نحوها عبر وجهه الشاحب، لم يستطيعوا قص شعره وتهذيبه ما جعله يرقد نافر الشعر متناثرة خصلاته إلى جانبه على الوسادة مثل شعر طفل صغير. بينما استطاعوا أن يواظبوا على حلاقة ذقنه، مما جعل مظهره يبدو أصغر سنّاً عما كان من قبل. سيظل محتفظاً بذلك الشباب مادام حيّاً؛ لأنه ينبع من داخل نفسه. لم يكن هناك شيء يمكن أن يحدث له، إنما كل ما حدث، فقط يحدث لها، ويترك آثاره عليها، فلم تستطع أن تنسى شيئاً، الساعة التي قضتها بصحبة نورمان أعادت إليها كل شيء، هل تمنيت لو أنها لم تذهب إليه؟ ولكن إذا كان كل شيء مختفياً هناك بداخلها، فكان يجدر بها إذن أن تعلم بشأنه حتى تستطيع أن تضعه محل الاعتبار.

كانت مستلقية تلتقط أنفاسها في الهواء الثلجي القادم من النافذة المفتوحة، كيف يسير الآخرون عبر حياتهم؟ هل يتخبطون هكذا مثلما تفعل؟ ولكن ما أرادته هي كان قليلاً جداً، لديها تقريباً كل شيء قد يصبو إليه الناس ويكافحون من أجله، المال، المنزل الاجتماعية، الدرجة العلمية وما إلى ذلك. ولكن على الرغم من امتلاكها دائماً لكل هذه الأشياء، فإنها لم تستطع أن تقدر قيمة أي منها؛ لأن لديها النقيصة الجوهرية، الصحة الأساسية الضرورية، ذلك النوع من الأشياء الذي لا يصنع فارقاً معه أن تكون ثرياً أو فقيراً. فلم تقابل شخصاً على مدار حياتها استطاع أن يمنحها ذلك باستثناء نورمان، والذي لم يستطع أن يحبها بما يكفي لأن يمنحها ما تحتاج، لديه كل شيء، ولكنه قالها مجدداً هذا المساء.

بيد أن الأمر لم يعد مفاجئاً بالنسبة إليها الآن كما كان في السابق. لقد ألقى بها من قبل في غيابات سحيقة، والذي هو الآن، ولأنها تعلم أنه كان يشعر معها بطريقة ما بالرفقة، حتى وإن كان ذلك بشكل غير مقصود، أصبح معه اليقين غير المقصود يبدو قريباً جداً من حالة حب. أما بشأن ما قاله عن الاختيار في التعاسة، كان بالفعل هو ذلك الاختيار، لقد واجهت حقيقته الآن، فعندما يتعافى بيرت ويستعيد قوته بشكل كافٍ، ربما عليها أن تختار على الأقل نصيبها من التعاسة، هذا إذا ما استطاعت ذلك. لو أنها فقط كانت تعلم كيف تصبح قاسية القلب، ولكن لا وجود لصفة كهذه في نفسها، وهذا هو مبعث ضعفها، لي لي ونورمان، هما نقيضان لشخصيتها، غير أن لدى كل منهما نفحة قوية من

قسوة القلب، أما بالنسبة إليها فلم يكن من الممكن لشيء أن يكون فوق الاحتمال عندما تضع الأمور برمتها محل اعتبارها، حياتها كانت فوضى عارمة من الاعتبارات. تنهدت، ثم ولت مبتعدة عن نفسها...، على الأقل ستذهب لتشاهد مسرحية نورمان، قد يكون من المبهج بالنسبة إليها أن تعود لمشاهدة البروفات مجدداً. لقد اعتادت أن تجلس ساعات بعد أخرى في المسرح وهو خاوٍ ومظلم لتشاهد البروفات، تشاهد جنون الناس وهي تحاول أن تضع العالم في مجرد خطاب فردي، أو إيماءة، أو حركة.

ولكن بيرت قد بدأ يتعافى، غرقت في النوم من شدة الإرهاق، على الرغم من أن عقلها ظل متيقظاً، يستعيد شظايا ذكريات، بيرت سوف تتحسن حالته، ولكن هناك أيضاً نورمان، لم تستطع أن تنساه. اعتبارات هائلة تقف في مواجهتها وتقع على عاتقها. رأت ما يشبه صورة صغيرة لشخصيتها، وهي تكافح على مدى مسار طويل بين منحدرين صخريين كليهما عظيم الارتفاع، يشبه جبال بيرت!

ارتفع رنين الهاتف فجأةً إلى جانب سريرها، فوثبت وقد تبخرت رغبتها في النوم، لتجد صوت نورمان يتسلل إلى أذنها.

- كيت؟

أجابته: «نعم».

- بحق الجحيم، أنا لا أعلم لماذا أتصل بك.

قالت: «لقد كنت تقريباً نائمة».

أجابها: «أنا لا أستطيع النوم، ظللت أعمل في البروفات طوال المساء، ماذا كنت تفعلين آنذاك؟». عليها أن تخبره بسرعة، قالت له: «بيرت قد بدأ يتحسن، عندما عدت للمنزل كانت حالته سيئة جداً، لم يكن أحد يعرف شيئاً عما... ولكنه استطاع أن يتجاوز الأزمة بسلام».

لم يستطع الإجابة للحظة. ثم قال بهدوء شديد: «ربما كان هذا هو سبب اتصالي، فقط لأعرف ذلك». قالها ووضع سماعة الهاتف.

ظل السيد بريم يقول: «العلم، العلم ربما هو الشيء الصحيح بالنسبة إليه، كشيء جدي».

لم تستطع النوم حتى بزوغ الفجر، وبعدها تمكنت من أن تنام الصباح بكامله، ولكنها برغم ذلك تشعر حتى الآن كمن تكسرت عظامه تحت وطأة النوم غير المكتمل. كانوا يجلسون مع السيد بريم في المكتبة مجدداً، والدها ووالدتها وهي، تحيط بهم الزهور من كل جانب.

استمرت الخادومات في العمل على تنسيق الزهور طوال اليوم. فبمجرد أن أعلنت الصحف شفاء بيرت وتحسن حالته، والزهور تنهال على المنزل، حتى إن السيدة تالانت، بوجه متجهم، قالت بقسوة: «كان من الممكن أن تكون الزهور أكثر من ذلك لو أن ذلك كان عزاءً».

والآن، وبما أن بيرت قد بدأ يستعيد عافيته، فسيكون هناك العديد من الأمور التي يجب عليها أن تتعهدا بأسرع ما يمكنها. الممرضات، أحد أهم الأسباب، كان المطبخ يعج بالفوضى العارمة بسبب الطلبات المتضاربة من الممرضات، براين وويدرز وصلا إلى مرحلة ما يشبه الطعن بالخناجر. وقد رفضت هي مناقشة الأمر طوال الفترة التي بدا

فيها أن بيرت على وشك أن يموت، ولكن منذ أن بدأت حالته تتحسن أصبحت مواجهة تلك الأمور واجبة.

العلم، هو ما كان يتحدث عنه السيد بريم؟ ركزت انتباهها ناحيته، تابع السيد بريم وهو جالس على مقعده إلى جوار المنضدة المصنوعة من خشب الماهوجني: «إنه شيء ضروري، لتعزيز وتدعيم موقف السيد هولم. في هذه البلاد، العلم هو الشيء ذو الشأن العظيم، لا يمكن الحصول على نتائج جديرة بالتقدير أو محسوبة بدقة للاحتفاظ بالاحترام الشعبي دون دراسة مستفيضة لبعض الأطروحات العلمية، فالعامة عادة يشعرون بالاحترام تجاه ما لا يستطيعون فهمه، ومن زاوية أخرى، حتى ينهكم السيد هولم في عمل شيء ما. لكل ذلك، فإن رحلة بحث علمية على نفس المسار الخاص به، أو بالأحرى شيء نظري مجرد، والذي لا يحتاج إلى الكثير من الوضوح أو التحديد، والذي أيضًا يمكنه أن يشغله لبقية حياته، سيكون ذلك مناسبًا تمامًا، كما أنه سيجعل من مكانته لدى الجماهير ثابتة وجلييلة في آن واحد».

سأله السيد تالانت بشيء من اللطف: «ماذا تقترح إذن؟». فهو يعلم جيدًا على مدار حديث السيد بريم الذي انتهى منه تواء، أنه ببساطة سيقود إلى فكرة قوية، وذلك كان السبب في تعيينه للسيد بريم؛ لأنه دائمًا ما يكون لديه شيء قوي في أعماقه، لو أن المرء على استعداد للانتظار معه حتى النهاية.

قال السيد بريم بشكل حماسي: «البعثة الاستكشافية الثانية، والتي ليست على الإطلاق على شاكلة الأولى، بالطبع، ليست رحلة أو مغامرة،

بمعنى آخر، هي بعثة استكشافية يتم التخطيط لها على أساس علمي». ثم استدار ناحية كيت، وتابع متسائلاً: «هل سبق أن ذكر لك شيئاً عن بعثة استكشافية أخرى؟».

تذكرت تلك الليلة في منزل جايل عندما كانا في الشرفة وهو ينظر من الأعلى إلى المدينة بأكملها، وأجابته: «لقد قال ذات مرة أنه يود أن يعود مجدداً إلى جباله».

قال السيد بريم بسرعة: «هذا هو أفضل شيء ممكن على الإطلاق، فالجماهير تحب إعادة الحدث الأساسي بشيء إضافي من المغامرة ولكن على المسار الأساسي المؤلف. بينما يشعرون بالاستياء من البدايات الجديدة، والآن، هل على السيد هولم أن يقود رحلة علمية أو أكاديمية بمفرده؟ لن يضيف ذلك أي شيء مميز لتحسين مركزه. فلن يكون لدى الجماهير خارطة لتتبعها، فقد استقر في أذهانهم عن السيد هولم أنه مستكشف، ويجب أن يستمر في الاستكشاف. كل ما نريده هو زاوية جديدة لشيء هو بالفعل مؤلف. العلم...»، قاطعته السيدة تالانت بأن هتفت معترضة: «العلم! بيرت لا يعرف شيئاً عن العلم!» كانت تجلس على مقعد ضخم موشى ذي لون داكن، جعلها تبدو في هيئة ملكية، بينما يعتمل داخلها الكثير من السخط والحنق.

صاح السيد بريم: «أوه سيدتي، انتظري!»، أخرج منديله من جيب سترته الداخلي وراح يصقل نظارته. ثم تابع: «ليس ذلك ضرورياً، يمكننا تعيين عدد لا يحصى من الأكاديميين، وتقريباً بلا أي تكلفة، ولا شيء يمكن أن يكون مثمراً إذا لم يكن هناك عالم رياضيات. كلا،

المشكلة الحقيقية هي: ما الذي نستطيع أن نقوم بدراسته في تلك الأعالي الشاهقة؟ إن أي مسألة أو أطروحة أكاديمية فحسب سوف تفتقر كثيرًا إلى الجاذبية المطلوبة دائمًا لإرضاء مشاعر الجماهير الملتهبة وقلوبهم العطشى، ربما يجب أن يكون في الأمر جانب خيري أو شيء علمي، فالجماهير تحب في أبطالهم أن يكونوا جادين، وذلك عندما يكونون في عمر الشباب، تلك هي القضية».

قالت كيت وهي تبسم بتهكم: «وكم يكون العمر المناسب لكيلا يكون كذلك في أعينهم؟». أجاب السيد بريم متسائلًا: «أن يكون ماذا؟».

قالت كيت: «أي شيء».

قال السيد بريم بشكل يخلو من الرصانة: «لا يمكنني فهمك».

قالت كيت بسرعة: «فقط كنت أمزح». التقطت عينا السيد تالانت عينيها بتسيمان فجأة. اتسعت ابتسامتها وهي تتراجع للخلف، ثم تنهدت. يا له من مسكين بيرت، إنه من هدم حياته كلها بسبب عمل بطولي أهوج.

قال بيرت وهو يضحك للوجه الجميل الذي ينحني فوقه: «هذه هي الحياة»، كان شيئًا رائعًا أن بدأ يشعر بالتحسن، لم يشعر بالمرض في حياته من قبل. أو أن كل شخص في المنزل يقوم على خدمته ويعمل من أجل راحته. لم يشعر كأنه هو الذي يقرأ إذ كانت كوني هي من تفعل. بينما يظل نائمًا طوال اليوم عندما تكون براين العجوز إلى جواره. وعندئذٍ فإن كوني سوف تقرأ له في المساء. لقد أصبحت على

أتم استعداد لتقرأ له الآن، جميعهم قد ذهبوا. أتت إليه كيت وتمنت له ليلة سعيدة. كانت تبدو عذبة هذه الأيام، سوف يستيقظ من نومه ليجدها هناك على طرف سريرته تنظر إليه. عندما لا تكون بكامل قواك بعد فكل ما عليك فعله أن تستلقي على ظهرك وألا تقلق بشأن أي شيء، كما حدث على سبيل المثال عندما كانت تنظر بشيء من الحزن إلى شفثيه. كل ما قاله الطبيب: «لا تقلق بشأن أي شيء، كل ما عليك هو أن تأكل...، وتنام... وأن تتحسن، هذا كل ما نطلبه منك أيها الشاب!». ولذلك فهو لم يشعر بالقلق. ولكنه كان سعيدًا جدًا عندما ذهبوا جميعًا وأصبح المنزل هادئًا والستائر مسدلة وليس أحد هنا سواه وكوني بمفردهما. سوف تقوم بإعداد كل شيء على أكمل وجه للمساء، لم يكن يحلم بأن هناك العديد من الوسائل التي يمكنها أن تُشعرك بالراحة! عندئذٍ جلست ثابتة في مقعدها تحت الأضواء.

قال لها متوسلاً مثلما يفعل كل ليلة: «هل يمكنك أن تخلعي غطاء رأسك حتى أستطيع أن أرى شعرك!» ولكنها هزت رأسها نفياً، فقال لها ملاطفاً: «أوه، هيا يا كوني! أريد أن أرى النور يبرق من خلاله».

قالت له: «لا يمكنني ذلك يا سيد هولم»، وكان ذلك شيئاً آخر أيضاً، لم تكن أبداً تناديه بيرت، على الرغم من أنه كثيراً ما طلب منها ذلك. عاد يقول: «ولم لا؟ حتى الصحف والجرائد تسميني بيرت!». ولكنها لم تكن لتفعل، كانت شيئاً صغيراً عنيداً وصلباً، كل الشقراوات كذلك.

كان شيئاً لافتاً للنظر ما كان يشعر به تجاهها. لم يكن واثقاً إن كان مفتوناً بها أم لا، ولكن على كل حال فإن قدومها إليه كان شيئاً لطيفاً بعد أن تلقى ضربة موجعة من ذلك المرض ظل طريح الفراش على أثرها لفترة، ليجد هنا الآن فتاة جميلة فاتنة لتعني به. سألته وهي تعدل ثيابها البيضاء: «هل تتذكر أين توقفنا يا سيد هولم؟». قال لها بنبرة خبيثة: «لا يهم أين توقفنا في القراءة».

ابتسمت بخجل ثم سألته بصوتها الرقيق العذب: «وأخذها بين ذراعيه... أليس هذا هو الموضع الذي توقفنا عنده؟». أجابها: «إنه يبدو لي جيداً، تعجبني تلك الفكرة».

كان المزاح والمرح يجعلانها تبسم وتتورد وجنتاها. تشاءب ثم مدد جسده. كانت الرطوبة تخرج من عظامه! فقط بضعة أيام قليلة ويعود رجلاً جديداً. كل ليلة يشعر أنه أفضل كثيراً من الليلة السابقة، أسبوع آخر ويصبح تواقاً للرحيل إلى... ولكن فقط، إلى أين الرحيل؟ شعر أنه قد نسي كل شيء لمدة طويلة، عندما يستعيد قواه فقد يعود للتسلق مجدداً، ربما. لم يفكر بشأن الجبال بطريقة أو بأخرى منذ وقت طويل، لماذا لم يفعل؟ كان ذلك غريباً؛ لأنه بمجرد أن قفز إلى ذهنه مرة أخرى شعر برغبة في التسلق مجدداً.

بينما بدأت كوني تقرأ: «أخذها بين ذراعيه وضغط بفمه على شفتيها الحمرابين. كانت المرة الأولى على مدار حياته المجنونة التي يستطيع الحب الحقيقي أن يغسل روحه من الداخل، لقد جعله نقياً وصالحاً».

كان يشاهد صورة جانبية لها في مواجهة الأضواء ويستمع إلى صوتها الرقيق، يحمل إليه الكلمات الساخنة كتيار منعش خفيف، متسائلاً إذا ما كان يمكنه المضي معها قدماً إلى علاقة ما؟ كلا، لا مجال للمزيد من ذلك، لقد حسم أمره بهذا الشأن بعد تلك المرأة... ماذا كان اسمها؟ والتي حاولت أن تغويه بأن يطلق كيت في ذلك المساء في منزل جايل عندما كانت ثملة. كما لو أنه كان ليطلق كيت، زوجته الرقيقة، أفضل رفيقة صادفها على مدار حياته. كلا، لا مزيد من ذلك. بل إنه كان سعيداً لأن كوني ليست امرأة سهلة المنال مثل النساء الأخريات. ظل ينصت إليها عن قناعة ورضى، وهو نصف نائم، يشعر بالدفع والعناية في قلب هذا المنزل العظيم. ذلك المرض الذي ألمّ به جعله يشعر كأنه في بيته هنا، حتى إنه لم يشعر بمثل ذلك عندما كان بصحة جيدة.

إذ إنه في هذه الغرفة الكبيرة وكل من حوله يسهرون على خدمته، شعر بالفعل بأنه في بيته. لم يكن مخطئاً في زواجه بكيت تالانت.

لذلك، فبحق الجحيم كيف يمكنه أن يكون مستعداً للحالة التي كانت عليها كوني، بعد أن حسم أمره بشكل حقيقي وقرر أن يدعها وشأنها؟ لم يفعل أي شيء، فقط أمسك يدها، وهذا هو كل شيء، وفي صباح اليوم التالي بينما كانت قد انتهت من عملها وتأهب للرحيل. لم يكن بمثل هذا الغباء ليبدأ معها شيئاً وقتها على أي حال وبرايين العجز يمكن أن تدخل الحجرة في أي لحظة، كلا، بل أخذ يد كوني عندما كانت تمشط له شعره، وظل ممسكاً بها لدقيقة، وعندما حاولت أن تسحب يدها بعيداً عنه، تمسك بها بقوة، وليس أكثر من ذلك. وكان

قد فعل ذلك مرات عديدة من قبل، وفي كل مرة كانت تقول له: «كلا، أرجوك يا سيد هولم!» ولكنها لم تفعل ذلك هذه المرة، بل نظرت إليه وقد استغرقت بعينها تمامًا، ودون أن تنطق بكلمة واحدة، فقط أرخت جسدها قليلاً على سريريه، ودفنت وجهها في صدره.

أما براين العجوز فلم تكن لتختار لحظة أسوأ مثل تلك لتدخل الغرفة! فهمس لها: «كوني، قومي!» وقد فعلت.

حسنًا، لم يكن يمكن أن يتمنى رؤية لحظة نارية مثل تلك بين هاتين المرأتين، قالت لها براين بامتعاض كأنها تعض على تفاحة حامضة: «آنسة ويدرز!».

قفزت نحوها كوني صارخة: «ماذا تريدان يا آنسة براين؟». صرخت بها براين أيضًا: «يمكنني الإبلاغ عنكِ!».

قالت لها كوني: «بالتأكيد يمكنك ذلك، هيا، اذهبي وافعليها!».

- حسنًا، سأفعل، ولكنني سوف أستقيل أولاً!

- كلا، لن تفعلي ذلك، لأنني أنا التي ستستقيل!

أشعره ذلك بالخوف بشدة، فراح يستجديها: «كوني، لا تذهبي!».

ربما كان من الأفضل لو أنه لم يتكلم؛ لأنه في اللحظة التي سمعته فيها براين وهو يقول ذلك رمقته بنظرة بشعة واستدارت خارجة من الغرفة. بينما دفنت كوني وجهها بين يديها وانخرطت في بكاء حاد. النساء! دائماً ما يأخذن كل شيء على محمل الجد. أدار وجهه ثم أغلق عينيه، كأنه يقول لنفسه: «فليذهبن جميعاً إلى الجحيم!» فقط عندما

تأكد له أن ذلك المكان هو حيث تنتمي كل النساء.

ارتدت السيدة تالانت ملابسها مبكرًا استعدادًا ليوم من التسوق بصحبة جايل، والتي كانت على موعد لتأتي إلى منزل العائلة بصحبة هارفي بعد الإفطار، إذ توقفت خارج الباب لتسمع صرخات وأصوات المرأتين في غرفة بيرت، وهي تهتف: «ما الذي يجري هنا؟!» ولكن قبل أن يكون هناك الوقت الكافي لتستكشف ما يحدث، اندفعت الآنسة براين إلى داخل الردهة وصفقت الباب خلفها وظلت ممسكة بمقبضه.

قالت لها السيدة تالانت بصرامة: «آنسة براين!».

استدارت نحوها الآنسة براين بوجهها المربع وقد احمر غضبًا، ثم قالت لها بصوت مرتفع: «إنني مستقيلة أيتها السيدة تالانت، أنا لم أعود على هذا النوع من البيوت».

قالت لها السيدة تالانت وقد تحول ما بها من سخط إلى العزة والإباء: «ماذا تقصدين؟». تابعت الآنسة براين بنفس النبرة الغاضبة والصوت المرتفع: «حيث تقوم الممرضة الليلية بأفعال مخزية كما يحدث هنا، سيدة تالانت، أنا ممرضة محترفة، وقد تعلمت طوال سنوات عملي في هذه المهنة أن الممرضة المحتشمة لا تسمح بأن تضع نفسها في موقف يعرضها للشبهات أو الفضائح مع المريض، مثل الذي وجدته في غرفة السيد هولم الآن عندما دخلت الغرفة لكي أعد تقريرًا بالمهام اليومية».

ربت عليها السيدة تالانت برفق وهي تأخذها معها للأسفل قائلة:

«أرجوك أن تأتي معي إلى المكتبة لتشرحي لي الأمر بنفسك».

وبينما تهبطان الدرج معًا، رأت جايل، والتي كانت بالفعل في الردهة. حيث وصلت للتو، وكانت تقف هناك نحيفة جميلة، في معطفها الداكن من الفرو الناعم وقبعاتها الحمراء الضيقة. لوحت بيدها لوالدتها، والتي كانت في سعادة غامرة لمرآى ابنتها الكبرى.

ثم غمغمت محدثة إياها: «تعالى معي إلى المكتبة، يبدو أن هناك بعض التفاهات بين هاتين الممرضتين التعيستين وبيرت». كانت تستطيع أن تكون على طبيعتها مع جايل كما تحب، والتي رفعت حاجبيها الدقيقين دهشة، ثم تبعت والدتها.

ولكن السيدة تالانت عندما فتحت الباب، لم تكن على استعداد لمواجهة وجود كيت هناك بالمكتبة، حيث كانت ملتفة على نفسها، وقد غاص جسدها في الأريكة الضخمة، بينما سقط الكتاب الذي كانت تقرأه إلى جانبها على الأرض. اعتدلت جالسة لدى دخولهم وهي تنظر إليهم بدهشة، سألتها السيدة تالانت بحيوية: «هل استسلمت للنوم مبكرًا هكذا يا كيت؟».

- كلا، أتيت إلى هنا للتو بعد أن تناولت الإفطار مع أبي. هناك كتاب أردت أن أبحث عنه.

كانت السيدة تالانت تفكر بسرعة، فلربما علمت كيت أيضًا بالأمر. إنه إذن الوقت المناسب للتوقف عن حجبها عما يجري من الأمور هنا، يومًا ما سيكون عليها مواجهة الأشياء بمفردها.

قالت جايل بخفة: «مرحبًا يا كيت». وجلست تشعل سيجارة وعيناها تشعان بريقًا، ربما سيكون هذا مسليًا للغاية. يمكنها أن تتخيل نفسها تصف كل ذلك لهارفي في المساء. فهو يحب النميمة بقدر ما تحبها هي، وجزء من صحبتها قد أتى من استمتاعهما بذلك معًا.

قالت السيدة تالانت: «كيت، نوعًا ما هناك بعض المشاكل فيما يبدو بين الممرضتين».

وهنا فقط سمعن صوت طرقات على الباب ثم دخلت الآنسة براين، وقد نسقت غطاء رأسها بعناية، بينما ظل ووجهها بنفس حالته المعتادة من الشحوب، أدارت عينيها بين ثلاثتهن، بفمٍ مُطبق.

إلى أن قالت لها السيدة تالانت بلهجة آمرة: «أخبرينا بما عليكِ قوله بسرعة، من فضلكِ يا آنسة براين. فأنا مشغولة للغاية اليوم».

قالت الآنسة براين ببرود: «فقط أتمنى أن تعفيني من العمل هنا يا سيدة تالانت، هذا هو كل شيء، فأنا امرأة محترمة». قاطعتها السيدة تالانت بصبر، ونبرات صوتها تتسم بالحزم: «فقط أخبريني ما الأمر».

قالت الآنسة براين بنبرة قاطعة: «عندما دخلت الغرفة هذا الصباح كانت الممرضة الليلية بين ذراعي المريض، أنا لم أعود على أشياء من هذا القبيل».

زفرت السيدة تالانت قائلة: «حسنًا!» تمت على الأرجح لو أنها لم تشجع المرأة على أن تمضي قدمًا لتروي كل هذا. حيث بدأت تظهر علامات الإعياء على كيت فجأةً. بينما ضحكت جايل ضحكة رنانة

وصاحت قائلة: «أوه يا عزيزتي، إن بيرت لا يمكن مقاومته! ما الذي تراهنين عليه يا آنسة براين، أن يكون ذلك خطأ ممرضة الفترة المسائية؟ ياله من مسكين بيرت، هذا ما يحدث مع الأخريات! بل إنني مندهشة بشأنك آنسة براين، ألم تشعري بتلك الجاذبية الفتاكة؟ كيف ذلك، فجميع النساء يقعن في غرام بيرت!»، عادت الدماء تتصاعد في وجه الآنسة براين والذي تحول إلى اللون الأحمر الكثيف الداكن مجدداً.

وهي تقول: «أنا لا أسمح لنفسي...».

أوقفتها ضحكة جايل القصيرة المجلجلة وهي تصيح قائلة: «أوه، أنتِ أيضًا! أعتقد أنه ببساطة شيء مسلّ، كيت، ماذا قلت لك من قبل؟ ألم أقل إن كلاهما سوف تغرق في حبه حتى قبل أن يتعافى!»، قالت السيدة تالانت بحدة: «حسنًا، يجدر بك أنتِ والآنسة ويدرز أن ترحلا، سوف أطلب من الطبيب ليفيت أن يعين لنا ممرضات أخريات، والآن يا جايل، هل أنتِ جاهزة؟». نهضن معًا، وبطريقة ما وجدت الآنسة براين نفسها في الخارج بالردهة وحيدة، وقد أغلق الباب. وهذا هو كل شيء.

لم تعد أدراجها إلى الطابق العلوي، بدلًا من ذلك ذهبت إلى الردهة فوجدت معطفها وقبعاتها ما زالوا هناك، وبخطوات ثقيلة حذرة بدأت تتحرك. إنهن نساء لعينات، كل نساء الطبقة الثرية كذلك، اللاتي لسن بحاجة إلى العمل، ولكن الشيء المؤلم حقيقةً أكثر من أي شيء آخر، هو قولهن لها أن...، أن كل امرأة كانت تبدو ساذجة أمامه، ولم يكن ذلك بالأمر الهين بالنسبة لامرأة في مثل عمرها، حاولت أن تتخيله كأنه ابنٌ لها، وذلك هو كل شيء، الابن الذي كان من الممكن أن تحظى به لو

أنها تزوجت من قبل، وكان ذلك هو مبعث شعورها بالاشمئزاز عندما أتت هذا الصباح. كل ما كانت تشعر به طوال تلك الفترة، هو أن هذه الفتاة لا يمكن أن تكون هي النوع الذي ينبغي أن يكون إلى جانبه. كم هو مسكين، بإمكانك أن ترى كم كان شابًا وبريئًا. ولكن، من الأفضل ألا تراه على الإطلاق مجددًا، في بعض الأحيان عندما يكون بخير ربما كانت لتكتب له خطابًا قصيرًا فقط لتخبره كم كانت منحة عظيمة أن تتولى العناية به. حسنًا، يا للفتى المسكين، أيًا كان ما حدث، فإنها سوف تظل دائمًا على علم بأن ذلك لم يكن خطأه، ليس مع أولئك النسوة.

وخلف الباب المغلق كانت السيدة تالانت وجايل كلتاها منظران أولاً إلى كيت، والتي كانت هادئة تمامًا.

قالت لجايل: «أشكركِ يا جايل، لقد كنتِ رائعة بحق».

أجابتها جايل: «إنه من الأفضل دائمًا أن نضحك في وجه مثل هذا النوع من الأمور، إلى جانب أنه لا يمكنك إلقاء اللوم على بيرت يا كيت، إن ذلك سيحدث مجددًا مرات ومرات».

قالت كيت: «أعلم ذلك». نقلت بصرها من أختها إلى والدتها، ثم تابعت حديثها بنفس النبرة الهادئة الخفيفة: «ولذلك»، خانتها شفتاها بأبسط ارتجافة ممكنة: «لقد حسمت أمري بهذا الشأن ولن أستمر فيه مجددًا».

صاحت والدتها: «كيت!».

قالت كيت: «إنه ليس جيدًا بما يكفي»، ولكنها في الواقع لم تكن

قد حسمت أمرها حتى هذه اللحظة، إلى أن شعرت فجأة بأنها على استعداد لأن تتوقف عن كل شيء، فقط لكي تكون حرة. كان نورمان على حق، دائماً على حق. أن تكون حراً فهذا كافٍ في حد ذاته، إنها النهاية الوحيدة السعيدة، كان ذلك هو كل ما تريده، الحرية المجردة. لقد تخلت عن آمال الحب، أو عن الحق في السعادة، وسوف تستطيع بكل تأكيد أن تحصل على حريتها.

جلست جايل على أقرب مقعد، لم يكن هناك مفر من ذلك، إذ إنها تعرف جيداً تلك النظرة في عيني كيت، كانت المرة الأولى التي رأت فيها تلك النظرة منذ سنوات عديدة مضت، عندما حسمت كيت التي تخشى الماء بأنها بأن تغوص في أعماقها.

وحينها صرخت جايل فيها ضاحكة: «كيت! لا أظنك تنوين الغرق!».

وكان ما قالته كيت الصغيرة قبل أن تقفز في الماء: «لا يعنيني سواء غرقت أم لا»، نظرت إلى والدتها نظرة ذات مغزى، قبل أن تجلس الأخيرة أيضاً وهي توجه حديثها إليها متسائلة: «كيت، لست أظنك تتحدثين عن الطلاق؟». ثم رمقتها بنظرة سريعة وقد شعرت أن جايل تتفق معها بالإجماع. والتي وقفت وخلعت عنها معطفها وقبعتها ثم جلست مرة أخرى.

قالت لهما كيت ببساطة: «وماذا غير ذلك؟».

عادت السيدة تالانت تقول: «كلا يا كيت»، يجب عليها أن تفكر بسرعة قبل أن تتحول كيت إلى واحدة من حالات العناد التي تتابها

عندما تكون خارج نطاق كل منطق. «إن بيرت ليس سيئاً إلى هذا الحد، إنه شخص مزعج، أعلم ذلك، ولكن يا عزيزتي، سوف تجددين أن لكل رجل عيوبه. تعلمين ذلك، وقد قلت بنفسكِ ذات مرة عن ذلك الكاتب المسرحي الشاب، الذي لا أتذكر ما اسمه، أنه قد اعتاد أن يصيبكِ بالضجر لأنه كان دائماً يتحدث عن أعماله».

قاطعتها كيت: «لا شأن له بذلك»، وهي تعلم في التو أنها تكذب، فإن لذلك شأنًا كبيرًا بنورمان؛ بل إنه ربما يكون كل شيء في هذا الشأن، على الرغم من أنها حتى لحظة إنكارها لذلك بصوت مرتفع الآن فقط، لم تكن قد واجهت ذلك الأمر بداخلها بعد. كل ما كانت تفكر فيه فقط بالتأكيد هو أن بيرت يُعد آخر شخص في هذا العالم يمكن أن يصلح زوجًا لها، وأنها أيضًا كذلك بالنسبة إليه، للدرجة التي تجعل أي تقارب بينهما هو ضرب من ضروب المستحيل، ولذا عليها أن تتحرر منه. أما إذا ما كانت تُدين بيرت في حقيقة الأمر فقط بسبب وجود نورمان، فقد شعرت بالقشعريرة تسري بداخلها لإحساسها بالازدواجية. فأحست بالرغبة في أن تمضي قدمًا وأن تعلنها عالية: «كل ما أريده هو التحرر من بيرت». ولكن صوتها لم يستطع أن يذهب أبعد من ارتياحها النفسي. ولذلك لم تتفوه بكلمة.

بينما تابعت السيدة تالانت بجدية من يستشعر الخطر المحقق: «ليس هناك وجود لمفهوم الزواج النموذجي السعيد ولا حتى في كتب الحكايات ذاتها، ولكن هناك علاقات زواج ناجحة، وتلك هي الحالات التي تحسم المرأة فيها أمرها وتقرر أن تكيف نفسها، وأن

تستطيع تجاهل أمور عديدة، وأن تصنع أشياء عظيمة من أقل القليل. لديّ الجراءة لأقول أن حتى جايل تتحمل وتتجاوز عن أشياء عديدة في هارفي، أليس كذلك يا جايل؟».

غمغمت جايل: «أوه، في الحقيقة، نعم». ثم أطبقت جفניה بأهدابهما الطويلة وتابعت: «أحياناً أشعر بالاشمئزاز منه».

أجابتها السيدة تالانت موافقة: «هو ذلك تمامًا، إنه نفس الشيء مع أي امرأة قد تسألينها، ولكن ذلك لا يعني أن أي واحدة منا ستكون سخيفة إلى حد التفكير في الطلاق. فأحياناً يكون ذلك هو الشيء الوحيد المعقول لتفعله، ولكن الناس هنا في أمريكا لا يزالون يكرهون ذلك، أعني بذلك أولئك الناس الذين يفكرون كثيرًا بشأن بيرت».

غمغمت جايل: «في حقيقة الأمر إنه لا يؤتي ثماره بشكل كبير، تعرفين إيرين كافانوف المسكينة، إنها تكافح دائمًا من أجل العودة مجددًا، تقولين إن الطلاق لم يعد يعني الكثير بعد الآن يا أمي، ولكنه في الواقع على العكس من ذلك يا كيت، حتى إذا ما كان ذلك بإرادتنا. حيث يوجد دائمًا نوع من ردة الفعل، ليس بدافع أخلاقي، ولكنه فقط شيء على سبيل المواءمة، فالمرأة المنفردة بهذا الشكل من الصعب دعوتها لحفل عندما يكون هناك العديد من الفتيات الصغيرات الجميلات اللاتي يخرجن ليظهرن إلى المجتمع، فلا مكان لها هنا، إذا كنت تفهمين ما الذي أعنيه. ولكن على كل حال أعلم أن إيرين لم تصبح أسعد حالاً بذلك على الإطلاق».

قاطعتها السيدة تالانت: «بساطة أنا لن أتقبل ذلك، ليس فجأةً

هكذا على أي حال يا كيت، إن هذا كثير لتطلبه من عائلتك، فكري في حملة الدعاية! لا يمكن لذلك أن يكون مجرد طلاق عادي. وسيتم اختلاق كل أنواع القصص، كل شخص سيسأل لماذا؟ عندما تكونين متزوجة ببيرت هولم! كل أولئك النساء السخيفات، لن تصدق أي منهن أن ذلك راجع لخطئه هو، وسوف تخسرين بسبب ذلك، كلاكما سيكون خاسراً».

تدخلت جايل في الحديث: «كيت، بالطبع إذا كنت لا تحبينه...». نظرت كيت إلى جايل، ثم عضت شفتها في قهر، عليها ألا تدعهما يتماديان في داخلها أكثر من ذلك، ليس وهي بعد لا تعلم ما الذي تريده بالفعل.

بيد أن جايل مالت باتجاهها بشكل مقنع، لو أنها كانت تستطيع فقط أن تتحدث إلى كيت كامرأة تتحدث إلى امرأة! ولكن كثيراً ما عجزت عن البوح لشقيقتها الصغرى، فلم تكن تدري كيف لتلك الرقة المفرطة التي تنسم بها كيت أن تتحمل اعترافات امرأة فاسدة مثلاً.

لذلك فهي تحدثها الآن من داخل نفسها كامرأة متزوجة حكيمة: «إنه حقاً لطيف يا كيت، إذا استطعت أن تتقبله كما هو، وهذه الأيام يمكنك أن تفعلي ما يحلو لك فقط إذا لزم الهدوء بشأن ذلك. انظري إلى نورا براند! فكل أصدقائها يعلمون أنها تحقر زوجها دان، ولكن ذلك ينتهي بهما إلى شيء من الاستقرار في علاقتهما، فهو يقوم بإخراج مسرحياتها وكل ما إلى ذلك، علاوة على أنه شيء من قبيل حسن السيرة أن تستطيعي القول بأنك متزوجة بنفس الرجل لاثني عشر عاماً، الطلاق

في الحقيقة لم يعد شيئاً سائداً كما كان قبل فترة الكساد. وتلك الفتاة هذا الصباح... لم تعد تساوي شيئاً. ورغم كل شيء يا كيت، أغلب الرجال يفعلون أشياء صغيرة سخيفة لا تعني شيئاً في حقيقتها».

قالت السيدة تالانت بلهجة أقرب للتوسل: «كيت، عديني بذلك على الأقل، أنك لن تحسمي هذا الأمر حتى تكوني قد وضعت كل هذه الأمور موضع الاعتبار. فأنت مدينة بذلك لنا جميعاً».

قالت كيت: «سوف أعد بذلك»، انحنى على كتابها وقد وضعته مفتوحاً على ركبتيها، كان لويليام بليك. كانت تريد أن تقرأ شيئاً ليأخذها في الحال بعيداً عن الواقع، حيث لديها الكثير من الواقعية في حياتها هذه الأيام، والتي تضيق عليها الخناق ساعة بعد أخرى.

قالت السيدة تالانت بسرعة: «هذا هو التصرف الصحيح». ثم تنهدت قائلة: «أوه يا عزيزتي، أشعر بإجهااد شديد! لست أدري إن كان من الأفضل الذهاب أم لا يا جايل».

كانت جايل تهتم بارتداء معطفها مرة أخرى، ثم قالت لوالدتها بحزم: «هيا بنا، فلا شيء يضاهي التسوق ليعيد ترتيب نظرتك إلى الأمور».

قالت لها والدتها على مضض: «حسناً...»، تجاوزت شعورها بالإرهاق ونهضت ثم قبلت وجنتي كيت وهي تغمغم قائلة: «يمكنني دائماً أن أثق في حاسة العدل والإنصاف لديك يا كيت».

قالت كيت وقد تحول صوتها إلى الغلظة فجأة: «أنا أريد أن أفعل ما

هو صواب فقط»، أجابتها والدتها: «أعلم ذلك يا عزيزتي».

ثم أضافت: «أوه، عليّ أن أهاتف الطبيب بشأن الممرضات».

رحلت جايل بصحبة والدتها بينما بقيت هي وحيدة. فكرت بأنها في حاجة إلى شخص شديد البرود والصلابة، فقط ليس جايل، لكي يستطيع أن يوضح أمامها كل الخيوط في ذلك الشكل المعقد المتشابك، لو أنه كان هناك شخص يستطيع فك تلك الأمور المتشابكة وتوضيحها وإعادة ترتيبها كما هي على حقيقتها، إذنْ لأمكنها أن ترى الأمور بمزيد من الوضوح. فالمشاعر لا يمكن الاعتماد عليها أو الوثوق بها إلا بقدر قليل، ألم تكن واثقة في مشاعر نورمان، ثم تحولت بعيداً عنها، أولم تكن دوافعها من مشاعر العناد هي ما منح بيرت فرصة الحصول عليها؟ إذا عجز التفكير الداخلي الطويل عن كشف الأمور وإيضاحها، فربما شيء خارجي بارد يمكنه أن يفعلها. كانت بحاجة إلى برود صافٍ لكي يقودها، فكرت للحظة، لِمَ لا يكون روجر بريم؟ لا يوجد في هذا العالم مَنْ هو أكثر بروداً ووضوحاً منه، فقررت أن تذهب لرؤيته.

المشي وحيدة أصبح شيئاً مفيداً لها كثيراً، الهواء البارد الحاد في نهاية يوم من أيام الشتاء استطاع تنقية دماغها وذهنها. وضعت قدميها في المصعد، وغمغمت: «الدور الثالث والثلاثون من فضلك»، واندفعت إلى أعلى، إلى الطابق الثالث والثلاثين. وفي مواجهتها رأت بحروف ذهبية صغيرة «روجر بريم - مستشار علاقات عامة»، اتجهت نحو قاعة استقبال صغيرة حيث جلست امرأة في منتصف العمر بملابس بسيطة إلى الآلة الكاتبة. يليها مباشرة إلى الداخل مكتب داخلي، حيث رأت

رأس السيد بريم الصلعاء. الذي ما إن رفع رأسه واكتشف حضورها؛ حتى هب واقفا على قدميه، محاولاً أن يخفي شعوره بالمفاجأة.

ثم قال لها: «سيدة هولم، إنه لشرف عظيم». خرج لاستقبالها وتحيتها، وشعرت بلمسة يده السريعة الجافة في يدها: «تفضلي بالدخول من فضلك، ما الذي يمكنني فعله من أجلك؟». دخلت إلى غرفة مكتب بالية مهترئة، اكتست جدرانها بعدد لا يحصى من الصور الفوتوجرافية الموقّعة. لم يكن بها أي شيء آخر سوى مكتب والعديد من حواظ الملفات.

قال السيد بريم مشيراً إلى الصور الموقّعة: «إنها صور عملائي»، كأنهم ينظرون إليها من أعلى، وجوه مبتسمة لممثلات، الوجوه الخجلى، والمدركة تماماً لقيمتها في ذات الوقت لمشاهير الكتاب والمُحاضرين والمستكشفين. هنا في هذه الغرفة الحقيبة، جلس روجر بريم للتخطيط من أجل شخصيات لامعة لتقديمهم إلى العالم. بعضهم ممن تعرفهم، ولكن الكثير منهم تجهل أي شيء عنهم. فقط القليل منهم لا يزال متواجداً، حتى وإن كانوا قد تغيروا. لأنهم اختاروا، أو أن السيد بريم هو من اختار أن يعلق على هذا الحائط اللحظات الخالدة لأعظم نجاحاتهم. خطف بصرها وجه تشارلي بيحي.

بينما تابع السيد بريم حديثه: «التي تذكرني أنني ظللت لوقت طويل أود أن أسأل إذا كان يمكنني أن أضم إليهم صورة للسيد هولم».

غمغمت كيت: «نعم، بالطبع»، نعم، بيرت ينتمي إلى هناك. فقد صنعه السيد بريم هو أيضاً. فتح أحد الأدراج في حافظة الملفات، ثم

سحب منها صورة فوتوجرافية قائلاً: «هذه الصورة، إذا لم يكن لديك ما يمنع».

ناولها إياها، قالت له: «أتذكر تلك الصورة»، أخذت تمعن النظر إلى بيرت، كانت واحدة من أفضل صوره. حيث وقف واضعاً يده في جيبه، وكتفيه المربعين إلى الخلف، ينظر إلى العدسات بعينين صافيتين مبتسمتين. وبدا كأنهما تتحولان إلى اللون الأزرق بمجرد أن نظرت إليهما.

ثم قال بحصافة: «إنها تجسد، فيما أعتقد، ما قمنا بتشيينه».

قالت: «نعم، إنها كذلك»، ثم وضعت الصورة جانباً بسرعة. هل تستحق هذه الصورة أن تكون الصورة المناسبة لحائط السيد بريم، أم ستأتي بعدها أخرى، لتسجل لحظة أعلى مما قام ببيرت بتحقيقه، لحظة تخلو من وجودها؟

جلس السيد بريم إلى مكتبه منتظراً إياها، نظرت إليه قليلاً ثم اندفعت تتحدث فيما أتت من أجله، تذكرت لحظتها حين كانت بعد فتاة صغيرة جداً، ثم حسمت أمرها واندفعت بتهور إلى حوض السباحة لأول مرة فيما بدا أقرب للموت عندما كان ارتفاع المياه أعلى من رأسها. ولكنها خرجت منها مرة أخرى.

- سيد بريم، أود أن أسألك بشكل مباشر ما الأثر الذي يحدث بالنسبة إلى بيرت وأيضاً بالنسبة إلى عائلتي، وعلى الجماهير أيضاً، إذا ما رغبت في الحصول على الطلاق منه؟

ظلت مركزة عينيها عليه. لم يجب السيد بريم لبرهة، راح يفكر بسرعة، لم يخطر بباله أن يدخل ضمن خطته شيء كهذا. عليه إذن أن يبحث عن طريقة جديدة تمامًا لفهم الموضوع. فالأمر قد يكون محرّجاً بشدة حال كون السيد تالانت أيضاً أحد عملائه، وسيكون من الحكمة، كما أنه بالطبع فقط كذلك، أن يكون نزيهاً مع كليهما. ولكنه شيء صعب ومربك بشكل مريع.

ثم قال بهدوء: «ما أخشاه أنه سيكون كارثياً تماماً».

انتظرت ممتنة لأنه لم يطرح أي أسئلة. فتابع السيد بريم: «الجماهير، تتوقع من بطلهم المزيد أكثر مما قد يفعلون بالنسبة لأنفسهم كأفراد، الطلاق، ربما أمكننا القول، وهي حقيقة، إنه أمر شائع الآن ألا يتسبب في أي تعليقات إذا لم يكن ذلك في حالة السيد هولم، حيث سيكون هناك قدر يسير هو المسموح به من الحرية؛ ببساطة لأن الجماهير تتوق لأن تؤمن ببطلهم كأنه رجل...»، تلعثم في جملة أراد قولها فابتسم، ثم قال بالفرنسية: «بلا خوف وبلا لوم»، تعلمين ذلك، إنهم لا يريدون التفكير حتى في أنه يمكن أن يشعر بالغواية كما يشعرون»، سعل قليلاً، ثم ألقى نظرة خاطفة بزاوية مائلة على صورة الفتى الشاب المواجهة له، ثم قرر متابعة الحديث قائلاً: «ليس لديّ فكرة إذا كنت على دراية أم لا يا سيدة هولم، بشأن أي حادثة في ماضي السيد هولم».

قاطعته: «هل تقصد زواجه السابق؟ نعم، أعلم بشأنه»، أزاحت عبء ذلك عن كاهله، إنها تعلم إذن! وبقدر ما استطاع أن يرى، فقد كانت هادئة، ولكن المرء لا يستطيع الجزم بشيء مع امرأة مثل كيت

بهيئتها النحيلة الهادئة وعينيها السوداوين.

تابع السيد بريم حديثه: «أي حادثة أخرى، ستكون أكثر أسفًا، حتمًا الأولى، والتي هي لحسن الحظ غير معلومة الآن لدى الجماهير، قد تعود للظهور من جديد تحت أضواء شريرة، والآن ينبغي أن يكون معلومًا أنني قد وضعت خطة دعائية عاجلة على خلفية من أنه في مرحلة الشباب وما إلى ذلك، ولكن أن يقع الطلاق مرة ثانية، وعن طريق ابنة روبرت تالانت...»، هز رأسه ثم أردف، «فإن ذلك سيضعف مكانته بشكل في غاية الخطورة. في الحقيقة، ينبغي أن أشعر بالعجز تمامًا حيال ذلك».

قالت كيت بثبات: «أتفهم ذلك».

واصل السيد بريم حديثه، مدعومًا بنظرة التفهم والثبات البادية في عينيها: «نفس الشيء بالوضع في الاعتبار ما يخص عائلتك، فإنه سيكون أيضًا شديد الصعوبة. بالطبع هي قسوة ذهنية، ولكنه يعني أي شيء تختاره الجماهير، وفي حالتك يا سيدة هولم، يجب عليك أن تتذكري دائمًا أنك لا تملكين الحرية المعتادة التي منحها القانون للأفراد العادية في بلدنا. لا يوجد قانون يمنعك من أن تفعلي ما يحلو لك. ولكن، بالتأكيد تدركين، عاطفة الجماهير، أو ربما عليّ أن أقول الجماهير العاطفية، سوف تحكم بالإدانة إما عليك وإما على السيد هولم، بما أن القضية من المحتمل أن تُعرض على الجماهير، كما أنه من الجائز جدًا أن تدينكما معًا».

لم تجبه عندما توقف لبرهة عن الحديث، رmqته فقط ببساطة بتلك

النظرة الثابتة القاتمة، دون أن تفصح عما تفكر به. فتابع حديثه في عجلة إلى الفكرة الرئيسة التي كان يعد لها: «كنت أودّ أن أقترح، على الأقل تأجيل أي قرار إلى ما بعد البعثة الاستكشافية، والتي أعمل الآن على إعداد كافة تفاصيلها. ومن المحتمل...»، توقف لبرهة وزمّ شفّيته ثم تابع: «إن البعثة سوف توطد مركز بيرت هولم بحيث يشتد البناء ليستطيع أن يصمد في مواجهة صدمة كارثية تتعلق بحياته الشخصية. لست أدري؛ علينا أن نتظر لنرى. وإذا كان مسموحًا لي أن أتجرأ بعرض رؤية شخصية في هذا الصدد، فيبدو أنه فقط سوف يكون الأمر منصفًا بالنسبة لكل الأطراف ولكل الأشياء محل الاعتبار، أن تقومي بتأجيل أي فعل محدد لفترة ما، دعينا نقول ستة أو ثمانية أشهر. هل يمكنك القيام بذلك سيده هولم؟». أجابت موافقة: «نعم، يمكنني القيام بذلك».

ما زال عاجزًا عن الجزم بما تشعر به الآن، هذا ما دار بذهنه. إلى أن نهضت ومدت يدها نحوه، كانت صغيرة وساخنة في مقابل راحة يده الباردة.

حيّته قائلة: «إلى اللقاء. أشكرك يا سيد بريم». بدت شاحبة تمامًا لدرجة أنه خشي أن يدعها تذهب بمفردها. ثم قال فجأة: «بالمناسبة»، ليستوقفها للحظة حالما يستطيع التفكير فيما عليه فعله، «هل لديك أي فكرة عن كيفية تمويل البعثة؟».

نظرت إليه بينما تستجمع شتات ذهنها، ثم قالت: «كان هناك رجل ضئيل قال لبيرت ذات مرة إنه سيتمنحه مائة ألف دولار، هل سيكون

ذلك كافيًا؟ كان ذلك في عشاء اتحاد المستكشفين، عندما جئنا إلى هنا أول الأمر. كان اسمه ألبرت كانتني». كرر السيد بريم الاسم: «ألبرت كانتني!»

أومات برأسها بالإيجاب.

فقال السيد بريم بمهابة: «إنه واحد من أغنى الرجال في المدينة، رجل زاهد غريب الأطوار، ولكن أستمحلك عذرًا سيدة هولم، لو أن لي فقط أن أسجل ملاحظة، إن ذلك في غاية الأهمية». قالت له: «أحقًا؟ ولكن من فضلك، أنا لن أستطيع الانتظار». ورحلت. بينما جلس هو مجددًا، وسحب نفسًا عميقًا. فقد كان ذلك بمثابة النجاة بأعجوبة من سوء الطالع. حيث قام بإعداد البعثة كاملة وعلى أهبة الاستعداد للتحرك بمجرد تحسُّن الحالة الصحية لبيرت هولم، والآن ها هي الأموال في متناول يديه أيضًا. يجب عليه مقابلة كانتني في الحال. فإذا ما حدث وتدخل الطلاق في الأحداث، فسوف تضيع أسابيع وأسابيع من العمل. ولكنها كانت امرأة شابة عاقلة، زوجة بيرت هولم، كما أنها كانت أيضًا ابنة روبرت تالانت.

أما كيت، وهي في طريقها للمنزل ببطءٍ تحت أشعة الشمس المتألقة ووسط الناس المهرولة، وجدت نفسها متقبلة لبرود السيد بريم الواضح. التأجيل هو التصرف الصحيح، لقد كانت مفتعلة بشدة، وهي تعلم أنه أيًا ما كان ما ستفعله فإنها يجب أن تفعل الصواب، على أن تدع أمر النهاية كيفما تكون، فإنه أمر محتم، وعندئذٍ ستكون النهاية الوحيدة الممكنة. وكل خطوة نحو تلك النهاية يجب أن تكون نظيفة،

هكذا فكرت بفخر. سوف تمضي قدمًا بطريقة مباشرة كما كانت دائمًا وتتصرف بنزاهة، حتى يكون بيرت قد حصل على فرصته. على الأقل، ولفترة ما لن يكون هناك حاجة إلى اتخاذ المزيد من القرارات.

وصلت البيت وهي في هذه الحالة لتجد والدها قد اتصل بها.

قال لها سميدلي ذلك وهو يفتح لها الباب: «لقد قال السيد تالانت أنه عليك معاودة الاتصال به في الحال، من فضلك أنستي».

وهذا يعني أن والدتها وجايل قد أخبرتاها بما حدث. ذهبت من فورها إلى الهاتف وطلبت الرقم وانتظرت إجابته.

- كيت؟

- نعم، أبي؟

- ما كل هذا؟ والدتك وجايل...

- لا تزعج نفسك يا أبي، أنا لن... على أي حال، ليس الآن، إلى ما بعد انتهاء البعثة.

«ولكن والدتك قالت...»، شعرت كم هو قلق ومنزعج بشدة.

- أنا أعلم، لقد شعرت بذلك هذا الصباح، بعدها ذهبت لمقابلة السيد بريم، حيث رأيت أن الأمر سيكون... كارثيًا.

- نعم، بالتأكيد، كم أنا مسرور أنك تفهم ذلك.

- نعم، أأنفهم الأمر يا أبي.

تردد قليلاً قبل أن يقول: «لو أنك بالفعل غير سعيدة يا كيت،

فبالطبع علينا جميعاً أن ننظر في الأمر».

- سوف ننتظر ونرى يا أبي، فقط دعنا لا نتحدث عن ذلك الآن،
حسناً يا أبي؟

أجابها موافقاً: «كلا، بكل تأكيد لن نفعل على الإطلاق، إلا حين
ترغبين بذلك».

أجابته: «لقد حسمت أمري في هذا الشأن».

قال لها بحب: «فتاة جيدة». ثم وضع سماعة الهاتف.

وعندها استقر في ذهنه هو أيضاً أنها كانت تفعل الصواب. وكان
ذلك هو الضمان الوحيد لقرارها.

وفي المساء، قال بيرت لكيت: «يا إلهي، جميل أن تلك الحزمة من
النساء رحلت»، وعندها أخبرته بشأن البعثة الاستكشافية، حيث شعر
على الفور بامتلاء العالم من حوله مجداً وفخاراً، قال مترنماً وهو يطلق
صفيراً مرحاً: «قو لي ها ثانية! صوتها رائع في أذني، كنت فقط أرقد
هنا أفكر فيما يمكنني أن أفعله بنفسي، كل ما كنت أنتظره هو حسّ أو
فكرة ما من داخلي. ولكن يمكنني الآن أن أشعر بقدمي على استعداد
للذهاب إلى مكان ما. إنهما لا يريدان أن ترقدا هنا أكثر من ذلك».

قالت له مبتسمة: «اكذب يا بيرت».

فقال لها بمرح: «اكذب أو أرقد، إنهما لا يريدان فعل أي واحدة
منهما».

... وعندئذٍ، ولأنه اعتقد أنها بدت مكتئبة قليلاً، فقد حثه ذلك على

أن يقول أنه سعيد برحيل تلك المجموعة النساء، لأنه من المحتمل أن تكون براين العجوز قد وشت به هذا الصباح. ربما حدث شيء ما، فلم يرَ براين مجددًا، كما أتى قبل الظهيرة رجل ضئيل الجسم في منتصف العمر ذو وجه يشبه وجه أحد الطيور إلى غرفته وقال إنه الممرض الجديد. فابتسم ابتسامة عريضة في وجه الرجل وقال له: «أراهن أن السيدة الكبيرة هي من وجدتك». لم يذهب الرجل في إجابته لأبعد من قوله بلهجة جافة أن اسمه براون. وقد كان شعورًا غريبًا تمامًا بالنسبة إليه أن تمتد يد رجل عبر جسده. وبعد ذلك أتى المساء ولم تأتِ كوني. حينها قال له براون إنه لن يكون هناك ممرضة لفترة المساء بعد الآن، وإنه على وشك النوم في غرفة الملابس الصغيرة على سرير نقال. بينما ظل بيرت راقداً طوال اليوم في حزن يفكر في أنه لن يرى كوني مرة ثانية، ليس إذا لم يستطع أن يجد عنوانها عندما تتحسن صحته، وعندئذٍ جاءت كيت لتقول له أن هناك بعثة استكشافية يجري التجهيز لها وأنه سوف يكون رئيسًا لتلك البعثة. وهنا أدرك أنه لم يكن ليجث عن كوني أو أي شخص آخر، فليذهب الجميع إلى الجحيم! كاد أن يصيبه الجنون جراء تناوب حالتي الإقدام والإحجام التي يمر بهما. إنه يريد الجبال تحت قدميه، والمزيد من الأميال إلى الأمام في الجبال، والسماء هناك من فوقه. يريد أن يشعر بنفسه وهو يمضي لأعلى ولأعلى ولأعلى. وإذا ما شعرت كيت بالاستياء من كوني كانت لتُظهر ذلك الآن، وكان ليخبرها أنها لم تكن تعني له أي شيء؛ لأنه أحبها هي وأخلص لها بكل ما تحمله الكلمة من معانٍ. كان مؤمنًا بضرورة إخلاصه لزوجته، كما أن

ضميره لم يكن يسمح له بأن يضاجع امرأة أخرى طالما كان متزوجاً. وطالما أنه أيضاً لم يحدث حقيقة أن ضاجع أي امرأة أخرى، فإنه يجب عليها أن تشعر بالرضى من أجل ذلك، فلم تحظ الكثير من النساء بأزواج مثله. كان على استعداد تام للدفاع عن نفسه، ولكنها لم تقل شيئاً يمكنه أن يتبين من خلاله إن كانت تشعر بالألم أو حتى أن تكون على علم بالأمر. وبديلاً عن ذلك راحت تتحدث عن البعثة الاستكشافية، بل وأخيراً سألته سؤالاً غريباً: «بيرت، هل يمكنك التفكير في سبب علمي مقبول لبعثة كهذه؟». ضحك من قولها قائلاً: «أنا لا أقوم بتسلق الجبال سوى من أجل المتعة فقط».

قالت في إصرار: «كلا، فما الذي يمكن للناس أن يستكشفوه في أعالي الجبال؟».

رأى أنها تأخذ الأمر على محمل الجد ولذلك راح يدافع عن نفسه، مع القليل من الشعور بالخوف منها، كما كان يشعر دائماً عندما تكون جادة.

فأجابها بذات الإصرار: «يمكنهم أن يستكشفوا الكثير من ال...، اللا شيء، فيسادي العجوز كان يتحدث دائماً عن شيء أو آخر يمكن أن يساعد في معرفة كيف سيكون الطقس في العام القادم، ولكنني لم أُعول على أي شيء من ذلك».

سألته: «تقصد علم الأرصاد الجوية؟».

أجابها بلا مبالاة: «شيء يشبه ذلك»، عندئذٍ اتقدت عيناه فجأة قائلاً: «لا يا كيت، ليس هذا ما يستحق الذهاب من أجله، بل الإثارة،

وعليك أن تغامري وبنفسك في تحديد ما إذا كان يمكنك فعل ذلك أم لا، فالرياح يمكنها أن تجرك لتلقي بك إلى الأسفل والبرد يأكل لحمك، ولا يمكنك أن تثقي في الثلج، فربما يدعك تسقطين في حفرة عمقها مئات الأقدام، أو ربما الآلاف، وهناك أيضًا حُفر تحت الثلج في الجبال ليس لها قاع. وعلى الجانبين جليد صلب، لونه أزرق مثل السماء. ما الذي يجعل لون الجليد أزرق بهذه الطريقة، أنا لا أعرف».

واحتفظت عيناه بنظرة طفل يتساءل، فأجابته كيت: «أفترض أنه بسبب أن الماء النقي يكون دائمًا مائلًا للزرقة»، نعم، لقد أدركت ما كانت تعنيه جايل عندما قالت إن سحره يأتي من تلقائيته الشديدة.

سألها: «حقًا؟». عندئذ طوح قدمه مسددًا ضربة هائلة في الهواء وهو يتساءل: «يا إلهي، هل يمكنني أن أذهب غدًا يا كيت؟». أجابته: «ليس تمامًا، كل شيء جاهز، ولكن فقط بمجرد أن تستعيد عافيتك».

استلقى فجأة في سكون، ثم قال لها: «هذا صحيح، أعطني قلمًا وبعض الأوراق يا كيت، سوف أبدأ بتدوين الأشياء التي نحتاجها، فعليك أن تضع خطتك بحذر لرحلة كهذه».

اعتقدت أن الأمر يحتاج من التخطيط ما يفوق قدرات بيرت، ولكن ينبغي عليه التفكير فيها على أنها بعثته الخاصة. ذهبت لتحضر القلم والأوراق، وكانت مفاجأة كبيرة لها؛ إذ إن بيرت أظهر مهارة مدهشة في التخطيط بشكل غير متوقع. كان يستعيد قواه بشكل يومي، كما أن استمتاعه بالتخطيط كان له أثرًا مقويًا. وبدلاً من أن يسترخي متكاسلاً في فراشه ينتظر شخصاً ما أن يضع كوباً من عصير البرتقال على شفتيه

أو ليسوي له سرير، بدأ في بذل جهود سرية من أجل النهوض مجددًا على قدميه. وكان براون بشيء من الجلبة والضجيج قد أبلغ الطبيب بأن المريض عنيد وجامح، فقام الطبيب ليفيت بتوبيخه بمحبة قائلاً: «هاي أنت، عليك البقاء في سريرك، لا أظنك تريد أن تُلحق الأذى بقلبك».

والآن، قد علم الجميع بأن بيرت هولم يعتزم الخروج في بعثة استكشافية هائلة خاصة به في المناطق غير المطروقة بمرتفعات الهيمالايا. إذ كان روجر بريم قد بدأ يطلق المنشورات الدعائية عن ذلك والتي تنتشر بطول البلاد وعرضها وتؤكد لها الصحف والجرائد الإخبارية في كل مكان، فيما كان يدعو «بالإعلانات التحفيزية»، أما معلوماته الثابتة والتفصيلية فكانت لترسل فيما بعد.

أطلق بيرت ضحكة خشنة بصوت مرتفع قائلاً: «إن قلبي هو أقوى ما لدي، أليس كذلك يا كيت؟».

فأجابه الطبيب ليفيت: «انتظر حتى تصعد إلى ذلك الجبل!» لقد نال ذلك الطبيب كل الفخر والسمعة الطبية لعلاج بيرت هولم. فعندما سمع فتاة في إحدى الحانات تقول لأخرى: «جي، أليس كل شيء عن بيرت هولم رائعاً؟ أتدريين، رأيته ذات مرة». شعر بأنه قد أنقذ حياة بيرت هولم من أجلها ومن أجل الجميع. شعر بأنه قد حقق المجد في مهنته، وكان لذلك أثر على طيب على حالته المعنوية، ثم تابع حديثه بسعادة: «فتلك هي طريقة القلوب، تنتظر حتى اللحظات العصبية، وعندها تتخلى عنك. ويصبح النبض جزئياً في غاية البطء، وأنا لا أعلم ما الذي يعنيه هذا، علينا أن نراقبك».

قال بيرت بسخرية: «أحقاً؟». ولكنه عاد ووضع ساقيه تحت الغطاء، اللعنة على تلك الخطوات المتسللة لمرض رجل، حين يدخل إلى غرفته، بعد أن نجح بالكاد في التحرك عبرها! كان يشعر بأنه يستطيع أن يسترد عافيته ويصبح على ما يرام لو أن أحداً لم يعترض سبيله.

فقال له الطبيب ليفيت ضاحكاً: «لك أن تعمل عقلك بأقصى ما يمكنك كما تشاء، فالعقول بطبيعتها كسولة بما يكفي لحماية أنفسها».

فبدأ بيرت بشكل حقيقي عندئذ التخطيط من سريره، وكانت كيت مندهشة بحق، جميعهم كانوا كذلك، ولكنها شعرت خفية بالمفاجأة، على الرغم من أحداً بالطبع لم يقل أي شيء. فقد ظلوا لفترة طويلة اعتادوا فيها على بيرت البائس الذي يحتاج فقط لمن يعتني به. والآن يجلس معتدلاً يدرس الخرائط ويقوم بإعداد القوائم، وقرر أنه سوف يقوم باصطحاب جاكى ريكسال معه في رحلته ميكانيكي. وكيت تنصت إليه، وهي تذكر اللحظة التي رآته فيها آخر مرة. ما الذي تبقى منها؟ رأت أنها تعني بالنسبة إليها أقل من لا شيء، في عالم لا شيء فيه يعينها كثيراً.

قال لها بيرت وهو يضحك ضحكة قصيرة: «إنه ليس متسلق جبال على الإطلاق، وأنا لن أسمح لريكسي العجوز بالصعود لأكثر من ألفي قدم، وهو لن يتفوق عليّ كما فعلت أنا مع فيساداي، إن ريكسي يشعر بالمرض حقاً إذا ما صعد إلى ارتفاعات كبيرة. ولكنه ميكانيكي ممتاز كما أنه يحبني. وهذا شيء هام في رحلة مثل هذه يا كيت. الجميع يجب أن يحبوا القائد».

بدأ بعدها بمقابلة الرجل تلو الآخر مع تحسن حالته الصحية، وهو يجلس ملتفًا برداء منزلي رائع مزركش باللون الأزرق، وقد امتلأت خزانة ملابسه بالملابس المنزلية التي أرسلها المعجبون إليه. واحتفظ منها فقط بأكثر ثمانية نالوا إعجابه. أما البقية فقد فكر السيد بريم بأنه يجدر به أن يقوم بإرسالها إلى مستشفى الجنود لما سوف يُحدثه ذلك من أثر طيب كما أنه لا يريد أيًا منها، وأيضًا لا يمكن إعادتها لمن أرسلوها إلا إذا لم تكن أسماؤهم موضوعة عليها، وهو ما لا يحدث عادةً، هم فقط يقولون: «من معجب متحمس لك»، أو أشياء من هذا القبيل. أعجبه أفضل ما في كل هذه الأردية الزرقاء، وقام بارتدائها، وبسرعة أصبح قادرًا على السير بتؤدة في غرفة كيت، والتي تحولت الآن إلى غرفة خاصة به للجلوس والحديث مع الرجال الذين يرغبون في الذهاب معه. وبالطبع لا يستطيع أن يأخذهم جميعًا، فقد كان هناك المئات منهم. (البنت المستخدمة) كما كان بيرت يدعو سكرتيرته الخاصة الجديدة، لم تكن تسمح لمن هم فوق الخامسة والثلاثين من العمر بالدخول إليه وإزعاجه. فلم يكن يريد رجالًا عجائز ممن يصيبهم المرض ويعرقلون المسير بالطريقة ذاتها التي حدثت من ذلك الرجل في بعثة فيساداي.

كانت كيت تقول له: «كيف ستجد رجالًا لتذهب معك يا بيرت؟». وكان هو يجيبها بلامبالاة: «وكيف وجدني فيساداي العجوز من قبل؟ سمعت أنه ذاهب وكنت مجنونًا بأن أذهب معه، وهذا ما سوف يحدث». وفي قرارة نفسها كانت كيت مندهشة لفطنته وذكائه، ذلك أنه في

الحقيقة هذا هو ما حدث بالفعل، فبمجرد أن أعلن أن بيرت هولم سوف يخرج مجدداً في مغامرة، كان الرجال على أهبة الاستعداد لأن يتبعوه إلى هناك، وانهارت الخطابات والبرقيات والبعض منهم وصل بالفعل دون أن يعلنه أحد، منهم مَن حمل حقائبه ومنهم من أتى من دونها. وقامت سكرتيرة بيرت بتصنيفهم، لا أحد فوق الخامسة والثلاثين، لا أحد ممن لم يقوموا بالتسلق من قبل، ولا أحد غير متمتع بمواصفات جسدية مثالية. ومَن تبقى بعد التصفية أتوا، واحداً تلو الآخر لمقابلة بيرت، كان يراهم واحداً بعد واحد، رجال وفتية متحمسون، يرغب أي منهم فقط في أن يلحق بالرحلة ولو ليطهو الطعام، أو ليعمل كمساعد أو أي شيء فقط ليكون مع بيرت هولم في مغامرة مثيرة. كان قاسي القلب مع الغالبية منهم، معتمداً بشكل كلي على «حدسه الشخصي».

كان يقول لكيت: «لديّ حدس شخصي خاص عندما أنظر إلى أي رجل، فإما أن أعجبني وإما لا أعجبني. أما الذين يعجبونني فأحتفظ بأسمائهم؛ وأنسى الباقين، هذا هو كل شيء. وبعدها سوف أفحصهم مرة ثانية لأختار من بينهم. أنا لا أحتاج لأكثر من ستة من الرجال في المجموعة، ويجب عليهم جميعاً أن يكونوا كما أريد، أتفهمين؟». ولكن بريم كان حازماً بشأن رجل واحد فقط، جون بيكر يجب أن يكون العالم المرافق للبعثة، فقد قال السيد كانتني أنه يجب أن يكون كذلك إذا كان هو مَن سيمنحهم التمويل؛ لأنه يعرف جون بيكر ويحبه، بالإضافة إلى أن بيكر كان ذاهباً بشكل أساسي من أجل أنواع جديدة من زهور الوردية والأوركيد، وقد وعد بأن يجلب زوجاً من كل نوع سوف يجده

هناك من أجل مقتنيات السيد كانتى الخاصة من زهور الأوركيد.

فما الغرض الذي يمكنهم إيجاده لوجود بيرت؟ فقط قمة إفرست من بين كل الجبال ستكون مثيرة بما يكفي لتلهب خيال الجماهير مرة أخرى، ولكن ليس لدى بيرت الخبرات الكافية لإفرست. ظلوا يبحثون جميعاً عن غرض ملائم ليكون خلف الإعلانات الحماسية المتدفقة التي يخرج بها السيد بريم عن بيرت يومياً. وفي خضم تلك الأحداث، قام السيد بريم بالاتصال هاتفياً بكيت يطلب منها أن تسمح بمناقشة الأمر معه هو والسيد جون بيكر، في ظل أنه على الرغم من أن بيرت قد وُلد قائداً ولكنه لا يملك أي ميول تجاه العلم. وأتاها صوت السيد بريم رفيعاً عبر أسلاك الهاتف فيما بدا متعجلاً لأن يعلنها بشيء ما: «شيء طبيعي تماماً في كل عملائي، فيما وجدت، أن جميعهم تقريباً يكونون غير قادرين على...». زال صوته تدريجياً دون أن يتم عبارته.

حتى وجدت كيت نفسها في صباح أحد الأيام من شهر آذار وجهاً لوجه مع جون بيكر والسيد بريم في غرفة الاستقبال، حيث قادهم سميدلي إلى هناك. وبمجرد أن رأت ذلك الوجه المربع القبيح بلامحه المجددة وهيئته الفارعة متعددة التضاريس، قالت باندفاع: «حسناً هلا تفضلتم بالذهاب معي إلى المكتبة، من الصعوبة التحدث في مثل هذا المخزن».

وبالفعل توجهوا إلى المكتبة وجلسوا هناك، أما جون بيكر فقد طوى نفسه في مقعد ضخم ولم ينطق بكلمة، بينما بدأ السيد بريم يشرح لها سبب إحضاره له إلى هنا. عندئذ قال بصوت دقيق ولكن بلطف: «ليس

ثمة فائدة من تسلق الجبال إذا كان هذا ما تعنيه يا سيد بريم. إنه مجرد نوع من الهوس بالطبع، ذلك الذي يقود الرجال إلى تسلق الجبال، شيء من غريزة الهروب من الضجر والسأم، أو ربما الهروب من أنفسهم. ولكنها مجرد غريزة، وهي إلى حد ما عمياء أيضًا بهذا الشأن».

بدا السيد بريم محبطاً بعض الشيء. فقالت كيت: «أنت تقصد أن العلم لا يستفيد من مثل تلك البعثات الاستكشافية في أعالي الجبال؟». أجابها جون بيكر: «ليس كثيرًا، وهذا ما سيكون عليه الأمر بعد أن تختفي الحياة النباتية. وقد أقر فيساداي بأنه على استعداد لأن ينشر البيانات المتاحة لديه عن التنبؤ بعيد المدى بأحوال الطقس، ولكنني لم أطلع عليهم، فاهتماماتي الأساسية هي النباتات كما تعلمين».

فعاد السيد بريم يكرر في قلق: «في هذه الحالة فإنه حريّ بنا أن نجد سببًا مناسبًا لتلك البعثة، والسيد ألبيرت كانتني على استعداد لتدبير الأموال».

ضحك السيد جون بيكر فجأةً ضحكة قصيرة جافة قائلاً: «كيف عثرت على كانتني؟ لقد ظللت أعمل عليه لسنوات، وكان دائمًا ما يخبرني بأنه لا ينوي تمويل المزيد من البعثات بسبب بعثته الأخيرة التي قام بها أركيولوجي شاب والذي أنفق فيها خمسين ألف من الدولارات وعاد إليه بحوض استحمام من العصور الرومانية المبكرة يبدو في شكله أشبه بحوض أمريكي عادي. وهو موجود بالمتحف في هذه اللحظة». تشاركوا جميعًا الضحك، ثم قال السيد بريم بتواضع: «يجب أن أعترف بأن الفضل في ذلك لا يرجع إليّ. فقد التقى السيد كانتني بالسيد هولم في

رحلة عودته من الصين وفي ذلك الوقت منحه وعدًا بأن يقوم بتمويله. وقد أخبرني السيدة هولم عن ذلك بعدها. فذهبت إليه وتبادلنا حديثًا مُرضيًا لكل الأطراف».

استدار جون بيكر نحو كيت ونظر إليها بعينين رماديتين صافيتين كالصخور قائلًا: «سوف يكون عليّ إذن أن أن أرى هولم».

حينها خالجهما شعور داخلي بأنه رجل أمين، فقالت بهدوء: «بالتأكيد سوف يرغب في رؤيتك»، بينما كان السيد بريم يداعب شفته السفلى الرفيعة في حالة من التفكير العميق، ثم قال ببطء: «أفترض أنه يمكننا القول بأن بيرت هولم ذاهب للبحث عن بعض النباتات النادرة». نظر بشيء من الأمل إلى جون بيكر ثم تابع: «إنها بلا أدنى قدر من المصادفة ليست نباتات طبية، أليس كذلك؟ فتلك ستكون قصة جيدة».

ولكن جون بيكر هز رأسه بصلاية قائلًا: «إن أيًا منها لا تساوي سنًا صديًا واحدًا بالنسبة للبشرية»، ضحكت كيت، ولكن السيد بريم أعلنها بحماس رزين: «أنا لن أستسلم أبدًا، يجب أن يكون هناك فائدة ما لتلك البعثة، وسوف أجدها وأعلن عنها». وفي النهاية راح يخط فقرة من الملاحظات، ثم قال متسائلًا: «ما رأيكما بهذا؟ تقرر أن تغادر بعثة هولم الاستكشافية إلى مرتفعات الهيمالايا في الثالث من شهر يونيو من هذا العام، والتي من ضمن خططها العديد من الأهداف العلمية المتنوعة، وأحد أهم تلك الأهداف هو قيام السيد جون بيكر باستكشاف شيء ما عن الحياة النباتية النادرة في الهيمالايا. كما يقوم السيد هولم بتكريس

وقته من أجل توسيع نطاق مظاهر الحياة في أعالي الجبال».

حدقت كيت بتعجب في السيد بريم، ورأته ينظر بعيداً بعجلة بينما يتابع حديثه: «الشيء الرائع في حالة كهذه أن تجد الفكرة العلمية الرئيسة قبل الجماهير وبعد ذلك تقوم بالعمل على التفاصيل». نهض من مكانه وقام بمصافحة كيت قائلاً: «سوف أترك السيد بيكر معك سيدة هولم إذا ما كان السيد هولم يشعر أنه بخير بما يكفي». قالت كيت: «إنه بخير حال اليوم».

أجابها السيد بريم: «حسنًا، شيء عظيم! سوف أرسل منشورًا عن هذا».

ثم مضى وتركها بصحبة السيد بيكر، فقالت له: «هلاً ذهبنا».

فأجابها: «في خدمتك دائماً».

قادته عبر الدرج إلى الطابق العلوي ثم فتحت باب غرفتها القديمة حيث يوجد الآن مكتب كبير بدلاً من سريرها الخاص، وفوقه كانت هناك كومة من الخطابات التي سبق أن فحصها السيد بريم وأرسلها الآن إلى بيرت بعد أن تعافى تقريباً، ولكنه لم يفتح أيّاً منها. كان يرقد على الأريكة ينقر بطرف القلم على أسنانه البيضاء الجميلة مقطّبةً جبينه وهو يتفحص بعض القوائم التي قام بتدوينها بخطه الممطوط غير المنتظم.

قالت كيت: «بيرت، أقدم إليك جون بيكر».

نظر لأعلى، ثم أدار عينيه الزرقاوين الברاقطين نحوهما قائلاً: «مرحباً»، انحنى جون بيكر بإهمال نحوه ثم جلس.

قالت كيت: «سوف أترككما معا لتبادل الحديث»، ثم اتجهت ناحية الباب، وهنا، حانت منها التفاتة نحو بيرت، فرأت نظرتة للرجل وفهمت مغزاها على الفور. إذ علمت أنه قد حصل على أحد الانطباعات التي يملئها عليه حدسه الشخصي، فقالت محدثة نفسها بتعجب: «لماذا يمكن أن يكره شخصًا مثل جون بيكر!».

كان بيرت يقول بعناد: «أقول لكٍ عندي إحساس بداخلي ضد هذا الرجل، أنا لا أريده. إنه واحد من أولئك الرجال الحكماء وقد أخبرته بأنني لا أريده».

هرع جميع من في المنزل إلى غرفة بيرت إثر مكالمة هاتفية أجراها السيد بريم مع السيد تالانت وهو في حالة هياج شديد معلناً رغبته في التنحي عن العمل لحساب بيرت هولم. صاح السيد تالانت بأعلى صوته عبر الهاتف: «لا يمكنك التنحي يا بريم! اللعنة يا رجل، ما الذي يمكننا فعله معه؟». بدا صوت السيد بريم مثل فرقة عبر أسلاك الهاتف وهو يقول: «لا مانع لديّ في أن أخبرك يا سيد تالانت ما لم أجرؤ على أن أخبر به جون بيكر هذا الصباح، أنني استطعت إعادة كاتني إلى تمويل البعثات فقط بعد أن علم أن بيكر ذاهب في تلك البعثة، كما أن كاتني لم يعد بنفس حماسه السابق تجاه بيرت هولم وقت أن قدم له هذا العرض. فهو شخصيًا ليس من هواة التسلق، كما أنه سمع بعض القصص من النوع الذي لا يحبه. فهو رجل متدين جدًا ويمتنع تمامًا عن شرب المُسكرات، ولا تعلم أين يمكن أن نجد شخصًا متمسكًا بدينه في هذه الأيام. ويبدو لي أننا يجب أن نحصل على بعض الدعاية الإيجابية في

الحال، لأن ثمة ردًّا فعليًّا شعبيًّا تجاه ما أشيع عن الفجور الأخلاقي قد بدأ، ولكن كانني أعلم أن بيكر رجل مستقيم، وآخر ما قاله أنه سيتمسك بوعده إذا ما كان بيكر ضمن البعثة، بيد أنه علم أنه لا ينوي الذهاب بسبب ما أسماه بالفضائح المجلجلة، وأخشى أن اهتمامه ببيرت هولم قد فتر، وقد حاولت إيجاد اسم لعالم جيد آخر بيتون أيريس، ولكنه أيضًا لا يريد الذهاب، يقول إنه لا يريد أن يكون ضمن دائرة الضوء المطلقة على هولم».

صاح به السيد تالانت: «فقط امض قدمًا في خططك يا بريم»، وصفق سماعة الهاتف واتجه مباشرة إلى البيت مستقلًا إحدى سيارات الأجرة ليجد كيت ووالدتها والجميع قد ذهبوا إلى غرفة بيرت. وظلوا جميعًا يتحدثون إلى ما يقارب الساعة.

وأخيرًا قال السيد تالانت ردًّا على عناد بيرت: «انظر إليَّ هنا، هكذا ستسير الأمور، بيكر يذهب وأنتم جميعًا تذهبون، أو أنه لا يذهب ولا أحد كذلك، وهذه هي خلاصة الموضوع».

قالت السيدة تالانت بحيوية: «هيا يا بيرت، لا تكن سخيًّا»، فقد استطاعت بشق الأنفس أن تنتظر تلك البعثة أن تبدأ. فبيتها لن يعود سيرته الأولى إلا بعد أن يخرج منه بيرت، فهي مغرمة بالزهور حتى إنه إذا فُتح صندوق زهور في حضرتها فإنها قد تصرخ عاليًا: «أنت القائد، أليس كذلك؟ يمكنك أن تفعل ما يحلو لك، بكل تأكيد، بمجرد أن تنطلق بعيدًا».

قالت كيت بهدوء: «أما أنا على العكس، فقد أحببت جون بيكر»،

هكذا أحست، كما لو أن وقاره قد بلغ ذروته وهو ينزل عبر الدرج آتياً من غرفة بيرت هذا الصباح؛ إذ خالجتها انطباعات أولية جيدة نحوه، حين قال لها بشكل رسمي: «إلى اللقاء سيدة هولم»، ومد يده ليصافحها في سرعة، بينما لم يقل كلمة واحدة عن سروره بقاء بيرت. قال السيد تالانت بإصرار: «عليك أن تحسم أمرك يا بيرت».

بدا بيرت مجهداً فجأة، ثم قال بسخط: «يا للبحيم، دعوه يذهب، وبعدها، لا يعنيني الأمر في شيء».

كان في فراشه، فاستدار بعيداً عنهم مولياً إياهم ظهره، بينما وجهه نحو الحائط. حتى إن كيت شعرت فجأةً بالأسف من أجله، وعندما ذهب والداها اتجهت إليه ووضعت يدها على كتفه قائلة في همس: «بيرت؟».

ولكنه هز كتفه ليزيح يدها عنه، فانتظرت لبضع ثوانٍ أخرى، وعندما لم يتحرك، ذهبت هي الأخرى بهدوء.



الفصل السادس

القرار بأن تذهب كيت بصحبة بيرت في تلك البعثة إلى بانجابات لم يكن وليد لحظة معينة بحيث يمكنها أن تلقي عليها نظرة إلى الخلف. فقد بدت كأنها تشكل ذاتها على هيئة ضبابية مرئية تجمعت من وادٍ خاوٍ شأنها في ذلك شأن كل الضرورات الكبرى الملحة الأخرى. ومثل الضباب أيضًا، كان السؤال قبل كل شيء، مترددًا وغامضًا، فلا بد لشخص ما أن يساعد بيرت لكي يتمكن من تجميع المئات من الأجزاء والأشياء الضرورية من أجل البعثة معًا، وقد بدأت بالفعل في أداء ذلك الدور. واستطاع هو أن يفكر في كل الأجزاء غير المترابطة: «كيت، علينا الحصول على نوع ما من الأحذية لارتدائها أثناء التسلق، على أن تكون خفيفة ودافئة، تلك الأشياء كان فيساداي يدعوها أحذية ذات رقبة يزن الزوج الواحد منها ثمانية أرطال، لقد وزنتها بنفسي، وكنت أجُرُّ ساقَيَّ فيهما إلى قمة ثيرات حيث تسلقت، ورغم ذلك نزلت من الأعلى بعضّة الصقيع، ربما كان من الأفضل أن أستعمل أحذية رياضية».

بدأت كيت تدون في حافظة الأوراق التي تعلمت حملها معها:
«أحذية خفيفة ودافئة».

وذات صباح على الإفطار صاح بيرت فجأة: «حقائب النوم، لم أفعل شيئاً بشأنها، يجب ألا تكون ثقيلة يا كيت ولكن دافئة، وواسعة بما يكفي للحركة بداخلها. تلك التي أحضرها فيساداي كانت ضيقة للغاية، عندما تدخلها وتغلق السحاب الخاص بها تكاد تخشى إن سعلت أن تندفع خارجاً منها مرة أخرى. وعندما يفسد السحاب أو يتعطل فأنت إذن في أحد أسوأ أيامك».

دونت كيت: «حقائب نوم خفيفة ودافئة، وبلا سحاب».

بدأت القائمة تتسع بفعل الأشياء والاحتياجات التي تكدست فيها. تناقشت في محتوياتها كيت مع والدتها وشقيقتها جايل وجون بيكر وأخذت تدون ما يقولون، أما جايل فقد كان خيالها واسعاً في شؤون الراحة والرفاهية، إذ قالت لها: «كنت لأريد شيئاً ما مثل ريش العيدر، حقيبتين، وبعض من ريش العيدر وبعد ذلك غطاء خارجياً، ونسيجاً مزركشاً أو بعض من الدنيم القطني الأزرق، ثم يُشد بحزام ذي حلقات نحاسية فوق جناحين إضافيين».

وفي غرفة المعيشة الضخمة المغطاة بالسجاد الناعم في منزلهم بمدينة نيويورك، كانت السيدة تالانت وجايل، واللذان لم تعرفا يوماً في حياتهما شيئاً عن الشعور بالبرد أو الجوع أو الشقاء، تجلسان في محاولة للتخطيط وتخيل ما يمكن أن يحتاجه الرجال فوق المنحدرات الثلجية؛

الخفة: لأن الرجال عليهم حمل كل تلك الأشياء على ظهورهم فوق الصخور والممرات التي ضربتها الثلوج والجليد. الدفء: لأن درجة البرودة تكون عميقة لدرجة تكاد تقترب من برودة القطبين؛ وفوق كل شيء البساطة واليسر في كل شيء من أول الطريقة التي يتم بها ربط الأحذية واللفافات حول السيقان، إلى تشييد الخيام وطهي الطعام؛ لأن العقول في تلك الارتفاعات الشاهقة تصاب أحياناً بالخدر بسبب نقص الأكسجين، كما تتحول اليدان إلى ما يشبه مضرب الكرة بلا أصابع.

تنظر كيت إلى والدتها وهي في غاية الأناقة والجمال في رداؤها الصباحي، وجايل ربة المنزل الذكية الشابة دائماً، معجبة بهما، وهي تقول لهما: «أنا لا أفهم كيف يمكنكما التفكير في مثل هذه الأشياء»، أجابتها السيدة تالانت: «نحن آل تالانت لسنا بعيدين عن الشاحنات ذات المقطورة، أستطيع أن أتذكر جدتي وهي تخبرني كيف كانت تضطر إلى وضع كل أغراضها وما تملكه في شاحنة، وأن تكون على استعداد دائم لمواجهة الطقس الحار أو البارد».

شعرت كيت في داخلها بآثار تلك الوراثة المتواصلة، والتي اضطرتها إلى شراء الكتب عن الجبال والتسلق والبعثات الاستكشافية إلى مرتفعات الهيمالايا ودراساتها وعقد المقارنة بينها وما استطاع أن يخبرها به بيرت عن ذلك. لم يستطع أن يقرأ كتاباً، فالطباعة لا تستطيع نقل أي صورة إلى عقله، ولكن الصور الفوتوجرافية جعلته يندفع تَوَّاقاً إلى المزيد من الشرح والإيضاح. وأخذ يتتبع الخطوط على إحدى الصور الفوتوجرافية بإصبع سبابته المعطوب، ليقودها صاعداً إلى

المنحدر الخاص بقمة جبل إفرست.

«هذا هو المسار الذي اتخذوه يا كيت، عبر سلسلة الجبال الشمالية تلك، يسمونها ممرًا جبليًا، لقد حاولوا ثلاث مرات، ولكنهم لم يستطيعوا عبور تلك الألواح الصخرية التي كانت تغطيها الثلوج، وماتوا على بعد ألف قدم من القمة. يمكنني أن أراهن أنني كنت لأجد طريقًا! كم أتمنى لو أنني تسلقت إفرست بدلًا من ثيرات! كان ذلك ليغني شيئًا أليس كذلك يا كيت؟». وتألفت عيناه الزرقاوين وهو يتابع: «علامَ تراهنين، أنني سوف أتمكن من قمة إفرست ذات يوم؟».

سألته: «لماذا تريد أن تفعل ذلك يا بيرت؟». في لحظة مثل هذه بدا كأنه على استعداد لأن يخرج من قوقعة الغموض والصمت. ارتجف شيء ما في نظراته، كما لو أن روحه على وشك أن تستيقظ، إلا أنه كان دائمًا ما يدفعها إلى الخلف بضحكة قصيرة.

فقال لها: «أنا لا أعرف، ربما لأنني أحب أن أتفوق على أي شخص آخر».

فقالت برفق ومثابرة: «يجب أن يكون شيئًا أكبر من ذلك».

أجابها: «بأمانة أنا لا أعرف، مؤكد أنه ليس من أجل المتعة، أعرف ذلك، كنت أدفع نفسي لأعلى على طول الطريق إلى ثيرات، وقلت لنفسي حينها: يا للبحيم، ها أنا ذا هنا أتجمد وألهث، تكاد عينايتان تقفزان إلى خارج رأسي. كنت أعاني نقصًا حادًا في الأكسجين، ويمكنني أن أقول إن الأكسجين هو ما يجعلني أفكر. كان يجب علينا الحصول على بعض الخزانات منه، فقط لتكون في متناول اليد عند الحاجة. كان

فيساداي مختل العقل في ذلك. كان يظن أنه لن يكون مناسباً أن نحمل الأكسجين أثناء الطريق، ولكنني لا أستطيع أن أفهم ذلك. فإذا كانت القمة هي ما تريد، فإن الحصول عليها بأي طريقة يمكنك بها ذلك، هي الطريقة التي أنظر بها إلى الأمر».

دونت كيت لديها: «أكسجين»، ثم أضافت: «اسأل بيكر».

حيث أصبحت عبارة «اسأل بيكر» الآن ملحقاتاً بأغلب الملاحظات التي تقوم بتدوينها، وقد أخبرها جون بيكر بأسماء الشركات التجارية والمحال ذائعة الصيت في بيع ذلك النوع من الأغراض لتراهم، ثم ذهب معها إلى المكاتب المغطاة بالأتربة للبيع بالجملة حيث قاما بمعاينة النماذج والكتالوجات. وكان يقوم بمناقشة الأسعار بصوته المنبسط غير المسموع كما تحدثنا عن حقائب النوم المصنوعة خصيصاً حسب طلبهم والخيام ذات ألواح السقف الطويلة بما يكفي، لكي يكون على حذر حتى من تساقط الصخور الثقيلة.

كان يقول لكيت: «يجب عليك أن تفكري في الرياح، فهناك في الأعالي فوق تلك المرتفعات توجد رياح يمكنها أن تقتلع منزلاً بأكمله وتلقي به بعيداً».

ومن بين عينات القماش الكاكي اختار البطانيات والأغطية وقام بتحسس وليّ القطع المطاطية الخاصة بفرش الأرضيات. وهو يقول: «الصخور لا تصلح لصنع فراش جيد، فهي تبدأ بإثارة القلق فيك قبيل الساعة الثالثة في الصباح».

وفي الأسفل، بالطابق الأرضي الضخم من منزل آل تالانت،

تجمعت تلك الحمولة الهائلة في أكوام كبيرة تحمل كل منها بطاقة،
نظر بيرت إليها قائلاً: «علينا الاحتفاظ بها هنا في الأسفل».

أخذ بيرت وكيث وبيكر والسيدة تالانت وجايل يتفقدون معاً كل شيء ويستبعدون الأشياء المشكوك في أمرها أو التي تحتاج إلى التجربة، وكان بيكر أفضل منهم جميعاً في ذلك، كما استطاع بمفرده أن ينهي مجادلات جايل الحادة، فلم يكن ينظر إليها وهي تحدثه، بيد أن أي شيء يجرح كبرياءها، يجعلها تتحدث أكثر، فلم تلتق من قبل برجل تمكن من ألا ينظر إلى عينيها. ولكن بيكر قام بفحص موائد الكحول أو بطاريات الكشف أو أغذية الزجاجات الحرارية التي أحضرتها، وبعد أن انتهت من تجميع كل ذلك، قال: «نحن لسنا بحاجة إلى تلك الأشياء»، وقام بطرحها جانباً. ولذلك، وفي يوم آخر عندما قام باستبعاد موقد معطل، وبعض أقراص الحساء المضغوطة الجديدة، والعديد من الأشياء الأخرى التي ارتاب في كونها مناسبة لعدتهم، شعرت جايل بالغضب الشديد، حتى إنها قالت له بلهجة آمرة غاشمة: «أشعل لي سيجارة، من فضلك»، وعندما أصبح قريباً للغاية منها، ويده ممسكة بالقداحة على بعد بضع بوصات من شفيتها الجميلتين، رفعت أهدابها ونظرت إليه. لم يكن هناك من يعرف أكثر من جايل تأثير مشهد النيران المشتعلة تحت أهدابها المرفوعة، ولكنه لم يكن ينظر إليها، فقالت له وهي تضع أصابعها على يده كما لو أنها تقوم بتثبيتها: «انتظر، إنها لم تشتعل بعد».

لم يسحب يده بعيداً، بل على العكس، بدلاً من ذلك كانت يده ثابتة

تمامًا، ثم نظر لأسفل، وسدد عينيه في عيني جايل مباشرة، وتحت تأثير تلك النظرة الساخرة انسحب الثعلب في داخلها إلى جحره مرة أخرى. وبعد برهة، استطاع أن يلخص في كلمات، ما كانت تشعر به كيت مثل غشاوة تتصاعد حذتها، غشاوة من الشك والارتياح، سؤال وفضول نصفه تَوَاق، ونصفه الآخر عازف. إذ استدار من جايل إلى كيت قائلاً بوضوح: «لماذا لا تأتين معنا، سيدة هولم؟ يمكننا أن نحسن التعامل مع وجود امرأة مثلك».

كان ينظر إليها، على الرغم من أنه لم يكن ينظر إلى جايل، وقد تقبلت ذلك، ساعدتها نظراته الحزينة الخالية من الدوافع الجنسية، نظرة بعيدة بقدر ما هي صافية، نظرة موضوعية مجردة تحمل قدرًا عظيمًا من الامتنان، تشبه أضواء المساء المترامية على مرتفعات الجبال.

قالت كيت، وهي تعلم علم اليقين أن ما تقوله حقيقي: «أعتقد أنني أحب أن آتي معكم»، فقد أرادت فوق كل شيء أن تذهب إلى الهيمالايا حيث لا يوجد أحد من البشر، لا شيء غير الجبال، برغم أنها حتى اللحظة التي عبرت فيها عن ذلك لم تكن تعرف عنه شيئًا، بالإضافة إلى ذلك، فإنه حيث لم يكن ضروريًا تواجدها في أي مكان آخر، ومتى كان ينبغي عليها ألا تتواجد حيث يوجد نورمان، فلماذا إذن لا تذهب مع بيرت؟

وقد تذرعت بتبعيتها الإجبارية له في مواجهة الضجة التي ستحدث عندما يعلم الكافة بأن زوجة بيرت هولم قررت أن تصحبه إلى مرتفعات الهيمالايا. وما قد بدأت تلك الضجة في المنزل، إذ استنكرت والدتها

الأمر كليّة، وقالت لها: «أنتِ لستِ قوية بما يكفي يا كيت»، غير أن السيد تالانت قال متسائلاً: «ما المشكلة بالنسبة إليها؟ إنها حتى لا تمرض أبداً». وعلى الرغم من أنه لم يكن رافضاً للأمر بأكثر من زوجته، ولكن ليس لنفس تلك الأسباب؛ إذ إنه ببساطة لم يرد لابنته أن تعاني كل هذا الكم من المشقة مهما كانت بصحة جيدة، هتفت السيدة تالانت: «لا، ولكن يا روبرت! إن تسلق الجبال بتلك الطريقة شيء مريع، إنه أمر مهلك بالنسبة للرجال».

فقال السيد تالانت: «الرجال عادة ما يهلكون أسهل مما تفعل النساء».

جال بخاطر جايل فكرة ما فقالت: «لماذا لا نذهبن إلى دارجيلنج؟ فأنا عن نفسي وددت دائماً أن أذهب إليها، حيث يبدو أن الناس يحظون هناك بالكثير من المتعة».

بينما يجلس هارفي على حافة ذلك الاجتماع العائلي، لا ينطق بكلمة. فهو أكثر من سيكون سعيداً بخروج تلك البعثة بأسرع ما يمكن، إذ إن جميع الرجال المُقبلين على شفا تلك المخاطرة، ضعفت همّتهم وخارت مقاومتهم أمام سحر جايل، فقد عرفت كل أفراد البعثة، وعلى قدر ما استطاع أن يلاحظ، فقد أبقت على علاقة غرامية زائفة ساخرة مع كل واحد منهم. وقد كانوا جميعاً باستمرار تحت بصره في منزله، حيث ظل يراقبهم ليعرف ما إذا كان أحدهم يتواجد في المنزل أو يتردد عليه أكثر من الآخرين، ولكنه لم يستطع أن يكتشف فارقاً في معاملتها لأي منهم.

وعندما ضحك بالشكوى من ذلك قالت له: «مساكين هم أولئك الرجال، ربما لن يعودوا مجددًا أبدًا، إنه أشبه بأن ترسلهم إلى الحرب». ثم ابتسمت له قائلة في تساؤل: «هل الأمر عادل هكذا؟». نخر عاليًا وهو يقول: «أنا أمنحك مساحة هائلة من حرية الحركة». قالت له ضاحكة: «فقط إلى نهاية الجبل المخصص لي».

والآن، يجلس هارفي، محاولاً أن يتخيل بيرت وكيت فوق الهيمالايا، ولكنه لم يستطع حتى أن يتخيل مرتفعات الهيمالايا ذاتها، أو السبب الذي يجعل أي شخص يذهب إلى هناك. وبكل تأكيد لم يستطع أن يرى كيت بجسدها الضئيل تكافح من أجل الصعود، ما هذا الذي فعلوه، قاما بربط نفسيهما معًا، أليس كذلك؟ ربطت كيت نفسها ببيرت، وأصبحت حياتها معتمدة على حياته! واستوقفته المهابة التي تضيفها تلك الرمزية على الأمر لبرهة، فالأشياء هكذا ليست عادلة بالنسبة للنساء. كيف كان يشعر لو أنها كانت جايل؟ بيد أن جايل متزوجة برجل آمن.

قرر أن يتحدث بعد الجميع، على الرغم من أنه كان قد قطع على نفسه عهدًا ألا يتدخل أبدًا في شؤون عائلة تالانت، فقال: «في رأيي، فإنه يجدر بكيت أن تنتظر تحت سفح الجبل»، بينما يرى في قرارة نفسه كما لو أن هناك إمكانية دائمًا لانهايار جزء من جانب الجبل يمحو بيرت تمامًا من على الخارطة.

في حين جلست كيت على مقعد قصير مكسو بالحرير الأخضر تنصت إليهم. فقد اعتادت في مثل تلك الاجتماعات العائلية أن تجلس

صامئة حتى تتيقن كيف تريد لحياتها أن تمضي. فإذا ما سارت الأمور في الاتجاه الذي تريده، فلا حاجة بها إذن للكلام. وإذا لم يكن كذلك، فإنها ببساطة سوف تنتظر لما بعد، وعندئذ تعلن بهدوء ما الذي تنوي فعله، ذلك أنها كانت قد قررت من قبل أنه ينبغي عليها الذهاب إلى فرنسا لعام كامل بصحبة والدتها لكي تصقل لغتها الفرنسية ولكي تعود مجددًا للذهاب إلى الجامعة بدلًا من أن تكتفي بالمدرسة النهائية مثلما فعلت جايل. أما في سنتها الثانية بالجامعة، فقد كانت تخطط خلالها لظهورها الأول كإحدى فتيات المجتمع الراقي بشكل هادئ لطيف أثناء إجازات أعياد رأس السنة، أما السنة التالية لتخرجها ونيلها الشهادة العليا فكانت لتذهب فيها إلى الصين بصحبة والديها.

والآن ينبغي عليها أن تتحدث، فقالت بلهجة سلمية: «أعتقد أنني سأذهب فقط إلى أقصى نقطة يمكنني بلوغها»، أدارت عينها فيهم جميعًا بنظرة اعتذار وتبرير وهي تبسم. فلم يكن أي منهم يؤمن بها كثيرًا عندما يصل الأمر إلى حد العمل الشاق، وقد استطاعت أن ترى ذلك بوضوح، ذلك أن شيئًا لم يستطع أن يغير قوامها النحيل ووجهها الناعم الداكن ذا الملامح الطفولية. ولم تكن تُلقي باللائمة على أي منهم بسبب اعتقادهم بأنها غير قادرة على النهوض بالأمور الجسيمة، فربما كانت كذلك بالفعل. ولكنها وقتذاك لم تكن لديها الرغبة في ذلك ولم تكن تسعى إليه. وخلف تسامحهم الحنون استطاعت أن تحيا داخل نفسها كما أحبت دائمًا.

ثم أضافت بغموض: «لستم بحاجة لأن تُقلقوا أنفسكم بشأني،

فأنا لن أفعل أي شيء خطير». ضحكوا جميعاً منها مع شعور مفاجئ بالبهجة اعتراهم، ربما كما كانوا يضحكون منها عندما اتخذت أول خطوة لها على الأرض، غير متوقعين ذلك ساعتها أو الآن.

قالت لها والدتها بلهجة أمرة: «كيت، تبدين كطفلة رضيعة! تعالي إلى هنا وقبّليني»، اتجهت نحو والدتها في طاعة، وفي الطريق إليها التقت عيناها بعيني هارفي الرماديتين الباردتين. كانتا مليئتين بالشك والارتياب.

لم تستطع أن تتنبأ بتأثير هذا القرار بأن تذهب إلى الهيمالايا وما يمكن أن يفعله في ذلك الحضور الغريب الهائل، الذي عاشت فيه مع بيرت، في حضور كل تلك الملايين من البشر الذين يشغلون أنفسهم بأدق تفاصيل حياة بيرت، وكانت هي إحدى تلك التفاصيل، اكتشفت ذلك الآن فقط، وكإحدى التفاصيل فقد تحولت إليها الخطابات والبرقيات وتقارير الصحف الإخبارية، فقد عرض عليها السيد بريم في إحدى زيارته اليومية العادية وهو يضحك ضحكة مكتومة ملفاً ضخماً في حقيبته الخاصة، مطبوع عليه من الخارج: «السيدة بيرت هولم»، ودون أن تجيب، فقد ناولته الرسائل غير المفتوحة الخاصة بذلك اليوم.

قام بعدّ الخطابات. ثم قال لها: «أكثر من رسائل الأمس بسبع وخمسين رسالة»، ثم أخذ يتحسس بيده داخل الحقيبة ليخرج منه صفحة مطبوع عليها بأناقة. ويقول: «اعتقدت أنها ربما تمنحك بعض التسلية، فقط لنرى ما نوع الأشياء التي يكتبونها عنك. إنهم جميعهم من النساء تقريباً، ولكن هناك القليل من الرجال، وهذه بقية رسائل أسبوع».

تناولتها وألقت نظرة سريعة على ما جاء فيها. حيث جاء بذلك الأسلوب اللطيف الذي كتبه المحرر: «مائة وستة وعشرون رجلاً يعبرون عن إعجابهم»، بينما أرسلت العديد من النساء إليها الوصفات والنصائح. كما كانوا ينسجون السترات وما إلى ذلك، وأردوا أيضًا أن يعرفوا مقاس قدم بيرت هولم من أجل صنع الجوارب له. كما أردوا منها أن تعلم أنهم سوف يصلين من أجلها عندما يصلين من أجل بيرت وأنهم يشعرون ببعض الغيرة منها ويرد أن تعلم كم أن بيرت هولم شخص رائع. بل إن الأمر قد وصل بالبعض إلى حد أن أرادوا معرفة ما إذا كان يؤمن بوجود إله أم لا. استطاعت أن ترى وجوههن جميعًا تنهض من خلف الصفحات، حزينة، مجهولة، خجولة وجريئة. ولكن حتى الخجولة منهم استطاعت أن تصبح جريئة عندما اعتقدت أن أحدًا لن يعرف بشأنه. أعادت الصفحة مرة أخرى إلى السيد بريم.

فقال لها: «اعتقدت أنك ستكونين مستمتعة بهذا».

ولكنها هزت رأسها نفيًا، ثم أجابته: «أكون أسعد حالًا عندما لا أعلم بشأنهن»، ثم أضافت: «أنا مسرورة حقًا لأنني سوف أبتعد عنهن». وفي تلك الليلة عندما كانت تتفقد مكتبها الخاص، وجدت في أحد الأدراج الختم الذي كانت قد ابتاعته من بكين، واستخدمته لفترة وبعدها طرحته جانبًا ونسيت أمره. التمتعت قطعة العاج الباردة الناعمة البيضاء، حتى بدت مضيئة ودافئة بين يديها. وضعتها فوق سطح المكتب، وهناك استعادت الخيال القديم لذلك التناسق المثالي الساكن فيها، فبدأ الجبل الصغير كأنه شاهق الارتفاع وعلى سطحه ذلك الرجل بالغ الضالة

يكافح من أجل الصعود. أحست عندما قامت بشرائه أنه سوف يحمل مغزى ما بالنسبة إليها، ولكن ذلك لم يحدث. وهنا في مدينة نيويورك طرحته جانباً ونسيت أمره، ربما الآن سوف يعني شيئاً ما، الأمر الذي جعلها تقرر فجأة أن تأخذه معها.

وأخيراً، أو شكوا تماماً على الرحيل، وأصبحت السفينة على أهبة الاستعداد للتحرك مغادرة الرصيف. وكيت تنظر للأسفل من فوق سطح السفينة على المدى إلى الوجوه البيضاء المبعثرة، ورأت السيد بريم يتجول بسعادة بين الحشود، على مدار الصباح كان يستقبل دقاتهم العاطفية حيث ظلت الجماهير منتظرة بيرت. ثم أخذوا يلوحون ويهتفون له لدى وصوله وعند صعوده على متن السفينة، أكثر جمالاً ووسامة من أي وقت مضى، في هذا الصباح الربيعي مرتدياً قميصه الأبيض. لقد أدى مرض بيرت إلى تحسنه بشكل كبير. فقد بدا أكثر نحافةً وأكبر سنًا على نحو أكثر ملاءمةً لمكانته الهائلة الحالية. وقد تعلم كيف يتقبل الهتافات دون أن يتجهم أو أن يعبس وجهه خجلاً، يقف الآن عند السياج، ممشوق القوام، أكثر جرأة، ونسيم البحر يعبث بخصلات شعره الناعمة المشرقة، وأحياناً يهتف صوت من بين الجموع: «ها هو بيرت! إنه هناك، هاي، هناك، بيرت!»، عندئذ يرفع يديه ويلوح مبتسماً، وأسنانه البيضاء تبرق، وإلى جواره، وقف جاكى ريكسال مطبق الفم خشن الملامح بشيء من الغرابة. كما التف الفتيان الذين تألفت منهم البعثة حوله بشكل عشوائي.

في حين وقفت جايل أقرب إليه من كيت، في غاية الأناقة في رداها

البنى الذهبى الباهت، وقبعته الذهبية الصغيرة، يتدلى منها إلى الأسفل على أحد جانبي رأسها ستار داكن. ولكن هارفى كان هناك أيضًا، وفي كل مكان، فسوف تظهر غدًا صورة جابل، وسوف يظهر بالقرب منها هارفى بهيئته الجامدة. أما السيد والسيدة تالانت فقد وقفا بحذر بعيدًا عن نطاق الكاميرات، وبصحبتهما كيت، باستثناء الأوقات التي يأتي إليها فيها أحدهم ليقول لها: «من فضلكِ سيدة هولم، هل يمكنكِ الوقوف إلى جانب بيرت للحظات؟ فالجماهير تهتم بأن تراكِ أيضًا».

ودائمًا ما كانت تتحرك في طاعة لتقف إلى جانب بيرت وتبتسم حتى تسمع صوت التقاط الكاميرا للصورة. فقد علمها السيد بريم ذلك: «أقترح عليكِ أن تبتسمي سيدة هولم في صورتكِ الفوتوجرافية، فوجهكِ في هيئته الوقورة تلك لا يُحدث أثرًا دعائيًا جيدًا»، وربما كانت تبتسم أيضًا لأنها هكذا كانت تنتهي بسرعة أكبر، وكان المصورون يجادلونها قائلين: «هل يمكنكِ أن تبتسمي، فقط ابتسامة لطيفة». وينتظرون حتى تتمكن من إجبار ابتسامتها المُكرَّهة بالظهور على شفيتها. كما كانوا يقولون لها: «حاولي أن تبدي سعادتكِ! الجماهير تريد منكِ أن تبدي سعادتكِ!».

فقط جون بيكر لم يكن هناك مع الآخرين. رآته كيت يتجول على سطح السفينة مرة أو مرتين، تحمل شفيتها السخرية، بينما تتجنب عيناه الآخرين. أما عن المراسلين الذين بحثوا عنه باعتباره ثاني أكثر الأشخاص أهمية بعد بيرت هولم فقط في تلك البعثة، هز رأسه قائلاً: «لا شيء لديَّ لأقوله، فقط أتمنى أن أجِد بعض زهور الورد النادرة

وزوجًا جديدًا من زهور الأوركيد، وهذا هو كل شيء».

سأله أحدهم بلهفة: «وما الذي تنوي فعله بها؟».

أجابته: «لا شيء فقط أن أجدها».

بينما تحول بيرت إلى نسخة أفضل كثيرًا. فقط بدا صريحًا وفي هيئة رائعة، ولم يعد بحاجة إلى أن تتحدث كيت نيابة عنه مجددًا؛ لأنه أدرك الآن أنه ليس هناك أسباب حقيقية لتجعله يشعر بالخوف، فالناس يحبونه بالطريقة التي هو عليها، ويحبون كذلك الطريقة التي يتحدث بها إليهم.

قال ضاحكًا ردًا على سؤال أحدهم: «بالتأكيد، أنا ذاهب من أجل المتعة، تسلق الجبال دائمًا شيء ممتع بالنسبة لي». وهنا تذكر وصايا السيد بريم فتابع: «كما أتمنى أن نخرج منها بالكثير من الأشياء العلمية النافعة، فأنا أعتمد على بيكر في هذا، والباقيين. ماذا كان ذلك؟ نعم، بالتأكيد، سوف أقوم ببعض الأمور بنفسي، قياس الارتفاعات والحصول على بعض قراءات الطقس وكل ذلك... حسنًا، سوف نرسو في بومباي وبعد ذلك سوف نتخذ طريقنا عبر الهند الشمالية إلى الجبال... نعم، سوف نحصل على شهر عسل ثانٍ، كيت وأنا، نعم بالتأكيد.

«أنا أو من بحسن الاستعداد للحرب وسوف أكون أول من يقاتل أي شخص يخطو بقدمه فوق بلاد العم سام القديمة!».

كان قد قضى شهري مارس وأبريل في جلين باري، يعيش تحت أشعة الشمس، حتى تحولت بشرته إلى اللون الداكن، كما بدت عيناه

أكثر زرقة من أي وقت مضى، حتى إنه لم يحصل من قبل على صور فوتوجرافية أفضل من تلك التي يحصل عليها الآن.

وكانت جايل تهمس لوالدتها، وقد ملأها الشعور بالإعجاب ببيرت: «إنه حقاً رائع، أأدرين، بطريقة ما يستطيع أن يتدبر الأمر بشكل جيد، وأن يكون نفسه وسط كل هذا».

أجابتها والدتها موافقة: «أفترض ذلك، إذا كان يعني أي شيء».

صاحت بها جايل ضاحكة: «أماه!» ولكن السيدة تالانت لم تتكلم، فقط كانت تتجه بأسرع ما يمكنها إلى العيادة لتخفف ضغط دمها المرتفع. مال السيد تالانت نحوها وقال لها بصوت خفيض: «لدي رأي جيد، أرى أن أضعف أتعاب بريم من أجل هذا، فقد نجح في مهمته بشكل رائع»، أجابته موافقة: «بالتأكيد هو يستحق ذلك».

أما هارفي كرين، فوقف بإخلاص إلى جوار زوجته، بينما كان يشعر بالغليان في داخله، لإحساسه بالمفاجأة، لماذا يجب على رجل مثل بيرت هولم أن يبدو كأنه كل الرجال! بينما في أعماق قلبه الخفية، وخلف أعتاب تلك السخرية الخارجية، هل كان يتوق لأن يبدو كذلك؟ كان بيرت هولم حلم أي امرأة، لا فائدة من التظاهر مجدداً أن جايل لم تكن لتبدو أكثر سعادة إذا ما كان هو مع كل ما لديه من الأشياء الأخرى، من الممكن أن يضاهي بيرت جمالاً ووسامة! الحياة لغز غامض، ذلك أن جايل قد أخبرته بأن أسلاف الرجل لم يكونوا شيئاً سوى مجتمع من أهل الريف العاديين، ولكن كل الأجيال المنحدرة من سلسلة نسب نيو إنجلاند لم تزد على أن منحت الشعر الخفيف داكن اللون والقليل من

الأكتاف الضيقة ومعركة أزلية لا تنتهي مع البطن البارز المحذب، قد يكون صغيراً بعض الشيء وهذا حقيقي، ولكنه دائماً هناك. والتي غالباً ما كانت تثير الشكوك حول المبادئ والتعاليم التي تشكلت عقيدة والدته وفقاً لها، هل هي رابطة الدم، لا شيء يدعو للثقة في ذلك، فإذا ما رجعنا إلى الأصول الأولية، فإن أغلب السلالات العادية قد نُقلت إلى المزارع الأمريكية من أماكن غير معروفة في أوروبا، والتي أنتجت فيما بعد هذا المخلوق الجميل بأكتافه العريضة وفخذه المكتنزين الدقيقتين، مَنْ ذا الذي يُقدّر العقول أو حتى سلالات النسب حق قدرها هذه الأيام؟ بالتأكيد ليست هذه الرعايا!

ارتفع رنين الجرس الأخير، فقال لجايل: «حان الوقت لأن نذهب»، كان شيئاً في غاية السخافة منه أن يكره منها أن أبقت شفيتها الباردتين لبعض الوقت على شفتي بيرت في قُبَلته المتقدمة، فقد سمع صوت التقاط الكاميرا للصورة واستشاط غضباً بأكثر مما كان يظنه ممكناً، ولكنه لم يكن شيئاً ذا بال ليهتم بأن يذكره لجايل، لذا قال لبيرت بشكل رسمي: «وداعاً»، وهو يشعر بالسعادة مرة أخرى لأن الهيمالايا تقع في الجانب الآخر من العالم.

وغمغمت السيدة تالانت: «كيت، يا حبيبتى، لا تتجولي بمفردكِ في الشوارع الغريبة، لم أكن أحب ذلك منك أبداً».

وقال السيد تالانت: «إلى اللقاء يا كيت، افعلي ما يحلو لك، واستمتعي بوقتكِ». ثم منحها إحدى قُبَلاته الجافة المعلبة.

أما السيد بريم فقد قال بانفعال شديد غير معتاد منه: «إلى اللقاء،

حظاً سعيداً! لا تقلقي نفسك سيدة هولم بشأن أي شيء هنا، فبمجرد أن يرحل السيد هولم، سوف أبدأ على الفور في التخطيط لأموال عودته».

شعرت كيت بوخز عجيب من ضميرها بمجرد أن مدت يدها لمصافحته، قائلة: «أشكرك من أجل كل ما فعلته».

فأجابها مؤمناً على قولها متأثراً برقتها: «لا، أنا لم أفعل أي شيء، سيدتي العزيزة». إذ يبدو أن الناس قد اعتادوا غالباً أن ينسوا توجيه الشكر له، فقالت له بهدوء: «لقد جعلت منه شيئاً».

«حسناً... فقط ربما...»، ثم سعل بتواضع، وهو ينظر إلى بيرت نظرة تقدير، والذي كان يصدُّ آخر المراسلين ضاحكاً. فقال السيد بريم: «إنه بكل تأكيد خامة جيدة»، ثم أضاف: «ومع ملامحه ووسامته تلك، سيظل الناس دومًا مؤمنين به، وهذا هو أول الأشياء الجوهرية التي تجعل الناس يؤمنون بشيء».

حاولت أن تتأكد من أنه لا توجد ثمة سخرية في أي موضع من حديثه. ولكنها لم تجد شيئاً من ذلك. بل كان ينظر إلى بيرت بإعجاب صادق لصانع فخار ما زالت يدها ممتلئتين بالطين الجيد النقي.

لم يكن بيرت قد استرد عافيته بنسبة مائة بالمائة، كان يشعر بذلك. الراحة فقط هي كل ما يحتاجه، بعد كل ذلك اللغظ والضجيج.

قال لها: «أظن أنني سوف أجد مقعداً فوق ظهر السفينة لأرقد فوقه يا كيت»، كانت السفينة تشق طريقها في البحر الآن، وقد انتصف النهار. هناك إذن الكثير من الوقت قبل موعد العشاء. فعاد يقول: «سوف أرقد

قليلاً وربما أطلب من المضيفين أن يحضروا لي بعض الحساء أو شيئاً ما». قالت كيت: «سوف أذهب لأجد المضيف الخاص بظهر السفينة».

تركها تذهب؛ لأنه كان يشعر بالتعب وبقي في انتظارها، كان سطح السفينة خالياً تقريباً، فلا بد أن يكون الجميع بالأسفل يفرغون محتويات حقائبهم. كل ما كان يحتاجه أن ينام جيداً. وضع يده في جيبه وأخرجها ثانية، كان خطاب كوني ما زال هناك. كان قد قرأه وقت أن كان بمفرده، فقط ليرى كم كان سخيفاً ذلك الأحمق المسكين. كلا، سيمزقه الآن ويلقي به في عرض البحر، كان هناك الكثير من الرسائل من سيدات سخيفات في صندوق بريده كل يوم، ولكنه لم يكن يستطيع الشعور بالإنارة من خطاب لامرأة لم يرها من قبل. كما لم يشعر بالإنارة حتى نحو كوني أيضاً، ولكنها كتبت إليه خطاباً رائعاً. قرأه في عجلة، ثم مزقه إلى قطع صغيرة، ثم شاهد الرياح وهي تنثرها تحت أشعة الشمس، ولم يرها بعد ذلك مرة أخرى، كما لم يكن يرغب في ذلك. ولكن الفتاة المسكينة كانت تعبده، ولكن لا فائدة تُرجى من وراء ذلك كله، فقد كان مخلصاً لكيت، وينوي أن يظل كذلك.

بالأمس قال السيد بريم شيئاً مرحاً عندما أتى ليتحدث إليهم للمرة الأخيرة، حالما خرجت كيت من الغرفة، قال له بطريقته الغربية في التوبيخ: «ينبغي عليّ أن أحذرك إلى الأبد ونهائياً يا سيد هولم، من أن تتورط في أي علاقة مع امرأة في هذه الرحلة، سوف يكون ذلك مدمراً لسمعتك ولكل ما أحاول بناءه من أجلك، الشيء الوحيد الذي لن يغفره

لك الأمريكيون هو الفجور الأخلاقي».

وكان رده على السيد بريم على الفور: «بريم، أريدك أن تعلم أنني مخلص لزوجتي».

وكان ذلك حقيقياً تماماً، ولكن السيد بريم نظر إليه كما لو أنه يتحفظ على شيء ما بشأنه دون أن ينوي الحديث عنه، ربما كان ذلك بشأن لي لي، ولكنه لم يكن بالكاد يتذكر لي لي مجدداً، فقد مضت أيامها منذ زمن بعيد، كان يخمن أن الأفعال القديمة التي انتهت بالفعل، إذا لم تعاود الظهور الآن، فإنها لن تفعل أبداً. تذكر والدته المسكينة التي كانت تريد المجيء لكي تودعه، ولكن والده مرض فجأة، ولذلك لم تستطع أن تأتي! وكان قد ذهب لرؤيتهم بمفرده ليوم واحد، ورأى كم كانت تتألم من أجل حالة والده المالية الحالية أكثر من أي وقت مضى، وكذلك من انحائها على البقر كي تحلبها من أجل الحصول على ألبانها. وقد سبق له أن طلب منهما أن يعينا شخصاً ما للقيام بتلك الأعمال، على أن يتكفل هو بدفع أجره، إذ لم يعد هناك أي شيء مناسب في ذلك بالنسبة لوالدته، ما جعله يفكر بدفع في حضنها الهائل الحنون، وحينما قال لها شاكياً: «لم أعد أراك إلا بصعوبة يا أمي»، كان شعوراً يشبه الأيام الخوالي عندما كان طفلاً، فقالت له بأسى: «هذا ما أقوله أيضاً، ولكني لا أستطيع أن أزحزح أباك من هذا المكان». فقال والده وهو راقد في فراشه: «أنا لن أذهب إلى أي مكان»، فقال بيرت موبخاً الرجل العجوز: «بل يجب عليك ذلك يا أبي، يمكنني الآن أن أخذك إلى أي مكان»، ولكن العجوز هز رأسه نفياً دون أن ينطق.

رأى كيت تهبط إليه من على ظهر السفينة في معطفها الأبيض. كانت تحمل قبعتها بيدها والرياح المحملة برذاذ مياه البحر كانت بالفعل تترك قطرات منثورة على شعرها الملتف. كانت في غاية الجمال، حتى شعر كأن قلبه قد خرج من بين ضلوعه للقائها، فبسط ذراعيه عن آخرهما بانتظارها، لم يفعل ذلك منذ وقت طويل، ابتسمت ولكنها لم تكن لتعدو إليهما كما اعتادت أن تفعل في السابق. شعر بالألم لدقيقة حتى أبصر امرأتين تحدقان فيهما من خلف إحدى النوافذ، عندئذ أنزل ذراعيه. قائلاً: «اللعنة»، ولكن كيت صعدت إليه قائلة: «حصلت لك على المقعد الذي تحتاجه مجهزاً تماماً، على الجانب الآخر بعيداً عن الرياح، وكذلك البساط الخاص بك هناك أيضاً، كما أخبرت المضيف بأن يحضر لك الشاي وبعض الساندويتشات والكعك». كان لكللماتها وقع طيب على نفسه أنساه أي شيء آخر، فبرغم كل شيء، ينبغي عليه الاهتمام بنفسه.

وبالأسفل في الجناح الخاص بهما أخذتا يتفقدان الكم الهائل من الرسائل والزهور، كانت والدتها تريد منها أن تصطحب معها خادمة، على الأقل حتى يصلا إلى الهند، ولكنها لم تكن ترغب في الإزعاج الذي قد تحدثه خادمة. ما جعلها الآن فقط ولدواعي الحاجة الملحة تطلب من العجوز سارة أو روز أن تقوم بتنظيف بقايا الفوضى، على أن تقوم هي بعد ذلك بنفسها بالاهتمام بذلك. وسوف تقوم بترتيب الخطابات والبرقيات في أكوام مبدئية. وبعد ذلك ستحيل كل شيء، فيما عدا خطابات العائلة، إلى هاردن كومبس الشاب الذي أصبح يقوم

بدور السكرتير الرسمي الجديد لبيرت هولم.

ظلت تعمل بهدوء لما يقارب الساعة، وعندئذ رأت أسفل كومة الخطابات مطروفاً طويلاً أبيض استطاعت تمييزه على الفور. كان من نورمان. لقد كانت بانتظار مثل هذا المظروف مئات المرات في أماكن عديدة من العالم، أحياناً كان يأتي، وغالباً لا. ولكنها اليوم، لم تكن تنتظره ولا حتى تتوقعه، بل إنها حتى لم ترَ نورمان مرة أخرى أو تسمع صوته منذ المحادثة الهاتفية الأخيرة في تلك الليلة. لأن كل شيء كان ينبغي أن يسير كما حدث إلى ما بعد البعثة؛ فيجب أن تكون منصفة تجاه بيرت كما كانت. فقد كانت تحتقر النساء المتزوجات اللاتي يعشن مع رجال آخرين، لم تكن هي أو جايل لتوافق على ذلك، كانت جايل تقول: «ما الفارق الذي يمكن أن يصنعه ذلك؟ إن هارفي يعلم جيداً أنني لا أهتم بأي شخص آخر».

فتسألها كيت: «فلماذا إذن الاقتراب من أي شخص آخر؟».

فتقول جايل وهي تلوي قسماً وجهها لإغاضتها: «فقط من أجل المتعة، أيتها المتزمتة الصغيرة، أنا أفعل الكثير من الأشياء فقط من أجل المتعة».

وكان ذلك حقيقياً، فقد كانت جايل تبدو طائشة لدرجة لا شفاء منها، ولكن فقط من على السطح، غير أنها راسخة بشكل لا متناه في أعماقها. غير أنها كيت، وليست جايل. ربما كان من الأفضل لها أن تكون مثل جايل، وليس كما هي نفسها، حيث تكون جميع الأشياء بالنسبة إليها إما أن تعني الكثير، وإما لا تعني شيئاً على الإطلاق،

وبالتالي لا تساوي أي شيء!

مزقت طرف المظروف لتفتحه، وهناك على هيئة مجموعة مربعة من الكلمات دُوّنت بالخط الصغير في منتصف الصفحة كتب نورمان يقول:

«كيت، أراك تغادرين إلى نهاية العالم، لماذا أهتم بشأن كل شيء تفعلينه، يعلم الله. ولكنني من هنا، أتمنى لك قضاء وقت طيب، وأن تعثري على ما يريده قلبك، لو أنه في الهيمالايا! لا أصدق أنني قد فكرت يومًا أن أسألك ماذا يكون. عليك أن تذكّرني في المرة القادمة حين نلتقي، فلديّ رغبة في أن أعرف. وحتى ذلك الحين، هأنذا أنظر إليك! ملحوظة: لقد تأجل عرض مسرحيتي، فكرت في المزيد من الأشياء لإضافتها إليها، ثم تراجع عن ذلك. إنها توشك أن تكون ضربة مدوية هذا الموسم».

كان ذلك ما اعتاد أن يفعله دائمًا، أن يسحب مسرحياته ليضيف إليها المزيد من الحشو. حتى ضج المتجولون معترضين، ولكنه كان عندما يرى شيئًا واجب الإضافة، كان يضرب باعتراضاتهم عرض الحائط. وقد سمعت أحدهم ذات مرة يقول: «إنها أكبر مقامرة في العالم، إن المسرحية على الأرجح ترتفع أو تنخفض مثل البندول، على كل حال، هكذا هو دائمًا يحاول التدخل وإضافة أشياء كثيرة، الجمهور لا يشعر بافتقاره إليها إذا لم تكن هناك، كما أنه لا يريد ما متى وُجدت. عليه اللعنة، كنت لأرفض أعماله لو أنني لم أكن أخشى أن يذهب بها إلى أي شخص آخر، وعندئذٍ من الجائز أن تثبت في نهاية الأمر أنها

ضربة ناجحة، وسيكون ذلك فقط من أجل حظه المجنون».

جلست تقرأ تلك السطور القليلة مرات ومرات، إنه يقترب على نحو بالغ الخطورة من أن يحبها مجددًا، أو ربما أحبها بالفعل ولم يكن ليمنح نفسه الفرصة لرؤية ذلك. بيد أنها أدركته، ولكن دون أن تشعر بالبهجة. لو أنها كانت تشبه جايل أكثر لاستطاعت أن تضع عودًا من الثقاب بجوار البنزين وتدعه يشتعل، وعندها ستقف على حقيقة الأمر. ولكنها أبدًا لم تستطع، ليس إذا لم تكن على استعداد لكي تلقي بحياتها في الحريق الذي اندلع للتو. ظلت ممسكة بالخطاب لحظة أطول، لا تنوي أن تمزقه، كلا، بل كانت لتفعل، لأنها لا تريد أي خطابات يمكن أن تبني فوقها أحلامًا، بعد أن صارت على يقين الآن من شيء واحد فقط، أن الأحلام لا يمكن الوثوق بها.

ومضت الأيام على ظهر السفينة في مسارها العادي. وبرت بأقصى ما يمكنه، كان يأخذ البعثة مأخذ الجد، وأيًا كان ما خططه لها السيد بريم كي تكون، فإن الأمر بالنسبة لبرت كان أكثر الأشياء التي قام بها في حياته أهمية. إذ بدأ بجدية تدريب نفسه على الطعام والشراب، أما المشروبات الكحولية، فقد رفضها رفضًا قاطعًا في الحقيقة، قائلاً عن ذلك: «أنا لا أريد لقلبي أن يرجع في كلمته معي، فربما جاءت لحظة أكون فيها معلقًا إلى صخرة ما، وأحتاج كل ما لدي من قوى لأواصل طريقي نحو القمة».

كان يفترس الطعام ولكن بحذر، ويأوي إلى فراشه مبكرًا ويمشي لعدة أميال كل يوم وفق نظام معين كان قد كتبه على إحدى القصاصات

الورقية وقام بتعليقها على خلفية باب غرفة الحمام. كما اعتاد كل صباح في تمام الحادية عشرة أن يجمع رجاله معًا من أجل ما كان يدعوه (الخطاب الحماسي).

كان يقول لكيت: «عندما سقط فيساداي مع رجاله، هل فكر يومًا أن يجعلهم متحمسين لأجله. يا إلهي، لم نكن نهتم إذا ما تمكن ذلك العجوز الغريب من الوصول إلى هناك أم لا! فقط اعتاد أن يعطي لكل شخص الأوامر والتعليمات المحددة الخاصة به، وبعد ذلك لا يهتم بأن ينظر إلى أحد منا مرة أخرى، حسنًا، كنتيجة طبيعية لذلك لم نكن نشعر بالانتماء. أما الآن فأنا أنوي التعامل مع رجالي بشكل مختلف، سوف أخبرهم بخططي وأفكاري كي أحصل على تعاونهم معي. وعلى الرغم من أنني القائد بالطبع، ولكن كل رجل سوف يحصل على ما يستحقه، وعندما تصدر الإعلانات والمواد الدعائية، ستكون أسماؤهم مكتوبة فيها. عليّ أن أخبر فريسك بأن يضعهم فيها».

كان فريسك هو المراسل الشاب الذي قرر السيد بريم في آخر لحظة إرساله مع البعثة. قائلًا له: «أريد أن تكون كل الدعاية مركزة على شخص واحد»، كما قال لبيرت وقتها: «أود أن يكون مفهومًا سيد هولم، أنه ليس من حق أي شخص أن يرسل موادَّ دعائية سوى جيمي فريسك. إنه شاب ممتاز، واحد من أفضل الشباب في المجال الإخباري، وسوف يقوم بإرسال كل تلك المواد إليّ على أن أقوم أنا بمطالعتها لأرى ما إذا كانت مناسبة لاستكمال بناء الكيان الذي نريده».

ولدى أول ظهور لجيمي فريسك في مؤتمر بيرت الصباحي، كان

شابًا نحيلًا شاحبًا ولكنه نشيط منتبه، له عيان خضراوان تحت شعر كثيف رملي اللون. لم يقل شيئًا واحتفظ لنفسه بالكم الأكبر، وكان كل مساء يناول بيرت حزمة من الأوراق المكتوبة لكي يقرأها، ثم يسأل بيرت وهو يعيدها إليه: «هل هذا هو ما تريد؟».

فيقول بيرت من قلبه: «رائع، رائع تمامًا يا جيم!»، وفي أول خطاب صباحي أصر بيرت على أن يقوم الجميع بمناداة بعضهم بأسمائهم الأولى، إذ قال لهم بإخلاص حقيقي: «وأنتم بالتأكيد يمكنكم مناداتي بيرت»، ثم أضاف ضاحكًا: «وأظن أنكم جميعًا تفعلون ذلك على أي حال».

ابتسموا له جميعًا وقتها ابتسامة كانت هي الاستجابة التي أصبح الآن يتوقعها من كل شخص حوله. غير أن بيكر كان هو الشخص الوحيد الذي لم يتبسم. وإنما ظل جالسًا في نهاية الطاولة ممسكًا بغليونه المعقوف الذي كان يدخنه طوال اليوم.

فصاح بيرت محدثًا بيكر عبر الطاولة، فقط لأنه أراد أن يشعره بأنه يريد أن يكون لطيفًا حياله: «حسنًا؟». أجابه بيكر: «أنا أفضل الأسماء الأخيرة يا هولم، طالما أنك تسألني». ثم شرع في توضيح الأمر: «في بعثة مثل هذه حيث يمكننا الاعتماد على بعضنا كرفاق، إلى أن نسأم الطريقة التي نتحدث ونمشي ونتصرف بها، الحد من الألفة بدلًا من المبالغة فيها هو الخيار الأكثر أمانًا».

لم يفهم بيرت ما الذي كان يتحدث عنه بيكر، فقد كان الرجل باردًا مثل الأسماك، بما لا يدع لك مجالًا لأن تحبه. ولكنه فقط قال له:

«حسنًا يا بيكر، ولكن تذكر هذا، أريد لكل شخص في بعثتي أن يتصرف بالطريقة التي تحلو له طالما أنها لا تتعلق بأي شيء هام».

أما بالنسبة إلى كيت، فعندما صعد إلى سطح السفينة بالأعلى قال لها: «أنا على وشك أن أواجه بعض المشاكل مع بيكر».

صاحت به: «أوه، كلا يا بيرت! ليس الآن!».

فقال لها: «لم يحدث شيء بعد، لا تقلقي، ولكنني أتمنى لو أنني قد اتبعت إحساسي الداخلي، فلم يحدث أن كنت على خطأ في هذا من قبل».

سألته كيت: «ما الذي فعله بيكر؟».

أجاب بيرت بإصرار: «لا شيء، فقط إنه لا يريد التعاون، يمكنني أن أشعر أنه من ذلك النوع».

أصبح كتومًا فجأة ولم تشأ هي أن تضغط عليه. فقد تعلمت مؤخرًا أنه عندما يعود إلى حالة التكم العنيدة تلك، والتي كانت أيضًا جزءًا من طبيعته، حتى إذا ما كان ذلك بشأن أمر تافه، فقد أدركت أن عليها حينئذ أن تتوقف. فهي لم تنس بعد أنه عندما تحول إلى التكم الشديد، فإنه لم يخبرها شيئًا أبدًا في حينه بشأن لي لي. وما زالت تتساءل الآن ومجددًا عما إذا كان ينوي ذلك، فتعتقد أحيانًا أنه لم يكن ليفعل، ومن جديد تؤمن بأنه ينبغي عليه ذلك. فحقيقة وجود لي لي ما زالت تعني الكثير بالنسبة إليها. فقد علمت بشأنها، واستطاعت أن تتكيف مع الأمر الواقع، حتى إنها تستطيع أن تتذكر ذلك الصباح في الحانة أنها شعرت

أن لي لي كانت أمينة معها برغم أن روحها كانت على الأرجح أكثر تعقيداً من كائن الأميا. ولكن تبقى بعض الأوقات التي تكون فيها مع بيرت بمفردهما والتي تكون لديها فيه الرغبة في أن يخبرها، لو أنها فحسب لم تكن تشعر بذلك اليأس من أنها أبعد ما يكون عنه. وفي هذه اللحظة التي حلّق فيها عقلها إلى أسرارها، شعرت بأنها منزوعة وقلقة بسبب ما أصبحت تعرفه؛ فقط لأنه لن يتحدث عنه، ولا هي تستطيع أن تخبره بأنها قد علمت به قبل أن يتكلم هو أولاً، إذ إن ذلك من شأنه أن يجبره على اتخاذ موقف لم يذهب إليه بمحض إرادته. كانت مقتنعة بذلك بكل معنى الكلمة في قرارة نفسها، أنه لا ينبغي عليها أن تتحدث عن ذلك إذا ما لم يفعل؛ لأنها لم تكن تستطيع أن تتحمل نظرة السخط الدفينة في عينيه حال كونه مجبراً على أن يكسر حاجز كتمان الغريزي دون إرادته.

ولكن ثمة فكرة جديدة خطرت على ذهنها الآن بينما هي مستلقية على مقعدها فوق سطح السفينة إلى جوار مقعد بيرت تشاهد المياه ترتفع باتجاه السفينة ثم تعود لتتجه بعيداً مرة أخرى محملة بالزبد. فهي أيضاً لم تخبره أبداً بشأن نورمان، ما جعلها الآن، وفي هذه اللحظة، تدرك أنها لم تكن مُنصّفة أيضاً في أنها لم تخبره شيئاً عن ذلك. لم يكن هناك الكثير لتخبره به، كما أنه ليس ثمة فائدة أيضاً من أن تخبره، أليس كذلك؟ في أن تحث بعهدا مع... كلا، إلا إذا كانت تطلب من بيرت أن يحث أيضاً بوعده، وعندئذٍ لم يكن هناك فارق بين الزواج، وذلك النوع من الحب الذي منحه يوماً لنورمان، لا يوجد فارق حقيقي. فقد

أرادت وخططت لأن تتزوج، وفجأة رأت أنها كانت غير منصفة بشكل مريع في ألا تفعل هي نفسها ما كانت ترجوه من بيرت، ولكنها فقط لم تكن قد أدركت ذلك من قبل. فاعتدلت في جلستها وهربت إلى تقديم تعويض فوري، ووجدت نفسها تقول له باندفاع ودون روية: «بيرت، هناك شيء لم أخبرك به من قبل، أعني عن نفسي».

والآن، وبعد أن بدأت بالفعل، شعرت بأنها حمقاء غير بارعة في ذلك، ولكن بعد أن أصبح لزامًا عليها أن تستمر، وألا تتراجع. لم تتبدل نظرتة، حتى إنها لم تكن متأكدة إذا كان قد سمعها وهو يرقد ممددًا على مقعده حيث ألقى بجسده، مغلق العينين.

«كان هناك شخص ما، يُدعى نورمان لينلاي، يعمل كاتبًا مسرحيًا، كنت في علاقة حب رهيبة معه، من قبل أن ألتقي بك».

نظر إليها مبهوتًا، وبعد برهة، سألها مقطبًا جبينه: «هل كنتما مرتبطتين؟».

أجابته: «نعم». رآته يقلب الأمر في ذهنه ببطء، نعم، إنه يستوعبه فتابعته في سرعة: «لقد قرر... ألا...» كلا، كانت تلك مراوغة منها للتهرب من قول الحقيقة: «أنا أعني أنه... وجد أنه لا يهتم ب...»، كأنها تقول لنفسها بعنف، هيا تابعي، انطقي بالكلمة الحقيقية! فقالت أخيرًا: «إنه لم يستطع أن يحبني بشكل كافٍ».

وبذلك، استطاعت أن تنكأ ذلك الجرح في داخل نفسها وتطهره! فما شعرت به وقتها من إذلال كان سخيًا على كل حال، ولكن المرء يتمكن من تجاوز الأمر في نهاية كل شيء. ظل بيرت يحدق فيها

وإمارات الشفقة بادية على وجهه بوضوح، لا شيء غير الشفقة، فأخذ يديها بين يديه وأحاط بهما وهو يقول: «أوه يا كيت، هذا سيء جداً»، لم تستطع أن تتحمل إحساسه بالشفقة تجاهها، كان شعوراً مقيتاً، فقالت بسرعة: «أوه، لم يعد هذا يزعجني الآن»، كان ضرورياً بالنسبة إليها أن تضحك، أن تتحدث برفق وبسرعة، كأنها لا تشعر بأي آلام، كما أبعدت يديها عنه. فاستدار ناحيتها وهو يقول: «هذا صحيح، لا تجعلني هذا يزعجك، إلى جانب ذلك يا كيت، فلو أن ذلك لم يحدث بهذه الطريقة، انظري ما الذي كان سيحدث لنا، لم نكن لتتزوج!».

أهذا كل ما لديه من العزاء من أجلها! لم تستطع أن تنطق بكلمة، بل جلست هناك تحت أشعة شمس الصباح الساطعة لأحد أيام شهر يونيو وسط أمواج البحر، وقد تغلبت بشكل مفاجئ على كل ما عاشته من بؤس وما عانت من مشاعر الإخفاق، ذلك أنها كانت مدفوعة باتجاه الغرض الأساسي من اعترافها وهو ما جعلها تتكلم. ثم قالت بعينين مثبتتين على أبعد حافة مرئية للمياه الزرقاء: «بيرت، أحياناً أراك منغلِقاً على نفسك تجاهي، هل تدري بأنك تفعل ذلك حقاً؟ أتمنى أن تشعر أنه بإمكانك أن تخبرني بكل شيء، أو حتى أي شيء!»، ثم نقلت بصرها مجدداً من نقطة التقاء السماء مع البحر، ليقع بكامله عليه وحده. ولكن ما رأيته بعد كل ذلك، كان فقط تلك النظرة الطفولية الماكرة، وقد رَوَّعها أن رأيته تضحك لتحل محل زرقة عينيه، وهو يسألها: «هل تقصدين بيكر؟ لقد أخبرتك، إنه فقط لا يريد أن يتعاون». ثم أضاف وقد عاوده تجهم وجهه القديم الذي اعتادته: «على كل حال أنا لا أعرف ما الذي

تتحدثين عنه يا كيت».

لم تتفوه بكلمة. لم تكن بحاجة إلى الحديث على الإطلاق، فقد عادا إلى حيث نقطة البداية من جديد. ولن يغادرا تلك النقطة إلى ما هو أبعد منها إلى الأبد. شعرت برغبة جارفة في أن تستعيد كلماتها مرة أخرى، ولكنها كانت بالفعل قد خرجت منها، والآن ها قد ذهبت سدى، ولن تكرر ذلك مجددًا.

ولكن إذا ما استطاعت أن تتقبل ذلك الخطأ الجوهرى في الحياة، فكم سيكون مذهلاً، ما سيتبقى من تلك الحياة لتعيشه على صواب. وهنا وجدت أنه باستطاعتها أن تفصم ذاتها إلى شخصيتين مختلفتين، إحداهما هي زوجة بيرت هولم، والأخرى كيت تالانت القديمة والتي دائماً ما كانت هي. وليست كيت تالانت بحاجة لأن تزعج نفسها دائماً باضطرابات حياة زوجة بيرت هولم.

كانت واحدة من أولئك الأطفال الذين يكون لديهم رفيق حلم، وسواء فتى كان أو فتاة، فلم تعرف طفلة قط بمثل تلك الفتنة والروعة، وكذلك سرعة الزوال، فعندما كبرت وتقدم بها العمر شيئاً فشيئاً، كانت الطفلة قد اختفت، بالطبع لم يحدث ذلك فجأة، ولكنه حدث بالتدريج، إذ أخذت تتضاءل رويداً رويداً، غالباً كلما ازداد ازدحام الناس النابضين بالحياة في داخلها. وفي نهاية الأمر لم يعد لها أي وجود، حتى إنها شعرت بأن ذكرها فقط هي التي ما زالت باقية بداخلها، بدلاً من أن تتذكرها ذاتها؛ إذ إن تلك الطفلة لم تكن تكبر كلما تقدمت هي في العمر، لذلك فمن واقع نظرتها بإجلال إلى تلك الطفلة، وتقديسها لذاتها كما كانت تفعل

وهي بعد صغيرة، وصل بها الأمر لأن تنظر إليها على أنها قرين لها. وفي نهاية الأمر، وبعد أن كبرت هي ذاتها أكثر، وأصبحت أكثر تواءماً مع أيام حياتها، أخذ الطفل ينكمش، وبدأ لها كأنه كائن هش ضعيف، بل وفي حقيقة الأمر، معتمد في وجوده بالكامل عليها. وأخيراً، تركت تلك الطفلة تموت، ولم يكن ذلك بشكل مفاجئ، أو حتى عن وعي منها، ولكن بأن نسيتهها فحسب، في الوقت الذي كانت فيه على علم طوال الوقت أيضاً، بأن تلك الطفلة كانت يوماً -بطريقة أو بأخرى- جزءاً من ذاتها.

والآن وجدت كيت نفسها تنظر إلى زوجة بيرت هولم، بشكل يشبه كثيراً تلك الطريقة التي بها كانت تنظر تلك الطفلة إليها ذات مرة. وبدأت الطفلة كأنها تعود إلى الوجود مجدداً، ولكن في هيئة كيت تالانت وليس على أنها زوجة بيرت هولم، ومثلما كانت كيت الصغيرة غالباً ما تنزعج بشأن ما يقوله أو يفعله الناس، وكانت أيضاً تفضي بذلك كله إلى الطفلة، والتي كانت تنصت وتسترجع، ولكنها أيضاً تعي وتستوعب. ولذلك فإن زوجة بيرت هولم التي تواجه العديد من الاضطرابات، قد استحوطت الآن إلى كيت تالانت. وهاتان الأخيرتان، قامتتا بتقاسم الأيام فيما بينهما.

وفي الصباح ذهبت كيت مبكراً وغسلت جسدها في حمام مياه البحر، ثم صعدت إلى سطح السفينة بمفردها بينما كان بيرت نائماً. ظلت تتجول بالأعلى حيناً وبالأسفل آخر، وهي تنتقل من أحد أسطح السفينة إلى الآخر، والذي يظل نظيفاً ومحفوظاً بآثار البلب بعد مرور

طابور البحارة الذي يمشون فيه على أيديهم ورؤسهم، فتحتك أجسادهم بالألواح البيضاء. وفي لحظة هوجاء مندفعة وبألوان بسيطة بدا ثالوثاً مكوناً من السماء والرياح والبحر، كانوا دائماً نفس الشيء، ولكن أبداً لم يكونوا تماماً نفس الشيء. فقد كانت ميزة البحر عن الأرض في الحركة الدائبة المتغيرة للونه، فالأرض دائماً بليدة الحس، تحت التأثير المفترض لحركة الفصول المتعاقبة، أما البحر فإنه يعيش حالته الخاصة به، والتي تتغير على مدار الساعات.

نظرت حولها لتجد شخصاً ما يحدق في المرأة الشابة، التي هي زوجة بيرت هولم. وعلى الفور انسحبت من المشهد كيت تالانت مثلما اعتاد ذلك الطفل أن ينسحب في حضرة الغرباء، وأخذت زوجة بيرت هولم تفكر في سرعة: «لقد بدأ الناس يستيقظون، عليّ الذهاب للأسفل لأرى بيرت».

وبالفعل نزلت إلى الأسفل ثم فتحت الباب على بيرت، لتجده يجلس معتدلاً في فراشه يتناول الخبز المحمص ويحتسي كوباً من الشاي، وحين انتبه لوجودها بادرها بالحديث قائلاً: «مرحباً لم أسمعك تدخلين، يا إلهي، كيف أنام هكذا!!».

انحنى نحوه، وقبّلت وجنته، ثم جلست على الأريكة لكي تستمع إليه.

«قولي لي يا كيت، هل رأيت تلك المرأة العجوز بالأمس، ذات الشعر الأبيض؟ كان عليك أن تريها! في البداية ظهرت فجأة لتطلب مني أن أوقع لها أوتوجراف، حسناً، ففعلت ذلك من أجلها، بعد ذلك ظلت

تحكي لي كيف أنني أذكرها بولدها العزيز المتوفي، كان شجاعاً مثلي، هكذا قالت!»، ثم قهقهه عالياً وهو يتابع: «لقد قُتل في الحرب العالمية، وعندما شاهدت صورتني لأول مرة اعتقدت أنني هو، وقد عدت للحياة مرة أخرى. وعندما قرأت في الجرائد أنني سأكون على ظهر هذا المركب، قررت أنها لا بد أن تأتي أيضاً. لديها قطع من الماس، كبيرة بحجم بيضة دجاجة صغيرة تقريباً، لا بد أنها امرأة غنية جداً!»، فسألته: «وماذا قلت لها؟».

أجابها: «كنت مؤدباً معها بالطبع، ولكن إذا ما كان عليّ أن أكون ابناً لكل أولئك النساء العجائز اللاتي يحسبن أنني ابن لأي منهن، فسوف تتحول حياتي إلى جحيم، أليس كذلك؟ ما الذي يجعل النساء بهذه الطريقة التي هُنَّ عليها يا كيت؟ فالشابات منهن يردن منك أن تداعبن مثل الأطفال باستمرار، أما العجائز فيردن أن يكن أمّاً لك». ضحك ثم قضم قطعة كبيرة من الخبز وهو يتابع: «أنا أحب فيك يا كيت أنك تدعينني وشأني. خذي هذه الصينية، أسمحين؟ سوف يسدّ ذلك جوعي حتى أحصل على وجبة حقيقية».

أخذت الصينية ووضعتها على المنضدة إلى جوار السرير، وعندها شعرت بذراعيه يجذبانها للأسفل.

«ألست تتركينني وحيداً أكثر من اللازم يا كيت!»، وشعرت بذراعيه الطويلتين يطوقانها ويجذبانها نحوه، استنشقت رائحة جسده النقية، فقد كانت إحدى ميزاتِه أن جلده كان ناضراً ونظيفاً، وكان من المستحيل أن تشعر باشمئزاز من رائحة جسده. حتى كيت تالانت المنزوية المتحفظة

استطاعت أن تفهم كيف يمكن ذلك، فقد كان جسده في نقاء الصباح على البحر، ولذلك كان من المستحيل ألا تحبه، كما أنه من المستحيل أيضًا أن تفرق بين جسده وبينه، إذ إن عقله مختلط بلحمه، أو ربما عقله هو لحمه ذاته، بحيث أن كل ما يفعله أو يقوله يبدو كما لو أنه مجرد تعبير لجسده الجميل وليس لعقل منفصل. نفس ذلك الاتحاد بين اللون والحركة البسيطة والذي يخلق كيان البحر كان هو أيضًا كيان بيرت هولم، فلم يكن أبدًا أكثر تعقيدًا من جسده ودوافعه المحركة من الطعام والطاقة.

قال لها وهو يُجلسها على قدميها: «حسنًا! سوف يفني ذلك بالغرض من أجل بداية اليوم». ثم قفز واقفًا على قدميه، وخلع ملابسه، وألقى بها، ثم هُرع إلى غرفة الحمام.

لم تكن كيت لتدع والدتها تعرف أنها اضطرت إلى إقناع بيرت بأن يأخذ حمامًا بشكل يومي وأن يحلق لحيته ويقص شعره بشكل مناسب وأن يحافظ على نظافة أظافره، ولا من أجل كنوز العالم.

إذ إنه كان قد أعلن تدمره من ذلك ذات مرة قائلاً: «أنتِ أسوأ من أمي، فقد كانت أيام السبت كافية بالنسبة لها، وفي الصيف كنت أذهب للسباحة». ولكنه تعلم ذلك بعد أن أصبح ذا مكانة اجتماعية رفيعة، والآن إذا حدث أن نسي مرة، فلم تكن تتمالك نفسها من الضحك من إحساسه الهائل بالذنب ورغبته العاجلة الملحة في التكفير عن خطئه. كان يريد بإخلاص طوال الوقت أن يسعد زوجته، وهي أبدًا لم تنسَ له ذلك. خرج من الحمام ملتفًا بمنشفة بيضاء هائلة بدا فيها مثل طفل جميل ضخم،

وأخذت تراقبه وهو يفاضل بين حُلّة وأخرى محاولاً التوفيق بين كل منهما مع لون رباط العنق الخاص به، فقالت له: «بيرت، لقد أصبحت شديد الأناقة، أتذكر في جلين باري، كيف اعتدت أن تخرج من دون رباط عنق على الإطلاق، وكيف كنت تتأفف من تغيير ملابسك من أجل العشاء؟». ابتسم لها ابتسامة عريضة وأجابها: «لا يجب أن أخيب أمل السيدة الكبيرة»، فقالت له وهي تلقي إليه برباط عنق أزرق زاو: «إذن ارتد هذا»، ثم أضافت: «فهذا من أجل عينيك».

ظل يحرق في نفسه بسعادة أمام المرأة، وهو يطلق صفيراً غير متناغم. فسألها وهو ينظر إلى صورة وجهها في المرأة بينما تقف من خلفه: «تعتقدين أنني أبدو جميل المظهر؟».

حافظت على شفيتها جادتين وهي تردّها عليه قائلة: «ألا تظن ذلك؟».

أجابها بنبرة إقرار: «نوعاً ما»، ومن وسط ضحكاتها شبكا أيديهما معاً وتحركا بتؤدة إلى الإفطار.

زوجة بيرت هولم، تخطو إلى داخل قاعة الطعام، تبدو في مظهر امرأة شابة سعيدة، كما ينبغي أن تكون تماماً، كامرأة متزوجة بذلك الشاب الوسيم. بينما كانت السيدة تاونسيند العجوز تحرق فيهما من فوق كأس الجريب فروت في يدها، وهي تشعر بأن غشاوة أمام عينيها.

فقالت محدثة شقيقتها إميلي: «أنا لا أصدق كلمة واحدة من تلك القصص التي يقولونها عنه». ثم أضافت: «لا يمكن أن يبدو شديد الشبه

بولدي العزيز (فيل) بهذا الشكل، ويكون شخصًا سيئًا».

أجابتها إميلي: «باستثناء أن (فيل) لم يكن أشقر تمامًا»، وفي أعماق قلبها كانت تفكر بأنه يشبه شخصًا آخر، إلى درجة لا توصف.

عادت السيدة تاوونسيند تقول بحدة: «كانت بشرة (فيل) مثالية! تمامًا مثل بشرة هذا الولد!»، ظلت تراقب بيرت هولم بعينين ملؤهما الشوق والحزن. فلو أن (فيل) قد عاش وخرج سالمًا من الحرب المريعة، لربما تزوج بفتاة جميلة مثل هذه، وعندئذ لم تكن لتصبح امرأة عجوزًا وحيدة، تقوم برحلات كل عام إلى أوروبا بصحبة إميلي. كانت تشعر بالضجر إلى أبعد حد من أوروبا، وكذلك من إميلي أيضًا، ولكنها بعد ذلك سأمت كل شيء في العالم. وظلت أحلامها تتوق إلى ما لا يمكن أن يحدث، معلقة قوس قزح زاهي الألوان حول رأس بيرت هولم المشرقة.

كان يضحك مرة أخرى. كم أحببت أن تراه وهو يضحك! بينما كان ينتهي من تناول كعكة القمح وشراب الفاكهة المركز قائلاً: «لقد أخرجت أفضل ما في بيكر هناك يا كيت، وعليه أن يعترف بذلك! فلن تستطيع أن تثير حماس الجماهير بقائمة من الأسماء اللاتينية يبلغ طولها ياردتين! فقلت له: 'لا أعتقد أنني أقوم بتسلق أصعب الجبال في العالم من أجل ذلك'، هذا ما قلته له. لذلك، فإن ما أريد قوله، هو لماذا لا نسجل ملاحظتنا على البيئة والأحوال الجوية وكل تلك الأشياء، وربما حتى استطعنا أن نجد مكانًا مناسبًا لإنشاء مصحة لعلاج مرض السل، أنفهمين، حيث يمكن للمصابين بهذا المرض أن يحصلوا على الهواء

النقي، سمعت رجلاً ذات مرة يقول: مَنْ استطاع الذهاب إلى القارة القطبية الجنوبية فإن ذلك هو أفضل مكان في العالم لعلاج مرض السل. أراهن أنه يمكنني أن أجمع تبرعات بالملايين من أجله، وربما أطلقت عليه اسم مصحة بيرت هولم، وأن أجعل كل شخص يدفع دولارًا له إذا لم يستطيعوا فعل ما هو أفضل من ذلك، ربما مظارييف صغيرة».

فقالت له: «أخشى أنه ...، إن كانت الأمور ستسير ... بشكل جيد»، كان بإمكانها أن تتخيل رعب والدتها من المفاجأة حين ترى وابلًا من مظارييف بيرت هولم ينهال بطول وعرض أمريكا بكاملها!

أجاب بيرت سؤالها بتساؤل قائلًا: «ما الذي يجعلك تقولين 'أخشى أن'؟ فالهواء فوق تلك الجبال حيث لم يوجد أي شيء من قبل غير الثلوج هو شيء رائع جدًا، تشعرين بأنه يساوي مليونًا من الدولارات، حيث تنامين وتأكلين دون أن يتدخل أي شخص في شؤونك، بالطبع لا نريد أن نذهب إلى أعلى من الحد المعقول، فقط على الارتفاع الكافي للحصول على هواء نقي. جاكى ريكسال يعتقد أنها فكرة رائعة، ويمكنني أن أجعله مدير أعمال، كما يمكن أن يقوم فريسك بتوضيح كافة التفاصيل لي، ربما يكون فتح الطريق إلى هناك بالأعلى عملًا كبيرًا، ولكن يمكن إنجازها، كما أن أولئك العمال غير المحترفين الذين لديهم هناك يعملون بأجور رخيصة بشكل بشع أيضًا».

كانت تراقبه وهو يتكلم. هل يعني حقًا ما يقوله، أم أن جاكى ريكسال قد تحدث معه في مشروع لجمع التبرعات النقدية؟ لم تكن تثق في ذلك الرجل ذي الوجه الصغير المراوغ من بين أصدقاء بيرت،

والذي تشك في أنه يعرفه أفضل من أي شخص آخر. لم يتحدث إليها ريكسال يوماً بأكثر من إيماءة باردة، ولكنها علمت فيما بعد أن تلك هي الطريقة المقبولة للتحية الخاصة بالرجال في ميستي فولز حال رؤيتهم لامرأة متزوجة تتمتع بالاحترام والمكانة الاجتماعية.

نهض بيرت في مكانه قائلاً: «هيا بنا يا كيت، هل انتهيت؟ دعينا نصعد إلى السطح ونتمشى معاً قدر ميلين». تبعته إلى خارج قاعة الطعام، وهي تعي جيداً أن أكثر من خمسين رأساً استدارت لتتطلع إليهما. ولكنها لم تنظر إلى أي منها حتى عبرت الطاولة حيث تجلس المرأتان ذواتا الشعر الأبيض، عندئذ ابتسمت وهي تحديق في زوج من الأعين الزرقاء الضبابية.

كانت السيدة تاونسيند هي أول من جعلها تدرك أن الجماهير، والتي ألقى بها السيد بريم بمحض المصادفة في كيان هائل واحد ذي إرادة متسلطة، ليسوا في حقيقة الأمر كياناً واحداً على الإطلاق. كانت مستلقية على أحد المقاعد المنتشرة على سطح السفينة تحلم بكتاب صغير لبعض القصائد الصادرة حديثاً لشاعر شاب مجهول، عندما سمعت صوتاً، صوت عجوزٍ لطيفة ومهذبة، نظرت لأعلى لترى المرأة العجوز التي ابتسمت لها منذ قليل،

تنهدت السيدة تاونسيند قائلة: «كنت أتساءل لو أنه يمكنني...؟». بينما أكملت عيناها بدلاً منها.. «أن أجلس للحظات معدودة؟». قالت كيت: «نعم، تفضلي أرجوك»، أزاحت كومة الخرائط الموضوعة على مقعد بيرت جانباً، وأجلست العجوز على حافة المقعد، ثم قالت:

«لن أبقى طويلاً، ولكنني أتوق كثيراً للحديث إليك، زوجك العزيز الشاب... إنه يذكرني كثيراً بولدي الحبيب الفقيد». وارتجفت شفتاها. بينما غمغمت كيت: «لقد أخبرني بذلك». تحرك قلبها تجاه هذا المخلوق العجوز المرهف، ثم عادت وتراجعت. ولكن السيدة العجوز قالت: «ليس ذلك هو ما أردت الحديث معك بشأنه بالطبع، لا يمكنني أن أكون بمثل هذه الوقاحة لأقحمك في أحزان خاصة، كلا، فقط جال ذلك بخاطري، ولكن الشيء الرائع أنه هناك شيء ما بشأنه... بشأن زوجك، أعني... أنه يبدو مناسباً لكل حياة، إميلي، إنها شقيقتي، أخبرتني منذ عدة دقائق مضت أنه جعلها تفكر في... في ذلك الفتى الشاب الذي كانت مرتبطة به، والذي مات بالتيفود منذ عدة سنوات في الجنوب، بينما كان من أهل الشمال، لست أدري إذا ما كان بإمكان إميلي أبداً أن تتزوج به؛ لأن عائلتنا كانت من أهل الجنوب وما زالت معارضة بشدة لذلك... ولكنهما التقيا في زيارة كانت إميلي قد قامت بها لواشنطن ذات مرة، لعممة لنا كانت متزوجة بسيد محترم يعمل في أحد الدواوين الحكومية هناك. وكنت مندهشة عندما تحدثت عن الشبه، إذ إنني لا أرى أي وجه شبه بينهما، ولكن دار بذهني بعدها أنه ربما كان بسبب أنه... أي زوجك... شاب مثالي، أليس كذلك؟ كما أنه ربما يذكر كل إنسان بأكثر شخص أحبه في حياته».

ظلت شفتاها ترتجفان وهي تربت على رأس كيت برفق، ثم تابعت: «لا بد أنه من الصعب أحياناً يا عزيزتي أن يشاركك العالم بأسره فيه، إذا جاز التعبير، ولكن ياله من امتياز أيضاً! كما أنه يكرس

نفسه وحياته من أجلك، يمكن للمرء أن يرى ذلك، إنه رائع من أجلك، أليس كذلك؟». تورد وجهها لابتسامة كيت، ثم تابعت: «أنا فقط أتحدث كثيرًا وأثرثر، ولكنني في غاية السرور لأن أحظى بفرصة كهذه لأكون على نفس السفينة معه، وأن أعرف، من خلال ملاحظاتي الشخصية كم أنه رجل صالح، لذلك إذا ما سمعت بعد الآن أي قصة بذئنة أخرى عنه فسوف أنكر صحتها تمامًا ولن أصدقها، وأريد منك أن تعلمي هذا، إنني في غاية السرور بأنه يتخذ موقفًا علنيًا في العديد من الأمور الصحيحة. ويحضرني ما كان قد قاله في مكان ما عن إيمانه بأنه على الناس الذهاب إلى الكنيسة، عدد قليل من الشباب صغار السن يشعرون بذلك هذه الأيام. والآن لا تظني يا عزيزتي أنني قد أفترض أن هذه قد صارت معرفة شخصية بيننا، فلا بد وأنه هناك الكثير من الناس ممن يجاهدون لكي يتعرفوا إليك، وسوف أكون في غاية الأسف أن أبدو كواحدة منهم».

قالت كيت مبتهجة: «أنا مسرورة حقًا بزيارتك القصيرة». يا لهذه الطفلة العجوز الرقيقة! لو كان الأمر بيدها لانتزعت تلك الهالة المقدسة من فوق رأس بيرت، عديم الوعي بكل ذلك.

«إلى اللقاء إذن، وإذا كان عينيك أن تعلمي، فأنا السيدة هاريس تاونسيند من ريتشموند من ولاية فيرجينيا»، ثم هرولت مبتعدة وهي تلوح لها بيدها في قفازها الأسود.

شعاع من الضوء يسطع عابرًا خلال ذلك الجمود الأجوف لكل البشر معدومة البصيرة التي تصنع الجماهير الغريبة، والتي أصبحت

هذه الذرة منها كائنًا بشريًا. وما قالته السيدة العجوز كان حقيقيًا. فعندما حدث أن تورد وجه بيرت سعادة في وقت سابق بقليل، لأهمية مؤتمره الصباحي، وهو عائد إليها، رأت على مسافة خلفه فتاة جميلة، لم تكن بمفردها في الحقيقة. بل كان بصحبها فتى شاب، متوسط الطول، ذو مظهر عادي ولون موحد داكن، توقفت الفتاة عندما توقف بيرت لكي يجلس. وقد استندت بمرفقيها على السياج، مولية ظهرها نحو البحر، وقفت تضحك وتتحدث مع الشاب المرافق لها، والرياح تعبث بأطراف وشاحها الأحمر المعقود حول شعرها البني والممسك بأطراف معطفها البني المتطاير. ومنذ نصف ساعة فقط، كانت كيت تنظر إلى ما وراءها من سماء وأمواج. ولكنها الآن أخذت تراقبها. فقد اقتنعت بأن الفتاة لم تكن تتحدث إلى ذلك الشاب على الإطلاق، لم تكن تحبه بما يكفي.

فمن زاويتي عينيها العسليتين المشرقتين، وبينما هي تضحك مع فتاتها، لم تكن ترى شيئًا سوى بيرت.

فقالت محدثة نفسها وهي ترى سعادته الغامرة: «يا له من شاب مسكين، فهو لا يعلم أنها في الحقيقة تتحدث وتتجمل فقط من أجل بيرت. إنها تتخيل أنه بيرت».

ولكن بيرت في المقعد المجاور لها لم يكن يفكر في تلك اللحظة في أي شخص غير نفسه. قال لها: «قولي لي يا كيت، يريدون مني أن ألقى خطابًا عن البعثة الليلة بعد الحفل».

قالت في نفور: «أوه، لا، ليس الآن، ليس قبل انتهاء البعثة بنجاح

وأن يكون هناك شيء ما لتعرضه عليهم». أجبرتها نظرة خيبة الأمل البادية في عينيه أن تضيف: «أنا واثقة أن السيد بريم كان ليقول ذلك أيضًا يا بيرت».

أجابها موافقًا ولكن بارتياح: «حسنًا، ربما...».

فقالت بشكل قاطع: «بل كان ليفعل!» ولكن بينما كانت تقول ذلك قفزت إلى ذهنها تلك العجوز الضئيلة السيدة تاونسيند وكذلك هذه الفتاة الجميلة. وكل الآخرين ممن على شاكلتهم، والمضيف الذي استوقفها بالأمس ليسألها إذا كانت السيدة هولم تمانع في أن يأخذ صورة له بكاميرا الجيب الصغيرة الخاصة به، والرجل من غرفة الإرسال اللاسلكي الذي أراد أن يعرف إذا كان مسموحًا له أن يرسل أنباء عن بيرت هولم أم أنه من الأخرى ألا يتحدث في هذا الشأن؟ أخذت تقلل من السماح لهم بأن يروا بيرت في هيئة عرجاء، وهو يتحدث بطريقة المتلعثم كما كان يفعل دائمًا، إذ لم يكن يستطيع أن يستخدم أسلوبه الخطابى الشهير الذي لا يعرف غيره. فيليب تاونسيند، ابن تلك العجوز الفضية اللطيفة، كان ليتبرأ من ذلك الشبه بينهما. وتلك الفتاة عسلىة العينين الواقفة هناك أمام الخلفية الزرقاء لمياه البحر، ستتحول عائدة إلى فتاهها الشاب وهي نصف مذهولة: «لم أكن أتخيل أن بيرت هولم بهذا الشكل!» استطاعت أن تسمع أصواتًا تقول ذلك، كل صوت يلتقط الكلمات من الآخر. قالت بسرعة: «كلا يا بيرت، أنا واثقة أنه من الأفضل ألا تفعل، بالإضافة إلى أنك مشغول إلى الدرجة التي لا تستطيع معها أن تعد خطابًا جيدًا في تلك الساعات القليلة. ولا يمكنك أن تعود

لرواية حكايات عن البعثة القديمة الآن».

جلس لبرهة دون أن يجيب، وبعدها قفز واقفاً بنشاط، ثم قال لها: «أعتقد أنني سأنزل إلى صالة الألعاب الرياضية وألکم حقبة الرمل قبل أن أتناول الطعام».

غادر المكان بخطوات واسعة، ويداه في جيبيه، وقد بدا قوياً وجميلاً بما يكفي لأن يتسلق أعلى جبل في العالم. وعين الفتاة تتابعه بلا انقطاع، وصوتها الذي حملته الرياح كان أفضل مع نفاذ صبر مفاجئ، وهي تقول للفتى المرافق لها: «كلا لن أفعل!».

- ولكن لم لا يا سالي؟ منذ دقيقة واحدة كنتِ موافقة من كل قلبك.

أجابته: «حسنًا، لم أعد كذلك الآن»، ثم حملت الريح صوت نشيج يقول من بين دموعه: «أتمنى لو أنك تركتني وشأني!».

وانطلقت تعدو على سطح السفينة متجهة إلى الأسفل، يتطاير وشاحها من خلفها. بينما وقف الفتى ثابت العينين في أثرها. ثم استدار ناحية البحر بعد أن مضت، ينظر بعيداً في كآبة وإحباط. في حين ظلت كيت مسيطرة على دوافع قوية داخلها لأن تتحدث إليه، إلى أن نجحت في مقاومتها، ونهضت من مكانها متجهة إلى الأسفل.

بعد برهة، سمعت صوتاً يقول: «سيدة هولم!» مع طرقات ملحة على باب غرفتها، كانت قد ذهبت إلى غرفتها لتمشيط شعرها وتنظيف وجهها ويديها مما علق بهما من آثار الرياح المالحة، فتحت الباب، لتجد جيمي فريسك واقفاً ووجهه الشاب تحت نظارته ملئ بالذعر، فبادرها بالحديث قائلاً: «سيدة هولم، لا أعرف كيف أخبرك، ولكن

شيئاً ما قد حدث في صالة الألعاب الرياضية». سألته بحدة: «حدث لبيرت؟».

قال متلعثماً: «ليس تمامًا، ولكنه ...، حدث لكليهما».

– ماذا؟

قال لها بسرعة: «بيرت وبيكر، كنا جميعاً بالأسفل واعتقدنا أنهما فقط يمزحان، كان بيرت يمارس بعضاً من خدعه ومزحاته بالطريقة التي اعتادها، وكنا جميعاً نضحك، ولكن يبدو أنه فعل شيئاً ما لبيكر، على أي حال في الوقت الذي ظننا فيه أنهما يتظاهران بالقتال، كانا يتقاتلان بالفعل ... كالجحيم، أيضاً».

هتفت وهي تبعده عن طريقها جانباً وتتجاوزته: «رباه!»، يبدو ذلك طفولياً جداً من بيرت! هرعت إلى الأسفل عبر الممر، وجيمي فريسك في أثرها، وهو يقول: «بالتأكيد أعلم أن ذلك لا ينبغي أن يخرج من هنا»، فقالت بلهجة أمرة: «برغم أنه سوف يُحدث دويًا هائلاً لقصة مشوقة، ألا تجرؤ على النطق بها!»، قصة هائلة بالفعل! استطاعت أن ترى الإغراء يحاول التملص في أعماق روحه كصحافي، ولكنه قال لها متعهداً: «كلا كلا»، ألقت عن كاهلها عبئاً هائلاً يثقله وهي تقول: «أنا أثق في ولائكِ». ثم اتجهت للطابق السفلي.

كان باب صالة الألعاب الرياضية مغلقاً. اضطر فريسك للصراخ إلى أن فتح جاكى ريكسال الباب. كان بيرت ممدداً على الأرض فاقدًا وعيه، وأحد المصاحبين له يصب الماء على جبهته، وعلى وجهه ارتسمت علامات الرعب، بينما كان بيكر يميل ناحية الحائط يضع يديه

على عينيه السوداوين. ووقف اثنان أو ثلاثة من الرجال حوله، ونظرت بامتنان لرجال بيرت فسألتهن: «ما الذي حدث؟».

قال ريكسال موضعًا بلهجة جافة: «خُيِّلَ إلينا أن بيرت يمزح، كان دائمًا يهوى المشاكسة، كان معتادًا على ذلك أيام المدرسة، ولكنه قاتل بنزاهة»، ونظر إلى بيكر، الذي قال على الفور: «إذا كنت تعني أنني لم أقاتل بنزاهة، فتعال إليَّ هنا لتحصل على آخر لنفسك»، أجاب ريكسال: «أنا لم أقل ذلك، فقط أقول إن بيرت يحب خدع القروود ولكنه يقاتل بنزاهة، لم نرَ كيف تلقى تلك الضربة العنيفة يا سيدة هولم. بل كان كل واحد منا يفعل شيئًا مختلفًا، وأول شيء علمنا به كان سقوط بيرت أرضًا مثل طن من الطوب». ولكن بيرت كان يستعيد وعيه، ويتأوه بصوت ضعيف ثم فتح عينيه، وغمغم: «كيت».

وبينما كان بيكر يرتدي معطفه، ضحك فجأة قائلاً: «يجدر بك الذهاب إلى الفراش يا هولم، هيا بنا يا رجال». ثم انحنى ورفع كتفي بيرت، فقال بيرت فجأة: «أستطيع الوقوف»، جاهد ليستطيع النهوض على قدميه ووقف يترنح حتى هُرع إليه جاك ريكسال ووقف بجانبه ولف ذراعه من حوله.

قالت كيت: «هيا يا بيرت»، وعندئذ استدارت نحو بيكر قائلة: «لا ينبغي أن يسمع أحد بهذا». فسألها بمتهى الهدوء: «ولماذا ينبغي عليهم ذلك؟». حتى أنها لم تستطع أن تحير جوابًا.

كان جرس الغداء قد دق منذ وقت طويل. والممرات خاوية فاستطاعوا أن يصلوا الجناح الخاص بهما دون أن يراهم أحد باستثناء

أحد المضيفين المشغولين والذي مر بهم مهرولاً وهو يحمل صينية، وتمكنت هي وريكسال من معاونة بيرت حتى استلقى على الأريكة، وهو لا يزال شاحباً ذاهلاً عما حوله.

سألها ريكسال: «هل يوجد بعض الويسكي؟». فتحت الخزانة وأعطته زجاجة، صب قليلاً منها في كأس وأعطها لبيرت. ابتلعها بيرت في طاعة، وشعر بتحسن على الفور. وعاد النور إلى عينيه مجدداً، وأخذ نفساً عميقاً ثم نظر إليهما.

وقال متسائلاً: «هل نلتُ منه يا ريكسي؟».

فقال ريكسال: «في عينه».

ارتسمت ابتسامة عريضة على وجه بيرت، ثم عاد يقول: «عليه اللعنة، مؤكد أنه أيضاً يجيد القتال!».

وتمكنت كيت من أن تأخذه من كتفيه وهزته بقوة حتى اصطكت أسنانه، وجال بخاطرها في تلك اللحظة أنها - باستثناء تلك المفاجأة غير المتوقعة - كانت لتضحك أيضاً، من أي شيء؟ ربما من ذلك الحظ المذهل أكثر من أي شيء آخر، فلم يكن هناك خدش واحد يمكن رؤيته في جسده، بينما جون بيكر المسكين، الذي فسد وجهه المربع القبيح المتجههم بعد أن احمرت عينه، أما بيرت، وعلى الرغم من هزيمته، خرج دون خدش واحد في جسده! كان هناك الكثير من التويخ على طرف لسانها، على أهبة الاستعداد لينصب فوق رأس بيرت في اللحظة التي ذهب فيها ريكسال. إنها حقاً سلوكيات طفولية سخيفة، أن يتعارك اثنان من الرجال مثل صبيين سيئ السلوك! استعدت للبدء، حين وقف بيرت

بارتجافة بسيطة. وهتف بها: «دعينا نأكل، دائماً ما أشعر بالجوع بعد أي عراق!»، أطبقت فمها على ما به من لوم وتوبيخ، فما فائدة توجيه اللوم لصبي من أجل شيء، ما لم يعلم حتى بأنه قد فعله؟

قال بيرت: «أراك في خلال عشر دقائق يا ريكسي».

سأله ريكسال: «هل أنت متأكد أنك بخير؟».

أجابه بيرت: «مؤكد».

ولكن عندما ذهب ريكسال قالت له بهدوء: «أخبرني ما الذي حدث يا بيرت».

سألها بعينين زائغتين كما لم يحدث لهما من قبل: «بشأن ماذا؟».

أجابته باقتضاب: «بشأن ذلك العراق؟».

أجابها: «أوه، عن ذلك! ليس هناك الكثير لأخبرك عنه، بالتأكيد استطاع أن يطرحني أرضاً ويفقدني وعيي، ومع ذلك!»، ثم ابتسم لها ابتسامة عريضة وتابع: «أعتقد بأكثر مما استطعت أن أوجه إليه من اللكمات!»، نظرت إليه مرة أخرى عاجزة عن أي ردة فعل، إلا أن يغرقا في الضحك معاً، كان من المستحيل ألا تحبه، بالتأكيد كل شخص يمكن أن يحبه، وكذلك فعلت. لو أنها فقط لم تكن زوجته!

تسللت كيت إلى سطح السفينة بسبب وجود القمر، والذي كان ضياؤه يسقط على هيئة شرائط ذهبية على سريرها، ومالت على السياج باتجاه البحر، كان الجميع نائمين، بكل تأكيد، باستثناء الرجال الذين يتابعون سير السفينة تحت جناح الليل. وحيث كانت تلك هي ليلتها

الأخيرة هي وبرت على ظهر السفينة، انضما إلى حفل راقص، وأخذ كل شخص يرقص حتى أُصيبت الفرقة الموسيقية بالإرهاق وتركوا آلانهم واتجهوا للطابق الأسفل. بينما ما زالت لدى ببرت الرغبة في البقاء، وأتى إليهما الكثير من الناس الذين لم يكونوا قد تحدثوا إليهما من قبل، فقالوا في سعادة: «بما أن هذه هي ليلتنا الأخيرة، ربما لن تمنع...»، حتى أن القليل منهم فقط هم من طلبوا منه توقيع أوتوجراف، والغالبية العظمى أرادت فحسب أن تصافحه يداً بيد وتتمنى له حظاً سعيداً كما قالوا. رأت كيت في أعينهم نفس الלהفة على كل وجه اتجه ناحيته حيث يقف في ضوء القمر. كان دائماً ما يبدو في أقصى درجات وسامته في ملابس العشاء بالأبيض والأسود، والآن كان خيالياً، مع المزيد من الرومانسية.

وبعد ذلك، وفي النهاية، ذهبوا جميعاً إلى الطابق السفلي أيضاً. ولكن كيت لم تستطع النوم، وبعد فترة قصيرة نهضت واقفة بسرعة وارتدت معطفها فوق ثياب النوم واتجهت للأعلى. لم تقع عيناها على أحد، ولا حتى على زوج من العشاق امتد بهما الوقت، وقفت بمفردها تحديق في القمر المكتمل، أخذت تفكر بتراخ في أن القمر يحتاج إلى بساطة البحر والتي يشرق ويتألق في مواجهتها، ذلك أن البحر لا يخلف ظلالاً تصرف الانتباه عن ذلك الضياء النقي، لا تلال ولا وديان، ولا حتى خطوط حادة في الأفق. القمر يتلألأ معلقاً فوق البحر، مكتملاً في أقصى حالات قوته، ولم يكن هناك حتى نجمة واحدة يمكن أن تشتت الذهن أو تصرفه عنه. وفجأة وقف شخص ما إلى جوارها، استدارت، لتجده

جون بيكر، بادرها بالحديث قائلاً: «أستميحك عذراً، وأتمنى ألا أسبب لك أي إزعاج، ولكنني أردت طوال النهار أن أراك لأقدم لك اعتذاري». سألته: «كيف حال عينك؟». أجابها بمرح: «في أسوأ حالاتها، يا لها من لكمة هائلة تلك التي تمتلكها يمينه! لم تكن لدي أي فكرة أنه جاد حتى وجدته يضربني! كان يبدأ إحدى مزحاته، وأنت تعلمين كم يحب المزاح اليدوي، فأفلتُ منه ووجهت له ضربة على سبيل المزاح، حسناً، يمكنني القول تقريباً أنها كانت على سبيل المزاح، إذ يتصادف أنني أكره المزاح اليدوي»، تردد قليلاً واستطاعت أن تلمح طرفة في عينه اليسرى الداكنة شديدة التورم، قبل أن يتابع: «عندئذ شعرت أن عيني قد تحولت إلى كتلة من اللباب، وكنت في غاية الدهشة والغضب معاً، كل ذلك حدث فجأة، وأخشى أنني فقدت السيطرة على أعصابي». قالت بسرعة: «أنا لا ألومك»، فهي تعرف بيرت جيداً عندما يريد إثارة غيظ أحد ما، كما أنه عندما يتأبى عليه شيء فإنه يتمسك به أكثر، اعتبرت نفسها بطريقة ما مسؤولة عن تلك العين المتورمة الداكنة، فربما أراد حقيقة أن يتحدث عن البعثة، وعندما أوقفته عن ذلك، ذهب إلى صالة الألعاب وهو في حالة من العناد مما جعله يبدأ باستشارة حنق بيكر. قال بيكر بسرعة: «لم أفعل شيئاً طفولياً مثل ذلك منذ سنوات».

وأشاح بوجهه بعيداً عنها، لا يستطيع رجل أن يخبر امرأة أن زوجها كان أحمق، فربما هي تجلّه وتقده، تلك هي طريقة النساء، فكلما ازداد الرجل حماقة، كلما ازداد حبهن له، فقط إذا كان وسيماً. توقف فجأة مع شعور أصابه بالخوف، بالتأكيد لم يقصد أن يحسد هولم من

أجل حسن مظهره، أليس كذلك؟ ثم عاد يقول: «أنا لا أعلم ما الذي أخبرك به»، أجابته: «لا شيء على الإطلاق»، غمنم بلهجة جافة: «لا شيء؟». فقالت بفخر: «في الحقيقة، ليس من عادته أن يشكو». يجب حماية بيرت من هذا الشاب البارد، والذي قال لها: «انظري»، كان ينظر إليها مجدداً واستطاعت أن ترى عينيه، إحداها حادة صارمة، والأخرى مثيرة للضحك بتلك الدائرة السوداء حولها. «أردت فقط أن أخبرك أنني لن أدع لنفسني المجال للانخراط في مثل ذلك النوع من الأشياء التافهة مجدداً، ألوم نفسي كثيراً، فأنا لم أعد أتنازعك بالأيدي أبداً، مثل ... جبان أو ... طفل»، قالت بسرعة: «أنا لا أظن أن بيرت ... جبان»، ثم أضافت: «بل لديه الكثير من الشجاعة ... الشجاعة البدنية».

سألها: «هل تعلمين ما الشجاعة البدنية؟». أجابت: «أخشى ألا يكون لدي علم بذلك»، فقال: «لا يجدر بك أن تكوني معجبة بها كثيراً، إنها فقط نقص في الخيال، فالعقل الذي لا يمكنه تخيل أي شيء آخر، لا يمكنه أيضاً أن يتخيل الكوارث أو الموت، خاصة لو كانت متعلقة به هو نفسه»، قهقهه عالياً وأشعل سيجارة، ثم تابع: «فالعقل الغبي هو ما يتحلّى بالزخارف التافهة، بدلاً من المآثر اللامعة، انظري إلى الرأس التي تعلو ذلك الصدر المجاور لنا، أترين كم هو مزخرف ومزدان!»، لم يكن الرجل يتمتع بأدنى قدر من التفاخر، وإلا لما أبقى على عينه المصابة ناحيتها بمثل هذه الطريقة!

عاد يقول: «إن آخر شيء في العالم أريده من رحلة كهذه هو المجد، أنا أكره الشعور بالمجد، وأشعر بالازدراء نحوه، إنه مجرد فوضى من

العواطف وحماسة الجماهير، فالجماهير لا تقدر الإله الحقيقي، إنها دائماً ضائعة في سعي دؤوب خلف حلم، حلم مزخرف، تحيط به أبواق من الصفيح وقصاصات من قوس قزح. الإله الحقيقي أبعد من ذلك كثيراً...». «الإله الحقيقي؟!»، كانت على وشك أن تسأله أين يوجد إذن ذلك الإله، ولكنها تراجعته.

كانت الليلة في منتصف طريقها نحو الفجر. وبدأ القمر رحلة هبوطه الأزلية، وقريباً سوف يحل الظلام على كل ما فوق البحر. ووسط ذلك السكون الهائل، استطاعت أن تشعر بذلك الإله الذي تحدث عنه الرجل، يجلس صامتاً نقيّاً، وبارداً ككائن بلوري لا متناهٍ من النور في منتصف العالم المظلم. ولكي تصل إليه فإنه عليك أن تتجاوز وحدك تلك الظلمة الطويلة إلى حيث يجلس. ولا عجب في أن الناس لم تجرؤ يوماً على اختراق تلك الوحشة، ربما لأنهم صنعوا آلهة أخرى، أقل شأناً وحجماً وأكثر ملاءمة لهم، وأضاءوا بقبس من نور أرواحهم المرتعد! صاح بيكر: «القمر يغرب!..».

ظلاً يشاهدانه معاً وهو يهبط، في آخر لحظاته في الأفق، حتى بدا كأنه يسقط في قلب البحر. بدأت تتحرك نحو غرفتها، بينما بقي هو يحدق بنبات في الظلام. لم تعد تستطيع أن ترى وجهه، ولكنها كانت تستشعر حضوره إلى جانبها، حاداً، جسوراً، متهمكماً، وعلى الفور شعرت بالرهبة والخوف، ليس على نفسها، ولكن من أجل بيرت الذي سيكون عاجزاً في مواجهة هذا الرجل. ولن يعلم بيرت بأن كلماته تلك قد سببت له جرحاً، وأن ذلك الجرح سيظل هناك يزداد تقيحاً، وعندما

يعودا إلى الديار مرة أخرى ستبقى كلمات ذلك الرجل، حتى لو لم يكن يقصد من ورائها أي أذى، عالقة في أذهان الناس، كنواة لأشياء تبعث على الازدراء.

فقالت بسرعة: «لا تسخر من بيرت، لا تكن قاسيًا عليه».

فقال ساخرًا: «أنسيّت، ها هي عيني المتورمة الداكنة، ألا تكفي لتجعل منه المنتصر؟».

فقالت بتوسل: «كلا، بل إنك تعلم ما الذي أعنيه، إنه.. لا حول له».

غمغم قائلاً: «غريزة الأمومة أثناء العمل». ووجد شعوره بالازدراء نحوها طريقه إليه. فقال لها بحدة: «تلك هي مشكلتكن الأزلية أيتها النساء، تحكمن على الرجال بالطفولة الأبدية».

أجابته بنفس الحدة: «ليس لديّ ذرة من غريزة الأمومة».

فقال ببطء وبعد برهة: «إن كنت لأصدقك القول، فأنا لا أعتقد أن لديك شيئاً منها، فلماذا إذن بحق الجحيم...؟».

أجابته: «إنه بريء في حقيقته، تمامًا مثلما يبدو عليه».

كررها من بعدها: «بريء! كلا... ولكن ليست البراءة هي ما تريدنيه، ليست وحدها، فالطفل حديث الولادة لديه ذات البراءة أيضًا».

أجفلت منه قليلًا ثم قالت: «أنا أعني... أنه في حقيقته ليس أكثر مما هو عليه، فلماذا إذن نؤلمه أو نؤذيه؟». لمست يده ذراعها وتبدلت لهجته فجأة، وهو يقول: «بالفعل، ما الداعي؟ أشكرك كثيرًا، لقد عدت

إلى صوابي وإلى السلوك القويم». وبعد لحظة من الصمت أضاف من قلب الظلام: «ليس من أجله، بل من أجلك أنت. لولا أنك تدافعين عنه، لكنت أرغب في أن أقوم بتدميره، ولمَ لا؟ كنت دائماً ما أحب إطلاق النار على هياكل الحمام الطينية، ولكن رغم كل شيء، يبقى هناك المزيد من المطاردات المربحة».

كان ساخراً كما اعتاد أن يكون دائماً، ولكنه كان محل ثقة. وعندئذ أجبرتها سمات الأمانة العضال في شخصيتها على أن تقابل نزاهتها بامتنان، فقالت: «أنت على حق، أتدري ذلك، أعني... في أن تكون ما أنت عليه».

أجابها موافقاً: «بالطبع أنا كذلك»، ثم استدار بسرعة قائلاً: «حسناً، طابت ليلتك يا سيدة بيرت هولم». أجابته: «طابت ليلتك».

ثم ابتعد في زهو. وعلى بصيص الضوء بين الظلمات القريبة والتي أصبحت معتادة عليها، رآته يهرول وحيداً عبر الظلام البعيد كما لو أنه يخطو نحو ذلك الإله البللوري البارد الخاص به. لم تسأله عن اسم ذلك الإله، ولكنها كانت تعرف ما هو. إن اسمه، هو ما يطلق عليه الناس (الحقيقة)، يخشاه العامة والدهماء، ويصنعون لأنفسهم آلهة أخرى. وأخيراً نزلت إلى الطابق السفلي وتسلمت إلى الفراش، حتى إن بيرت لم ينزعج أو حتى يستيقظ من نومه.

أبرق إليهما السيد بريم يقول: «الإعجاز في الدعاية، التأكيد على

الإبهار»، وجدا برقيته بين كومة الخطابات والبرقيات عندما رست السفينة في ساوثامبتون. الرحلة البحرية كانت قد انتهت، ولكنهم لم يتوقعوا في أي مكان لفترة طويلة. فقد كان السيد بريم يقول: «ما أقترحه هو التحرك إلى الأمام مباشرة ، فأني بعثة جادة لا ينبغي أن تتلصق في طريقها، ولكن ربما أسبوع أو أسبوعان في لندن لن يضر في شيء، ولكن بغرض شراء بعض المعدات الإنجليزية الخاصة والتي اشتهر عنها أنها أفضل شيء للبعثات الاستكشافية. بينما قضاء وقت أقل من ذلك في باريس سوف يكون أكثر حكمة، كما أنصح بعدم الظهور العام إلى ما بعد انتهاء البعثة. فالاحتفالات الشعبية في العواصم الأوروبية ستكون أكثر أهمية بالنسبة إليكما، فقط في حالة ما إذا لم يسبق لكما الحصول على مثلها من قبل».

استقلا الطائرة إلى فرنسا بعد أسبوعين من وصولهما إلى إنجلترا، ودُعيا إلى مأدبة في منزل السفير الأمريكي. كان جون بيكر يتحدث فرنسية ثابتة ولكن بمسحة أمريكية، والتي استطاع السيد ديلانيه -عالم النباتات الفرنسي الكبير والذي كان مدعواً لمقابلته- أن يفهمها بسهولة ويسر، بينما جلست كيت ترمقهما بنظرات سريعة خاطفة، وهما يتحدثان معاً بلا نهاية، وبلا حياء. ظل بيكر يسأل أسئلة متوالية، وقد أخرج من جيبه كتاباً صغيراً الآن؛ ليدون فيه بعض الملاحظات على عجل.

كانت عينه تتماثل للشفاء بسرعة أيضاً، وعندما قابل بيرت في اليوم

التالي لعراكهما قال له مداعبًا بلطف ودونما إعداد سابق: «مرحبًا يا هولم».

أجابه بيرت: «مرحبًا»، ثم اندفع متابعًا بتهور: «أنا آسف لأنني أصبت عينك».

فردها عليه بيكر قائلاً: «وأنا آسف لأنني طرحتك أرضًا».

ثم رجع إليه بيكر، وابتسم له بيرت ابتسامة واسعة قائلاً له بإخلاص: «وأنا أيضًا، أرجو ألا تؤاخذني، فأنا لست كذلك أبدًا».

فقال بيكر: «هذا هو حظك».

والليلة، في السفارة الأمريكية ظل محتفظًا بروح الدعابة التي حافظ عليها منذ تلك الليلة التي تحدث فيها مع كيت ورأى فيها تحت ضوء القمر وجهها شديد الحساسية؛ وقتها علم من خلال تلك النظرة المرتجفة في عينيها، كيف هي من داخلها. بالإضافة إلى أنه لم يكن ينوي أن يأخذ تلك الغطرسة والتعجرف على محمل الجد مجددًا، على الأقل ليس بالجدية الكافية لأن يتعارك بسببها على أي حال. يومًا ما سوف يكتب في وصف تلك البعثة كاملة بكل تفاصيلها ليرى الناس كم أن أبطالهم الشعبيين في غاية الحماسة، أو على الأقل كيف أصبحوا كذلك. فالكائنات البشرية لا يمكنها أن تتحول إلى آلهة دون أن تظهر أصولها، التي هي من طين. استدار ناحية ديلانييه كمن يتذرع بوجوده، ها هو رجل من نفس نوعه، فالعلم هو ما يقسي روح الإنسان ويُبقي على دمائه باردة.

... أما بيرت فكان يتجول بلا هواده حول الغرفة المطلية جدرانها بالذهب، بينما تدور في ذهنه أفكار سيئة بشأن ذلك السفير الأمريكي، والذي يمكنك بالكاد أنه تعرف ما إذا كان رجلاً أمريكياً بعد، فهو يتحدث ويبدو فرنسياً أكثر من أي رجل فرنسي. يا لها من طريقة لطيفة لخداع دافعي الضرائب، أن يتقاضى رجل أمريكي أموالاً طائلة من حكومته ثم يتحول فرنسياً عليهم! لو أن سميدلي العجوز كان هنا، لاستطاع أن يتسلل خارجاً ولو للحظات. ألقى نظرة خاطفة على كبير الخدم الفرنسي وهو يحضر الخمور المحلاة ذات النكهات المميزة، لا مجال للمرح في ذلك الوجه الكبير المجرد من أي تعبير!

لمح أيضاً عيني كيت المتسائلتين وعمد إلى تجنبهما، فما لا تعلمه لن يؤذيها في شيء. إلى أن بدأ يتشاءب، فجلس على أحد المقاعد الصغيرة ثم نهض مجدداً بسرعة، قائلاً لنفسه بصوت مسموع: «أعتقد أنه لن يتحمل وزني»، ولكن أحداً لم يسمعه، كان السفير ينصت إلى بيكر يقول شيئاً ما أو آخر، فرأى أنه ربما عليه أن يذهب إلى هناك. ثم قال منادياً بيكر: «بيكر، هل قلت لك شيئاً عن فكري بشأن مشروع المصححة؟». أجابه بيكر: «عرض عليّ فريسك نموذج المقتراح في هذا الشأن».

قال بيرت: «أحقاً؟ حسناً، لديّ بعض الأفكار الجديدة».

كان على وشك أن يبدأ حديثه إليهم عندما شعر بيد كيت الصغيرة تقبض على ذراعه وسمع صوتها الناعم يقول: «علينا أن نستيقظ قبل الفجر يا بيرت. ألا يجدر بنا أن نقول مبكراً للجميع طابت ليلتكم؟».

وفجأة ردد الجميع أمنياتهم بلبلة طيبة، وإذا به بصحبة كيت في طريق عودتهما إلى الفندق.

فقال لها وهما يستقلان إحدى سيارات الأجرة: «يا إلهي، كنت أشعر بأطرافي تتصلب مللاً!»، ابتسمت دون أن تتكلم، وبالطريقة التي يحبها، تلك التي تجعله يريد أن يواصل الحديث، فقط ما الذي يمكنه أن يتحدث بشأنه مع كيت؟ نظر خارج النافذة، كانت الأضواء براقاً كأنهما في برودواي. لم يكن يشعر ولو بالقليل من النعاس.

فصاح فجأة: «أندرين، مع كل ذلك يا فتاة، هذه باريس! ومؤكد أننا لا نريد أن نذهب للنوم مبكراً في باريس، أليس كذلك؟ ويمكنني بعد ذلك أن أذهب إلى الفراش مبكراً كل يوم لشهور قادمة!»، مدت يدها نحوه قائلة: «أنت على حق، أين علينا أن نذهب؟». أجابها دون تفكير: «فوليه»، دائماً ما كان يسمع عن فوليه باريس.

فقالت كيت للسائق: «فوليه بيرجييه من فضلك».

أجابها الرجل بحماس بالفرنسية: «وي، وي مدام».

ضحك بيرت، وهو يردد بالفرنسية: «وي، وي، أفكر بأن أقولها كلما قصدت أن أقول نعم!»، ثم قهقهه عالياً، وهو يمتني نفسه الآن بأنهما في طريقهما لأن يشهدا عرضاً رائعاً.

... وقد كان عرضاً رائعاً بالفعل، بكل ما فيه كما كان من المفترض أن يكون، طبقاً لما سمعه من الرجال الذين يعرفهم ممن شاهدوه من قبل. للأسف أن ريكسي لم يكن هنا، على الرغم من أنه ليس ببعيد

على ذلك الثعبان العجوز أن يكون هنا بالفعل وسط تلك الحشود ينظر إلى هذه الفتيات اللاتي لا ترتدي أي منهن صديرة للثديين! حسنًا، في أمريكا لا يمكن لأي منهن الفرار بفعلة مثل هذه. ولكنه كان مسرورًا بها في نفس الوقت. لم يكن ذلك من اللياقة في شيء، حتى إنه ظل يحدق فيهن بشكل مستمر، وعندئذٍ تذكر أن يتساءل إن كان ينبغي على كيت أن تكون هنا. فقد كان عرضًا للرجال، وليس للنساء المحترمات. كان يجب عليهم أن يضعوا لافتة (للرجال فقط). ألقى عليها نظرة سريعة، ليست بالهينة، لم يكن يبدو عليها أن الأمر يزعجها. بل كانت تنظر إلى كل ذلك بهدوء شأنها شأن أي شخص آخر. كان هناك رجلان على خشبة المسرح الآن، يتظاهران بممارسة الحب مع بعضهما. الأمر الذي جعله يشعر بالغثيان، ثم نظر إلى كيت مجددًا. ولكنها كانت تبدو على نفس الحال. ربما أنها لم تكن تدرك شيئًا عما يحدث، فلا ينبغي للنساء أن تعرف مثل تلك الأشياء، بل يجب أن يتمتعن بالبراءة، تمامًا مثل كيت، ظل ينظر للأسفل إلى يديه، في انتظار أن تعود الفتيات للظهور مرة أخرى، لم يكن يجدر بهم أن يسمحوا للرجال بأن يفعلوا ذلك. لم يكن ذلك لائقًا. فالفتيات أمر مختلف، وتلك أشياء متوقعة بالنسبة إلى الرجال، عادت الفتيات للرقص مجددًا فكنّ بمثابة النجدة بالنسبة إليه، فعاد ينظر إليهن من جديد.

عندئذٍ سمع كيت تغمغم إلى جواره:

- يا لهؤلاء النساء التعيسات!

سألها بيرت: «أين؟».

أجابته: «هناك على خشبة المسرح».

سألها وهو يدير رأسه لينظر إليها: «ماذا تقصدين يا كيت؟».

قالت بهمس: «يبدو عليهنّ التعب الشديد، كما لو كنّ يتمنين أن لو كنّ في بيوتهن بصحبة أزواجهنّ وأطفالهنّ». ثم أضافت: «أنا واثقة أنهن نساء محترمات من عائلات»، عاد ينظر إليهن ثم شعر بالنفور. لم ينظر إلى وجه أي منهن حتى الآن، ولكنها كانت على حق. لم تكن فتيات، بل كنّ نساء. أمهات لعائلات يتجولن بهذا الشكل، عرايا إلى الخصر، جعله ذلك يشعر بالغثيان مجدداً!

فقال بسخط: «إنه بلد لعين غير محترم، لو أنك تسألين عن رأيي».

ضحكت كيت، ضحكة حادة مفاجئة، جعلته لسبب ما يفكر في جايل. فسألها: «ما الذي يُضحككِ؟». ولكنها فقط تبادت في الضحك أكثر، ثم قالت أخيراً وهي تمسح عينيها: «آه منك أنت!»

لم يفهم شيئاً يزيد عما اعتاده من قبل، ولكنه تركها تضحك، فالضحك مفيد لها، كما أنه لن يضره في أي شيء على الإطلاق.

إلى أن عاد يقول: «سوف أضحك أنا أيضاً لو أنني فهمت النكتة، لماذا لا تخبريني بها بدلاً من أن تحتفظي بها لنفسك؟». ولكنها استطاعت فقط أن تهز رأسها وتواصل الضحك حتى شعر بالضيق من ذلك وأطبق فمه. ما جعلها تتوقف، على الرغم من أنها ما زالت لم تخبره عن السبب الذي جعلها تضحك. كما أنه لم يخبرها بما أثار حنقه، ولكنه لدى عودتهما تمنى لو أنه قد ذهب إلى العرض بمفرده.

فقد أفسدته عليه، بطريقة ما، دون أن يعرف كيف على وجه التحديد.

وفي صباح اليوم التالي كانت الطائرة تحلق بهما فوق أوروبا، متجهة نحو الشرق، بينما جلس بيرت خلف قائد الطائرة يأخذ أنفاسًا عميقة. وعلى قدر ما كان يعلم، لم يكن هناك شيء واحد يمكن أن يكونوا قد غفلوا عنه، إلا أنه استدار فجأةً وصرخ في ريكسال بحدة: «أين القوائم يا ريكسي؟». ودون أن يتكلم، ناوله ريكسال مفكرة صغيرة بدأ بيرت في مراجعتها بقلم حبر رائع من الذهب، كانت السيد تاونسيند قد أهدته إياه عندما كان يودعها في المطار. إذ كانت واحدة من بين الحشود التي تجمعت هناك لتوديعه. قائلة له: «لكي تكتب به قصتك من أجلنا يا سيد هولم».

خط اسمه بيده باستخدامه عدة مرات عبر القوائم، بعد ذلك بدأ مراجعتها.

فقال له ريكسال منبهًا: «معلبات الكحول، أنا اشتريت نوعًا مختلفًا عما قلت، إنها علامة تجارية أمريكية، أغلى ثمنًا ولكنها من صنف أفضل، وهذا ما رأيته». أجابه بيرت موافقًا: «مؤكد. أنا أو من بشراء المنتجات الأمريكية على أي حال».

قال لنفسه بنبرة انتصار: «ليست هناك أشياء منسية»، لم يستطع أي من رجاله القول بأنه ليس قائدًا جيدًا لبعثته الخاصة، وهذه الطائرة الآن، كانت رائعة، حتى إنه هو من قام باختيارها، أفضل طائرة لدى الهولنديين. أوصاه الجميع بأن يستقل تلك الطائرة، وها قد فعل. الأفضل لم يكن جيدًا جدًا بالنسبة إليه. مال بجذعه ناحية كيت ليهمس لها: «أنا مسرور

لأن بيكر قرر أن يكون جيداً». وما فاجأه أنها أجابته بشيء من المزاح: «أوه، لا تكن سخيًّا، لماذا عليه ألا يكون كذلك؟».

فقال لها من قبيل التخمين: «لقد ضربته عدة ضربات عنيفة».

ردتها عليه قائلة: «وكذلك فعل هو أيضًا، من أجل ذلك السبب».

فقال معترفًا: «هذا صحيح. لذلك أعتقد أننا متعادلان».

فقالت: «بيرت، عليك أن تكون لطيفًا عندما نبدأ بتسليق الجبل».

فقال بنبل: «بالطبع سأفعل، ألا أفعل ذلك دائمًا؟».

قالت له: «لا، بل لا تفعل».

فأجابها: «لا أعرف ماذا تقصدين، هل تقصدين انني أتولى الأمور دون أن يكون مهمًّا إذا ما كنت على صواب والرجال الآخرين على خطأ؟».

فأجابته شاكية: «ولكنك دائمًا ما تعتقد أنك على حق».

فقال لها: «بالتأكيد، فمن سوف يقف بجانبني إذا لم أفعل أنا ذلك

لنفسي؟».

لم تجب عن ذلك. وأشاحت بوجهها بعيدًا عنه ونظرت إلى خارج النافذة فوق الحقول البعيدة بالأسفل، ولذا لم يفهم ما الذي تفكر به.

والآن، وقد مضى نصف الوقت، ما زال يبدو له أنه لا يفهم فيما تفكر كيت، إذ كانت بعد مضي نصف وقت الرحلة تقريبًا، فقط تبدو منزلة داخل نفسها في مكان ما، كما لو أنها شخص آخر وليست زوجته على الإطلاق. أو ربما كان ذلك الآن فقط لأنه من الصعب عليها أن

تحدث وسط ضجيج الطائرة.

... بينما ظلت كيت تحديق في البلاد المنبسطة بالأسفل، وقد أخرجته تمامًا من ذهنها. كان صباحًا متألقًا، حتى إنه من المستحيل ألا تشعر بالإنارة لأن تتوجه وقت بزوغ الفجر إلى مهبط الطائرات وتتسلق ذلك الوحش الفضّي العملاق المنتظر بجناحين ممدودين عن آخرهما. كانوا لا يزالون يحلقون فوق فرنسا، رائحة الجمال مثل حديقة تحت أشعة الشمس. بينما تمتد السحب إلى الأمام. ينبغي عليهم الصعود فوقها وإلا ابتلعهم. حتى أنه في اللحظة نفسها، كما دار بذهنها تمامًا، شعرت بالطائرة تميل ثم ارتفعت بسرعة هائلة إلى الأعلى، حتى لم يعد من فوقهم إلا السماء الزرقاء الصافية، والسحب من تحتهم كطبقة أرضية فضية لعالم جديد.

ظلوا وسط السحب طوال اليوم، بعد ذلك وبحلول المساء هبطت الطائرة عبرها بسرعة، وهناك بالأسفل رأت مشهدًا طبيعيًا في هيئة قزم ضئيل، بدت فيه الأشجار مجرد نقاط خضراء، والمنازل بقعًا هزيلة، وكتلًا صغيرة من الغابات، وبحيرات على هيئة برك في غاية الصغر. ومع بداية انجراف الطائرة نحو الأسفل؛ أخذت المناظر الطبيعية تزداد حجمًا ووضوحًا بنعومة كما لو أنها تنظر من خلال تلسكوب يقربها إليها رويدًا رويدًا. إنها قُطر آخر، أدركت ذلك على الفور، قُطر لا تعرفه، ظلت تحديق بإثارة في مدى حدائتها وجمالها، أي قُطر كان ذلك؟ كانت على وشك أن تسأل بيرت، ولكنها لم تفعل. دعها تكون بلا اسم، كما لو كانت أرض الأحلام، التي لم توجد أبدًا من قبل.

وجدت بيرت يقول بحماس وهو يفضُّ إحدى الخرائط: «هذه تركيا». نظرت إليها ملياً، وهي ترى بوضوح بمجرد هبوطهم القرى والمدن الصغيرة التي تبدو قاحلة عقيمة. وراح القطار يزحف عبر الطريق ببطء على طول مجرى نهر رمادي هادئ، لم يكن شيئاً رائعاً عندما يقترب المرء منه. فحينها ينطفئ الحلم، ذلك أن الأحلام تصنع هالة من السحر فوق أي شيء مجهول.

ظلت اليوم كثيراً تستنشق أنفاساً طويلة للغاية، في ظل تلك الأجواء الاستثنائية قليلة الكثافة، ويجب عليها أن تعود إلى الأرض، ماذا كانت تعني والدتها عندما قالت لها ذات يوم أن بيرت ينبغي عليه أن يعيدها إلى الواقع؟ نظرت إلى بيرت، يجلس حقيقياً وثابتاً تماماً أمامها مباشرة، وعندما أخذت تفكر فقط في الجمال، كم هو جميل ذلك الرأس! ظلت حتى الآن، إذا ما نظرت فقط إلى مفرق رأسه، أو إلى جبهته والطريقة التي ينبت بها شعره، فإنها في الغالب لا ترى غير ذلك. نظر إليها فجأةً، وعيناه تتألقان باللون الأزرق، فابتسمت له، وعلى الفور تحولت عيناه إلى الدفء والخجل. فمال إلى الأمام نحوها، متسائلاً: «هل تضحكين مني يا كيت؟».

فقالت بشيء من الرقة: «أنا لا أضحك أيها السخيف».

نعم، فها هو الجمال يتحول إلى الرقة الشديدة حتى في أكثر القلوب معرفة لديها، فلماذا إذن عليها أن تزدرى الجماهير التي لا تدري شيئاً عن كل ذلك، على تقديرهم له؟ نظرت بعيداً لتجد جون بيكر بعينين فاترتين يتلهى بالنظر إليهما، فظلت تحديق فيه بقوة حتى أشاح بوجهه

بعيداً مرة أخرى، وأمكنها أن تراه يهز كتفيه مرتبكاً باستهجان وهو يستدير متحولاً عنهما.

وفي بومباي كانت درجات الحرارة بشكل ثابت فوق المائة درجة والشوارع تعج بأناس ذوي بشرة داكنة وأجساد نصف عارية. وفي غرفتهما في الفندق كانت مرتدية أرق الثياب المنزلية من الحرير، والتي التصقت بجسدها كما لو كانت ورقة مبتلة، وهي تحاول أن تتخيل البرودة والثلوج والجليد بمجرد أن شرعت في مراجعة المهمات التي قاموا بتأجيل شرائها حتى وصولهم بومباي. ففي غضون أسابيع قليلة سوف تبدأ معركتهم مع الرياح الثلجية، حيث يتجمد الضباب فوق الأهداب، وكانت تضحك عندما أخبرها بيرت ذات مرة عن الإزعاج الذي يسببه تجمد الضباب فوق أهدابه. وقتها قالت لها منبهة: «قد يساعدك ذلك بشكل جيد أن تكون لديك أهداب يبلغ طولها نصف بوصة». فقال مهدداً: «هل تريدين أن تقولي بأنه يجب عليّ أن أقصهما؟».

– ماذا! وتفسد مظهرك الجميل في أعين السيدات؟

أجابته بتلك الطريقة الماكرة الخبيثة التي جعلته يهزها قائلاً: «أنا فقط أسألك عما تريدينه!»، فأجابته: «أنا أريدهما كما هما أيها السخيف».

فقبلها كما منحته قبلة في المقابل، دافئة وهادئة في نفس الوقت، هادئة بما يكفي لجعلها تتساءل كيف كان يمكن أن يكون عليه الحال إذا لم يكن هناك ليتلقى قبالتها على الإطلاق، كان هناك نوع من الكيمياء، والتي يستطيع الزواج أن يعمل على فصلها تمامًا عن الحب، كانت تعلم هذا. فالزواج قد أحدث تغييرات عدة في شخصيتها وكذلك بالنسبة إلى

بيرت، على الرغم من أن التغيير الذي لم تكن واثقة بشأنه باستثناء ذلك، هو ما إذا لم يكن قد استطاع تدمير كيت تالانت كما ينبغي له أن يفعل. لقد سلب منها الكثير بما يكفي لجعل منها كائنًا منفصلاً، والذي أصبح زوجة بيرت هولم. ولكن هل سلب بيرت أيضًا، بحيث أصبح جزء منه هو زوجها؟ هكذا فعل الله في جنة عدن عندما أرقد آدم وجعله يغرق في النوم ثم سلبه أحد أضلاعه. النوم الرمزي للجسد في الحب، عندما يقسم الكائن نفسه، وفي غياب حكمة الحب؛ ولمرة واحدة؛ لا يدري العقل عن ذلك شيئًا!

وهكذا، بدأت تفكر وتدبر الأمور بطريقة منهجية منظمة، فقامت بتعبئة الجوارب الثقيلة داخل الأحذية المزيّنة ذات الرقبة الطويلة، ودس صابون الحلاقة ومعجون الأسنان في الزوايا والأركان.

قال لها بيرت بلهجة أمرة: «اقتصدي في صابون الحلاقة، فلن يحتاج أحد منا لأن يحلق ذقنه بمجرد أن نبدأ التسلق».

قطبت جبينها وهي تقول بصرامة: «بالتأكيد لا ينطبق ذلك على معجون الأسنان».

أجابها بلا مبالاة: «نعم بالتأكيد»، على الرغم من أنه لم يكن يعرف استخدامه قبل أن يلتقي بها.

وفي أسفل ظهرها كانت تجري أنهار صغيرة من العرق وهي تلقي بشعرها المبتل أيضًا إلى الخلف، ولكنها ظلت تعمل حتى اللحظة التي أتى فيها بيرت بلا سابق إنذار وأخذها بين ذراعيه وضمها بقوة إلى جسده المبتل.

قائلاً لها بلهجة آمرة في غير محلها: «كان عليك البقاء إلى جانبي يا كيت!».

زفرت في دهشة قائلة: «أوه، سأظل إلى جانبك!»، تساءلت في قرارة نفسها، هل شعر بغريزته بذلك التردد الذي تعانیه؟ واستيقظ قلبها مع الأسف. كلا، إنه فقط كان عذباً. حتى الآن، وجسده ساخن مثلما كانت، يعتصرها بقوة على صدره المبتل، وجدت رائحة جسده محببة ونظيفة. دفعت نفسها بقوة في أحضانه، وللحظة شعرت أن كيت تالانت قد صارت مجرد ظل، كما لو كانت شبحاً إلى جوارها، ولكل ذلك، وجدت نفسها منقاداً خلف بيرت بهدوء في يقظته المفاجئة تلك.

أعد لهما حاكم بومباي عشاءً فاخراً، جلست إلى جواره أثناء أفخم وجبة تناولتها في حياتها، كما لاحظت بشيء من اللهو، تلك الدهشة الهائلة للحاكم الضخم ذي الشعر الأشيب من حجمها بالغ الضالة.

قال لها من أمام طبق من الأسماك واللحم المشوي والسلطة: «كنت أقول يا سيدة هولم، هل تنوين حقاً الذهاب لمحاولة صعود بانجابات؟ بالطبع لدينا متسلقات للجبال وأعتقد أنه هناك من نالت منهن شهرة واسعة».

أجابته بلهجة مهذبة: «أنا لن أذهب لأبعد مما أستطيع»، ليس بعيداً جداً، رأيته يقلب الأمر في ذهنه، ولكنها لم تشأ أن تزج نفسها بشأنه. وفي نهاية المنضدة جلست زوجته المهذبة المطيعة فارعة الطول، والتي كانت تنفي أطفالها واحداً بعد الآخر إلى المدارس الداخلية الإنجليزية. كانت قد أخذت كيت قبل العشاء إلى الطابق العلوي حيث غرفة نوم

هائلة مكسوة بالجص، حيث أرتها أربعة أولاد بيض وهي تقول لها بحزن: «لم أرهم منذ أن كانوا في عمر الثالثة والرابعة، أما رودى فقد أرسلوه إلى الديار في الثانية من عمره؛ لأنه أُصيب بالحمى، ولكنني دائماً ما كنت أشعر أنه عليّ البقاء في مكاني بجوار زوجي، لذلك أتفهم تمامًا يا عزيزتي سر مجيئك مع زوجك، إنهم بحاجة إلينا كما تعرفين، آه يا أعزائي المساكين، يبدوون في غاية القوة، ولكنهم في الحقيقة في غاية الاعتماد علينا». ثم ابتسمت تلك الابتسامة الحزينة في وجه كيت، التي ابتسمت لها بدورها دون أن تجيب. إذ إن سبب مجيئها مع بيرت لم يكن واضحاً تماماً بالنسبة إليها كما كان بالنسبة لتلك المرأة.

ولكن كان لديها الكثير لتفعله لقضاء الوقت في التساؤل والتأمل، ربما كان ذلك السبب أكثر وجاهة من أي سبب آخر لمجيئها. معظم السلع والاحتياجات كانت قد أرسلت عن طريق البحر، وقامت هي وبيرت بتفقدتها حقبة تلو الأخرى، كما كان ريكسال وبيكر هناك أيضاً، والذي لا يثق في أي شخص آخر بشأن صناديق الآلات والمعدات، كأنه لا يولي أي شيء آخر اهتماماً. وعندما اطمأن أن جميع أغراضه بمأمن، ظل في غرفته طوال اليوم. فقط في وقت متأخر من المساء، خرج يتجول قليلاً في شوارع بومباي المزدهمة. ولدى سماعها صوت شجار نظرت كيت أسفل النافذة على ضوء القمر لتراه وسط حشد من الهندوس ما بين خائف وضاحك، تشاركه بقرة خائفة مركز الحدث، وحش أبيض يتحرك بتثاقل على جانب الطريق فوق الرصيف. والتي وقفت في مواجهة جون بيكر بتحدٍّ، حيث وقف هو الآخر مولياً وجهه نحوها

مباشرة. ضحكت كيت لدى رويتها ذلك المشهد، فنظر إلى أعلى وقال منادياً إياها: «أنا لن أفسح الطريق من أجل بقرة».

أجابته: «لا يجب أن تمسّها، تذكر أنها خائفة!».

فأجابها وهو يصرخ: «سأظل أحرق فيها حتى تنظر بعيداً»، فانحنى وظل مصوباً عينيه نحو عيني المخلوق المذهول حتى أطلقت خواراً أخيراً، واستدارت جانباً لتواصل طريقها. فصاح بيكر وهو يلوح لها بقبعته: «انتصار العقل!».

ثم أخبرها في اليوم التالي: «أنا أكره الأبقار». حيث التقيا عرضاً في بهو الفندق بعد أن تناولت إفطارها متأخرة بمفردها. إنهم يأكلون النباتات، فكري في أنهم يحتاجون إلى ملء تسع معدات لكي يكفي بقرة واحدة!» فأجابته: «فكر في تقديسهم لها!»

أجابها بحجة مضادة: «ربما كان تقديسهم لها مجرد شيء مثل أي شيء، إنه لا يزيد سخافة عما يقدهه معظم البشر». سألته: «هل ينبغي علينا أن نقدر شيئاً ما؟».

أجابها بشيء من اللامبالاة: «يبدو كذلك»، ثم تابع: «لا أعلم إذا ما كنت قد أخبرتك من قبل أنني كنت ابناً لأحد القساوسة، وربما كان ذلك هو السبب وراء أنه لم يعد يمكنني تقديس أي شيء على الإطلاق، ولكنني أتذكر بعض المقتطفات الجميلة الساخرة من ديانة والدي، إحداها تقول: إن الناس يصبحون مثل الآلهة التي يقدسونها. وهذا حقيقي».

أخذت كلماته بتأمل وهي تشاهد الناس في غدو ورواح لا ينقطع في بهو الفندق حيث كانا يقفان، والذين كانوا تقريباً من الإنجليز، ولكن القليل منهم من الأوروبيين والهنود، وواحد أو أكثر من الأمريكيين، استطاعت تمييزها وهي بعد في الاستقبال، إلى حد ما بسبب أنها كانت قد شاهدت اسمها في الجريدة الصباحية، شابة أمريكية ثرية، ووريثة للملايين التي جمعها والدها من سلسلة متاجر البقالة، كانت شديدة الجمال، يجلس إلى جوارها شاب إيطالي ذو بشرة داكنة، وهو الزوج الذي تقول الجريدة إنها على وشك الطلاق منه.

سألته كيت وهي تنظر إلى الفتاة التي كانت تجلس متململة نافذة الصبر: «ألا يُعد تقديس شيء ما أفضل من عدم تقديس أي شيء؟».

أجابها بيكر بنبرة وحشية: «هذا شأن الحمقى فقط». كان هو أيضاً ينظر إلى الفتاة، ثم نهض من مقعده واستدار بجسده بعيداً عنها كأنه لا يطيق المشهد. ثم قال: «عليّ أن أغادر، فأنا قد كلفت أحدهم بعمل بعض المطبوعات المصنوعة من خشب السرو الجاف، وعليّ أن أتابع الرجل العجوز كل دقيقة».

سار متثدداً عبر الشارع المتلألئ الحار، بينما استدارت كيت عائدة إلى غرفتها. ربما فقط بمعرفة ما يقدهه أي إنسان يمكنك أن تعرف ماهيته. ما الذي يقدهه بيرت إذن؟ لم تعرف شيئاً عن ذلك. ولكن الملايين من البشر يقدهونه. إنه التقديس، أليس كذلك، عندما يُنصب الناس أيقونة ما، ويجعلونها تعني بالنسبة إليهم أقصى ما الأمنيات؟

وقفت في القطار المزدهم بينما أخذ الحمالون السود ذوو السيقان

الطويلة الرفيعة السوداء كأرجل العنكبوت، يثرثرون مثل القروذ وهم يقومون بتحميل وتعبئة المقصورة الخاصة بهما بكافة الأغراض.

وقد حدث خطأ ما، إذ كان هناك صندوق مفقود. كان بيرت على الرصيف يصرخ في أحد الهندوس الذي كان يتصبب عرقاً مرتدياً الزي الرسمي للفندق، بينما تنطق عيناه الواسعتان بأفجع آيات اللوعة. وعندئذ اكتشفوا أن امرأة مسلمة داكنة البشرة كانت تجلس على الصندوق لترضع صغيرها، وثب الرجل الهندوسي فيما يشبه الاعتذار فرحاً بالعثور على الصندوق، بينما قامت المرأة في فزع، واندفع من بين شفثيها طوفان من الكلمات غير المفهومة. اختطف الحمالون الصندوق بينما قفز بيرت عبر باب القطار وألقى بجسده المنهك على أقرب مقعد وهو يجحف وجهه.

ثم قال وهو بعد يلهث: «يا إلهي، تصبح الأحداث ساخنة بما يكفي عندما تسير الأمور على ما يرام». ثم أضاف: «كنت محظوظاً لأن القطار متأخر».

كان القطار متأخراً نصف ساعة عن مواعده، وبرغم ذلك ما زال واقفاً هناك، دون أي إشارة لقرب انطلاقه. وكان الجو في المقصورة خانقاً بفعل الحرارة والأتربة. ذهبت كيت لتفتح الباب ونظرت إلى تلك الحشود، وجدها مختلفة تماماً عما اعتادت عليه، فبالنسبة إلى هذه المخلوقات ذات البشرة الداكنة لم يكن بيرت هولم يعني أي شيء أكثر من كونه مجرد رجل أبيض مثل غيره، بينما كانوا يتقهقرون من أمامه ببساطة لأنهم اعتادوا التراجع بخوف أمام كل رجل أبيض. وراقها أن تكون قادرة على الوقوف هكذا دون أن يستطيع أحد أن يعرفها. وهنا

شعرت بشيء يلمس ركبتها، كانت المرأة المسلمة تشعر بفضول، ممسكة طرف ثوبها الكتاني بين سبابتها وإبهامها، وعندما التقت عيناها بعيني كيت ابتسمت لها، وتألقت عيناها وأسنانها نقية كطفل صغير، ثم قالت شيئاً بصوت هادئ حزين، لا بد وأن يكون سؤالاً، لأنها رفعت أهدابها الطويلة الملتفة لتنظر إلى كيت، التي لم تكن تدري ما الذي يمكن أن تفعله غير أن تهز رأسها، وكرجع الصدى، قامت المرأة أيضاً بهز رأسها. وفيما بينهما عبرت فكرة استطاعت كلتاها أن تشعر بها، أمنية بأن تفهم كل منهما الأخرى، ولكن لم يكن إلى ذلك من سبيل.

كانت كيت تعتقد أن كل الناس ينبغي أن يتحدثوا اللغة ذاتها، ولكن ماذا إذا كانت اللغة نفسها لا تزال غير كافية؟

وبلا سابق إنذار على الإطلاق بدأ القطار في التحرك ببطء، فتراجعت إلى الخلف. وراح أحد الحراس الهنود يعدو بطول الرصيف ليغلق الباب ويوصده جيداً، وفي سبيله إلى ذلك أخذ يدفع المرأة المسلمة بعيداً عن طريقه. وتقهقرت الحشود إلى الخلف بمجرد أن تحرك القطار، بينما الباعة وحاملو المياه والسياح وجميع الناس المتجولين بلا هدف محدد من كل الأنواع تغضنت وجوههم وتحولت إلى كتلة داكنة. كان هناك شيء مألوف بالنسبة لكيت في تلك النظرة الصامتة للعديد من الأعين المحدقة فيهما. التقديس! استطاعت تمييزه في لحظات، التقديس العجيب لماكينه لا يستطيعون فهمها.

بعد ذلك غادر القطار المحطة المنشأة على الطراز الإنجليزي ماراً ببعض الضواحي ذات المنازل المنخفضة المربعة، وبدأ يستجمع سرعته

عبر الحقول القاحلة الساكنة. كانت الأرض صحراوية ذلك أن الحرارة كانت مرتفعة للغاية. وستظل كذلك حتى تسقط الأمطار. وأخذت أبقارٌ قليلةٌ تحك أنوفها في التربة الجافة، ومر القطار بعدها على قرية أصاب أهلها الجفاف حتى تحولوا إلى ما يشبه الهياكل العظمية بفعل الرياح الساخنة والطعام الهزيل. ولم تستطع شمس ما بعد الظهيرة أن تبدل شيئاً من باقي التفاصيل الحزينة في المشاهد التالية.

أسدل بيرت الستائر قائلاً: «لا شيء يستحق المشاهدة، لذلك سوف أنام»، مدد جسده على أحد المقاعد الجلدية، ثم وضع منديلاً على وجهه ليقيه من الحشرات الطائرة.

ولكن كيت لم تستطع النوم، فالحرارة كانت ملتهبة، حتى إن النوم يعتبر بمثابة السقوط في أتونها، فأخذت تبلل منديلها الكتاني بوضعه داخل الإبريق الزجاجي المملوء بالثلج لتضعه على معصمها حيناً وعلى جبهتها أحياناً. أعادت تصفيف شعرها المبتل إلى الخلف ثم عقصته حول رأسها وقامت بتجفيف رقبتها، كان المنديل بالفعل ساخناً. ثم تناولت من حقيبة يدها رسالتين من البريد الجوي، إحداهما من والدتها والأخرى من جايل، وصلتا قبل أن يتركا الفندق مباشرة، ولم يكن لديها من الوقت ما يكفي لمطالعتهما.

والآن بمجرد أن بدأ القطار يتأرجح ويجد طريقه أخيراً فوق القضبان الحديدية، راحت تقرأ وتنسى الهند وكل ذلك الذي يحيط بها. كانت بمثابة هدية من والدتها لتكون قادرة على أن تعيد كل شيء إلى ذاتها وإلى المنزل الذي عاشت فيه. أعادتها الآن إلى جلين باري. جايل

كانت هناك مع ولديها الصغيرين. كما أن هناك بعض الاضطرابات بين جايل وهارفي، جايل تضحك ولكن هارفي ما زال قاسياً. في الحقيقة، لم يقل أي منهما الكثير عن ذلك، ولم تشأ هي أن تعرف شيئاً؛ لأن أقصى أمنياتها الآن هي أن تنعم ببعض السلام والهدوء، والدها كان يمارس الجولف، لعبته المعتادة. أما عن السيد بريم فقد كان يؤدي عملاً رائعاً ويبدل مجهوداً كبيراً من أجل حملة دعائية مهيبة؛ إذ كانت البعثة الاستكشافية بحق نجاحاً باهراً.

حتى الآن، أجواء الربيع في غاية الروعة، الكثير من الأمطار والخضرة تكسو كل شيء، كيف تحب هي وبيرت أن يكون لديهما منزلاً خاصاً بحلول الشتاء القادم؟ منزل آل تيندال معروض حالياً للبيع، منزل صغير ولكنه مثالي.

اعتادت أن تكتب تلك الخطابات المليئة بالتفاصيل إلى بناتها، هذا الخطاب هو ذاته الذي اعتادت كيت أن تتسلم مثله تماماً كل أسبوع عندما كانت في الجامعة. هناك ما يشبه قوقعة ما حول بعض النساء من مثل والدتها بحيث يعيشن ويتحركن بل ويتنفسن في داخلها، وأسفل ذلك الخطاب الطويل من والدتها، اعتصر والدها دسنة معقودة من الأسطر المتلاصقة:

«كيت، الموقف بشأن الحرب الأوروبية ليس جيداً، ومن الأفضل التوجه مباشرة إلى البيت عندما ينتهي الأمر. وهذه معلومات سرية، فلا يجب عليكم التسكع في الصين، وابقوا دائماً على المسار الرئيس. أتابع البرقيات التي يرسلها فريسك باهتمام بالغ، يكتبها بعناية وهو

معجب ببيت، وذلك شيء في غاية الأهمية كما يقول بريم. حاولي الحصول على إجازة قصيرة لنفسك وقضاء بعض الأوقات الطيبة، مع خالص الحب، والدك».

كانوا يحيطونها بأجوائهم المعتادة من العناية والرقّة، أما خطاب جايل فقد سقط خارجاً من مطروفه محدثاً حفيماً حادثاً، كتبت لها بمداد أسود على ورق رفيع مفضض، كل شيء تفعله جايل كان شبيهاً بها، حيث جعلت تناغمها وانسجامها مع كل ما حولها مثاليّاً، حتى إنها جعلت كيت مجدداً -وكما كانت في غالب الأحيان- تشعر بالحسد حيال شقيقتها للحظة خاطفة. إذ كانت جايل تعرف تماماً ماهيتها وما الذي تريده، والآن بدأ خط يدها العمودي المنتظم ينحرف قليلاً بفعل بعض النميّة: «إيرين المسكينة تحاول الزواج مجدداً، هذه المرة مع بول ستيفنز، أتذكرين ذلك المصرفي العجوز ذا الجسم البدين والهيئة القاسية؟ لن تستطيع البقاء معه. وكم قلت لها: 'إيرين، لِمَ لا تهجرين ذلك الوقار وتحصلين على أوقات ممتعة وتخرجين بشيء من هذه الدنيا على الأقل؟' فقالت إنها تتمنى لو أنها استطاعت أن تهجر كل شيء بطريقة مريحة، وأن تكون مجرد عاهرة، تعلم أنها لن تستطيع أن تكون محترمة إذا ما أرادت. إنها تتسلق إلى الداخل وإلى الخارج عبر ذلك السياج، كم أن هذا مستحيل!

«أما هارفي فهو في حالة جيدة أفضل من أي وقت مضى، الشكر لله. كل الناس يفقدون أموالهم، ولكنه يستطيع السيطرة وإدارة الأمور حتى يتفادى ذلك، إن ما لدى هذا الرجل من مهارة لهو شيء أبعد من أن

يُصدق، إنه يُحسن إدارة كل شيء طوال الوقت خيرًا مني، وأنتِ تعرفين ماذا عني يا كيت!!

«السيد بريم يعتقد أنه سيكون شيئًا رائعًا من أجل الدعاية لو أنكما أنجبتما طفلًا يا كيت، هو لم يقل ذلك بالمعنى الحرفي، ولكنه ربما قالها ضمنياً، فيما معناه أن بيرت يحتاج لأن يؤسس اتجاهًا عائليًا. فالجماهير تحب ذلك، إلى آخره. وقد قلت له أنه في حديثه ذلك يشبه القابلة!! الأمر الذي دفعه إلى واحدة من حالاته التي يرتجف فيها ويحمرّ خجلًا. حسنًا يا كيت، استمتعي بوقتكِ. بيرت سيفعل، تعلمين ذلك... إذن، فلم لا؟».

لم تكن هناك أي ملحوظة بشأن مشكلات مع هارفي. اعتقدت كيت أنه ربما أثارت جايل حنقه أكثر من اللازم، فهي تجيد ذلك. كانت والدتها تعلم أن تلك الصفة هي أسوأ ما تفعله جايل بمنتهى السهولة أحيانًا، على الرغم من أنها ظاهريًا كانت دائمًا ما تدافع عنها بحرارة. ولكنها أبدًا لم تنسَ كيف كانت جايل الفتاة وهي بعد صغيرة.

مزقت كيت الخطابين إلى قطع صغيرة ثم ألقت بهما على أرضية المقصورة واستلقت في سكون. ظلت مستلقية في غاية السكون لدرجة أن عطاءة صغيرة راحت تنزلق وتتمايل هابطة على حائط العربة المتحركة وهي تنتفض محاولة التماسك بأرجلها الهشة، زحفت عبر الأرضية ثم تذوقت قصاصة من خطاب جايل ثم تركتها وابتعدت. تلك الزاحفة كان لديها ذيل أزرق لامع، ذات عينين من الزجاج الأسود. جلست تنتفض مع حركة القطار ولسانها المشقوق الصغير ينزلق خارجًا، وهي تراقبها. كانت تبدو بالنسبة لإنسانٍ خيرٍ شريفةً ومؤذيةً للغاية، مثل أفعى صغيرة

في المكان الغريب عنها وغير الملائم لها بجنة عدن. وعندما ضحكت
كيت فجأةً بصوت مرتفع، ابتعدت في سرعة تحت لوح بارز صغير من
الخشب، مع وميض أزرق خاطف.

كان الطقس شديد الحرارة حتى إنها حلت أزرار قميصها، واستلقت
ليس من أجل النوم ولكن فقط لأنها لا تريد أن تبذل الجهد الكافي لتعتدل
جالسة! وقد أوشكت الكسوة الجلدية للمقعد من تحتها أن تحترق من
خلال ثوبها الرقيق. فبللت منديلها مرة أخرى ونثرت بعض الماء فوق
عينها. وعندئذٍ، وكلمع السراب، تخيلت الجبال القادمة وهي مغطاة
بالثلوج ومتوجة بالجليد، حيث الوحدة والبرودة. فإذا ما صعدت فوق
تلك الجبال وتسلمتها هي وبيرت معاً، فإن شعورها بالوحدة الذي صنعه
وزاد من حدته العديد من الناس عبر الزمن، ربما يتلاشى.



الفصل السابع

لم يكن أي منهم باستثناء بيكر يعلم على وجه التحديد لماذا أتى لتسلق قمة بانجابات؛ إذ إن بيرت قد اختاره بمحض المصادفة، أو إلى حد ما لمصادفة أنه يقع إلى الجوار من ثيرات حيث يعرف الطرق هناك جيدًا. ويأتي جيم فريسك للقيام بدور حلقة الوصل بين بيرت والجماهير في منازلهم، الذين يقرأون الصحف اليومية وهم يتناولون إفطارهم كل صباح على بعد آلاف الأميال، بينما يتابعونه أينما ذهب بكل الإثارة والحماس في نفوس أولئك الذين هم أنفسهم يعيشون مكبلين كالمساجين. أما عن جاكى ريكسال، فقد رافق بيرت لأنه يحبه، ولأنه رأى ذلك عملاً جيدًا. كما أنه لم يكن يتوقع أن يذهب لما هو أبعد من المخيم الأساسي.

كان يقول: «أنا أعتبر أنني مثل مدير الأعمال لفريق كرة قدم»، لم يكن لديه أي فضول لمعرفة السبب الجوهرى وراء تسلق الجبال. كان يقول مع شعور بالرضى والقناعة: «كان بيرت دائماً متسلقاً، ولكنه الآن فقط يتسلق قمماً أعلى». جعلت منه هيئته النحيلة برأسه المستدير

وأذنيه الكبيرتين في أي مكان شخصًا غير ملحوظ، ولكنه مخلص. وكان يشترط طوال الوقت ألا يذهب إلى ما هو أبعد من المخيم الأساسي، قال شارحًا ذلك لكيت: «دائمًا أكون عرضة لالتهاب اليدين بسبب البرد، يصيبني غالبًا كل شتاء على أي حال في بلدنا». لم يحدث أن تحدث أي منهما بشأن لي لي روز، ولكن ريكسال رأى كيت صاحبة العصمة، أكثر من مرة تنساق إلى بعض المشاحنات جراء ما يعتمل في نفسها حيال ذلك. وربما كان بيرت في هذا الموقف كالمستجير من الرمضاء بالنار، ولكن -على أي حال- مع فتاة مثل لي لي يعلم الرجل أين يكون، أو لا يكون من الأساس، ضحك ضحكة خافتة عندما تذكر كيف كانت لحظة الوداع. إذ صاحت به: «أيها السمكري العجوز، أنا لا أقول ليس حتى تعود من جديد، لماذا عليّ أن أورط نفسي للدرجة التي تجعلني لا أستطيع الحصول على شيء من المتعة؟». ثم بكت وقتها، وبعد ذلك قبّلته.

بدأ الرجال الثمانية الآخرون الذين اختارهم بيرت يتوافدون واحدًا تلو الآخر ليميز كل منهم نفسه كشخصية منفصلة، فرانيس بروير، شاب طويل القامة لطيف الطباع من فيرجينيا، قام بتجربة التسلق مرتين من قبل في مرتفعات الهيمالايا، كانت تعرفه لأنهم ببساطة اعتادوا مناداته ثلاث أو حتى أربع مرات كل صباح، سمعته مرارًا يجأرون باسمه: «فرانك، هيا استيقظ! فليلق أحدكم عليه بعض الماء! يا للجحيم، ألقوا بأي شيء عليه!»، ولكنه عندما يستيقظ كان يعمل في صمت وسرعة من قبيل الاعتذار. ديك بلاستيل أيضًا عرفت اسمه

لأنه كان يستيقظ مبكرًا ولكن بتلك الطباع المريضة التي لا تتغير حتى إنها وبلا تفسيرات كانت تضع له إفطاره جانبًا إلى حد ما وتكتفي فقط بأن ترمقه بنظرات خاطفة وهو يجلس محملقًا بوجه ممتنع في الطبق الخاص به. هاردن كومبس كان بائعًا في أحد متاجر الأدوات الرياضية في مدينة نيويورك. لم يتسلق جبلاً من قبل، باستثناء بعض المرات في مرتفعات أديرونداكس ومرة واحدة في سلسلة جبال روكي. كان شابًا مرحًا ذا وجه مشرق، وقد اختاره بيرت لأنه كان أحد مريديه. إذ كان يتبع بيرت كظله، دائمًا بقربه كعبد له، ودائمًا ما يتحدث بلغة المدينة العامة الحادة. بيرت كالواي كان أستاذًا جامعياً من نيو إنجلاند. كان متواجداً في الهند، وقريباً سيكون فوق مرتفعات الهيمالايا، ولكنه أينما كان سيظل متميماً إلى نيو إنجلاند. كان فارح الطول، احدودب ظهره وهو بعد في الواحدة والثلاثين من العمر، ولكن لم يتغير أي من فمه المعقوف المتدلي إلى الأسفل، ولا حديثه السطحي التافه، على الرغم من أنه ظل لأكثر من ستة مواسم صيفية يجمع المال من أجل التسلق في جبال الألب.

لنكولن مايهيو من كنساس قام بالتسلق من قبل، عام في الداخل وآخر في الخارج، في جبال روكي، ولكنه في اليوم الأول قال لكيت بمتتهى الصراحة: «لقد هربت فتاتي مع رجل آخر، ولم تخبرني حتى بذلك. واضطرت إلى معرفة الأمر من أشخاص آخرين، لذا بدت الهيمالايا أنسب شيء لي تقريباً بعد ما حدث». كان طويل القامة، بشرته بلون الرمال، وذا طبيعة مفعمة بالكآبة.

كما كان هناك بالإضافة إلى هؤلاء بوب بيرس الميكانيكي، إلمر باوم طبيب ممتلئ الجسم متين البنيان من بنسلفانيا لم يسبق له التسلق من قبل، رونالد براج وهو شاب إنجليزي نحيل تحمل قسماً وجهه آثار الطقس في الهند أعارتهم إياه الحكومة البريطانية هناك، وقد سبق له التسلق مرتين من قبل مع السير ألبرت فيساداي، على الرغم من أنه لم يكن مع بيرت. وأخيراً كيت شخصياً، ترافق البعثة ولكنها ليست من بين أعضائها، وهي بالنسبة لكل هؤلاء الرجال - ما عدا جون بيكر - جزء من بيرت وليست شخصية مستقلة بذاتها.

وقد اعتادوا على القرى الصغيرة التي تعج بالسكان والمدن الصغيرة التي كانت مجرد قرى كبيرة في شمال الهند، ومع مزيد من الصعوبة، أصبحوا الآن معتادين أيضاً على الهضاب التبتية المرتفعة. أُصيب الجميع باحتقان الحلق بفعل الهواء الجاف المشبع بالأتربة، باستثناء كيت. فقد تعلمت أن تتنفس على جرعات خفيفة وبمعدل أسرع مما اعتادت عليه بطبيعتها، فشعرت بالجفاف في الهواء وفي حلقها أيضاً ولكن دون الشعور بالألم. وبرغم ذلك فقد قامت أيضاً بتحضير مزيج غسول للحلق من الحبيبات التي وزعها الطبيب باوم عليهم جميعاً دون أن يقول شيئاً. كانت تشعر بشيء من الخجل لكونها تستطيع بسهولة أن تفعل ما أعبى نصف فريق من الرجال. منذ زمن طويل في ليلة أول ظهور اجتماعي لها قالت لها جايل يوماً: «كيت يا طفلي العزيزة، لا تظهرني أبداً أنك أكثر ذكاءً ومهارة من الرجل الذي تكونين معه، فذلك شيء مدمر».

فقالت كيت معترضة: «أوه، يا جايل، هذا كلام قديم قدم الجبال!»،

ردتها عليها جايل قائلة: «ولكنه أزلّي أيضًا». فقالت لها كيت في تلك الليلة وهي تضبط الزهرة الفضية على كتفها الأيسر: «أنا لا يعنيني إذا ما أحبني الرجال أم لا».

أجابتها جايل: «لا تكوني سخيفة، وكاذبة أيضًا».

ولذلك، فعلى الرغم من أنها وجدت نفسها تتسلق بسهولة وبقدر قليل من الجهد، لم تظهر أي تفاخر بذلك، ومتى صاح بها بيرت بأنها لا بد وأن تكون مُجتهدة كانت تجلس في طاعة على مقعد صغير من الخيزران مشدود بسيور من أوراق الخيزران إلى أعمدة، ومحمول على أكتاف العمال. ولكنها لم تستطع الاستمتاع بذلك. فعلى الرغم من أن أولئك الرجال ذوي السيقان الرفيعة يبدون في هيئة غير آدمية على الإطلاق، إلا أنهم كانوا من وجهة نظرها بشرًا بما يكفي ليمنعها من الشعور بأي استمتاع في أن تسير محمولة على أكتافهم، مع مشهد قضبان الخيزران المتقاطعة تقطع في لحم أجسادهم الداكن تحت ثقل وزنها، وبرغم أنه كان خفيفًا إلى حد بعيد، إلا أن ذلك أصابها بالألم، حتى إنها أدارت عينها بعيدًا عنه لتنظر إلى المرتفعات الخالية من الأشجار تنحدر بشدة إلى الأسفل نحو الممرات، وبأسرع ما تستطيع كانت تنقر لهم على عمود الخيزران حتى يخفضوا المقعد فتشعر بامتنان كبير لنفسها وهي واقفة على قدميها فوق الأرض.

حتى قال لها رونالد براج ذات مرة وهو يمر إلى جوارها متجاوزًا إياها: «إنك تدللينهم هكذا، هناك فيما هو قادم مناطق أكثر قسوة وصعوبة من هذه، وعندها لن يكون لديهم استعداد لحملك. فلا بد أن

يعتادوا على وزنك مع الصعوبات التدريجية للتسلق».

فسألته: «وماذا عني أنا؟ أليس عليّ أنا أيضًا أن أعتاد ذلك، وعلى قدميّ هاتين؟». ابتسم لها ثم واصل طريقه دونما رغبة منه في إهدار أنفاسه في الحديث.

لم يكن أي منهم يتحدث إلا نادرًا في هذه المنطقة الغريبة المرتفعة، على الرغم من أنهم عندما كانوا يمشون بين غابات الطحالب الحارة المعلقة في الوديان لم يستطع أي منهم التوقف عن الحديث عن هذا المشهد الغريب أو ذاك. حتى جاكى ريكسال، ظل يلوك قطعة من التبغ الأمريكي ويتنخّع من فمه في اتجاه زهور الأوركيد الصفراء الرائعة قائلاً: «يبدو أنني سأحتاج لأخذ بعض البذور معي إلى البيت».

أما أغرب ما رأيته كيت من الزهور جميعًا عبر مختلف الوديان التي مروا من خلالها كانت زهور الداتورا الهائلة والتي تنمو فوق أشجارها على هيئة أبواق بيضاء. وبوجه عام كانوا لافتين للنظر فقط أثناء النهار، ولكن بحلول الليل فإنهم يومضون بأضواء فسفورية تشبه القمر، ويُشيعون أثناء حركتهم في الظلام الحار عبيرًا سماويًا. وعندما سألت جون بيكر عن سر تركيبة هذا العطر هز رأسه. فالأوركيد ونبات الوردية هما مبتغاه، ولن يلتفت إلى أي شيء آخر.

فقال لها: «يوجد هنا ما يكفي ليقود عالم نباتات إلى الجنون، عليّ إذن أن أثبت حدودي».

وفي إطار تلك الحدود كان يجمع الجذور والبذور ويقوم بشحنهم متى استطاع إلى الحديقة النباتية التي كان يُشئها في الديار. كانت

الفراشات الاستوائية تحوم حول رأسه على مدار النهار، والتي كانت ذاتها تبدو مثل بتلات زهور هائلة، ولكنه لم ير أيًا منهم. فقد كانت يده مشغولتين بجمع وتعبئة الجذور من بين الطحالب الجافة. فالمناطق الاستوائية بالنسبة إليه تعني الأوركيد. وعندما بدأوا بالتسلق إلى ما وراء الأوركيد، بدأ يركز تفكيره فقط في زهور نبات الوردية. كان يستطيع تمييزها والتعرف على كل نوع منها بألوانها الفضية والبنفسجية والبيضاء، وهناك الأحمر والبرتقالي، القرمزي والأصفر.

سمعته كيت وهو يغمغم ببعض الأسماء العلمية الغريبة، «أرجينتيوم، فالكونيري، وهذا الذي هناك سيناباريوم».

ولكن ما أعجبها حقًا على طول الطريق لم يكن الأوركيد ولا حتى نبات الوردية، ولكنها البريمولا أو زهرة الربيع والتي تدس نفسها الآن في داخل أي فراغ متاح في الجوار. بألوانها القرنفلية وأحجامها شديدة الضالة، ولكن، بمجرد أن تنحني وتحاول جذب أحد العناقيد منها فإنها تقاوم بشدة حتى تضطر إلى أن تجذبها بكل ما أوتيت من قوة، وعندها تستطيع أن تقتلع الجذر وقد علق به بعض من فتات الصخور. إذ إنه تحت كل تلك الرقة والروعة كان ذلك الجذر صلبًا متماسكًا ولم يكن ليُقتلع من مكانه إذا لم تفسح الصخور له المجال.

الآن بدأوا يرتفعون ببطء في وادي تشومبي. بينما تقع الهند من ورائهم خلف الأمطار والضباب، وإلى الأمام منهم مباشرة كان التبت. يشع باللون الفضي تحت أشعة شمس الأزلية. ظلوا جميعًا في حالة من الكدر لعدة أيام برغم هذا الكمّ الهائل من الزهور الجميلة بالغابات

الرطوبة. الهواء في الهند كثيف ومعبأ بالكثير من الحياة، وقد نهلوا منه حتى حدود التخمّة، ولكن فوق الشعب، هبت رياح نقية باردة آتية من مرتفعات التبت، حتى إن رئاتهم قد اغتسلت من الروائح الداكنة. كما وصلوا إلى سهول من الزهور المختلفة عبر غابات الصنوبر والسنديان. حتى أن كيت سألت جون بيكر ذات صباح: «باعتبارك عالم نباتات، كيف تستطيع تحمل كل هذا؟». أجابها: «بالكاد أستطيع أن أفعل».

دوامات من ياسمين البر، حقول من زهور السوسن الأرجوانية الداكنة، البقدونس الأصفر، الورد الأبيض، شقائق النعمان، وهذا فقط ما استطاعت تمييزه، إذ بعد ذلك علمها هو الفيرونيوم والبرباريس والفريتيلاريا والقطونيستر، وكل ما استطاعت تذكره من الأسماء العلمية، تمكنت من ربطه بأحد تلك الكائنات البرية الرقيقة. كان يستطيع نطق أسمائها دون أن يخطئ في أي منهم، وبعد ذلك عرض عليها أول زهرة خشخاش زرقاء تراها في حياتها.

قائلاً لها: «لقد جمعت زهور خشخاش زرقاء ذات مرة، لا يمكنها النمو في أي مكان غير هنا، كما لو أنها تنشأ على هذا الهواء، لم أعد أقتلعها مجدداً أو حتى أحصل على البذور منها». ثم مال نحو الزهرة الزرقاء الحريرية المفضضة وهو يردف: «الأمر يستحق أن تأتي إلى هنا فقط لتشاهدها».

ولكن اليوم الذي شعر فيه بأعظم قدر من الإثارة كان عندما وجد نوعاً سطحياً صغيراً من الأوركيد ذا لون لم يره من قبل في حياته. وإلى جواره كان نهر صغير ينبثق متعثراً بالصخور، وعبر غابات الأرز

والصنوبر، وأشجار العرعر والبتولا المعروفة باسم شجر القضبان، حيث اندفعت الطيور ذات القلنسوات البيضاء وطيور أبي الفصاد وبعض الأنواع الشبيهة بالحجل حمراء اللون. ولكنه كان يرى فقط تلك النبتة الصغيرة عند قدميه وأخذ يحفر من أجل الحصول على جذورها. في ذات اللحظة التي صرخ فيها رونالد براج حين رأى أحد أيائل التبت العملاقة في الغابة. إذ كانت مجرد لمحة خاطفة لجسم هائل يقفز، فصاحت كيت تنادي الرجال من خلفها بينما قادهم بيرت وهم غارقون وسط الشجيرات المتشابكة من أشجار الدردار. وهنا هرب الأيل. وعندما استدارت كيت نحو الطريق مجدداً رأت جون بيكر يرفع نباتاته برقة وحرص من التربة، مولياً إياهم ظهره. فلم يسمع أو ير شيئاً مما حدث.

وبالكاد علموا بعد أن بدأت السهول المنبسطة المرتفعة في الظهور مجدداً تحت أقدامهم، وباستثناء ذلك، يوماً بعد يوم كانت زهور نبات الوردية آخذة في التقلص والتضاؤل في الحجم، كما بدت أزهار السوسن أكثر شحوباً والأشجار تنمو متناثرة، حتى اختفت أشجار الأرز، ولم يعد هناك المزيد من أشجار البتولا أو الصفصاف أو الصنوبر. الآن تعلو نباتات الوردية قرنفلية اللون والأوركيد إلى ما يقارب القدم ارتفاعاً، وبعد ذلك اختفت أيضاً وبقي هناك فقط بعض شجيرات نبات الوردية الأرجوانية الصغيرة، والتي بالكاد تعلو طبقة سميكة من الطحالب.

وبعدها اختفى ذلك أيضاً، وظل يتلاشى تدريجياً على هيئة غشاوة أرجوانية رقيقة سرعان ما اختفت هي الأخرى، عند ذلك كانت أمامهم

مرتفعات فارى وبعدها قمة شومولهارى. حادة وجميلة، تقف فى وجههم كأنها تشعر بالغيرة لتوقف زحفهم بمجرد أن وصلوا إلى البوابة الحقيقية للتبت.

عندما كانت كيت فى الهند، كانت على وعى تام بماهيتها، الليالى الهادئة والأيام شديدة الحرارة والرطوبة جعلت كل خلية إحساس فى جسدها حادة متيقظة. فلم تكن تستنشق فقط عبيراً جديداً غريباً عنها لدولة غير مألوفة لديها، ولكن بدا لها أن كل شخص لديه بصمة مميزة ومؤكدة من رائحته الخاصة، فهل من المحتمل أن يكون لديها أيضاً مثل ذلك؟ لقد استطاعت أن تميز الرجال الواحد عن الآخر، جاكى ريكسال برائحته العفنة الحامضة، ورائحة بيكر نظيفة باستثناء آثار أوراق الشجر المتعفنة والطحالب الجافة التى تعلق به وتلتصق بجسده، أما رائحة التبغ فكانت تخص رونالد براج، لقد وصفت كل واحد منهم بشكل خاص وسرى لبرت فى إحدى الليالى وهما يضحكان، عندما كانا فى خيمة خارج نطاق إحدى القرى.

فسألها: «وماذا عني أنا؟».

فأجابته بسؤال مضاد: «وماذا عني؟». ودون أن يجيب تابعت كيت: «إنه يبدو كما لو أن الهند هي من أخرجت العطر الخاص بجسد الواحد منا».

فقال بإصرار: «وما هو عطري الخاص؟».

أخذت تستنشق قليلاً ثم قالت بخبث: «زيت محركات، وعرق، وبقرة خائفة».

فسألها: «وما شأن بقرة خائفة بي؟». قالت متجنبية السؤال: «أنا أشتّم رائحة بقرة خائفة في كل مكان في الهند».

التقط إحدى الخرائط وألقى بها عليها، ثم تحرك نحوها وأحاط بها بين ذراعيه، قائلاً في وحشية مازحاً: «نادني باسمي!»، وحالما أصبحت قريبة جداً من جسده أصابتها الحرارة الشديدة باللهات، فصاحت به بحدة: «توقف. لا أستطيع احتمال ذلك».

فأفلتها من بين ذراعيه بغضب فجأة، قائلاً: «أوه، حسناً، لا بأس، إذا كنتِ تقصدين ذلك، أنتِ امرأة لعينة مليئة بالأفكار على أن تكوني زوجة يا كيت».

فأجابته موافقة: «نعم، أعلم ذلك...، آسفة! سوف أكون أفضل عندما تهدأ حرارة الجو».

ولكن في الحقيقة كل شيء في الهند في هذه الأجواء كان شديد التكثيف وكل الروائح كانت ثقيلة. فلم تكن تتحمل حضور أحد أو القرب من أحد. حتى المذاق الحاد للطعام على لسانها كان حارقاً بشدة. وبعد ذلك، وبمجرد أن ارتفعت حدودهم إلى عنان السماء، أحدثت التبت تغييرات فيهم جميعاً، كما تغيرت هي أيضاً، حتى إن إحساسها الحاد المتيقظ قد خمد بفعل الهواء الجاف في الأعالي. شعرت بنقاء كأنها معلقة في الهواء. وحتى فيما وراء الشعب لم يكن هناك مهبط طويل، حيث تقف التبت هناك بأعلى الهند. ومن موقعهم في الشعب بدت أمامهم منفتحة تجاه الزرقة الأزلية للسماء، كما لو أن الخريطة قد

أصبحت صخوراً وجبالاً ومرتفعات. الأمطار الغزيرة التي حولت الهند إلى وديان عميقة وغابات تراجعت للخلف على حدود قمة شومولهايري وقامت الجبال باحتجاز السحب فوق التبت. ولكن عندما اتبعت كيت الاتجاهات التي يبحث فيها جون بيكر بعينيه، رأت براعم زهور في طور النمو، زهور الانكرافيليا، هكذا قال لها، أنه خلال فصل الصيف فإن الأزهار الأرجوانية تأخذ شكل الأبواق الصغيرة، كما كانت هناك أوراق من شجيرات السوسن المتقزمة التي لم تزهر بعد. وهنا وهناك وجدوا مراعي من العشب تنمو في بقعة محجوبة عن الرياح، وبعض الأرناب البرية الصغيرة تقضم بأناة أطراف الشجيرات الصغيرة.

ولكن في التبت، كانت الرياح هي الأجواء المسيطرة. وبعد الهدوء الوجيز فيما بعد شروق الشمس الذي استمر خلال الأيام السابقة، بدأت الرياح تكتسحهم، فظلوا يجاهدونها وهم يتحركون سيراً على الأقدام، أو حتى إذا ما ركبوا، فقد كانت الريح تعصف بالخيول الصغيرة كأنها قوارب ضئيلة. رياح معاكسة أبقتهم في الخلف في اليوم الثالث لرحلتهم المقسمة إلى برنامج محدد، بينما كانت رياح آتية من خلفهم تستحثهم بنفس القدر. اختارت كيت في غالب الأحيان أن تسير على قدميها، ولكنها تعلمت أن تحافظ على مسافة خطوة خلف بيرت، حيث منحها جسده الوقاية. وقرب الغسق، عندما توقفت الرياح، تركتهم في حالة دوار أصابتهم جميعاً على السواء بشكل غريب، تحولت وجوههم جافة وداكنة بينما جف عرقهم على أجسادهم.

في الهند كل الرجال يتسمون بسرعة الغضب والميل للمشاكسة

والشجار. ضحكت ذات مرة من واحد أو آخر من تلك الشجارات، وهي تحافظ باستمرار على حدة طباعها الشخصية. ولكن التبت تمكن من شفائهم جميعاً. فعندما ذهب كل منهم إلى خيمته، كانوا في حالة من الهدوء. كما أن ذلك السلوك المحمود لم يكن من صفاتهم بحسب الأصل، كان أيضاً وإلى حد ما من طبيعة أهل المناطق التي مروا بها فوق الطرق الصخرية التي تطوف بها الرياح وكذلك في القرى الصغيرة. كانوا أناساً هادئي الطباع حسني السلوك، يردون المجوهرات، كتل خشنة من الفيروز معلقة في سلاسل من الفضة، على الرغم من القذارة التي تكسو أجسادهم والتي جعلت ملابسهم المشوهة تتييس. ولكن الأرض المرتفعة رفعتهم أيضاً إلى السماء، وقامت الرياح والشمس بتنقيتهم. كان الماء نادراً، ولكن أياً منهم لم يكن بحاجة إلى الاستحمام كما يجب في تلك الحرارة والرطوبة لكي يحافظوا على أنفسهم من التعفن. أما الفُحش والبذاء فهو ما لم يجد المجال ليتعفن هنا، بل جف وذهب أدراج الرياح. ولم تكن هناك روائح نتنة.

شعور عام بالعظمة والوقار تجسد وحلّ بجميع أفراد البعثة بكاملها. ولأول مرة شعرت كيت بأنهم مرتبطون معاً. بدأ الرجال في دراسة الخرائط والحديث بشأن الاقتراب من بانجابات. وبدأ رونالد برّاج في العثور على الحماليين الذين يستطيعون التسلق. توقفوا أربعة أيام في فاري، الأقدر من بين المدن الصغيرة، عنقود من المنازل المستترة أسفل أحد الحصون. ومن ذلك المكان تحركوا بخطا ثابتة صاعدين باتجاه الغرب، يتوقفون في الغروب للنوم في خيمة أو إذا

ما صادفوا في طريقهم أحد الأديرة كانوا ينامون في الصوامع الخاوية، حيث يقف الرهبان بهيئاتهم القذرة مبتهجين حول الباب لمشاهدة كل ما يفعلون.

جال بخاطر كيت أنه لم يكن هناك شيء ليمتّ للواقع بصلة في كل تلك الفترة الشبيهة بالحلم، باستثناء أنه لا شيء فيها استطاع أن يحدث أي تغيير في بيرت. نام في إحدى صوامع الدير كما لو كانت غرفة نومه الخاصة في منزلهم في المزرعة حيث وُلد. استيقظ وهو يشعر بعدم بالرضى من دون القهوة ولحم الخنزير المدخن والبيض. بينما شعرت كيت أنها تغيرت حتى الأعماق بفعل الهواء في تلك الأعالي، بتأثير الجبال المكسوة بالثلوج باستمرار خلف التلال العارية الداكنة التي تحيطها أنهار من الجليد، وأيضًا بتأثير البساطة التامة في تلك الحياة التي تعيشها الآن، حتى إنها لم تنظر في المرأة لأيام كاملة. نهضت من نومها في الصباح عندما دقت أجراس الاستيقاظ، وفي الإفطار المبكر وقفت في صمت، شأنها شأن باقي الرجال، تتناول الطعام الذي أعده الطاهي التبتى. كل الأطعمة كانت جيدة كما أنهم كانوا جوعى باستمرار، تلك الشهية ذات الأنفة التي كانت لديهم في الهند اختفت تمامًا، كل ذلك امتدت إليه يد التغيير بفعل المشي اليومي، سواء كانت تمشي أو تمتطي شيئًا. الأرض كانت مفعمة بالهدوء. فالرياح صنعت حائطًا حول كل واحد منهم، وفي داخل الحائط يكمن الهدوء. تتوجه وجوه الرجال نحوها إذا ما تحدثت، أو يتابعون عملهم منهمكين فيما يفعلون إذا صمتت. أحيانًا تلتقط عينا رونالد براج بتسيمان لها في صمت. رأت أنه

يمكنه أن يكون لطيفاً، إذا ما كان هناك وقت لذلك. ولكن لم يكن هناك وقت لغير خطاهم الحثيثة في سيرهم المنتظم نحو قمة جبل.

لذلك عاشت داخل شعورها بالوحدة وتركته يستعيد لها مجدداً نحو خلوتها الأثيرة. وفي أحد الأيام ظلت في الخلف بالمخيم بينما ذهب الرجال لجمع بعض المهمات للتسلق والذي أصبح الآن تقريباً في مواجهتهم تماماً، جلست فوق أحد الصناديق على باب خيمتها وفتحت حقيبة ظهرها وأخذت منها مفكرة سوداء صغيرة، والتي اعتادت لسنوات عديدة أن تدون فيها قصائدها القصيرة السرية. كتبت عدة صفحات أثناء الأسابيع الأخيرة. صاغتهم في الصمت في المخيم على مر الأيام وكتبتهم في المساء على أضواء شمعة ترتعش بين الحشرات الطائرة، أو على أحد مصابيح التبت التي تُملأ بالزيت.

راحت تقرؤهم سريعاً، واحدة تلو الأخرى وهي تستدعي الحالة المزاجية التي كتبت فيها كل واحدة. ما فائدة أي من هذه الأفكار أو المشاعر التي لم يرها أحد من قبل؟ نعم، نورمان رأى ثلاثاً منها، تلك التي تبدأ بـ «منذ الآن نعلم...»، وأيضاً التي تبدأ بـ «اليوم عندما أدركت فجرى الأول...»، وأخيراً تلك التي كانت بدايتها «تضرع إليّ كما ستفعل، لا أستطيع أن أتركك...».

وبعد تلك القصيدة الطويلة لم يكن هناك غير الصمت على الصفحات أمامها حتى القصيدة التي ما زالت غير مكتملة، التي كانت تكتبها في ذلك اليوم في بكين عندما قابلت بيرت لأول مرة. وبعدها بوقت طويل كانت هناك القصيدة الوحيدة التي كتبتها في المكتبة

في جلين باري خلال ذلك اليوم الممطر. والآن في الأسابيع الأخيرة المنقضية كتبت أكثر مما كتبته طوال حياتها من قبل. قامت بعدها... فإذا بهم مائة وسبعة وخمسون قصيدة. هذا يكفي لإصدار كتاب، ولكن، فقط لم تكن لديها الرغبة في نشر أيّ منها. هنا في تلك العزلة التي يمنحها هذا المشهد الهائل فكرت في الحشود الطامعة بشدة في أي شيء يمكن أن تناله من بيرت هولم، إنها ما زالت هناك تنتظر، بينما لن تمنحهم هي شيئاً من هذا، سوف يبحثون عن كل ما يبدو أنه سيخبرهم شيئاً عن بيرت هولم والمرأة التي أحبها، بحثاً عما يسمونه (بالرومانسية). لقد بلغت حد احتقار الكلمة. لم تغترّ ببريقها يوماً، بل لم تكن حتى ترى ذلك البريق، حتى إنهم إذا ما لم يجدوا شيئاً منه، فسوف يسجلون ذلك أيضاً.

أغلقت الرباط المحيط بالكتاب جيداً، ثم نهضت بحماس، وأخذت تتجول خارج خيمتها هائمة في مشهد التلال البنية التي تنحدر بشدة نحو الأسفل. وعلى مقربة منها كان أحد الرعاة يقود قطيعاً من الخراف الرمادية، بينما تتطاير الأسماك البالية التي يرتديها مع الرياح. كان الوقت ما بعد الظهر بكثير، وعاجلاً ما يعود الرجال من جولتهم، لماذا تشعر فجأة، كما كانت تفعل في الغالب، أنه ليس لديها سوى القليل من الوقت قبل أن... قبل ماذا؟ قبل أن يعود بيرت... بالتأكيد ليس قبل أن تموت، إذ كانت بصحة جيدة للغاية. ولكن إذا ما كان ذلك الوقت القليل متبقياً حتى موتها... يا لها من خيالات سخيفة، عندما كانت أيضاً لديها الإمكانية لذلك، بل وأكثر سمنة تقريباً من أي وقت

مضى في حياتها برغم الحرارة والسفر! ولكن لنفترض أنها علمت أنها مقبلة على الموت، فما الذي يمكنها فعله بفترة هزيلة أخيرة؟ أطلقت لذهنها العنان ليحلق في الآفاق من حولها ثم عاد إليها بثقة حمام زاجل. فعبر كل تلك الأسابيع من الطواف والتجوال تركت الوقت ينزلق في سكون منعزل، من ذلك النوع الذي قد يمر به أي شخص راضياً مطمئناً، ولكن في أعماق تلك الطمأنينة علمت من خلال كل الوقت الذي مر بها أنها سوف تكتب إلى نورمان مجدداً يوماً ما، وفي مكان ما، خطاباً طويلاً. لم تدع الحاجة إلى ذلك من قبل، ولكنها الآن حاضرة وبقوة. وهي تعلم السبب، فكما قال جاك ريكسال صباح اليوم فقط، أن غداً، آخر يوم يمكن فيه لأي منهم أن يرسل رسالة ما.

فقالت مُحدِّثةً نفسها بيقين لا يستند إلى أي منطق سليم شأنه شأن الرياح العاصفة: «إذا لم أكتب الآن، فلن أستطيع ذلك مرة أخرى»، إذا كان ينبغي فعل ذلك، فيجب أن يكون الآن. إذ إنه بعد بانجابات لا أحد يعلم ما قد يلحق بهم جميعاً من تغيرات.

وفي النهاية انتهت من كتابة الخطاب، لم تكن لتحصي الصفحات أو حتى لتعيد قراءتها لترى ماذا كتبت، بل لم تُدرِ ما إذا كانت قد أخبرته بكل شيء، أو حتى بلا شيء، لم يكن في رأسها شيء ما، أو عدة أشياء لتقولها له. أرادت فقط وببساطة أن تتواصل معه كلياً وبكل ما تحمله الكلمة من معنى، من قلب المكان الذي تتواجد به. لم يكن نوعاً من الخطابات الغرامية، فلم تكن على الإطلاق تريد أن تكتب له خطاباً غرامياً، كلا، ما فعلته كان كالتالي: عادت بذكرتها إلى اللحظة التي

أخبرها فيها بأنه لم يستطع أن يحبها بشكل كافٍ، وبعد ذلك بدأت في خطوة تلو الأخرى تسجل كل شيء حدث لها حتى اللحظة الحاضرة، دونت ما يخص لي لي بأقصى ما أمكنها من الوضوح والإنصاف، ذلك أنها لم تكن تحمل تجاهها أي ضغينة، إذ رأت لي لي بوضوح شديد، رأت كل شيء بذات الوضوح، على ضوء أشعة هذه الشمس التبتية الساطعة. ولكن كل ما سبق، لم يكن يحتاج سوى لصفحات قليلة، أما ما استغرق منها صفحات وصفحات فكانت تلك الأسابيع الأخيرة بصحبة بيرت، ولكن بمفردها، استطاعت أن تنهض بالأمر وترتفع لأعلى بعيداً عن الحرارة الخانقة والارتباك المحيط، نحو سماء التبت. تلك السماء التي أصبحت فوقها الآن، دائمة الزرقة أزلية الصفاء.

فقالت في النهاية: «وهأنذا هنا الآن يا نورمان، لا أعلم ما الذي ينتظرني، ربما لن يصلك شيء مني مجدداً، وربما تسمع أشياء هائلة عني، فالسيدة بيرت هولم بالتأكيد لن تكتب إليك، إنها تكره أي نوع من أنواع الحياة المزدوجة، فقط تريد أن تحيا ببساطة ووضوح دون أن يكون لديها ما تخفيه أو تبرره بالطريقة المقيمة التي يخفي بها الناس أشياء، فما تحسبه جايل ليس سوى شيء من المتعة، سوف يصيبها بالملل والضجر يوماً ما، وأنت تذكر كيف كانت كيت تالانت دائماً شخصاً من نوع (كل شيء أو لا شيء)، والسيدة هولم تسير على ذات النهج، بل إنها من طراز أكثر تشدداً».

ترددت قليلاً، ونظرت لأعلى، تحديق في القمم البيضاء للجبال النائية، وقت الظهيرة كان في غاية النقاء حتى لربما استطاعت أن ترى

إفرست، قال رونالد براج ذات مرة أن ذلك ممكن من تلك البقعة. جلست، وكل ما في أعماق نفسها يحدق مخترقاً السماء الخالية حتى استطاعت أن تعبر المحيط بناظرها، باتجاه الوطن حيث يكون نورمان، غير منتظر إياها، ذلك أنه لا ينتظر أحداً، لذلك، فقط وببساطة إلى...، إلى حيث يكون. وعلى الفور شعرت به في غاية الوضوح لدرجة أنه بدا لها كأنه ينبعث فجأة في حضرتها، حياً بشحمه ولحمه. كانت دائماً تعتقد بشيء من الشك في الاستبصار، ولكنها الآن تؤمن به تماماً.

كان يجلس إلى طاولته منهمكاً في الكتابة، فنادته قائلة: «نورمان!»، نظر إليها وابتسم ابتسامته اللاإرادية. ولكنَّ عينيه الداكنتين كانتا دافئتين، وشعرت أنه مسرور لرؤيتها، ليس سروراً عادياً ولكن كما لم تره بهذه الهيئة من قبل، تَوَاق ومسرور بشغف حقيقي، أو أنه هادئ السريرة يشعر بالارتياح، كما لو أنه كان يشعر بالقلق وفي ذات الوقت بشيء من الاشتياق واللوعة. جال بخاطرها بنوع من الإحساس بالصدمة، أنه شيء مفاجئ إلى أبعد حد على أن يكون أمراً مفرحاً أو أي شيء آخر سوى محض المفاجأة.

«لماذا، فأنا أو من بأنه كان بإمكانه أن يحبني... فقط لو أنني حاولت أن...»، ها قد اختفى مجدداً. فإذا كان نورمان في طريقه لأن يحبها، أو أنه أحبها بالفعل، أو ربما أنه كانت يحبها طوال الوقت ولكنه كان فقط يجاهد ضد الشعور بالحب، وليس ضدها هي، فماذا إذن؟ وهنا قالت محدثة نفسها وهي تضحك فجأة: «عندما أعود إلى الديار، إذا ما رفعت إصبعي بالطريقة التي تتقنها جايل، فإنها واثقة أنه سيفعل!».

ثم كتبت بسرعة في نهاية الخطاب: «عزيزي نورمان، أنا لك إلى الأبد، كيت». تلك كانت النهاية الصحيحة، أليس كذلك، النهاية الحقيقية؟ بدت لها كذلك، في هذه العزلة الصافية النائية. طوت الخطاب بشكل غير منتظم لأنه كان غليظاً جداً ثم وضعته في مظروف وأغلقتها جيداً ثم ختمته بصف من الطوابع الهندية. حيث سيتم نقله عائداً إلى الهند ليُرسل من هناك.

بعد ذلك ذهبت إلى خارج الخيمة ووقفت في مواجهة الجانب الغربي من السماء. وهناك بالأسفل إلى اليسار منها، استطاعت أن ترى الرجال عائدين، كان بيرت في مقدمتهم. رآته يلوح لها بيديه، فأخذت الوشاح الأزرق من حول عنقها وتركت الريح تلوح به باتجاهه، كانت مفعمة بالسلام والطمأنينة كما لو أن شيئاً محتوماً قد تم على خير ما يرام.

وكانت الرياح تُخفّئ الآن بحلول المساء، والتقطت أنفها رائحة طعام يُطهى في خيمة المطبخ، وكذلك عبير الجانب المشمس من التلال. وبالأسفل في الوادي كانت هناك بحيرة صغيرة، تظل زرقاء طوال النهار، وها هي الآن تتحول إلى اللون النحاسي كلما ازدادت أضواء المساء قوة. كما استطاعت أن ترى قُبرة بنية اللون تحلق فوق بقعة من الأرض هي في الواقع حديقة خضراء. أخذ الطائر يرتفع ويرتفع، ولكن ليس إلى الدرجة الشاهقة حيث كانت تقف، وعندئذٍ عاود الانخفاض مجدداً. وتناهى إلى مسمعها صوت زقزقة طائر الحسون، وصوت خشخشة حَبَل وسط أجمة من الأشجار والحشائش. وعلى الرغم

من أنها لم تستطع رؤية أيهم، إلا أن لون ريش كل منهم كان بنيًا، مثل أغلب الطيور بنية اللون في هذا البلد البني. فالألوان لا تستطيع العيش هنا سوى في السماء، وأيضًا باستثناء وقت أن يبحث الضوء عنها أو يسبغ عليها ألوانًا حيث لم تكن موجودة. عندئذ عبر شفافية السماء رأيت شيئًا يرتفع بشدة أعلى منها، بعيدًا مثل سحابة هائلة وأبيض أيضًا مثل السحاب. ظلت محدقة فيه مبهوتة باتجاه السحاب، ولكنها علمت أنه لم يكن سحابًا، إذ حافظ على هيئته ثابتة في السماء، فاستطاعت تمييزه والتعرف عليه، تلك كانت إفرست. أخذت تحديق فيها طويلاً وشعرت بأنها تنجرف إلى الأعلى حيث تلك الذروة الجليدية النقية، إلى أن غمرت ألوان الشفق أرجاء السماء.

ولدى عودة الرجال قالت لهم بإجلال ومهابة: «لقد رأيت قمة جبل إفرست»، واستقبلت بالكثير من الإصرار تعليقاتهم التي تعددت ما بين شيء من الحسد وشيء من الارتياح والشك. «لا يمكن أن تكون شيئًا غيرها، إنها أعلى شيء في العالم، في منتصف الطريق إلى سمت الرأس!»، وعادت تؤكد لبيرت في خيمتهما في تلك الليلة: «شعرت أنها إفرست»، فقال لها بأريحية من داخل حقبة نومها: «حقًا؟». فسألته: «هل ما زلت تتمنى لو أنك تسلقت إفرست بدلًا من بانجابات؟». أجابها وهو يتشاءب: «لا، أظن أن بانجابات على ارتفاع كافٍ بالنسبة لي؛ فقط لأنها أعلى من أي نقطة وصل إليها أي شخص من قبل، وأنا راضٍ عن ذلك». فتابع فيما يشبه الحلم: «برغم ذلك فسيقوم شخص ما بتسلق إفرست في يوم من الأيام، أتمنى أن يكون أنا».

فقال بيرت: «أنا أحب التسلق ولكنني لا أريد أن أموت أثناءه أو أثناء أي شيء آخر». كان صامتاً بينما تقوم بالتأكد من تأمين مصراعي الخيمة وتطفئ القنديل الصغير. عندئذ سمعته يغمغم بتكاسل في الظلام: «تعالى إليّ يا كيت، أشعر بالبرد الشديد وأنا وحدي». ترددت قليلاً، وبعد ذلك، وبينما تشعر بأن عزلتها الأساسية ما زالت بمأمن، أحست أنه بإمكانها أن تطيعه مرة أخرى.

كلما اقتربوا من بانجابات من الجانب الغربي لسلسلة الجبال اللانهائية التي تقع وسطها، وجدوا أنه جبل مكون من منحدرات طويلة بسيطة تمتد للأعلى إلى عنقود من الصخور شديدة الانحدار. وها هم يسرون الآن في متاهة بين التلال الوعرة غير المستوية، وعلى بعد عشرين ميلاً أصبحت تلك التلال جبلاً منخفضة. وبعد عشرة أميال أو خمسة أخرى أبعد من ذلك تتحوّل جبلاً، تلك التي فوق أعلى سطح منها تنتشر الثلوج مثورة. ومن فوقهم كانت بانجابات مثل موجة هائلة معقوفة.

قال بيرت: «علينا أن نجد طريقاً من خلالها»، كان صمته يزداد يوماً بعد يوم كلما اقترب من بانجابات. وكلما تقدموا ميلاً أو اثنين كان يتوقف ليتفقد الجبل بمنظاره المقرب.

وذات صباح أعلن لهم: «إنه ليس بالسهولة التي يبدو عليها. تلك المنحدرات ليس مستوية». ناول المنظار إلى كيت، والتي راحت تحديق من خلاله في تلك الكتلة التي تقف في مواجهة السماء. تمكنت العدسات من تكبير السطح بصدق حتى شعرت أن قمة بانجابات قد

قفزت إليها، وبدا حينها السطح على حقيقته مقسمًا إلى منحدرات صخرية شديدة الخطورة على هيئة خطوات. سطح واحد فقط من بينها تجمعت فوقه الثلوج مستوية ملساء، وكان ذلك السطح يبدو مثل صهوة ملحقة بقمة أخرى ومؤدية إليها. بانجابات في الحقيقة كانت تقف بين قمتين أقل ارتفاعًا منها بحيث تبدو كأنها قد انبثقت من خلالهما، ولكن واحدة منهما ترتفع أعلى من الأخرى والتي أيضًا من خلالها تصبح تلك الصهوة المؤدية إلى بانجابات أقل حدة وانحدارًا.

لذا قرر بيرت: «هذا هو المكان الذي سوف نقيم فيه المخيم الأساسي، في ذلك التجويف».

نظر جون بيكر لأعلى، وهو من اعتاد أن يمشي دائمًا وبصره مصوب نحو الأرض، ثم قال: «إنه مرتفع للغاية».

زمجر بيرت متذمرًا: «هل تعني أنه مرتفع جدًا بالنسبة إليك».

أجابه جون بيكر بنفس النبرة: «هذا صحيح أيضًا».

كان يرفض بإصرار أن يعاود التشاجر مع بيرت مجددًا على الرغم من أن بيرت كان سريع الغضب بشكل متزايد بمجرد أن بدأ يضع خطة التسلق النهائية. ثم أضاف بيكر: «ليس هناك فائدة تُرجى بالنسبة لي، لتجعلني أذهب أعلى من خط الثلوج».

وبدأ المشهد الجبلي الرهيب يلقي بتأثيره عليهم جميعًا. ومن خلفهم أتى طابور طويل عبارة عن حشد من الحيوانات والحمالين. جاك ريكسال ورونالد براج كانا يقومان بجمعهما معًا، من المناطق

الجبليّة، وكذلك من خارج القرى الصغيرة والمدن المحصنة. وبدأ الرجال والوحوش بمنتهى الغرابة متشابهين في مواجهة ذلك المشهد المحزن، والذي يجاهدونه معًا. وعندما بدأ الإجهاد يصيب كيت بسبب عبء حمل جسدها، أخذت تفكر في تلك المخلوقات المحملة بالأعباء ولزمت الصمت أحيانًا، وأحيانًا أخرى كانت تفقد السيطرة على نفسها وتندفع لتتشاجر مع بيرت بسبب تدمره.

«يا إلهي، كم أنا أحمق لأترك منزلًا مريحًا في الولايات المتحدة الأمريكية»، فقالت له بحدة بمجرد أن اشتبكًا معًا في شجار: «ولماذا لم تبقى هناك إذن؟».

أجابها بنفس الحدة: «قلت لأنني أحمق».

فقالت له: «إذا كنت تشعر بذلك، فأنت أحمق».

عاد يزجر متذمرًا: «ليس إذا كان هذا ما تقولينه»، ثم أضاف: «إن قدمي متقرحان بالكامل».

أجابته: «لقد سئمتُ سماع أي شيء عن قدميك»، فقد كانت لديها نفس القرح في عقبيها، ولكنها لم تتكلم عن ذلك، ثم عادت تقول: «كم أشعر أن هؤلاء الحمالين عظماء، إنهم يحملون كل هذه الأحمال وهم يتسلقون».

فقال بيرت: «يمكنهم فعل أي شيء من أجل ستات قليلة».

أجابت: «على الأقل يفعلونه»، وهنا تعجبت من حماقة تلك المشاجرة، فبمجرد أن تركوا سفح الجبل المستدير وبدأوا الصعود

الجاد على المرتقى الأدنى في الطريق إلى بانجابات وقد حلت بهم جميعًا تعاسة وشقاء غريبين. استطاع رونالد براج أن يتحملها أكثر من أي منهم. ظل يواصل سيره بجهد وثبات إلى الأمام، كان يراقب الحمالين أثناء سيره بينما ينظر إلى كيت نظرة تحمل الكثير من الذكاء. سألتها ذات صباح: «أنتِ تشعرين بالحزن، أليس كذلك؟».

أو مأت برأسها، ثم سألتها: «لماذا عليّ أن أحزن؟».

أجابها: «كل شخص يشعر بذلك. إنه نوع من الأمراض الروحية الجبلية، ربما كان إنذارًا، بأن الإنسان لم يُخلق للعيش في الأماكن الشاهقة، فالجسد يخشى الأماكن التي قد تأخذه إليها الروح، فيمد يديه ليسحبها مرة أخرى للخلف عن طريق الشعور بالتعاسة».

فسألتها وهي ترى عينيّه مصوبتين نحو الحمالين: «لماذا تظل تنظر إلى الحمالين؟».

فقال لها: «قريبًا سوف يبدأون في محاولة الهروب، أعرف ذلك، فقد قمت بمثل هذا الأمر من قبل، يواصل الرجال البيض السير، ولكن أولئك النيباليون يكونون أقرب إلى جذورهم منا نحن، أو أبعد، لا أعرف أيًا منهما، تعتمد على ما إذا كنتِ تفكرين في شأن امتداد السلالات والأعراق تصاعديًا أم تنازليًا، فأهل التبت يمكنهم الذهاب لأبعد من أي فرد منهم إذا ما قام بمباركتهم اللاما قبل أن يبدأوا». ثم ابتسم وتابع: «لقد دفعت الكثير للاما لكي يباركهم جيدًا»، ثم أضاف: «ولكنهم لا يعلمون شيئًا عن ذلك».

في تلك الليلة عندما أصبحوا في منتصف الصهوة المؤدية إلى قمة بانجابات، هرب ثلاثة من الحمالين وعادوا أدراجهم، وقع غضب رونالد براج على مَنْ تبقى منهم ككتلة جليدية ضخمة تسقط فوق رؤوسهم، فقال موجهاً حديثه إليهم جميعاً: «أنجرؤون على تركنا! سوف أصب لعنة رجال الثلج في بانجابات عليكم جميعاً». ظلوا يحدقون فيه بخوف، ثم ذهبوا ببطء إلى أحمالهم.

وعند حدود الثلج تماماً، توقف جون بيكر ثم وضع خيمته قائلاً: «هذه هي نهاية عالمي، سيكون لديّ الوقت لكي أقوم بتعبئة العينات، كما أود الاستكشاف على طول حدود الثلج لأرى ماذا عساي أجد».

واستبقى معه فتى طويل القامة من التبت ممن سبق لهم التسلق أعلى من حافة النهر الجليدي واستكشف قاع الوادي المتكون بفعل المياه المخفية. ثم سألهم: «أوجد شخص آخر يرغب في البقاء؟».

تردد فرانسيس بروير، إذ كانت صداقته بجون بيكر قد توطدت كثيراً عبر الطريق. ولكنه نظر إلى الأعلى، نحو قمة بانجابات، كان يوماً صافياً وما زالت بانجابات مجموعة بللورية تتلألأ في مواجهة السماء اللازوردية. ثم قال وهو يتشدد بكلمات رنانة: «أنا أظن أنني سوف أواصل الطريق، بانجابات تنتظرنني». بينما ابتسم الباكون فحسب رداً على سؤال بيكر. كل منهم لأسباب خاصة به عازم على محاولة الصعود إلى بانجابات. ولم يعد الأمر مجرد أن يتبع أحدهم بيرت هولم، ذلك أنهم بدأوا ينسحبون عنه واحداً تلو الآخر، فقد لاحظت كيت اختلافاً مبكراً بالنسبة إلى بيرت تخلى فيه عن الطباع السيئة وتحول

شيئاً فشيئاً إلى الكياسة ولين الحديث، ولكن ديك بلاستيل لم يتظاهر حتى بالكياسة، وكان يتجاهل وجود بيرت بمجرد أن ينتهي من حصته بالعمل. وسواء أكان تأثير التبت قد غلفهم جميعاً في ردائه من الوحشة، أو كما قال رونالد براج أن ذلك شيء حتمي في أعالي الجبال لا يمكن تفاديه، فقد تغير شكل نموذج البعثة تمامًا، ولكن لم يلحق بأي منهم من التغيير ما لحق بجيمي فريسك، المراسل الشاب ذو الشعر الأصفر، إذ تحول إلى الصمت الذي غالباً ما يكون وحشياً. لم تدرك كيت ما كان يشعر به، ولكن شجاراً مستمراً قد اندلع فجأة فيما بينه وبيرت. فلم يكن بيرت راضياً عن الأخبار الأخيرة التي أرسلها فريسك ولم يستطع نسيان ذلك، قال له حينها: «مجرد أخبار عادية يمكن أن تكون عن أي شخص، أريدها أن تكون عن بعثة بيرت هو لم الاستكشافية، الناس يريدون سماع أشياء شخصية، وليس الكثير عن المناظر والأماكن».

قال جيمي فريسك باقتضاب: «أنا آسف، ولكن هذه المشاهد تأسرنني». ثم نظر إلى أعلى نحو الأكتاف الثلجية العملاقة لبانجبات ثم تابع: «لم يعد هناك شيء شخصي يبدو لي أنه يساوي شيئاً لأكتب عنه بعد الآن».

فقال بيرت بعناد: «لن يستطيع بريم أن يفعل شيئاً بتلك المواد التي ترسلها». كان أكثر وسامة عما كان عليه من قبل في زي من الفراء الأبيض ذي قلنسوة من الفراء أيضاً. وعلى الرغم من أنهم كانوا الآن على بعد آلاف الأقدام من منحدرات بانجبات وعلى مسيرة يوم واحد من الموقع المحدد للمخيم الأساسي النهائي. إلا أن الشمس كانت

دافئة، وكان الرجال يجلسون دون غطاء للرأس أمام خيماتهم المفتوحة. محيط من السحب يقع في الأسفل من أشعة الشمس، تبرز من خلاله القمم الثلجية، ومن ورائها كانت تبدو في الأفق سلسلة جبال نيبال، ومن بين جميع الرجال فقط بيرت، بردائه من الفراء الأبيض، ورأسه العاري من القلنسوة المعلقة، لم يتضاءل حجمه داخل ذلك الزي. وكيت تنظر إليه وتتأمل تلك القسوة التي جعلت من الحجم واللون والشكل المجرد للجسد، جسد بيرت، أكثر جمالاً وسط الثلوج وتحت أشعة الشمس، والتي في ذات الوقت سلبت جيمي فريسك الضئيل كل ذلك، وجعلته ينكمش داخل معطفه الواقى من الرياح ويحمرّ أنفه المقلوب قليلاً، وأصابته جلده شديد النقاء بالقرح وشعره الناعم عديم اللون بالجفاف، لقد امتلك كيانه ذلك المشهد الطبيعي الخلاب الذي استنفذ جسده بمنتهى القسوة، أما بيرت فلم يعره أي اهتمام، كما لم يَلْقَ أي معاناة في مواجهته، بل على العكس بدا كأنه خُلِقَ ليواجهه. ولكن يبقى في ذات الوقت، وبرغم أنها استطاعت أن تستمتع بوسامته، أن تعلم أن وسامته تلك لا تعني شيئاً، وأنه بالنسبة إليها لا يساوي شيئاً. إلا أنها أيضاً كانت عادلة بما فيه الكفاية، وهي تراقب بيرت في هدوء هنا في حضرة الهيمالايا، لتدرك أنه لا ينبغي عليها أن تلقي عليه باللائمة. ولكل ذلك فقد تغيرت، ذلك أنه قد بدا أن الجميع قد أصبح غريباً يصعب تمييزه، ويزداد ذلك يوماً بعد يوم كلما زحفوا إلى أعلى قليلاً على جانب الطريق إلى قمة بانجابات، جميعهم باستثناء بيرت، فهو الوحيد الذي لم يستطع تغييره شيء، حتى بانجابات.

تذكرت حين قالت لها جايل ذات يوم في سخرية لا تخلو من بعض الحسد: «فكري في المرح وسوف تكونين فقط امرأة!» ولكن جايل نفسها، لو جاءت إلى هنا لأصبحت هي أيضًا شيئًا أقل من امرأة. فالرجل والمرأة توقفا عن الانخراط في القسوة المتزايدة لأيام حياتهما معًا، وقوانين الأرض الطبيعية كانت معطلة هنا حيث تقف الأرض تحت السماء، فهي تعيش وتتحرك بين الرجال كما لو أنهم جميعًا من جنس محايد، فالوجود فوق الجليد واستنشاق تلك الأجواء بالغة النقاء لم تترك لهم من القوة ما يزيد عما يحتاجونه لأداء الأعمال اليومية من تناول الطعام والنوم بعد يوم من التسلق، ولو أنه كان هناك أي شيء آخر، فبطريقة ما يمكن للجبل أن يُشعرهم بالخزي والعار، ففي حضرته لم يكن هناك شيء أشد تفاهة من ممارسة الحب بين الحشرات.

فهمت مغزى نظرة الغضب التي رأتها في عيني جيمي فريسك عندما تكلم بيرت عن روجر بريم، الغضب الصامت لأنه لا يستطيع أن يتكلم مع بيرت فيفتضح ما في نفسه. إذ قال لبيرت: «افترض أنك أنت من يكتب ما تريده أن يكتب عنك».

فأجابه بيرت باقتضاب: «لديّ عملي الخاص، إلى جانب أنك تتقاضى أجرًا لتكتب ذلك».

فقال فريسك بإصرار: «إذن أخبرني ماذا عليّ أن أقول، هيا، أعطني فكرة عن الكيفية التي تريد للأخبار أن تصدر بها». كان يتحول إلى اللون الأبيض فيما حول شفتيه المتقشرتين، ثم أضاف بسخرية وهو يدير عينيه فيمن حوله: «البطل الشعبي يتحدث!»، استدار بيرت نحوه

بهذوء، وبوسامته وهذوءه استطاع أن يضع المراسل الثرثار بغير إنصاف موضع الخطأ.

إذ قال ببساطة: «أنت تعلم أنني لم أقصد ذلك، كل ما أريده فقط مواد إخبارية مباشرة عما يحدث هنا بالفعل، أنا لا أمانع في القليل من الوصف على جانب الخبر، ولكن يمكنك أن تقول شيئاً على سبيل المثال عن الاستكشافات التي قمتُ بها بالأمس من أجل رحلة اليوم»، اندفع فريسك قائلاً: «حيث سقط أحد الحمالين المحليين في صدع عميق، ثم قام بيرت هولم بالمغامرة بحياته والنزول للأسفل متدلياً في نهاية جبل غليظ لإنقاذه!». لم يجب بيرت، بل استدار ودخل إلى خيمته، ووسط دائرة الرجال المنهكين وقد توقفوا عن العمل، شعرت كيت بأن الأجواء تتخذ منحى متوتراً مشدوداً، وصاح هاردن كومبس: «ما الذي أصابك يا جيم؟». من بين جميع الرجال، كان كومبس أكثر من بقي محتفظاً بنفسه كما كان، شخص مهذب مؤمن بما يفعله والذي من داخله كان مؤمناً ببيرت هولم، لم يكن يجيد التسلق كما ينبغي، وعلى كل ارتفاع جديد كان يُصاب من جديد بأمراض الجبل، والآن، على مسيرة يوم واحد من المخيم الأساسي، كان يشعر بالرعب خشية ألا يتبع بيرت هولم لأبعد من ذلك، ومن ثم يتخلف في المؤخرة». ورغم كل شيء يا جيم، لقد نزل بيرت بالفعل خلف الرجل، أليس كذلك؟ إن هذا لم يكن غير بيرت هولم فعلاً».

ردها عليه فريسك قائلاً: «وهذا تحديداً ما يجعلني أقول: 'عليه اللعنة!'».

أجابه كومبس معترضًا: «ولكن... كان ذلك تصرفًا نبيلًا منه!». وتحت الضوء الساطع النقي للشمس المحيطة بهم، كانت عيناه المجهدة من الجليد متقيحة ودامعة فأخذ يمسحهما بطرف وشاحه، ثم قال بصوتٍ خشنٍ متذمرًا: «ألف لعنة على ذلك النبيل!». فعاد كومبس يقول مجددًا وهو يستنشق الهواء بصعوبة بصوت مسموع: «لا أستطيع أن أفهمك».

قاطعه فريسك قائلاً: «إذن عليك اللعنة أنت أيضًا!». قفز واقفًا على قدميه، فانزلق، ثم أخذ يضرب الأرض بقدميه فوق الثلوج المتناثرة إلى أن اختفى داخل خيمته.

وفي خضم كل هذه الشجارات في ليلة واحدة، جلس الآخرون بلا مبالة يشاهدون الشمس العملاقة تلقي بألوانها على لوحة ألوان هائلة من الثلوج. وتحولت الجبال إلى اللون الوردى والأرجواني. أما الوديان فأصبحت جليدًا أخضر اللون في تجاويها السحيقة. كانت في غاية الضخامة بالنسبة إليهم، وأسفل منهم بقليل جلس الحمالون يتلون واحدة من صلواتهم تشبه الترانيم الجنائزية. ثم نهض الرجال واحدًا تلو الآخر وانصرفوا.

وجلست كيت لبرهة وحيدة. الصوت البشري الوحيد فيما حولها كان تلك النقرات المتقطعة الضعيفة على الآلة الكاتبة الآتية من خيمة فريسك. لم تكن ذات أهمية ولكنها فقط كسرت حاجز الصمت الهائل إلى شظايا صغيرة من مثل حجمها، ثم نهضت هي الأخرى وذهبت إلى الخيمة الخاصة بها هي وبيرت. كان مستلقيًا في حقيبة نومه يحرق

إلى الأعلى في قمة الخيمة. وعندما دخلت استدار نحوها ونظر إليها بعينين مبهوتين، ثم قال: «ليس ذلك ما يعني، ولكن هل لديك أي فكرة عن سبب تصرف فريسك بجنون معي بهذا الشكل؟». عيناه كانتا في براءة المياه الزرقاء في بحيرة. كانت تلك البراءة تفزعها، ما الذي يمكن أن يفعله المرء معها، أو كيف له أن يفر منها؟ تعتقد أنه لا شيء يستطيع، ولا مفر منهما. مهدت حقيبة النوم الخاصة بها، وهي تقول: «ربما جعلته الأجواء الجبلية غريب الأطوار، إنها تفعل ذلك بنا جميعًا يا بيرت ما عدا أنت، لا يبدو أنك تتنبه لذلك».

سألها: «ولماذا عليّ أن أكون كذلك؟ أنا فقط أقوم بعمل، ولا أفهم ما شأن كل هذا بما يحدث».

قالت بعجلة: «لا شيء، لا شيء على الإطلاق».

تقبل ذلك منها واستلقى مجددًا، وبدأت تراودها أفكار خارجة، وهو يبدو نبيلًا في هيئته مثل تمثال يوناني عريق في وضع مضطجع.

قال لها بلهجة آمرة: «اقتربي هنا وقبّليني».

فقالت له محذرة: «لم أشفَ بعد من نزلة البرد».

فقال لها: «أقول لكِ اقتربي مني هنا».

ذهبت إليه بالفعل واستقبلت قبّله، ولكن عندها، تذكرت أن بيرت لا يُصاب بنزلات البرد. حتى تلك الوعكة الصحية الطفيفة لم تستطع أن تفسد جمال طلعه المثالي. تركته يضمها إليه بقوة وشعرت في تلك اللحظة بشيء من العجز مثل حشرة فوق منحدر صخري أعلى جبل شاهق.

هنا في حضرة الزمن اللامتناهي والفضاءات المتمددة ما بين الأرض والسماء في هذه الجبال، لم يعد هناك أهمية ألا تكون هناك معاشرة بينها وبيرت، رأت نفسها تنكمش في هيئة كائن بالغ الضالة بحجم الرجل الصغير في ذلك الختم الصيني الصغير الخاص بها، ذلك الجبل العاجي الضئيل كان في حقبة ظهرها، وأحياناً عندما تكون بمفردها تظل تنظر إليه وهي في حضرة بانجابات، حتى تستطيع أن تدرك ما يعنيه. لم يكن هناك وجه للرجل، كان بغاية الصغر على أن يحتوي أي تفاصيل أو علامات مميزة سوى هيئته البشرية المجردة.

يومان من التسلق الوئيد، وصلا خلالهما إلى ذلك المرتفع الضيق فوق الصهوة اليمنى المؤدية إلى بانجابات، وأخبرها بيرت بأنه بعيد جداً على أن تستطيع اجتيازه، وبينما كانوا يتسلقون المنحدر بدا لهم الارتفاع شديد البعد والصعوبة تماماً مثل ذروة الجبل، وفي الواقع كانت تلك الذروة تبدو فقط أقل بعداً من الصهوة المؤدية إلى بانجابات. ولكن الآن فوق خيامهم الصغيرة عاودت بانجابات التراجع مرة أخرى لتقف على مبعده منها. لم تقل شيئاً بمجرد أن كشف لهم بيرت أنها لا تزال أبعد مما يظنون، ولم يكن من الضروري بالنسبة إليها أن تتسلق إلى قمم أعلى.

كانت آخر برقية قد وصلتهم من روجر بريم عند سفح الجبل، أحضرها إليها أحد العدائين النيباليين، أوضحت ذلك الأمر تماماً: «الجميع هنا يتابعون أخبار البعثة بأقصى قدر من الإثارة». هذا ما جاء في البرقية. استطاعت حينها أن تتخيل بريم في مكتبه بمدينة نيويورك يعطي أوامره بهدوء: «أمر شديد الأهمية بالنسبة إلى بيرت أن يبلغ قمة

بانجابات لكي يتفادى إحباط الجماهير». كانوا جميعًا هنا فوق تلك الصهوة فوق جبال الهيمالايا من أجل الآلاف من الجماهير على بعد آلاف الأميال، في منازل قروية مريحة، أو في بيوتهم في الضواحي الدافئة، أو حتى في مسكن في إحدى المدن، الذين يجب أن يتجدد حماسهم باستمرار، وفوق كل ذلك لا يشعر أي منهم بالإحباط. كان من الضروري فقط بالنسبة إلى بيرت أن يتسلق إلى أعلى ارتفاع يتناسب مع توقعاتهم. فالمرتفعات لم تكن مكانًا جيدًا لإقامة مخيم كما كانت تبدو من الأسفل. فهي تنحدر بشكل حاد نحو الأسفل، لذلك فبداخل الخيمة ستكون الأرض مائلة بدرجة كبيرة لا تسمح بالنوم جيدًا كما لم يكن هناك ما يقيهم الرياح.

وفي اليوم الأول كانت هناك ملاحظات بشأن الرياح الموسمية المقبلة. كانت رياحًا قاسية راحت تمزق الخيام، وأخذ صفيها يعلو من خلال السلاسل والأربطة. وبدا الحمالون في حالة من الرعب والبؤس، وهم يتلقون بلا مبالاة الأطعمة والملابس الإضافية التي ناولهم إياها ريكسال، ثم استداروا وأولوا ظهورهم نحو بانجابات وهم يحدقون بياس باتجاه الوادي السحيق من حيث أتوا.

ولكنهم بعد تناول الطعام والتعرض لشمس الظهيرة التي سطعت دافئة في مواجهة الرياح، سرى النشاط والطاقة في داخلهم جميعًا، من أجل الإسراع نحو القمة. كما عجلت الرياح عزم بيرت، فالرياح الموسمية يمكنها أن تجعل الصعود مستحيلًا، قال لهم: «أنا أنوي أن أقوم بأولى محاولات التسلق في الغد».

كان كومبس مريضاً، راقداً في حقيبة نومه يتنفس بصعوبة، وقد اخضرَّ وجهه المستدير من الغثيان، كانوا جميعاً مجهدين من تأثير الارتفاع، حتى إن وزن اليد الواحدة مرفوعةً قد تجاوز ثلاثة أضعاف ما ينبغي أن يكون عليه، ولكن بيرت لم يكن مجهداً، فالآن بعد أن أصبحت بانجابات تقف أمامه مباشرة، تخلص من كل عاداته التافهة للشكوى والتذمر، مدعوماً في ذلك بقوى غريبة واثته فجأة. فتجاهل المشقة والبرد وصعوبة التنفس التي أزعجتهم كثيراً عندما كانوا يتحركون بسرعة كبيرة، حتى بعد يوم كامل من الراحة.

جلس في خيمته يضع الخطط مستعيناً بقلم رصاص وورقة، بينما يرفع عينيه نحو بانجابات، التي بدت بيضاء في مقابل سماء ما بعد الظهيرة الزرقاء الداكنة، فقال لها بلهجة آمرة: «غداً عند الفجر يا كيت، نريد أن ينتهي الإفطار قبل الخامسة، سنتحرك أنا وبراج، بروير وبلاستل وكالاواي ومايهيو. ريكسي لن يذهب معنا. أما باوم فمن الأفضل له أن يكون جاهزاً لأي فرد يصاب بأي أذى ولكي يعتني بكومبس، سوف أتولى القيادة. فلا أحد منهم يستطيع التعامل مع الجليد مثلما أستطيع أنا». كان ليتفاخر في حديث كهذا في السابق، ولكن لم يَبْدُ الآن أنه كذلك، وقد سمحوا له بكل شيء بسبب ما يقع على عاتقه مما يتوجب عليه أن يفعله». سوف آخذ حمالين من أجل ثلاثة مخيمات، براج سوف يتولى أمرهم».

وفوق خريطة فوتوجرافية لجانب بانجابات كان هناك ثلاث خيام مرسومة بعناية لتضع علامة على أماكن المخيمات. ثلاثة أيام فقط

ويكونون نائمين في آخر وأعلى واحدة منها، ومن هناك بحلول فجر اليوم الرابع سوف يقومون بآخر هجمة نحو القمة. سوف يصطحب معه أولئك الذين لا يزالون يستطيعون أن يتبعوه حتى الآن.

وعلى بعد مئات الأقدام بالأسفل في المخيم الأساسي سوف يكون جيمي فريسك ومعه الكاميرا بعيدة المدى مصوبة نحو قمة بانجابات، ومن حيث تقف الكاميرا مواجهة للسماء، سوف يقوم بتصوير بيرت وهو يتسلق ذلك المنحدر الأخير، خطوة بخطوة إلى الأعلى، وهو يتغلب بطريقة ما على ذلك الإفريز من الثلوج الذي تبين من خلال التليسكوب أنه قائم هناك، يقف فوق القمة، ينظر إلى العالم في الأسفل. لم يخطر ببال كيت أن أحداً سيكون معه هناك، دائماً كانت ترى بيرت هناك بمفرده.

في الحقيقة لم يحسنوا اختيار موقع المخيم الأساسي، فلم يكن هناك ذلك السطح الجليدي المنحدر فقط، فهو يبدو بشكل خادع منبسّطاً وأملس تحت الثلوج المثورة إذ حدث أن كتلة صخرية من الجليد سقطت فوقها وراحت تنزلق لأميال، حتى إن الرياح ظلت مستمرة في تمزيقها. كانت تجرف الثلوج من على سطح الجليد وتعصف بها على هيئة دوامات براقعة عبر أشعة الشمس ثم تدفع بها نحو خيامهم، والتي أخذت تغربلها من كل جانب مثل الرمال. كان الحمالون يئنون، بينما يرقد كومبس متأثراً بمرضه، مدفوناً تحت ذرات الثلج التي جرفتھا الرياح. كان مريضاً للغاية ليستطيع أن يجاهد خلف بيرت، فرقد يعاني المرض وخيبة الأمل، كان يقول:

«بالتأكيد أعلم أن بيرت لم يكن يستطيع الانتظار ليوم أو يومين من أجلي، لم يكن عليّ أن أفكر في نفسي، إلا أنني قد قطعت طريقاً طويلاً ممتعاً من أجل هذا».

غمغمت كيت: «بيرت يخشى الرياح الموسمية القادمة، وكل يوم له ثمن الآن».

قال لها موافقاً بحزن: «بالتأكيد إنه على حق. أليس كذلك؟».

ولكنه كان كذلك بالفعل. فبالنسبة لبيرت لم يكن يفكر في أي شيء الآن غير نفسه، طوال الليل والنهار كان منهمكاً في الإعداد للجهود الفردية الهائلة المتوقعة منه للوصول إلى القمة. أجرى فحوصاً عديدة حد الوسوسة للجبال ومعاول الثلج، للأحذية والقطع المعدنية المثبتة فيها للمساعدة في تسلق الجبال ومنع السقوط، وقضى نصف ليلته الأخيرة يتناقش مع إلمر باوم بشأن ما إذا كان عليه أن يأخذ معه إمدادات صغيرة من الأكسجين أم لا.

قرر في بادئ الأمر ألا يفعل: «بمرور الوقت سوف أتحمّل العبء الإضافي لها إلى النقطة التي أحتاجها فيها، ولكن حينها سأكون قد استهلكت من الطاقة ما يكفي لأصل إلى القمة». وبعد ذلك غير رأيه فجأة: «لا، ربما تكون هي فقط ما أحتاجه في النهاية»، وافقته بهدوء على أي شيء يقوله، وهي تتابع تعبئة المئّن المركزة في صندوق صغير مسطح والتي سيأخذها معه من أجل المرحلة الأخيرة. أصبحوا جميعاً يوافقونه على أي شيء يقوله أو يفعله الآن، لم يكن هناك أي شكاوى حتى من الحمالين، على الرغم من أن الرياح لم تتوقف، كما كان هناك

نقص في المياه. فعلى مثل هذا الارتفاع تبخر الثلوج دون أن تنصهر، ولا تكون هناك قطرات من الماء في أي مكان حتى على حافة الأنهار الجليدية. فالثلوج الجافة يجب أن تُصهر، والنيران هناك تكون واهنة بليدة.

ولكن كل شيء يمكن تحمله في سبيل الإعداد للحظة التي أتوا من أجلها. فمن أجل لحظة كهذه، يمكن لكل حياة الفرد أن تتوقف، إذ كان العالم بأكمله ينتظر هناك تحت قمم الهيمالايا الشاهقة. فعلى الرغم من أنهم كانوا يشقون طريقهم بالقرب من السماء كي يسمعوا أو يروا شيئاً من الأرض، كانوا يعلمون أنه هناك أسفل السحب التي تنتشر من حولهم مثل أرضية فضية، تلتقط أجهزة الراديو من الهواء الأنباء عن استعداد بيرت هولم ليقوم بآخر صعود خاطف له نحو القمة. والسفن تحمل البرقيات عبر البحار، والعلماء يقومون بالتكهّن بما إذا كان سينجح أو سيفشل فيما هو مقدم عليه، وفي أنحاء أميركا أعد الرجال في الروتاري والنساء في الأندية البرامج من أجل الاحتفال، أما الصحف فقد رأت أن كل الوقائع كانت مهيئة من أجل نعي بيرت هولم، في حالة ما إذا...

هدأت الرياح فجأة في تلك الليلة، وفي الصباح قاد بيرت الرجال الخمسة الذين اختارهم، وهناك أمام التجمع الصغير للخيام الخاصة بهم احتشد الآخرون من أجل توديعه، جميعه باستثناء كومبس الذي كان مريضاً جداً لدرجة لا تسمح له بمغادرة حقيية نومه. كان ذلك قبل الفجر مباشرة، زحفت كيت خارج حقييتها قبل ذلك بنحو الساعة، وقامت بإعداد إفطارها بنفسها، إذ أصبحت بالفعل معتادة على ذلك

الارتفاع وكانت قادرة على التنفس من دون جهد كبير، وقد خططت لأن تجعل من هذا الإفطار مهرجاناً صغيراً، ولكن عندما حانت اللحظة لم يكن الرجال في حالة مزاجية تسمح بذلك، وقفوا حول الصخرة المنبسطة التي أدت دورها كطاولة كبيرة تناولوا طعامهم عليها بسرعة. كان بيرت غالباً في حالة صمت تام، رأت عينيه تفحصان بحدة كل قطعة من المعدات. ثمانية من الحمالين كان من المخطط ذهابهم معهم لأقصى موقع يستطيعون الوصول إليه، اختارهم براج بعناية، فرجال نيبال معتادون على رفع الأحمال إلى ما فوق الجبل الذي يمر عبر التبت، وقفوا على هيئة نصف دائرة في صمت ينتظرون. مبكراً في الصباح بينما ما زال الظلام قائماً، نهضوا من نومهم مولين وجوههم نحو بانجابات، وهم يتلون واحدة من صلواتهم البرية. كان من الصعب الآن تصديق أن ذلك البكاء الانفعالي الغريب للآله يأتي من أولئك الرجال الصامتين متبلدي الإحساس. كان رونالد براج يقول: «من دون ذلك، لا يمكنك أن تجعلهم يشرعون في مواجهة الخطر، يجب على هؤلاء الرجال أن يتخذوا إلهاً لهم».

وللحظة ظنت أن بيرت ينوي الذهاب في طريقه دون أن يمنحها قُبلة الوداع، وبالفعل كان قد صاح برجاله، قبل أن يفكر فيها: «حسناً يا رجال، هيا تحركوا في طريقكم!»، شعرت بالتواء ثدييها من شدة الضحك، كم كان بريم ليشعر بالصدمة إذا علم بذلك! وهنا صاح جيمي فريسك به: «ألا تنوي أن تُقبّل زوجتك قُبلة الوداع يا بيرت؟». كان يقف على أهبة الاستعداد ويده الكاميرا، والآن لم تستطع أن تمنع نفسها من

الضحك، حتى إن أنفاسها خرجت مع الضحكة المريرة من بين شفتيها على هيئة ضباب خفيف فضي وبارد. توقف بيرت، واستدار آتياً نحوها بخطوات ثقيلة تطبع آثار قدميه عبر الثلج، ثم قال بصراحة وعفوية: «يا للبحيم، غالباً نسيت يا كيت».

فقال فريسك بامتعاض: «يا إلهي، يا لها من فرصة تلك التي فقدتها تقريباً!».

كان الموقف فجأةً سخيلاً تماماً، وبينما كانت لا تزال تضحك، ألقت بذراعيها حوله وعانقته ومنحته قُبلة بصدق على شفتيه، حدق فيه الحمالون التبتيون، مصعوقين من الدهشة أو حتى الذعر، وما إن رأى الرجال هيئات الحمالين على هذا النحو حتى انفجروا ضاحكين واحداً تلو الآخر، إلى أن سمعوا رجع صدى ضحكاتهم يردّها إليهم بانجابات بشكل هزلي من قلب الصمت.

فاستدار إليهم جميعاً بيرت غاضباً وصاح بهم: «يا للبحيم، ما الذي تضحكون منه يا رجال؟».

فقال رونالد براج بصوته الناعم: «إنهم لا يضحكون منك، إنهم التبتيون، لقد صدمتهم، فتقبيلك لزوجتك قبل أن تتسلق بانجابات يعتبرونه هنا تحدياً أهوج لآلهة الجبل، كان عليك أن تنكر نفسك أيها الشاب المحافظ، إن ذلك يعني حظاً سيئاً لواحد منا».

ازداد وجه بيرت المحمرّ بفعل الشمس احمراراً، ثم قال باقتضاب: «أنا لا أعلم أبداً ما الذي تتحدث عنه يا براج! هيا بنا، دعنا نذهب».

أطفأت فظاظته ضحكاتهم، واصطفوا من خلفه، براج منفرداً وبعد ذلك

بروير وبلاستيل ثم كالاواي ومايهيو في أزواج، وفي الوسط منهم كان جيمي فريسك يعمل بجد على آلة التصوير السينمائية، ولدى رؤيتها لهيئة بيرت في مقدمة الطابور المبعثر يتحرك ببطء إلى الأعلى، حاولت كيت أن تفكر أنه من المحتمل ألا تراه مجدداً، إذا لم يعد بيرت فإنها ستكون آخر لحظة لهما معاً، ويا لها من لحظة أخيرة غريبة إذن، إذ إنها لا تخصصها وحدها، بل تخص العالم بأسره، ولمرات ومرات استطاعت أن تراها تنتشر عبر ملاحق الأحد والمجلات المصورة وشرائط الأخبار: «بيرت هولم وهو يودع زوجته». الجماهير سوف تتهجد الكلمات وتجلس محدقة فيها، منهمكة في تصورها، ليشاركوهما ما استطاعوا بخيالهم تلك القبة الرومانسية، التي منحها إياها وسط قمم الجبال الشاهقة بما يكفي لأن تكون مكاناً لمعيشة الآلهة. استدارت نحو جيمي فريسك، وسألته في تهكم وأسى: «هل التقطت كل الرجال وهم يضحكون؟».

فأجابها: «لو حدث ذلك لقيمت باستبعادهم، فذلك يفسد رومانسية الصورة».

كانت شفتاه مشققتين ومتورمتين، حتى إنها لم تستطع أن تميز ابتسامته، حتى عيناه اللتان ربما تكونان مليئتين بذلك الأذى والشر الذي يتميز به، كانتا مختلفيتين خلف الكاميرا التي ما زالت مركزة على بيرت وهو يقود رجاله للأعلى.

وقفت تراقب أشكالهم وهي تتضاءل، وبمجرد أن شعرت أن بيرت استدار وأخذ يلوح لها، وبرغم أنها لم تكن واثقة من ذلك، إلا أنها

انتزعت وشاحها من حول عنقها وراحت تلوح به نحوه. وعندئذ وبينما هي تلوح له راودها شعور بأنها يراها.

وما إن استدارت، حتى رأت فريسك وقد أدار الكاميرا نحوها، وهو يصيح: «رائع! استمري، هيا استمري!».

فقالت له بعنف: «لن أستمري. توقف عن ذلك! ليس لك الحق في أن... في أن تقوم بتصويري، فأنا لست بيرت هولم».

أخفض الكاميرا مبهوراً ولاحظ أنها قد انزعجت: «حسنًا، أنا آسف، لم يخطر ببالي أنكِ ستمانعين».

أجابته باقتضاب: «بل أمانع»، ودون كلمة واحدة إضافية ذهبت إلى داخل خيمتها، وأغلقت مصراعها بإحكام، ثم جلست على ربوة جليدية تحت قطعة من الفراء استخدمتها كمقعد لها. كان شيئاً منافياً للعقل أن تشعر فجأةً هنا وعلى هذا البعد بأن الصبر والتحمل قد بلغا منها مبلغهما في شأن تلك الجماهير غير المرئية، حيث يجب أن تظل هي وبيرت يؤديان أدوارهما الحياتية أمامهم للأبد.

غمغمت في داخل نفسها بطفولية: «لا يمكنني حتى أن ألوح لزوجي، دون أن يراني الجميع!».

كان ممكناً بشكل كبير ألا يعود بيرت أبداً من هناك، فما كان في طريقه لأن يفعله هو شيء في غاية الخطورة بل وبمتهى الحماقة، ولن يحاول أن يتجنب شيئاً لسبب يرجع إلى خطورته طالما كان في حالته المزاجية التي يعيش فيها الجبال. رآته بالفعل في تلك الحالة، حيث لا

النصح ولا الانتقاد ولا حتى التعب أو الإرهاق يمكنه أن يشفيه عن عزمه، وكلما زاد الارتفاع الذي يصل إليه زاد معه امتلاك ذلك الأمر لنفسه وتمكنه منه. وعند نقطة محددة لن يستطيع الحمالون الذهاب لما هو أبعد، والرجال الآخرون سوف يتوقفون واحدًا بعد الآخر، ولكن كلما كانت بانجبات أبعد مما وصل إليه بيرت، كلما بذل كل ما لديه من طاقة كما لم يفعل من قبل لبلوغ هذا الهدف. ما الداعي، لم تكن لتفهم أبدًا مهما طال بها العمر، ما هو ذلك السحر هناك في قمم الجبال؟ ما مبعث الشعور بالرضى من مجرد تحقيق إنجاز مادي في بلوغ ارتفاعه؟ لا بد وأن تمثل بطريقة ما احتياجًا ملحًا لروح بيرت، بحيث لا يمكنها تحقيقه بطريقة أخرى.

قالت لها والدته عنه ذات يوم: «بيرت، كان دائمًا يريد أن يكون على قمة الأشياء. لم يكن يشعر بالرضى عندما بدأ يحبو دون أن يتسلق إلى قمة المنضدة إذا كانت في الغرفة، وبمجرد أن استطاع الخروج كان دائمًا يصعد فوق قمة الحظيرة، وبعد ذلك كان دائمًا فوق قمة أعلى تل. لا يخشى شيئًا، هذا هو بيرت».

لم يكن ذلك حقيقياً بالطبع، لم يكن بلا مخاوف، بل إن حقيقة الأمر أنه لم يكن يرى شيئاً آخر لتحقيقه مادياً، إلا قمم الجبال. لم يتمكن شيء آخر من أن يوقظ الخيال بداخله. تنهدت وارتجفت. يجب أن تخرج إلى الشمس، فالآن تهدأ الرياح وسوف يكون الجو أكثر دفئًا بالخارج، بعد ذلك يجب أن تذهب لترى كيف حال كومبس، ثلاثة أيام على هذا الحال يجب أن تمضي بطريقة ما قبل أن يتمكن بيرت من العودة.

خرجت ونظرت لأعلى نحو بانجابات وهي تشمخ عاليًا تحت أشعة الشمس. الوجه الشمالي كان جليديًا شديد الانحدار، درسته مع بيرت من خلال التلسكوب مرات ومرات، والجرف يرتفع فوق الآخر بفعل الجليد القديم، واللون الأزرق المخضرّ، والقرون السحيقة. تخلى بيرت عن اختياره للوجه الشمالي، ولكن الجانب الجنوبي الغربي يرتفع فوق ثنيات بيضاء ومنحدرات صاعدة ببطء، وقد اختار هذا الطريق، على الرغم من أن ما يقع بين تلك المنحنيات والزوايا الثلجية لا يمكن لأحد التكهن به. إنها تخفيه عنها الآن، فلم تستطع أن ترى شيئًا فوق بياض الثلج. وأخذ التليسكوب يتأرجح فوق مدرج القياس، ذهبت إليه ورفعته إلى عينيها وحدقت من خلاله، ومن جديد قفز إليها بانجابات. واستطاعت أن ترى السلسلة الظاهرية لسطحه تتكسر بفعل الصخور الناتئة والفجوات السوداء التي لا بد أن تكون صدوعًا عميقة، وإلى الجنوب كان هناك نهر جليدي هائل معلق، يبدو كأنه على استعداد للتحرك بمجرد صوت ينبعث في الجوار. ولكن على قدر ما استطاعت أن تبحث، لم تستطع أن تجد شيئًا من بيرت. رأت، أو تخيلت أنها رأت، علامات بالغة الصغر على أحد الأوجه الجليدية الشاهقة والتي ربما تكون قد قُطعت بواسطة معول، عندها أقرت بأنه من مسافة كهذه لا يمكنها أن ترى تلك الخطوات. بالإضافة إلى أنها كانت حديثة تمامًا. فقد أخذت بانجابات بيرت في داخلها. وأيًا ما كان، فهو بمفرده هناك الآن، ربما يصبح رجلًا آخر عندما يكون بمفرده هكذا مع جبل، ولكن حتى ما إذا كان كذلك، فإنها لم تكن لتعرف. لقد حَرَمَ عليها ذلك.

في تلك الليلة، وبشكل غير متوقع، مات هاردن كومبس. وخيم الهدوء على المعسكر طوال اليوم. الصمت بعد الرياح، الشعور بالتححر من بذل المزيد من الجهود حتى عودة بيرت، الدفء غير المعتاد لأشعة الشمس انتشر بهدوء في كل مكان. وأخذ ريكسال يذهب إلى التلسكوب مرات ومرات طالما ظل ضوء النهار باقياً، واختفى جيمي فريسك في خيمته مع آله الكاتبة، حتى كيت راحت تكتب خطابات لجايل ووالدها ووالدتها. وقد افتتحت كل خطاب قائلة: «المكان هنا خيالي فوق هذا الجبل، حتى أنني واثقة أن هذا الخطاب لن يصل إليكم». وعلى الرغم من ذلك فقد كتبت، وبعد ذلك شعرت بطريقة ما بأنها حرة وبشيء من التكاسل اللطيف، وأخذت تعبث بإحدى القصائد. كانت ملتفة حول نفسها في حقيبة نومها من أجل الدفء، ولكن مصراع خيمتها كان مفتوحاً على الشمس وكانت في غاية الراحة. وعندما كانت تفكر في بيرت لم تزل تفعل من دون خوف؛ لأن الطقس كان مثالياً. الليلة كانت تعلم بالتحديد أين يكون من أجل إقامة مخيمه. وسوف يترك الحمالين هناك غداً، باستثناء أقوى اثنين منهم، سبق لهما التدريب من قبل في بعثة فوق قمة إفريست. ووسط هذا الشعور بالراحة والدفء غرقت في النوم في منتصف النهار، وهي لا تزال تحت الشمس.

وعندما استيقظت بسبب البرد، كان وقت الشفق، وكانت الشمس لا تزال غائبة، وبرغم أنه لم يكن هناك رياح إلا أن البرودة العميقة للظلام كانت تتفجر داخل الخيمة مثل طوفان بارد. كانت على وشك أن تنهض عندما سمعت أحداً ينادي باسمها، استطاعت تمييز صوت إلمر باوم.

فأجابت: «نعم؟».

- هلا أتيتِ إلى خيمة كومبس؟ أنا قلق بشأنه.

- نعم بالتأكيد.

جاهدت للخروج من الحقيبة والوقوف على قدميها، متصلة من البرد. كان لديه مصباح يدوي، وعلى ضوءه رأيت دائرة وجهه، كأنها قُدت بخشونة وبطريقة هزلية، داخل الغطاء المغلف لرأسه، والملحق بسترته.

«لقد أصابته أزمة قلبية، وأعتقد أنه تعافى منها، ولكن مساعدة من امرأة يمكن أن تكون في المتناول. فالرجال يحسنون النية حقاً، ولكنني أحتاج يدًا مرهفة على نبضه بينما أقوم أنا بحقنه»، أجابته كيت: «سأوافيك في الحال»، ثم تبعته عبر الثلوج الخشنة وهي تطرح عليه أسئلة قلقة: «متى أصابته؟ ولماذا لم تنادني؟ يا للرجل المسكين!»، قال لها: «منذ ساعة فقط تقريباً لم تكن لدي فكرة، اعتقدت أنه يتحسن. بالطبع لم يكن ينبغي عليه الصعود إلى هنا على الإطلاق. لم يكن يجب على الطبيب في نيويورك إحضاره، قلبه لم يُخلق ليتحمل تلك الارتفاعات، كما أن الدوستاريا المنتشرة هنا في الهند لم تساعد».

صرخت به: «لم أكن أعلم أنه مصاب بالدوستاريا».

أجابها: «لا تعلمين؟ لقد أخبرت هولم بهذا الأمر. وقلت له وقتها أنني أعتقد أن قلبه قد يتوقف أثناء التسلق». قالت له: «بيرت لم يخبرني عن ذلك! أتمنى لو أنني عرفت حينها».

أجابها المر باوم: «قال إن كومبس لم يكن يحتاج للذهاب لأعلى مما يريد. وللأمانة من ناحية بيرت يجب عليّ أن أقول إن كومبس كان يقاتل من أجل المجيء، إنه يعبد بيرت، أمر غريب، ولكنني أؤمن بأن ذلك هو ما ذهب بكل القدرة على القتال من نفسه، أن بيرت سيواصل طريقه من دونه، أمر بغاية السوء، إلى جانب أن بيرت نسي أن يأتي لخيمته ليقول له إلى اللقاء. وكان كومبس يعول كثيرًا على ذلك».

لم تجب، وخامرها شعور مفاجئ بالغضب من بيرت أعجزها عن الكلام. كانا عند خيمة كومبس الآن، دخلت بهدوء. كان راقداً داخل حقيبة نومه، وقد اكتسى وجهه بلون أزرق، وبدت عليه علامات الألم، وجه صغير عادي، هكذا يبدو الآن، برغم أنه عندما كان بحالته الطبيعية كان لديه سحر ما في التعبير يجعل المرء ينسى التفاصيل الصغيرة والبشرة الداكنة. ولكنه يبدو الآن كما لو كان موظفًا صغيرًا يظل خلف الشباك. جثت كيت على ركبتيها إلى جواره. ثم نادته برفق: «سيد كومبس؟». أضاء الخيمة مشعل كهربائي، فتح عينيه ببطء، ثم قال: «مرحبًا سيدة هولم».

قالت له في هدوء: «كان عليّ أن آتي إليك قبل الآن، ولكنني كنت نائمة بتكاسل من شدة البرد. ترك بيرت رسالة من أجلك، سمع أنك كنت نائمًا عندما ذهب ولم يشأ أن يوقظك». غمغم كومبس بلسان شديد الثقل: «لم أكن نائمًا، بل كنت أنتظر، ربما عيناى كانتا مغلقتين»، قالت له: «أنا في غاية الأسف، لقد أراد أن يراك، أراد منك أن تتمنى له حظًا سعيدًا. قال: 'أخبروا كومبس أنه سيكون معي في عقلي'».

قال كومبس بضعف: «ظننت أنه... لا بد أنه قال... شيئاً، كنت أعتقد أنه ليس من صفاته أن... أن يمضي بهذه الطريقة».

قالت بوضوح: «كلا، في الحقيقة»، لم تنظر إلى المر باوم.

همس كومبس: «أشعر بالبرد».

فقال باوم: «أنا سوف أعطيك على الفور شيئاً يمنحك الدفء». ثم رفع كمّ كومبس لأعلى قليلاً، ثم نكس رأسه في ألم، فأخذت هي معصمه بين أصابعها، كان نحيفاً بشكل يُرثى له، استطاعت أن تشعر بالنبض يخفق بضعف تحت سطح الجلد مباشرة.

قال باوم برفق: «أخبريني إذا تغير النبض»، كان يحقنه بغاية البطء، كانت عينا كومبس تُغلقان من جديد ولم يستطيعا سماعه وهو يتنفس، أمسكت بمعصمه بإحكام أكثر قليلاً، واضعة في الحسبان ضعف حالته وعدم انتظامها، عندئذ خلال لحظة انتظمت، فهمست: «أصبح النبض أقوى»، انتظم فيما يشبه ضربة، أكثر طبيعية.

سحب الطبيب كمّ سترته لأسفل ثم تناول معصمه من يدها وانحنى لأسفل ليمسك به بنفسه، كان كومبس قد انزلق غارقاً في النوم، تمكنا من سماعه يتنفس الآن، أنفاساً عميقة كما لو أنه لم يتنفس حقيقة لوقت طويل.

قال المر باوم بصوت خفيض: «سوف أرسله غداً للأسفل إذا كان من الممكن تحريكه»، ثم تابع: «إن أمر هذه الأزمة لغريب حقاً، لقد بدأ يشعر بحالة أكثر سوءاً بمجرد أن رحل بيرت هذا الصباح، واعتقدت

أنها كانت مجرد تخیلات ناتجة عن خيبة الأمل والإحباط، أخذنا نمازحه حتى سكت، بعد ذلك ومنذ حوالي ساعة بدا أنه ينهار تمامًا، وظل طوال اليوم بشكل واضح كل ما يمكنه فعله هو أن يحاول فقط أن يعرقل نهايته، أنا ألوم نفسي من أجل ذلك، يجب أن ينتقل إلى ارتفاع أقل».

قالت كيت: «سوف أبقى بجانبه الليلة».

أجابها: «لا حاجة لذلك، أنا لن أغادر خيمته، وسوف أناديك إذا حدث شيء، من الأفضل أن تجدي شيئًا تأكلينه وتسترخي داخل حقيبة نومك وتبقي دافئة. وسوف ينام الآن».

وهكذا رغمًا عنها قامت لتعود إلى خيمتها. وعندما خطت قدماها خارجًا كان القمر متألقًا، حيث إنها بمحض المصادفة لم تكن قد رأت القمر منذ أن غادروا الهند، وليلة بعد ليلة كان الضباب يتكون أو أن الرياح كانت قاسية لدرجة لا يمكن معها مقاومتها لأي سبب كان، ولكن الليلة ما زالت الرياح غير موجودة، والسحب عالقة في منتصف الطريق إلى الوديان، تخترقها قمم الجبال ببياضها الإلهي الخارق من حولها. وقفوا مثلما يمكن أن تقف الآلهة، في يقظة صامتة هائلة، لكي يحدقوا في بشر لم يروهم أبدًا من قبل، ولبرهة كانت تشعر بالخوف في وحدتها التي تخرج عن نطاق الأوصاف البشرية، كانت مجرد كائن في عالم ليس عالمها، كانت تنتمي إلى تلك الآلهة العملاقة الساهرة، وفي مواجهة بانجابات كان بيرت يجاهد، دون أن تستطيع أن تتخيل في تلك اللحظة سببًا لذلك، بل إن الأمر كله بدا خياليًا فيما يشبه حلمًا معنويًا،

أن يكون واجباً عليها أن تتبع بيرت إلى هنا.

تناهى إلى مسمعها وقع خطوات على الثلج، شخص ما مر بها، كان أحد الحمالين، شاب من التبت تذكره لأنه كان يرتدي قرطاً ذهبياً ودائماً ما يضحك، ولكنه لم يكن يضحك الآن، راقبته وهو يتجه نحو الحافة الزلقة للمرتفع، عندئذ أدار وجهه نحو بانجابات، وهو يفتح معطفه الخشن المصنوع من الفراء، وقام بتعرية صدره والضرب عليه بقبضتيه، ثم رفع يده إلى أعلى رأسه، ثم انحنى وضرب رأسه فوق الجليد في المكان الذي يقف فيه، ثم أخرج من بين طيات ثيابه ثلاثة أعواد من البخور ثم أشعلها ووضعها في الثلج، كان يترنم بشيء ما على وقع أنفاسه اللاهثة، ولكنها لم تستطع أن تسمعه، راحت تنصت إلى أن استطاعت أن تلتقط اسم بيرت بلهجة تبتية ملتوية، على لسان التبتى: «بيرتو هوليم...، بيرتو هوليم...»، كان يصلي لإله الجبل من أجل بيرت هولم، أدخلها ذلك بطريقة ما في حالة من عذاب الضمير، إذ إنها لم تصل من أجل بيرت، ولكنها في ذلك الحين، لم يكن لها إله، وحتى إذا ما كان لديها، فربما لم تكن لتصلي من أجل بيرت، على الأقل ليس قبل أن تصلي أولاً من أجل هاردن كومبس، الذي هو بحاجة إلى صلاتها أكثر.

لا بد أنه كان بعد منتصف النهار بقليل، حين شعرت بضوء مسلط على وجهها فاستيقظت ورأت إلمر باوم يوجه ضوء مصباحه اليدوي عبر مصراع خيمتها، فنادت: «نعم؟». أدخل رأسه داخل الخيمة ثم قال برصانة: «لا فائدة من أن أناديك، ولكنني فكرت أنه ينبغي عليّ

ذلك، لقد مات كومبس المسكين». اعتدلت جالسة من هول المفاجأة، وفتحت رباط حقبة نومها حتى تستطيع التنفس بسهولة أكثر، بينما تابع باوم: «كان نائمًا، كنت أراقبه واعتقدت أنه قد صار على ما يرام عندما تركته لبرهة لأحضر شيئًا من خيمتي الخاصة. وعندما عدت بدا أنه كان يجاهد للخروج من حقيقته إذ كان نصف جسده خارجها، وعندئذ... مات».

فقالت: «شيء مريع أن أحدًا منا لم يكن يعلم كم كان مريضًا». قال باوم بإصرار: «أنا لا أعتقد أنه كان مريضًا بشدة، عن نفسي لم أكن أتوقع ذلك، تحت الظروف العادية كان يجب أن يكون بخير. الأمر فقط أنه ترك سقف توقعاته يعلو حتى إن خيبة الأمل التي أصابته هي ما قضت عليه، يبدو ذلك بالنسبة لك جنونًا إلا إذا كنت طبيبة، ولكن الحقيقة أن أي إنسان يمكن أن يموت غالبًا إذا شعر فقط بأنه يريد التوقف عن الحياة. يستغرق ذلك وقتًا أطول بالطبع، عندما يستطيع القلب المقاومة والتحمل. أما قلب كومبس فلم يفعل، كان على استعداد للاستسلام على هذا الارتفاع، عندما ماتت الإرادة».

لم تجب، بالتأكيد بيرت ليس مسؤولًا عن ذلك، فلم يمنحه وعودًا ولم يتظاهر حتى بذلك، لم يكن ببساطة أكثر من نفسه. كان طبيعيًا حتى أنه هذا الصباح الذي ينبغي عليه فيه ألا يفكر سوى في نفسه، وفي ذلك الجبل الذي هو بصدد أن يغزوه، لم يخطر بباله موظف صغير من أحد المتاجر والذي ابتاع منه بعض معداته.

قالت كيت: «لا أفترض أن هناك أي شيء لنفعله».

أجابها الطبيب بلطف: «لا شيء، كان هناك ضعف عام في تكوينه، وقد حاول أن يفعل أكثر مما يستطيع، وكان من المحتمل أن يقضي بقية حياته بشكل طبيعي لو أنه بقي في المستوى الملائم له، عودي إلى النوم، وسوف أتدبر الأمر حتى الصباح».

أغلق المصراع بإحكام وأمان، واستلقت كيت مجدداً داخل حقيبة نومها. لم يكن خطأ بيرت أن موظفاً صغيراً قد تبعه لأبعد مما يمكنه، فقط من أجل أن يعيش حلمه، أو أن كومبس كان بالغ الضالة بالنسبة لأحلامه، ولذلك فقد مات.

ولكنها لم تستطع النوم في تلك الليلة أو التي تلتها، بينما قضت اليوم فيما بينهما في قلق واضطراب. إن كومبس بموته قد جعل من نفسه شخصية مستقلة بذاتها، شخص انفصل عن المجموعة الذين كانت تفكر فيهم باعتبارهم رجال بيرت، والذي كان يفكر فيها باعتبارها تنتمي إلى بيرت. حتى جون بيكر منذ مشاجرته مع بيرت بدأ ينسحب مبتعداً عنها لأنها كانت جزءاً من بيرت. صحيح أنهم منحوها الكثير من التفرقة، والمساعدة الفورية بمجرد أن تتحرك، وما أكثر ما كانت تفعل، ولكنها لم تكن بعد حقيقة بالنسبة إليهم بأكثر مما كانوا بالنسبة إليها. جايل بالتأكيد كانت لتجعل من نفسها حقيقة بالنسبة إليهم. كانت لتدبر الأمر عن طريق عدد من الخدع الصغيرة التي تملكها، بحيث تجعل كل رجل منهم يشعر بأن لديه فهمه السري لها، والذي يكون خاصاً به وحده فقط، ولكنه لا يزال بريئاً، دائماً بريء، ولكن أيضاً، دائماً مع إمكانية إثارة العذاب بنار التمتع والدلال، ربما تنجرف البراءة بشكل مفاجئ.

إذ إن جايل في حالة كونها زوجة لبيرت هولم، كانت لتجعلهم جميعاً يشعرون أن في ولائها لبيرت، هناك شيء من البطولة، كانت على الفور لتدمر البعثة بالنسبة لبيرت وأن تحتفظ بهما معاً من أجل نفسها. فبعد أن تكون البعثة قد تفرقت لن يحدث أبداً أن يستطيع الرجال نسيانها، وعندما يلتقون مجدداً فسوف يقولون لبعضهم بشكل خاص: «إن حقيقة الأمر... بيننا نحن بكل تأكيد».

ضحكت كيت قليلاً من تخيلاتها لجايل. عندئذ تذكرت أن كومبس كان ميتاً، وشعرت بالخزي من نفسها. حسناً، جايل ستظل كما هي، ذلك أنها لم تكن أبداً لتضع نفسها على هذا المسطح الجليدي. كانت لتأتي مع بيرت بغاية الأريحية، ومع الكثير من الدعاية، حتى إذا ما بلغت دارجيلينج، عندئذٍ، وفي مناخ رائع، سترافقها حامية من الضباط الإنجليز في المغادرة، وكانت لتفتعل متظاهراً بمرح مشاعر الانتظار واللهفة، وتجعل من تسلق بيرت لقمة بانجابات بطريقة ما مجرد إضافة لمجدها الشخصي.

ولكن كيت ذاتها لم تأتِ إلى هنا من أجل مجدها الخاص أو في الحقيقة مجد بيرت، ولكنها أتت لأنها أرادت أن ترى بيرت فوق الجبال. يجب أن تجد نقاط قوة في شخصه من أجل نفسها إذا كانت تنوي المضي قدماً معه في حياة مشتركة. لم تستطع أن تشعر نحوه بالاحتقار، وأن تبقى معه في ذات الوقت، فقد وصل بها الحال إلى أن اقتربت من احتقاره في منزل أبيها، وكذلك في منزله والده أيضاً. لم تكن هناك أي ضرورات بطولية في الحياة العادية، كما أنه لم يكن يتسم بالبطولة، برغم أن أناساً مثل هاردن كومبس عشقت بطولته. ولكن

بانجابات كانت مفعمة بالضرورات البطولية، قاسية بما فيها من جليد ورياح ومنحدرات. كان على بيرت أن يقيّم نفسه في مواجهة القسوة الهائلة البغيضة للجبل. فإذا ما استطاع تحمل ذلك التقييم، فإنها لن تنسى له هذا أبداً.

استلقت منصة في فجر اليوم الثاني، وتناهى إلى مسمعها صوت الرياح تبدأ من جديد في زئير عميق بعيد قادم من الوديان. استطاعت أن تسمعه وهو يبدأ، تكونت عند النقطة التي ترتفع فيها حرارة نيبال لتضرب البرودة التي تتدفق للأسفل من بانجابات، والرياح تتولد من ذلك التضارب الأزلي لتهرع صاعدةً إلى أعلى مع زمجرة عنيفة، تجعل صفير حبال الشدادات يعلو ويزداد حدة. التفت حول نفسها في حقبة نومها واستندت إلى الصخرة التي وضعت لتصحيح الانحدار العام لموقع الخيام، تلك الرياح سوف تندفع إلى أعلى جانب الجبل إلى المضيق الذي خطط بيرت لقضاء ليلته الثانية به. كان الجو بارداً هنا، ولكنه مع الوقت انجرف من فوق النهر الجليدي إلى تلك النقطة، سوف تكون طعنة جليدية. بكل تأكيد إنه نوع من البطولية الذي يقود رجلاً إلى ما فوق قمة بانجابات! كومبس المسكين الذي أتى من أجل بيرت، لم يكن بطلاً لأن يأتي، ولا جون بيكر، الذي أتى من أجل أسبابه الخاصة، ولا أي من أولئك الرجال، الذين ربما أتوا لمجرد أن بيرت أتى. ولكن بيرت أتى بسبب دوافعه الشخصية التي لا تقاوم نحو قمة جبل. كان قد أخبرها ذات يوم: «عندما أضع قدمي فوق قمة جبل، فأنا أعلم أنني قد نلت منه، وعندئذ أشعر كملك».

لكي تشعر كملك! الرجال يطاردون النساء ويتغلبون عليهن من أجل ذلك الانتصار الملكي. الرجال يلقون بأيديهم إلى التهلكة من أجل اللحظة التي يذوقون فيها طعم الانتصار، وقبل اللحظة التي يُظلم فيها عدم الإدراك عالمهم، عندما يشعرون بأنهم أقوىاء كالمملوك. الرجال يدوسون على كياناتهم، يسحقونها ويطأون بأقدامهم فوقها من أجل اللحظة التي يستطيعون فيها الشعور كالمملوك.

رقدت وهي مستغرقة بكل كيائها في ذلك الجلاء اللحظي وتلك الشفافية في فهم بيرت. الهواء الهزيل استنزف مشاعرها المادية. فكانت بكاملها عقلاً فقط، يفكر ويعي ويدرك من عليائه، ومن قلب الظلمات المحيطة تلك، ما لم تدركه هي من قبل. وقد تعلمت الآن جيداً كيف تتنفس في هذه الأجواء، ليس بعمق ولا ببطء، ولكن بالأنفاس السريعة قليلة العمق التي تغذي عقلها وليس جسدها. لم تكن تحرك جسدها ما لم يكن ذلك ضرورياً؛ لأنه لم يكن هناك ما يكفي من الهواء للجسد والعقل معاً، وقد اختارت العقل. شعرت بشيءٍ من الهلوسة، وهي مقيمة على هذا الارتفاع أعلى من البشر الطبيعيين، في هذا الهواء الأكثر نحافة بالنسبة إليهم، حتى إنها اعتقدت أنها: «أقل ارتفاعاً قليلاً من الملائكة»، العالم كله يقبع في الوديان حول بانجابات، الملايين من البشر ينتظرون من أجل تقديسهم. ومن أجلهم أيضاً. وبرغم أنه لم يكن يعلم ذلك، فقد شق بيرت طريقه بالقوة إلى الأعلى خطوة تلو الأخرى. لم يكن لديها شك في أنه سيبلغ الذروة بمفرده، سيترك الباقي خلفه واحداً بعد الآخر، لم يخبرها بذلك، ولكن ريكسال فعل، بعد رحيل بيرت بعشر دقائق.

قال لها ريكسال بالأمس: «إن بيرت ذكي، لن يترك أي منافسة عندما يصل إلى القمة، سوف يحد من ذلك». كانت تشعر بنفور شديد من مشهد ريكسال بوجهه الضئيل الحقير نصف المتجمد وقد تحول لونه للأزرق، حتى أنها لم تجبه.

ولكنها أدركت الآن أنه من الضروري أن يبلغ بيرت القمة منفردًا، ضروري من أجله، وأكثر ضرورة من أجل أولئك الذين انتظروا ذلك من أجل تقديسه. موسى صعد إلى جبل نيبو بمفرده، ولكن موسى ظل هناك لمدة طويلة يتحدث إلى الإله حتى أصاب الناس التعب من الانتظار، ولأنه لا بد لهم أن يقدسوا شيئًا ما، فقد صنعوا لأنفسهم عجلًا ذهبيًا، والذي قام بذلك الدور. وبيرت لن يتوانى. فلم يخطر بباله أن يبحث فيما حوله عن إله فوق بانجابات أو في أي مكان آخر، ولسوف يجاهد إلى أقصى المنحدرات ارتفاعًا، ليقف فوقه من أجل لحظته الملكية الخاصة، بعدئذ يهبط من هناك ليطالب بما يستحق.

سقطت في نوم فاتر حيث تحولت موجات الرياح العاتية إلى ارتفاع وانخفاض في أصوات بشرية، كما تحولت الأرضية المكونة من السحب التي ظلوا يحدقون فيها يومًا بعد يوم إلى الآلاف من الوجوه البيضاء المبعثرة. وهناك بعيدًا من فوقهم جميعًا، وأعلى منها ذاتها وهي تراقب المشهد، عالقة في مكان ما في الفضاء الغامض، رأت فيما يرى النائم بيرت على مسافة غير واضحة، ولكنه كان متألقًا وعلى رأسه تاج من الذهب.

كانت الصور الفوتوغرافية غير مرضية، وظل جيمي فريسك يقضي الساعات في خيمته في العمل على تطويرها، وقد أنهكه القلق والغثيان، فلم يكن يظهر إلا أثناء تناول الوجبات. فقال وقد استشاط غضباً: «هذه الرياح اللعينة، تنفخ الثلج في كل شيء مثل التراب، والمحاليل تتجمد متصلة قبل أن أتمكن من مزجها معاً».

ولمدة يومين لم يستطع أن يفهم الصعوبة الأكبر لديه، إلى أن نادى كيت وقت الشفق من اليوم الثالث ليعرض عليها صوره، كانت جميعها ضبابية غير واضحة. رأت نفسها وهي تقبل بيرت وسط غشاوة من الحواف الضبابية، كما بدت بانجابات كأنها تتراقص.

قال فريسك شاكياً: «أكثر الصور التي أردت لها أن تكون صحيحة فقط، فسدت أيضاً، لا أستطيع التفكير في خطأ ما ربما أكون قد ارتكبته. الماكينة في حالة مثالية». أدار ذراع التدوير في آلة التصوير السينمائية وهو يتكلم، وفي الإضاءة شبه المظلمة رأوا شرراً يتطاير منها.

فصاح فريسك: «يا للشيطان!» ثم أداره مرة أخرى مع وميض لبعض الشرر الضئيل، فقالت كيت: «مثل شعري، ومثل الحرير والبطانة السفلية لحقيبة نومي، إنها الكهرباء».

فقال فريسك: «أنت محقة! لم أفكر فيها أبداً، وهذا ما يتسبب بالغشاوة. فالهواء شديد الجفاف والبرودة».

ثم جلس ونظر إليها بعجز ويأس، وهو يضع يديه المشققتين الباردتين الملطختين بالأحماض على ركبتيه المكسوتين بالفراء وقال: «لا مانع لدي في أن أخبرك أن الجبل هو ما أتيت من أجله في الحقيقة

يا سيدة هولم، اعتقدت أنني سوف ألتقط صورًا للجبل بطريقة لم يرها أحد من قبل أبدًا، لقطات ساكنة ومتحركة». انطلق صفيح حزين من بين شفتيه مع خروج أنفاسه، وعيناه مصوبتان نحو بانجابات وعندئذ وقف بانتباه وأدى التحية لبانجابات بطريقة ذكية قائلاً: «يبدو كما لو أن بانجابات ينال منا جميعًا في أقصى مكان نشعر به فيه، قتل كومبس لذلك لم يستطع أن يتسلق على الإطلاق، وبالتأكيد قد نال مني. أنا أستسلم!»، هز كتفيه وبدأ يبعد أشياءه جانبًا ثم أردف: «لا فائدة، سوف أكون مضطرًا لأن أنتظر حتى يعود بيرت».

وفي خيمته رقد هاردن كومبس ينتظر أيضًا، وقد أصبحت حقيقة نوميه هي تابوته. إلمر باوم أحكم إغلاق غطاء رأسه على وجهه، وهبت ذرات من الثلج إلى داخله وغلفته بكفن واق محكم، كانوا يفكرون فيه دون أن يفتقدوه. وظل حيًا بينهم، ذلك الرجل الهزيل، والذي بطريقة ما لم ينتبه إليه أحد. شعروا بموته وهو ميت، ولكنهم لم يشعروا بغياب كومبس الحيّ.

كيت تنتظر عبر الأيام والليالي على الرغم من أن جون بيكر أسفل السحب، يتجول بسعادة بحثًا عن الزهور. كم هو حكيم ذلك الرجل الذي ينذر قلبه من أجل ما ينمو تحت حدود خط الثلج ويجعل من أرضية بانجابات سماءً له!

غطى الجبل نفسه بالثلوج الحديثة. وبحلول صباح اليوم الرابع، وهو اليوم الذي ينبغي عودة بيرت خلاله إذا ما سارت خططه بشكل جيد، لم يكن باستطاعتهم رؤية ما يبعد أكثر من مائة قدم عن المخيم.

بينما يستمر الصراع بين رجل وجبل خلف ستار من العواصف الثلجية. تنظر كيت إلى الخارج من خيمتها ما بين المصراعين، وهي تتحدث مع ريكسال وفريسك بينما يقفان أمامها وقد سربلتهما الثلوج. فكرة الإنقاذ كانت خارج نطاق السؤال من جانبها، إلى جانب أن بيرت قد خطط أن يواصل الرجال الذين أخذهم معه طريقهم اثنين باثنين، هو وبراج دائماً في المقدمة، بينما كل من بروير وبلاستيل، وكالاواي ومايهيو يتناوبون التقدم من خلفهما، بحيث يكون هناك دائماً اثنان في حالة نشطة بما يكفي للقيام بالإنقاذ إذا ما دعت الحاجة إلى ذلك، كما ترك أوامر صارمة بالألا يتخيل أي شخص في المخيم الأساسي أنه قد يكون قادراً على تسلق بانجابات لأي سبب كان.

كانت كيت قد سألته قبل مغادرته: «ما الذي يتعين علينا فعله إذا لم تعد في غضون أربعة أيام يا بيرت؟».

أجابها ببساطة: «أنا سوف آخذ معي طعاماً يكفي لثمانية أيام. وريكسي معه طعام هنا يكفي لعشرين يوماً. انتظروا خمسة عشر يوماً، وبعد ذلك عودوا إلى البيت». كان صوته لا مبالياً، وبدت كأنها تحاول أن تفهم إذا ما كان ذلك تظاهراً بالشجاعة. في تلك اللحظة كان يفرك حذاءً جلدًا طويل الرقبة بالزيت. ثم أضاف دون أن ينظر إليها: «برغم ذلك فسوف أعود، بالتأكيد»، وقد صدقت هذا بالسهولة الكافية.

في ذلك اليوم بدا بانجابات مثل حمل أبيض تحت أشعة الشمس، والآن يلتف الضباب المتجمد على هيئة رذاذ من حولها. خرج الشاب التبتى من خيمة الطبخ وبصق ثم نظر إلى أعلى مقطباً جبينه. هز رأسه ثم

تحدث إلى فريسك ثم عاد إلى الداخل مرة أخرى. كان فريسك قد تعلم إلى حد ما أكثر من الآخرين شيئاً من اللهجة المحلية الحدودية التي كانت هي اللغة الخاصة بالحمالين.

فقال فريسك مترجماً: «إنه يقول إن بانجابات تريد أن تقتل، ويقول إن بانجابات لن تسمح لأي شخص بأن يصل القمة دون أن يكون موت أحدهم ثمناً لذلك».

قالت كيت: «كومبس المسكين مات بالفعل، وهذا يكفي على ما أعتقد».

لم يجب فريسك. ولكنه قال: «أعتقد أنني سأعود إلى المواد الإخبارية إذا لم يكن هناك ما أفعله، أستطيع أن أكتب قطعة رائعة عما يمكن أن يكون حين تجلس في منتصف الطريق إلى بانجابات، في العاشرة صباحاً بالأسفل، بانتظار عودة البطل». ثم ذهب إلى داخل خيمته، ووقفت كيت لبرهة مع ريكسال. لم تكن تحبه كثيراً مثلما كانت دائماً، ولكن عندما يتحدثان بشأن بيرت كانت تثق فيه ثقة مطلقة. سألته بهدوء: «هل أنت خائف؟».

بصق من فمه قطعة سوداء على الثلج. بطريقة ما، وحتى هنا، استطاع أن يتدبر أمر التبغ بحيث يكون لديه باستمرار ليمضغه، ثم أجابها: «أنا لن أفلق بشأنه ولو للحظة، من الصعب بشكل مريع أن تقتل رجلاً مثل بيرت، إنه يحمل حظه معه أينما ذهب». تردد قليلاً ثم تابع وقد انعقد وجهه الماكر الصغير بإحكام: «بيرت ليس لديه خيال يا سيدتي، وهذا شيء عظيم في الرجل، فهو لا يدخل في الخطر لأنه لا يراه، ولا يراه

لأنه لا يستطيع أن يتخيله، الآن أنا عن نفسي لست سوى خيال، وهذا هو السبب في أنني قلت لبيرت: 'سوف أذهب في هذا الفراء، وليس أبعد مما أستطيع'. ما الداعي؟ أنا أرقد هنا وأتعرق كرات من الجليد أفكر في الانهيارات الصخرية والصدوع والانزلاق لأسفل هذا الجبل اللعين وأنا أندحرج أمام الرياح. لن أذهب إلى أي مكان بسبب خيالاتي، بيرت لا يرى شيئاً، غير ما ينوي أن يفعله، لذلك فهو يستمر في طريقه ليفعله ويتفاجأ بشكل كبير إذا حدث له شيء». ثم ضحك دون أن يفتح فمه وتابع: «ذات مرة عندما تجرأ بيرت وتسلق برج الكنيسة انزلق وسقط في برج الجرس، لم يُصب بأذى، ولكنه جُن جنونه لأنه لم يفكر حتى في احتمال أن ينزلق، وسوف يستمر في التسلق إلى قمة بانجابات كما لو أنه سطح منزل، من غير أن يرى ما الذي يمكن أن يحدث له. وهذا النوع يكون دائماً بأمان، أقول لك ذلك».

بصق ثلاث مرات كميات متناقصة ثم ذهب إلى داخل خيمته.

وبحلول الظهيرة توقفت الرياح مجدداً ولم يتحرك الضباب. ربما كانت السحب أفضل من سماء صافية؛ لأنه مع سطوع الشمس تعلو الرياح. بالنسبة إليها كانت ممتنة للسحاب، فقد أغلق العالم من حولهم، والذي كان يتحول بشكل غريب إلى الجور والاستبداد. وصلت إلى قناعة في الأيام القليلة التي قضتها فوق هذا المرتفع المائل المعلق بين القمم الأقل ارتفاعاً من بين ذرا الهيمالايا، أن الروح لا يمكنها أن تحيا على ارتفاع شاهق. في اليوم الأول كانت منفعة بالعظمة والروعة، ثلاث عشرة قمة رئيسة ترتفع من حولها وعدد لا بأس به أقل منهم.

على هذا البعد كانت الوديان الخضراء مثل برك من اليشم غارقة في المشهد الجبلي العلوي الخلاب ذي اللون الأبيض الللوري. وعندئذ شعرت بنفسها تبدأ في الشعور بالهدوء أمام تلك الروعة. ظلت جالسة إلى أن لم تعد قادرة على احتمال البرودة، وهي تحديق هناك في المسافة ما بين السماء والأرض، حتى شعرت بالبلادة والصمت حيالها. الآن استطاعت أن تدرك معنى تلك النظرة الحمقاء للناس الذين يعيشون بين الجبال. في أي مكان في العالم يبدو بنفس الشكل. الحمالون الذين أخذوهم من آخر قرية في التبت كانت لهم نفس الأعين التي رأتها بين القاطنين في منطقة الألب. البشر لم يخلقوا للجبال.

كانت ممتنة حينئذ؛ لأن الثلج الضبابي قد صنع حائطاً هذا الصباح، بحيث أنها لم تستطع أن ترى حافة المرتفع وأن السماء قد نزلت إلى المستوى الذي تتواجد به. لم تعد قادرة على النوم جيداً. ولكنها الآن فجأة تشعر بأنها تستطيع النوم، بل كانت تتوق إلى ذلك. فالوقت يمضي من تلقاء نفسه عندما ينام المرء، ربما كانوا جميعاً نياماً، فلم يكن هناك صوت ينبعث من الآلة الكاتبة في خيمة فريسك، ولا دخان ينبعث مرتفعاً من مدخنة الموقد الزيتي المحمول في خيمة المطبخ. تجمع صغير من الخيام كان كما هو مغلف بالضباب، كما لو أنه ليس هناك أحياء يعيشون بها. زحفت إلى خيمتها الخاصة إلى أن بلغت حقيقة نومها، وسحبتها بدفء ناحيتها. وبعد أن اختفت الرياح، كان الصمت المغلف بالسحب، المليء بالثلوج، هو أحب شيء عرفته حتى الآن.

... نظر بيرت لأسفل إلى السحاب الذي يرقد تحته المخيم

الأساسي، كأنه الأرض، ظل حظه باقيًا، وعندما كان بصدد التفكير لكي يتخذ خيارًا ما بين الرياح مع السماء الصافية أو الثلج في كل وقت تخبو فيه الرياح، تلك الأرضية من السحاب الأبيض ظهرت حول الجبل لتحجب الرياح وتبعث الدفء. وارتفعت درجة الحرارة تقريبًا عشر درجات ذلك الصباح في المخيم الأخير حيث قضى هو وبراج الليلة السابقة معًا. كانت ليلة سيئة. وعلم الآن لماذا لم يحب براج، لم يكن ذلك فقط لأنه رجل إنجليزي، ولكن لأنه لم يكن يثق به. وقد اتضح له في منتصف الليل أن براج ربما يمارس معه الآن نفس الخدعة التي مارسها مع فيساداي العجوز، يستيقظ بينما هو ما زال نائمًا ويقوم بالسباق الأخير منفردًا في آخر ألف قدم. كانت القمة بلا ريب بين هذين الرجلين الآن. بلاستيل وبروير استسلما في نهاية اليوم الثاني. وأسقطت الرياح الثرموميتر للأسفل حتى اضطهرهم بروير إلى أن يصفعوه على وجهه حتى يبقى متيقظًا. وفي النهاية قال بلاستيل إنه سوف يكون مضطرًا لأن يأخذه إلى المخيم الذي أقاموه في الليلة السابقة. وقبل مساء اليوم التالي بدأ كالاواي يرى الأشياء مزدوجة لسبب أو لآخر، أما ما يهيو فقد اشتكى من إصابته بعمى الجليد. كان قد قال لهم صباح أمس بأن يبقوا في المخيم وترك لهم أغلب ما لديهم من الأكسجين. واستطاع ما يهيو أن يرى بوضوح أكبر بعد قليل من الأكسجين. ولكن لم يعد هناك فائدة من سحبه. اعتاد فيساداي أن يقول إن كل رجل له ارتفاع يناسبه، ولا يمكنك أن تجعله يذهب لأعلى من ذلك ثم تنتظر منه أي فائدة.

أما عن الارتفاع الخاص به لم يكن يعلم عنه شيئاً. ولكنه بالتأكيد كان أعلى من ثيرات. وهناك بالأعلى شعر بأن الهواء شحيح بالشكل الذي جعله حريص بشأن التنفس، ولكنه لم يشعر بالحماسة تجاهه. كان لا يزال قادراً على الشعور بتلك الخطوة الأخيرة الهائلة عندما خطت قدماه فوق أعلى صخرة. لم يكن ذلك يشبه أي شيء على ظهر الأرض. كان يلهث لأن يشعر به مجدداً. كل خطوة إلى الأعلى كانت تجعله أكثر قرباً منه.

ولكن برج كان جيداً في التسلق مثله تماماً. ولم تبدُ عليه أي علامة من علامات التعب. كان يستطيع تحمل البرد كما لم يرَ أحداً من قبل بهذه المقدرة، في الليلة السابقة قبل أن يأويا إلى الفراش ذهباً إلى خارج الخيمة لبرهة، ووقف برج ينظر إلى النجوم كأنه في البيت. بينما كان الجو جليدياً صلباً، عندما تتنفسه تشعر كأنك تستنشق شظايا منه إلى داخل رئتيك بإمكانها أن تمزقهما. ولكن برج وقف كأنما قد من جليد ولم يمانع في أن يتنفسه.

كان يقول: «لا يصبح المرء ملماً بالكائنات السماوية، حتى يتسلق الجبال». لم يكن برج يستطيع أن يفتح فمه دون أن تخرج منه الكثير من الكلمات: «اعتدت أن أفكر في أنني أعرف النجوم جيداً. والآن أعرف أنني كنت وقحاً متعجرفاً فحسب».

لم يعرف بما يجيب برج، لذا فقد لاذ بالصمت. كان دائماً بمأمن إذا ما لاذ بالصمت.

كانت النجوم معلقة هناك كبيرة كأنها ثمار القرع الضخمة من

حولهما، وقرية بما يكفي لالتقاطها. كانت كيت لتحب ذلك المشهد. نظر باتجاه المخيم الأساسي ولكن حافة الممر الجبلي حالت دون ذلك وأخفت المرتفع الأيمن من الجبل. كان يريد أن يعلم أنه على ما يرام. ولكنه كان قد أخبرها أنه سيكون بخير. كان شيئاً رائعاً منها أن تستطيع الوصول عبر الطريق إلى هذه المرحلة. ولكن لِمَ لا وهي زوجته؟ وعندما يهبط عائداً غداً فيمكنها أن تكون فخورة به على الدوام مجدداً. كان براج يقول: «من الصعب تخيل تلك الكائنات البشرية هناك بالأسفل، من الصعب أن نؤمن بكل هذه الحياة الصغيرة وما تثيره حولها، جيلاً تلو الآخر، دون أن نخرج من الوحل المحيط بها أبداً». ظن بيرت أن براج يتظاهر بالمثالية مجدداً، فالناس لا يتكلمون بهذه الطريقة إلا إذا كانوا يدعون ذلك.

فقال: «أعتقد أنني سوف أذهب للداخل»، لا فائدة من الوقوف في هذا البرد للاستماع إلى براج وهو يتحدث!

عاد إلى الداخل وهو يتساءل إذا ما كان براج قد أُصيب بالجنون. فقد سمعه هناك وهو لا يزال يتحدث، لا بل كان يغني، بصوت واضح، مرتفع بما يكفي لبدء انهيار جليدي. كانت الكلمات من لغة أجنبية ما، استطاع أن يسمعها عائدة من خلال رجع الصدى. فصرخ فيه: «أنت، أنا لا أعلم ما يمكن أن تفعله الكثير من الضوضاء هنا بالأعلى، ولا نعلم مواقع الأشياء بالتحديد، وربما بدأت ذبذبات اهتزاز تؤدي إلى انهيار جليدي!»، صمت براج على الفور. ثم قال: «صحيح»، ودخل إلى الخيمة.

لم يتحدثنا مرة أخرى. ولكن ذلك كان غريباً بما يكفي لجعله يشعر بأن برج كان إلى حد ما في حالة من اللاوعي ومن الممكن أن يفعل شيئاً مثل أن يستيقظ ويواصل التسلق بمفرده. كانت ليلة سيئة على أي حال، وقد دفعت الرياح بالثلوج إلى داخل كل شق في الخيمة. عندئذ تهاوت فجأةً. وعندما استيقظ بيرت في الصباح لم تكن هناك تلك الأرضية المكونة من السحب أسفل منهم بخمسائة قدم، ولم يكن هناك رياح. برج ما زال نائماً. نظر بيرت ملياً في ذلك الوجه الإنجليزي الطويل الرفيع، وفجأةً اندلعت نيران الغواية في رأسه. أيمن أن نفترض أنه خرج خلسة وواصل طريقه؟

في اللحظة التي فكر فيها بذلك علم أنه ينبغي عليه أن يفعلها. والآن وهو ينظر إليه، بدا له أنه لم يكن يحب برج أبداً، لماذا يجب أن يكون برج هو الرجل الذي يصل إلى القمة معه؟

برج لم يتحرك. وبدا وجهه الشاحب الطويل كما لو كان متجمداً، ولكنه لم يكن كذلك. كان يتنفس حتى ولو كانت أنفاساً بطيئة، وجال بخاطر بيرت بازدياء، أن برج عندما يستيقظ فإنه يجب أن يتناول الشاي قبل أن يستطيع أن يبدأ يومه، حتى إذا لم يكن باستطاعتهم الحصول على ماء مغلي هنا، الشاي بالنسبة إليهم كان مجرد ماء بني فاتر. وتلك السفسطة وحدها كانت مبرراً كافياً لاضطراره لأن يواصل طريقه بمفرده.

استغرق الأمر دقيقة واحدة فقط ليحسم أمره ويقوم بحزم الأشياء معاً وقد كان يعلم كيف يكون في حالة مثالية من الهدوء عندما يريد ذلك،

الآن إذن. حشر نفسه في الرداء الإضافي، وتناول الكلابات ليرتديها في الخارج، وقام بحشو جيوبه بالطعام، وفي غضون عشر دقائق كان خارج الخيمة متدثرًا بسترته من الفراء، مع ثلاث سترات من تحتها وثلاثة أزواج من السراويل، وتحت قلنسوته غطاءان إضافيان للرأس، وأصبح على أهبة الاستعداد للبدء في تسلق طويل ثابت والذي يمتد أمامه إلى بانجابات. بدا له ما يفعله الآن والذي بدؤه للتو أنه الشيء الوحيد الذي كان يستطيع فعله، كما تذكر بالإضافة إلى ذلك، أنه وبراج كانا إلى حد ما قد قررا بالأمس أن اليوم الأخير سوف يقوم كل منهما بالتسلق بشكل مستقل عن الآخر وبلا حبل واحد يجمعهما معًا، ضحك ضحكة خافتة، كان يحاول فقط أن يكون إلى حد ما أكثر استقلالاً.

كان هناك تساقط خفيف للثلوج أثناء الليل. والذي لا بد أنه حدث بعد أن سكنت الرياح. وفوق الجليد القديم تراكمت الآن منحدرات متزايدة الحدة إلى حد كبير، وأصبحت الثلوج الجديدة تقارب البوصات الثلاث عمقًا، وهو مناسب لكي تلتصق به الكلابات وتبقى متينة. ما زال الحظ يتبعه. وبمعجزة من السماء لم تنشط الرياح مجددًا، ولكن السماء كانت صافية، بعد الظهيرة سوف تمتلئ بالسحب، وبحلول منتصف النهار ربما تكون هناك ثلوج، ولكنه سوف يكون عند القمة بحلول الظهيرة، إذا ما ظل الحظ يسانده.

لم يستطع أن يرى أي علامة تدل على أن براج آت من بعده، ورغم أن الخيمة ظلت في مجال رؤيته لوقت طويل، مخروط داكن مقلوب وسط الثلوج. وبعد ذلك فقدته خلف أحد مساقط المياه المتجمدة،

وفي صعوده ما بين ذلك المسقط والجبل رأى أن أسهل طريق ليس عبر الوجه الذي كان يتسلقه، ولكنه حول قاعدته ثم إلى أعلى عبر التمرجات الموجودة على الجانب على زاوية الميل الصحيحة معها، أدرك الآن أن الوجه الناعم للجبل كان خادعاً؛ إذ إنه ينتهي في ذلك الإفريز عند القمة والذي ربما يكون من المستحيل أن يستطيع اجتيازه في الوقت الذي يحتاج فيه إلى أقصى ما يملك من قوة. أو في حالة ما إذا استمر اليوم على ما هو عليه الآن من هدوء تحت أشعة الشمس، فإن وزن ذلك الإفريز حال استمرار ضغطه على شريحة الثلج القابعة فوق الجليد الأزرق بالأسفل، ربما يتسبب في انحراف تلك القشرة الجليدية وسقوطها على هيئة انهيار جليدي. فكان من الأفضل الالتجاء إلى سطح خشن، حتى إذا ما كان ذلك يعني البطء في التقدم. وقد جال بخاطره أنه بالأمس عندما كان هو وبراج يخططان لتلك الانطلاقة الأخيرة نحو القمة، كانا قد قررا أن ذلك الوجه الشمالي المنبسط الذي يقوم بالتسلق عبره الآن هو أفضل طريق للصعود، وأنه لا يملك وسيلة الآن لكي يخبر براج أنه قد غير رأيه في هذا الشأن. ولكن براج أقدم منه في مجال التسلق ولديه خبرات عديدة وسوف يدرك بنفسه التهديدات القائمة من قبل ذلك الإفريز.

قال لنفسه: «على الأقل كان عليه أن يفهمها، وليس خطئي لو أنه لا يستطيع ذلك»، وبحلول منتصف فترة الصباح، بدأ الشعور بالبلادة الناجم عن الارتفاع يراوده، كان يسمع الرجال يتكلمون عن تلك البلادة، على الرغم من أنه لم يصب بها من قبل، ولكنه الآن بالفعل على ارتفاع

أكبر مما وصل إليه من قبل في حياته، بلاذة وثقل في القدمين، وصعوبة في التنفس، كأن وزن معوله الجليدي قد تضاعف ثلاث مرات، توقف لبرهة للحصول على بعض الأكسجين، ولأول مرة يتبين له أن براج ليس لديه أكسجين! لم يفكر في ذلك عندما كان يرفع الخزان هذا الصباح. فكر في ذلك الآن فقط على الفور، وعندئذ خامره شعور بالارتياح. إذ إن براج لن يصل إلى الاقتراب من القمة، فلماذا إذن سيكون بحاجة إلى الأكسجين؟ شعر بتحسن ثم واصل طريقه إلى أعلى.

وبحلول الحادية عشرة كان قد نسي براج، نسي كل شيء باستثناء حظه الرائع في ذلك الطقس وهو ما شكل دافعاً داخله ليواصل الصعود لأعلى ولأعلى. وبشكل غير ملحوظ بدأت البلادة تنتشر وتتوغل في داخله مثل غاز سام، ورغم أن الأكسجين كان ينعش رئتيه ويحسن أداءهما، إلا أنه لم يتمكن من تصفية ذهنه. لم يستطع تذكر الأشياء، حاول أن يتذكر وجه كيت ولم يتمكن من رؤيتها، كما نسي براج بكل معنى للكلمة، وظل لوقت طويل يحاول أن يتذكر السبب الذي أتى به إلى هنا. وخلال كل ذلك الوقت الذي شغل ذهنه فيه بتلك الأشياء، ظل يواصل التسلق خطوة تلو الأخرى، وقبل الظهيرة تمامًا كان متأخرًا بسبب وجه شاهق من الجليد الأزرق كانت الثلوج تنزل منه مشكلةً كومة عند قاعدته، وكان عليه أن يشق طريقاً لخطواته في الجليد الذي كان صلباً كالصخور من حيث العمق وكذلك نظرًا لطول العهد، وبدا كأن ساعديه عندما كان يرفعهما قد التصقا بأدواته، وكان عليه أن يلتصق بالحائط وهو يلهث بين كل خطوة وأخرى. ما زال قادرًا على التفكير:

«هذه الثلوج ناعمة حال السقوط فوقها، إذا حدث وسقطت... إنه الحظ!».

ولكنه لم يسقط. راح يزحف فوق حافة أعلى جرف ثم رقد يلهث للحظات، وهو يتذكر دائماً أن يتنفس من خلال فمه، عندئذ نظر إلى الأمام وقفز قلبه بعنف، لقد استسلمت قمة بانجابات، إذ إن الارتفاع من الموقع الذي يرقد فيه إلى الهضبة المستديرة المسطحة المؤدية إلى القمة كان هيناً كأنه أحد المروج المائلة. كان عليه فقط أن يستجمع شتات نفسه، ويترك معول الثلج لأنه كان ثقيلاً جداً، ويترك الكاميرا الخاصة به وخزان الأكسجين، أن يترك كل شيء، ويمشي عبر تلك المسافة التي تقارب المائة قدم أو ما إليها، إلى القمة. لم يكن يشعر بحالة أسوأ من تلك التي يمر بها الآن، والقمة تعلوه بقليل، إلا أنه نهض ببطء وراح يجاهد في سيره خطوة بخطوة، كانت الأثقال فوق قدميه وعلى ركبتيه وقد توقفت الدماء عن الجريان، برغم أنه لم يكن يشعر بالبرودة، ولكن المحركات الداخلية لديه كانت تقوده إلى الأمام. وصل إلى نهاية المسافة الصاعدة، وخطا فوقها مرتين، وأصبحت قمة بانجابات من تحته.

وقف يلهث وهو يشعر بشيء من الدوار، ثم بدأ ذهنه يستعيد صفاء شيئاً فشيئاً. هذا الجبل، وتلك القمة، إنها تحت قدميه، إنه فوقها الآن حيث لم يصل بشري إلى هنا أبداً. كان يفعل شيئاً لم يقم به أحد من قبل، وربما لن يستطيع أحد مجدداً؛ لأن أحداً لن يكون له مثل حظه مع الشمس والرياح مرة أخرى.

على الرغم من أن الأمر ليس حظاً بشكل كليّ، فقد كان هو إلى حد ما جزءاً كبيراً من الأمر، بكل ما كان بداخله من دوافع، والتي دائماً ما جعلته يريد أن يصل إلى القمة. وما قد وصل إليها وأصبح بانجابات الجبل الخاص به، كان حقاً يشعر كملك.

وقف ينظر حوله، عندئذ رأى الإفريز الثلجي كان في طريقه. كان مثل موجة متجمدة تنبثق في مواجهة قمة الجبل ثم تلتف مبتعدة مجدداً، وكانت هي ما يحول دون رؤيته لكل شيء بالأسفل، كانت مجرد إفريز من الثلج، ربما تنهار إلى الأسفل إذا ما دفعها وتمكنه من الرؤية من فوق حافة القمة. أراد أن يرى العالم بأسره يقع أسفل منه.

جاهد حتى وصل إليها ونظر إلى أسفل فرأى شقاً بعرض القدم حيث يلتصق الإفريز الثلجي بالحافة الجليدية التي يقف فوقها. إذا ما أعطى الثلج المتجمد ولو لمسة خفيفة فربما تسقط ويستطيع أن يرى بشكل أفضل. مد يديه يدفع الحائط الثلجي الذي كان أعلى بقليل من مستوى عينيه، كان ذلك آمناً بما يكفي، كان المكان يتسع له ليستطيع الوقوف، والذي كانت جوانب قمة بانجابات تنحدر منه بلطف إلى المنحدرات التي تركز عليها. دفع بيديه، وسمع صرير الأسطح الثلجية وهي تنفصل مع تهشم طفيف، سقطت قمة الإفريز وبدأت في الانزلاق إلى الأسفل، واستطاع أن يرى بشكل أفضل الآن، كانت شمس الظهر ساطعة فوق الحواف الثلجية الواسعة لبانجابات.

عندها، وفوق تلك المساحات البيضاء الشاسعة، على بعد مائة أو مائتي قدم أسفل منه، رأى بقعة سوداء تتحرك ببطء. براج! لا بد وأنه

براج! لقد نسي أمره تمامًا،

أخذ يصرخ: «براج! براج! احترس، انظر هناك!»، كانت الغلظة التي أصابت رأسه قد انقضت تمامًا. واستعاد نفسه كما لو أنه عند مستوى سطح البحر.

ظل يصرخ: «احترس!».

ذلك أنه، في لحظات قصيرة جدًا لم يستطع أن يدركها، بدأ الإفريز بأكمله انفصل عن الكتلة الجليدية التي تشبه الصخور التي أسفله، الشيء. ما كان يخشاه بالنسبة لنفسه ها هو على وشك الوقوع لبراج، لم يستطع إيقافه، ورأى حافة الموجة الهشة تجذب من ورائها باقي الحائط المتجمد، وبدأت تلك الكتل الثلجية تتهشم وتنزلق للأسفل، وفجأة بدا له أن جانب بانجابات بأكمله بدأ يتحرك على هيئة تجاعيد عميقة، وبعد ذلك على هيئة أمواج، ثم تحولت إلى وابل جارف من الجليد.

ظل يراقب المشهد غير قادر على تخيل ما يمكن أن يحدث عندما تضرب تلك الموجات الهائلة براج. وها قد ضربته، رأى الحافة المجمدة المنزقة للكتل الثلجية المتحركة وهي تقبض على ركبتيه، ورأى براج يدفع بيديه في الهواء لأعلى، ومعول الثلج الخاص به ينحرف بعيداً، وبعد ذلك بدأت الكتلة الثلجية الهادرة الطاحنة تغمره في مد كاسح وتجرفه معها لأسفل، أكثر فأكثر، إلى أن التقطه وأبقى عليه المسقط المائي المتجمد الذي كانا يتجولان حوله في الليلة السابقة. وظهر الوادي الصغير حيث توجد خيمتهما مثل إناء امتلأ بالثلوج إلى حافته وفاض على جوانبه مثل تجويف هائل أبيض.

وقف بلا حراك يشعر بدوار، كأن تلك الكتل المندفعة للأسفل قد أطلقت شيطاناً حبيساً في بانجابات، وسمع الزئير المألوف لهبوب الرياح. لو أنه يستطيع بلوغ الموقع الآمن للمعسكر الثاني قبل حلول الليل، في الحقيقة عليه أن يتمسك بحسن طالعته بمنتهى السرعة.

وفي أثناء الشفق الطويل على قمم الجبال كان كالاواي يطهو يخنة مع بعض الحساء فوق موقد زيتي صغير من النوع المحمول. كان هو ومايهيو ملتزمين تماماً بالتعليمات التي أملاها عليهما بالنسبة لهذه النقطة، التغيير الوحيد الذي طرأ عليهما هو أنهما قد اضطرا إلى المجيء من دون الحمالين النيباليين الذين بدأوا معهما، في منتصف النهار سقط أحدهم في صدع عميق مستتر، ولم ينقذه سوى حملة، إذ ظل معلقاً بفعل اتساع عرض الحمولة التي كان يحملها في داخل الشق الذي يزداد ضيقاً فوق الهوة السحيقة أسفل منه، وظل منتظراً دون حركة خلال الساعة ونصف الساعة التي استغرقها الأمر ليقوم الآخرون بابتكار وسيلة لرفعه إلى خارج الصدع. وبمجرد أن أصبح آمناً يقف على قدميه، تحطم الهدوء الذي كان يتحلى به وأخذ ينتحب ويرتجف ولم يستطع التغلب على تلك الحالة والذهاب لما هو أعلى من ذلك الموقع. لم يكن بوسعهما سوى إعادته مع باقي النيباليين إلى المعسكر الأول، وأرسلا معهما كل ما لم يستطع كالاواي ومايهيو حملة من معدات وأشياء.

طوال اليوم، بينما يسافران عبر نفس المسار الذي سلكه في اليوم السابق بيرت هولم وبراج كانا يفحصان المنحدرات الشاهقة بمنظارهما، وقد رأوا في مرتين مختلفتين البقع السوداء الصغيرة

الصاعدة. فقد الأولي، وبعد ذلك، بشكل غير قابل للتوضيح، فقد الثانية بعد الظهيرة بقليل. جلسا يتناقشان حول ذلك نقاشاً ضئيلاً لعدم استهلاك الأنفاس.

فقال كالواوي: «أرى أنهما أحققان ليفترقا».

وافقه مايهيو الرأي قائلاً: «الرجال عادة ما يصابون بالحماقة وتصلب الرأي على هذه الارتفاعات».

لم يجب كالواوي على هذا، كان حلقه يؤلمه ويشعر بالحنين إلى التنفس عبر منخريه، ولكن إن فعل ذلك يصبح الألم في رأسه أشد كثافة. سار متهاذياً وبداخله شعور بالامتنان من أجل تلك الخطوات المحفورة في وجه الجليد والتي بلا ريب قد شقها بالأمس معول براج. استطاع تمييز لمسات تقنية الرجل الإنجليزي المتمرس في المهارات الجبلية. استطاع بيرت أن يهزمه في قوة التحمل وفي السباق الفردي، ولكنهم جميعاً كانوا يحبون براج، على الرغم من سخريتهم منه في اختلافه عنهم، مثل رغبته في الشاي بدلاً من القهوة واحتياجه لشوكة وسكين دائماً من أجل تناول طعامه.

وصلا إلى البقعة التي وجدوها محددة بعلامة من أجلهما، وبعد أن نالا قسماً من الراحة، شرعا في إنشاء خيمتهما الصغيرة المحمولة، وتسخين مزيج اليخنة والحساء المعب. لم يكن الجو عاصفاً بشدة، ذلك أن الخيمة كانت مستترة خلف الربوة الجليدية، وبمجرد أن توقفا عن التسلق استطاعا التنفس. لاحظ مايهيو الهيئة الهزيلة لكالواوي وتعجب من مرونته. وما يبدو عليه من الهشاشة الدائمة، لكنه كان بطريقة

ما لا يُقهر. وقبل أن يستعيد ما يهيو قدرته على التحرك كان كالواي قد أشعل الموقد وبدأ يعمل على طهي محتويات العلبة المعدنية. استطاع ما يهيو أخيراً أن يستحث نفسه لانتزاعها من الشعور بالخجل، على الرغم من أنه ما زال منهكاً بفعل الإجهاد الشديد. فخرج من الخيمة ليرى مع الضوء المتناقص تدريجياً إذا ما كان هناك أي علامة تدل على بيرت أو براج. وقف لبرهة يبحث من خلال منظاره على جانب الجبل. لم يكن الجبل يمثل هذا الجمال من قبل، حيث أسبغت ألوان الشفق للشمس الغاربة فوق السحب تياراً ناعماً من الضوء فوق سطح الثلج. وبدأ بانجابات دافئاً للحظة واحدة. تحركت عيناه إلى القمة، كانت صافية مواجهة للسماء في آخر لحظات النهار. ولكن شكلها كان مختلفاً! ومن خلال المنظار لم يستطع أن يرى الطوق الجليدي الذي كلن يحيط بالقمة الأخيرة. وبدأت القمة مربعة.

صاح منادياً: «هاي، كالواي!» خرج كالواي من الخيمة وتناول منه المنظار. ثم تابع ما يهيو: «فقط أَلْقِ نظرةً على القمة».

قال كالواي بلهجة توحى بالخطورة: «يبدو أنه كان هناك انهيار جليدي»، وتبادلا النظر. ثم قال ما يهيو: «على أي حال لا يمكننا التحرك الليلة».

قال كالواي موافقاً: «كلا».

ظلا منتظرين بتردد كلٌّ في داخل عقله الرصين، هل يستطيعان مواصلة التحرك أم لا؟ لن يتمكننا من ذلك حتى بزوغ الفجر. فعاد كالواي مجدداً إلى داخل الخيمة لمتابعة اليخنة وتبعه ما يهيو.

وبين قمم الجبل في تلك البقعة الصغيرة الغير آمنة، كان ذلك الوعاء الصغير من الطعام يبدو كأنه مصدر شعورهما بالأمان. وحاول كل منهما في صمته الخاص، ألا يفكر في ذلك.

سأله كالواي: «هل المصاييح اليدوية تعمل؟».

أجابه مايهيو: «سوف أرى».

وفي اللحظة التي ينحسر فيها الضوء المنبعث من السماء مثل موجة تتقهر في سرعة وقت الجزر، تناهى إلى مسامعهما صوت صرخة من بيرت. وعندما انطلقا إلى خارج الخيمة كان يستجمع نفسه لينهض من وسط الثلوج. قائلاً: «ها أنذا»، ثم زمجر بعنف: «لماذا تتركنا كتلة كبيرة من الجليد هناك؟».

قال كالواي بلطف: «مرحبًا بيرت»، كان يعلم كيف يشعر بيرت، كان منهكًا بشدة ويمكنه أن يتشاجر مع كل شيء.

قال مايهيو: «كنا للتو نعد أنفسنا للخروج والبحث عنك».

قال بيرت وهو يلهث: «لقد وصلت إلى القمة، فعلت ذلك ...، بنفسني».

قال كالواي: «عظيم».

وصاح مايهيو: «رائع!»

أمسكا بمرفقي بيرت يقودانه إلى داخل الخيمة. وصب له كالواي كأسًا معدنية من الحساء الفاتر. ثم صب كأسين آخرين من أجله ومن أجل مايهيو. انتهوا من طعامهم، وظلا منتظرين اللحظة التي يرفع فيها

بيرت رأسه، وها قد حانت، واستنشق بيرت نفسًا هائلًا، ثم قال: «هذا جيد».

سأله كالواي على الفور: «أين براج؟».

قال بيرت ببساطة: «مات»، ثم أخبرهما بما حدث: «واصلت طريقي، وعلى أي حال لم يقم براج بالتسلق معي بالأمس لذلك اتفقنا على أن يذهب كل منا اليوم في طريقه الخاص. واصلت الصعود وبلغت القمة تقريبًا وقت الظهيرة، لم أصعد من هذا المنحدر. فعندما وصلت إلى منتصف المسافة إلى القمة، قررت الدوران من منتصف الطريق إلى الجانب الآخر حيث لم تكن مكسوة بالجليد الزلق، ولكن براج أتى عبر المنحدر، حسنًا، كنت واقفًا هناك».

توقف بيرت ليزدرد لعابه.

... لم يكن يبدو أن وقع النبأ سيكون جيدًا، أدرك ذلك فجأة للمرة الأولى. لم تتضح في ذهنه من قبل، ولكن بكل تأكيد لم يكن الأمر سيبدو جيدًا على أي حال، على الرغم من أنه لم يرَ براج أو حتى يفكر بشأنه، ولم يكن أي خطأ راجعًا إليه، بل لم يكن خطأه حتى أنه أخذ الأكسجين؛ لأنه لم يفكر في ذلك إلى أن صار بعيدًا جدًا ليعود إلى الخيمة من جديد. ولكنه كان مسرورًا لأنه ترك الخزان بعيدًا هناك بالأعلى حيث لن يستطيع أحد أبدًا أن يجده. لم يكن يشعر بالقدرة على التفكير في أي شيء هناك بالأعلى، وتلك كانت هي الحقيقة. وعلى أي حال كان الإفريز ليسقط ربما بأي طريقة. فقد كان هناك صدع مربع.

... مضغ ملء فمه ببطء، ثم ابتلعه وتابع حديثه: «لقد كان أمرًا مريعًا يا أولاد»، ثم تابع وهو ينقل بصره من وجه إلى الآخر: «ولكن ذلك الإفريز انسلخ مبتعدًا بينما كنت أنظر إليه، سقطت قطعة صغيرة، حسنًا، لم أفكر في أي شيء من ذلك، باستثناء أن الثلج بدأ يتكور ثم بدأ في السقوط، عندئذ رأيت بقعة سوداء هناك بالأسفل وكنت أعرف أنه لا بد وأن يكون برج. ظللت أصرخ وأصيح به، ولكنه لم يسمعني، ولم أستطع فعل أي شيء سوى أن أقف لأشاهد تلك الثلوج تتجمع مع بعضها وتندفع إلى الأسفل وتغطيه بالكامل، نزلت إلى الأسفل بأسرع ما يمكنني، ولكن ما الذي كنت أستطيع فعله؟ كانت الثلوج قد ملأت الوادي الصغير حيث كانت الخيمة التي قضينا فيها الليلة السابقة، ولم أستطع العثور على أي أثر له».

كانا يصدقان ما يقول؛ لأن كل حرف نطق به كان حقيقياً. وأدرك أنهما يصدقانه فيما كان يشبه النجدة والعون، وعاد وجهاهما الحزينان يحدقان فيه.

قال مايهيو: «مسكين يا برج»، ثم وضع كأس حسائه على الأرض، لم يعد يستطيع الأكل مجددًا، قال كالواي: «أمر غريب، قال الحمالون لبرج إن شخصًا ما يجب أن يموت إذا ما بلغت القمة يا بيرت، قالوا إن بانجابات سوف تقتل شخصًا ما من أجل ذلك». وبدأ وجهه الكئيب الضيق مثل زهرة قرع صفراء ذابلة.

قال بيرت بسرعة: «إنها فقط معتقداتهم، ولا علاقة لها بي».

فقال كالواي: «بالطبع لا، أنا لا أعني ذلك».

واستعد كل من كالواي ومايهيو معًا للانزلاق إلى داخل حقائب النوم الخاصة بكل منهما، قال مايهيو: «يتعين علينا أن نذهب غدًا وأن نحفر قليلًا، أليس من الواجب علينا ذلك؟ بلاستيل وبروير سوف يلحقان بنا، وإذا ما كان لديهم مؤن فيمكننا جميعًا أن نستمر في البحث. وبرغم ذلك فعلى أحد ما أن يعود إلى القاعدة ليخبرهم».

قال بيرت: «أنا سوف أعود»، كان يعلم أنه لا فائدة من بحثهم عن براج، ولكنه تركهما يفعلان ذلك إذا كانت لديهما الرغبة.

رقدوا جميعًا في صمت، كل منهم في مواجهة الآخر داخل الخيمة الصغيرة. كان النوم مستحيلًا. إذ هبت الرياح فجأة بسرعات عاتية، وأخذت تمزق الغطاء الهزيل الذي يرقدون من تحته. ما اضطرهم للاستيقاظ أكثر من مرة لإحكام ربط شدادات حبال الخيمة، وجمعوا الكثير من الصخور في شكل كومة لتدعيم الأوتاد. كانت السماء صافية تمامًا. والنجوم التي كان براج يحدق فيها في الليلة السابقة معلقة في السماء كثيفة مفعمة بالحياة مثلما كانت عندما كان ينظر إليها، ولكنه يرقد الآن تحت قاع الثلوج التي انهالت فوقه من قمة بانجابات.

قال بيرت فجأة: «كنت الغبيّ المحظوظ، كان يمكن أن أموت أنا بدلًا من براج». انتظر إجابة من أي من الرجلين، ولكنَّ أحدًا منهما لم يفعل.

وفي المخيم الأساسي كان فريسك يسلط الكاميرا على بيرت وهو يعود متزلجًا عبر المنحدر الأخير. براج كان قد علمه التزلج، ثم أنهى تزلجه بحركة استعراضية أمام الكاميرا مباشرة. وصاح قائلاً: «ها أنا ذا.

لقد وصلت إلى القمة!» صرخت كيت: «أحسنت!» بعدها، وبعد نظرة جانبية سريعة أردفت: «لماذا... أين باقي الرجال؟ هل أتيت وحدك؟». اضطر حينها أن يروي ما حدث كاملاً مرة أخرى. رواه بشكل جيد جداً، ببساطة ووضوح، تماماً كما رواه من قبل. بعد ذلك أضاف: «ليس هناك أمل، ولكنني أرسلتهم إلى هناك بالأعلى فقط لإلقاء نظرة، لديهم الكثير من المؤن، رأيت ذلك بنفسني، كما أنهم كانوا في حالة رائحة من النشاط». كانت كيت أول من تكلم، تكلمت بسرعة كأنها أرادت أن تكون أول من يقول ذلك، وقد فعلت في الحقيقة، كان لا بد أن تكون هي، قررت ذلك على الفور، والتي صاغت في كلمات ما كان يفكر فيه كل من جيمي فريسك وإلمر باوم، وحتى ما كان من المحتمل أن يفكر فيه ريكسال خلف القناع الذابل الذي لا يكف عن المضغ فوق وجهه، سألته: «لماذا لم تذهب معهم يا بيرت؟».

وقف أمامهم في سترته البيضاء، في هيئته العادية بحسب الظاهر، عندئذ، وأمام أعينهم المتسائلة بدأ يرتجف ويرتعش وبرقت عيناه. هرع إليه ريكسال، وصرخ به: «ماذا بك يا بيرت؟». لف ذراعيه حول وسط بيرت الذي انهار فجأة ناحيته. ثم قال لاهثاً: «ضعني على الأرض، أنا انتهيت».

حاولت كيت إسعافه مستخدمة زجاجة من المياه الساخنة، وأخذت تصب له الحساء والويسكي في حلقه، وهي تشعر بجسده قوياً تحت يديها. لم تستطع أن تفهم تماماً سر انهياره، كان مصاباً بعضمة الصقيع في يديه ووجنتيه، وكانت إحدى ساقيه شبه متجمدة، أخبرها بذلك

باوم، وبأنه يحتاج العناية، بالتأكيد تعرض قلبه لإجهاد هائل، ولكن باوم الذي كان يفحصه كل دقيقة لم يستطع تبين ضرر، كما لم يكن هناك أي مبرر لحالة الضعف الشديد التي ظل يرقد فيها بيرت لمدة أربع وعشرين ساعة.

وفي نهاية تلك المدة كان كالواي ومايهيو وبروير وبلاستيل قد عادوا جميعاً ومعهم النيباليون. وأبلغوهم أنه لا توجد أي علامة على وجود براج. الانهيار الثلجي ملأ الوادي عن آخره ولم يكن هناك ما يستطيعون فعله سوى الهبوط والعودة.

تلقوا خبر موت كومبس في صمت، باستثناء أن كالواي قال: «دائماً كنت أتساءل ما الذي أتى به؟».

قال ريكسال: «هذا صحيح، لم يكن جسمه قويًا بما يكفي». كان قد قال ذلك لبيرت بشأن كومبس قبلها بعشر دقائق، فقال له بيرت: «لم يكن هناك أحشاء لذلك الرجل».

فقال له: «لا يبدو جيداً منك التعليق على شيء كهذا يا بيرت».

كان ذلك في يومهم الثالث في المخيم الأساسي، واليوم الأخير لهم قبل النزول إلى أسفل الجبل، وكان بيرت في حال أفضل، قالت له كيت بلطف: «لقد مات كومبس المسكين يا بيرت»، فأجابها: «ريكسي أخبرني، يا للخيبة، أنا لم أكن أظن أن حالته كانت سيئة بهذا الشكل»، قالت كيت: «لقد ظن أنك ذهبت دون أن تودعه، وقد أخبرته أنك تركت له رسالة قبل أن ترحل».

قال بيرت من صميم قلبه: «أنا مسرور أنك فعلت ذلك، كان يجب عليّ أن أفكر في ذلك بنفسي، ولكن كانت لديّ الكثير من الأعباء».

تمكن من أن يتهرب منها بابتسامته وبإلقائه باللائمة على نفسه. كانت تعاني حالة من الاضطراب ظلت تلازمها طوال الوقت منذ عودته، بينما كان بيرت في محاولة دائمة لاسترضائها بكل ما يملك، مسرعاً في ملاقة عينيها بابتسامته. إلا أنها بفتنتها شعرت بازدياد نحوها، فشعوره بالبرد والإعياء لم يكن في طبيعته سوى حالة مزاجية سيئة، وشعوره بالمرض كان بكل تأكيد ليكون مقابلاً لشعورها نحوها. الأمر الذي جعلها تشعر بالرعب من تلك الحالة المزاجية الجيدة التي أصبح عليها. وبعد حوالي ساعة، سمعته كيت يقول لفريسك: «أنا أفكر في أن أبحث عن عائلته، وسوف أقوم بتلبية كل ما يحتاجون إليه».

كان فريسك يعتصر بيرت بحذر من أجل قصة التسلق الأخير، كان في حالة من الرعب بسبب أن بيرت لم يلتقط أي صور فوتوجرافية لتلك اللحظة، برغم أنه من عبأ له الكاميرا بالأفلام بنفسه ووضعها في جيبه قائلاً بسخرية وازدياد: «كل ما عليك فعله هو أن تضغط على الزر».

كان بيرت يجلس تحت أشعة الشمس المتدفقة إلى داخل خيمته، ونصفه السفلي داخل حقيبة نومه، ويبدو عليه الارتباك.

قال موافقاً: «أنا الأكثر غباءً على الإطلاق، ولكن مثل هذا الارتفاع الشاهق يجعل منك مجنوناً يا جيم، أنا أتذكر حين تركت معول الثلج في النهاية لأنه كان ثقيلاً جداً، كما أتذكر أنني نظرت إلى الكاميرا وأنا فيما يشبه الدوار وقتها وقلت لنفسني: 'يا للجحيم، ما هذا الشيء الذي

أحمله؟' لا بد أنني تركتها هناك أيضًا، لأنني لم أحضرها معي».

فقال جيمي بإصرار: «حسنًا، إذن، فقط أخبرني كيف شعرت وقتها على أي حال، فكر بجدية يا بيرت! لقد قضيت الصباح بأكمله وأنت تتسلق، كنت في المقدمة أمام براج، أردت أن تصل إلى هناك أولاً، أمريكا بأسرها تشاهدك. وأنت تتسلق باستماتة آخر جرف وتقف فوق القمة، ومن تحتك الجبال. لا شيء يبدو أعلى غير إفريست، وأي جبل آخر يبدو مثل كتل مسطحة من العجين. أنت تقف فوق قمة بانجابات حيث لم تطأ قدما أي بشري من قبل». مال فريسك على بيرت، يستحثه بوضع إصبع سبابته الغليظ الصغير أمام وجهه: «كيف شعرت يا بيرت؟».

أضاءت ابتسامة بيرت البيضاء الجميلة كل كيانه، ثم أجابه على الفور: «شعرت كأنني ملك يا جيم».

كانت سبابة فريسك المستحثة المصوبة نحو وجه بيرت هي أول ما لفت انتباه كيت، على الرغم من أن فريسك ذاته لم يكن على علم بذلك، إلا أن البريق الذي كان بادياً على بيرت الذي شعرت به كان حاضراً، ويوماً بعد يوم أصبحت على قناعة تامة، شعرت بها بغريزتها، ولكنها لم تستطع فهمها، أن بيرت كان يخفي شيئاً ما في نفسه.

تساءلت سبابة فريسك: «متى كانت آخر مرة رأيت فيها براج؟».

قال بيرت بصبر: «كنت واقفاً فوق القمة، ورأيتُه قادماً لأعلى عبر المنحدر الأمامي، فصرخت فيه... لا» ثم صحح لنفسه: «لم أصرخ فيه إلى أن سقط الإفريز، أعرف أنه ليس آمناً أن تصرخ إلى جوار الثلج

المتجمد، فأحياناً تبدأ الانهيارات الثلجية بمثل هذه الطريقة، ورأيت الإفريز يسقط، وعندئذ رأيت ما كان يحدث وصرخت».

وبأقصى ما فيهما من الزرقة الصافية لم ترتعش عينا بيرت، ولكن الشك نما بصورة جنونية في عقل كيت.

«لم يصرخ أولاً!» هكذا اعتملت الأفكار في ذهنها، تلك هي المسألة إذن!

كانت تجلس وقد بلغت الأفكار داخلها نقطة الانفجار الكامل، كان هذا ما يخفيه بيرت إذن! ولكنها لم تستطع الحديث معه بشأنه، ليس فقط بسبب أنه لم يكن هناك ما يكفي من الوقت في ظل الارتباك السائد مع تحرك المخيم، ولكن أيضاً بسبب أنها لم تكن واثقة من ضرورة الحديث.

فإذا كان قد صرخ منادياً براج، كما كان من المحتمل أن يفعل بشكل طبيعي، فهل من الممكن لأحد أن يلومه؟ وإذا كان قد نسي التقاط الصور، ألا يكون من المنطقي أن ينسى الخطر المحتمل جراء صرخاته، بما قد تحدثه من اهتزازات فوق قمم ثلجية متجمدة تتوازن بحساسية شديدة؟ فإذا كان في حالة دوار تحت تأثير البرد والارتفاع، فهل يمكن توجيه اللوم له؟ وإذا لم يكن كذلك، فلماذا يتكلم؟ تلك كانت الأسئلة التي أخذ ضميرها العنيد، الذي ورثته كاملاً عن والدها، يحاول أن يجيب عنها، مفترضاً أنه إذا كان قد صرخ، أو أنه لأي سبب كان، مسّ الإفريز المتجمد، فارتجّت الثلوج بفعل وزنها وسقطت وهي تجمع المزيد من الثلج أثناء انزلاقها، وأصاب براج في ذلك الانهيار

الثلجي، فإنه على بيرت أن يعلم بما فعله ويخبر عنه.

ظل هذا العبد يزداد بداخلها مثل ورم روحيّ حتى إنها لم تستطع نسيانه ليلاً أو نهاراً، وبلغ حدّاً أصبح معه فيما بينها وبين الرجال مثل تعهد غير مكتمل. تخيلت ذلك معلوماً لديهم جميعاً، على الرغم من عدم الحديث عنه، كانت تشعر بذلك بينها وبين جون بيكر، الذي كان ينتظرهم عند حدود خط الثلج. تقدمتهم بقليل، هكذا خططت، ووجدته خارج خيمته يدخن غليونه بعد الغداء. نهض من مكانه، وعلى أساريه المنفرجة ارتسمت علامات السرور.

صاح بها في دهشة: «أنتِ أولاً!» وفي غمرة شعوره بالفرح وضع يديه على كتفيها واحتضنها برفق، فقالت على الفور: «رونالد براج فُقد»، وأخبرته بالأمر في عشرين كلمة، وبعد ذلك عن كومبس. وقبل أن تستطيع إنهاء حديثها، وصل الباكون، ومن خلفهم أتى النيباليون يحملون الجسد الملتف بالبطاطين، كان هذا جسد كومبس.

شد جون بيكر على أيدي الرجال واحداً تلو الآخر، وذهب ليقف للحظات إلى جوار جسد كومبس الذي كان يحمله الحمالون وهم يضعونه أرضاً وبعد ذلك عاد إليها.

فقال لها: «كنت أزداد إعجاباً شديداً ببراج».

أجابته: «جميعنا كان كذلك».

وبعد فترة وجيزة واصلوا طريقهم إلى أسفل الجبل، لإنشاء مخيم أقرب ما يكون من الوادي. وذلك كان كل شيء. ولكنها شعرت بعبءٍ

في صمت بيرت بينها وجون بيكر، عندما رأته يتجنب بيرت بحذر، وشعرت به في قلة كلام كالواي، وفي كياسة مايهيو، وفي اقتضاب بلاستيل، وفي الانشغال الهادئ الذي واظب عليه بروير في تسجيل وتدوين التفاصيل اليومية لرحلتهم المستمرة. كما أخذ بروير على عاتقه، وخاصة أن أحداً لم يطلب منه ذلك، مهمة العناية بجسد كومبس الذي يرقد الآن داخل تابوت صيني يضمن عدم فساد، ويعادل في ثقله جذع شجرة ماهوجني. ومن خلال فهمه لأهمية ذلك، أخذ بروير الجسد المتجمد، وبمساعدة باوم قام بتعطيره وجعله جاهزاً للعودة إلى قريته في كونيتيكت حيث ينتظر والداه وصول جثمان ولدهم. كان ذلك التابوت الذي وجده في إحدى قرى التبت، يخص أحد كبار الموظفين الصينيين والذي كان على سفر للعودة إلى الديار من الهند والذي فُقد في فيضان الربيع لأحد أنهار الهيمالايا السريعة، وكان التابوت باعتباره جزءاً من أمتعته الضرورية قد ظل طافياً فوق مياه النهر إلى أن تم انتشاله وبيعه.

بدا لكيت أن جاك ريكسال فقط هو من يسلك تجاهها ذات سلوكه المعتاد دائماً، لم يطرأ عليه أي تغيير، وعلى الرغم من أنه كان يعرف بيرت منذ عهد الطفولة إلا أنه لم يكن مندهشاً من شيء، وعندئذ بدأت تساءل عما إذا كان ذلك فقط جراء التزايد في الشعور بالانزعاج أثناء رحلة الهبوط والذي جعلهم جميعاً مختلفين مجدداً. تمزقت البعثة إلى أشلاء، أصبحت النهاية قريبة وبدأ كل رجل في التفكير في نفسه وما عساه يفعل فيما بعد. ستنتهي البعثة رسمياً في بومباي. وكان بيرت

قد قرر تجنب كالاكوتا، وفي بومباي كان بانتظارهم ترحيب من نادي (أمريكا في الهند) من أجل أول أمريكي يقود بعثة استكشافية ناجحة إلى بانجابات. وبينما تلقي نظرة مستقبلية على خلفية من ذلك، رأت لحظة حتمية قادمة، أشبه بيوم الحساب، تلك التي يسأل حينها المراسلون ذوو الأقلام المتأهبة: «أخبرنا عن حادثة وفاة رونالد براج يا سيد هولم».

وسيكون عليها أن تنصت إلى بيرت وهو يروي كيف مات رونالد براج، كما سيكون عليها أن ترى عيني جون بيكر الثاقبتين الداكنتين مثبتتين على بيرت وهو يتكلم -في شك- يزن ويتخيل بذكاء حاد كل خطوة في تلك الساعة الخطيرة لانتصار بيرت. وقد حسمت أمرها في هذا الشأن، بأن قررت أنه قبل تلك اللحظة لا بد أن تنتهي من إجبار بيرت على أن يخبرها بحقيقة الأمر.

وفي الليل العميق الذي يحيط بالفندق الصغير خارج إحدى المدن على الحافة الداخلية للهند، ترتجف الحقيقة في الهواء. أصبحت الحياة قريبة، واقتربت القرى، تلك التجمعات من الأكواخ الطينية المجتثة من قلب التربة. لا مجال للتظاهر في أي شيء في تلك الأكواخ، القليل من الأثاث، لا رفاهية، لا شيء يمنع الإنسان من حياته الأساسية في الطعام والنوم والعمل وهي الأشياء الحقيقية. وفي الفندق الذي شيده البيض للبيض، كانت كيت بصحبة بيرت بمفردهما، وقد تفرق الرجال واحدًا بعد الآخر. بلاستيل وبروير اتجها شمالاً عبر التبت، أما كالواي ومايهيو فقد اتجها إلى كالكوتا للسفر بحرًا إلى الصين، بينما هرع فريسك إلى بومباي ليرسل ما بحوزته من صور عبر البريد، وكان ريكسال من خلفهم

يقوم بإنهاء البعثة، يأذن للحمالين بالانصراف، ويقوم بشحن الصناديق إلى كالكوتا، ومن هناك يتم نقلها بواسطة قطار البضائع ثم إلى السفينة. وأرسل معهم الطاهي الهندي، وهو الرجل الذي قام بخدمتهم في صمت وبإخلاص شديد، يظل واقفاً على رأس الطاولة أثناء تناولهم الطعام، ويراقبهم مثل كلب ينزعج إذا ما تحرك أحدهم، ولكنه أيضاً كان يذهب في الليل إلى بقعة غير معلومة، من اختياره الخاص، وعندئذ يتركهم بمفردهم.

وفي إحدى تلك الليالي قامت بترتيب أمر ما في قرارة نفسها، بأنها سوف تقول له من قلب الظلام المرتجف: «بيرت، أخبرني بالضبط كيف حدث الأمر». وعندئذ سوف تستطيع إجباره هنا في الهند حيث إنهما غير معروفين كلياً، وبمفردهما، وسوف تستطيع حينها أن تعرف معدنه الحقيقي، إذ إنها لم تكن بعد قادرة على استكشافه حتى الآن. فقريباً سوق تحيط به هالات المجد مجدداً، والتي سوف تغلفه بها أناس كثيرون، وربما أيضاً لن يكون بخير بعد الآن من دون تلك العبادة الذهبية التي يسبغونها عليه، ولكن الآن، وهنا، لا يوجد من يهتم من يكون، أو ماذا فعل. وأياً كان ما ينتظره فيما وراء ذلك، فإنه هنا الآن مجرد رجل أبيض عادي يمكن النظر إليه بلا أي اهتمام. كانا محاصرين خلف أسوار العزلة الشديدة للبيض وسط السود، حتى شعرت أنها لم تكن بمفردها مع بيرت سوى الآن.

وهكذا، وبمجرد وجودها معه منفردين، شعرت أن اللحظة التي تخيلتها تدنو من أن تتجسد على أرض الواقع، كيف لها أن تعرف

الوقت الذي ستأتي فيه؟ لا تستطيع أن تصف ذلك، ولكن يمكنها فقط أن تتوقعه، تستنطق حضرته، إذ إنه أتاها في ليلة جافاها فيها النوم، وأخذت تتساءل في قرارة نفسها: «لِمَ لا يكون الآن؟ وما الذي يمنع من ذلك؟ فلن تسنح لي الفرصة أن أكون بمفردي معه أكثر مما نحن عليه الآن».

وعلى الرغم من أن ذلك كان بشيرًا بدنو أوانها، إلا أن عقلها أنبأها ببرود: «إذا كنتِ تعتقدين أن اللحظة قد حانت، فإنها كذلك».

وعلى الفور قالت بصوت مرتفع من قلب الظلام، «بيرت، هل قمت بدفع إفريز الثلج؟». كان مستلقيًا بجسده على الطرف الآخر للسرير الواسع تحت الناموسية، يئن بسبب ارتفاع الحرارة، وهي ذات الأسباب التي استلقت من أجلها على الجانب الخاص بها بلا حراك أيضًا. توقف، ولبرهة لم تسمع شيئًا، غير أنه في السكون المظلم كان هناك صوت حركة سريعة وسقوط عظمة انزلقت من الحائط إلى أرضية الحجرة».

قال لها وهو يتملص من السؤال: «ماذا تقصدين، أنني دفعت الإفريز؟».

أعادت على مسمعه السؤال مرة أخرى بأناة: «عندما كنت تقف فوق القمة، هل قمت بالصراخ أو الحركة أو أي شيء يمكن أن يبدأ الانهيار الثلجي الذي قتل براج؟». كانا بمفردهما تمامًا في العالم بأسره، بينما من على مسافة غير محددة سمعت موسيقى نواح، ولكنها لم تسترِع انتباه أي منهما. كانت هناك أميال لا يعلمان مقدارها تفصلهما عن أي شيء يعرفانه، لم يستطع الهروب منها بأي نوع من أنواع التملص.

ولكنها لم تكن تعمل على البوابة الوحيدة التي يمكنه الهروب من خلالها والتي لا طاقة لها بالسيطرة عليها، كانت البوابة التي بداخل ذاته، كان بإمكانه العبور من خلالها وإغلاقها في وجهها، وكيفما طرقت عليه لم يكن ليفتح لها إلا باختياره. لذلك فهو لم يجب إلى الآن.

قالت بلطف: «أخبرني يا بيرت».

إذا احتاج أو اعترض ربما كانت لتعرف ماذا عليها فعله، كانت تستطيع القضاء على أي محاولة تدرع بسيطة، ولكن ماذا إذا كان صامتاً؟ كان صمته عصياً على الاختراق، كان بإمكانه بناؤه حول نفسه والاحتباء به بل والغوص في باطنه عميقاً. لم يتكلم، وانتظرت.

ثم قالت له أخيراً: «أعلم أنك لست نائماً».

فسألها بعجرفة، كما لو كان ينتظر منها أن تتحدث مجدداً: «وماذا إذن؟».

أجابته: «فقط سأنتظر يا بيرت».

أجابها: «نعم تنتظرين، ثم ماذا بعد؟». ضرب الوسادة بيده، ثم أدارها وعاد يستلقي مجدداً متدثراً بصمته، فقالت: «إذا كنت تنوي الصمت، فسوف يعني هذا أنك فعلتها». كان ذلك قاسياً منها، ولكن كان ينبغي عليها استعمال الأسلحة!

ردها عليها: «ليس هناك شيء من هذا، إنه يعني فقط أنني أختار ألا أتحدث».

فقالت: «إذا كنت لا تختار أن تتحدث، فسوف يعني أنك لا تجرؤ على ذلك».

نخر قائلاً: «هذا ما تقولينه».

أجابته: «هذا ما أعنيه».

لم يجب على هذا أيضاً. وبعد طول انتظار، علمت أنه سيظل صامتاً، مثل طفل عنيد كان يستمتع بقدرته على الرضا في مواجهتها. ولكنه إذا ما كان باستطاعته الهروب منها هكذا، بإمكانها أيضاً الهروب منه. وفكرت فجأة بأنه ليس عليها أن تتحمل كل هذا، كانت حرة تماماً، إذ كانت تحيا بطريقة ما قبل أن تراه، وبإمكانها العودة إلى ذاتها، كانت هناك دائماً ذاتها. لم تكن بحاجة إلى التفكير في نورمان أو في أي عودة سوى لنفسها.

قالت بهدوء وسط الظلام: «حقاً، لقد تعبت من صمتك، هل تظن أنه بإمكانك أن ترفضني بصمتك؟ ولكن الصمت هنا دليل قاطع، وهو يعني أنك فعلت شيئاً ما لن تخبرني عنه، تماماً كما لو أنك تقر به، وعندما تظل مصرّاً على ألا تخبرني، فإنك تمنعني من الولوج إلى داخل نفسك، وإذا لم يكن لي مكان في نفسك الحقيقية، فلا معنى لحياتي معك أو بقائي معك في منزل واحد. فأنت إذن مثل أي شخص عادي، رجل آخر لا أعرفه، وإذا كان الأمر كذلك، فسوف أتركك، مثلما يمكن أن أترك أي شخص عندما لا يكون هناك شيء آخر ليُقال بيننا».

شعرت به يرقد صامتاً لبرهة، كان يهضم ما تقوله ويقدر وزنه وأهميته، ثم نخر من جديد قائلاً: «أنا لا أعرف ما الذي تحدثين عنه».

قالت له: «بل تعرف، ولكنني سأعيده عليك مرة أخرى، إذا لم تجب عما سألتك عنه، فسوف أتركك في بومباي وأعود إلى البيت بمفردي، ولن تراني مجددًا، إذا ما استطعتُ ذلك». أمسك بذراعها في الظلام. «كيت، أنت مجنونة! لا يمكنك أن تقولي ذلك، أنتِ زوجتي!».

– أنا لست زوجتك إذا كنت ترفض الحديث إليّ.

– أنتِ زوجتي مهما كان ما أفعله.

قالت بإصرار: «أوه، لا، لست كذلك يا بيرت».

وساد صمت طويل آخر. ورغمًا عنها أخذت تفكر في لي لي.

انفجر بيرت صارخًا بصوت مرتفع: «اللعة على النساء، على أي حال، إنهن جميعا سواء، ليس لديهن غير الشكوى، والشكوى، ثم يتدخلن فيما ليس من شأنهن، وبعد ذلك يعطلن الرجل عما يفعله!». كان يفكر في لي لي هو أيضًا، إلا أنها كانت قاب قوسين أو أدنى من اتخاذ قرار ما بشأنه، كلمته التالية سوف تبلور كل ما يتذبذب في داخلها. الاشتمزاز والضجر والفهم العميق لطفوليته الخالدة، كانوا الأقرب لعقلها مثل قالب مُعدّ مسبقًا. عندئذٍ أتاها صوته مليئًا بالاضطراب والتبرير: «ما الذي تريدني مني أن أخبرك به يا كيت؟». بقي القرار إذن مؤجلًا لبرهة. أجابته: «الحقيقة فقط»، استطاعت أن تنتظر للحظات أخرى. وفي النهاية أتى صوته مجددًا، ولا يزال مترددًا ذليلاً: «أنا لم أفعل ما يبدو أنك تظنين أنني فعلته يا كيت، أقسم بالله، حسنًا، الحقيقة هي أنني نسيت أمر براج، تركته نائمًا».

سألته: «ولماذا تركته؟».

أجابها: «حسنًا، كنا نتسلق كُلاً منا بمفرده في اليوم السابق، وقد أخبرتك بذلك، قال إنه يمكنه أن يفعلها بشكل أفضل بنفسه، وكذلك كنت أنا أيضًا، لذلك مشيت عندما أردت ذلك. قمنا برسم خارطة للطريق في اليوم السابق على أي حال».

- ولكنك ذهبت من طريق آخر.

- كان يستطيع أن يفهم ذلك عندما يصل إليه.

سألته بضغط: «وهل استطاع أن يصل إلى هناك؟».

خرجت الكلمات من فمه بشيء من الغضب: «لا، ولكنني لم أكن أملك شيئًا، أليس كذلك؟». توقف مجددًا وبعد برهة اندفع قائلاً: «لم أكن أستطيع أن أرى فيما وراء الإفريز، لذلك لمست قمته لمسة خفيفة، وهذا كل شيء، لم أكن أقصد أي شيء غير ذلك. عندئذ رأيت برج. وصرخت ناحيته لأحذره، ولكنه لم يسمعني. وبدأ ذلك الثلج اللعين يلتف ويتكور مثل بطانية ثم بدأ في السقوط. كان كل شيء سريعًا بالنسبة لي على أن أستطيع فعل أي شيء».

اعتقدت بحزن أنه ربما كانت هذه هي الحقيقة. كانت تبدو حقيقية، غالبًا كانت الحقيقة كذلك، ولم تكن أكثر وضوحًا من قبل عن أي شيء آخر على أي حال. إذن فقد دفع الإفريز، ولكنه لم يقتل برج.

لم يكن ليفعل شيئًا مما كانت تخشاه. ولكنه ببساطة كان مثل طفل، فعندما وجد حائطًا أمام عينيه والذي كان يريد أن يرى ما وراءه، دفع

ذلك الحائط بعيداً، قتله إذَنْ لبراج كان مجرد حادثة، في الحقيقة كانت الحادثة هي حماقته، ولم يكن يمكن توجيه اللوم إليه بسبب حماقته بأكثر مما يمكن بالنسبة لطفل بسبب نقص أحد أعضائه أو جوارحه عند ولادته. سألته: «ولماذا لم تذهب عندئذ للأسفل لتستكشف ما إذا كنت تستطيع مساعدة براج؟». أجابها بسرعة كطفل يريد أن يكون صالحاً بعد أن اكتشف خطئه: «بأمانة يا كيت، لم يكن لذلك أي فائدة، أنا عن نفسي كنت نصف ميت. فعندما تكونين بالأعلى هناك مثلما كنت أنا لا يمكنك التفكير، لا يمكنك حتى الحركة، تشعرين بالاختناق. كان لديّ فقط من العقل ما يكفي لكي أعود بنفسني إلى المعسكر للأسفل. وعلى أي حال رجل واحد لم يكن يكفي لفعل شيء جيد، وبمجرد أن استطعت التفكير أرسلت أربعة منهم للبحث عنه. ولكنك تعرفين أنه حتى وقتها لم يستطع أي منهم العثور على شيء».

كانت مضطرة دون إرادتها إلى تمييز ذلك أيضاً، كحقيقة.

سألها: «هل هذا هو كل مل تريدين معرفته يا كيت؟».

أجابته بعد لحظة: «أفترض ذلك».

فقال كمن يدافع عن نفسه: «أنت تفهمين كيف حدث كل شيء الآن، أليس كذلك يا كيت؟».

قالت مجدداً: «أفترض ذلك أيضاً».

كان القرار قد تراجع مرة أخرى إلى مخبئه في داخل كيانها، فكيف يتخذ المرء قراراً بشأن طفل، حتى إذا لم يكن طفله؟

ضحك مع شعوره بالغوث والارتياح: «يا للمسيح، كبت، لا يبدو الجو شديد الحرارة كما كان، أظن أنك رفعتِ حرارتي جدًا لدقيقة». دحرج نفسه إلى جانبها ولف جسده الضخم حولها وهي ترقد بجسد مستقيم على فراش مغطى بالحصير. ثم غمغم عند رقبتها: «أعتقد أنه يمكنني الذهاب للنوم الآن».

وكطفل، غرق في نوم عميق، غالبًا في الحال. فعندما أزعجت ذراعه عنها كان ثقيلًا بتأثير الغياب عن الوعي والشعور بالراحة. ولكنها كانت مستلقية في محيط الليل، وقد ولّت وجهها نحو العرين وذلك الوحش الذي تراجع للتو ليأوي إليه، ظلت ناظرة إلى ذلك الوحش بثبات ساعة تلو الأخرى، ولكنها لم تكن تقترب باتجاهه، ولا هي تشجعه على الاقتراب منها، لم تستطع أن تقرر شيئًا بعد، بل إن القرار في الحقيقة قد أصبح أكثر ضخامة وأكثر صعوبة بشكل لا متناه، فلم يعد الأمر الآن ما إذا كانت ستترك بيرت أم ستبقى معه، بل أصبح هكذا: هل يستطيع المرء أم لا -وبما يحافظ له على الصورة المشرفة- أن يترك طفلًا؟

كان صباح اليوم التالي مثل كل صباح، فالليل لم يَدُم أبدًا مع بيرت، كل يوم هو ذاته، جديد وبلا ذكريات. رآته ينظر إليها ليعلم أنها كانت ما يسميه (على ما يرام) فيما يعني أنها لم تعد تملك أي تساؤلات في نفسها بشأنه. تناولا إفطارهما في غرفة الطعام الصغيرة القاحلة. حيث كان الطاهي الهندي قد وجد في مكان ما بيضًا وبعض الفواكه الذابلة، كما حصل على البنّ واللحم المقدد من متاجره وصنع بعض الشطائر، حتى إنه كانت هناك علبه من مربى المارمالاد التي كان أحد رواد الفندق

من الإنجليز قد تركها مع مدير الفندق، والذي أعاد بيعها مرة أخرى من قبيل توفير النفقات.

تناول بيرت كميات هائلة من الطعام، منتعشاً بعد النوم، وتناولت كيت طعامها وهي نصف منصّة إلى حديثه، الكثير من الحديث هذا الصباح!

«كنت أقول يا كيت، ما رأيك في أن نأخذ إجازة قصيرة في أوروبا؟ لديّ حدس ما أود أن أراه». ومن أسفل السطح كان عقلها يعمل بمثابة على مشكلته، ينقّب عن مواد تم دسها في الأعماق منذ زمن طويل ويستخرجها كي تساعده فيما هو منهمك فيه الآن. وسواء كان بريئاً أو مذنباً، ما الذي ينبغي عليها أن تفعله في شأن بيرت؟

فكل الرجال أطفال، هكذا كانت تقول والدتها، وأن على النساء دائماً تمييز ذلك وإدراكه، فمن حسن الطالع أن النساء بطبيعتهن مفعمات بالأمومة، ولديهن القدرة على إدراك ذلك، بل وحتى الاستمتاع به. «إنه فقط مثل صبيّ»، هذا ما تقوله النساء كلما عشقن أحدهم، ويقولهن ذلك، فإنهن يُنزلن الرجال إلى أكثر مرتبة يحبونها ويستطيعون فهمها، مرتبة الأطفال!

ولكن كيت تعلم منذ زمن طويل أنها لا تملك نصيباً من الأمومة. فلم يكن لديها الحنين ولا الرغبة في أن يكون لديها أطفال، كانت تحب أطفال جايل، خاصة الولد الأكبر، ولكن ليس لأنهم أطفال، أو بالأحرى على الرغم من كونهم كذلك، كانت تحبهم كأشخاص، وسوف تحبهم بشكل أفضل عندما ينضجون أكثر مما هي ذاتها عليه الآن. ولو أن لديها أطفالها فلم يكن الأمر ليختلف عن ذلك، فسوف تحبهم أو لا تحبهم

أيضاً كأشخاص. وما جعلها تُبقي على علاقتها بنورمان -إن كانت كذلك بالفعل- كان حقيقة أنه إنسان راشد بقدر ما كانت هي نفسها كذلك. كان مبعث تفوقه عليها يكمن في قوته، وهو ما كان في جزء منه تفوقاً مادياً، أنه لم يكن يقترب منها قط كطفل. لم يكن يريد أو يبحث عن مداعبتها له مثلما يفعل بيرت. أما عن اشمئزازها من بيرت، والذي أصبحت الآن تتقبله بكل وضوح وصراحة، فلم يكن أبداً أقوى من تلك اللحظة في الليلة السابقة، عندما أخذ بيرر موقفه مضطرباً ثم لجأ إليها ليضع رأسه على نهديها ويكوّر جسده تجاه جسدها. ما حدث هناك كان أشبه بزنا المحارم على المستوى الروحي، وهو ما تعافه بكل ذرة في كيائها. كان شيئاً خبيثاً أن تعيش مع طفل كما لو أنه رجل، ماذا إذا ما كان بيرت عندئذٍ طفلاً؟

وهنا وثب الوحش من قلب عرينه مسدداً طعنة.

فقالت له: «انتظر، لست جاهزة لأحسم أمري بعد».

سمعت مجدداً صوت بيرت والذي كان لا يزال يتكلم: «أود أن أذهب إلى إيطاليا وألمانيا يا كيت، لا أعرف لماذا. ولكن لديّ شوق كبير لأن أرى هذين الرجلين الكبيرين هناك اللذين يديران العرض، وأريد أن أعرف كيف وصلا إلى القمة بتلك الطريقة».

غمغمت: «جبابرة طغاة!».

سألها بيرت متعجباً: «حقاً... كيف استطاعا فعل ذلك؟ إنهما يتحكمان في الناس ويستطيعان تحريكهم»، فسأله كيت: «ولماذا تهتم بذلك؟».

أجابها ضاحكاً: «لا شيء، كنت فقط أود أن أعرف الخدعة، هذا كل شيء».

سألته: «هل تريد أن تتحكم في الناس وتقودهم يا بيرت؟».

أجابها: «حسناً، ربما كان هناك بعض المتعة في ذلك».

ولكن قبل أن يكون لديها من الوقت ما يكفي للتفكير كان تَوَاقاً ومتعجلاً ليتخذا طريقهما.

– هيا بنا يا كيت، دعينا نبدأ التحرك، كم تزعجني العودة للحضارة والمدنية من جديد.

وفي أقل من ساعة كانا في طريقهما مجدداً داخل السيارة المتهالكة اللاهثة التي قاما باستئجارها لتقلهما إلى بومباي. فكان لديها وفرة من الوقت للتفكير أثناء قيادتهما للسيارة عبر الطرق الريفية. وقد أخذت الخضرة المنتشرة في شمال الهند في التلاشي والتحول إلى الرمادية بمجرد وصولهم إلى الجنوب، إذ تأخرت الأمطار هذا العام، ولكن اللون الرمادي كان مناسباً تماماً للحالة المزاجية التي كانت تمر بها وهي على أبواب ما يُدعى بالمدينة. وهكذا، رجال ونساء بيض، وفندق في بومباي، وبعد ذلك السفن وأوروبا والوطن. عندما فكرت في كل ذلك الذي ينتظرها باعتبارها السيدة بيرت هولم، فرّ القرار متقهقراً مرة أخرى. كان من المستحيل أن تتخذ قراراً بشأن أي شيء باعتبارها كيت تالانت، إذ كانت هناك دائماً السيدة بيرت هولم، لتضعها محل الاعتبار.

الفصل الثامن

«السيدة بيرت هولم». «هل هذه هي؟». «هل هذه زوجة بيرت هولم؟».

فرّت هاربة، ومن خلفها تسمع صدى صوت المذياع الداخلي للفندق يردد اسمها في البهو الرئيس: «السيدة بيرت هولم، السيدة بيرت هولم!»

انعطفت إلى ممر جانبي، ومنه إلى آخر، لا تفعل شيئاً سوى العدو، ثم وجدت سلماً خلفياً ضيقاً، وراحت تعدو عبره حتى أدركت الممر المؤدي إلى غرفتها الخاصة ودخلت إليها وأغلقت الباب.

وحتى مع ذلك، وعلى الرغم من أنها كانت آمنة تماماً هناك، إلا أنها استغرقت على الأقل خمس دقائق لتستطيع التقاط أنفاسها. كم هو سخيف أن تعدو بهذه الطريقة، إنهم مجرد بشر! إلا أنهم بدوا بالنسبة إليها فجأةً في هيئة مروعة، وهي للتو عائدة في غاية النقاء من الجبال.

إذ داهمها الرعب فجأة، ولم تستطع أن تفعل حياله شيئاً سوى الهرب. برغم أنه كل ما كان عليها هو أن تتوقف وتبتسم وتتقبل التحيات. جايل كانت لتفعل ذلك ببراعة مثالية. ولكن نظراً لكونها في الأعماق فقط ما زالت كيت، فقد سارعت بالعدو مبتعدة. كانت ترتجف كما لو أنها تشعر ببرد شديد، وحين تفكر بشكل عاطفي، كانت تشعر بالمقت تجاه جميع الناس. فقد خلقت لتكون وحيدة...، على الأقل، وليس لتكون لعبة بين أيدي الجماهير المتعطشة. وكما أصبحت تعلم جيداً الآن، فهي أيضاً لم تُخلق أبداً، أبداً، لتكون زوجة لبيرت!

لم تستدر نحو الصوت الآتي من باب الغرفة، وشعرت وهي تقف بمواجهته أن الواقف أمامها ليس بييرت، وإنما مجرد رجل غريب منفعل اقتحم غرفتها. جعلته الناس غريباً بالنسبة إليها مرة أخرى. وأحست به من خلفها كأنها سجينه بين ذراعيه الهائلتين، مقيدة إليه، كأن قوة خفية تحاول جذب وجهها لتعيده نحو شفتيه. لقد أصبحت بمنأى عن الغربة، رافضة لكل محاولات السيطرة، وسوف يظل على الدوام شخصاً غريباً بالنسبة إليها.

سألها: «ماذا بك؟».

أجابته: «فقط لم أعد أتحمل كل هؤلاء البشر مرة أخرى».

ضحك وأخذ براحة يدها ووضعها على وجنتيه، ثم هتف: «إذا كان هذا هو كل شيء»، ثم وضع يديه على كتفيها.

كان قريباً منها إلى درجة لا تُطاق، بل كان مريعاً بالنسبة لها. لم تستطع كبح جماح شعور ما بداخلها نحوه، لم يكن حقداً أو مجرد

كراهية، بل هو شيء أبعد من ذلك وأكثر عمقاً من الكراهية البسيطة، كانت تملؤها مشاعر المقت والاشمئزاز تجاهه، وكانت تلك المشاعر تروّعها.

همست إليه: «لا، توقف! لا أريدك أن...»، تجرعت الكلمات مرة أخرى، وأخذت تحاول الكتمان أكثر وأكثر.

قال لها ببطء: «ماذا بك بحق الجحيم؟ انظري إلى نفسك، هناك شيء مضحك في تصرفاتك، لماذا لم تبقي معي هناك؟».

قالت بسرعة: «كنت أنوي ذلك»، كيف لها أن توضح له أنه كان عليها الهرب منه نفسه؟ «ولكنني... كانت الحشود مخيفة، أليس كذلك؟».

قال لها: «إنها فقط الجماهير»، ظل يحدق فيها، ثم تابع: «كيت، أنتِ تقومين ببعض الأفعال المضحكة تجاهي، لماذا لا تقبّليني؟».

بدأ الغضب يتسلل إليه رويداً، إذ أبصرت الدماء تتصاعد عبر أوداجه، فقالت بتوسل: «انتظر! أعطني دقيقة فحسب!».

«شيء لطيف لتقوليهِ لرجل!»، لم تستطع أن تتكلم. فقد أصاب حلقها الجفاف.

فصرخ فجأةً: «كان من الممكن أن أموت أنا أيضاً مثل براج! أنتِ تجعليني أشعر أنكِ تمنيتِ لو أنني كنت مكانه!» ظل واقفاً أمامها، واضعاً يديه في جنبه يحدق فيها، عندئذ رأت عيناه مغرورتين بالدموع، لم يدم شعوره بالغضب من قبل لأكثر من لحظة، فتمنت أن يفعل، إذ

كان تحملها لغضبه أكثر يسراً بالنسبة إليها من تحمل دموعه.

قالت له: «لا تبك! انتظر!».

استدارت ناحية النافذة ووقفت تنظر خارجها، ما هذا الذي بدأ يخرج من داخلها، يجرفها في تياره لتمضي قدمًا، يجعلها تشعر بدوار كثيف، يجعلها تقول أشياء لم تخطط لها أو تفكر فيها أو حتى تعلم أنها تشعر بها؟ ولكنها في غضون دقيقة سوف تكون على ما يرام، دقيقة فحسب، من أجل السيطرة على نفسها.

عاد يقول: «ما عدت تحبيني ثانيةً. لقد عرفت ذلك منذ تلك الليلة في الفندق».

أجابته: «صه! انتظر!».

قال: «لا يعنيني أي شيء في العالم إذا ما عدت تحبيني»، لم تستطع أن تجيب، وهو يواصل حديثه: «عندما كنت واقفًا هناك فوق قمة الجبل، وأنا الوحيد الذي فعلها، أقف متجمدًا في ذلك البرد الذي كان يقطع جسمي مثل السيوف، نصف ميت بعينين متقرحتين متألمتين حتى إنني كنت أرى بصعوبة، وكل ما كنت أفكر فيه كانت اللحظة وأنا أخبرك أنني فعلتها ووصلت القمة». كانت شفاته ترتجفان، وقد بدا له الآن أن ذلك هو كل ما كان يفكر فيه فوق قمة بانجابات.

أدارت ظهرها نحو النافذة مولية وجهها نحوه، وكل خلية في جسدها ترتجف وتقلص. أين تذهب الدماء حين تغادر اللحم هكذا؟ - ولكنني... لم أستطع البقاء معك بسبب كل تلك الحشود.

أخذ صوته نبرة المظلوم وهو يقول: «نعم، ولكن يا كيت، الناس تحب أن ترانا معاً!»، كانت تشعر بالكراهية حتى تجاه نفسها. فالأشياء القليلة التي تعلمت ألا تلاحظها منذ وقت طويل، ظلت تراها: غلظة يديه، الطريقة التي تتحرك بها شفثيه بصعوبة عندما يتحدث، طريقة الكلام غير اللائقة الشائعة بين الفلاحين والتي لم يستطع أن يغيرها حتى الآن طوال حياته، لأنها نشأت وتنامت بداخله. وهي من تعشق بشكل خاص تلك الموسيقى الصافية للكلمات المترابطة على نحو رشيق متناسق! لماذا يتشابك الحب والبغض بأشياء صغيرة غير ذات معنى؟ إلى أن انفجر شعورها المحتدم في داخلها بالغضب والذي خرج عن سيطرتها،

فصرخت به: «أتمنى لو أنك لم تقل: 'نعم'!».

أوه، كم كانت حمقاء لتتفوه بذلك الآن!

سألها مبهوئاً: «ماذا؟».

قالت: «لا شيء».

حدق فيها لبرهة، وبدأت النظرة الذاهلة تتلاشى من عينيه، وقال لها: «ما الذي نتشاجر من أجله يا كيت؟».

قالت بسرعة: «لا شيء، لا شيء، قلت لا شيء».

كان جرس الهاتف يدق فاخطففت السماعه.

أتاها صوت متحمس: «هل بيرت هولم موجود؟».

«دقيقة واحدة»، ناولته السماعه وهي تشعر بالامتنان لتلك

المقاطعة. وبينما كان هو يتحدث استطاعت أن تنتحي جانباً لتضع بعض المساحيق على وجنتيها الحارتين وأن تصفف شعرها وتهدئ من تصاعد ضربات قلبها.

كان يقول: «نعم... نعم... بالتأكيد، فقط لم أحصل على رسائلي وأشياي بعد، نعم... بالتأكيد يمكننا ذلك. كم تبعد؟ حسناً، إذا كانت السيارة هنا في خلال نصف ساعة فسوف نكون جاهزين، أظن ذلك. نعم، حسناً». أغلق سماعة الهاتف واستدار نحوها على نحو يوحي بالأهمية، ثم قال: «الحاكم يريدنا أن نأكل في بيته في خلال نصف ساعة. هل تظنين أنكِ تقدرين على ذلك؟».

قالت بهدوء: «عليَّ أن أظن ذلك»، وأيّاً كان ما فعلته فلا ينبغي أن تقرر شيئاً الآن. لا ينبغي أن تتخذ قراراً بشأن أي شيء، إلا بعد أن تعيد من جديد محاولة أن تكون السيدة بيرت هولم.

كان يضحك فجأةً، ويصيح: «يا إلهي يا كيت، جعلتني أتجمد من الرعب! لماذا كنتِ تبدين في قمة الغرابة، لم أعرف مَنْ تكونين لدقيقة. أظن أنكِ كنتِ بعيدة عن المدينة لوقت طويل».

أجابته موافقة: «ربما كنت كذلك».

ومنذ ذلك اليوم في بومباي وحتى أول يوم لهما في نيويورك كانت هناك مواكب احتفالية بالنصر، لم يذهبا إلى ألمانيا أو إيطاليا أو إلى أي مكان، فقط مباشرة نحو البيت. فقط نصح السيد بريم بعدم الذهاب إلى ألمانيا أو إيطاليا.

حيث أبرق إليهما قائلاً: «الرحلة المزمع القيام بها غير ملائمة للحملة الدعائية، وأي اتجاه نحو تلك المناطق سوف ينتقص من قدر شعبيتك بالنسبة للرأي العام الحالي في أمريكا».

لذا كان أقرب ما وصلهما من ألمانيا كان طبيباً عسكرياً ألمانياً ضئيل الجسم متين البنيان، على السفينة التي أفلتتهما عبر البحر الأحمر، كان قد تم استدعاؤه من تدريبات خاصة في بومباي ليعود لتأدية الخدمة العسكرية. كان هو من أخبر كيت بذلك.

قال لها: «ما الداعي؟ أنا لا أسأل، إنه ليس مكاني. فقط عندما يتم استدعائي، أحضر. وهذا كافٍ بالنسبة لي».

ثم انتفخ صدره الضئيل وهو يتابع: «لقد أخبروني أن ذلك بسبب معرفتي الخاصة بأمراض المناطق الشرقية».

سأله كيت: «وهل تخطط بلادك لشيء ما في الشرق؟».

أجابها: «لا أدري، أنا لا أسأل».

سأله كيت بسوء نية: «ألا تتساءل أبداً؟».

أجابها بإجلال ومهابة: «لا، أبداً، أنا وكل أبناء بلدي نتبع قائدنا المحبوب».

قالت بابتسامة خفيفة: «ولا تسألون عن شيء».

أجابها موافقاً: «هذا ليس من شأننا».

كانت ترى الملايين من الناس بتعفف غريب مألوف، يحبون رجلاً واحداً، يتبعون رجلاً واحداً، يجعلون من رجل واحد بطلاً وإلهاً! فهل

كانت هذه فحسب هي النتيجة الحتمية لتدمير الآلهة بيد الإنسان، أن يبدأ البشر إدنً بتقديس رجلٍ ما بإخلاص؟ ولكن الآلهة القديمة كانت أكثر حكمة وأمنًا بأن كانت محتجة خلف ستار من الغيب، حتى يتمكن أولئك الذين ينبغي عليهم تقديسها من منحها كل الألوهية والمصداقية، والتي يتوقون لمنحها إياها، كما يمكنهم أن يهبوها القوة والحكمة بغير خطورة، ذلك أن الإنسان يستطيع أن يضع السيف في يد أحدها داخل صورة، دون الخوف من استعماله إياه. ولكن عندما يقدس البشر رجلاً، فإنهم يضعون السيف في يد حية، والتي يمكنها حصد أرواحهم باستخدامه.

الملايين من الناس كانوا بانتظار عودة بيرت هولم. قابلهم السيد بريم ودموع الفرح بادية في عينيه. وظل يغمنم لكيت: «كان هذا مثاليًا بلا حدود، إنه ببساطة رجل على سجيته، وربما أمكنني القول يا سيدة هولم، أنها غريزة ما بداخله، إنه يقول الشيء الصحيح تمامًا بالطريقة الشعبية البسيطة تمامًا أيضًا، إنه أمريكي وكل الأمريكيين يحبونه، إنهم يقولون في كل مكان إن النجاح لم يفسد بيرت هولم، إنهم يقولون إنه نفس الفتى القروي الأمين، هكذا وُلد وهكذا هو الآن، وهذا بالطبع أجمل ما في الأمر، أنه بالفعل كذلك! وقد أفادته الرحلة كثيرًا، فهي هو يبدو كملك». استقرت عينا السيد بريم الشاحبتان مع شعور صادق بالحب فوق بيرت، وهو يضحك ويلوح بذراعيه للجماهير المحتشدة. ثم أضاف بهدوء: «ينبغي أن يكون للناس ملك أو شيء من هذا القبيل». غمغمت بابتسامة باهتة: «رئيس صوري؟».

قال مصححًا: «يمكنك أن تقولِي رمزًا»، ثم أضاف بكياسة: «وفي حالة بيرت فهو رمز جميل الطلعة. لا يمكنك تخيل مدى أهمية ذلك يا سيدة هولم».

أجابته: «نعم، يمكنني».

كانا قد استقلا الطائرة عبر المحيط الأطلسي لأن السيد بريم قال لهما إن هناك مطالبات صاحبة هائلة عبر البلاد من أجل عودة بيرت، ولم يحدث أن شعرت بالنجاة من الناس الذين يضغطون ويضغطون بالخطابات والتلغراف والبرقيات إلا عندما كانوا فوق السحاب، ومرة أخرى كان الهدير البسيط للماكينات المجردة بمثابة فترة راحة بالمقارنة مع الأسئلة والمطالبات اللفظية. ولكنها وبيرت كانا منهمكين في شجارات بسيطة متواصلة. بسبب كراهيتها المتزايدة بشكل مطرد لهذه التضحيات بكل شيء لديها من أجل إرضاء نهم الجماهير التي لا تقنع بشيء، الجماهير التي تسأل عن كل تفصيلة أخيرة فيما أكله بيرت أو شربه وكيف كان يبدو وماذا كان يرتدي وما الذي قاله، وكذلك الحال بالنسبة إليها أيضًا لأنها زوجة بيرت هولم. لم يعد باقيًا لديها شيء يتسم بالخصوصية، لا شيء!

ولكن مبعث تلك الشجارات كان لأن بيرت الذي لا يملك أي احتياجات داخلية خاصة مثلها، قد تغير كليًا بحيث صار يحب كل الأشياء التي تكرهها. فبدا الأمر كأنه حين تمكن من غزو بانجابات، بدأ يشعر أن لديه بالفعل كل ما أسبغته عليه تلك الجماهير من صفات بسبب تملقها ومداهنتها له. حتى أن طعامه وعاداته وملابسه، والتي

كانت دائماً شيئاً هاماً بالنسبة إليه، قد أصبحت أكثر أهمية الآن بالنسبة إليه لمجرد أن الجماهير تجدها كذلك أيضاً. فلم يكن أبداً ليرتدي قبعة لأي سبب كان، وذلك بعد أن سمع أنه قد أصبح من الأساطير عدم ارتدائه لقبعة من قبل، حتى إنه في جميع أرجاء الولايات المتحدة أخذ الفتيان يتجولون دون قبعات لأن بيرت هولم يفعل ذلك. كما سمع ذات مرة في مكان ما امرأة تقول: «أراهن أنه يدخن غليوناً، أنا أحب الرجل الذي يدخن الغليون، ماذا عنك؟». فبدأ بتدخين الغليون على الرغم من أنه كان يصيبه بالمرض لفترات طويلة، ولذلك كان يدخن فقط في الأماكن العامة، وربما كانت كيت لتضحك منه لتلك التفاهة، وهو ما لم يستجب له حتى بمنحها ابتسامته اللامبالية، وهو يقول بابتهاج: «لا أهتم بذلك الشيء اللعين، ولكنه يعطيهم أشياء أكثر ليتحدثوا عنها، وربما يقولون شيئاً أسوأ».

وفي الميناء الجوي بجوار مدينة نيويورك قفز خارج الطائرة، وجسده مفعم بالحيوية والرشاقة، وأصبح كل ما يفعله من أشياء ساحرة وجذابة الآن شيئاً هيناً بحكم الاعتياد، وأخذ الناس يتدافعون ويصرخون ويضحكون حتى بُحَّت أصواتهم؛ لأنه كان تماماً على الهيئة التي يتصورونه عليها. وراحوا يحتضنون صورته ويضمونها إلى قلوبهم لأنه كان تماماً ما يعتقدونه، وليس أفضل منهم، ولا متعلماً أكثر من أي واحد منهم، رجل عادي، هذا ما تناقلوه عنه فيما بينهم، فقط مثل أي شخص، ولذلك، جال بخاطر كيت بمرارة، أنه يستحق بلا شك تقديسهم.

لم يكن هناك سبيل لإنكار الإحساس المتنامي بالمرارة داخلها،

الأمر الذي جعلها تبدو بطريقة ما شبيهة بجايل كما لم يحدث من قبل طوال حياتها. وجعل صوتها محملاً بحافة من الحدة مثل تلك التي لنبرة صوت جايل، فقد جعلت قامتها أكثر انتصاباً، ورأسها أكثر ارتفاعاً ووجهها كتومًا.

حضرت جايل للقائها بصحبة هارفي ووالديها، وقفوا متفرقين بسبب صراع الجماهير المحتشدة فيما بينهم، وأخذت تنظر عبر كتل من الرؤوس إلى كيت. كل فرد في العائلة كان ينظر إليها، محاولاً العثور على جواب لأسئلتهم الشائعة: «ماذا عساها قررت أن تفعل؟». ولكن حتى إذا ما كانت كيت تعرف الجواب، فليس ثمة شيء يبدو عليها، يمكن أن يشي بما في نفسها لأي شخص آخر.

قالت جايل لوالدتها: «إنها تبدو أكبر سنًا بخمسة أعوام».

قالت ذلك عن رضى وقناعة، لأنها هي ذاتها، كما تعلم جيداً، كانت تبدو ناضرة وجميلة بشكل مدهش. وكان ذلك هو ما تسديه إليها المرأة الشهوانية المتوحشة التي بداخلها، حتى إنه منذ أقل من نصف ساعة تقريباً مضت، كان هناك شاب يمسك بيدها بين يديه ويقول لها: «جايل، تبدين جميلة ضعف ما كنت عليه يوم آخر لقاء لنا، وقتها كنت مؤمناً بأنني لم أرَ في حياتي امرأة بهذا الجمال!» ثم جذبها إليه من يدها التي كان لا يزال ممسكاً بها، ثم طبع قبلة طويلة على شفيتها استمرت للحظات، وقد تركتها تطول لأنها كانت حلوة المذاق. بعد ذلك أخذت شفتاه تغمغان فوق شفيتها: «لم أكن أعلم إذا ما كنت ستدعينني أفعل ذلك أم لا».

قالت له: «أنا لم أفعل أيًّا منهما يا جيري».

فهمس لها: «أنتِ فاتنة!» .

أدارت عينيها نحو والدتها، وقد جعلتهما صافيتين وبريئتين، بعد أن اتهمت كيت بالتقدم في العمر.

أجابتها السيدة تالانت: «حسنًا، دائمًا ما كانت كيت تبدو شابة»، ثم أضافت بعد لحظة: «إنه الشيء اللائق بها، على ما أعتقد»، وبعد حوالي ربع الساعة، كانت تشعر بقُبلة كيت الهادئة على وجنتيها، ثم غمغمت السيدة تالانت لزوجها: «أنا على يقين من أنها قد تمكنت من تسوية أمورها، كنت أعلم أنها ستفعل، فبرغم كل شيء، إنها من عائلة تالانت».

أجابها السيد تالانت: «سوف نرى». لم يكن ينوي أن يلزم نفسه بشيء تجاه كيت، ولكنه بطبيعة الحال سيكون مسرورًا بالتأكيد إذا ما تم تسوية الأمر. فهو يكره الفضائح العائلية. ولوجه الحق، فقد توقف بيرت تمامًا عن مثل هذا النوع من الأشياء بشكل رائع. انظر إلى تلك الفتاة السخيفة الآن، وهي متعلقة بكتفه! حتى إنه لم يكن يدري ما الذي عليه فعلة إذا ما كان في نفس موقف بيرت، وسط كل هذا القدر من التملق والمداهنة. فالعامة لديهم الكثير والكثير من الحماقة، وقد كان بغاية السرور أنه لم يكن مضطرًّا إلى الانخراط بينهم في عمله. فجميعهم متشابهون، ربما لا أحد بطول البلاد وعرضها الآن يحظى بمثل تأثير ونفوذ هذا الفتى أشقر الشعر. هكذا قال بريم، لو أن بيرت أراد أن يتزعم قضية ما فإن باستطاعته أن يثير عاصفة من الأمة بأكملها.

نشكر الله على أن بيرت لا يملك أي أفكار في رأسه، ولذلك فلا خطر يُخشى من ورائه. فالأكثر أماناً للعامة أن تقدس رجلاً مثل ذلك، عن أي شخص آخر من أمثال أولئك الطغاة الجبابرة... عجل ذهبي، بدلاً من موسى. ليقودهم نحو ما لا يعلمه إلا الله.

انتزعته من بين أفكاره يد بيرت الضخمة وهي تقبض على يده بشكل مؤلم قائلاً له: «حسنًا يا سيدي! سعيد برؤيتك!»، قال السيد تالانت: «مرحبًا بعودتك يا بني!». في الحقيقة إنه من العبث التظاهر بعدم وجود شيء ما جدير تمامًا بالمحبة هنا! ولكن شفتي كيت بدتا مغلقتين بإحكام وبشكل غريب. فقد كانت شفتاها دائماً ممتلئة وناعمة، ولكنهما ما عادتا كذلك.

وبعد حوالي ساعة قال لزوجته: «أعتقد أنني سوف أذهب للبيت، فأنا أشعر بالتعب». فقالت له: «يجدر بنا جميعاً أن نذهب بعيداً، طالما بقيت هناك تلك الحشود».

عندئذ كانوا جميعاً قد توجهوا للبيت ما عدا بيرت والسيد بريم، هما من بقيا. لم يكن هناك أي أمل في محاولة الوصول إلى بيرت، فبعد مصافحة العائلة، والتقاط الصور تحت أضواء العدسات، جرفه تيار الجماهير مجدداً، واضطروا لأن يذهبوا إلى البيت من دونه. ولن يتسنى لهم رؤيته مرة أخرى حتى موعد حفل عشاء المحافظ. كان السيد تالانت يكره حفلات العشاء الضخمة، ولكن بالتأكيد يجب عليهم جميعاً الذهاب؛ لأن المحافظ قد قام بدعوتهم جميعاً.

هذا الصباح سوف يكون هناك موكب إلى برودواي، الآلاف من مذكرات الهاتف سوف يتم تمزيقها إلى فتات مجدداً، أطنان من

قصاصات الورق سوف تُلقى في الشوارع، وينبغي جمعها بحلول الغد. سوف يكلف ذلك المدينة مقدارًا كبيرًا من المال. وبيرت يستقل سيارة مفتوحة إلى برودواي، وشعره يتألق تحت أشعة الشمس. ولكن الجماهير لا تفكر بذلك.

وفي غرفتها الخاصة بعد منتصف النهار، كانت كيت تفرغ محتويات حقائبها بهدوء، قامت الخادومات بتعليق ثيابها، ولكنها قالت لهن أن يتركن لها أمر حقيبتها الصغيرة. كان بها القليل من الأغراض، بعض الهدايا لعائلتها، ذلك السوار التبتى الفيروزي الذي أعجبها، وبعض الزهور البرية التي وجدتها في الهند. والتي دسها في ركن الحقيبة، والكتاب المدونة فيه قصائدها، وذلك الختم الصينى القديم، وقد صاحبها في كل مكان ذهبت إليه.

كانوا يقفون في إحدى الشرفات يشاهدون الموكب أثناء مروره، بعدها، ولأن أيًا منهم لم تعد لديه القدرة على الوقوف فقد توجهوا إلى البيت، هي ووالداها وجايل وهارفي، وتناولوا الشاي معًا في قاعة الاستقبال. ولكن من قامت بخدمتهم إحدى الخادومات؛ لأن سميدلي كان قد طلب الحصول على إجازة فقط لما بعد الظهر من أجل مشاهدة الموكب.

كانت الأجواء مريحة بالنسبة إليها حتى أن تلك الشدة التي كانت تشعر بها منذ ذلك اليوم في بومباي قد انحلت فجأة وبدأت تشعر بالانغلاق والأمان. وقد سحب بيرت الحشود معه، فلم يعد هناك سوى عائلتها فقط.

تنفس والدها الصعداء وهو يقول: «أنا شخصيًا لا أفهم كيف أمكنك تحمل كل ذلك. قطعة أخرى من الخبز المحمص يا كيت من فضلك. فالناس في المجمل ظالمون، وهذا أقل ما يمكن قوله». تدخلت جايل في الحديث قائلة: «إنه شيء مسلّ إلى أبعد حد، في الحقيقة».

بينما لم تستطع أن تمنع نفسها من النظر إلى كيت، حتى أنها همست لهارفي بأنها تكاد تُجن حتى تعرف ما الذي وراء عيني كيت. تلك النظرة دائمًا ما كانت تعني شيئًا ما. كانت جايل حنونة للغاية مع هارفي اليوم، شعر بذلك وأخذ يراقبها، وفي كل مرة يلمح عينيها يجدهما مسطتين عليه، لم يكن هناك داع للقلق، هذا ما أخبرته به عيناها. كان تلك الصخرة الأزلية. كان كذلك حقًا، ولكنه أيضًا يدرك أنه ينبغي عليه الحفاظ على جايل من أن ترتكب حماقة على الملأ مع ذلك الشاب المدعو جيرى تود، والذي أصبح مؤخرًا على علاقة غرامية بها. بينما لم تتظاهر بأن ذلك غير صحيح، بل أجابته حين سألها، وهي بعد محتفظة بهاتين العينين الصافيتين بلون الكهرمان متسائلة: «وهل بيدي شيء؟».

كانت كيت تقول: «أفترض أنني استطعت تحمل ذلك؛ لأن بيرت هو من يسعون خلفه».

لا يمكن الآن أن تغار من بيرت! كان عقل جايل مثل يعسوب براءة تحوم حول هذه الفكرة ثم عادت واستبعدتها، قال هارفي: «ربما أنها تغار، كل النساء كذلك». ولكن كيت لم تكن أبدًا غيورة.

فقال هارفي فجأة: «بالمناسبة يا كيت، بشأن صديقك القديم، لا أذكر اسمه، حقق نجاحًا باهرًا بمسرحيته».

حسنًا، إذن هناك شيء ما! عادت اليعسوب متألفة تحلق باتزان فوق عيني كيت اللتين تحولتا للفرح فجأة، وصاحت: «نورمان؟». أجابتها جايل: «كما هو».

فسألتهما: «والمسرحية، هل هي (الحرية)؟».

قالت جايل: «هو كذلك، لم نرها بعد ولكن يجب أن نفعل، أليس كذلك يا هارفي؟ كل تلك المراجعات النقدية يا كيت، وكما لم يحدث من قبل، بل وحتى السرطانات القديمة في عالم النقد والذين لم يعجبهم شيء أبدًا يقولون إنها رائعة، ساحرة، مسرح حقيقي، وما إلى ذلك». ثم ضحكت فجأة وأردفت: «ولكني لا أعلم بشأن شباك التذاكر». نظرت إلى هارفي، وعيناها تلتمعان بالضحك: «لقد سمعنا تلك الفتاة، أليس كذلك؟». أجابها متسائلًا: «الليلة الماضية؟ ربما أنتِ مَنْ سمعت، أنا لم أفعل». لم ينتبه أبدًا إلى ما يقوله الناس في الشوارع، بينما كانت جايل دائمًا ما تلتقط تلك الأشياء.

قالت جايل موضحة: «كان علينا أن نتمشى قليلًا لنجد السيارة، بعد أن كنا نشاهد ذلك العرض المسرحي الساخر (رحلة فكرية مقابل بنس واحد) ومررنا في طريقنا بأحد الخيام حيث كانت تُعرض مسرحية (الحرية) وإذا بفتاة شقراء بلاتينية ممن يمضغن العلك، تتمايل بين الرجلين اللذين كانا بصحبتهما قائلة: «أنا لا أريد مشاهدة مثل هذه

المسرحيات اللعينة (الحرية) من الاسم تبدو لي مليئة بالكثير من الشعر والكثير من العمق».

ضحكوا جميعاً، كان هارفي يعتقد أن جايل تجيد رواية الأشياء بما يكفي لأن تكون هي نفسها ممثلة، غير أنه فقط لم يكن ليتزوج ممثلة قط.

بدأت كيت حديثها بلهفة: «لا، ولكن أخبريني...».

فُتح الباب فجأةً، وظهرت الخادمة هناك، وقد تهللت أساريرها كطفل، تصيح قائلة: «سيدتي، إنه في المذياع الآن! السيد هولم يا سيدتي، إنها الخامسة الآن».

قال السيد تالانت: «إذن فقد انتهى الموكب أخيراً».

تبادل السيد والسيدة تالانت النظرات بشيء من الحيرة، هل عليهما حقاً أن ينتقلا إلى الغرفة الأخرى للاستماع إلى بيرت؟ ظلت الخادمة منتظرة بحماس، مما اضطرهما إلى ذلك، حتى أنهما شعرا بالخجل من تعاملهما مع الأمر ببرود. وصاحت جايل: «علينا أن نذهب»، نهضوا جميعاً، وكان آخرهم هارفي، وتوجهوا إلى الغرفة الأخرى وجلسوا، ثم أتاهم صوت بيرت ممتلئاً صفاء ونضارة مع مسحة ضاحكة، وهو يقول: «حسنًا، أيها الأهل، ها أنا ذا مرة أخرى، نفس البنس القديم الممسوح! وليس عندي شيء جديد لأقوله لكم، إلا أنني خططت لأن أتسلق قمة بانجابات ونجحت في ذلك. ولكن لن يكون من العدل تجاه رجالتي إذا لم أقل أنهم وقفوا بجانبتي، كلهم، وصنعوا جميعاً النجاح لتلك البعثة. جاكى ريكسال سوف يصل إلى

الوطن قريباً ومعه كافة الأشياء والمواد. تركت له كل شيء، باستثناء السجلات التي أحتفظ بها معي، حسناً، لن يجد ريكسي العجوز الحياة جيدة بالنسبة إليه عند عودته للوطن، ربما يفقد إصبعاً بسبب عضه الثلج. وهناك أحد الرجال أصابه عمى الثلوج». ثم تحول صوته إلى المهابة وهو يتابع: «وفقد اثنان من الرجال حياتهما، كرجال شجعان. لن أنساها أبداً وبالنسبة لي سوف يظلان أحياء دائماً. حسناً»، توقف لبرهة وأخذ صوته يخفت: «ولكن تلك الأشياء تحدث، وربما تسألني لماذا نقوم بتسلق جبل على أي حال؟ حسناً، ربما لم يكن عليّ أن أفعل ذلك، ولكنني اعتقدت أنه يجب عليّ فعله، وأتمنى أن تكون القراءات والمعلومات مفيدة إلى حد ما بالنسبة للعلماء، كما وجدت مكاناً رائعاً لمصحة لمرضى السل، لو شعر أي شخص بالحاجة إليها، في وادٍ مسطح مليء بالزهور، على حافة الثلوج، مع أكثر المناطق زرقة في السماء وأنقى هواء في العالم».

همست جايل: «لم تذكر شيئا عن مصحة يا كيت!»

أجابتها كيت بذات الهمس: «ظننت أنه قد نسي أمرها».

توقف بيرت مجدداً، وبدأ الخبث يزحف في صوته، كانت كيت تعلم أن عينيه متألفتان الآن، والابتسامة العريضة البطيئة تزحف فوق وجهه: «ولكن أيها الأهل، سأكون مخادعاً إذا تركتكم تفكرون بأنني لم أذهب إلى هناك إلا من أجل المتعة فقط، يا للبحيم، أنا هو أنا، وهذا هو كل شيء. ذهبت لقضاء وقت طيب، وقد حصلت عليه. ذهبت لكي أتسلق أعلى من أي شخص آخر من قبل، وقد فعلتها!».

تلك الصيحات والتصفيق الحار والضحكات التي انبعثت من المذياع جعلت الغرفة فجأةً تزدحم بالضجيج.

أغلق السيد تالانت الزر بحدة، ومن قلب الصمت قال بلهجة جافة: «لقد تحسن بيرت كثيرًا بالتأكيد في خطابه العامة».

أجابه هارفي موافقًا رغمًا عنه: «يبدو كأنه قد تعلم اللمسة الفنية أخيرًا».

وقالت جايل بحيوية: «بمعنى آخر يا أعزائي، لقد فعلها من جديد!». استداروا جميعًا لينظروا إليها، فبادلتهم النظر مع ابتسامة قاسية، ولم تقل شيئًا آخر لأنه في تلك اللحظة وابتها فكرة ما. وعلى مدار اليوم أخذت الفكرة تنمو أكثر وتزداد إمكانية كلما أمنت التفكير فيها. لماذا لا يفعل جيري شيئًا ما ويصبح بطلاً شعبياً؟ لِمَ لا يكون التالي؟ لماذا لا يسرق قلوب الجماهير الهائلة من بيرت؟ كان جيري أفضل مظهرًا من بيرت، نفس الطول ولكنه أكثر بياضًا، مثل السويديين، قادم من منيسوتا، وأمريكي حتى النخاع! ولكن للأسف لا يستطيع أن يطير بالطائرة! ولكن ماذا عن الحرب القادمة في أوروبا... ربما شيء ما في الحرب التالية؟ يا لها من بطولة حماسية مثيرة تلك التي قد تضيفها إلى علاقتها بجيري! نهضت ببطء واجتازت الحجرة وهي تتجه نحو هارفي تدفعها غريزة متناقضة. نظر إليها متفاجئًا من فوق سيجاره، ثم سألها: «وماذا الآن؟».

«لا شيء، فقط أريد أن أجلس بجانبك». وسحبت مسند قدمين ووضعتة إلى جواره ثم جلست عليه وهي تميل بجسدها نحوه أمام

ركبتيه، في صورة زوجة خاضعة. نظروا إليها واحدًا بعد الآخر بقلق، دون أن يعلم أي منهم لماذا تنذرهم بالخطر دائمًا، وهي الزوجة المخلصة المحتشمة. قالت السيدة تالانت بسرعة: «كيف حال ركبة ديكي؟». قالت جايل: «إنه بخير، شكرًا لك يا أمي»، ثم أضافت موضحة لكيت: «سقط بينما كان يركب لوح التزلج وقد أُصيبت ركبته».

وكانت هي اللحظة التي اقتحم فيها بيرت الحجرة فجأة عليهم، وهو يهتف كعادته: «ها أنا ذا!» شرح لهم ما حدث ضاحكًا، وكيف استطاع الهرب من بين الجماهير المحتشدة. وفي غمرة النجاح الباهر لحضوره نسوا أمر جايل. رأت كيت في قرارة نفسها وهي تراقب عائلتها أن موقفهم تجاه بيرت لا يختلف عما ينبغي أن يكون عليه، متسامحًا، مستمتعًا، ومقدرًا لعظيم صنيعه. وإذا ما قاده جايل للحديث كثيرًا عن نفسه، فإنها ببساطة سوف تكون أكثر المستمتعين بذلك، وهذا بالنسبة لجايل فقط، أما إذا كان والدها أكثر سخرية من المعتاد، فإن ذلك فقط من قبيل السخرية وليس الفضاظة والغلظة. وتحت السطح، حتى صمت هارفي وأسئلة والدتها العملية المثيرة، شعرت كيت بطريقة أو بأخرى، وسواء كان ذلك عن جدارة واستحقاق أم لا، وبشكل لا يمكن توضيحه على الرغم من أنه بات من المؤكد، أنهم جميعًا قد وصل بهم الحال إلى قبول بيرت كبطل حقيقي.

وبعدها بيومين، وعلى البرنامج المحدد الذي وضعه له السيد بريم، ذهب بيرت إلى منزله لرؤية والديه، أما كيت، فقد وجدت خطابًا

من جون بيكر في الصباح في مكانها على المائدة عندما ذهبت لتناول الإفطار مع والدها.

لم تشأ أن تذهب مع بيرت، إذ أدركت أنها لن تذهب مجدداً إلى ميستي فولز، لم يكن ذلك قراراً واعياً بلأ تذهب إلى هناك، ولكنها فحسب أصبحت مدركة لحقيقة أنها لا تستطيع الذهاب؛ لأنه ليس هناك شيء يربطها بالمكان هناك. لذلك قالت له بغاية البساطة والهدوء: «هل تمنع في أن أبقى هنا بينما تذهب أنت؟ فبرغم كل شيء، أنا لم أرَ والديّ أيضاً لمدة طويلة». أجابها: «ما أريده هو أن تفعلني فقط ما تريدينه أنتِ يا كيت».

ولذلك فقد رحل إلى ميستي فولز، ومعه رجال الصحافة والملايين يتابعون أخبار عودة بيرت هولم إلى بيت طفولته في مسقط رأسه. وكيف كانت القرية بأكملها على موعد القطار لاستقباله وقد زينوا محطة القطار بالأضواء، وكيف عزفت الفرقة الموسيقية وكيف كان والداه هناك في ثيابهما الجديدة، وابتسامتهما الصادقة تشرق بالفرح وأيديهما المنهكة تمتد لتشدد على يدي بيرت. وعادت والدته بيرت للقاءات الصحفية، وأخذت تقول مراراً وتكراراً: «لا، أنا لا أتفاجأ بأي شيء يفعله بيرت، فقد كان طفلاً رائعاً. لديّ صور له وهو يمشي في عمر التسعة شهور، وكان يمزغ اللحم جيداً مثلما كنت أستطيع أنا أن أفعل».

كما بدا أن الرجل العجوز لن يتحدث إلى أحد، ولكن ذلك خلق قصة جيدة أيضاً، صمت الرجل الكتوم، الذخائر القوية التي منحها المزارع العجوز الأسفع، هي التي أعطت بيرت تلك الطاقة الجسدية

الهائلة. وذات النشاط الذي ظل يسري في عروقه لما يقارب نصف قرن من الزمان يحرث الأرض وينثر الحب ويحصد المحاصيل من الأرض، هو الذي مُنح لبيرت ليغزو به الجبال.

وعلى الإفطار في غرفة الطعام الضخمة ذات الأثاث الهادئ وضع السيد تالانت الجريدة من يده في ذات الوقت الذي وضعت فيه كيت جريدتها، وتلاقت أعينهما. منحها ابتسامة خفيفة، وهو يغمغم: «يبدو أنهم قد أصبحوا مولعين به بشكل كبير، أليس كذلك؟».

أجابته كيت: «إنها كلمة مقرزة، ولكن هذه حقيقتهم، المزيد من القهوة يا أبي؟».

قال لها: «أشكركِ»، كان يقدر لكيت حرصها الدائم على النزول إليه على الإفطار طالما كانت في البيت، لم يتكلما لبرهة، كأنهما في حاجة إلى الصمت قليلاً بعد الصخب المقيت للصحف الإخبارية.

إلى أن قالت بعد فترة: «أحياناً أكون واثقة من أن التحكم في النفس هو أجمل شيء في الحياة».

قال: «إذا لم يذهب إلى حد بعيد، حسناً، يمكن أن يكون كذلك، ولكن من أجل حمية ثابتة فأنا على الأرجح أفضله».

قالت له: «وكذلك سأفعل. المزيد من الخبز المحمص يا أبي؟».

أجابها: «كلا، أشكركِ».

وكانت تلك هي اللحظة التي رأت فيها خطاب جون بيكر، حين ألقت نظرة جانبية على الخطابات إلى جوار الطبق الخاص بها، ومن

تحتهم كان هناك مظروف أبيض مربع. كان السيد تالانت يطوي منديل المائدة الخاص به، حين قالت: «انتظر لدقيقة يا أبي»، مزقت المظروف لتفتح الخطاب وأخذت تقرأ بصوت مرتفع.

«عزيزتي السيدة هولم، يبدو لي بما يتفق تمامًا مع وعدي لك بأنه يجب أن أراك فيما يتعلق ببعض البيانات التي وصلت إلى يدي عن طريق أعضاء بعينهم كانوا في البعثة. ولو أنه يمكنك تحديد موعد لذلك، فسأكون بغاية السرور لأن أتصل بك. المخلص، جون بيكر».

غمغم السيد تالانت: «قصير ومباشر نحو الهدف»، ثم مسح يديه وأردف: «يبدو كما لو كان لديه شيء ما في جعبته».

قالت كيت: «أفترض أنني يجب أن أراه».

أجابها: «ذلك هو الشيء الوحيد الواجب فعله، هل يعلم بريم شيئًا عن هذا؟».

أجابته: «لم يكن لديّ الوقت لأراه، هل يجب أن أجعله يأتي أيضًا؟».

هز السيد تالانت رأسه قائلاً: «الأفضل ألا يأتي، الأفضل أن تري الرجل بمفردك وتلقي الأمر أيًا ما كان بنفسك مباشرة. هل تريدينني معك؟».

قالت بتوسل كمن وجد نجدة فورية: «هل تسمح؟».

أجابها: «إذا كنت تعتقدين أنه سيتكلم أمامي بالطبع».

قالت كيت: «سيفعل أنا واثقة من هذا، وسوف تحبان بعضكما».

أجابها: «حسنًا، في مكتبي إذن، ولمَ لا؟ بعد غدٍ في الثانية. وإن كنت سأظل أشعر كأني مكتوف الأيدي حتى ذلك الحين».

قالت كيت بامتنان: «أفضل مكان ممكن».

اتجه ناحيتها وقبّل رأسها. كان عطرًا مثلما كان دائمًا عندما كانت فتاة صغيرة. وقال لها: «إلى اللقاء».

«إلى اللقاء يا أبي». وابتسمت له. بدا وجهها أكثر امتلاءً مرة أخرى مما كان عليه، فقط لهذه اللحظة على أي حال، كان يحدث نفسه بذلك وهو ينطلق عبر الطريق المحاط بالأشجار متجهًا نحو وول ستريت خلف سائقه الخاص. كان وجهها متغيرًا، وجه كيت الذي لا ينبئ عما هو عليه بالفعل؛ لأنه لم يكن أبدًا ساكنًا. لم يشعر من قبل بالرضى عن أي صورة فوتوجرافية لها. أما جايل الآن فهي غالبًا ما تبدو مثل صورها، جميلة دائمًا، جميلة بما ينذر بالخطر، وكان يعتقد بذلك لسبب ما في اليوم السابق عندما جلست ورأسها في مواجهة ركبتي هارفي. ولكن كيت من الممكن أن تكون جميلة أو واضحة، في الوقت الحالي. كان دائمًا ما يعتقد أنه إذا ما سارت الأمور في حياتها فقط بشكل صحيح فإنه في وقت ما سوف تكون جميلةً بالفعل، وكم يحب أن يفعل شيئًا لجعلها كذلك. يجب ألا ينسى أن يخبر الأنسة هوبكنز بأن تلغي كل شيء ليوم بعد الغد في الساعة الثانية.

وعلى طاولة الإفطار بقيت كيت وحيدة، تبحث في كل ما لديها من

غرائز وتستكشف من بينهم الأكثر حساسية. والتي تحركت لدى تذكُّر اسم رونالد براج.

وبعد يومين، حضرت إلى مكتب والدها الهائل ذي الأثاث الداكن في تمام الساعة الثانية، لتجد جون بيكر حاضرًا بالفعل هناك عند النافذة الكبيرة يتطلع إلى الميناء. وكان السيد تالانت يجلس إلى جواره.

مدت يدها إلى جون بيكر. كان تمامًا بنفس الهيئة التي كان عليها عندما رآته هناك للمرة الأخيرة تحت سفح جبال الهيمالايا، وقالت له: «كم أنا مسرورة للقائك».

قال لها: «أشكرك كثيرًا، لم أكن واثقًا من ذلك».

سألته: «ولكن، لِمَ لا؟».

أجابها: «ظننت أنه ربما يكون السيد هولم...».

. هزت رأسها نفيًا، ثم قالت بسرعة: «لم يذكرك بشيء»، ثم جال بخاطرها وقلبها يسقط هلعًا: «هل ما زال بيرت يحتفظ ببعض الأسرار مجددًا؟».

جلسوا جميعًا، اتخذت هي مقعدًا عميقًا من الجلد العتيق المعطر، وجلس والدها خلف مكتبه، بينما جلس جون بيكر إلى الطاولة. ثم بدأ يفيض حافظة أوراق جلدية مكتظة بالأوراق.

ثم قال: «هذا يجعل الأمر على الأرجح صعبًا، أتمنى لو أنه قد فعل، فأنا لا أريد أن أقدم كلا الوجهين، فقط ما يخصني».

فقال السيد تالانت متفقدًا معه: «أفترض أن بيرت يستطيع أن يخبرنا

عن الجانب الخاص به بنفسه على أي حال، أيًا ما كان».

لم تتكلم كيت. فقد كانت تعلم، على الرغم من أن جون بيكر كان قد قرأ الأوراق بصوت مرتفع أمامه، ماذا كانوا.

قال جون بيكر بثبات وهو ينظر إليهما: «لديّ هنا، سلسلة من الإقرارات من الرجال الأربعة الذين ذهبوا إلى أعلى نحو قمة بانجابات مع السيد هولم. وقد كتبوها بشكل منفصل، أعطى فيها كل منهم رأيه الخاص في واقعة محددة بغاية الأهمية. وبعد ذلك أحضروها إليّ باعتبار أنني شخص محايد ونزيه؛ لأنني لم أكن حتى حاضرًا التسلق الأخير. هل يمكنني قراءتهم؟».

قالت كيت: «إذا تفضلت».

تناول السيد تالانت ثقلًا فضيًا مما يوضع فوق الأوراق على شكل كلب يقظ رابض في وضع الحراسة، وجلس يلفه تارة ويلمعه تارة بظفره الطويل وهو ينصت، قرأ بيكر الواحدة تلو الأخرى، حتى انتهى من الورقات الأربع التي ظل محتفظًا بها. لم يذكر أي أسماء ولكن كيت لم تكن بحاجة لمن يخبرها عن كتب كل واحدة. فرانسيس بروير بطبيعته الطيبة وكياسته الجنوبية، يبدأ بنص طويل مهمّل: «إنه مع النفور الشديد من أن أدون على الورق مثل هذه الكلمات الغامضة باعتبارها شكوكي ومخاوفي الخاصة بأن...».

وعبارات كالواي الواضحة القاسية: «إنه في الثلاثين من يوليو من هذا العام، باعتباري أحد أعضاء بعثة بيرت هولم الاستكشافية، تمركزت في المعسكر الثالث فوق المنحدر الشمالي الشرقي لجبل

بانجابات. وكان من ضمن مهامى المخصصة من قبل السيد هولم، أن أبقى فى حالة استعداد لأي إنقاذ محتمل فى حالة...»، أما لينكولن مايهيو وبدايته المضطربة مثله: «بكل تأكيد أكره الضرورة التى تحتم عليّ أن أدون شيئاً ما من شأنه أن يجلب المتاعب. فخبية الأمل دائماً قاسية، ولكن ما يدفعني الآن للتعبير عن وجهة نظر معينة شيء أكبر بكثير من مجرد خيبة أمل رجل. فالعدالة تقتضي ذلك...»، بينما بدأ ديك بلاستيل بشراسة وعدوانية: «رونالد براج كان صديقي، وقد مات، وربما لم يعد بحاجة لأي شيء مني، ولكنني أود أن أ طرح بعض الأسئلة عن الكيفية التى مات بها، ولو على سبيل القناعة الذاتية، أولاً، هل حدث أم لم يحدث أن السيد هولم قد تشاجر مع صديقي رونالد براج قبل أن يشرع فى التحرك بمفرده فى صباح يوم الثلاثين من يوليو؟ وإذا لم يكن ذلك قد حدث، فلماذا يقوم بالبداية بمفرده؟ ثانياً، لماذا انحرفت عن الطريق الذى أخبرتنا به جميعاً بأنه الطريق الذى ستتبعه فى حالة وجود أي متاعب؟ ثالثاً، هل تركت أم لم تترك رسالة لبراج أو علامة ما عند النقطة التى غيرت طريقك من عندها؟ رابعاً، هل أخذت خزان الأكسجين معك؟».

وتوالت الأسئلة واحداً بعد الآخر، قرأهم جون بيكر بثبات ثم قلب الصفحة حيث كان بلاستيل قد غطاها من جانبيها بأسئلته القاسية. وعندما انتهى من القراءة وضع السيد تالانت الكلب الفضّي من يده ثم سأله: «هل رأى بيرت هذه الرسائل؟».

أجابه جون بيكر: «لا، ولكنه يعلم كيف يشعر الرجال بالأمر، رأيت

أنه فقط من العدل أن أتحدث إليه قبل أن أحضر هذه الأشياء إلى السيدة هولم».

هل كان هذا ما يخفيه عنها بيرت مجددًا! الصمت الحالي أثار كل مشاعر كيت القديمة بالاشمئزاز، ولكنها لم تستطع أن تتكلم.
سأله السيد تالانت: «وماذا قال بيرت؟».

«لم يَئِدْ أنه يأخذ الأمر على محمل الجد، فقد قال إن الرجال في أي بعثة عادة ما يتحولون ضد قائدهم فيشعرون بالغيرة إذا ما نجح، ويحتقرونه إذا لم يفعل. ولكن ربما لا ينبغي علينا أن نلومه لعدم اكتراثه بالتعامل مع الأمور بجدية الآن فقط ونحن بصدد إلقاء اللائمة على أحدهم. فسيكون من الصعب على أي إنسان في وضع السيد هولم أن يحكم على نفسه بسبب ما كان عليه».

ما كان عليه! رأت مجددًا من خلال شعور بيكر البارد بالازدراء المحايد وبلا أدنى تحامل، ماذا كان بيرت. هو يضع بيرت جانبًا باعتبار أنه غير ذي أهمية ويتابع حديثه، بينما القضية بأكملها على حد قوله كانت أحد الحقوق الأخلاقية وما يُعد من قبيل العدالة نحو رونالد براج، الذي نال احترام الجميع.

ثم قال أخيرًا: «الشيء الهام الآن هو، ما الذي عليّ فعله؟».

قالت كيت بسلطوية سريعة مفاجئة: «ما تشعر بأنه عليك فعله، أودّ منك أن تقوم بفعله، من فضلك»، لم تتكلم ولو لمرة لتقاطعه: «في الحقيقة، لا ينبغي أن أشعر براحة البال إذا لم تفعل».

ظلت عينا جون بيكر الرماديتين الضيقتين صافيتين مثل نقطتين من الصلب وهو يقول: «سوف يكون الأمر بغاية الخطورة بالنسبة للسيد هولم».

قالت له: «أخبرني بيرت بشأن هذا، وسوف يقف في مواجهة ذلك من أجل نفسه»، ثم نهضت ومدت يدها لتوديعه. يجب أن تخرج وأن تذهب بعيداً، خارج هذه الغرفة الخائقة، وبعيداً عن أي شيء، فقط في الهواء الخارجي.

قالت له: «أشكرك».

فقال لها: «أشكركِ، أنتِ إنسانة رائعة حقاً أيتها السيدة هولم».

أجابته: «أوه، كلا، فقط عادلة، كما أتمنى، بالنسبة لبيرت مثلما بالنسبة لرونالد براج! إلى اللقاء يا أبي، سأراك لاحقاً وقريباً، أليس كذلك؟».

قال لها: «ربما سأكون في البيت مبكراً».

أومأت برأسها وانسلت عبر الباب المصنوع من خشب الماهوجني، ثم طارت عبر الأروقة إلى المصعد، وعندما خرجت كانت تنوي القفز داخل إحدى سيارات الأجرة ليقودها عبر الطريق السريع إلى المتنزه لتظل تمشي وتمشي، وتفكر فيما عساها أن تفعله، كان عليها أن تتحدث إلى بيرت بالطبع. ولكن لم يكن لديها لحظة من الشك في أنه أيّاً كان ما سيفعله جون بيكر، فإنه سيكون محقاً. فالمرء لا يسعه حين ينصت إلى صوته الراسخ إلا أن يعلم مقدار ما يحمله هذا الرجل من استقامة

ونزاهة تامة. لم تستطع أن تتخيل ما كان ليفعله إذا ما حاولت التوسل إليه بألا يخبر أحدًا إكرامًا لبيرت. ولكنها لم تكن أبدًا لتطلب منه مثل هذا الصمت البغيض. فإذا ما كان بيرت مجرمًا فسيكون الأمر يسيرًا، ولكنها في أعماق نقاط شعورها باليقين ما زالت تعلم أنه ليس مجرمًا، كان لحظتها فقط وببساطة مجردًا من نزاهة الضمير الحساسة للفهم وحسن الإدراك، وكان ذلك هو كل ما في الأمر. ولكن نزاهة الضمير هي كل شيء، هي الوعاء الذي يحفظ كل الجمال، فإذا لم يكن هناك وعاء ليحتوي كل ذلك، فلا شيء هناك إذن.

وبحلول اللحظة التي وصلت فيها إلى المتنزه كانت تشعر بالغضب إلى أبعد مدى، ولكن كلا، هذه المرة ستجعل بيرت يتكلم من أجل نفسه. وعندما يعود فسوف تخبره مباشرة بما قاله لها جون بيكر، وتسأله ما الذي يعتزم فعله، وسوف تجبره على مواجهة نفسه كما هو في حقيقته، وليس على الهيئة التي صنعها له السيد بريم.

توقفت، بمجرد أن وعت أنها تتمم بصوت نصف مرتفع من بين أسنانها كما لو كانت مختلة عقليًا. تنهدت ثم هدأت من سرعة خطواتها، شيء سخيف أن تدع نفسها تحترق من أجل بيرت، والذي لن يعلم أبدًا بشأن ذلك.

كان وقتًا رائعًا من بعد الظهر في أحد أيام شهر أغسطس، ولكنها لم ترَ أي شيء من الصيف منذ أن عادا إلى البيت. كل يوم كان مفعماً بهذا التهافت السخيف. حسنًا، ماذا عساها فاعلة في حياتها الخاصة؟ ذلك هو السؤال الحقيقي، وليس بيرت في الواقع. لم يكن يجدي أي شخص نفعا

أن تعيش بهذه الطريقة. جلست على أحد المقاعد الخالية، وعلى الفور توقفت كل المحركات بداخلها والتي كانت تدور بمنتهى القوة.

كان السكون كثيفاً، السكون في وقت الظهيرة من أحد أيام الصيف عندما يكون كل شيء بانتظار برودة المساء. الحياة تتوقف، حتى إن الأطفال الصغار الذين مروا بها في طريقهم إلى حديقة الحيوان بدوا كأنهم داخل حلم وسط السكون. فبالقرب منها استسلم رجل عجوز للنوم، وجلست امرأة بلا حراك تحديق في لا شيء. المتنزه في هذا اليوم كان قلب السكون في المدينة. وراحت أشعة الشمس تندفق إليه دافئة وقوية، أرادت أن تتوقف هي أيضاً، لتكون صامتة ويتوقف عقلها عن التفكير على الأقل لبرهة، وتمددت اللحظة واستطالت إلى نحو الساعة، وبعد ذلك تقريباً إلى ساعة أخرى قبل أن تتحرك. وعندما تحركت كانت تشعر بشيء من النعاس من فرط الإحساس بالراحة. لقد فعلتها الشمس، ربما، أو الأشجار وكذلك سنجاب صغير مرح، أو وميض ورفرفة الحمام، أو ربما بعض الأطفال يتنادون بصوت خافت في المسافة على حافة حوض السباحة حيث أخذوا يحركون سفنهم الصغيرة كالمسافرين. استيقظ الرجل العجوز ومسح فمه ثم مدد جسده ورحل مبتعداً، أما المرأة فقد نهضت أخيراً، وعيناها مفعمتان بالسلام، ومشت إلى جوارها دون أن تراها.

نهضت كيت أيضاً ثم توجهت نحو الشرق، حيث يقع أقرب الشوارع، ثم أشارت إلى إحدى سيارات الأجرة واستقلتها في طريقها نحو البيت. كانت دائماً تحب ذلك المتنزه منذ الأيام التي كان فيها أقرب

ما يكون إلى جلين باري، والذي كانوا يضطرون إلى أخذها إليه كل شتاء. ولكنه اليوم قد أصبح شيئاً أكبر بكثير، لقد أصبح ما يبقي على هذا المبدأ الأساسي للحياة، ذلك أنه في قلب أعظم اضطرابات العالم يوجد السكون، كما أنه فقط من قلب السكون يمكن أن يأتي النقاء النهائي.

قابلت والدها بالقرب من باب المكتبة ينتظر قدومها، فقال لها بإقرار: «كان شيئاً مقلقاً إلى حد ما، فلم يُدَّ أن أحداً يعرف أين كنت».

أجابته: «فقط كنت في المتنزه». ثم ابتسمت له، وأضافت: «كنت بحاجة إلى الهواء».

فأجابها: «لا أستطيع أن أُلومك».

تبعته إلى داخل المكتبة، ثم جلست وخلعت قبعتها وقفازيها ووضعتهما على ساقيهما. بينما وقف هو أمام المدفأة الخاوية، طويلاً ونحيلاً تبدو عليه مسحة من الكآبة.

ثم بدأ حديثه: «كيت، كنت أفكر أنه ينبغي علينا مقابلة بريم لنجعله على استعداد لمواجهة هذا الهجوم، فمن الممكن أن يتسبب ذلك في تدمير بيرت إذا لم نتعامل مع الأمر بعناية. فالجماهير سوف تكرهه أكثر بسبب أنها كانت تقدسه كما كانت تفعل».

ظل يحدق بحزن طويلاً عبر الغرفة في لا شيء. ثم قال بتأمل: «نحن قوم بغاية الغرابة، معشر الأمريكيين، فنحن محكوم علينا بأن نكره أيّاً مما نحب. إن بذور هذه الكراهية موجودة فينا منذ البداية؛

لأن ما نكرهه حقًا هو أن نهدر أنفسنا هكذا إلى أبعد حد بأن نقدّس أي شخص. فقد غرس فينا الوصية أولئك الرجال القدامى، أجدادنا، بعمق شديد، [ليس لك أن تتخذ آلهة أخرى في حضرتي]، ولكننا بالطبع نتخذ آلهة أخرى مثلما يفعل الوثنيون، ثم نكرههم فقط بعد فترة؛ لأنه سيبقى دائمًا بداخلنا ضميرنا القديم».

فسألته: «هل يعني هذا أن بيرت إله مزيف؟».

أجابها: «أي إنسان هو إله زائف في أعين من ولد في كنف البيوريتانية والكالفنية مثلنا نحن، ثم نشأ وتربى على العرف والقانون، وهذا هو السبب في أننا محكوم علينا بأننا إذا ما أحببناه، فإننا سوف نكرهه... كم أشعر بالأسف من أجل بيرت».

لم تحر جوابًا. إلا أن شعوره بالاكْتئاب قد ازداد عمقًا وهو ينظر إليها ويجذب شاربه الرمادي ثم يسعل، كانت عينيها داكتين بشدة ومليّتين بشيء ما، لم يكن يدري ما كنهه سوى أنهما كانتا دائمًا ما تشعرانه بالألم، دائمًا. فعندما كانت صغيرة كانت عيناها دائمًا ما تشعرانه بأن عليه أن يشتري لها شيئًا ما، ولكن ما تريده الآن أبعد من أن يشتري.

ثم قال لها وهو ينقي حلقه: «كيت، أريد أن أخبرك... بأنه إذا ما قررت... قررت الطلاق أو ما إلى ذلك، فقط أخبريني بما تريدن».

قالت له بهدوء: «سأفعل يا أبي، على أي حال»، كان يعتقد بشكل أشعره بالارتياح، أنها كانت مدركة تمامًا لما حولها، وعلى الرغم من ذلك، قال لها: «إن والدتك لديها الكثير من الشعور بأهمية وقيمة كبرياء العائلة»، توقف لبرهة، ثم أجبر نفسه على المتابعة: «وهو شيء صحيح

تمامًا بالطبع، وعلى الرغم من ذلك، إذا ما كانت سعادتك هي ما يهم العائلة، فسوف نوقف حملة الدعاية».

«أشكركَ يا أبي، أعلم ذلك». كان وجهها الصغير هادئًا تمامًا.

فغمغم: «فقط أردتُك أن تعرفي ذلك».

قالت له: «أعلم، ولكنني لم أحسم أمري بعد»، ثم أضافت: «وسوف أفعل بالطبع، عندما أعلم كل شيء».

كان ذلك هو وقت الخروج من كل هذا، فقال لها بصوته المعتاد: «حسنًا، الأمر هو أن تقابلي بريم، وأن تحصلي على نصيحته، كما أفترض أنه من الأفضل لك أن تتحدثي إلى بيرت»، ثم سألها بقلق: «هل تريدين مني القيام بذلك؟». ولكن ماذا عساه يقول للرجل؟ لم يكن بينهما الكثير من الأحاديث في العموم.

قالت بهدوء، أو في الحقيقة ضحكت قائلة: «كلا». ثم قفزت واقفة على قدميها وأقبلت نحوه وقَبَّلَتْهُ واعتصرت ذراعه قليلًا. ثم قالت: «لا تقلق. لقد اعتدت على بيرت الآن، وهو محظوظ بشكل مريع، فسوف يخرج من كل هذا أيضًا».

قال لها بإخلاص: «هذا صحيح»، وشعر فجأةً بالارتياح، فقد كانت نبرتها تشبه والدتها، حساسة وواعية وواقعية، وذلك كان أكثر ما يحبه في زوجته. فمتى شعر بنفسه يتحول إلى شخص عاطفي بالطريقة التي يكرهها، والتي كان بطريقة ما لا يستطيع التوقف بمجرد أن يبدأها، فكانت تساعد فقط بمثل ذلك الصوت الهادي الدائم على مدار الأيام،

كان يعيده مجدداً إلى ذاته. كان يكره الرقة، ويخشأها في نفسه؛ لأنه كان يعلم أنها هناك في صميم أعماقه.

قال لها: «تلك هي فتاتي الطيبة»، ثم طبع قُبلة خجلى على جبهتها، والتي تصادف أن وجدها حينها بشكل ملائم تماماً أمام شفتيه.

وبمجرد أن ذهب تنهد بصوت مسموع، كان يشعر بالتعب، ففرع الجرس ودخل سميدلي، فسأله: «هل هناك بعض من الويسكي السكوتش لا يزال متبقياً؟».

فقال سميدلي: «نعم يا سيدي، زجاجة واحدة».

كان سميدلي قد ادخر تلك الزجاجة خلسة يوم أن وصل بيرت هولم إلى القمة.

قال السيد تالانت: «أحضرها»، عندما لم يكن هناك غير زجاجة وحيدة من مشروب قديم جيد، كان سميدلي يحرص على أن يشرب منها بنفسه بهدوء، رويداً رويداً. ولمَ لا؟ لقد كان يشك في ذائقة الآخرين باستثناء ذائقته، كانت الوحيدة التي يثق بها.

فقال سميدلي كمن يتصدق عليه بشيء ما: «نعم يا سيدي».

كانت كيت تتجول بقلق حول المنزل، تتمنى لو أن بيرت كان هنا حتى تستطيع أن تنتهي من هذا الأمر. ولكنه لن يعود قبل الغد.

التقطت إحدى الصحف من فوق المنضدة في الردهة حيث تصادف مرورها بها، كانت تحمل عنواناً رئيساً يقول: «بيرت هولم يزور مسقط رأسه». قلبت الصفحة بسرعة. إذا ما علمت أن بيرت لم يكن أميناً

معها في تلك الليلة في ذلك الفندق الصغير في الهند، فإنها ببساطة لن تستطيع الاستمرار معه، على الرغم من السؤال المطروح عما إذا كان هناك فارق في الحقيقة المجردة بين الكذب والخداع من ناحية وعدم اليقين من ناحية أخرى؟ هذا ما كان يشغل ذهنها حينئذ بشجن، فإذا لم تستطع التأكد من أمانته، أفلا يكون ذلك في حد ذاته أمراً لا يمكن احتماله؟ فبال تأكيد لم تكن تستطيع أن تصرخ في وجه جون بيكر من أجله قائلة: «بيتر لا يمكن أن يفعل مثل تلك الفعلة!»، وتلك كانت هي المعضلة الحقيقية، سواء أتى ذلك الفعل أم لم يأت، فقد كانت تعلم أنه من الممكن أن يكون قد فعلها.

وبمجرد أن انتهت من ذلك الطرح العقلاني المحموم لقضيتها، أخذت تقلب الصفحات، حتى وقعت عيناها فجأة على مربع إعلانات صغير مكتوب به بالخط العريض كلمة واحدة (الحرية)، توقفت وظلت تحديق فيها كأنها رسالة ما من أجلها، ورددت في قرارة نفسها: «إنها مسرحية نورمان!».

كان الأمر في الحقيقة أشبه بكونه هو من يتحدث إليها، كانت تفكر فيه منذ أن عادت إلى البيت، ولم يكن ذلك عرضاً، بل باعتباره واحداً ممن يمكنها أن تذهب إليهم، عندما، أو ربما إذا ما دعته الحاجة إلى الذهاب إلى مكان ما. والآن مع سلطانه الدرامي المميز عليها، بدأ ببساطة يخطو داخل حيرتها وتردها بهذه الكلمة الأثيرة لديه من بين كلماته، لقد منحها للتو اتجاهًا. ومع كونها مضطرة لتأجيل حديثها مع بيتر، فسوف تذهب لرؤية المسرحية، وسيكون ذلك بمفردها تمامًا

ودون أن تخبر أحداً عنه. كان من المفترض أن تذهب لتناول العشاء عند جايل مع أطفالها، حيث كان هناك حفل عشاء للمصرفيين وكان والداها وجايل وهارفي ذاهبين إليه، وكانت والدتها، التي تقوم بتنظيم أصغر أقدار العائلة، قد قالت لها: «لَمْ لا تذهبين وتحصلين على عشاءٍ دافئٍ مع أطفال جايل؟ فأنتِ لم تقومي بزيارتهم منذ عودتكِ للبيت»، لم تقم بزيارتهم بالفعل، وقد كبرا حتى إنها أصبحت تخجل منهما. لم تكن علاقتها بالأطفال حميمة قط، ولكنهم أيضاً كانوا على علاقة من نوع ما بها، علاقة هشة تشبه حكايات الجن والعفاريت، والتي من خلالها، كانت تنسج حكايات مسجوعة لمن في مثل طفوليتهم، تأخذهم بفتنتها كما تشعرهم بالخجل في ذات الوقت. جايل لم تكن تؤمن بحكايات الجن، خاصة بالنسبة للصبية، وكانا يعرفان ذلك، فكانت الحقيقة أنهما يحبان غلظة قلب بيرت معهما أكثر من لطف كيت شديدة الحساسية، وكانت أيضاً على علم بذلك. وحالما عادت إلى البيت وجدتهما الآن صبيين بحق، ولم يعودا طفلين، حتى إن ذلك روّعها، وفي ذات الوقت جعلها تنوق إلى إعادة التعرف إليهما بشكل شخصيٍّ من جديد. سيكون من اليسير بالنسبة إليها أن تدق جرس الهاتف في الدقيقة الأخيرة لتخبرهم أنها لن تأتي، وأنها قررت الذهاب لمشاهدة مسرحية.

بالطبع قام نورمان بتصميم كل شيء، كان دائماً ما يفعل ذلك في مسرحياته، كان الوقت مبكراً جداً بما يجعل لديها الكثير من الوقت لتحقق في الستائر السوداء الثقيلة التي تندفع عبرها بحروف حمراء

كبيرة كلمة (الحرية) من موقعها هنا حيث تجلس قريبة للغاية من خشبة المسرح، بدت الكلمة هائلة تخرج عن أي بؤرة تركيز بصرية. ولكن كان ذلك هو المقعد الوحيد الذي وجدته شاغراً، حتى إنها قد حصلت عليه مصادفة، بعد أن قام أحد الأشخاص باستعادة نقوده وإرجاع التذكرة الخاصة به. كانت القاعة ممتلئة عن آخرها، وعندما وصلت قبل نصف ساعة مضت، كانت هناك بالفعل علامة (مكان للوقوف فقط). معلقة، وبعد الممر الجانبي ما بين المقاعد بصفين من خلفها سمعت نقاشاً ساخطاً بشأن المقاعد، من بعض الجماهير مع مرشد المتفرجين المرتبك العاجز عن التصرف. لم تكن لديها أدنى فكرة أن المسرحية تحقق كل هذا، على الرغم من أن جايل سبق وأن قالت لها إنها تحظى باهتمام واسع. لم تتلفت حولها، غير منتظرة أن ترى أي شخص تعرفه، إلى جانب ذلك، فقد انفرج الستار أخيراً.

كل مسرحيات نورمان تعبر عن ذاته بطريقة ما، كانت قد طرحت ذلك عليه ذات مرة ولم يسعه سوى أن يسلم به على الفور، قال بهدوء: «هذا هو سبب كونها واقعية، فأنا على الأقل أعرف نفسي جيداً».

ولذلك، كانت مسرحية (المحراث) بمثابة العودة إلى عقله الخاص بعد أن أعياه مذهبه العقلي البحت، وبينما كان يعمل عليها وجد الشفاء لروحه في هيئة الفلاحين الذين نسجهم خياله. وبعد أن انتهت، كان هو قد شفي ونسي أمرهم. كل مسرحياته كانت كِسراً صغيرة من نفسه، وكل أزمة لحظية تتضخم إلى حبكة درامية تقارب الساعة، على الرغم من أنها كانت إحدى حيله أيضاً، أن تعبر من خلال التشابك اللحظي

الظاهري الضئيل لخيوط مسرحية، عن معجزة الحياة. وقد منحه النقاد ما يدعونه المقدرة على أن تكون عالميًا. ذلك أنه على المستوى الشخصي كان من هذه المنزلة، فقد كان كسرة من الكون أكثر من أن يكون في حد ذاته مجرد فرد، وإلا فكيف استطاع بكل تلك القسوة أن يفهم طبيعة حبه لها؟

ولكن هذه المسرحية (الحرية) والتي رأتها وكأن المشاهد كتاب مفتوح أمام عينيها، كانت الأكثر قربًا من نورمان عن أي شيء آخر كتبه من قبل. فقد تناول فيها حياة شاب، هو نورمان ذاته مجددًا، وكالعادة، وأظهره وهو يتجرد من كل احتياجاته الواحدة تلو الأخرى، بيد أنه دائمًا في النهاية ما يكون في حاجة إلى حب فردي عظيم. وهو ما يظل يجاهد ضده كما لو كان يجاهد موته. فقد كانت إذن العمل المسرحي الذي من خلاله حاول أن يخبرها، ودون أدنى شعور بالخزي بقدر ما رأت، أنه قد اتخذ منها رمزًا للحب. فقد أخذ نظراتها، طبيعتها، طرقها وألاعيبها في الحديث، وحتى طريقتها في نظم أشعارها، وقام بنسج كل تلك الخيوط معًا وإلباسها لفتاة سمراء نحيلة. فكانت الآن، وأكثر من أي وقت مضى، مسرورة بأنه لم يكن هناك أي ارتباط معلن بينهما، ربما يمكن لجايل أن تخمن ذلك، ولكن جايل لم تكن لتقول أي شيء عن شقيقتها.

فقط ظلت تنتظر النهاية التي كانت تعلمها جيدًا، نورمان، بالطبع، هو المنتصر، حرًا ومنفردًا. وقد شعرت بأن المسرحية وهي تنكأ ما بها من جراح وغضب، تلامس أشياء بداخلها، لأنه قد استطاع تصوير المرأة بنوع من التعاطف الرقيق والفهم العميق لطبيعة معاناتها. فقد

قام أندرو في المسرحية بمنح الحرية لهيلين، فعل ذلك دون قسوة وبمشاعر حقيقية بالأسف، في خضم ما يعانيه من ارتباك، شأنه في ذلك شأنها، بسبب دوافعه الجياشة نحو الحرية. كانت كيت تنصت، والدموع ملء عينيها، لمحاولاته المتلعثمة وهو يتصبب عرقاً محاولاً إيضاح موقفه، والأسباب التي تمنعه من الزواج بها؛ لأنه إذا ما فعل ذلك، فسوف يتيه بطريقة ما، فلم يستطع أن يشرح، ولكنه فقط استطاع أن يشعر بذلك. وفي مشاهدتها للفتاة كانت تشاهد نفسها، كانت عندئذ على أهبة الاستعداد، بمجرد إسدال الستار، لنورمان، في النصر والحرية.

ولكن الستار لم يُسدل، تذكرت الآن أنه كان قد سحب المسرحية وأعاد كتابتها وإجراء بعض التغييرات بها في الوقت الذي كانت فيه بعيدة عنه. وكان هذا ما كتبه بعد أن رحلت، هذه النهاية الجديدة. لم يكن هناك انتصار، لم يكن هناك نورمان الحر، بل كان نورمان الذي أبعد كل الناس عنه، حتى هي، ولم يستطع أن يبعد روحه. لا يزال خاضعاً لكل شيء في ذاته، لإحباطاته ويأسه، للضجر في نفسه. وفوق كل شيء إلى تلك العبودية الهائلة، والحنين إلى الحب الذي ظل يخشاه، حتى أنه ربما لن يحصل عليه. وكذلك أخيراً، إلى ذلك السخط الأبدي من السبب الرئيس الذي من أجله طرح كل شيء بعيداً، فهذا هو مَنْ أراد الحرية فوق كل شيء لم يزل يفتقر إليها. ولذلك أُسدل الستار عليه وحيداً، يرسف في أغلال العبودية، عبوديته لنفسه.

وبينما كان المسرح يضج بالتصفيق وصيحات الاستحسان، نهضت

من مكانها، مدفوعة بضرورة رؤيته مجدداً والحديث إليه. كانت تعلم أنه لن يكون هنا؛ لأنه لم يحدث أن شاهد أيًا من مسرحياته الخاصة بعد افتتاح عرضها، كان يقول دائماً: «لقد أفشيت سرها ووهبتها للناس».

لذلك اتجهت إلى إحدى الحانات عبر الشارع وأغلقت على نفسها كابينة الهاتف العمومي الصغيرة وطلبت رقم هاتف مسكنه، ربما لن يكون هناك. لم تسمع منه شيئاً منذ عودتها، ولكنها تذكرت، لأنها لم تنس يوماً، أنه كان عادة ما يبقى هناك أثناء عرض إحدى مسرحياته. وبعد برهة سمعت صوته في أذنها، نافذ الصبر كعادته، قال متسائلاً: «نعم، من هناك؟».

أجابته: «كيت».

صاح: «كيت! كنت للتو أحاول أن أكتب إليك خطاباً، ظللت أحاول كتابته كل ليلة على مدار أسبوعين».

قالت له: «لقد رأيت مسرحيتك».

سألها: «متى؟».

أجابته: «الليلة».

توقف لجزء من الثانية، ثم سألها: «هل أعجبتك؟».

أجابته بهدوء: «ليست مسألة أن تعجبني أم لا، كيف أستطيع ذلك؟ فأنا من يعلم أنها حقيقية، باستثناء النهاية، لم أكن أعلم أي شيء عن تلك النهاية يا نورمان».

فقال لها: «النهاية هي أكثر ما فيها بالكامل حقيقية».

«حقًا يا نورمان؟». جال بخاطرها أنه إذا ما كانت حقيقة إذن،
فيمكن لكل شيء أن يبرز من خلالها، سألتها: «أين أنت؟».

أجابت: «في الحانة المواجهة للمسرح».

فقال لها: «أذهبي إلى الطاولة واطلبي شيئًا، وانتظري حتى أصل
إلى هناك».

تناهى إلى مسمعها صوت إغلاق سماعة الهاتف. ثم استدارت
مبتعدة. لم تكن سوى السيدة بيرت هولم لأيام وراء أيام، ولكنها الآن
انسحبت خلصة إلى خارج قوقعة زوجة بيرت مثل فراشة خرجت للتو
من شرنقتها. واتجهت إلى الطاولة وهي تشعر فجأة بأنها تحررت من
كل متاعب بيرت. ولتدع السيدة بيرت هولم تعتني بشؤون نفسها!

قالت للبائع: «أريد آيس كريم بقطع الفراولة مع الصودا». وهناك
بجوار كابينة الهاتف خُيِّل إليها أنها ترى شيئًا بني اللون ضئيل الحجم
رصين الملامح تركته هناك، فوقف يراقبها بذعر. ماذا يمكن أن يفعل
بيرت إذا ما أسفر هذا عن أي شيء؟ بدأت بتناول الصودا بعزم ثابت.
فكرت بأنه من المحتمل أن يحدث، أي شيء يمكن أن يحدث لها،
يعتمد على نورمان. أخذت ترتشف مشروبها ببطء، مسرورة بتلك
البرودة في فمها. وجنتاها حارتان وعيناها تشتعلان تحت جفניה، ربما
حان الوقت مثلما حدث وقتما كانت بعد فتاة صغيرة تخشى الغوص،
وحينها بدا لها أن كل شيء يدفعها لقفزة كانت دائمًا ما ترفضها. عساها
تكون حين تحركت الليلة خارجة من ذلك الباب قد اتخذت القرار، من
أجل الحرية.

دخل المكان في تلك اللحظة، رأت هيئة تشبّهه منعكسة على المرأة خلف طاولة البائع وعلمت أنه هو. استطاعت تمييز هيئة كتفيه والطريقة التي تميل بها قبعته، بعدها كان يتأرجح على المقعد المجاور لها، يتسم في وجهها قائلاً: «مرحبًا يا كيت».

قالت له: «مرحبًا». نظرت إليه من فوق كأس العصير ثم تابعت الشرب.

سألها: «ما هذا؟».

أجابته بنبرة غامضة: «عصير الفراولة».

فقال للبائع: «سوف أتناول مثلها».

لم يتكلم أي منهما لبضع دقائق. بعد ذلك انتزعها من قلب الصمت الشبيه بالحلم قائلاً: «النهاية الأولى هي ما كنت أريد، فقد كانت النهاية الأصلية التي رتبته، بينما كانت النهاية الثانية هي ما أعدت كتابته».

سألته: «ولماذا أعدت كتابتها؟».

قال لها: «لأن تلك كانت الطريقة التي اتضح بها الأمر لي»، ثم أضاف بنوع من التوكيد: «ولا يزال كذلك».

قالت له: «أعرف».

فقال مدافعاً: «لا تظني أنك قد ربحت».

فقالت له وهي ترمقه بنظرة سريعة: «ولا تظن أنت أيضاً ذلك»، أرادت أن تضحك ولكنها لم تفعل، فقد كان مجرد الحديث إليه نوع من السعادة الصافية، وراح كل منهما يقذف الآخر بعباراته مثل الكرات،

وكلاهما على ثقة من أن الآخر سيتمكن من أن يتلقفها.

فقال موافقاً: «أظن أننا نوعاً ما متعادلان».

كانت النتيجة متعادلة، ولكنها كانت على علم بيقين أكبر من أي وقت مضى أنها إن مدت يدها إليه، أو أظهرت نحوه شيئاً من الاحتياج، فبإمكانها الآن أن تصنع أي نهاية تختارها.

قالت: «أتوقع أن تكون النهاية مشهداً لنورمان الساحر يسير بمفرده تحت أشعة الشمس».

قال لها: «أغلقي فمك».

أخذ البائع الذي كان يقوم بالتنظيف باستخدام خرقة مبللة على مسافة بوصات قليلة من كأسيهما يحدق في نورمان دون أن يملك من الأمر شيئاً حيال ذلك، ولكن مقولة مثل «أغلقي فمك» لم تكن لتخرج من فم رجل مهذب إلى فتاة لطيفة، ما جعله يحمق في نورمان بغضب. ثم سأله ببرود: «هل تريد شيئاً آخر؟».

أجابه نورمان: «لا»، وألقى إليه ببعض العملات النقدية. ثم قال لكيت: «أسرعي بنا هنا».

نزلت من فوق مقعدها المرتفع ثم تبعته إلى الخارج. ومن خلفهما ظل البائع يحدق فيهما، ثم هز كتفيه بلا مبالاة. معتقداً أن بعض النساء يمكنهن تقبل أي شيء من الرجل. أزاح كأسيهما جانباً وأخذ ينظف مكان جلوسهما بسرعة. فقد اعتاد رؤية العديد من الأشخاص غريبين الأطوار في مهنة كهذه.

وفي الخارج، في الشارع المظلم، أخذ نورمان يد كيت بحزم ثم وضعها على ذراعه قائلاً: «هلاً تشبثتِ بذراعي؟».

فسألته: «إلى أين؟».

أجابها: «لست أدري، معي عبر الطريق فحسب».

تمشت برفقته، وسط الحشود الهائلة المحدقة ممن يذرعون شوارع برودواي طوال الليل. وللغربة فقد كان الزحام صامتاً، غالباً ما كانت تلاحظ ذلك، أن الحشود في البلاد الأخرى تكون مرحلة ثرثرة مثيرة للضجيج، بينما هذه الحشود في برودواي دائماً ما تكون رصينة شاردة الذهن تحديق فيمن حولها. كان الناس أيضاً يتدافعون كما لو أنهم مطلوبون في مكان ما لا يزال بعيداً للغاية. ولكن ربما بدت هي ونورمان كذلك أيضاً، فقد ألقت نظرة خاطفة على جانب وجهه لترى ذلك في ذات اللحظة التي استدار فيها ونظر إليها، ثم سألها: «ألن تتغيري أبداً؟». كان صوته مبحوحاً: «اللعنة عليك يا كيت، ألن تتغيري ولو قليلاً؟ ظننت أن الزواج من المفترض به أن يفعل شيئاً في أي امرأة، يجعلها سمينية أو مسنة أو شيئاً ما، كيف يمكنكِ تسوية ذلك مع ضميرك، بأن تظلي محافظة فحسب على الهيئة التي اعتدتِ أن تكوني عليها؟».

ازداد إحكام ذراعه حول يدها، وعلى الأضواء الزرقاء المنبعثة من إحدى العلامات المضئية بالنيون رأت وجهه ينظر إليها بوحشية.

ثم قال بصوت خافت أعياه اليأس: «لحظة أخرى، وسوف أطلب منك أن تهربي من البيت والواجبات الأسرية... برفقتي».

أجابته: «حقاً ستفعل؟».

أجابها: «فقط إذا ما قدتني نحو ذلك».

فقالت له: «ربما لن أنخرط في هذا»، عندئذٍ، وبدلال أنثوي غير
أثير لديها، أضافت: «على الرغم من أنني إذا ما أردت ذلك، فسوف
أفعله».

قال لها: «انظري، نحن نواجه شيئاً ما معاً، أليس كذلك؟».

أومأت برأسها، ورأت وجهه ينعقد في عزم كمن يقرر شيئاً، فقال:
«حسناً إذن، دعينا نذهب إلى مكان ما ونبحث في أمره، فقط أين ذلك
المكان؟». عبس وجهه لبرهة دون أن يهدئ من خطواته المهرولة:
«يا لتلك المدينة العجيبة، إذا كنت تريد أن تأخذ امرأة إلى مكان ما ليلاً،
حسناً انتظري، دعينا نستقل العبارة، عبارة جزيرة ستاتين، هذا هو الحل.
إنها تتسم بالخصوصية مثل مسرح خاوٍ بعد انتهاء العرض. ظللت رائعاً
غادياً فيها لنصف ليلة كاملة عندما أردت ذات مرة أن أفرّ منفرداً بنفسي».

استقلا إحدى سيارات الأجرة، وجعلها تنتحي ركنًا بينما جلس هو
بعيداً في الركن الآخر، مغمغماً: «ليبق حدّ بيننا، فأنا أريد ذهنًا صافيًا
وأنتِ بإمكانكِ التشويش عليّ أكثر من أي شخص في العالم. تحدثني
عن شيء ما، هلا فعلتِ ياكيت، ولكن ليس عني أو عنكِ».

لم تضحك، لأنه كان يعني حقًا ما قاله. إلى جانب أنها أرادت ذهنًا
صافيًا أيضًا. شيء ما ربما يحدث هذه الليلة، شيء ما لا بد أن يحدث.
فمسارات الحياة قد تتغير، تختلط معاً أو تنفصل عن بعضها، ليست

حياتها فقط أو حياة نورمان أو بيرت، بل أيضًا حياة أناس آخرين لم تعرفهم، ولكن لأسباب غير مفهومة ارتبطت مسارات حياتها وتقاطعت معهم.

قالت على نحو مفاجئ: «كل هذا النجاح الذي حققته، يفترض أنه يشكل عائقًا لو أنك تريد الحرية يا نورمان».

قال موافقًا: «عائق لعين»، ثم قال بإخلاص: «ولكن، إنه لأمر غريب يا كيت، فأنا أحبه أيضًا. وهذا هو الجزء الغريب، كنت لأقول إنني لا أهتم بشأن كل الناس، ولكنني أهتم، يؤثر في نفسي عندما يكتب إليّ شخص ما أن مسرحيتي قد فعلت شيئًا من أجله. عندئذ أصب اللعنات والسباب على نفسي لكوني مثل أي أحقق آخر، ثم أمزق الخطاب. فأنا لا أكتب لأكون مُعينًا لأحد، مثل مبشر لعين أو ما شابه ذلك، وإذا ما كنت أكتب لأي شيء آخر غير نفسي، فإنه ربما لكي أجعل الناس مجانين».

سألته: «ألا تجيبهم أبدًا؟».

قال بخشونة: «كلا، أنا لا أريد الاختلاط بالناس!».

جلست تفكر في هذا. لو أنها كانت مع نورمان، فسوف يكون قاسيًا معها وسوف يكونان أحرارًا عبر قسوته في أي علاقة وثيقة من المحتمل أن يقوموا باختيارها. وسوف يكون عليها أن تتعلم كيفية تحمل القسوة، ما لم تتعلم كيفية استخدامها. ولكن القسوة كانت هي الثمن لقاء الحرية، فلو أنها قالت لبيرت على سبيل المثال إنها تريد حريتها منه، فسوف يكون عليها أن تحصل على القسوة من مكان ما... ربما من نورمان لكي تفعلها، على الرغم من أنها لو فعلت ذلك بتعجل،

على فرض أنه تم غداً، فربما عليها أن تحتفظ بما لديها حالياً من قسوة حاضرة في داخلها لفترة طويلة بما يكفي لإتمام ذلك.

قال نورمان: «ها قد وصلنا»، قام بدفع أجرة السيارة ثم صعدا فوق سطح العبارة، لم يكن هناك أحد بالقرب منهما، باستثناء رجل عجوز ضئيل قد لفّ رأسه بكوفية رمادية، على الرغم من الأجواء الصيفية، ووضع قبعته فوق رأسه. وهو يهرول أمامهما.

قال لها نورمان: «هيا بنا، من هذا الطريق، هناك ركن منعزل أعرفه». ثم قادها إلى الأمام وهو يردف: «أخبريني، كيف أحوال بيتكِ؟». أجابته: «بيرت مسافر...».

قاطعها قائلاً: «فهمت ذلك، وجهه منتشر في كل مكان!»

تغاضت عن ذلك وتابعت: «والدتي والدي خرجا لتناول العشاء. لو أنهما كانا بالبيت فسوف يظنان أنني بأمان في مخدعي».

جلسا معاً مستتران بالدرج وبدأت العبارة في التحرك. لم يشعر أي منهما بشيء سوى بانسحاب الأضواء بهدوء، ظلت تراقبها وهي تجلس منتصبّة القامة ومنتحية جانباً على مسافة منه إلى حد ما. بينما قلب نورمان ياقة قميصه ووضع يده في جيبيه، كانت تظن أن ذلك ما زال يحافظ على صفاء ذهنه. وعندئذ تحدث فجأة قائلاً: «الآن إدّن... ما رأيك في الزواج بي، يا كيت تالانت؟».

روّعها المفاجأة حتى إنها بدأت تتلعثم كما كانت تفعل عندما كانت طفلة صغيرة.

فأخذت تتمتم: «أنا... أنا...»، وبدأ قلبها يخفق بعنف، فقال لها بلهجة أمرة: «توقفي وابدئي بالعد عشرًا». ثم انتظر لبرهة وعاد يقول: «بعد ذلك ابدئي من جديد».

بدأت تتحدث ضاحكة: «ما أردت أن أقوله هو ... إنني لم أتوقع منك أن تقول ذلك على الفور، كنت أظن أننا سوف نتحدث قليلًا في هذا الشأن».

قال لها: «طرح عليك السؤال».

فقالت متسائلة: «وماذا عن الحجج المؤيدة والمعارضة؟».

فقال بحزم ودون إبطاء: «أعرفها جميعًا عن ظهر قلب، وهي في معظمها معارضة أيضًا، في الحقيقة كلها معارضة، فأنا أكره الزواج بزوجة رجل آخر، أكره كالجحيم ذلك اللغظ الصاخب وشهرة الزواج بزوجة رجل مثل بيرت هولم. أنا لا أريد الزواج بأي شخص. لدي بيت ولا أريد أي أطفال. أما الحجة اللعينة الوحيدة المؤيدة فهي ما يبدو من أنني سأظل مستمرًا في حبي لك».

ماجت المشاعر والذكريات في قلبها واندفعت بها عبر سنوات للوراء إلى لحظة أخرى، عندما انهال بمعوله على قلبها، ومزق حياتها إلى شظايا.

فسألته: «وكيف لي أن أعرف الآن أن هذا كافٍ؟ كيف لي أن أعرف أنه من المحتمل في وقت ما أنك لن تقول مجددًا أنك لم تعد تحبني بما يكفي لتكمل معي الطريق؟».

قال بصوت خفيض: «لست أدري. فربما سأقول ذلك في بعض الأحيان، وحينها، ربما أشعر أحياناً أنني أتمنى لو لم أتزوج، وأنتِ تعلمين أنني حين أشعر بها سأقولها. لا أستطيع أن أخفي شيئاً». كلا، لم يكن ليخفي شيئاً قط، هكذا تعتقد. فإذا ما كانت هي ونورمان متزوجان، فكل شيء في الحياة بينهما سوف يكون على ما يرام. ولن يكون هناك صمت.

«تعلمين ما الذي أعنيه يا كيت». يأتيها الآن صوت نورمان من قلب الظلام، هادئاً، ولكنها لم تعد تسمعه بوضوح تحت رذاذ الماء المتناثر من لطحات الأمواج على جانب العبارة: «تعلمين أنني سوف أغير من شيء لآخر، ولكن فقط إذا لم تأخذي ذلك مأخذ الجد، أو ...، لو أنكِ تستطيعين تذكر أنه ربما أعود غداً إلى الطريقة التي أشعر بها الآن». قاطعته متسائلة: «وكيف تشعر الآن؟».

أجابها: «تماماً مثل ذلك الرجل الذي رأيته عندما أسدل الستار فوقه».

ظلاً جالسين معاً لوقت طويل. وعادت الأضواء المتفرقة تقترب على الشاطئ الآخر من جديد. كانت تشعر بشيء من البرد، ولكنها لم تشأ أن تتحرك، خشية أن تضطرب سلاسة وسرعة أفكارها؛ لأن عقلها كان يفكر بإيقاع صافٍ إلى أبعد حد. فالمرء لا يمكنه أن يتخذ قراراً بشأن حياة كاملة هكذا بشكل مفاجئ، أليس كذلك؟ ليست من ذلك النوع على الأقل. فما كانت والدتها تدعوه «الأمور الواجب وضعها محل الاعتبار» لا يزال ينتظرها. وكيفما أَلقت بهم الآن بتهور إلى رياح

هذه الليلة فسوف يعودون مجددًا. وهي ليست من تطرح الأشياء عنها ثم لا تفكر بشأنها ثانيةً. صحيح أن بإمكانها أن تضرب بهم جميعًا عرض الحائط، ولكن عندئذ ربما تتذكر. فعلى سبيل المثال، إذا ما كانت تستطيع الوثوق بأنها لن تعود للتفكير بشأن بيرت مجددًا... كلا، بل لنطرحها هكذا، إذا ما كانت تستطيع الوثوق بأنها لن تفكر ثانيةً في أي شيء سوى نورمان، هو فقط! إلا أنها لم تكن امرأة عزباء. كانت هناك زوجة بيرت هولم، والتي -على الرغم من أنها كانت شبحًا تخلصت منه بمرور الوقت وخلفته وراءها- ربما ما زالت تنتظر حيث كانت.

غمغم نورمان: «يا للمسيح، أريد أن أقَبِّلَكَ. بل عليَّ أن أقَبِّلَكَ».

شعرت بالارتباك تعلو وتيرته في رأسها، ثم تنحسر مجددًا أمام رغبة واحدة، أن تستدير نحو نورمان وتبادله قُبلة بقُبلة. كان ذلك احتياجها الأولي. ولكنها في حيرة من أمرها، فقد ترددت في أذنيها أصداء كل الأشياء التي تعرفها، فإذا ما قَبَّلَتْ نورمان وتَلَقَّتْ قُبْلته فلن يكون الأمر مداعبة فحسب. جايل يمكنها أن تعتبر القُبلة مثل قطعة نقود فضية صغيرة يمكن تبادلها هنا وهناك، أما عنها، كيت، فذلك أمر مستحيل، أيًا كانت الظروف. وفي هذا الظرف تحديدًا، كانت تعرف جيدًا، وكذلك نورمان أيضًا، أنها ليست مداعبة على الإطلاق. فإذا ما تلاقت شفاههما فسيكون ذلك بمثابة وضع المشعل أخيرًا على الصوفان، والصوفان الذي يوضع في تلك النيران اللامتناهية ينتظر أن يتوهج بينهما ويحيط بكليهما، ومعهما الملايين من الناس.

انترعها من بين أفكارها بصوت أجش: «كيت!» كانت ترى النار في عينيه تضطرم وتنعكس على وجهها وسط الظلام.

فقال بضعف: «نورمان، إنها ليست مجرد قُبلة».

غمغم: «لا يعني ماذا تكون يا كيت!»

مد يده نحوها، كانت خائفة وبغاية الشوق، وارتجفت وأخذت يداها ترتعدان تحت يديه. وعندئذٍ، وحينما لم يَبْقَ سوى أن تميل نحوه، توقف شخص ما فجأةً إلى جوارهما، وارتفع صوته يقول بضعف: «معدرة، ولكن هل يمكنك أن تعطيني ثمن فنجان من القهوة؟».

كان ذلك الرجل الضئيل الذي يحيط رأسه بكوفية تحت القبعة، وفي نفس الوقت ارتطم المركب بحافة الرصيف وارتجَّ ثم توقف.

قال له نورمان بغضب شديد: «لا».

فقال الرجل بضعف: «أوه يا عزيزي».

أخرج نورمان بعض النقود ومنحه إياها قائلاً بغضب:

«إليك ...، فلتحصل على مشروب حقيقي».

قبض الرجل على النقود المعدنية وهرع إلى جوارهما نحو الرصيف. كانت الأضواء تتلألأ فوقهما الآن بوضوح، بل في غاية الوضوح. ولم يتمكنوا من الاستمرار.

فقال نورمان بصوت مرتفع: «اللعة!» لم تجب، نهضت بقلق ومشت إلى السياج، لم يصعد أحد على السطح، وفي خلال ثوان معدودة عادت العبارة إلى الورا ثم أدارت أنفها نحو الأضواء البعيدة.

ولكنها لم تعد إليه في الظلام، وفي النهاية نهض نورمان واتجه نحوها، فقالت له: «نحن عائدان إلى حيث أتينا».

فقال لها: «يبدو أنه كذلك».

والغريب حقًا، كيف يمكن للحظة حية، تبدو حتمية الحدوث بل وعلى وشك أن تحدث، أن تنفلت من الوجود، لسبب شديد الحماسة كذلك الذي حدث، ثم لا تعود إلى الحياة مجددًا! ولكن خلف ذلك الرجل الضئيل، كانت هناك ملايين الظلال.

أخذت تتمشى لفترة فوق وتحت سطح المركب، وكان نورمان يمشي إلى جوارها، حتى إنهما لم يتحدثا معًا سوى لمرة أو مرتين، من جانبه كان يسألها إذا ما كانت تشعر بالبرد، أما من ناحيتها فأجابته بالنفي، ثم عن الأضواء وكيف اقتربت منهما كثيرًا الآن. وطوال الوقت لم يجد أي منهما تلك اللحظة المفقودة مجددًا.

فقط في النهاية، عندما توقفت سيارة الأجرة أمام باب بيتها، وضع يده على حافته وهو يقول لها: «كيت، أنا أعني تمامًا ما قلته».

- أعلم ذلك.

- ما الذي تنوين فعله بشأني؟

- عندما أعلم، سوف أخبرك.

- طابت ليلتك يا صغيرتي.

- طابت ليلتك يا نورمان.

تلامست أيديهما، ثم تشابكت، ثم افترقت.

لم تكن هناك فائدة من محاولة النوم. ظلت تتقلب في فراشها بما يكفي، محاولة أن تجد بقعة تستطيع أن تشعر فيها بالراحة. ولكن لم يكن من الممكن الشعور بالراحة بينما يحتدم النقاش في داخل ذاتها غاضبًا. دار بخلدها، بينما عقلها يلقي بنظرة خاطفة لبرهة من الزمن، كم هي رائعة تلك الأيام عندما كان الناس يتخذون قرارهم حيال ذلك الجدل من منطلق أخلاقي. فعلى سبيل المثال، لو أنها تعلمت فقط مثلما تعلمت جدتها أن الطلاق شيء خاطئ، أي طلاق لأي سبب، فكم كانت الأمور ستصبح يسيرة! بينما كانت مهمة المرء في العصر الحديث في أن يقرر بنفسه في كل ما يخصه من شؤون، أمرًا مروعًا.

ولكنها كانت، على مدار الساعات التي مرت منذ تركت نورمان، قد قطعت شوطًا طويلًا من مكان ما إلى مكان آخر. اختبرت من قبل أثقال الروح التي تدعوها والدتها بالاعتبارات، وها هي قد ألقت بها من السفينة واحدًا تلو الآخر، العائلة، على سبيل المثال، والتي تضعها والدتها في مقام رفيع، نعم وكذلك جايل أيضًا وهارفي معهما، ولكنها لن تعاني أي شيء إكرامًا للعائلة. وإذا ما كان آل تالانت أشرافًا متميزين للغاية، فإنهم إذن يستطيعون الصمود في وجه أي شيء. كما أن الوطأة العظمى سوف تقع عليها وحدها، على أي حال، وليس على بيرت أو حتى على آل تالانت. هي، كيت من ينبغي أن تتلقاها، وسوف تكون مضطرة لأن تتلقاها. وسوف تصرخ كل نساء الأمة على الأقل بأنها هجرت بيرت. ولن تدرك أي منهن حقيقة الأمر قط. حسنًا، فلندعهن يُسِنَّ الفهم، فقد ضربت بهن جميعًا عرض الحائط. وبالنسبة للجماهير،

هذه الجماهير التي عمل السيد بريم على خدمتها بمذلة وخنوع، والتي لم تكن سوى وحش لا يشبع أبدًا، لا شيء يشبع رغباتها على الإطلاق؟ إذا انحنيت لهم ضجروا منك، وإذا لم تنحن، كرهوك ومزقوك إربًا. إلى جانب أنه على الرغم من أنها قد أسلمت حياتها إلى حلمهم الأعمى، فما الذي تستطيع الجماهير أن تقدمه إليها في المقابل؟ لن يمكنها أن تمنحها ذلك النوع من الصحبة الذي تفتقر إليه، ولن يمكنها أن تمنحها ذلك النوع من الحب الذي يمكنه أن يصنع بيتًا للقرب والدفء والمرح اليومي الحميم.

وفجأة، هبطت على رأسها فكرة سطعت كالضوء: «إذا تزوجت بنورمان فسوف أشعر بالرغبة في الإنجاب!»، الميلاد فحسب هو مجرد شيء خاوٍ من أي معنى. فالطفل يجب أن يأتي ثمرة لنبته مزهرة، وإلا فلا فائدة من إضافة كائن آخر إلى هذا العالم الأحمق. وقد كانت على حق في عدم إنجاب أطفال. وكان نفورها من الأطفال غريزة سليمة، فأطفال بيرت سيكونون ببساطة رهناً للجماهير، ولن يكونوا أبدًا ملكًا لها. إلى جانب أن الأطفال يتكونون مما هو أكثر من مجرد اللحم والدم فحسب. استيقظت أخيرًا، على الرغم من أن الفجر قد بدأ للتو، وأخذت حمًا ثم مشطت شعرها طويلًا في محاولة منها لتهديء رأسها. وسط ارتباك مثل ذلك السائد من حولها، كان ما عليها فعله هو أن تخطط جيدًا لخطواتها. لقد رأت نورمان. والآن لن تراه مجددًا حتى يصفو ذهنها من أي اضطراب. فمعنى أن تراه ثانية هو أن تثقل على قلبها بأكثر مما يحتمل ضد بيرت. كلا، بل يجب أن تكون الخطوة القادمة أن ترى

بيرت. ووسط كل هذا الارتباك أدركت شيئاً لم تدركه من قبل، أنه حتى هذه اللحظة لم يعد بيرت إلى المنزل بعد، وحتى هذه اللحظة لم يخطُ بقدميه أمام عينيها، هل سيكون حقيقياً مجدداً. فمنذ أن رحل لم تستطع أن تتذكره، فلم يكن هناك شيء في شخصيته يمكنها أن تتمسك به، ليس ثمة قول أو فعل يمكنهم أن يتساندوا معاً ليجعلوا منه شخصاً محدداً. وبرغم أنها متزوجة به الآن منذ وقت طويل، إلا أنه ما زال غامضاً وغير مباشر نحوها حتى هذه اللحظة. طويل القامة، وسيم، ذو صوت رنان، وعينين زرقاوين براقيتين، وشعر ناعم مسترسل غزير، وماذا أكثر من ذلك؟ لا شيء، إلى أن تراه هناك أمامها، وتدع هذه الأشياء تظهر له مجدداً.

وضعت حول جسدها ذلك الثوب المنزلي القديم ذا اللون الأزرق المخملي، وجلست على مقربة من النافذة. ينبغي عليها أن تنتظر بيرت إذا كانت تريد لقرارها أن يكون عادلاً، ولن تكون راضية عن أي شيء يأتيها، إذا لم تحقق تلك العدالة. يجب أن يقدم نفسه إليها، وفي حضرته يجب عليها أن تقرر وجهتها القادمة. أما نورمان فلا حاجة بها لمقابلته؛ لأنها لم تستطع أن تنساه. كانت تراه بغاية الوضوح، وتشعر به بمتهى القوة، كما لو كان في هذه الحجرة. لا شيء يمكنه أن يبعد صورته. بينما أخذ عقلها يعمل على جانب آخر مجدداً، إذ يسأل: «إذا كنت أراه بوضوح شديد، وأشعر به حاضراً بقوة، أليس هذا برهاناً كافياً؟ لماذا أظل إذن ممسكة عن الاقتراب منه؟».

أما كونها لا تزال في حالة من الإحجام قبّله، فهل كان ذلك بسبب تذكرها للجرح القديم الذي عانت منه ذات مرة، أم لأنها كانت تعلم أنها ربما تُصاب بجرح مرة أخرى؛ لأن نورمان ستكون لديه المقدرة دائماً لجرحها، لم تكن تعلم على وجه اليقين. وبعد فترة وجيزة أدركت أن كل هذه الأشياء لا شأن لها بإحجامها. فأن تُصاب بجرح لم يكن شيئاً ذا بال، فقط إذا ما كانت النهاية صحيحة. كلا، ليست العائلة، وليس تلك الجماهير الباردة المقيتة، ولا حتى جرحها القديم هو ما يعوقها. ولا حتى بيرت، لكي تكون صادقة، أم أنه هو؟ لم تستطع الإجابة. ففي هذه اللحظة كان مجرد شبح.

وبعد وقت طويل شعرت بالإرهاق بما يكفي لجعلها تكفّ عن التفكير أو حتى تستلم للنوم. أسدلت الستائر ونزعت عنها ثوبها ثم ذهبت إلى فراشها وسحبت الأغشية فوق جسدها. في الحقيقة لم يكن هناك ما هو أكثر من ذلك لتفكر بشأنه. فقد أتم عقلها جولته، مراراً وتكراراً، وكان يتوقف في كل مرة أمام ذات النهاية الهامدة، انتظاراً لعودة بيرت.

نامت بعمق شديد حتى إنها لم تستطع بالكاد أن تستدعي نفسها من أعماق نومها لتكتشف ما هذا الذي كان يحاول إيقاظها. شيء ما كان يوقظها. أحست بشعرها ينجذب، وبلدغة خفيفة في وجنتيها، وبيد تمازح راحة يدها، وتهز كتفيها. وأخيراً، بعد جهود جهيدة، سمعت صوت بيرت: «كيت، أنتِ لستِ ميتة، أليس كذلك؟».

فغمغمت بكلمات مبهمة: «لا، لا، لا، أعتقد العكس».

- إِذَنْ استيقظي يا كيت! لقد عدت!

عاد بيرت! إِذَنْ لا بد وأنه سيكون عاجلاً، لقد نامت طوال الصباح،
والآن، تجاهد إحساسًا بالإرهاق والتكاسل، فتحت عينيها، نعم، إنه
هنا. أخذت غمغم: «طويل... وسيم... ذو عيين زرقاوين...».

سألها مندهشًا: «ماذا تقولين يا كيت؟».

غمغمت مجددًا: «آت من كتاب...»، لا يعينها إذا لم يفهم شيئًا! لم
تكن لديها القدرة على أن تزعج نفسها بالإيضاح.

صاح بها: «كيت، ماذا بك؟».

اعتدلت جالسة ثم قالت فجأة: «لا شيء». ولكنها شعرت بشيء
من الدوار، فاستلقت مجددًا. وقالت له: «لم أستطع النوم لوقت طويل،
ولذلك فقد نمت كثيرًا في النهاية، وهذا هو كل شيء».

كان يحدق فيها: «ألم تخرجي لحفلة صاخبة أو شيء مثل ذلك؟».

هزت رأسها نفيًا: «ذهبت لمشاهدة مسرحية بمفردي، وبعدها
تحدثت لفترة مع كاتب المسرحية!»

- مَنْ؟

- نورمان لينلاي.

قال لها: «هو!» وبدت عليه فجأة علامات الإحساس بالخطورة،
«أظن أنك يجب أن تخجلي من نفسك يا كيت».

لم تجب، وتمنت لو أنها لم تخبره شيئًا عن نورمان، ولكنها كانت
مرهقة للغاية لأن تفكر حتى في ذلك. إذا استيقظت وأخذت حمامًا باردًا

ثم ارتدت ثيابها وتناولت طعام الغداء، عندئذ ربما يمنحها ذلك بعض القوة، لذا استيقظت وارتدت ثوبها.

قال بيرت، وهو يراقبها مستلقية على وسادتها: «أمي ترسل إليك حبها وأشواقها». قاومت شعورها بالنفور من ذلك وهي تقول: «حقاً؟ شكرًا». وبدأت تمشط شعرها وتسأله: «كل شيء كما هو؟».

- نعم، فقط كان عليك أن تأتي معي، يا كيت. كانوا سعداء جدًا برؤيتي، المدينة كلها كانت في فرحة حقيقية».

كانت قد قررت أنها لن تتكلم حتى ترتدي ثيابها وتأكل شيئًا. ولكنها الآن استدارت فجأة نحو بيرت، ممسكة بيدها فرشاة شعرها بإحكام، وسألته: «ولي لي أيضًا؟».

لم يكن ذلك على أقل تقدير هو ما كانت تعتزم قوله، بل إنها حتى لم تفكر بشأن لي لي لأسابيع قبل هذه اللحظة. أخذت تربت بسبابتها على فمها كطفل وظلت تحديق فيه.

فانتفض من مكانه متسائلًا: «ماذا تقصدين بحق الجحيم؟». كان قد بلغ مكانها وهو يتكلم وجذبها من يدها واعتصرها في يده. ولكن ما أدهشها بشدة أنها لم تشعر بالألم.

بل قالت بصدق: «لست أدري، ليس لدي أدنى فكرة لماذا قلت ذلك، لم أهتم حقًا بشأنها لوقت طويل. بل ربما في الغالب أنني نسيتها، بكل صدق يا بيرت».

قال لها بغلظة: «هل تقصدين أن تخبريني...».

قاطعته: «أنني أعلم؟ أوه نعم يا بيرت. كنت أعلم منذ وقت طويل». فقال لها: «وتتركيني أفكر...».

قاطعته مجددًا: «ولمَ لا؟ لِمَ لا أتركك تفكر، وقد تركتني أفكر؟». بدأ يتلعثم وهو يقول: «ولكنك لم تخبريني...».

فقالت بحدة: «وأنت لم تخبرني. إلى جانب أنني قد أخبرتك بكل ما عليّ أن أخبرك به يا بيرت. أخبرتك بشأن نورمان في ذلك اليوم، وانتظرت منك أن تخبرني عن لي لي، ولكنك لم تقل شيئًا على الإطلاق. وهذا ما أعترض عليه، وسأظل أعترض عليه، أنك لا تقول أي شيء أبدًا».

غمغم: «لقد انتهى كل شيء عن ذلك، قبل أن أراك بوقت طويل». سألته بعنف: «كان هذا سببًا أدعى، فلماذا لم تخبرني؟». أذهلها كم الغضب الذي تشعر به، فليست هذه طبيعة شجاراتها مع بيرت! كان ينظر إليها، كلا، لقد كان مبهوتًا، فوجهه كان فقط صورة للارتباك والبراءة الكاملة.

فقال ببطء: «لا أعرف، فقط لا أعرف لماذا يا كيت. لم أخطط للأمر بهذه الطريقة. في البداية لم أرد أن يزعجني المراسلون، وبعد ذلك عندما قلت شيئًا ما فسيكون من المضحك أن أقول شيئًا آخر». فقالت كأنها تعتصره: «ولكن ماذا عني أنا!».

فقال متلعثمًا: «أظن...، أظن أنني فكرت بأن ما لا تعرفينه لن يؤذيك في شيء».

فقلت بخشونة: «وها قد فعل. أتفهم؟».

لم يجبها، بدلاً من ذلك، جلس على حافة السرير وأسند ذراعيه على حافة المسند ثم أخفى وجهه بين ذراعيه. وقفت تنظر إليه. ترى ما الذي يدور في رأسه؟ لم تكن لديها أدنى فكرة عن ذلك.

ولكنه رفع رأسه فجأة ليسأل: «هل يعرف بذلك أحد آخر؟».

أجابته: «والدي ووالدتي والسيد بريم، وأنا...، هذا كل شيء». وربما بعض الصحفيين، ولكن لم يسمع أي منهم شيئاً من أحدنا. فقد احتفظنا به سراً».

وقف على قدميه، وأشاح بوجهه بعيداً عنها، ليسوي رباط عنقه، ويعيد تصفيف شعره، ثم نظر إلى أظافره. كانت تستطيع أن ترى غريزته الحمقاء في تكتّم الأشياء تحاول تبرير ذاتها، على الرغم من أنه لم يكن ينظر إليها.

قال مبرراً: «كان طلاقاً عادياً».

فقلت بهدوء: «أعلم كل شيء، أخبرني لي لي تقريباً كل شيء». استدار محدقاً فيها وهو يقول: «لي لي أخبرتك ذلك؟»، ورأت أنه لا يستطيع تصديقها.

فقلت بذات الصوت الهادئ: «ذهبت لرؤيتها عندما كنت مريضاً يا بيرت».

كان ينظر إليها الآن بحرقة شديدة، ثم عاد يقول: «كل الأشياء البذيئة التي يمكن لزوجة أن تفعلها...».

فقاطعته وهي تذكره مجددًا: «لماذا؟ سمعت الكثير من الشائعات، وأنت لم تخبرني أي شيء»، فقد كانت تعرف أنه ينبغي أن تعيد على سمعه الأشياء مرارًا وتكرارًا، أو أنه سيلوذ بالفرار منها كما يفعل دائمًا. فسألها: «كيف كنت أستطيع ذلك بينما كنت مريضًا؟». فردتها عليه: «كان هناك شهور عديدة قبل مرضك، أليس كذلك؟». ظلت على مثابرتها لتبقي صوتها ودودًا لطيفًا.

بينما لا يزال عازفًا عن الكلام.

فقالت مجددًا: «بيرت!».

عندئذ رأت أنه من جديد قد حسم أمره بأنه لن يجيئها. فشعرت فجأة أن الأرض تميد بها من شدة الغضب، فقالت: «إذا لم تجبني، فلن أستمع معك، هذا حقيقي، فهذه المرة حاسمة بالنسبة لي».

للحظة اعتقدت أنه كان ليقفز نحوها، يضربها، ويهزها بعنف، لذلك فقد أبقّت نفسها متأهبة لأي شيء. ولكن بدلًا من ذلك انفجر قائلاً: «ما الذي تريدني أن أقوله؟ سوف أقول أي شيء، اللعنة، لقد تعبت من النساء».

فقالت له: «حسنًا يا بيرت، دعنا لا نتحدث عن النساء، أنا لست أدري لماذا بدأت بهن على أي حال، ولكنها ليست هي المشكلة الحقيقية، دعنا نتحدث عن الرجال، لماذا لم تخبرني بما قاله الرجال لجون بيكر، عما كانوا يمسكون به ضدك؟».

قاطعها قائلاً: «كيت، إذا لم أكن أخبرك بما عندي دائمًا، فهذا ليس

كذبًا، فأنتِ تشعرينني دائمًا بأنني أكذب عليكِ لأنني لا أخبركِ عن شيء ما».

كانت هيئته بعينيه الذاهلتين وصوته المتهدج غضبًا تحاصرهما وتزيد موقفها حرجًا، فلم تستطع بأي حال أن تقول له: «نعم أظن أنك كذلك يا بيرت»، مع أنها لم تكن تعتقد ذلك. ولكن إذا لم يكن يقصدها على هذا النحو؟ ها قد بدأ الآن يهزها مجددًا، ذلك أنه للأسف، كانت له للأبد، هاتان العينان الزرقاوان الصافيتان!

فعادت تقول بحيرة وارتباك: «وإذا ما كان الرجال على حق...». قاطعها بعجلة: «كيت، إذا كان الرجال على حق فسوف أقول ذلك، بالتأكيد، فهذا هو التصرف الوحيد اللائق».

فقالت له: «يمكن لذلك أن يدمر حياتك»، فنظرت إليه، تقيّم ما يقول، هل سيعترف بنفسه حقًا؟ لم تصدق أنه يستطيع ذلك، فقال بذكاء: «سوف يكون على بريم أن يعمل على ذلك».

وعندئذ تغير وجهه مجددًا بنوع من المشاعر لم ترها فيه من قبل قط:

«كيت، ربما لن تفهميني عندما أقول ما أنوي قوله الآن، ولكنها الحقيقة، فأنا لست الشخص الذي اعتدت أن أكونه قبل أن يحدث لي كل ذلك، أقصد، أن الطريقة التي يشعر بها كل هؤلاء الناس تجاهي جعلت مني شخصًا مختلفًا».

تردد قليلًا، ثم رمقها بنظرة خاطفة مرتبكة.

سألته: «ثم ماذا يا بيرت؟». على الرغم من أنها لم تعد تحبه إلا أنها شعرت أنها تريد أن تساعد في الدفاع عن نفسه إذا ما استطاعت. ما سر تأثير ذلك السحر الذي لديه، حتى عليها؟ يقف على قدميه، طويلاً ووسيمًا أكثر من أي وقت مضى، ما زالت تستطيع أن ترى وسامته حتى الآن، كما كان صوته فائناً وخجولاً أمامها.

«ما أقصده، هو أنني اعتدت أن أفكر في نفسي، يا كيت، سواء كنت أحصل على ما أريده في أي مكان، أو أنني فقط أقضي أوقاتاً سعيدة وأحصل على ما أريده من طعام، الآن أنا مختلف، أشعر أنني مسؤول عن نفسي».

لم تكن لديها أدنى فكرة عما يعنيه، فجلست على السرير تحدق فيه. هل كان هناك شيء ما يجري داخل بيرت حتى أنه أفلت منها بالكامل؟ كان ينظر إليها بجدية: «أنت لا تفهمين كيف تغيرت يا كيت، ولكنني أقول لك إنني تغيرت، فلم أعد أشرب الخمر على الإطلاق، ولا أنظر إلى أي فتاة، حتى بالطريقة التي يفعلها الرجال المتزوجون عندما لا يقصدون أي شيء، لأنني لا أشعر أنه يجب أن أتصرف مثل أي شخص عادي، وطوال الوقت وأنا أتسلق ذلك الجبل ظللت أقول لنفسي: 'بيرت هولم، الآلاف من الناس يفكرون فيك، الآلاف من الأمريكيين الطيبين يقولون: «ها هو بيرت، أملنا!» وكلهم يريدون منك أن تصل إلى هناك'. وعندما كنت أشعر بدوار من الرياح الباردة والثلوج تتطاير في عينيّ وحتى دمائي بدا أنها تتألم وهي تتجمد في عروقي، ظللت أواصل طريقي لأن هذا هو ما يتوقعون مني أن أفعله».

ثم أتى إليها ووضع ذراعيه حولها ثم قال لها: «هذه هي الطريقة التي أعيش بها الآن يا كيت».

وقفت، وتركته يمسك بها، وأبعدت قرارها مجدداً، فلم تكن لتقول له: «ولكنك قلت في تلك الليلة في الفندق أنك كنت تفكر بشأني!»، فقد كان يصدق ما يقوله بنفسه أيّما كان، وهي على علم به، وتعلم أنه لا حيلة له في ذلك. كلا، بل إن كل ما استطاعت أن تفعله هو ألا تقرر شيئاً بدافع الشفقة أو تفهّم الأمور أو أيّما ما كان من شأنه أن يجبرها على شيء أو يعوق إرادتها. وذلك السحر الكامن في داخله مثل طفل صغير والذي وهبته إياه الطبيعة، كان شديد الغرابة، مثل أن يولد شاعر في بيت طحّان، أو موسيقيّ عظيم في كوخ لأحد الفلاحين. لم تكن لتفكر في نفسها الآن، وسوف تؤجل نفسها مجدداً من خلال أي مشكلة تنتظره وبعد ذلك، ربما، سوف تشعر بالحرية.

فقال وهو يطلقها لتذهب: «أنا جوعان».

فقالت له: «وأنا أيضاً»، وشعرت فجأة أنها في حاجة إلى الطعام فحسب.

لم يعد هناك وقت لتضيقه قبل أن ترى السيد بريم. طوال الوقت كانت تأكل وتنصت إلى بيرت، بينما عقلها كان يتدبر أمر ما ستقوله للسيد بريم. فهو يجب أن يرى جون بيكر في الحال قبل أن يذهب إلى السيد كانتني. ذلك أن جون بيكر كان قد قال إنه يجب أن يخبر السيد كانتني أولاً، باعتباره الرجل الذي استثمر آلاف الدولارات في تلك البعثة.

عادت تسأل نفسها مرة أخرى وهي تراقب بيرت عبر الطاولة:
«يا للعجب، لماذا عليّ أن أهتم؟». فهو الآن يضحك لكل شيء بعد
أن شعر بأن كل ما بينهما قد صار على ما يرام من جديد، كانت تراقبه
بعينين مستقلتين مثلما لو أن جايل هي من تراقبه.

فقالت له مبتسمة: «أنت حقًا جميل المظهر بشكل بغض يا بيرت».
فرد لها عليها دون ذرة غرور واحدة: «هذا ما تقوله لي جايل دائمًا».

والشيء المدهش هو أن ذلك حقيقي تمامًا، فهو ليس مغرورًا،
كان لديه كم هائل من الخيلاء اللاواعية، وحظ عظيم من التمرکز
حول الذات والأنانية، إلا أنه كان على الرغم من ذلك لطيفًا خاليًا من
الغرور السخيف. ومن الأمانة القول بأنه لم يكن يعبأ حتى بما حبه به
الطبيعة من جمال. فقد تقبل هذه الحقيقة بهدوء ورضى ذاتي عظيمين،
ولكنه كان رضىً بريئًا. كما كان حقيقيًا تمامًا أنه كان مختلفًا، وما لم
تستطع هي أن تغيره في شخصيته، من التجهم والعبوس، الكسل وعدم
المبالاة في الملبس بل وحتى في النظافة، كان الملايين من الناس هي
من لديها القدرة على فعله ببساطة، بمجرد تقديسه فحسب، ولكن ما
قام بتغييره في النهاية هي رغبته، يستيقظ ببطء وثاقل ولكن في النهاية
بثبات، ليحاول أن يكون بقدر ما يستطيع ما يعتقدونه عنه. حتى أصبح
إلى حد كبير على الهيئة التي صنعها تقديسهم له، أو على الأقل أصبح
يبدو كذلك. ولن تستطيع أبدًا أن تجزم إذا ما أصبح حقًا على هذه الهيئة،
أو أنه فقط يبدو كذلك. فالبساطة في أشد صورها كانت مذهلة تمامًا

في طريقتهما مثل التعقيد، حتى ليشك المرء أنها يمكن أن تكون حقًا. وشعرت في شيء من الكدر، أن ما زاد من عدم حبها للجماهير، أنها نجحت فيما فشلت هي فيه.

كان سميدلي يحضر بعض الشطائر الإنجليزية الساخنة، وهو يقوم على خدمتهما، وقد ذهب إلى بيرت ووقف منحنيًا إلى جواره ووجهه المحمرّ ملؤه الإخلاص والتفاني. قال له بيرت: «المزيد من الزبد يا سميدلي».

أجابه: «نعم يا سيدي، في الحال»، وهرع سميدلي لإحضار الزبد. كانت تعتقد أن سميدلي ببساطة يلهث من أجل تلبية كل رغبات بيرت، ولا داعي للتظاهر بأنها لا تعلم أنه كان ليضحى بحياته من أجل بيرت. وهنا، يطرح السؤال نفسه مجددًا: لماذا؟ ولا جواب؛ ذلك أنها نفسها قد أجلت قرارها بشأن كل شيء من أجله.

حسنًا، كان ذلك فقط من أجل العدالة. أليس كذلك؟ لقد جعلت جُلّ همها فقط أن ترى العدالة تتحقق.

تقاطع مع خط أفكارها صوت بيرت، وهو يقول بمرح: «اخرج يا سميدلي، وأغلق الباب، هل تسمح؟ فأنا أريد أن أقبل زوجتي».

ألقت نظرة خاطفة على سميدلي، سيكون في حالة مزرية من الارتباك والحرج، حتى أن وجهه قد تحول تقريبًا إلى اللون الأرجواني. ولكن -لم يكن ذلك حرجًا- بل لأنه أراد أن يضحك!

«نعم يا سيدي!»، انطلقت الكلمات من فمه وهرع نحو الباب.

فصاحت به وهي تغالب الضحك أيضًا على الرغم من أنه ضد إرادتها: «أوه يا بيرت!».

كان واقفًا على قدميه قادمًا نحوها، كلا، لن تسمح بالمزيد من هذا النوع من الأشياء مجددًا. فقالت بتوسل: «لا يا بيرت، أرجوك، ليس الآن».

فسألها: «ألا أستطيع أن أُقبِّلَكَ ثانيةً؟».

عادت تكرر: «لا، أرجوك، ليس الآن». كانت مضطرة لإعدادة قليلًا، فلم يكن لائقًا أن تتنازل له الآن، بينما من المحتمل أن تحرمة لاحقًا كل شيء، على الأقل ينبغي أن يعلم بشأن حيرتها وترددتها، وسبب تأجيلها لنهاية الأمر.

فسألها: «ولم لا؟ أنا أحبك، أليس كذلك؟ أنا أحبك، ألا تحبينني أيضًا؟».

قالت له: «فقط لا أشعر أن لديَّ الرغبة في أن تُقبِّلَني».

سألها: «ألسِتِ غاضبة مني من جديد؟».

هزت رأسها نفيًا، ورأت عينيه تتألقان بالضحك مجددًا.

«لأنك لا تحتاجين لأن تغضبي يا كيت. لم أكن أنتوي أن أخبركِ، ولكنني سأفعل رغم كل شيء. فلا حاجة بكِ للاهتمام بأمر لي لي، فهي سوف تتزوج». وتحطمت ابتسامته العريضة فوق نظرتها إليه وهو يقول: «إنها سوف تتزوج ريكسي!» ظلت تحديق فيه، ولم تستطع أن تمنع نفسها من أن تنفجر ضاحكة، لم تكن تضحك مما يقوله بيرت، ولكن

من كل شيء، ومن نفسها أكثر من أي شيء، لتفكيرها بشأن بيرت. صاحت به وقد ملأت الدموع عينيها: «لا يا بيرت! ليس معقولاً!».

أجابها: «نعم، لم أكن أنوي أن أخبرك، فقط لأعاقبك يا كيت، ولكن لِمَ لا بحق الجحيم؟ أليس هذا مضحكاً؟ ذهبت خلفه حتى قبل أن يصل إلى بيته، وقت أن كان الجميع يثيرون ضجة وجلبة من حوله احتفالاً به، وسوف يحصلان على جناح صغير بأثاث حديث يا كيت، جميل بقدر ما يمكن».

لماذا تستمر بالضحك؟ كم كان كل شيء سخيفاً! كان يضحك أيضاً، مستمتعاً بما حققه من نجاح معها.

ثم صاح بصوت هادر: «إذن لن شعري بالغيرة بعد الآن يا كيت!». لا فائدة، من المستحيل أن تقدم على محاولة أن تخبره بأنها لم تشعر بالغيرة للحظة واحدة من أجل أي شخص! كما أنه لن يفهم أن معاناتها لم تكن يوماً بسبب لي لي، ولكن بسببه، هو ذاته.

توقفت عن الضحك أخيراً، وقد استحال إلى ما يشبه النشيج، ثم تنهدت وجففت عينيها، قائلة له: «يجب أن أوقف هذا العبث وأذهب لمقابلة السيد بريم يا بيرت».

لماذا إذن؟ وكل شيء سوف يتحول في النهاية بفضل الحظ لصالح بيرت، أيّاً كان ما ستفعله. حتى العدالة ذاتها لن تفلاح معه.

عادت تقول بصوت مرتفع: «لست أدري لم أزعج نفسي، حتى إذا كان من أجل ذلك، ومن المحتمل أن يكون كل شيء على ما يرام».

فقال لها بإلحاح: «أوه يا كيت، من الأفضل أن تذهبي، كنت لأذهب بنفسي، ولكن فقط لأنك ستقومين بذلك بشكل أفضل».

كان يبتسم لها، فقالت موافقة: «حسنًا إذن».

فعاد يسألها: «والآن هل ستقبّليني؟». ودون أن ينتظر منها الموافقة انحنى نحوها، ومن جديد شعرت بتلك النضارة والعدوبة في شفثيه، فكانت للحظة عاجزة أمامه، بعد ذلك استعادت وعيها مجددًا، على الأقل لن تستجيب لقبلته! فوقف ثم قال: «أظن أنني سوف أخرج لفترة»، ولم يلاحظ أنها قد انسحبت.

كانت تجلس بمفردها في مكتب السيد بريم الهادئ الصغير، قبل أن تعود وتتمالك نفسها مجددًا بشكل كامل. ولم يكن بعد قد انتهى من تناول غدائه، وكان موظف الآلة الكاتبة، وهو يسحب شطيرة من حقيبة ورقية، قد سمح لها بالدخول وأحضر لها مقعدًا في المكتب الداخلي، ثم عاد مجددًا إلى حقيبة طعامه الورقية. ووسط الصمت، سمعت كيت حفيظًا يشبه خشخشة فأر، وأصواتًا خفيفة سريعة لشخص يزدرد شيئًا.

أدارت عينها في الحجرة، لتجد صورة فوتوجرافية كبيرة لبيت موقعة منه ومحاطة بإطار، قد علقها السيد بريم أعلى مكتبه، كانت أكبر الصور جميعًا وأكثرها وضوحًا، ولا يزال بيت يبدو مثل هيئته بها تمامًا. كم من السنين يجب أن تمر قبل أن يحدث أي تغيير في ذلك الوجه الشاب الخالد؟

فُتح الباب ودخل منه السيد بريم، يجفف شاربه بشيء من الحماس .
«في الحقيقة يا سيدة هولم لا أعرف كيف أعتذر منك عن تأخري
بهذا الشكل . فأنا نادرًا ما أتخلف لتناول وجبة، خاصة في منتصف اليوم .
أؤكد لك أن البرقية قد جاءت منذ ما لا يزيد عن ساعة» .
فقالت له : «لم آت إلى هنا من أجل برقية» .

بدت علامات الابتهاج على وجه السيد بريم الشاحب الذي بدأ
يشع بالسرور : «حسنًا، فأنا إذن حامل الأخبار الجيدة!» ، ثم تناول برقية
من جيب سترته الداخلي وشرع يقرأ : «عزيزتي، السيدة هولم» ، قالها
بدفء غير معهود حتى إنها فُوجئت بذلك التغير الذي صنعه دفء
صوته في عينيه الضيقتين الشاحبتين . «عزيزتي السيدة هولم، ها هي
مكافأتك، كنت قد سمعت الكثير من الشائعات عن هذا ولم أقل شيئًا،
فلم أشأ أن أزيد الآمال فقط من أجل أن أحطمها، لا أحد يعلم في حقيقة
الأمر، ولكنني أعتقد أن التصويت كان متقاربًا للغاية بينك وبين زوجة
الرئيس . اسمحي لي أن أهتلك على هذا الشرف العظيم المستحق، أيتها
السيدة هولم!» .

تناولت البرقية من يده المتحمسة وأخذت تقرأها، متعجبة :
«لقد تم اختيارك بالإجماع لاستلام ميداليتنا الذهبية باعتبارك أكثر
امرأة أمريكية ناجحة لهذا العام، اعترافًا منا بمكانتك البارزة كزوجة
وربة منزل لبطلنا القومي المحبوب بيرت هولم .

اتحاد ربات البيوت الأمريكية» .

نظرت إلى السيد بريم، مصعوقة بفعل الحقد والسخافة والسخرية في آنٍ معاً، من التوقيت بالغ الدقة في سخافته، بشأن ما تمسك به في يدها، ما جعلها تهمس: «أهي مزحة؟».

قال لها من قلبه: «في الحقيقة ليست كذلك، بل إنه تقدير رائع، وفي غاية الإخلاص».

قالت له: «أنا لا أريده، ولا يمكنني أخذه»، ووضعت البرقية على المكتب ثم تابعت: «كان عليّ أن أهاتفك بشأن سبب مجيئي، ولكن كان لديّ أمر ملحّ واضطرت للقدوم مباشرة. من فضلك دعنا ننحي هذه البرقية جانباً الآن. فلا بد أن أتحدث بشأن أمر بالغ الأهمية يا سيد بريم».

«نعم بكل تأكيد، إذا كانت هذه هي رغبتك». سعل السيد بريم ثم ربت على شفتيه بمنديله وجلس، ولاحظت أن رائحة شرائح لحم الضأن لا تزال تفوح منه. كان يحاول بكل ما أُوتي من سرعة أن يضع موضوع البرقية جانباً.

بدأت حديثها بهدوء: «لست أدري إذا ما كنت تعلم أن جون بيكر بحوزته اتهام خطير ضد زوجي». تعثرت وهي تقول كلمة «زوجي»، وبعد ذلك تابعت حديثها: «إنه يتعلق بموت رونالد براج».

جحظت عينا السيد بريم الشاحبتان قليلاً نحوها، وعلى الفور نسي أمر البرقية تماماً.

«هلا تفضلتِ بالإيضاح سيدة هولم؟ أخشى أنني لا أستطيع استيعاب الأمر تمامًا».

شرحت له بسرعة قدر ما استطاعت الخطابات الأربعة التي قرأها عليها جون بيكر بصوت مرتفع في مكتب والدها. وأخفت عنه، رغم شعورها بالذنب، اشمئزازها في الفندق وهي تتذكر ذلك هذا الصباح.

ثم تابعت: «بالتأكيد هو بريء من تعمد إيذاء رونالد براج».

قاطعها السيد بريم قائلاً: «ما الداعي؟! إنه شيء مريع!»، وظل جالساً في حالة من الكآبة الشديد يحدق فيها. إنه أمر مروّع بكل معاني الكلمة! لقد بنيت الحملة الدعائية الجديدة على حسن معاملة بيرت هولم لرجاله. ولسوء الحظ لا أفترض أن هناك من هو أكثر مصداقية في البلد بأكمله من جون بيكر. وأي شيء سيقوله لسوف يحظى بقبول الجميع. لم يحدث لي شيء كهذا من قبل، لماذا؟ إنه حتى أسوأ مما حدث لتشارلي بيحي المسكين!».

قالت له: «أخشى أنني لا أعرف ماذا تقصد»، بدا السيد بريم أقرب إلى البكاء وهو يقول: «لماذا؟ كل ما بنيت... كل شيء... سوف يذهب جميعه مثل ناطحة سحاب في زلزال! ليس لديك فكرة كيف تكون الجماهير شديدة الخصوصية نحو أبطالها، لا يسمحون لهم بأقل إخفاق يا سيدة هولم. حتى ولو في أقل الأشياء، وإلا فإن البطل ليس ما كانوا يعتقدونه».

بدأت تتحدث: «ولكن الحقيقة...»، قاطعها قائلاً: «الحقيقة ستكون أشد كارثية من أن تُصدق يا سيدة هولم، إلى جانب أن كل

أنواع الحقائق قائمة وموجودة. ولنتخذ بيرت هولم كمثال، إنه موجود، أليس كذلك؟ أنا لا أعني زوجك يا سيدة هولم، بل أعني بيرت هولم الحقيقي، البطل الشعبي، الرجل الذي يعرفه ويحبه الجميع، إنه موجود، فقط لأن الناس تعتقد أنه كذلك».

لم تكن لديه فكرة عما قاله للتو... ليس زوجها، ولكن بيرت هولم الحقيقي.

«لماذا، لأنه يرمز إلى صورة الحقيقة ذاتها بالنسبة للملايين من البشر، بالتأكيد لا تعلمين، لا أحد يعلم سواي، لأنني من رآه وهو يكبر من ذلك الولد ذي الشعر الناعم الذي ظهر للجماهير فجأة، إلى تلك الشخصية العامة التي هو عليها الآن، رجل يؤمن به الجميع، بيرت هولم يستطيع أن يسعى إلى منصب الرئيس إذا ما أراد ذلك على أي لائحة يختارها. سوف يكون حماسيًا ملهمًا بكل تأكيد، والناس سيختارونه بسبب... حسنًا، إليك هنا... ألقِ نظرة على هذه الخطابات يا سيدة هولم. سوف ترين من خلالها ما أعنيه تمامًا، إنه جزء حقيقي من هذه الحياة».

بدأ السيد بريم في حالة من الاهتياج يسحب حافظة ملفات بعد الأخرى، وهو يتابع: «لقد رتبتهم جميعًا تبعًا للولايات يا سيدة هولم، ألاباما، كاليفورنيا، كونيتيكت، لم يرد الكثير من هناك، ديلاوير، جورجيا، كانساس، كنتاكي... حسنًا، سوف تجددين البلد بأكمله هنا، وهناك البعض من الأمريكيين في الخارج. لقد كانت كيفية تصنيفهم معضلة هائلة». توقف ليمنحها ومضة شاحبة من البريق. «ذات مرة

فكرت بأنني سوف أقوم بتصنيفهم حسب الصفات أو الفضائل، وبالترتيب الأبجدي بالطبع، الأشياء العظيمة التي نعتقد أنها لدينا أكثر من الآخرين، الطموح، الألفة، وهكذا ...، حرف الشين كرمز للشجاعة، والبسالة، أنفهمين، الجرأة والقيادة، بعد ذلك الصراحة، ولتجاوز عن حرف الضاد، الطيبة والشرف والحياة المنزلية، أتعلمين، سوف يكون هناك الكثير من هذا بعد حصولك على الميدالية، سيكون هناك الكثير من الرءاء رمز الرومانسية، وسيكون هذا غالباً عنك أنت والسيد هولم وزواجكما المثالي، وهكذا دواليك. حتى أنني قد تلقيت خطابات يمكنني أن أضعها تحت حرف الميم رمزاً للمتعة، كما تعلمين، ولكنني تخليت عن تلك الفكرة باعتبارها ربما رومانسية إلى حد ما بالنسبة لمكتب أعمال».

ضحكت معه ضحكة خفيفة حزينة، بعدها نسيت الضحك: «سيد بريم، لو أن جون بيكر على حق ...».

ظل السيد بريم على حالته من الحماس الزائد: «أنا ذاهب في الحال لأجد جون بيكر يا سيدة هولم، فلا علاقة للصواب والخطأ بهذا الأمر، ومن الممكن الآن أن يكون جون بيكر محقاً بشكل مطلق في شيء ومخطئاً بشكل مطلق في حق رمز قومي كبير مثل بيرت هولم».

شعرت بالذهول: «من فضلك ... يا سيد بريم ...».

ولكنه كان يسكب الخطابات من قلب الملفات بتهور: «من فضلك أنت يا سيدة هولم، إذا كان يمكنك فقط أن تدركي ما أعنيه من أجل نفسك. لا أظن أنك في عجلة شديدة من أمرك، أليس كذلك؟ فقط

اقرئي بعضًا من هذه الخطابات؛ حتى يمكنك أن تدركي ماذا يقولون،
خطابات من كل أنواع البشر، حتى إن هناك خطاب من رئيس الولايات
المتحدة الأمريكية. إذا تفضلتِ فقط بقراءتها يا سيدة هولم، وسوف
أترككِ قليلًا بينما أتحادث مع السيد بيكر. فقد بدأت بالفعل التفكير
في سلسلة محتملة من الأحداث، ألتمس المَعذرة لِإِلحاحي في ذلك
يا سيدة هولم، ولكنني أريد منك قراءة هذه الخطابات حتى يمكنكِ
إدراك طبيعة وخصوصية شعوري بالمسؤولية تجاه كل هؤلاء الناس،
بل وآلاف آخرين ممن يشكلون قناعاتهم ومعتقداتهم بشأن أي شيء
طبقًا لما يقوله بيرت هولم. سوف يتيهون من دونه على أي حال، حتى
يأتي شخص آخر غيره ليحل محله. يمكنكِ بناء شيء ما مثلما فعلت،
وبعد ذلك تدمره فحسب. أرجو المَعذرة يا سيدة هولم، سوف أعود
بأقصى ما يمكنني من سرعة».

أغلق باب المكتب برقة وصارت هي بمفردها. كلا، ليست
بمفردها، كانت هناك كومة عالية من الخطابات فوق سطح المكتب.
لم تمس أي منهم لبرهة، فلم تعد تقرأ أي خطابات من بريد بيرت الهائل
لفترة طويلة. كانت ترى أن ذلك لم يكن سوى اقتحام آخر لحياتهما،
واقتحام لا يمكن صدّه بسهولة كالمتصورين والمراسلين والسائحين
وكل الأشكال المرئية للأشخاص الموجودين على الباب. فالخطابات،
على ما كانت تعتقد دائمًا وهي تمر على الكومة الهائلة منها موضوعةً
على صينية البريد بالردهة، كانت أسوأ من أي نوع آخر، ذلك أنه بما

يعادل ثلاثة سنتات في المرة يستطيع الناس أن يفرضوا طريقتهم فيما وراء الباب داخل المنزل وأن يتقدموا بطلباتهم. وكانت بغاية السرور عندما أراد السيد بريم تلك الخطابات وأصبح من مهام سميدي أن يتفقدوها ليأخذها إليه بمجرد ورودها.

ولكن، رغم كل شيء، تجدها هنا مجددًا، ترقد في انتظارها، فمدت إليها يدًا غير راغبة والتقطت ورقة صغيرة بيضاء من نوع رخيص، تخصص فتاة على الأرجح، أو موظفة. غير أنه لم يكن كذلك. بل كان خطابًا كتبه صبي قعيد، صبي ظل يحلم بالطائرات والطيران بينما يقضي أيام عمره فوق مقعد متحرك وساقاه في حمالات من الصلب. كتبه منذ فترة ليست بالبعيدة، حيث لمحت عيناها التاريخ، كان أثناء قيام بيرت بتسلق قمة بانجابات.

«كل يوم أقرأ في الصحف عن كفاحك في طريق صعودك الجبل، لذا طلبت من والدتي أن تبحث لي عن كتاب في المكتبة عن تسلق الجبال، أتمنى أن أستطيع شراء الكتاب لكي أحفظ به ليساعدني على التذكر، ولكننا فقراء، لذلك ربما لن أستطيع ذلك، ولكنني أريدك أن تعلم أنك تساعدني لكي أظل أقاتل أيضًا، وأن أحاول المشي. كل يوم أقول: 'بيرت هولم يقاتل على طريقته، خطوة بخطوة، وأنا أيضًا أستطيع ذلك'، لذلك أستيقظ من نومي وأتخذ خطوة ثم التي تليها، وأتظاهر بأنني أتسلق إلى جانبك، وعندما أتعرق أفكر في مدى صعوبة المضي بالنسبة لك أيضًا، وعندما أشعر بالألم أظاهر بأنها عضه الثلج، وألجأ إلى فرك ساقِي مثلما تفعل أنت عندما تبدأ بالتجمد».

وضعت الخطاب من يدها، كانت تستطيع سماع صوت الصبي،
فقالت لنفسها بازدراء: «أنا عاطفية جدًا»، ولكنها تناولت خطابًا ثانيًا
وثالثًا.

«عزيزي بيرت، أنت حكيم جدًا، ورائع جدًا، أخبرني ماذا أفعل،
الرجل الذي أحبه لا يحبني».

«بيرت، هل تؤمن بأنه على الرجل أن يظل إلى جوار والدته فقط
لأنها لن تتعلم أن تحب الفتاة التي يريد أن يتزوج بها؟».

«بيرت، لقد فقدت وظيفتي ولديّ ثلاثة أطفال...».

«بيرت، هل تؤمن بأنه سيكون هناك حرب قادمة...».

صوت، يعلو صوتًا، لبشر تصرخ منادية إياه!

تلك هي الجماهير التي طالما كرهتها وخافت منها. لقد رأتهم
وسمعتهم أخيرًا وعرفتهم على حقيقتهم، بشر فحسب، يشعرون
ويتوقون ويبحثون بشكل منفصل عن ذلك الذي يمكنهم تقديسه، ومتى
كان يجب عليهم أن يقدسوا شيئًا فإنه لكونهم بلا حول ولا قوة في داخل
أنفسهم. فإذا هي مزقت تلك الصورة التي صنعوها لتقديسها بالهرب
منه، فكيف يمكنها الفرار مما فعلت؟

جلست بعدها وقد اجتاحت كيائها إدراك مفاجئ للأمر يسع الكون
بأكمله. اتكأت برأسها على يديها وأخذت ترتعد مع تجلّي الصورة
داخل عقلها، وودّت أن تتحب غير أنها لم تستطع ذلك. كانت الدموع
شيئًا ضئيلاً، حتى هي ذاتها كانت شيئًا ضئيلاً أمام ذلك الاحتياج الهائل

والمحزن للتقديس والحلم لتلك الكائنات العاجزة. وفي هذه اللحظة، أتاها اليقين كالقضاء، هائلاً قاسياً بلا رحمة، لن تستطيع أن تنتهك الصورة. لم تكن لتحطم تلك الأيقونة، لن تستطيع أن تقتحم المعبد وتُسقط الإله، لم تجرؤ على ذلك. ذلك أنه حينها لن يبقى هناك سوى الفراغ، الفراغ المروّع للحلم الضائع. كلا، ليس بعد أن مرت هي نفسها بتلك التجربة ذات مرة، بما لا يمكنها معه أن تستدعيها لتحكم بها على أولئك البسطاء. بل إنها أدركت شيئاً آخر، أدركت الآن السبب الحقيقي في أنها لم تذهب إلى نورمان على الفور حتى ولو من أجل الحب، إذ إن نورمان لن يستطيع مطلقاً أن يعيد نفسه، تلك الصورة التي هدمها من ذلك المكان الرفيع حيث كانت ذات يوم تقدسه، مطلقاً! لم يستطع قط أن يكون بالنسبة إليها مجدداً مثلما كان في السابق، إلهاً، حلماً. لم تستطع، تحت وطأة الوضوح الصارم الذي لا يغفر، لكل ما تجلى في ذهنها، وسبق لها أن اختبرته وعانت أيضاً منه بنفسها، أن تدمر حلم كل أولئك الذين يعني بيرت هولم بالنسبة إليهم، الإنجاز، الطموح، الشجاعة، البسالة، الطهارة والعفة، الجرأة، الصراحة، الشهامة والكرم. اندفع عقلها يمر على تلك الكلمات الجميلة الهائلة التي احتفظ بها، مثل الكؤوس المقدسة على مائدة العشاء الأخير، أسمى وأرفع ما يمكن للملايين من الناس مجتمعة أن تتخيله من صفات في إله.

لم تستطع أن تفعل ذلك. وبذات هدوء غروب الشمس في آخر النهار، تخلت عن أملها السري المستقل في النهاية التي اعتقدت أنها يمكن أن تكون. كلا، فلم تُخلق أبداً لتفعل شيئاً كهذا، ينبغي للحلم أن

يبقى كاملاً غير منقوص، وبكل المجد المستتر خلف طبيعته الزائفة. إذ إنه ليس مهمًّا ماذا يكون بيرت هولم في حقيقته، والأقل أهمية هو ماذا تكون هي، وما إذا كانت سعيدة أم لا. إلى جانب أنها لم تستطع أن تجد السعادة على أي حال، ليس إذا قامت بخيانة كل هذه الأصوات. إنها تعرف نفسها جيدًا.

التقطت البرقية التي كانت قد ألقت بها من يدها وشرعت تقرأها مرة أخرى: «لقد تم اختيارك بالإجماع...».

فُتح الباب بقوة ودخل من خلاله السيد بريم، كان يبدو سعيدًا مجددًا.

قال لها: «سيدة هولم! أتمنى أن تكوني قد أعدتِ النظر في ذلك!». سألته: «كيف يمكنني قبولها؟». في الحقيقة كيف يمكن لها ذلك؟ لاحظ السيد بريم ما تشعر به من كرب وضيق، وأساء تفسيره إلى أبعد حد.

جلس على مقعده ثم قال لها بنبرة مهدئة: «سيدتي العزيزة، من الطبيعي بالنسبة لما تتميزين به من تواضع واحتشام، أن شعري بالمبالغة في الإطراء، ولكن صدقيني عندما أخبرك بأن الملايين من الناس سوف يتهجون لهذا العرفان والتقدير لزوجة بيرت هولم. فقط اتركي أمره لي الآن. سوف أضع إطارا مناسبًا لقبولها، وأعمل على تنظيم المناسبة لتقديم الميدالية إليك. لا تُلقِي بالًا لذلك الأمر، عليك فقط أن تتذكري كم من السرور سوف تمنحين الكثير من النساء

المخلصات، اللاتي يعملن بعيداً عن الأضواء في بيوتهن، واللاتي يشعرن بأنك تحقّقين ذواتهن».

استيقظت بما فيه الكفاية من صمتها المبهوت، ولا تزال الورقة الصفراء في يدها، لتحدث نفسها: «إنه يعمل على إعداد الدعاية بالفعل». ولكن السيد بريم كان يواصل حديثه: «ربما يجدر بي لأكون دقيقاً أكثر أن أقول أحلامهن...».

تلك الكلمة المألوفة أعادت إليها وعيها وإدراكها، فوضعت الورقة الصفراء فوق كومة الخطابات، الأحلام! ثم قالت بهدوء: «أياً كان ما تقوله يا سيد بريم».

أحياناً تكون على وشك أن تضحك وتضحك، وأحياناً تكون بمفردها تماماً وتجروّ على البدء بالضحك، حتى أنه ينتهي بشكل حتمي إلى النحيب. ولكن، لم يكن هذا هو الوقت الملائم لأي شيء سوى الماضي قدماً كما انتوت، سألتها: «هلا أكملنا؟».

قال السيد بريم بسعادة: «في الحقيقة، نعم، لقد تركتكِ لوقت طويل، بشكل لا يغتفر، ولكن السيد بيكر كان يريد رؤيتي في الحال، تحدثنا معاً، واستعرضت الأمر بالتحليل من كافة جوانبه، هناك أمور عديدة في الميزان، أخبرته أنني أشعر بالمسؤولية، لست أدري إذا ما كنت قد أوضحت له وجهة نظري بشكل كافٍ يا سيدة هولم. ربما أنا شديد الحساسية تجاه الجماهير، لكنهم يؤمنون ببيرت هولم على نحو ما يا سيدة هولم». جلس ونظر إليها بخجل عبر كومة الخطابات، ثم تابع: «من زاوية أخرى، لا أستطيع أن... أن أسمح لهم... لا يمكن

الاعتماد على مجرد شخص يعبر عن رأيه، كما أنه إلى جانب ذلك، لا شيء سيعيد رجلاً إلى الحياة مرة أخرى».

ف قالت موافقة: «كلا، لا شيء سيعيد ما قد مات».

فقال السيد بريم: «بالضبط، أوضحت ذلك لجون بيكر، وأخيراً رأى أنه ليس لديه دليل حقيقي، وذكر شيئاً عن وعد قطعه على نفسه لك يبدو أنه هو ما حسم قراره. وزال عن كاهلي عبء ثقیل، والآن، حتى إذا ما كان لا بد وأن تتسرب تلك المعلومات بعد فترة من الزمن، بأنه كان هناك... شيء أكثر من مجرد... حادث مشؤوم هناك بالأعلى، فإذا ما تم التعامل مع الأمر بشكل صحيح...».

قاطعته قائلة: «أنا واثقة من أنه كان مجرد حادث يا سيد بريم».

فهتف: «حقاً؟».

قالت على نحو قاطع: «بلا ريب»، نعم كانت واثقة من ذلك، لم يكن بيرت أكثر من مجرد أحمق.

فقال السيد بريم بحيوية: «إذن، يمكنني أن أخوض تلك المعركة». مال إلى الخلف، ثم تنهد وابتسم. وقال على سبيل الملاحظة: «لا مانع لديّ في أن أخبرك بأنني كنت خائفاً منذ ساعة مضت أكثر من ذلك اليوم الذي أتيت فيه إلى هنا وتحدثت بشأن الطلاق. حسناً، ذاك شيء مضى، وها قد حصلت على مكافأتك في هذه البرقية، وإذا ما علم اتحاد ربات البيوت الأمريكية بذلك، فأنا واثق أنهم سيقدرونه منك أكثر وأكثر».

ولكن للحظة، كان ما قاله بيكر احتمالاً مريعاً، رأيت بيرت هولم متهمًا
بـ... بجريمة قتل حتى».

قالت له: «إنه بريء مثل طفل صغير».

قال السيد بريم: «نعم، بالتأكيد إنه كذلك. حسنًا، ربما يتحدث
رجالها، ولكن أمة مليئة بالناس لن تصدق حفة من الرجال. هذا أيضًا
سيمر».

قالت موافقة: «نعم، سوف يمر»، ثم نظرت عبر المكتب إلى هذا
الرجل المتميز، وأدركت فجأة أنه على الأقل سوف يفهم وجهة نظرها.
فقالت له: «رغم كل شيء، الأحلام هي أكثر شيء يجب على الناس أن
تحيا به، وبدافع من الواجب فحسب، لا يمكن للمرء أن... أن يدمرها».
عاد ينظر إليها بسعادة ملؤها الدهول، وهو يقول: «بالضبط، أنتِ
تدركين الأمر».

ولكن ما رأيته حقًا من خلال عينيه الشاحبتين المفعمتين بالعرفان
والتقدير، روحه، تواقًا مثل الآخرين، أكثر ضالة مثل الآخرين من أن
يستطيع تحمل أي تهديد بتدمير الصورة التي صنعها.

عندئذ سعل وغطى روحه، ثم قال بحيوية: «والآن... والآن نحو
البناء».

النهاية